

الموند

مجلة تراثية فصلية

تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة - وزارة الثقافة والإعلام - الجمهورية العراقية

المجلد السادس عشر - العدد الرابع ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م



عدد خاص

غزوة الفرجة
فلاذول ضى العربيه
الحروب الصليبية

المند

WWW.ATTAWHEEL.COM

المورد

مجلة زائنية فصلية



تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - الجمهورية العراقية

المجلد السادس عشر

شتاء ١٩٨٧

العدد الرابع

رئيس التحرير طه زكي الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكت بهنام



الهيئة الاستشارية

الأستاذ كوركيس عواد
الأستاذ عبد الحميد العلوجي
الأستاذ أسامة ناصر النقشبندى

الدكتور فوري حَمودي القيسى
الدكتور عماد عبد السلام رؤوف
الدكتورحاتم صالح الضامن
الدكتور صالح العابد

● عنوان المجلة : دار الشؤون الثقافية العامة - الاعظمية - س . ب ٤٠٣٢ بغداد - الجمهورية العراقية .

● لا تعاد المواد الي اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

غزو الفرنج لمصر والتماثلات التاريخية المعاصرة

لم يكن التفكير بإصدار عددٍ خاصٍّ عن غزو الفرنجة للأراضي العربية ، المصطلح عليه بالحروب الصليبية في كتابات الشرق والغرب ، إلا انسجاماً مع المهمة التي نهضت وما تزال تنهض بها مجلة « المورد » كمجلة متخصصة بالتراث . هذه المهمة التي لم تكن عنايتها بالتراث لتقل عن عنايتها بالمعاصر . ونعني بالمعاصر : التماثلات التي تبرز خلال السيرة التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية للأمم .

ومن هنا فإن موضوع غزو الفرنجة للأراضي العربية ، لم تفرضها حقيقة عانت منها الأمة كثيراً ، وتركنا نهياً لمناهج المستشرقين ومؤرخي الفرنجة أنفسهم ، ومن تابعهم - للأسف - من المؤرخين العرب في رؤاهم وتقديراتهم للغزو ومبرراته وحسب . . بل فرضتها المماثلة التاريخية المعاصرة التي تعاني منها الأمة العربية اليوم . ونعني بهذا : إذا كانت الأمة العربية قد تعرضت لغزو من غربها (غزو الفرنجة) ومن شرقها (غزو المغول) . . فإنها تتعرض في تاريخها المعاصر لغزو جديد مماثل : الصهيونية العالمية ومن يقف معها من قوى امبريالية وذات مصالح في تدمير الأمة العربية وتمزقها : أرضاً وشعباً وتراثاً ووجوداً . . من الغرب . والحمينية ومن يقف معها أيضاً لذات الأهداف من الشرق .

إن كل هذا يفرض علينا إعادة قراءة الأحداث ، والتبصر بالتجربة ، ليس من أجل فهمها وتحليلها وإدراك المخاطر المحدقة بالمصير العربي وحسب . بل ومن أجل وعي عوامل القوة في الأمة التي استطاعت بها ، رغم المعاناة والمرارة والتضحيات الجسام ، أن تصد الغزاة وتفك « الكمأشة » التي أريد بها الاطباق عليها من الغرب والشرق . . فتخرج مضرجةً بالدماء ، ولكن سليمةً مُعافاةً كمن تطهر بالنار وامتنح بالتجربة .

ومن التماثلات في التجربة هذه أيضاً : مثلما تسر الغزاة الفرنجة بالصليب لتحشيد مشاعر الحقد والكراهية ونزعة المغامرة وارتكاب أبشع الجرائم باسم الصليب وتحرير الأراضي المقدسة !؟ والصليب منهم براء . .

ومثلما تسرَّ المغولُ الغزاة بالدين وأخذوه رداءً لقهر وتدمير بلاد العرب والاسلام . . والاسلامُ منهم براء . . نجد الخمينية ، اليوم ، وحليفاتها الصهيونية تستتران بأقنعة مماثلة لاحتلال وسلب الأراضي العربية ووضع السيف في رقاب العرب والمسلمين . . . ولكن مثلما انفضح أمرُ الغزاة الفرنجة والمغول لبشاعة الجرائم التي ارتكبوها ، ونزعة الاحتلال والنهب التي اتصفوا بها . . انفضح أمرُ الصهاينة والخمينيين كغزاة قتلَ مخربين محتلين . . فالغزاة كلُّهم ، ومهما اختلفت أسماؤهم وألوانهم لهم الطبيعة نفسها : قتل ، ونهب ، وتدمير ، وانتهاك للحرية والكرامة والسيادة .

ومثلما وقف البطلان : صلاح الدين الأيوبي في وجه الغزاة الفرنجة ، والظاهر بيبرس في وجه الغزاة المغول . . بقوة وصلابة وبطولة حيث هزموهم شرَّ هزيمة ، كانت فيها نهايتهم . . يقف اليوم القائدُ البطلُ صدام حسين في وجه الغزاة الخمينيين وحلفائهم الصهاينة . . ليحمي الديار والذمارَ ويحفظ للعراق والامة العربية كرامتها وعزتها .

إنَّ عبر التجربة هذه ودروسها أكثرُ من أن تُعدَّ لمن كان له عقلٌ يعي وضميرٌ يتعظ . . لكنَّ الخونة والمترددين والجبناء ومن باعوا ضمائرهم لأعداء الامة وقتلوا أطفالها ومحتلوا أراضيها بثمنٍ بخس ، لا يتعظون بدرسٍ ولا يحفظون لشيءٍ ذمَّةً ، وبالتالي فلن ينالوا سوى لعنة الله والتاريخ والناس أجمعين .

لقد حرصنا ، جهد المستطاع أن نضع حقيقة الغزو هذا (غزو الفرنجة) في المصطلح الصريح ، معنىً ومبنىً ، لعلمنا أنَّ مصطلح الحروب الصليبية الذي وضعه الغزاة ومؤرِّخو الفرنجة أنفسهم ، ليس إلا محاولةً لطمس المحتوى الحقيقي لهذه الحروب الاستعمارية ، كما هو الهدف نفسه حين احتشد الغزاة باسم الصليب ، كما يحتشد الغزاة الخمينيون اليوم ضدَّ العراق والامة العربية باسم الاسلام . . والصليب . . والاسلام بريء من الطرفين .

بقي ان أقول أخيراً : إنَّ مجلة « المورد » التي سرَّني وشرفني والاخوة الاساتذة الأفاضل أعضاء الهيئة الاستشارية الذين بذلوا جهدهم بصدقٍ ومحبة . . أن أحملها أمانةً طيلة ثلاث سنوات ، يسرُّني أن أرجع الأمانة الى من هو أكثرُ مني علماً وفضلاً وقرباً . . وظهرأ قوياً . . ! أستاذنا العلامة الفاضل عبد الحميد العلوجي الذي هو الأب الحقيقي بحق للمورد . حيث ولدت وترعرعت وشبَّت واستوت في أحضانه وتحت رعايته ومباشرته لها بالعين والعقل والقلب طيلة أربعة عشر عاماً . .

طراد الكبيسي

والله وليُّ التوفيق .

الحروب الصليبية دوافعها وبواعثها الممهدة

الدكتور صالح العابد
كلية الآداب / جامعة بغداد

القرنين الرابع عشر والسادس عشر^(١) وأسفرت عن تلك الحملات نتائج غاية في الأهمية « يمكن تشبيهها باستعمار أميركا واستيلاء بريطانيا على الهند »^(٢) وصميت هذه الحروب ، الصليبية ، لأن من شاركوا فيها كانوا يخطون على البستهم عند الصدر علامة الصليب من قماش أحمر رمزاً « لتحرير الأرض المقدسة من أيدي الكفار »^(٣) ! وكان قسم من المؤرخين يعدون الحملات الصليبية فصلاً من فصول الصراع بين العالمين الإسلامي والمسيحي . الفصل الأول منها بدأ عام ٦٣٢م واستمر أربعة قرون ونصفاً ، أي حتى اندلاع تلك الحروب (١٠٩٦ - ١٢٩١) التي هي في تصورهم رد فعل أوروبا المسيحية على التوسع الإسلامي ، وبذلك فإنها تؤلف الفصل الثاني . وبدأ الثالث بأنهباء المشروع الصليبي وانطلاق الإسلام مجدداً بـ (١٢٧٠ - ١٦٨٣) ، وفي خلاله سقطت القسطنطينية في ١٤٥٣ ، وحوصرت فينا في ١٦٨٣ . أما الفصل الرابع ، فيبدأ منذ ١٦٨٣ ، وفيه شهد العالم الإسلامي تراجعاً كبيراً أمام التطور الأوروبي ، وتحولت خلاله الدولة العثمانية إلى (رجل أوروبا المريض) واحتلت أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي^(٤) .

فما الأسباب التي أدت إلى ذلك الصراع الفريد من حيث الأبعاد والزمن بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ؟

يرتبط تعبير (الحروب الصليبية) منذ قرون في أذهان الناس والباحثين بغيظ ديني متطرف وتعصب اعمى اسفرا عن فظائع تفوق التصور ، وكانا سبباً لسفك دماء مئات الالاف من البشر . فقد رافق الحملات الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر وحثية متناهية شملت حتى المسيحيين الشرقيين ، من مظاهرها تقطيع الأوصال « قامت بعض فصائل الصليبيين بتقطيع اللحم البشري إلى شرائح طبخت وأكلت . . . أحراق الأحياء . . . الاغتصاب والذبح . . . حتى أصبحت هذه الفظائع مظاهر لازمت الحملات الصليبية »^(٥) . وعلى نحو عام ، يمكن تحديد قُدر المدى الزمني للحركة الصليبية بين عامي ١٠٩٥ و ١٢٩١ ، أي بين الدعوة إلى الحملة الأولى على الشرق ، وطرد الصليبيين من آخر معاقلهم في بلاد الشام : عكا ، قامت خلالها ثمان حملات كبرى : أربع منها اتجهت إلى الشام هي : الأولى والثانية والثالثة والسادسة ، واثنان إلى مصر هي : الخامسة والسابعة ، وواحدة احتلت القسطنطينية هي الرابعة ، والثانية نزلت بتونس ، وعدد لا يحصى من الحملات الصغيرة « ولم تخل سنة واحدة من سيل المسلحين المتدفق إلى الشرق »^(٦) . بل إن المؤرخين يعدون هذه الحروب قد استمرت بعد التاريخ الذي حددناه لنهايتها ، فالصراع بين العثمانيين وأوروبا هو جزء متمم لها ، استمر بعنفوان بين

وما الدور الذي أدته الكنيسة ، مركز النظام الاقطاعي ، في اشعال أواره ؟ ان القاء الضوء على ذلك يتيح لنا فهم المقدمات والمنابع العميقة للحروب العدوانية التي خاضها الفرسان الاوربيون في المشرق العربي .

بعيداً عن التصور الساذج بان تلك الحروب انطلقت اساساً بسبب الاوضاع في المشرق خلال القرن الحادي عشر نتيجة الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين في اسيا الصغرى ، وما عاناه الحجاج الاوربيون من عنت عند مسيرتهم الى الارض المقدسة ، فانها انبعثت عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي سادت اوربا في القرن الحادي عشر ، واتخذت من استغاثة الامبراطور البيزنطي . ستاراً دينياً للتعبير عن نفسها عملياً وعلى أوسع نطاق.

شهد القرن الحادي عشر توطيد النظام الاقطاعي وتبلوره ، وسادت مؤسساته أرجاء اوربا الغربية لاسيما فرنسا والمانيا وانكلترا ، وفي الوقت ذاته ، أخذت المدن تظهر وتتنامي ومعها بدأت العلاقات التجارية تتطور وترسخ تدريجياً فاتحة الطريق لظهور مدن جديدة .^(١) ولم يقتصر ازدياد النمو التجاري على الريف والمدن في كل بلد أوربي فحسب ، بل امتد الى نطاق اوسع ، بين بعض أجزاء أوربا الغربية ، لاسيما جنوب فرنسا والمدن الايطالية ، ومناطق حوض البحر المتوسط ، ورافق ذلك ، بطبيعة الحال ، تراجع الاقتصاد المحلي Economic Localism الذي كان أبرز سمات الاقتصاد الغربي . فقد كانت (الاقطاعية) هي وحدة الانتاج المركزية مكتفية ذاتياً بما تنتجه Production for subsistence وليس للمتاجرة .^(٢) وتلقائياً ، دخلت النقود حياة المجتمع الاقطاعي^(٣) لتنازع اسلوب التعامل السائد عن طريق المقايضة وتسديد التعهدات الاقطاعية عيناً .^(٤) وقد ادى التوسع المتزايد في استخدام النقود الى تغيير في مستوى حاجات الطبقتين الرئاستين وهما : السادة الاقطاعيون والفرسان النبلاء ، والفلاحون الاقنان فقد كان الاقطاعيون يكتفون بالواردات العينية وأعمال (السخرة) من الاقنان ، ولكن مع ظهور المدن ونمو التجارة ، تعاظمت حاجاتهم وصاروا اكثر طلباً والحاحاً ، وأدخلوا فريضة المدفوعات

النقدية عوضاً عن الضرائب العينية ، الأمر الذي كان مرهقاً الى أقصى حد فيما يتصل بالفلاحين الذين ازدادوا انحداراً ، في أغلبهم ، الى هاوية الفقر المدقع .^(٥)

وكانت الحروب الداخلية المستمرة بين الامراء الاقطاعيين التي عمت معظم أنحاء غرب اوربا في القرنين العاشر والحادي عشر ، عاملاً مهماً في تدهور احوال الريف ، واستشراء الفوضى بسبب فقدان الدولة القوية .^(٦) وزاد من تدهور الوضع سوء المواسم الزراعية بسبب ضروب الكوارث الطبيعية ، فعمت المجاعات أرجاء الريف والجات الناس الى أكل الحشائش والاعشاب لاسيما في اواخر القرن الحادي عشر ، اي في ذلك الزمن العصيب الذي سماه المؤرخون المعاصرون « السنوات السبع العجاف » وهو الوقت الذي سبق قيام الحروب الصليبية مباشرة .^(٧) ويتحدث هؤلاء المؤرخون عن العوز الذي عم الغرب بسبب القحط والكوارث الطبيعية والابوثة الفتاكة . وإذا أضفنا الى ذلك غارات عصابات الفرسان المستمرة ، يمكننا ان نفسر ظاهرة نزوح أعداد كبيرة من الفلاحين المعدمين من قراهم باحثين عن الخلاص الى المدن ، مما أدى الى تطور اجتماعي خطير .^(٨) وكان من نتائج اشتداد مظاهر التقشف والزهد الديني ، وانتشار الخرافات والاعتقاد بالقوى الغيبية والنظرة الى الظواهر الطبيعية وكأنها علامات تدل على القوى الخارقة^(٩) . ان نزعة اشتداد الهوس الديني وروح النسك التي سادت الفئات المتدنية من المجتمع مهمة جداً لفهم أحد أهم أسباب الحروب الصليبية ، فهي تفسر في كثير من النواحي استعداد عامة الناس لفكرة « المأثرة الدينية » .^(١٠)

ان تعاظم الميل الدينية في الريف ، كان نتيجة لظروف حياة الاقنان التي لا نطاق ، ضاعف منها التزاماتهم المرهقة تجاه ساداتهم ، حتى بلغت حياتهم درجة لا توصف من التعاسة .^(١١) فمع كل العوز الذي كان يسحقهم ، كان السيد يستوفي ما يعادل ثلثي انتاج الفن في المانيا مثلاً .^(١٢) وسيطر على الفلاح شعور ، بسبب الجهل العام ، ان بلاياه الاجتماعية والطبيعية ماهي الا عقاب من السماء بسبب

خطايا مجهولة ، ومن هنا انبثقت المشاعر الغامضة بأنه « لا يمكن التخلص من العذاب الدائم الا بطلب الرحمة من الرب عن طريق إجتراح ماثرة بطولية ، بالمعنى الديني ، للتكفير عن الذنوب لأجل غفران الخطايا من نوع الاستشهاد باسم الايمان » .^(١١) وهكذا انعكس التحرق الى الخلاص من اضطهاد الاسياد والسعي الى كسر سلاسل القنانة والانفلات من برائن العوز في ذهن الفلاح ، انعكاساً مشوهاً ، وتحول الى رغبة عارمة في اجتراح ماثرة دينية .

وفيما يتعلق بطبقة الاسياد ، فان الاوضاع الاقتصادية المتدهورة مست مصالحهم على نحو مباشر . فالنظام الاقطاعي ارتبط بالارض ، وبقدر ما يكون الاقطاع كبيراً ، بقدر ما تكون مكانة النبيل سامية في المجتمع . وفي ظل هذا النظام ، كانت المشكلة الكبرى التي يمكن ان تواجه النبيل هو عدم وجود اقطاع أو ارض له مما يجعله عديم الاهمية مسلوب النفوذ .^(١٢) والامر الذي عمق المشكلة ، ان قواعد الارث في المجتمع الاقطاعي ، انتقال الاقطاعية (Hereditary - عصب النظام) الى الابن الاكبر ، بموجب قاعدة (حق البكورة Primogeniture) عند وفاة الاقطاعي ، حفاظاً على الوحدة الانتاجية للاقطاعية من التجزئة .^(١٣) وبذلك لا يرث بقية الابناء سوى الاموال المنقولة كالخيول والاسلحة والالبسة . وكانت النتيجة ، ظهور عدد كبير من الفرسان المحرومين من الأرض ،^(١٤) وهو أمر عمق في السائد من المجتمع ، ولهذا كان امتلاك عقار حلم مثل هؤلاء . ومن الطبيعي ان يلجأوا الى العنف المسلح ، وأصبح القتال حرفة لهم لاصلاح اوضاعهم مبتعدين كلياً عن كل ما يمت الى مؤسسة الفروسية من قيم^(١٥) ؛ اذ عمدوا أفراداً وعصابات الى التجوآب في الاراضي المجاورة والبعيدة ، يهاجمون القرى وينهبون ماتقع عليه ايديهم ، وكثيراً ما كانت ترافق ذلك اجراءات غاية في القسوة ، ومن ذلك ذبح الاسرى الذين لا يملكون ما يفتدون به أنفسهم « وأصبح منظراً مألوفاً في فرنسا والمانيا رؤية قرى تغلفها السنة النار والدخان » .^(١٦) وشملت عمليات عصابات الفرسان قطع الطرق وسلب المسافرين . وتجبرأت بعض تلك العصابات على شن

الغزوات على العقارات الكبيرة ، وكانت الممتلكات الدينية لدى الكنائس والاديرة « الطعم الاكثر اغراء »^(١٧) .

لقد عانى من هذه الغزوات وعمليات النهب الفلاحون والتجار والمسافرون^(١٨) ، ولكن ضرراً اكبر تعرضت له عقارات الكنائس والاديرة ، مما بث القلق في أوساط الفئات العليا من المجتمع الاقطاعي وأجبرها على البحث عن مخرج من المصاعب الناشئة : بوار المواسم الزراعية ، المجاعات ، الأوبئة ، فرار الاقنان وتمرداتهم ، الى جانب لصوصية الفرسان المعدمين والنزاعات بين الاقطاعيين الكبار وتكتلاتهم . ولهذا ساد القلق وعدم الاستقرار الحياة الاجتماعية على نحو شامل ، وكان الناس ينزلون ببعضهم أفدح المصائب بعمليات القتل والنهب ، وبلغ الشر بأوجهه المختلفة أقصى الحدود .^(١٩)

وكانت مصلحة المجتمع الاقطاعي السائد ان يبحث عن سبيل يثبت ويوطد دعائم النظام القائم بان يعثر على طريق لحل المشكلات القائمة المهددة ، ويتيح للاقطاعيين وسيلة تلبي حاجتهم الى امتلاك الاراضي والثروات ، ويخلص الاسياد الكبار من عصابات الفرسان ، والفرسان من مصير من لا أرض لهم . وقد أخذت الكنيسة ، اكبر المؤسسات الاقطاعية وأقواها ، على عاتقها مهمة تخليص الطبقة العليا ، والمحافظة على النظام القائم .^(٢٠)

وكانت الكنيسة « اكبر مالكة اراضي في اوربا » آنذاك اعظم مؤسسات العصر الاقطاعي ، تمتلك مساحات شاسعة من الاراضي معفاة من الضرائب^(٢١) ، وتجيبي الاموال المختلفة ، وأصبح رجال الدين اشبه بالاقطاعيين ، لهم اقطاعاتهم وجندهم الخاص ، وفوق كل ذلك ، مثلت الكنيسة الحصن الروحي للطبقة الارستقراطية عامة^(٢٢) . وعندما أخذ الاقنان في القرنين العاشر والحادي عشر يتمرّدون أو يلوذون بالفرار ، وعندما اشتدت الحروب بين امراء الاقطاع وتزايدت غارات الفرسان المعدمين مسببة الاضرار بممتلكات الكنيسة ، وهددت بالكوارث الانتاج الاقتصادي للنظام الاقطاعي ، شعر كبار رجال الدين بضرورة توطيد مواقع الكنيسة المادية والمعنوية وتحسين

تنظيمها وزيادة قواها ورفع مكانتها عن طريق تقوية السلطة البابوية^(٣١) ، ومنع تدخلات السلطات العلمانية في شؤون الكنيسة وتوحيد أوروبا دينياً تحت زعامة روما^(٣٢) . وبأدركت الأديرة ، أقوى المؤسسات الكنسية من الناحية الاقتصادية والتنظيمية ، الى اجراء اصلاحات مهمة وتحويلات مختلفة هدفها العام توطيد مواقع الكنيسة ورفع مكانتها . وبرز في هذا المجال دور رجال دير كلوني Cluny في برغندي بفرنسا^(٣٣) ، ولهذا عرفت الحركة الاصلاحية باسم (الحركة الكلونية) ، وكان هدفها المركزي اعادة البابوية الى سطوتها القديمة وتحقيق اشراف مركزي على الكنائس الغربية وتقوية الجهاز الكنسي وتدعيمه وربط اطرافه بالمركز العام في روما^(٣٤) . ومن بين الاصلاحات التي قامت بها الحركة السعي الى تقليص العمليات الحربية باصدار ماعرف بـ (الهدنة الربانية Truce of God) يمنع فيها الاقتتال من مساء الخميس حتى صباح الاثنين وأيام الاعياد والصيام^(٣٥) . ان هذا الاجراء الموجه ضد عمليات النهب والسلب التي يقوم بها صغار الفرسان ولانها النزاعات المسلحة بين الاقطاعيين لم يكن له مفعول بين . فكان على الكنيسة ان تجد سبباً اخرى تصون المالكين الكبار من اعتداءات (من لا أرض لهم) ، وتروي ظمأ الفرسان الى العقار والثروة . وما لاشك فيه ان عملية البحث هذه كانت أساساً عملية عفوية اشترك فيها الاقطاعيون والفرسان . وفي كل حالة ، منفردة ، كانوا يتوخون تحقيق اهدافهم القرية دون التفكير في الفضايالكبيرة الابعاد ذات الطابع الاجتماعي والسياسي . ومع ذلك ، كانت اعمالهم التي تملئها اعتبارات آنية تهيء الطريق المؤدي الى ايجاد حل القضية التي تهم الاقطاعيين جميعاً « وهنا عاد دور كبير الى البابوية التي كانت تعزز مواقعها تدريجياً »^(٣٦) ، « وكانت « الدعوة الى الحروب الصليبية واجهة الحركة التي تهدف الى السيادة العليا للبابوية »^(٣٧) .

وثمة عامل آخر أدى دوراً كبيراً في توجيه الغرب الى الشرق العربي هو ظاهرة الحج الى الاراضي المقدسة ، هذه الظاهرة التي انتشرت بقوة هائلة خلال القرن الحادي

عشر .^(٣٨)

كان الحج معروفاً منذ القرن الرابع ، ولكنه كان فردياً في الغلب ، واذا خرجت جماعة للحج فان عدد افرادها لايتجاوز غالباً بضعة أشخاص^(٣٩) . لقد كانت الرغبة في زيارة الاماكن المقدسة المنبثة في اماكن مختلفة من غرب أوروبا احدى سمات العصور الوسطى وغايتها غفران الذنوب ، ولكن (اورشليم) في فلسطين كانت المكان الاقدس ، حيث ساد الاعتقاد بان زيارتها تمحو كل الخطايا ليولد المرء مجدداً ، ولهذا كان (الحاج) يحتفظ بالرداء الذي يدخل فيه الى اورشليم « ليتكفن به عند وفاته ، وبذلك يضمن دخوله فورياً الى الجنة »^(٤٠) . ومن مراجعة لسجلات العصور الوسطى على ما يذكر المؤرخ وارن أولت ، يظهر قيام تحرك ست رحلات حج الى القدس في القرن الثامن واثنتي عشرة رحلة في التاسع وست عشرة في القرن العاشر ، ولكن القرن الحادي عشر شهد انطلاق ظاهرة كثرة الحجاج إذ تحركت سبع عشرة رحلة ، ضمت احداها اكثر من احد عشر الف شخص معظمهم من رجال الدين والفرسان انطلقت من جنوب المانيا في عام ١٠٦٥^(٤١) . وعلى خلاف رحلات الحج السابقة ، ضمت رحلات القرن الحادي عشر عدداً كبيراً من الرجال المسلحين ، فكانت منطلقاً لتجربة « التصدي بالسلح الذي مهد لفكرة تخليص الاماكن المقدسة بقوة السيف »^(٤٢) . ومن الجدير بالملاحظة ، ان هذه الموجة رافقها انتشار توزيع (دليل الحج للاراضي المقدسة) على نطاق واسع ، ومن الطريف ان بعض تلك الكتب والخرائط حددت طبقاً لزعمها : « بدقة موضع استقرار سفينة نوح وسرير الرجل المشلول بل البقعة التي قذف اليها الجحوت النبي يونس » ! وتحولت اهرام مصر في كتب وخرائط الدلالة هذه الى « مخازن يوسف السبعة للغلال أيام سني السنوات العجاف »^(٤٣) !

ومن الطبيعي ان زيادة حركة الحج في القرن الحادي عشر كانت متطابقة مع حركة الانتعاش الديني الذي عبر عن نفسه ببناء الكاتدرائيات الضخمة وحركة كلوني الاصلاحية التي كانت تشجع الاندفاع الى الحج بالوسائل كافة ، ومنها

تشيد الفنادق على جوانب الطرق للحجاج وقيام ادلاء لتنظيم مسيرتهم ، وساعد ذلك ان دخول هنغاريا الى المسيحية في مطلع القرن الحادي عشر قد فتح الطريق البري عبر اوربا الى الشام .^(١١)

ان حركة الحج قد مهدت للحروب الصليبية المجال فكرياً وعملياً ، فقد اسهمت في تعاظم الميول الدينية ونزعة الزهد ، وعرفت الاوربيين على الطرق الى الشرق وعلى الوضع في البلدان الشرقية واججت تعطش الاقطاعيين الى امتلاك الاراضي البعيدة الغنية .^(١٢)

ولم يكن الحج هو الظاهرة الوحيدة التي مهدت للحروب الصليبية ، فالموقف في اسبانيا نتيجة اشتداد الصراع بين الاسبان والعرب كان تمهيداً آخر لها . فقد اشترك بعض الفرسان الفرنسيين في ذلك الصراع الذي عرف باسم (حروب الاسترداد Reconquista) .^(١٣) ففي معركة برباسترو Barbastro (١٠٤٦) اشترك عدد كبير من الفرسان الفرنسيين من دوقتي اكويتين وتولوز على رأسهم الدوق غليوم اكويتين Guillaums of Aquitaine الى جانب الاسبان .^(١٤) واستمر عبور الفرنسيين جبال البرنس لاسيما بعد تدهور وسقوط الخلافة الاموية في قرطبة عام ١٠٣١ . وحينما استولى ملك قشتالة الفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ ، كان جيشه يضم الى جانب الفرنسيين الفرسان الالمان أيضاً . وكان لسقوط هذا المعقل الاسلامي دوي هائل أجب روح الحماسة الدينية في اوربا الغربية . ولكن تمكن العرب من إيقاف زخم الاندفاع الصليبي مؤقتاً بالانتصار العظيم الذي حققه زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين على القوات الاسبانية في معركة الزلاقة الشهيرة (نشرين الاول ١٠٨٦) .^(١٥) ولكن صدى ذلك الانتصار كان حافزاً لمواصلة الصراع ، فتشكلت في فرنسا بعد سنة واحدة وحدات اقطاعية قوية على رأسها دوق برغندي هوغ الاول Hugues وكونت تولوز ريمون دي سانجيل ، أحد أبرز قادة الفصائل الصليبية في الحملة الاولى ، لادارتها .^(١٦)

لم يغب ذلك الصراع عن أذهان قادة الكنيسة الرومانية ، فقد استحث رجال كلوني الفرسان الفرنسيين والالمان بما

يملكون من وسائل على الاشتراك في تلك الحرب ، وبارك البابا حملات الاسبان ومن يشترك معهم لمحاربة المسلمين ، اذ رأت البابوية فيها وسيلة لرفع مكانتها من ناحية ، والتخلص من الفرسان بتوجيه طاقاتهم الى الخارج لحرب الاعداء :

« ان واجب المقاتل المسيحي ان يحارب ضد اعداء البابوية والكنيسة » ، هكذا كان نداء البابا .^(١٧) واحيط المشاركون في الحملات الاسبانية بها لـ « الاستشهاد من اجل الدين والايمان » لانها حرب مقدسة ، واعلنت الكنيسة غفران خطايا كل من يذهب الى اسبانيا « للقتال من اجل الصليب » ، واكثر من هذا ، سمح البابا غريغوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) للفرسان بحق امتلاك الاراضي التي ستنتزع من المسلمين بشرط اعترافهم بالسلطة العليا للبابا على الاراضي المستولى عليها .^(١٨) وبهذا فان حروب الفرسان الفرنسيين في اسبانيا كانت بمثابة (حروب صليبية) قبل انطلاق الحملات الى الشرق ، من حيث المضمون والشعارات ، ومقدمة استهلالية للحملة الصليبية الاولى . ولم تكن اسبانيا وحدها هي التي اجتذبت الفرسان الاقطاعيين ، فمنذ الربع الاول من القرن الحادي عشر ، أخذ اخلاف الفايكنك الاسكندنافيين (من النورمان الشماليين) الذين سبق لهم ان احتلوا نورمانديا في اوائل القرن العاشر^(١٩) ، يندفعون الى مناطق ايطاليا الجنوبية ، وبعد صراع ضارٍ بين العرب وبيزنطة أسسوا هناك عدة امارات اقطاعية . وما بين سنتي ١٠٦١ و ١٠٧٢ استولى النورمانديون على صقلية من العرب .^(٢٠) وفي ١٠٦٦ غزوا انكلترا ، وفي سنة ١٠٧٣ ، انشأ المغامر النورماندي روسل دي بايل Roussez de Bayle ، امارة اقطاعية في وسط اسيا الصغرى لم تدم طويلاً ولكنها كانت الانموذج الذي قامت على غرارها الامارة النورمانية في الشام بعد مرور ربع قرن .^(٢١)

لقد باركت البابوية انتصارات النورماندين واستغلتها في اهدافها السياسية ، وفي كل هذا يتبدى بجلاء الخط السياسي للبابوية وقوامه تنظيم عدوان الفرسان في اطراف

أوروبا الغربية وحوض البحر المتوسط . ولم يقتصر تأييد روما لحملات الفرسان فقط ، بل ساندت المدن الإيطالية التجارية : بيزا وامايفي وجنوة . ففي عام ١٠٨٧ عندما اقتحم اسطول متحد لهذه المدن ميناء المهديّة في تونس وأوقع فيه الخراب ، بارك البابا ذلك الهجوم ، وأرسل اليهم راية القديس بطرس غافرا لهم خطاياهم .^(١١)

وهكذا نجد ان خيوط الحركة الصليبية قد تشابكت مع سياسة الاصلاح الديني التي تصدرتها الحركة الكلونية لترسيخ مكانة البابوية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر بدءاً بالبابا ليو التاسع (١٠٤٩ - ١٠٥٤) ^(١٢) ومروراً بالبابا غريغوري السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) الذي سعى الى توطيد سلطته لا على الكنائس فقط ، بل على الحكام الزمانيين ايضا ، معلناً في رسالته الشهيرة (أمر البابا) انه يحق للكرسي الرسولي تعيين وعزل الاساقفة والدوقات والملوك والاباطرة ، وان كل سلطة لن تكون شرعية الا بقدر ماتحظى بتأييد رأس الكنيسة «مثل العلي الأعلى على الارض» .^(١٣) ومع ان هذه السياسة جوهرت بمعارضة عدد من الملوك ، وحصل أول اصطدام مسلح بين أنصارها وأنصار الامبراطور الألماني هنري الرابع ، لكن الصراع استمر بنجاح متقطع في صالح روما في عهد خلفاء ذلك البابا .^(١٤) حتى وصلت البابوية أعلى درجات سلطتها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر .^(١٥)

ان سعى البابوية الى انشاء ثيوقراطية شاملة في أوروبا دليل على المكانة التي وصلت اليها الكنيسة الكاثوليكية في القرن الحادي عشر ومركزها القيادي روما . وكانت فكرة انهاء استقلال الكنيسة الشرقية الارثوذكسية التي انفصلت عن كنيسة روما في ١٠٥٤ ، جزءاً أساسياً من منهج البابوية لد سيطرتها على اراضي بيزنطة . ولمناسبة هذه المحاولات على وجه الدقة ، ظهرت الخطوط الأولى من مشروع الحملات الصليبية على الشرق^(١٦) التي مهد لها ما تعرضت له الامبراطورية البيزنطية من اخطار خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، لتييح الفرصة المنشودة للبابا للظهور في صورة الزعيم الأعلى للمسيحية بدمج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية تحت ستار محاربة المسلمين وحماية البيزنطيين

واستعادة الاراضي المقدسة في فلسطين .^(١٧)
شكل تقدم السلاجقة الى مشارف آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، بعد أن فرضوا سيطرتهم على أجزاء واسعة من المشرق ، وما اتصفوا به من نزعة قتالية ، خطراً على الامبراطورية البيزنطية مهدداً لكيانها .^(١٨) وفي عهد ثاني سلاطينهم ألب أرسلان أسد الدين أبوشجاع (١٠٦٣ - ١٠٧٢) ، اقتحم السلاجقة آسيا الصغرى وهدفهم الاستيلاء على اراضي الدولة البيزنطية بدلاً من مجرد اغارات محدودة ،^(١٩) فاستولوا على آني وقارص ، قلب ارمينيا البيزنطية والخط الدفاعي الأول عن الامبراطورية عام ١٠٦٥ ، واخضعوا كبادوكيا ووصلوا بعد عامين الى قيصرية .^(٢٠) وقد حاول الامبراطور رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٧ - ١٠٧١) ان يوقف الزحف السلجوقي ، فتقدم على رأس جيش ضخم قدر بـ ٣٠.٠٠٠ رجل ، معظمه من المرتزقة ، لحسم الموقف . وفي ١٩ آب ١٠٧١ ، دارت رحى معركة هائلة شمالي بحيرة وان قريباً من قلعة مانزكرت ، انسحقت خلالها زهرة الجيش البيزنطي تحت سنانك خيول فرسان السلطان ألب أرسلان ، ووقع الامبراطور رومانوس في الأسر .^(٢١)

كانت معركة مانزكرت من الحوادث الكبرى في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، اذ شلت قوى الامبراطورية البيزنطية عسكرياً واقتصادياً بفقدانها ممتلكاتها الغنية في آسيا الصغرى ومهدت لاستيلاء السلاجقة عليها ، واخذت بيزنطة تتطلع الى الغرب الكاثوليكي لانقاذها من الخطر .^(٢٢) وقد حاول البابا غريغوري السابع استغلال مصاعب بيزنطة لتحقيق هدفه في اعادة ربط الكنيسة الارثوذكسية بروما وادراج بيزنطة بالقوة في فلك التأثير البابوي وامتلاك ثرواتها . ويعلق المؤرخ فشر على موقف البابا بقوله : «ظل احتواء الكنيسة الشرقية حلم البابوات ، وهو في جوهره يعبر عن طموح سياسي واقتصادي أدى فيما بعد الى قيام الحملة الصليبية الرابعة بالاستيلاء على القسطنطينية» .^(٢٣) واتخذ البابا من طلب الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨) النجدة ، وتعهد به بازالة اسباب الخلاف

بين الكنيستين، منطلقاً للدعوة الى تنظيم حملة عسكرية يشنها الفرسان على الشرق بحجة حماية المسيحيين من السلاجقة المسلمين. ولكن هذا البابا لم يستطع ان يحقق مقاصده، ذلك ان الصراع الذي اندلع ضد الامبراطور الالماني صرف انتباهه عن بيزنطة.^(١٨) ولكن الاستعدادات التي قام بها غريغوري السابع لشن حرب كبيرة «لحماية بيزنطة» كانت نقطة انطلاق مهمة للخطة التي تكاملت فيما بعد في عهد أقرب خلفائه البابا اوربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩) لأجل تنظيم حملات الغزو للشرق. وهنا ساعدت الأوضاع التي قامت في المشرق العربي في العقد الأخير من القرن الحادي عشر على وضع الخطة موضع التنفيذ. فقد تداعت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان ملكشاه في ١٠٩٢، وانقسمت خمسة كيانات متنافسة، الى جانب عدد من الامارات المحلية الصغيرة المتناحرة.^(١٩) فهيا التفتت والانقسام الكبير الذي كانت تعاني منه هذه المنطقة، على قيام الهجمة الصليبية ونجاحها.^(٢٠)

ومن الجدير بالذكر هنا ان المسألة التي استندت اليها البابوية في تحريض الاوربيين على الاشتراك في مشروع الحملات على الشرق وهي: «تعديات السلاجقة على المسيحيين»؛ يمكن تصنيفها ضمن مجال الدعاية «لكي تسهم الاشاعة عن الخطر الذي يشكله المسلمون على الاماكن المقدسة في تدفق قوات مسلحة جديدة من الغرب، وهذا الضرب من الاشاعات كان ينطلق وينتشر من روما البابوية»^(٢١) وقد اختلق مدونو الاخبار الغربيون لتبرير تلك الحملات «مختلف الاساطير عن الملاحظات والمطاردات التي قام بها السلاجقة ضد المسيحيين في البلدان الشرقية والحجاج المتجهين الى القدس»^(٢٢). وانساق وراءهم عدد من المؤرخين فرأوا ان ذلك هو السبب الجوهري للحملات الصليبية وهذا يعني انهم، رغبة منهم في تفسير منشأ الحرب، نقلوا مركز ثقل الاحداث التي استتبعته الحروب الصليبية، الى الشرق. ويعلق البروفسور زابورف على ذلك بالقول: «ان هذا التفسير للاحداث لا يتطابق البتة مع الوقائع التي قررها المؤرخون المسيحيون القروسطيون، فان

السلاجقة لم يكونوا يتصفون اطلاقاً بالتعصب الديني الاعمى. حقاً ان فتوحاتهم رافقها هلاك الناس وآلامهم كما رافقها الدمار، اي رافقها كل ما يرافق اية حرب كانت. ولكن هذا لم يكن له البتة أية علاقة بالدين المسيحي. فحيال ذوي الاديان الاخرى، انتهج السلاجقة تلك السياسة الوفية التي استقرت منذ زمن الفتوحات العربية. ذلك ان المسيحيين، شأنهم شأن اليهود، هم بموجب تعاليم الاسلام مؤمنون من أهل الكتاب... لهم حرية ممارسة طقوسهم... بل انهم كانوا يشغلون المناصب المختلفة في الدولة الاسلامية. وقد واصل السلاجقة تقليد التساهل هذا ولم يفرضوا اية عقبات جديدة في وجه المسيحيين تعيقهم في شؤونهم الدينية... وفضلاً عن ذلك، عني الفتح السلجوقي بالنسبة لذوي العقائد المسيحية في اسيا الصغرى (الارثوذكس، المونوفستيين، النسطوريين، الغريغوريين وغيرهم، نوعاً من خير ونعمة، اذ تخلصوا من مظالم البيزنطيين الدينية والضرائبية. وهكذا على نحو مطابق تماماً، يوضح الاوضاع المؤرخ الارمني متي الزهاوي (ت ١١٤٤) وميخائيل السرياني (ت ١١٩٦) والمؤلف المجهول لكتاب (تاريخ بطاركة الاسكندرية) وغير ذلك من كتب المؤلفين المسيحيين الشرقيين... ان الاقاويل عن آلام المسيحيين الشرقيين في ظل حكم السلاجقة، وعن العقبات التي أقاموها في وجه الحجاج، هي بقدر كبير اختلافات غير صحيحة تفتق عنها خيال كتاب كنسيين أحدث عهداً اليها»^(٢٣)

لقد أصبح الرأي السائد في اوربا الغربية في العقد الأخير من القرن الحادي عشر صالحاً لتحقيق «حلم البابوية» باستغلال الوضع القائم للعلاقات الدولية لتبلغ هدفها بتأسيس دولة ثيوقراطية عالمية. فالجو العام في الغرب ازداد تفاقماً، ومصاعب الفلاحين في غضون «السنوات السبع العجاف» بلغت الذروة، والاستياء عم الفئات الدنيا من المجتمع الاقطاعي سنة بعد اخرى، وكان الفرسان (المعدمون) ينهبون ويسلبون بجموح متزايد، وكان عدم الثقة بالغد يستحوذ بصورة أقوى على الاسياد الكنسيين

والدنيويين ، في مثل هذا الوضع تسلم البابا اوربان الثاني في آذار ١٠٩٥ نداء بالاستغاثة من الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (١٠٨١ - ١١١٨) يطلب فيه المساعدة العسكرية من الغرب .^(٧١) وقد وردت نصوص مختلفة لرسالة الامبراطور ، ولكنها ركزت بجملتها على « وحشية الاثراك » و « الخطر الداهم المهدد للمسيحية »^(٧٢) وحركت هذه الرسالة البابا على انتهاز الفرصة بالاستجابة الفورية لها .^(٧٣)

توجه البابا الى فرنسا وقد اختمر لديه منهج واسع لتوحيد الفرسان وتحريكهم الى الشرق تحت شعار مساعدة بيزنطة و « تخليص قبر السيد المسيح » وقام بزيارة الاديصرة الكلونية ، وكان سابقاً رئيساً لدير كلوني ، فاجرى محادثات اولية مع كبار رجالها بصدد التحضير للحرب المقبلة . واجتمع خلال جولته بشخصيتين مهمتين : اسقف مدينة بوي اديماريدي مونتيل Ademard de Montiel الذي اصبح فيما بعد القائد الروحي للحملة الاولى على انه يمثل البابا ،^(٧٤) والثاني ، ريموند الرابع كونت تولوز ، اكبر اقطاعي جنوب فرنسا ، الذي عُدّ احد اهم القادة العسكريين للحملة المقبلة وان لم يعين رسمياً قائداً لها .^(٧٥)

استقطبت جولة البابا في فرنسا الاهتمام من الاوساط كافة ، ولهذا حينما اعلنت الدعوة الى عقد المجمع الديني في مدينة كلير مونت لمناقشة المسائل الكنسية المختلفة ، توافد الى هذه المدينة آلاف من رجال الدين والفرسان وعدد كبير من النبلاء الاقطاعيين وأتباعهم ، الى جانب عدد هائل من عامة الناس .^(٧٦)

استغرق عقد المجمع اسبوعاً (١٨ - ٢٥ تشرين الثاني ١٠٩٥) وبحثت فيه موضوعات مختلفة تتعلق بالكنيسة ورجال الدين ، ومنها تحريم (السيمونية) اي المتاجرة بالمناصب الدينية ، وتأكيدها مراعاة قاعدة العزوبية Celibacy لكونها مطابقة للانصراف الى العبادة وهجر مغريات الحياة ، والهدنة الربانية وغيرها .^(٧٧)

وبعد انتهاء جلسات المجمع الرسمية ، القى البابا اوربان الثاني في ٢٦ تشرين الثاني ١٠٩٥ ، خطاباً حماسياً

امام حشد كبير تجمع في السهل الواقع جوار المدينة ، تميز بأسلوب بلاغي جذاب وعُدّ نداءً للحروب الصليبية وصارت الخطبة « بسبب نتائجها واحدة من أشهر الخطب في التاريخ الاوربي »^(٧٨) .

دعا البابا في خطابه الى حمل السلاح ضد الذين « عاثوا في الديار المسيحية سلباً وحرقاً وقتلاً . . . ودمروا دور الله واستولوا على بلاد تابعة لليونان شاسعة الامتداد . . . » وحاول البابا ان يصور الحرب على انها تهدف الى « استعادة القبر المقدس » ووعد المشتركين بغفران الخطايا والجرائم « والثواب الابدي في دار الخلود » ! ليس هذا فحسب ، بل ان من يشارك في الحرب سيحصل على منافع مادية محسوسة « ان الارض التي تعيشون فيها الان المحصورة بين البحار والجبال هي أضيق من ان تستوعبكم ، لهذا فانتم تقتلون بعضكم بعضاً وتخوضون الحروب وتسيبون لانفسكم الكوارث والنكبات والجراح المميتة . . . أما هناك ، في الشرق ، فان الارض تسيل عسلاً ولبناً . . . سيروا في الدرب المؤدي الى القبر المقدس . . . فالقدس هي محور الكون ومنطقة خصب وعطاء . . . انها جنة ثانية . . . انتزعوا هذه الارض لانفسكم . . . ان من لهم الحزن والفقر هنا سيكون لهم الفرح والغنى هناك . . . ابعادوا الهواجس المشبطة عن افكاركم ، فلا خوف على اموالكم وعوائلكم لانها تحت حماية الكنيسة . . . »^(٧٩) . لقد كان البابا يعرف جيداً من مخاطبتهم ويتعامل معهم ، فهؤلاء الفرسان المرتزقة لم تكن الغبطة الابدية في الجنة السماوية تكفيهم ، فقد كانوا يتحرقون لامتلاك العقارات والاموال ، ولهذا كان على البابا ان يوجه الى الشرق تطلعات هؤلاء الفرسان المعدمين ، فقد هباً لهم ضالتهم المنشودة : « الثروة والمغامرة واظهار التقوى ، فما الذي يطمح اليه المرء اكثر من هذا ؟ »^(٨٠)

ولد خطاب البابا اوربان الثاني نتائج فورية مباشرة « لم يسبق ان حققها أي نداء آخر سجله التاريخ »^(٨١) وانطلقت الى عنان السماء هتافات مدوية « هذه هي مشيئة الله Deus LOVOLT التي أصبحت شعار الحملة المتوجهة الى الشرق ، فحدد لها منتصف آب ١٠٩٦ على ان تكون القسطنطينية

نقطة التحشد والانطلاق .^(٨٦)

ولم يكتف البابا بما حققه في كليرمونت ، وإنما أخذ يتنقل بين المدن الفرنسية داعياً إلى الحرب ، وأرسل مبعوثين إلى جنوة وبيزا حيث رحب كبار رجالها بالفرصة لما سيتحقق لهم من أرباح تجارية كبيرة ، وشاركت سفن المدينتين الحربية فيما بعد بنقل القوات والمؤن والسلاح وحصار الموانئ السورية .^(٨٧) « وما له دلالة ، أن تمويل قيادة الحملة الأولى جاء كله تقريباً من الإيطاليين » .^(٨٨)

لقد استجاب إلى دعوة الحرب خليط عجيب من الناس وصفهم المؤرخ روبنسون قائلاً : « المؤمنون بثواب الآخرة ، الخياليون والمغامرون طلباً للكسب والثراء ، النبلاء والتجار الذين يبحثون عن مجال جديد للاستثمار ، الشذاذ الذين وجدوا ضالتهم للتخلي عن مسؤولياتهم ، والاقنان للتححرر من عبودية الأرض ، والمجرمون هرباً مما اقترفت أيديهم »^(٨٩) . ووصف مؤرخ آخر اعتماداً على مدوني الأخبار المعاصرين بعض من اشترك في الحملات بقوله : « رعايا الغرب ruffraff هو افضل وصف لأمثال هؤلاء : جرذان أرصفة تحميل السفن ، لصوص البر ، وقراصنة البحر ، المتسولون ، الدجالون المشعوذون ، المغامرون ، السجناء المطلق سراحهم ticket-of-leave الهاربون من العدالة ، المجرمون السابقون وحثالات أوروبا »^(٩٠) .

عاد البابا أوربان الثاني بعد جولة في فرنسا إلى إيطاليا في نهاية سنة ١٠٩٥ ، بعد أن ضمن نجاح مشروعه . وتجهّأت حملتان إلى الشرق ، الأولى عرفت (بحملة الفقراء) بقيادة بطرس الناسك ووالتر المفلس ، تحركت في نيسان ١٠٩٦ ، وعاثت في شرق أوروبا والقسطنطينية وآسيا الصغرى فساداً ، إذ ارتكب رجالها ضد المسيحيين في المناطق التي مروا بها الأهوال والمبازل ، وانتهت بكارثة قبل أن تصل إلى الديار المقدسة .^(٩١) وتحركت الثانية التي عرفت بحملة الأمراء أو الحملة النظامية في آب ١٠٩٦ ، وهي التي وصلت إلى القدس في حزيران ١٠٩٩ ودخلت المدينة بعد حصار قصير ، راسمة طريقها من أوروبا إلى فلسطين بالدماء . وقامت في المدينة المقدسة بانزال إحدى أفظع المجازر في

التاريخ البشري .^(٩٢) ولا نرى في هذا وذالك علاقة وثقى بأي دين سماوي ، وما يؤكد ذلك ، أن الغزاة لم يفرقوا بين دين وآخر حينما قاموا بمجازرتهم والنكبات التي لحقوها بالمسلمين والمسيحيين الشرقيين . وما له دلالة أن مدوني الأخبار المعاصرين من المسيحيين العرب كميخائيل السوري والمؤرخ المجهول سجلوا ، كما يقول الباحث سميل : « فقرات تشهد على أن اللغة المشتركة والجنس المشترك اللذين اشتركا فيهما مع المسلمين ، شكلاً رابطاً أقوى من العقيدة المسيحية التي اشتركا فيها مع الأفرنج » .^(٩٣)

الهوامش

(١) لتفاصيل أقوال شهود عيان رافقوا الحملة الأولى ، راجع : Norman Daniel the Arabs and Med. Europe, (London, 2nd ed., 1979) pp. 127-138.

(2) James Harvey Robinson, An Introduction to the History of Western Europe (Boston, 1907) P. 187.

(٣) عن الحروب الصليبية بين العثمانيين والأوربيين ، انظر : Stanford J. Shaw, History of the Ottoman Empire, vol. I: Empire of the Gazis (Cambridge, 1976) pp. 33-4, 50-4, 70-3.

(4) Robinson, p. 187.

(٥) يجب أن نذكر أن مصطلح (الحرب الصليبية) لم يستخدم من معاصري تلك الوقائع ، ففي العصور الوسطى كان يشار إلى هذه الحروب بتسميات أخرى منها : الأرتجال ، التجوال ، الحملة ، الطريق إلى الأرض المقدسة ، السير على درب الرب . وظهر مصطلح (الحرب الصليبية) أول مرة في بداية الربع الأخير من القرن السابع عشر ، حينما استخدمه المؤرخ الفرنسي لويس ميسور ، مسمياً بحشده (تاريخ الحروب الصليبية) سنة ١٦٧٥ . وفي ألمانيا ، يعود التعبير إلى لبسنغ . ينظر ميخائيل زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : إلياس شاهين (موسكو ، ١٩٨٦) ص ١٣ - ١٤ .

(6) Warren O. Ault, Europe in the Middle Ages (Boston, 1948), pp. 332 — 3.

(٧) عن ظهور المدن في مطلع القرن الحادي عشر ونموها ، راجع : Robinson, pp. 237-49; Ault, pp. 363-96;

Mark Bloch, Feudal Society, trans. from the French by: L. A. Manyon (London, 1961) pp. 353-5.

(٨) انظر : J. Strayer and D. Munro, The Middle Ages 395-1500 (New York, 1942), pp. 120-1; Ault, pp. 364-5.

(٩) حول هذا الموضوع ، راجع : Bloch, pp. 65-9

(10) Strayer and Munro, p. 121.

(١١) انظر : زابوروف ، ص ١٤ - ١٥ .

(١٢) انظر Bloch, pp. 408-10

(١٣) حول سوء الاوضاع الاقتصادية وانتشار المجاعات ، انظر : زابوروف ، ص ١٥ - ١٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية (القاهرة ، ١٩٨٢) ص ٣٦ ، انتوني ويست ، الحروب الصليبية ، ترجمة : شكري محمود تديم (بغداد ، ١٩٦٧) ، ص ٣٨ .

(١٤) انظر : زابوروف ، ص ١٥ - ١٦ ، W. Thompson, The Middle Ages , (New York, 1931) vol. 1, pp. 427-8.

(١٥) انظر : Bloch, pp. 72-8, 81-7

(١٦) انظر : زابوروف ، ص ١٦ .

(١٧) انظر : Bloch, pp. 260-74, Robinson, pp. 234-8.

(١٨) انظر : Cambridge Medieval History, (New York) vol. 2, pp. 722-3.

(١٩) زابوروف ، ص ١٧ .

(٢٠) عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٤٣ .

(٢١) انظر : Bloch, pp 163-75; Robinson, pp. 107-8; Strayer and Munro, p. 118.

(٢٢) هذا هو السبب في شيوع بعض الالقاب المتطابقة مع وضع هؤلاء الحقيقي (كالعلم) و (الفلس) ! .

(٢٣) عن الفروسية ونظامها ، انظر : د . عبد القادر اليوسف ، المصور الوسطى الاوربية ٤٧٦ - ١٥٠٠ (بيروت ١٩٦٧) ص ١٢٩ - ١٣٠ ؛ Bloch, pp. 312-19

(٢٤) انظر : Ibid., p. 296-8

(٢٥) زابوروف ، ص ١٨ .

(٢٦) للتفاصيل ، انظر : Bloch, pp. 288-9

(٢٧) زابوروف ، ص ١٨ - ١٩ .

(٢٨) انظر : المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٢٩) انظر Henry Pirenne, A History of Europe from the Invasions to the xiv Century (London, 1936) pp. 59-60.

(٣٠) انظر : اليوسف ، المصور الوسطى ، ص ١٣٧ ؛ Robinson, pp. 44-55, 201 Bloch, pp. 348-52.

(٣١) عانت البابوية ، بسبب عوامل متشابهة ، منها الحروب الاهلية وغارات الجرمان والنورمان ، سلسلة من الانتكاسات منذ القرن التاسع حتى منتصف القرن الحادي عشر ، وانفسج المجال خلال تلك الحقبة لتدخل السلطات العلمانية في تعيين البابوات ، قبل ان يصر البابا ليو التاسع (١٠٤٩ - ١٠٥٤) على مبدأ الانتخاب ، وانفسج المجال لظهور (الكورونية الرومانية The Roman Curia) وهو الجهاز الاعلى الذي يضم الكرادلة ويساعد البابا في ادارة شؤون الكنيسة . وعن طريق هذا الاجراء واجراءات اخرى ، بلغت البابوية أوج عظمتها وسطوتها في نهاية القرن الحادي عشر والقرنين الثاني عشر والثالث عشر .

من أفضل الدراسات عن تطور البابوية في المصور الوسطى :

G. Barraclough, Medieval Papacy (1968).

(٣٢) انظر : اليوسف ، المصور الوسطى ، ص ١٣٨ ، F. Ganshof,

Feudalism, Trans. by: Grierson (London, 1984) pp. 215-21.

(٣٣) تأسس هذا الدير الشهير عام ٩١٠ من قبل وليم دوق اكونتين ، وسرعان ما انتشر نفوذه بحيث اصبح اكبر الاديرة الفرنسية وتوزعت فروعها على مختلف الارحاء وبلغت اكثر من ٣٠٠ ديراً تابعاً للمركز ، واصبح اقوى منظمة في انحاء فرنسا . انظر :

Ault, pp. 318-18.

(٣٤) انظر : اليوسف ، المصور الوسطى ، ص ١٤٨ - ١٥٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٢٤ ، Pirenne, pp. 168-17

(٣٥) راجع : Bloch, pp. 412-20; Ganshof, pp. 218-18, Robinson, p. 118.

(٣٦) انظر زابوروف ، ص ٢٠ .

(37) Ault, p. 331.

(٣٨) اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٣٩) عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٢٤ . (40) Ault, p. 331.

(41) Ibid., pp. 331-2.

(42) Watt, p. 50.

(43) Ault, p. 332.

(44) Ibid.

(٤٥) زابوروف ، ص ٢٤ .

(٤٦) بعد الفتح العربي لاسبانيا انسحب بعض نبلأ القوط الى المناطق الجبلية في شمال غرب اسبانيا حيث تأسست مملكة أستوريا Asturias بجمهورية القشتال الأولى (٧٢٩ - ٧٥٧) الذي استغل الوضع الذي احلته سقوط الدولة الاموية في (٧٥٠) وقيام الخلافة العباسية ، فبنت اسس دولة المستعمر التي سعى خلالها الى توسيعها على حساب جيرانهم العرب . ومن هنا يمكن الاشارة الى بلورة حركة الاسترداد واستطاعت انظر Watt, pp. 80-7

(47) Ibid., pp. 50-1.

(٤٨) انظر : محمد عبد الله عنان ، نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين (القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٦) ص ١٨ ، Watt, p. 48

(٤٩) زابوروف ، ص ٢٤ .

(50) Watt, pp. 50-2.

(٥١) زابوروف ، ص ٢٦ .

(٥٢) ولهذا عرفوا ايضاً باسم النورماندين .

(٥٣) للتفاصيل راجع : السيد عبد العزيز سالم واحمد مختار المبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس (بيروت ، ١٩٦٩) ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٥٤) انظر : زابوروف ، ص ٢٥ .

(٥٥) انظر : المصدر نفسه ، ص ٢٧ ، Watt, p. 51.

(56) Watt, p. 50.

(٥٧) انظر : زابوروف ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن دور البابا غريغوري السابع وصراعه مع الامبراطور الروماني راجع : اليوسف ، المصور الوسطى ، ص ١٥١ - ١٥٥ .

(59) Encyclopaedia Britannica (Chicago, 15th ed.) vol. 13, pp. 957-8.

(٦٠) انظر زابوروف ، ص ٢٨ - ٢٩ ، H. A. L. Fisher, A History of Europe (London, rep., 1945), pp. 221-4.

(76) Ault, p. 335; Setton, 2, pp 226—7.

(77) Camb. Med. Hie., vol. 5, p. 273.

(78) Ibid.

(79) انظر : زابوروف ، ص ٤١ - ٤٣ ، Ault, p. 335

(٨٠) انظر : اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٤ .

(٨١) دونت من الخطبة اربع صيغ تتشابه في المحتوى وان اختلفت في بعض التفاصيل الشكلية انظر : Ault, pp 335-8.

(٨٢) ينظر : اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥ ،

زابوروف ، ص ٤٤ - ٤٥ ، Ault, pp. 335-7; Bloch, pp. 295-8; Robinson, pp 188-90.

(83) Bloch, p. 296.

(84) Robinson, p. 188.

(٨٥) اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٨٦) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١٣٧ حبشي، ص ٣٤ .
(87) Ault, p. 334.

(88) Robinson, p. 189.

(89) Quoted in: Ault, p. 337.

(٩٠) عن الفظائع التي ارتكبها هؤلاء في المناطق المسيحية في اوربا واسيا الصغرى ، انظر : اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٥٠ - ٥٧ ، Ault, pp. 337-8 .

(٩١) للتفاصيل انظر :

Ibid., 344-5, p. Pernoud, the Crusades, trans. by: McLeod (London, 1962) pp. 88-90.

(٩٢) مقتبس من : ر . سي . سميل ، الحروب الصليبية ، ترجمة : سامي هاشم (بيروت ، ١٩٨٢) ص ٥٢ .

(٦١) انظر عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٦٢) Cambridge Medieval History (N. Y., 1924), vol. iv, pp. 302-4.

(٦٣) في عهد مؤسس دولة السلاجقة طغرل بك اخترقت قوات سلجوقية آسيا الصغرى واجتاحت قارص في ١٠٥٢ وهاجمت ارمينيا في ١٠٥٤ وكبادوكيا وملطية في ١٠٥٧ وتوخلت بعض تلك القوات حتى سيواس عام ١٠٥٩ . ولكن تلك الغارات لم تكن تستهدف اقامة كيان ثابت داخل الاراضي البيزنطية . انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ٨٥ - ٨٨ .

(٦٤) انظر : المصدر نفسه ، ص ٨٨ ؛ اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢١ .

(٦٥) انظر : Fisher, p. 220; A. vasiliev, A History of the Byzantine Empire (Madison, 1964), vol. 2, p. 355.

أطلق السلطان الظاهر سراج اسيره رومانوس الذي واجه ثمرداً ناجحاً على سلطته واضطر الى الاستسلام فسلم رجال الامبراطور الجديد ميخائيل السابع عيئه .

(٦٦) انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٢ .

(67) Fisher, pp. 222-4.

(٦٨) للتفاصيل انظر : زابوروف ، ص ٣٠ - ٣٢ .

(٦٩) للتفاصيل انظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ص ١١٣ - ١٢٤ .

(70) Daniel, p. 127

(٧١) زابوروف ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ص ٣٣ - ٣٤ .

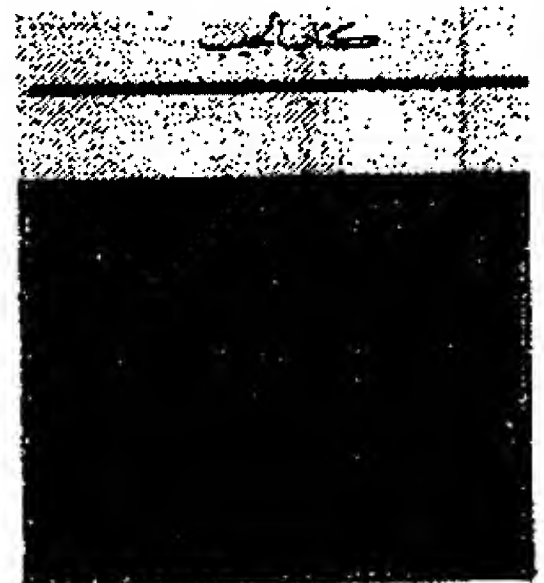
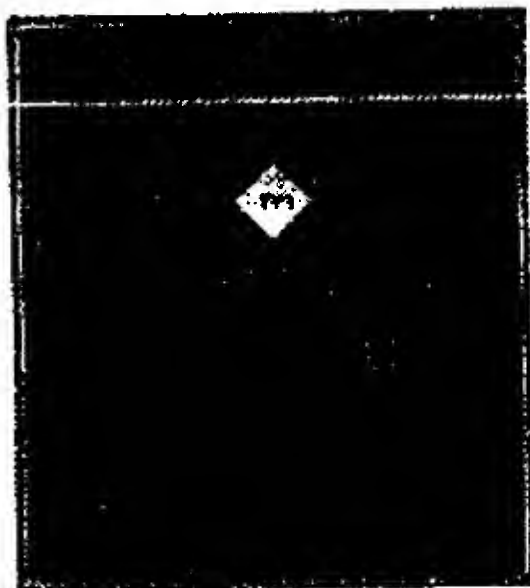
(٧٣) المصدر نفسه ، ص ٣٤ - ٣٦ ، وانظر عن بطلان ما يدعيه المؤرخون الغربيون من الاضطهاد الاسلامي للمسيحيين : عاشور ، الحركة الصليبية . ص ٣٠ - ٣٣ .

(٧٤) انظر : Watt, p. 52; Robinson, p. 188, Ault, p. 335.

(75) Daniel, p. 126.



صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة



معركة حطين دراسة تاريخية عسكرية

عبد الجليل محمد السامرائي
عضو اتحاد المؤرخين العرب

واخذت حملة الصليبيين الاولى نجتاز اوربا حتى وصلت الى القسطنطينية وعبرت المضيق الى آسيا ، وانساب فرسان الصليبيين ميممين شطر سورية وفلسطين ، وكان كل شيء في الشرق العربي في ذلك الوقت يمهد السبيل أمام الغزاة . فكانت الدولة الفاطمية بمصر في أواخر القرن الحادي عشر قد وصلت الى أقصى درجات الانحلال والفوضى ، وكانت الخصومة مضطربة بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية في القاهرة ، وأصبحت الامارات الاسلامية المستقلة في سورية وفلسطين متنافسة متناحرة دون عضد قوي يعصمها وقت الخطر الداهم .

ولما ظهر الصليبيون أمام أسوار القدس في أوائل حزيران ١٠٩٩ م أرسلت اليها مصر الفاطمية جيشاً وولت عليها أميراً من قبلها . ودهم العدو المدينة ، وضرب عليها حصاراً شديداً استمر أربعين يوماً كان العرب طوال أيامها يدفعون الغزاة من فوق أسوارها . لكن العدو استطاع آخر الأمر ، بعد رمي شديد بالمجانيق ، ان يقتحم المدينة . وقتل الصليبيون من أهلها العرب عشرات الألوف . وأرسلوا

(كانت النبال متطايرة في الهواء
تطير طيران العصافير عرقة
بحرارتها ، وماء السيوف [أي
الدماء] جامد في وسط
المعركة ، يغطي الأرض كمياه
المطر) .

- مكسيموس مونروند -

تاريخ حرب الصليب ج ٢ ص ٨٥

في ظلام القرون الوسطى ، جعل راهب فرنسي يطوف أرجاء اوربا على ظهر حمار هزيل وهو حافي القدمين ، وكان يرتدي ثوباً خلقاً ويحمل صليباً كبيراً على عاتقه ويخطب في العامة والدمماء فيكيهم ويذكي نار حقدهم على العرب . كان يبكي حتى تبتل لحيته ، وتتقاطر الدموع من أطرافها وكان يقول للناس : (إن قبر المسيح يدنس العرب ولا بد من تخليصه من بين أيديهم) (١) . . (تقدموا الى البيت المقدس . . . انتزعوا تلك الأرض الطاهرة واحفظوها لأنفسكم ، فهي تدر سمناً وعسلاً . . . انكم اذا انتصرتكم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق) (٢) .



واخذ المهيجون من الرهبان والقساوسة يحثون الناس ويستنفرونهم . وخطب البابا اوربان الثاني في كليرمونت يقول للناس : (اذا انتصرتم فبركة السماء وممالك آسيا نصيبكم) !

وخطب (الراهب سان برنار) وكان خطيبا مصقعا مفوها في حفل حضره ملك فرنسا في مدينة فزلاي في عام ١١٤٦ م يقول : (اسرعوا الى سلاحكم . وليدفعكم الغضب الشريف الى المعركة

واستمرت موجة الدعاية والاستنفار سنوات حتى تجمع في ثغور فرنسا الجنوبية خلق كثيرون ، فهذا « ريتشارد - قلب الأسد - ملك انجلترا بجيشه ، وذاك أمير سكسونيا بفرسانه ، وتجمع فرسان آخرون ومغامرون كثيرون استقلوا عن الملوك والامراء ، وكونوا لأنفسهم فرقا خاصة تعمل لحسابهم ، فهؤلاء فرسان المعبد واولئك فرسان القديس يوحنا وهؤلاء فرسان الهوسبتالية^٣ ، وهكذا . تماما كعصابات السلب والنهب والقرصنة ، لكل منها اسمها وزعيمها .

للبابا يفخرون ويقولون : (ان خيلنا تخوض في دم المسلمين الى ركبتها) . لقد كانت محنة مروعة للعالم العربي بأسره . وانشأ الصليبيون كما أشار البابا (اوربان الثاني) دولة لاتينية في الأرض العربية المقدسة ؛ « لكي نسهر على بيت المقدس ونرقب وثبات العرب في الشرق والجنوب » . وجاء صلاح الدين الأيوبي ، ونهضت مصر في عهده الميمون نهضة رائعة قوية . وكانت فورة العرب وصحوتهم على يديه تنذر باجتياح الدولة اللاتينية التي أنشأها الصليبيون في أرض العروبة ، فلا غرو ان هرع أعظم ملوك أوربا لانقضاء الخطر الداهم ، خطر المارد العربي المنطلق من عقاله . وجاءت أوربا بقضيتها وقضيضها . . . جاءت يدفعها استعمار بغيض تقنع بقناع الدين والنسك . جاءت أوربا بخيلها ورجالها يقودها ملوك وامراء وفرسان وساسة ورهبان لم يتفقوا مرة واحدة في بلادهم على أمر ، ولكنهم اتفقوا للمرة الاولى على اغتصاب وطن العرب ، وكانت حجتهم - وما أكثر ما احتجوا به - انهم انما جاءوا يخلصون قبر المسيح وجدنه من ربة الاسلام !

وأقلعت السفن بين الصلوات والدعوات والترانيم تحمل هذا وذاك ، ورسم القوم ، كما طلب منهم البابا ، صليب المسيح على كل درع وكل سيف وكل شرع ، كما رسموه على أعلامهم وملابسهم ومعداتهم . لقد جاءت أوروبا في مسوح الرهبان لتغتصب أرض العرب .

وهب العرب يدافعون عن وطنهم ، الرسل تتحرك بأقصى سرعة مستطاعة بين بغداد والقاهرة ودمشق ومكة وفاس والموصل ، من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي . وأخذت جيوش العرب تزحف من كل مكان في أقطارهم للتجمع حول دمشق تحت قيادة موحدة عقد لواءها الناصر صلاح الدين ، وكان قد خرج من أرض الكنانة لملاقاة الطامعين المستعمرين المغتصبين الذين جاءوا إلى الأرض العربية المقدسة متكررين في رداء الكهنوت^(١) .

تقدير الموقف

كان الصليبيون قد قسموا فلسطين إلى دويلات وإمارات . منها ما كان يمتد على شاطئ البحر المتوسط ومنها ما كان في داخل البلاد . فكانت لهم مثلاً علاوة على مملكة بيت المقدس ، إمارات في صور وعكا وصيدا وعسقلان وانطاكية وطرابلس والكرك وطبرية . وجعلوا لحظة وصولهم يحصنون دويلاتهم ضد هجمات العرب التي لم تنقطع مطلقاً من يوم دخولهم الأرض العربية . وقد أنشأ الصليبيون القلاع الشائخة والحصون المنيعة التي ما زالت أنقاضها باقية في كثير من جهات سورية ولبنان وفلسطين حتى اليوم .

وكان أول ما قام به صلاح الدين استعداداً للمعركة الفاصلة مع العدو ، هو وضعه لنظام دقيق يكفل جعل العدو تحت المراقبة باستمرار . فأنشأ شبكة من المواقع متتالية بعضها خلف بعض ، كان الاتصال بينها يتم بواسطة مجموعة من الجياد السريعة القوية بحيث كانت الأنباء تصله من أطراف البلاد مرتين كل أسبوع حتى من أبعد جهات سورية . وكانت هناك شبكة أخرى خلاف شبكة البريد

العادية التي كانت الخيل عمدتها ، ألا وهي شبكة الحمام الزاجل ، وكان الحمام ينقل الرسائل من محطة إلى أخرى بسرعة عجيبة حقاً .

ورأى صلاح الدين أن الصليبيين كانت شوكتهم قوية ، وأنهم أن اجتمعوا عليه فإنه لن يتمكن من القضاء عليهم بسهولة . وكان تقدير الموقف^(٢) الذي قام به ينتهي إلى أن المعركة الفاصلة يجب ألا تبدأ مع العدو إلا بعد استعداد دقيق . فأرسل الرسل إلى جميع أنحاء الوطن العربي يطلب أن تجتمع جيوش العرب في جنوب سورية في صيف ١١٨٧ م . وكان صلاح الدين في ذلك الوقت يجمع قوات سورية في حلب ودمشق حتى اجتمع له من أهلها جيش كثير ضمّه إلى جيشه الزاحف من ضفاف النيل .

ولم ينتظر صلاح الدين اكتمال تجمع قواته ليضرب ضربته ، ولكنه أثر أن يشغل العدو في كل مكان بقوات صغيرة قوية حتى لا تتجمع قواته في مكان واحد فتقوى شوكته ، وأمر أسطول المصري فجعل يضرب ثغور الصليبيين ويقطع خطوط مواصلاتهم البحرية مع أوروبا فيحرق سفنهم أو يأسر رجالهم أو يستولي على تجارتهم . بل لقد أرسل إلى ملك المغرب رسالة مؤثرة يرجوه فيها أن يقطع بأسطول المغرب العربي الطريق على سفن العدو المتجهة شرقاً ليخفف الضغط عن أخوانه عرب المشرق .

وأخذ صلاح الدين يصقل سيفه ويحرب جهازه العسكري الذي جمعه من كل أقطار المشرق العربي على وجه التقريب ، ورأى أن يقوم باغارات محددة الغرض منها :

- ١ - مضايقة العدو وبعثرة قواته .
- ٢ - مداومة الحصول على المبادأة والاحتفاظ بها وحرمان العدو منها .
- ٣ - شحذ همّة الرجال واكسابهم المهارة الحربية والخبرة وتعويدهم على القتال بأسلوب العدو وتدريبهم على القتال بالمعدات الحديثة ضد عدو مجهز تجهيزاً عالياً .

٤ - جمع المعلومات عن العدو بمداومة الاتصال به .
ولقد أدرك صلاح الدين بفكره الشاقب ان جيوش
الغزاة انما جاءت من بلاد باردة الجو ، اذ كان معظمهم من
الالمان والتمسويين واللومبارد والايطاليين والفرنسيين
والانجليز . وهؤلاء جميعا اقوام لم يعتادوا جو المشرق العربي
الشديد الحرارة صيفا . فقرر ان يكون اشتباكه الرئيسي بهم
في حارة القيقظ عندما يأخذ الحر والعطش بتلابيب المقاتلين
والخيل .

وكانت اولى معاركه الصغرى لسبر غور العدو
وامتحان قوة جيشه العربي عند (عسقلان) . وكان معه من
القوات جيش صغير لا يزيد عن ٢٦٠٠ مقاتل ، كان
معظمهم عربا سودانيين . وكان لجيش الصليبيين في
عسقلان (٣٧٥) فارسا مدرعا من النبلاء يقودهم فارس
خطير الشأن هو (ريجنالد) = [أرناط] أمير صيدا . وكان
معه أيضا عدد كبير من فرسان المعبد المشهورين بالرغبة في
القتال .

في عسقلان ، قام الصليبيون بمباغثة جيش
صلاح الدين الصغير ، وتمكن فرسانهم المدرعون من
احداث خسائر كبيرة به ، واضطر صلاح الدين الى
الانسحاب وهو يقاتل قتالا تراجعيا قوات تفوق جيشه
إعدادا وتدريباً . ورأى انه خسر المعركة فانسحب بعيدا عن
ميدانها ، وارتد بنظام الى داخل حدود مصر .

كان صلاح الدين قد تعلم من تلك المعركة درسا ؛
ان جنوده كانوا في حاجة الى مران شاق وتدريب طويل . وان
العرب بأسلحتهم التقليدية لا يصلحون لقتال الفرسان
المدرعين من قمة الرأس الى أخمص القدم ، وانهم
لا يعلمون شيئا عن معدات الحصار ومهاجمة القلاع
والحصون .

ولم يأس صلاح الدين ، فقد أرسل الى أخيه
(توران شاه) - وكان قد أمره على دمشق - يطلب منه مهاجمة

العدو وعدم اعطائه أي وقت للراحة . وفعلوا التحمت
(قوات حماة) بالعدو وانتصرت عليه وأسرت منه عددا
كبيرا . ووصل صلاح الدين الى دمشق وبقي بها طيلة فصل
الشتاء .

ورأى الناصر صلاح الدين ضرورة تأمين معابر
الأردن حتى يضمن وجود خطوط اقتراب^(١) سليمة بين مصر
وسورية . وكانت هناك على نهر الأردن مخاضة اسمها مخاضة
يعقوب او « مخاضة الأحزان » ، وكان أحد ملوك الصليبيين
قد أنشأ عندها حصنا . ولقد دمرت القوات العربية ذلك
الحصن واحتلت المعبر كما احتلت قوة اخرى معبرا آخر أهم
بكثير هو جسر الصنبرة .

وأراد ملك القدس ان يسرع الى نجدة زميله فأسرع
بجيشه عن طريق (صفد) ، ولكن صلاح الدين اعترض
طريقه واشتبك به عند (مرج عيون) وشتت شمل جيشه ،
وأسر عددا كبيرا من كبار القوم ، كان من بينهم قائد فرسان
المعبد ، وقائد فرسان الداوية (الهوسبتالينة) وأمير
طرابلس ، المسمى (ريموند) ، وأمير الرملة (بلدوين)
 وأمير طبرية ، وغيرهم . ولقد افتدى بولدوين نفسه فأطلق
صلاح الدين سراحه . وعاد صلاح الدين الى القاهرة في
أوائل سنة ١١٨١ ليستعد للمعركة الفاصلة^(٢) .

وصف طبيعة أرض المعركة

تتصف المنطقة التي دارت في ميدانها رحى معركة
حطين ، بوجه عام ، بأنها منطقة جبلية تكثر بها الأخوار
العميقة والوديان والأخاديد ، ويحدها من الشرق نهر الأردن
الذي يجري في اخدود ضيق منخفض ، وتنحدر اليه من
الجبال روافد كثيرة سريعة الجريان منها اليرموك والجالوت .
وفي شمالي المنطقة الشرقي بحيرة طبرية ، والمنطقة
باردة كثيرة المطر شتاء بحيث تملأ الأنهار والأخاديد بالمياه .
ولكنها في الصيف شديدة الحرارة قليلة الماء فتتعدم المياه في
الوديان والروافد ، ولا تتواجد إلا في الأبار او العيون ،

وهذه لا توجد عادة إلا في المدن أو القرى التي يحتلها العرب وتقع مدينة (صفورية) التي تجمع بها الصليبيون يوم حطين في وسط المنطقة تقريبا . ولم تكن المدينة محصنة فيما خلا برج على تل قريب كان يطل على المنطقة كلها حتى بحيرة طبرية وجبال الجليل . وفي شمالي المدينة يمتد سهل رملي يجري به بعرض المنطقة . فسلك الطريق ما بين عكا وطبرية ، وهو سهل خال من الماء تماما . وكان معسكر صلاح الدين شمال المنطقة عند قرية حطين في مكان تحيط به غابات الزيتون وأشجار الفاكهة . وفي شمال تلك القرية ، توجد عين ماء جارية تصب مياهها في وادي حمام وهو اخدود عميق ينحدر نحو البحيرة ، وبالقرب من القرية يقع تل عظيم مخروطي الشكل اسمه (قرن حطين) ، وله شهرة تاريخية ، ويرتفع خمسون السهل المحيط به بارتفاع قدره ستمائة قدم ، وهذا التل يشرف على المنطقة كلها .

أما المسافة بين حطين - حيث معسكر العرب - وصفورية ، حيث معسكر الصليبيين ، فعشرة أميال ليست فيها قطرة ماء واحدة !

ومن العجيب أن الموضع الذي اختاره صلاح الدين لمعسكره كان من الخطورة بمكان ، إذ أنه كان مشرفاً على سهل واسع في حين كانت الأرض خلفه ممتلئة بالاخاديد العميقة والجروف الرأسية الحادة . وكان كل هذا يشكل خطراً جسيماً جداً للجيش في حالة اضطراره للانسحاب .

والطريف أيضاً ، أن قادة الصليبيين - وكان فيهم بعض أساطين الحرب - كانوا على جهل تام بموقف صلاح الدين بل لقد كان الطريق الذي اختاروه لتقدمهم أسوأ الطرق على الإطلاق ، وكان هناك طريق أفضل ، كثير الماء يهدد مؤخرة جيش صلاح الدين ، وقد يرغمهم على الانسحاب ، ولكنهم كانوا يجهلونه !^(١)

الاستطلاع بالقوة

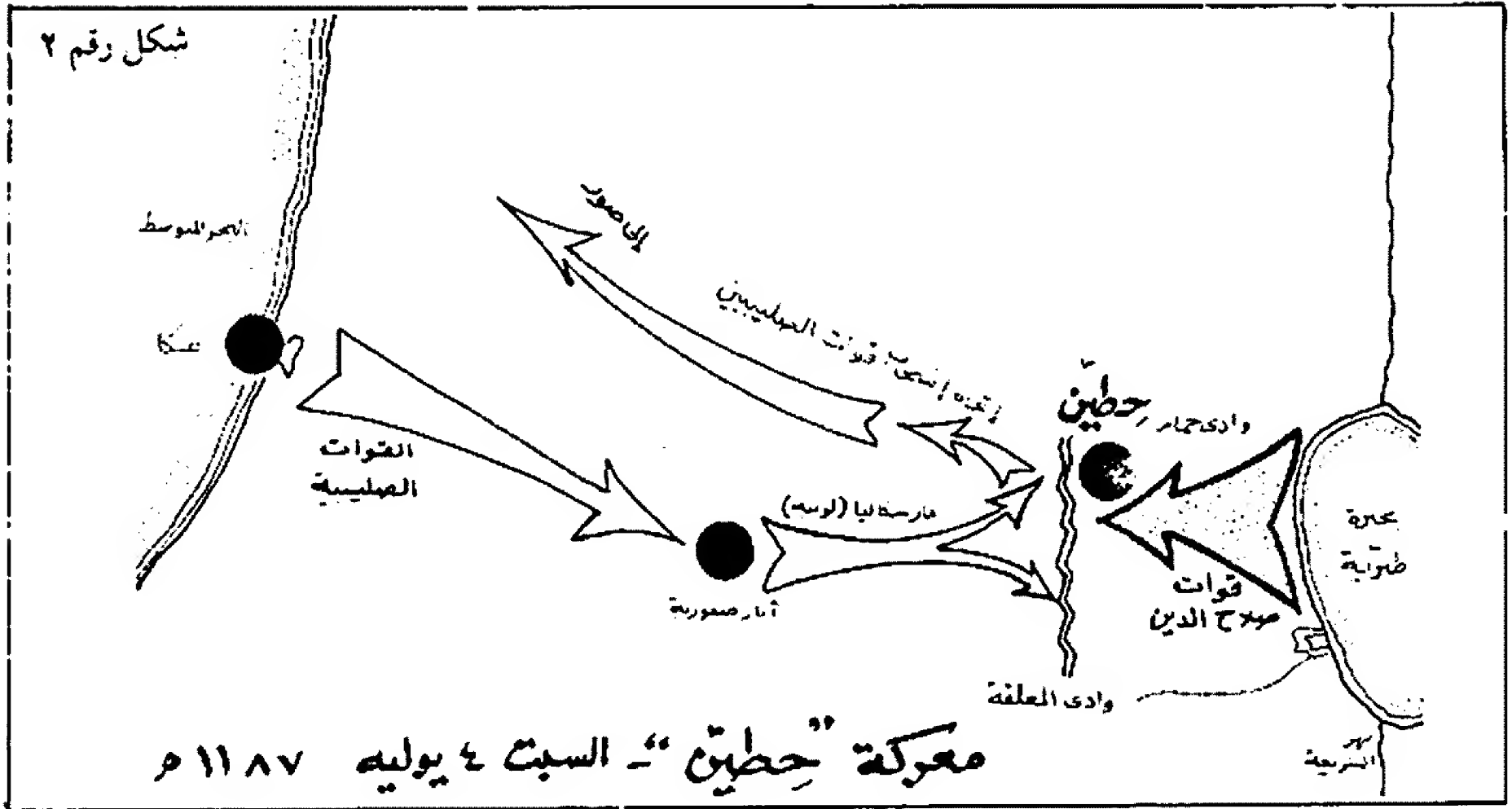
لم يقدم العرب على خوض المعركة إلا بعد أن علموا

ما يريدون علمه عن الأرض والعدو ، فقد أرسل العرب ليلة الأول من مايس (مايو) من عام ١١٨٧ م مفرزة استطلاع بقيادة (مظفر الدين) قائد خيل الجزيرة الذي لقبه الفرنجة (الذئب الأزرق) . وقد بلغ مجموع هذه المفرزة سبعة آلاف خيال^(٢) .

انطلقت هذه المفرزة من (بانياس) وعبرت (الأردن) ليلاً ومرت تحت أسوار (طبرية) وتوجهت باتجاه (الناصرة - صفورية - عكا) ، فمرت بـ (كفر سبت ولوبية وترعان) وتحوّلت في منطقة (حطين) إلى أن وصلت إلى منابع مياه (صفورية) . وقد اعترض المفرزة (جيرارد) بمجموعة من مائة وخمسين فارساً مع مجموعة من المشاة المتطوعين وكان أن احتدم القتال في (عين كريون) التي تبعد ستة كيلومترات جنوب (كفر كنه) وكانت نتيجة المعركة قطع رؤوس جميع الفرسان عدا ثلاثة هربوا^(٣) .

وتعود دوريات الاستطلاع التي أمر بدفعها صلاح الدين ، لتفيد بأن طلائع القوات الصليبية بقيادة (ريموند) قد تجاوزتها ووصلت إلى وادي (المعلقة) - على مسافة ثلاثة أميال من بحيرة (طبرية) - بعد أن شرعت في حفر خنادقها على الميول الأمامية لتل (قرون حطين) - والذي يرتفع ٣١٦ متراً فوق سطح البحر ، وتحتها مباشرة تقع قرية حطين . أما قلب الجيش الصليبي ، فقد اجبر على التوقف جنوبي حطين ، بعد أن عجزت مؤخرته عن اللحاق بالمقدمة والقلب بسبب عنف المقاومة التي أبدتها المفارز الأمامية لجيش صلاح الدين على امتداد الطريق .

تناهت هذه الأنباء إلى القائد صلاح الدين بينما كان يقوم بالاشراف على مواقع قواته التي كان قد زودها بسبعين جملاً محملة بالسلاح ، حتى يأخذ منها من تخلو جعبته من الشباب أثناء القتال ، وترتفع معنويات الجيش العربي ، وقد عبر الناصر صلاح الدين عن ارتياحه بقوله : (جاءنا ما نريد)^(٤) .



التهيز للمعركة

في ظهيرة يوم ٣ تموز (يوليو) ١١٨٧ م ، وصل القسم الأكبر من جيش الفرنج قرية (ترعان) وقرية (لوبة) بعد ان اجتاز المقدمة لها ، ففاجأتها الكمائن العربية على جوانب الطريق وأوقفتها عن التقدم في أرض خالية من الماء^(١) .

لقد حاول الفرنج في هجومهم هذا ان ينفذوا الخطط التي رسموها لأنفسهم ، ويقطعوا الطريق على صلاح الدين وجيشه . واستولوا على ينابيع المياه ، فكان من أمرهم أنهم كلما تقدموا خطوة ؛ وقعوا تحت نيران العرب ، فلم يثبتوا ، وتحيط فرق ببعض فرقهم وتسوقها الى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى^(٢) .

وإذن . . فقد كان هدف القوات الصليبية الرئيسي شطر القوات العربية الى شطرين ثم الحيلولة بينها وبين الماء ثم القضاء عليها بعد تخليص الملكة ومدينة طبرية^(٣) . ولذلك ، سلك الصليبيون طريقا كان مرسوما

بالانطلاق من (صفورية) حتى (ترعان) ثم (لوبة) ثم السير على الطريق الروماني القديم من شمالي (كفر سبت) حتى (الاقحانة) ، وهكذا يحتلون منابع الماء ويقطعون طريق مواصلات العرب . ولكنهم ، بعد اصطدامهم بالكمائن العربية المنتشرة بين ترعان ولوبة (لم يقدروا على بلوغ الماء الذي وراء المسلمين)^(٤) .

وازاء هذا ، طلب بعض المارونات من الملك (غي) اصدار الأوامر الى الجيش بالاسراع ، وان يشق طريقه الى البحيرة ، غير ان الملك (غي) قرر التوقف بعد ان اشتد تأثيره لما حلّ برجاله من التعب والارهاق^(٥) كما ان (ريموند) اقترح على الملك (غي) محاولة التملص من الكمائن ، (والوصول بالجيش الى نهر الاردن او بحيرة طبرية وإلا فالجيش هالك)^(٦) .

وهكذا تجمع المراجع التاريخية على ان الفرنجة أُجبروا على تغيير هدفهم الاستراتيجي ، وهو شطر القوات العربية وقطع خطوط مواصلاتها والحيلولة بينها وبين الماء وتدميرها ،

الى هدف آني ملح وهو الوصول الى الماء بأية طريقة^(١٨) . ولما رأى (ريموند) قائد مقدمة جيش الصليبيين ما وصل اليه حال قواته صرخ بحرقه قائلا : (.. يا الهي ، سيدي الرب ، لقد انتهت الحرب ، نحن في عداد الأموات ، لقد اندثرت المملكة)^(١٩) .

ومن جهة اخرى ، يقول العماد الكاتب الأصفهاني واصفا حال القائد الفذ صلاح الدين وجنده بقوله : (وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب^(٢٠) ، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال ، وان ما فرقه من الشباب أربعمئة حمل ، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى ، يأخذ منها من خلت جعابه وفرغ نشاطه) ... (وأما عساكرنا ، فانها اجترأت ، ومن كل ما يعوق برئت ، فهذا لسانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا سهم موفق ، وهذا مكثر للتكبير ومنتظر التكبير ، وهذا تاج للسعادة وهذا راج للشهادة)^(٢١) .

قوات الطرفين

١ - القوات العربية :

كانت القوات الضاربة لجيوش صلاح الدين مقسمة الى فرق ، تنسب كل منها الى أحد القادة العظام :

أ - الفرقة الأسدية : تحت قيادة أسد الدين شيركوه .

ب - الفرقة الصلاحية : بقيادة الناصر صلاح الدين الأيوبي .

ج - الفرقة النورية : بقيادة نور الدين محمود .

وكان صلاح الدين قد قسم قواته الى لواءات يفود كل منها أمير ، ثم كتائب يقودها امراء أصغر ، كل منها من مائة فارس ، ثم طبلخانات (٤٠ - ٧٠) فارسا - وهي تعادل السرية حاليا - فجنود الحلقة (٤٠) فارسا - وهو الفصل - ، وأخيرا امراء « العشراوات » وكل منها عشرة ، وهي ما يعرف حاليا بالرهط ، بالاصطلاح العسكري

المعاصر .

وعشية معركة حطين ، قام صلاح الدين باستعراض قواته التي بلغت نحو (٢٥ ألفا) منهم (١٢) ألف فارس ومثلهم من المشاة ، وقد رتب جيشه للمعركة على النحو التالي :

أ - الميمنة : بقيادة (تقي الدين عمر) ابن أخ صلاح الدين .

ب - الميسرة : بقيادة (مظفر الدين كوكبري) .

ج - القلب : بقيادة صلاح الدين نفسه^(٢٢) .

٢ - القوات الصليبية :

كانت جيوش الصليبيين التي حشدت للقتال عشية معركة حطين ، تتألف من ٥٠ - ٧٠ ألفا من الفرسان والمشاة ، بينما قسمت الى :

أ - المقدمة : بقيادة (ريموند) ، وجنود طرابلس والجليل .

ب - القلب : بقيادة الملك (غي) ومعه بطريك عكا ، حاملا خشبة الصليب^(٢٣) .

ج - المؤخرة : بقيادة (أرناط) ، وكانت تتألف من فرسان (الداوية)^(٢٤) والاستبارية^(٢٥) .

ومن الجدير بالذكر ان العسكر الصليبي كان يتفوق في العد والعدّة على العسكر الأيوبي ، وكان المقاتل الصليبي محميا بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه ، وكان الفارس منهم يحمل من الأقنعة ما يجعل السهم والرمح لا يؤثر فيه ، وكان الخطر الوحيد الذي يتهده هو السقوط من على ظهر الفرس^(٢٦) .

خطة صلاح الدين

اجتمع صلاح الدين الأيوبي بقيادته العامة (أركان حربيه) في « عشتري » ، كان المجلس يتألف من الملك العادل - شفيق صلاح الدين - وأولاد غمومته ، والقاضي

الفاضل ، والعماد الكاتب مؤرخ حروب الناصر صلاح الدين ، وبهاء الدين بن شداد قاضي الجيش .
استمع صلاح الدين في هذا المؤتمر الى أساليب المواجهة المقترحة ، والتي كانت تتركز على مسلكين :

١ - المسلك الأول :

تجنب المواجهة المباشرة ، واتباع أسلوب الاغارات المتكررة على حصون العدو ومدنه بهدف إضعاف مقاومته أولا قبل الهجوم عليه وضربه الضربة القاضية ، وكان هذا المقترح يمثل رأي غالبية المجلس .

٢ - المسلك الثاني :

وكان يقضي بالدخول فورا في معركة فاصلة حتى لا تتزعزع ثقة الجند بصلاح الدين^(٣٣) وكان هذا يمثل رأي الأقلية .

وهنا عرض صلاح الدين رأيه وقراره حيث قال :
(الرأي عندي ان نلقى بجمع المسلمين جمع الفرنج ، فان الامور لا تجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي ان نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد بالجهاد)^(٣٤) .

وبعبارة اخرى : عزم صلاح الدين على اقتحام فلسطين والمناطق الساحلية على أساس المبادرة بالهجوم (التعرض) . وعليه ، اقترح صلاح الدين ان تتقدم قواته لتحتل الأراضي الواقعة غربي بحيرة طبرية ، بحيث يستند ظهرها الى البحيرة ، وفي ذات الوقت يحول دون الصليبيين وبين البحيرة وينابيع المياه حولها ، وبذلك يحكم حصار طبرية بهدف اجتذاب الصليبيين واستدراجهم الى حيث يريد ، ليتمكن من مقاتلتهم في معركة مكشوفة ، وعلى أرض خالية من موارد الاعاشة والحياة ، عدا حرارة الشمس المحرقة والرمال والحصى^(٣٥) .

ان المتقاضي لأغلب المراجع ، يستطيع ان يتبين الخطة الاستراتيجية العربية كما يلي :

١ - القيادة وتوزيع القوات :

يقول (رينيه كروسيه) في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) : تقرر ان يكون صلاح الدين القائد العام للجيش العربية بأسرها ، المصرية والسورية والعراقية ، وقد فرضت طبيعة الأقاليم تكون الجيش العربي من محورين هما :

أ - المحور الجنوبي (المصري) : بقيادة العادل برا وبحرا .

ب - المحور الشمالي (السوري - العراقي والجيش المصري) : بقيادة الأفضل ، وقد رافقه صلاح الدين^(٣٦) .

٢ - توزيع الأهداف :

قسم صلاح الدين الأهداف على الجيشين في المحورين أعلاه الى محورين :

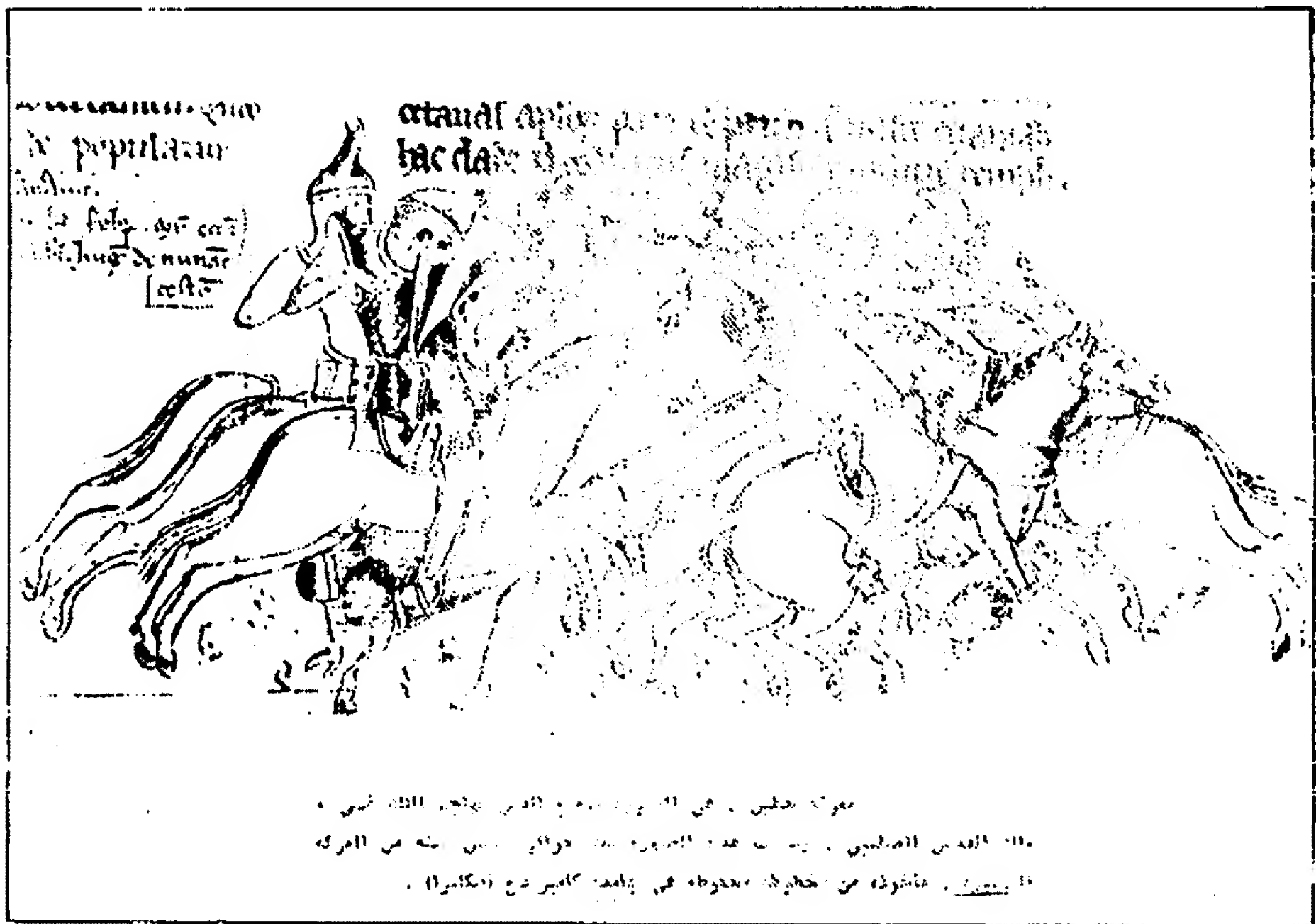
أ - المحور الجنوبي : وهو من واجب الجيش القادم من مصر ، ويقوم بالهجوم على العدو برا وبحرا ، فان دخل الجيش البري من جهة « العريش » فسيلتقي بالاسطول المصري في ميناء (عسقلان) قرب « يافا » ، وبذلك تعزل مدينة « القدس » عن البحر^(٣٧) .

ب - المحور الشمالي : وهو من واجب الجيش السوري - العراقي والجيش المصري ، ويقوم بالهجوم على العدو من منطقة طبرية ، ويقوم بمعركة فاصلة في (حطين) ثم يطارد العدو ليستولي على (عكا) ، وليشطر دولة العدو الى شطرين ، ثم يقوم بالتوجه الى الشمال ليحرر باقي الموانئ بين عكا وبيروت ، ثم يعود المحور الشمالي ليلتقي بالمحور الجنوبي في عسقلان ، كيما تتوجه كل الجيوش لمحاصرة القدس^(٣٨) وتحريرها .

ويمكن اجمال تفصيلات الخطة التي نفذها صلاح الدين الأيوبي بحذافيرها في الآتي :

١ - التحرك من عسقلان الى الصنبرة :

في يوم ٢٦ حزيران (يونيو) عام ١١٧٨ تحرك



شكل رقم ٣

ويقول الدكتور أحمد بيلي : (وعبر - أي صلاح الدين - يوم السبت نهر الأردن جنوبي بحيرة طبرية ، وانما اختار هذه الجهة لما كان بينه وبين صاحبها من الرابطة ، وأقام جنده الليلة الأولى هذه ، عند الاقحوانة)^(١٠) .

٢ - الاستطلاع :

خطط صلاح الدين لاستطلاع منطقة حطين وكفر سبت ولوية ، وهي ما يفصل بين جيشه وجيش العدو من الأرض ، بين طبرية وعكا . وحدد على جوانب الطريق قرب لوية مواضع الكمائن ، وقد نفذت مرحلة الاستطلاع بمجملها ، لا سيما توجيه قوات الملك الأفضل ووصولها^(١١) .

صلاح الدين بجيشه من معسكره في (تل عشتري) في أشد فصول السنة حرا . وعبر الأردن ، وعسكر في (الصنبرة)^(١٢) في منطقة الاقحوانة^(١٣) (ثم أصبح سائرا ونزل على الأردن بشفر الاقحوانة ، بعزم الصيال)^(١٤) وعز الصيانة ، وأحاط ببحيرة طبرية بحرة المحيط ، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط ، وبرزت الأرض في قشب أثوابها^(١٥) وتفتحت السماء لتتزل الملائكة من أبوابها ، ورسن سفن المضارب على تلك الأتياج^(١٦) .

هذا ما قاله العماد الكاتب^(١٧) أما ابن الأثير فيقول : (وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته ، وسار على تعبئة فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية)^(١٨) .

٣ - الاستدراج بالمناوشات :

يقول العماد : (والسلطان صلاح الدين في كل صباح يسير اليهم ، ويشرف عليهم ، ويراميههم وينكي فيهم ويتعرض لهم ليتعرضوا له ، ويردوا عن رقابهم سيوفه وعن شعابهم سيوله . فربضوا وما نبضوا ، وقعدوا وما نهضوا . فلو برزوا لبرز اليهم القتل في مضاجعهم^(١١) وعانينا مقام صارعهم في سوقهم الى مصارعهم . وفزعوا مما فيه وقعوا ، وجبنوا عما له تشجعوا^(١٢)) (ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ، وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا ، وعبوا وعبوا ، ودبوا حتى يذبوا ، وشبوا النار ، ولبوا النار ، وقدموا للتزول بالدار البدار ، وذلك في يوم الجمعة الرابع عشر من شهر ربيع الآخر . فما كذب السلطان الخبر حتى صدق عزمه ، بما سبق به حكمه ، وسرحين أحاط بمسيرهم علمه) . . . (قد حصل المطلوب وكمل المخطوب . وجاءنا ما نريد . ولنا بحمد الله الجدد الجديد ، والحد الحديد ، والبأس الشديد ، والنصر العتيد ، وإذا صحت كسرتهم وقتلت واسرت اسرتهم ، فطبرية وجميع الساحل ما دونها مانع ، ولا عن فتحها وازع)^(١٣) .

أما ابن الأثير ، فيقول عن استدراج الصليبيين بالمناوشات : (فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه ، وقربوا من عساكر الاسلام ، فلما سمع صلاح الدين بذلك ، عاد عن طبرية الى عسكره وكان قريبا منه وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم)^(١٤) .

يتبين لنا من هذه المراجع ان صلاح الدين قد قرر ونفذ ارسال مفارز قوية من معسكره للتحرش بجيش الفرنج المربط في صفورية اضافة الى هجومه على طبرية ، فكان يقصد بذلك استدراج العدو الى الأرض التي يريد^(١٥) .

٤ - سبق العدو ونصب الكمائن :

وضع صلاح الدين في خطته التكتيكية لمعركة حطين

احتمال تحرك الفرنج من صفورية بعد هذه التحرشات وتوجههم لقتاله ، فان أقدموا على ذلك حرك صلاح الدين جيشه من الصنبرة وسبق جيش الفرنج الى منطقة لوبية واحتل مواضع الكمائن بعد ان يكون جنود صلاح الدين^(١٦) قد أفنوا ما هنالك من ماء الصهاريج^(١٧) .

٥ - تحقيق المفاجأة بالكمائن :

تقرر ان تقوم الكمائن العربية بمفاجأة جيش الفرنج وهو في ترتيب المسير وترغمه على الوقوف والقتال بدون ماء وقت الظهيرة ، في أشد فصول السنة حرا . فعند وصول الفرنج مواضع الكمائن في طريقهم الى الجيش العربي ، وقد تركوا الأبار العذبة وراءهم ودخلوا التلال الجرداء اللافحة (الجبل ترعان) الذي يبعد (٢٠ ميلا) عن بحيرة طبريا . وبعد تنفيذ هذا الجزء من الخطة سيرغم العدو على تغيير خططه ، واتخاذ وضع في غير صالحه للاخلال بتوازنه ويضطره الى اجراء تغيير شامل في ترتيب قواته للمعركة ، وبذلك تتاح الفرصة للاجهاز عليه إما بالهلاك عطشا او التسليم وتربح المعركة^(١٨) .

وتنفذا لهذه الخطة ، قاد صلاح الدين جيوشه يوم الجمعة ٢٦ حزيران (يونيو) ١١٧٨ في اتجاه البحيرة ، لتقوم باحتلال الأراضي الغربية لها ، وحيث أراد صلاح الدين بالضبط . . أمام (أرض القتل)^(١٩) .

خطة الصليبيين

ازاء هذا الخطر الذي هدد بحيرة طبرية وينابيع المياه من حولها ، اجتمع المجلس الحربي للجيوش الصليبية في عكا ، حيث اتفق (ريموند) - حاكم طرابلس - والملك (غي) وحزبه ، وأعلنوا استعدادهما للقتال ، بعد ان استقر رأيهما على الانتقال بقواتهما البرية الى (صفورية) - قرب عكا^(٢٠) .

يقول « ج . ف . س . فولر » في كتابه (المعارك الحاسمة في العالم الغربي) الجزء الأول - الصفحة

(٤٢٥) : في ٢ تموز (يوليو) دخل « ريموند » على الملك « غي » وقاله له : (يجب التمسك بالعدول عن السفر الى طبرية ، لأن سقوطها أهون بكثير من ضياع المملكة . فبيننا وبينها لا يوجد إلا عين ماء واحدة صغيرة ، وهي لا تكفي لأي جيش مهما كان صغيرا ، وحالما تغادر هذا المكان سوف يزعجك المسلمون ويرغمونك على الوقوف ، فإذا هاجتهم لجأوا الى التلال ، حيث لا يمكنك مطاردتهم ، وإذا أرغمت أنت على التوقف ، ماذا سيعمل جنودك وخيولك بدون ماء ؟ وإن كثيرا منهم سيموتون من العطش ، وفي اليوم التالي سيقومون بتطويقك)^(١٢) .

وقد وافق الملك (غي) على هذا الرأي وتم القرار على إلغاء الزحف الى طبرية^(١٣) ولكن « جيرارد » دخل سرا على الملك في خيمته عند منتصف الليل ، وكان يكره « ريموند » وقال له : (سيدي لا تصدق ما قاله ريموند ، لأنه خائن ويريد إذلالك) . وقد نجح في اقناعه بتغيير رأيه ، وذلك لأن الملك لم يستطع مخالفة من ساعد على تنصيبه ملكا ، وهكذا تم القرار على الحركة الى صفورية^(١٤) وكان الصليبيون وقتذاك حيال إحدى خطبتين هما :

١ - الخطة الدفاعية :

وخلصتها ، الاجتماع في صفورية حتى يزحف صلاح الدين نحوهم اذا شاء ، وتنتاب جيوشه متاعب الطريق وقلة الماء في البادية ما بين طبرية وصفورية ، وطوله خمسة عشر ميلا ، والواضح ان هذا الرأي - وصاحبه ريموند - لم تشبه شائبة من الريب او الخديعة في الظاهر ، فقد قال به ريموند وهو عالم ان طبرية ستذهب الى صلاح الدين ، وإن الحكمة تتطلب الانتظار حتى يزحف العرب . ومالت الأغلبية الى الأخذ بهذا الرأي^(١٥) .

٢ - الخطة الهجومية :

طرح هذه الخطة « أرناط » و « جيرارد » مقدم (الداوية) . وخلصتها ، ان يتقدم الصليبيون من

صفورية لمقابلة صلاح الدين ، وحجتهم في ذلك ان رأي « ريموند » فاسد لعدم اخلاصه للفكرة الصليبية^(١٦) وبما قاله (أرناط) الى (ريموند) في صدد خطته : (قد أطلقت في التخويف من المسلمين ، ولا شك في انك تريد لهم وتميل اليهم ، وقولك انهم كثيرون ، فإن النار لا يضرها كثرة الخطب^(١٧)) ويقول في نفس المعنى (ابن كثير) في البداية والنهاية .

اعترض البرنس صاحب الكرك على ريموند ، فقال له : (لا شك في انك تحب المسلمين وتخوفنا بكشرتهم وسترى غيب ما أقول لك)^(١٨) .

أما الخطة التكتيكية الصليبية ، فتتلخص في هذين المسلكين :

١ - المسلك الأول :

الحركة من صفورية على الطريق الاستراتيجي الذي كان بين ميناء عكا وصفورية ، والاعتماد على صهاريج الماء الموجودة في قرية (ترعان) وقرية (لوبية) و (حطين) لسد حاجة الجيش من الماء منها^(١٩) .

٢ - المسلك الثاني :

مواصلة السير على الطريق الذي يؤدي الى نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية ، وذلك لقطع خط مواصلات جيش صلاح الدين وحصره في هذه المنطقة ، والقضاء عليه ، خصوصا بعد ان علموا انه ترك الافحانة الى طبرية ، ثم تخليص مدينة طبرية ، وانقاذ الملكة وأولادها المحصورين في قلعتها ، وما دروا ان جند صلاح الدين أضرموا النار في طبرية فأصبحت رمادا تذرره الرياح^(٢٠) .

المعركة الفاصلة

مع الخيوط الاولى لفجر يوم السبت الرابع من تموز (يوليو) ١١٧٨ م ، اشتعل القتال بين الفريقين ، عندما التحمت فرسان صلاح الدين مع فرسان الملك (غي) في مشهد رهيب يخطف الأبصار ، ويستوي على أشد القلوب

ثباتا ، وقد اختلطت الخيل بالأجساد والسيوف والرماح والدماء ، بينما انعقدت سحب الغبار فوق أرض المعركة ، أما الأرض ، فقد غطتها جثث القتلى والجرحى .

في البداية . . حاول فرسان الصليبيين اختراق صفوف خصومهم والتقدم نحو بحيرة طبرية وينابيع المياه بوادي حمام حول قرية حطين ، وهنا تقدم الناصر صلاح الدين على رأس فرقة القلب وقام بتحطيم محاولات الصليبيين ، بعد ان أحدث بين صفوفهم ارتباكا خطيرا ، في حين نجح في عزل مؤخرتهم عن بقية الجيش ، وفي ذات الوقت ، أمر صلاح الدين فرقة الزرافين^(١) فأشعلوا هشيم الحشائش بالنار التي تاججت تحت أقدام حوافر الخيل ، لتحدث هياجا شديدا بين صفوف الصليبيين . وهكذا اجتمع قيظ الحر اللافتح ، وشمس تموز الحارة مع العطش والنار والدخان لتدور الدائرة على جيش الملك (غي) الذي عانى جنوده الأمرين من ضربات فرسان المسلمين الذين تابعوا الهجوم في روح معنوية عظيمة ، وقد ارتفعت صيحاتهم الهائلة . وعندما رأى (ريموند) شدة القتال وخرج موقف قواته ، قاد هجمة مستميتة على ميمنة وميسرة جيش صلاح الدين في وقت واحد ، وهنا تجلّت عبقرية القائد المسلمين (تقي الدين عمر) و(مظفر الدين كوكبري) اللذين أفسحا له طريقا للتقدم بين فرقتيهما ، فاخترق (ريموند) صفوف المسلمين ، وهو يحسب ذلك نصرا . وهنا اغلقت عليه دائرة الحصار ، حيث أبلى القائد (كوكبري) بلاء حسنا (والذي لو لم يكن له إلا واقعة حطين لكفته) ، ولم يجد (ريموند) سبيلا للخلاص سوى محاولة الافلات والهرب الى (صور) ومنها الى قاعدته في طرابلس ، بعد ان تكبدت قواته خسائر فادحة ، الأمر الذي أضعف صفوف الصليبيين ، فلحق به (بورل) - قائد الاستبارية - و (يالان) - أمير بيت جريل - و (رينولد) - أمير صيدا - وغيرهم .

أما صلاح الدين ، فقد قاد هجمة بارعة على الصليبيين ، أبادت قسما كبيرا منهم ، وبذلك أدرك الملك (غي) انه لا نجاة له إلا بالقتال حتى الموت ، فحمل على جيوش صلاح الدين حملة مستميتة ، أحبطتها صلابة قوات صلاح الدين ، بعد ان أحاطت قواته بجيوش الملك الصليبي إحاطة السوار بالمعصم ، وهنا قام (غي) بمحاولته الأخيرة ، حين صعد بقواته الى تل حطين محاولا اتخاذ مواقع لجيشه في هذا المكان المرتفع انتظارا لوصول نجدات لن تأتي !

وفي هذه الأثناء ، أمر القائد صلاح الدين قواته بملاحقة الملك (غي) وجيشه ، وذلك بالصعود الى قمة (تل حطين) حيث دار هناك قتال دام رهيب ، انتهى في نهاية ذلك اليوم المشهود بسقوط خيمة الملك الصليبي ، واستيلاء قوات صلاح الدين عليها ، وهنا نزل الصليبيون من التل المرتفع رافعين أيديهم بالتسليم بعد ان القوا أسلحتهم ، حيث تم أسرهم عن بكرة أبيهم ، وعلى رأسهم ملكهم (غي) .

كانت الشمس قد بدأت نجر ذيلها نحو الغروب ، وسرح القائد المنتصر صلاح الدين ببصره في ميدان المعركة الذي اصطبغت رماله باللون الأحمر من كثرة ما اريق فوقها من دماء ، لقد كانت الهزيمة التي أصابت جيوش الصليبيين ساحقة حقا ، وتنساب دموع الفرح من عيني الناصر صلاح الدين ، ويسجد على الرمال يصلي شكرا لله على هذا النصر العظيم .

وسيق الأسرى أمام الناصر صلاح الدين بالآلاف ، كان على رأسهم الملك (غي) وارك حاكم جبيل ، وابن الهنفرى وابن حاكم الاسكندرونة ، وحاكم مرقية وارناط حاكم الكرك وجيرارد مقدم الفرسان الداوية ، وجماعات من فرسان الداوية والاستبارية الشهيرة ، كانت جموع الأسرى من الكثرة حتى ان حبال الخيام لم تكن كافية لقيدهم

وثاقهم جميعا ، ويروي لنا العماد الكاتب - المؤرخ الحربي
لمعركة حطين - انه رأى في جبل واحد أربعين أسيرا من
الصليبيين يقودهم فارس عربي . وفي موقع آخر ، رأى مائتي
أسير يحميهم حارس واحد^(١١) .

ويقدر المؤرخون خسائر الصليبيين في معركة حطين
بثلاثين ألفا من القتل ومثلهم من الأسرى (فمن شاهد
القتل قال ما هناك أسرى ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك
قتلى) على قول (أبي شامة) .

لقد أطلق القائد الفرنسي (نابليون بوناپرت) مقولته
الشهيرة بعد هذه المعركة بنحو ستمائة عام ، (ويل
للمغلوب) !^(١٢) .

المطاردة

بعد الانتصار تقوم القوات بالمطاردة ومن ثم تنفيذ
سائر المراحل^(١٣) لاستثمار الظفر . فبعد حين قرر القائد
المظفر صلاح الدين التقدم فورا دون ابطاء للاستيلاء على
الساحل الفلسطيني لتصفية الوجود الصليبي الدخيل
والضرب بيد من حديد على الحديد وهو لا يزال ساخنا ،
بعد ان فقد الصليبيون جميع قادتهم بين قتيل وجريح وأسير ،
كما أضحت القلاع الصليبية القوية خلوا من المقاتلين الذين
قضى عليهم فوق رمال حطين ، بعيدا عن منابع المياه في
بحيرة طبرية .

وحين نتابع خطوات الناصر صلاح الدين - بعد
حطين مباشرة - سنكتشف انه قام بتطبيق رائع ودقيق
لنظريات الحرب الخاطفة التي طبقها (جورديان) قائد
سلاح المدرعات الألماني بعده بسبعمائة عام في الحرب العالمية
الثانية^(١٤) .

ففي مساء الرابع من تموز ، وما ان انقشع غبار
المعركة ، قام القائد صلاح الدين بتفقد مسرح القتال
ليحصي مخلفات المعركة من قتل وأسرى وجرحى وغنائم .
وما ان أشرقت شمس الخامس من تموز ، حتى قاد

صلاح الدين إحدى فرقته ، في وثبة خاطفة ، استولى بها على
قلعة (طبرية) الحصينة ، لترسل اليه الأميرة (أشيف)
- حاكمة المدينة - تطلب الأمان لها ولحاميتها ، فأجابها الى
طلبها .

وفي الثامن من تموز ، قاد صلاح الدين جيشه ميمما
صوب التحصينات الساحلية لما لها من أهمية استراتيجية
عظمى في حماية مملكة بيت المقدس ، وذلك بعد ان استقر
رأيه على الاستيلاء عليها جميعا ، لمنع أية نجذات بحرية قد
تأتي اليها بحرا من اوربا ، الى جانب عزمه على تأمين خطوط
مواصلاته بين ممتلكاته في مصر والشام ، لهذا أصدر أوامره
الى أخيه الملك العادل في مصر بالزحف فورا صوب جنوب
غربي فلسطين ، بينما توجه على رأس قواته الظافرة صوب
عكا لأحكام طرفي الكماشة على بيت المقدس من اتجاهي
الشمال والجنوب^(١٥) .

الدروس المستنبطة

١ - القائد والمعنويات :

لكل حرب سماتها المميزة ، كما ان لكل قائد صفاته
الخاصة ، فالمعركة تشبه بحرا مائج مليئا بالصخور
والنتوءات ، وهنا تصبح مهمة القائد القيام بتوجيه سفينته
وسط هذا الظلام الدامس ، والأمواج المتلاطمة ، ففي تلك
اللحظات الحرجة التي يفتقر فيها القائد الى المعطيات
الموضوعية لا بد له من الاعتماد على صفاته وكفاءته
الشخصية .

وتعتبر الشجاعة - في المرتبة الاولى - من أهم الفضائل
الحربية للقائد ، وبخاصة في ذلك العصر الذي عاش فيه
صلاح الدين ، الذي علم جنوده كيف يموتون ، ضارباً لهم
المثل الأعلى ، كان يعلم ان عيون الجند تتركز عليه في
ساعات الخطر ، وعندها كان يمارس هيئته وهدوءه وسيطرته
على نفسه لتنتقل كالعدوى سريعة الانتشار الى جنوده ، اننا
نعني هنا الشجاعة المعنوية لا البدنية ، انها شجاعة اتخاذ

القرارات الحاسمة ، والنهوض بالمسؤوليات والتحلي بضبط النفس .

لقد علّم القائد صلاح الدين جنوده في معركة حطين - كيف يحافظون على تشكيلاتهم المنظمة تحت وطأة الهجمات العنيفة والمدمرة لفرسان الصليبيين المتفوقين عددا وعدة ، كما عرف جيش صلاح الدين كيف يقاوم أكثر الأوضاع العسكرية حرجا ، وكيف يحترم الجنود قاداتهم ويثقون بهم - وذلك على الرغم من انهاك قواهم البدنية - بعد ان أقنعهم قائدهم الأعلى بأن كافة الجهود والتضحيات التي يبذلونها خلال القتال انما هي وسيلة للنصر ، وليست على الاطلاق لعنة كتبت على راياته^(١٧) .

لقد كان لوجود صلاح الدين في قلب المعركة ، من أهم العوامل التي دفعت بالمقاتلين الى الاستبسال والاستماتة في القتال ، خاصة وانه كان اذا ما وجد ضعفا في جماعة من أجناده ، كان يتقدم الى الساحة ويصبح مكررا : (كذب الشيطان) فيعيد الثقة الى النفوس ويذكرهم بأن الهزيمة من الشيطان ، وان المعركة انما هي جهاد في سبيل الله ومضي فيه حتى النهاية^(١٨) .

ومن الأدلة على ذلك ما ذكره الملك الأفضل (نور الدين) عن والده صلاح الدين قال : (كنت الى جانب أبي في ذلك المصاف .. فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحي : هزمناهم .. فالتفت اليّ والسدي فقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة - يعني خيمة الملك)^(١٩) .

ان ما نريد ان نلفت النظر اليه ، ان الناصر صلاح الدين كان يدرك تمام الادراك أهمية مبدأ المعنويات لقواته ، وأثرها في احراز النصر ، حيث لا تزال الحالة النفسية للجنود أثناء القتال وقبله تمثل الهدف الرئيسي للأطراف المتصارعة ، فلا يمكن لأي جيش مهما بلغت قوته ان يكسب المعركة ويهزم عدوه دون ان يتحلى جنود هذا

الجيش بالروح المعنوية العالية ، وبذلك خط القائد صلاح الدين بيده السطر الأول والأخير في وثيقة النصر قبل ان تبدأ المعركة^(٢٠) .

٢ - الحصول على المعلومات :

تمثل المعلومات التي يجمعها القائد عن جيش الخصم العصب الرئيسي للمعركة ، فقد قام صلاح الدين بدفع دوريات الاستطلاع - قبيل المعركة - نحو جيش الملك (غي) ، لتعود اليه بمعلومات ثمينة لا غنى عنها عن تشكيلات جيوش الصليبيين ومواقعها وتسليحها ، ليعمد على الفور الى دفع مفارزه المتقدمة - خفيفة الحركة - والتي قامت بدورها بمضايقة جيوش الصليبيين أشد المضايقة أثناء تقدمها في الصحراء المكشوفة القاحلة من قواعدها في (عكا) الى (صفورية) ووادي (المعلقة) ، وإيقاع الخسائر بأفرادها ... الى جانب فصل مؤخرته عن القلب والمقدمة ، وكان من جراء هذه الأعمال التي سبقت القتال ذاته ، اضطراب الملك (غي) الى التوقف جنوبي حطين في انتظار ان تلحق به المؤخرة التي وجدت نفسها في موقف عسكري لا تحمد عليه ، وذلك بفضل شجاعة فرسان المفارز الأمامية لجيش الناصر صلاح الدين^(٢١) او ما يمكن ان تسمى بالاصطلاح العسكري المعاصر (مفارز الاستطلاع العميق) والتي تعتبر من أهم واجبات ومهام عناصر الاستخبارات الميدانية .

٣ - الشؤون الادارية :

كان الجندي في جيوش صلاح الدين يعتمد بالدرجة الاولى على ما يحمله معه من مواد غذائية بسيطة ، اضافة الى ما كان يستولي عليه من مؤن العدو المهزوم والمؤن المخزونة التي كان يعثر عليها داخل المدن والحصون المفتوحة . أما الحملات الكبيرة - ومنها معركة حطين - فكانت ترافقها قافلة كبيرة للتموين تحوي كل ما يحتاج اليه الجند ، على انه لم ترد تفصيلات كثيرة توضح كيفية توزيع تلك الأرزاق والمؤن

على الجيش . والظاهر انه كانت هناك جماعة خاصة تقوم بتوزيع تلك المؤن والأرزاق على القادة وامراء الجيوش ليقوم كل قائد بتوزيع تلك المؤن على امراء جيشه ، ثم يقوم كل أمير بدوره بتوزيعها على الجنود التابعين له . هذا بالإضافة الى وجود أماكن خاصة كانت تملأ كل واحدة منها بمادة من المواد الحربية بعد ان يعين مواضعها ، ليقصدها الجندي عند الحاجة ، او عند نفاذ مؤناته . وقد حدث في معركة حطين ان عين صلاح الدين سبعين موضعاً ملاًها بالنشاب ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها^(٣١) .

وفي عشية معركة حطين ، بقي صلاح الدين طوال تلك الساعات الحاسمة وسط جنوده ومع قاداته ، يرتب شؤونهم الادارية ، بينما - على الجانب الآخر - بانت قوات الصليبيين ليلة عصبية قبيل المعركة ، وقد طوت جنودهم الحيرة والعطش لقلة الماء وانعدام الطعام والنوم^(٣٢) مما يدل على غياب الشؤون الادارية وتنسيقها لديهم .

٤ - المبادأة :

عندما قام صلاح الدين بتقدير الموقف من وجهة النظر العسكرية (عشية المعركة) كان قراره الذي أعلنه في المجلس الحربي الذي عقده في (عشرين) : (ان الهجوم هو خير وسيلة للدفاع) مؤيداً رأيه بأن (المبادرة بالهجوم على العدو تجعله متقاداً لرغباتنا ، وتجعل مصائب الحرب على رأس العدو) ، أي فرض ارادتنا نحن على العدو ، وهو مبدأ ثبتت صحته منذ فجر التاريخ ، وحق يومنا هذا . . . وعلى ذلك قاد صلاح الدين جيشه لمقابلة جيوش الصليبيين في معركة فاصلة عند تل حطين ، واضعاً في اعتباره العمل على مفاجأة العدو الذي انخفضت معنويات جنوده الذين عانوا الأمرين من عنف ضربات قوات صلاح الدين في أرض قتل منتخبة بعناية ودقة ، حيث استدرج القائد المحنك قوات الغزاة وحال بينهم وبين منابع المياه العذبة في بحيرة طبرية وروافد نهر الاردن ، ليقنوم بعدئذ بسحقها

والقضاء عليها ، وهذا ما حدث بالفعل^(٣٣) .

٥ - الحرب خدعة :

لقد عبر صلاح الدين في معركة حطين أصدق تعبير عن المبدأ القائل : (الحرب خدعة) ، فقد دبر صلاح الدين خدعة رهيبه دوخت الصليبيين ، وقلبت اوزان جيشهم رأساً على عقب ، وأنهت المعركة لصالحه تماماً ، وذلك عندما فصل خيالة العدو عن مشاته ، حيث أباح لميمنة الجيش وميسرته - اللتين كان يقودهما تقي الدين عمر ومظفر الدين كوكبري - ان تفسحا (فرجة) = (ثغرة) نفذ منها (ريموند) بقواته ، وهو بحسب انه اخترق صفوف صلاح الدين ، وأصبح من النصر المحقق قاب قوسين أو أدنى ، لكنه يفاجأ باغلاق دائرة الحصار عليه ، وتعرض قواته الى الضرب والتمزيق ، مما أجبره على الهرب بمن تبقى من قواته الى (صور) في حالة يرثى لها ، لتتبعه بقية قوات الملك (غي) الذي وقع أسيراً بعد قليل في أيدي صلاح الدين^(٣٤) .

وبعد زهاء ثمانمائة سنة ، تأتي الحربان العالمية الاولى والثانية لتؤكد صحة هذا المبدأ وهو فصل المشاة عن المدرعات . فقد استمر العرب في معركة حطين اضافة الى ازعاج عدوهم وارباكه ، في الالتحام مع خيالاته في الامام مع الالتحام القاصم مع القوة الصليبية الرئيسية الراجلة مما وسع الفجوة بين مشاة العدو وخيالاته فكانت خطأة تعبوية قاتلة اقترفها الغزاة الصليبيون^(٣٥) حيث ان مشاتهم بدأت تتراجع نحو الجبل تاركة سلاح الفرسان الثقيل ، ولذلك فان تشكيل الجبهة الصليبية قد تحطم بانقطاع الاتصال بين الفرسان والمشاة^(٣٦) وهذا ما يمكن ان يسمى بالاصطلاح العسكري المعاصر بـ (الحركة الافراجية) ، وكان القائد الخالد خالد بن الوليد صاحب هذه الحركة . فالحركة الافراجية التي قام بها صلاح الدين في حطين ، تذكرنا بحركة خالد بن الوليد الافراجية في اليرموك ، حين

أفرج عن فرسان الروم مفسحا لهم المجال للهرب بغية عزل مشاتهم ثم ضرب هؤلاء المشاة .

وكرر العرب هذا التكتيك نفسه ضد المغول في معركة عين جالوت الفاصلة^(٧٨) .

٦ - الحشد :

عندما قرّر قرار القائد المظفر صلاح الدين على تصفية الاحتلال الصليبي للأراضي المقدسة ، وقبيل معركة حطين ، مباشرة ، قام بتطبيق مبدأ (الحشد) ، ذلك المبدأ الذي يتوقف على التقدير الصائب للقائد العام ، فقام - قبيل بدء العمليات الخربية بشهرين - باستنفار القوات في مصر ومن ديار بكر ومن الجزيرة ودمشق وسائر جهات الشام ، متيحاً لتلك القوات الفرصة الكافية للتحرك الطويل من أطراف المملكة المترامية الأطراف إلى قرب مكان الصدام المتوقع ، حتى تتمكن من القتال في ظروف مناسبة .

وتنفيذاً للحشد ، فقد أرسل صلاح الدين في طلب الجيوش من سوريا وحلب والجزيرة العربية وديار بكر ، مستنفراً الجند للجهاد ، بعد أن قام بتهيئة الرأي العام الإسلامي للحرب الوشيكة . وكانت أولى القوات المستنفرة للحشد ، القوات البرية المصرية التي سارعت تحت قيادة الملك العادل الذي قام من مصر على طريق (ايلة) ليلتقي بصلاح الدين قرب (الكرك) في أيار (مايو) ١١٧٨ م وفي ذلك الوقت ، أبحر الاسطول المصري في ١٥ سفينة تحت قيادة الأمير لؤلؤ من الاسكندرية ميمماً شطر سواحل الشام الشمالية^(٧٩) .

٧ - مستوى الخطة :

إن الخطة التي اتبعها صلاح الدين تعتبر من أبدع الخطط العربية . ومن الواضح أنه كان مستعداً لها ، فهو قد هاجم مستعمرة هامة من مستعمرات الصليبيين وأطبق عليها وهددها بالهجوم بدون أن يحاول احتلالها ، إذ أنه لو احتلها لما وقعت معركة حطين ، بل أنه سمح لهذه

المستعمرة أن تصمد ، وأظهر أنه ضعيف أمامها ، وهذه مناورة بارعة ، مما دفع الصليبيين دفعا إلى الزحف لانقاذها وتأهب لاستقبالهم في المكان المناسب . كما أنه وضع نفسه في مكان يشجع العدو على الزحف نحوه ، وبذلك أرغمه على ترك حصونه وخوض المعركة^(٨٠) .

وكان صلاح الدين من مواقفه في حطين يعلم تحركات العدو وكأنه ساحر ينظر إليها في بلورته ، وكان بالرغم من قوة جيشه الكبيرة يرى أن الوقت مناسب لاستدراج العدو إلى مصيدة هائلة يكون فيها هلاكه المحتم ، وكان تقديره للموقف ولا شك يسير على حسب الخطوط التالية :

١ - الجو الصيفي شديد الحرارة ، لا يناسب الصليبيين رجالاً أو خيلاً .

٢ - وادي طوران ليست فيه قطرة ماء .

٣ - معابر الأردن قوية والحراسة عليها ستمنع عبور العدو إلى ما خلف قواتنا .

٤ - انقساوسة من فرسان المعبد والاستبارية سيرغمون ملوك الصليبيين على التقدم نتيجة الهوس الديني ، وسيكون تقدمهم عبر ذلك الوادي المهلك في حمارة القيط .

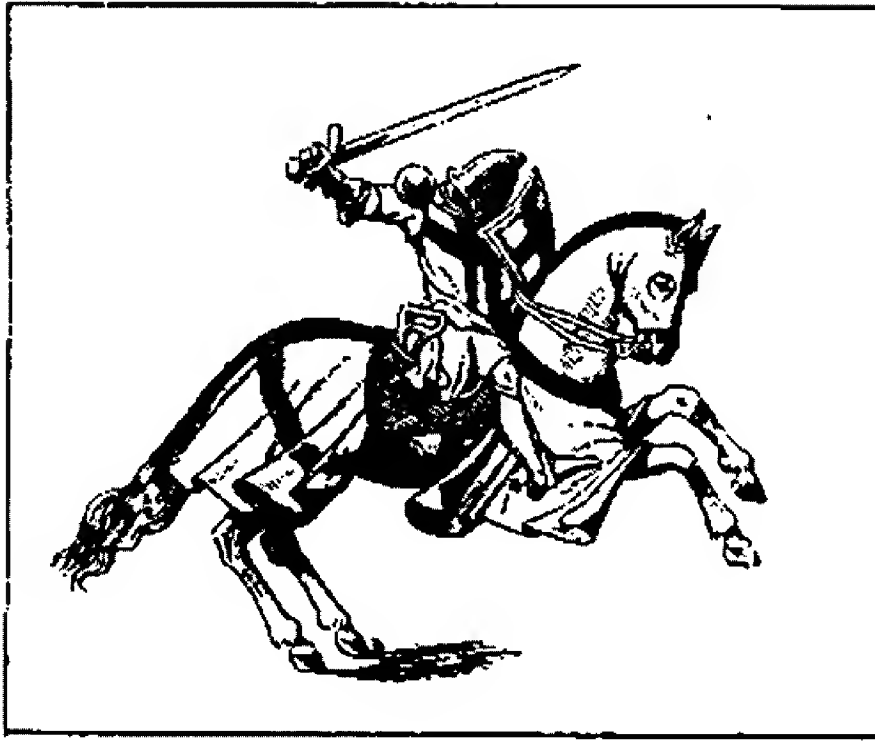
٥ - التمسك بالمرتفعات وتركهم يتقدمون في وادي ظلال الموت .

٦ - عندما يكونون في أشد حالات العطش والانهك ننقض عليهم من أعالي الجبال ونعمل فيهم السيف والنبال .

٧ - أننا نطبق خطة الدفاع الهجومي ولن نرتكب الخطأ الذي يقع فيه العدو^(٨١) .

أما خطة الصليبيين ، فقد أدت إلى هزيمتهم المنكرة لأنها تضمنت خطأين قاتلين هما :

١ - تقدمهم نحو الشمال في أشد شهور السنة حرارة عبر وادي طوران ، وهو سهل قاحل خالٍ من الماء ، على

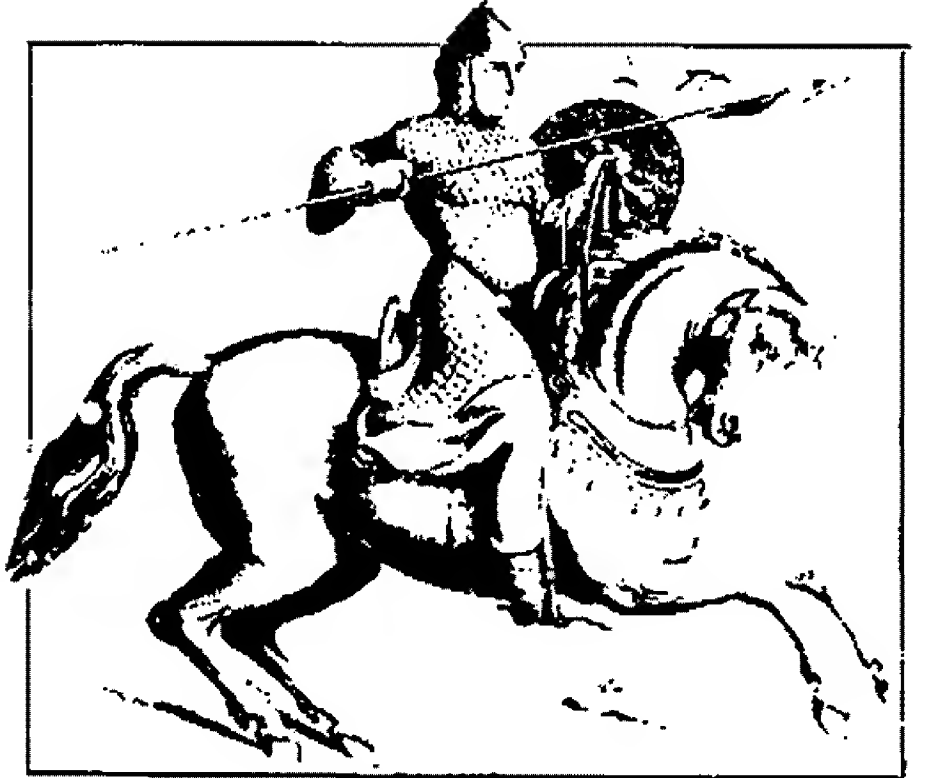


شكل رقم ٥

كالدب^(٨) الجاهل الذي أهلك صاحبه بعد ان قاده الى التهلكة .

أما تقدير الموقف من وجهة نظر الصليبيين فكان عجيبيًا حقًا . فكان الغرض هو تدمير قوات صلاح الدين في حطين بعد الهجوم في اتجاهها ومنع تقدم جيش الخصم الى فلسطين ، وكانت حجتهم في عدم التحرك الى وادي الاردن - حيث الماء الوفير - انهم لم يكونوا متأكدين من عدم حماية صلاح الدين لمعابر النهر ، فقد كانت عادته دائما ان يحمي تلك المعابر بقوات كبيرة وان يضع قوات اخرى للمراقبة في النقاط الاستراتيجية الهامة . وكان قادتهم ، علاوة على هذا ، يرون عدم تجزئة الجيش بارسال قوات منهم الى وادي الاردن لتهديد مؤخرة جيش صلاح الدين . اذ ان ذلك سيؤدي حتما الى اضعاف قواتهم الرئيسية التي ستقوم باهجوم في اتجاه حطين وسيؤدي الى دحرها . ومن ثم يصبح الباب مفتوحا أمام صلاح الدين ليتسرب منه الى فلسطين بأسرها .

لقد بنى الصليبيون على الخطأ نظرية تمسكوا بها فكان في ذلك حتفهم ، وكان الخطأ هو : الهجوم في



شكل رقم ٤

حين كان بإمكانهم التقدم من صفورية لقطع خطوط انسحاب صلاح الدين عبر الأردن واحتلال معابر النهر نفسها . وفي تلك الحالة كان التقدم يجري في مناطق كثيرة العيون والآبار ، وكان خط التقدم الأمثل لا بد ان يكون الى مدينة (الفولة) ثم الى مدينة (كوكبة) ، ثم الى النهر نفسه ، ومن ثم يصبحون خلف قوات صلاح الدين بعد احتلال معابر الاردن ، وكان بعض امراء الصليبيين وقادتهم يرون ذلك ، ولكن اشتداد التنافس بينهم حال دون وصولهم الى الرأي الصحيح^(٩) .

٢ - كانت المبادأة بيد صلاح الدين ، وكان جيشه أكثر عددا وأعز نفرا بعد ان انضمت قوات حلب والموصل الى قوات النيل . وكان على الصليبيين والأمر كذلك ان يلجأوا الى الدفاع لا الى الهجوم . ولو انهم احتلوا موقعا دفاعيا قويا وانتظروا هجوم صلاح الدين فيه فربما كانت النتيجة مختلفة غاية الاختلاف ، ولكن الذي حدث ان فرسان المعبد من القساوسة والرهبان أرغموا ملك الصليبيين على التقدم والهجوم ، فتقدم بالجيش عبر الوادي المهلك في حرارة القيقظ ، فكانوا

١١٨٢ م . ومن دمشق باشر سلسلة من الغزوات الى داخل فلسطين بالطريقة التي نسميها في الحرب الحديثة : الاستطلاع بقوة القتال^(٨٧) .

الخاتمة

ليست معركة حطين من معارك التاريخ الفاصلة ، أي انها ليست من تلك المعارك التي يتوقف عندها مجرى التاريخ ليتحول في اتجاه آخر ، فهي مثلاً ليست كمعركة تور [= بلاط الشهداء] - بواتيه - التي توقفت عندها الامتداد العربي في اوربا ، وليست كمعركة (شالون) التي هزم فيها (الهون) وتوقف غزوهم لاوربا وانحسرت بعد ذلك موجة الغزو . و (حطين) ليست كمعركة (عين جالوت) التي دمرت فيها جيوش العرب بقيادة (بيبرس) و (قُطز) جحافل الغزو المغولي الأصفر الذي اندفع من أواسط آسيا ليدمر مدنات الشرق والغرب ، ولكن حطين مع ذلك كانت أروع معارك العرب في العصور الوسطى على الإطلاق ، فقد كانت المعركة الوحيدة على وجه التقريب التي تجمعت فيها جيوش الشام ومصر والعراق .

وكانت حطين أيضاً المعركة الاولى التي واجه فيها العرب جيوش أوربا مجتمعة ، فكان فيهم الانجليز والفرنسيون والايطاليون والنمسيون واللمبارد والسكسون والألمان وغيرهم .

وكانت حطين علاوة على ذلك معركة فاصلة من الناحية المحلية ، فقد أسدلت الستار نهائياً على مطامع اوربا في الأرض العربية المقدسة ، وخذل المستعمرون الذين جاءوا عبر البحر من اوربا تحدوهم المطامع في اغتصاب أرض العرب تحت شعار الدين والنسك ، وان حجتهم قد انكشفت واصبحت غير ذات موضوع ، وان أملهم في البقاء وهم وسراب ، وانه لا بد لهم ذات يوم ان يحملوا عصيهم على كواهلهم ويرحلوا .

وختمت حطين على مصير البيت المقدس نهائياً ، إذ

اتجه حطين بكامل قواتهم ، على حين ان واقع الحال كان يتطلب إما الدفاع البحت لمنع تقدم صلاح الدين الى فلسطين ، او التقدم بكامل قواتهم عبر الاردن والدوران خلف قوات الخصم وفرض المعركة في المكان والزمان الملائمين ، ولقد قال (ريموند) أمير طبرية مؤيداً لهذا الرأي قوله المشهور : (خير لنا ان تسقط طبرية وأن يأسر العدو زوجتي وكل ما أملك من أن نفقد البلاد كلها ، فمن المؤكد ان تسقط البلاد بأسرها اذا تقدمتهم في ذلك الاتجاه) .

وقد دمع فرسان المعبد ذلك القول بالخيانة ، فهم في حال فرقتهم وتعصبهم الديني لم يكونوا مستعدين لسماع النصيح من جندي يعلم كيف يقدر الموقف العسكري تقديراً صحيحاً^(٨٨) وقديماً قيل (اذا جاءت المنايا تاهت الأبصار) .

٨ - المناورة :

المناورة عمل عظيم مبتكر لا يخضع ولا يعتمد على حسابات سابقة أجراها الآخرون ، وهي بذلك تمثل قمة التفكير العسكري المتقن لأمور الحرب ، وبأقل الخسائر^(٨٩) وغاية المناورة الأساسية هي الحصول على حالة فقدان التوازن للقوات المعادية بحيث يصيبها الارتباك نتيجة لذلك ، وتصبح بموقف ليس في صالحها^(٩٠) وهذا ما فعله صلاح الدين مع الصليبيين عندما تحرك بقوات مصر نحو فلسطين ، وكان يعلم ان قوات العدو قد تجمعت على الحدود لتمنعه من التقدم الى داخل البلاد ، ولكنه دار حول قواتهم بحركة استراتيجيّة بارعة . فقد عبر صحراء سيناء بقواته حتى رأس خليج العقبة ، ومن هناك تقدم بها شمالاً عن طريق وادي عرابة باحثاً عن العدو في طريقه ، وكان أمير الكرك الصليبي يراقب تحركاته بدقة دون ان يحرك ساكناً لقتاله او لقطع الطريق عليه . انه لم يجرؤ على ذلك ، ودخل صلاح الدين بجيشه المصري الى دمشق في منتصف حزيران

الهوامش

زحفت أولا على تربة سورية ومنها انتقلت الى البلدان الاوربية (وفرسان
الداوية هم انفسهم الفرسان المعبديون او الهيكليون - The Templars
Les Templiers وكان شعار هؤلاء طيلسانا أبيض عليه صليب أحمر . وقد
تأسس أول بيت لهم في بيت المقدس في عمارة تنسب الى هبكل (معبد)
النبي سليمان بن داود فنسبوا اليه ، وقد أنشأ هذه الطائفة من الفرسان في
سنة ١١١٨ م جماعة من الفرسان الفرنسيين الذين قدموا الى بيت المقدس في
الحملة الصليبية الاولى ، وكان رئيسهم (هيو بايان) وكان القرض من
انشائها ارشاد الحجاج النصارى وحمايتهم .

(٢٥) الاسبتارية : وهم فرسان القديس حنا : The Knights
Hospitallers - Les Hospitaliers ويرجع تأسيس هذه الحياة الى ما قبل
الحروب الصليبية . فقد ولدت عندما طلب جماعة من تجار مدينة أمالفي
الابطالية من الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ١٠٤٨ م ان يسمح لهم باقامة
دير وبيمارستان (مستشفى) ببيت المقدس ليكون مأوى لحجاج النصارى
للإقامة فيه والعلاج في أثناء زيارتهم بيت المقدس . . . وقد كان واجب
الاسبتارية الأصلي اسعاف المرضى ومساعدة زوار الأراضي المقدسة ، وبعد
استيلاء الصليبيين على القدس تحول الاسبتارية الى حياة من الفرسان
المحاربين . وكان شعارهم طيلسانا أسود عليه صليب .

- انظر : الحروب الصليبية - لانتوني ويست ص ٢٧ - ٢٨ .
(٢٦) سياسة صلاح الدين الأيوبي ص ٢٩٣ .
(٢٧) صلاح الدين في معركة حطين - مجلة (الدفاع العربي) العدد
السادس - آذار (مارس) ١٩٧٩ ص ٦١ .
(٢٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٢٩) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦١ .
(٣٠) ابن الأثير : نفس المصدر ص ٢٣٩ + العماد الأصفهاني :
الفتح القسي ص ٥٩ .
(٣١) مفلح علي : حطين - ص ٤٧ .
(٣٢) مفلح علي : حطين ص ٤٧ .
(٣٣) الصنبرة : (مقابل عقبة فيق بينها وبين طبرية ثلاثة أميال)
معجم البلدان ٤/١٩٩ .

(٣٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ص ٢٤١ .
(٣٥) الفيال : الذي يسطو ويستطيل على خصمه .
(٣٦) قشب أثوابها : أي جديدها ، وصلاح قشيب مجلو .
(٣٧) الأثباح : جمع ثبج وهو وسط الشيء ومعظمه .
(٣٨) العماد الكاتب : الفتح القسي ص ٧٢ .
(٣٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ص ٢٤٠ .

(٤٠) د. أحمد بيبي : حياة صلاح الدين الأيوبي ص ٥٧ .
(٤١) ابراهيم مصطفى المحمود : حطين - المجلة العسكرية
ص ٧٦ عدد كانون الثاني وشباط ١٩٧٥ .

(١) اللواء السرساوي : يوم حطين ص ٥ .
(٢) محمد عمارة : معارك العرب ضد الغزاة ص ٢١ والراهب
هو البابا (اربان الثاني) .
(٣) يسميهم مؤرخو العرب باسم (فرسان الداوية) .
(٤) اللواء السرساوي : يوم حطين ص ٥ - ٨ .
(٥) تقدير الموقف : عملية استنتاج منطقية يدرس فيها القائد
جميع الظروف التي تؤثر على الموقف العسكري ويوصل الى قرار كمسلك
مفتوح يجب اتخاذه لكي ينجز مهمته .
- انظر : محمد فتحي أمين : قاموس المصطلحات العسكرية
ص ٧٥ - ٧٥ تلل ٢٥٠ .

(٦) خطوط الاقتراب : تلك الخطوط التي اذا سلكتها الجيوش
(المتفرقة مبدئيا) اقتربت بعضها من بعض والتقت في هدفها المشترك .
(٧) اللواء السرساوي : يوم حطين ص ١١ - ١٥ .
(٨) اللواء محمود محمد السرساوي : من روائع التاريخ
المسكري العربي - يوم حطين ص ٣٣ - ٣٤ .
(٩) ابراهيم مصطفى المحمود : حطين ص ٨٠ .
(١٠) نفس المصدر .
(١١) صلاح الدين في معركة حطين : المرجع السابق ص ٦٠
و ٦٢ .

(١٢) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨١ .
(١٣) د. أحمد بيبي : حياة صلاح الدين الأيوبي ص ١٥٩ .
(١٤) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٢ .
(١٥) محمد فريد ابو حديد (صلاح الدين وعصره) ص ١٣٤ .
(١٦) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٢ .
(١٧) ستيفن رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٧٣٨
ترجمة د. الباز العريفي .
(١٨) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٣ .
(١٩) نفس المصدر . نقلا عن كتاب (صلاح الدين) لستانلي
بول .

(٢٠) الطلب : تعني الأمير الذي يقود متي فارس . واستعمل هذا
اللفظ في مصر والشام أيام صلاح الدين الأيوبي .
(٢١) العماد الأصفهاني : الفتح والبرق - الوارد بكتاب الروضتين
٧٨/٧٩ - ٧٩ .
(٢٢) محمد فيصل عبدالنعم : صلاح الدين في معركة حطين
ص ٦٠ .
٢٣ - الفتح القسي ص ٨٤ .

(٢٤) الداوية : يميل بعض المؤرخين الى رد نشوء الفروسية الى
عوائد قديمة عند الجرمان . بينما يرى الآخرون كالدكتور فيليب حتي (انها

(٤٢) أي لكتب عليهم الموت ، يعني العماد الكاتب قول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بَيْوتِكُمْ لَبرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .

(٤٣) الفتح القسي ص ٧٤ طبعة عام ١٩٦٥ .

(٤٤) الفتح القسي ص ٧٧ .

(٤٥) الكامل في التاريخ ص ١٤١ .

(٤٦) ابراهيم مصطفى المحمود : نفس المصدر ص ٧٦ .

(٤٧) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٤٨) محمد لمرشد ابو حديد : صلاح الدين وعصره ص ٣٤ .

(٤٩) ابراهيم مصطفى المحمود : نفس المصدر ص ٧٧ + مقلع

علي : حطين ص ٦٧ .

(٥٠) صلاح الدين في معركة حطين - المرجع السابق ص ٦١ .

(٥١) صلاح الدين في معركة حطين : المصدر السابق ص ٦١ .

(٥٢) ابراهيم مصطفى المحمود : نفس المصدر ص ٧٧ .

(٥٣) الدكتور عبد اللطيف حمزة : أدب الحروب الصليبية ص ١٧ .

(٥٤) مقلع علي : حطين ص ٧٣ - ٧٤ .

(٥٥) الدكتور نظير حسان السعداوي : التاريخ الحربي في عهد

صلاح الدين ص ١٧٩ .

(٥٦) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٧٨ .

(٥٧) عقد الجمان ص ٣٣ ، كما يذكر المحمود ص ٧٨ .

(٥٨) البداية والنهاية ص ٣٢٠ .

(٥٩) ابراهيم المحمود ص ٧٩ .

(٦٠) نفس المصدر السابق .

(٦١) الزقاقون : حملة المزاريق جمع مزارق ، عمود من الخشب

المجوف من القصب ، وفيه سنان يشبه الرمح المجوف ، ويدخله سهم

مهلك ، وهذا الرمح يمكن ان يطعن به او يزرق به ، وهو من أسلحة القتال

الفعالة في ذلك الزمان .

(٦٢) صلاح الدين في حطين : ص ٦٢ .

(٦٣) نفس المصدر ص ٦٤ .

(٦٤) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٧٥ .

(٦٥) صلاح الدين في معركة حطين : نفس المصدر ص ٦٤ .

(٦٦) نفس المصدر ص ٦٤ .

(٦٧) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٤ .

(٦٨) سياسة صلاح الدين الأيوبي ص ٢٩٥ .

(٦٩) الكامل ٥٣٦/١١ ، مفرج الكروب ١٩١/٢ .

(٧٠) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٥ .

(٧١) نفس المصدر ص ٦٥ .

(٧٢) سياسة صلاح الدين الأيوبي ص ٤٥٩ - ٤٦٠ .

(٧٣) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٥ .

(٧٤) صلاح الدين في معركة حطين - مجلة الدفاع العربي ص ٦٥ .

(٧٥) المصدر السابق ص ٦٥ .

(٧٦) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٨٤ .

(٧٧) المارشال وبفل : حطين (ترجمة محمد عطية) المجلة

العسكرية السورية - العدد الثالث - تشرين الأول ١٩٥٥ ص ١٥ .

(٧٨) عمر كحالة : سيف الله خالد بن الوليد ص ٢٦١ (محاضرة

القائم مقام أركان حرب أحمد بك اللحام) الملحق بالكتاب . وقارن :

شكري محمود نديم ، حرب فلسطين ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، وانظر : ياسين

سويد : معارك خالد بن الوليد ص ٣٢٧ .

(٧٩) صلاح الدين في معركة حطين ص ٦٥ .

(٨٠) ابراهيم المحمود : نفس المصدر ص ٩١ .

(٨١) اللواء الرساوي : نفس المصدر ص ٣٦ - ٣٧ .

(٨٢) اللواء الرساوي : نفس المصدر ص ٣٥ .

(٨٣) اللواء الرساوي : نفس المصدر ص ٣٥ .

(٨٤) اللواء الرساوي : نفس المصدر ص ٣٥ - ٣٦ .

(٨٥) اللواء الركن حارث لطفى الوفي : فن المناورة ص ٩ .

(٨٦) المدخل الى السوق والجغرافيا العسكرية ص ٨٦ .

(٨٧) اللواء الرساوي : نفس المصدر ص ١٥ .

وللمزيد من التفاصيل عن المناورة وفن المناورة يمكن الرجوع الى

كتاب اللواء الركن حارث لطفى الوفي الصادر عام ١٩٨٤ عن مديرية

التطوير القتالي - وزارة الدفاع - بغداد .

(٨٨) اللواء الرساوي ص ٢٦ - ٢٧ .

(٨٩) نفس المصدر ص ٤٣ .

(٩٠) د. سميد عبدالفتاح عاشور : الناصر صلاح الدين

ص ١٩٢ .

أ - المصادر :

١ - ابن الأثير :

الكامل في التاريخ - الطبعة الأزهرية سنة

١٣٠١ هـ .

٢ - ابن كثير :

البداية والنهاية في التاريخ - الطبعة الاولى ١٩٣٢ -

مطبعة السعادة/مصر .

٣ - ابن واصل :

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . (تحقيق جمال

الدين الشيال) - القاهرة/١٩٥٧ .

من روائع التاريخ العسكري العربي - يوم حطين .
سلسلة (اخترنا للجندي) - العدد (٢٩) مطابع الدار
القومية/القاهرة .

١٠ - د. سعيد عبدالفتاح عاشور :

الناصر صلاح الدين . سلسلة (أعلام العرب -
العدد ٤١) - القاهرة .

١١ - د. نظير حسان سعداوي :

التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين - مطبعة
مكتبة النهضة المصرية/القاهرة/١٩٥٧ .

١٢ - ياسين سويد :

معارك خالد بن الوليد - المؤسسة العربية للدراسات
والنشر - بيروت/١٩٧٣ .

١٣ - العقيد مفلح علي :

حطين - (سلسلة من التاريخ الحربي للامة العربي -
ج ٢ طبع/١٩٥٩) .

١٤ - العميد محمد فيصل عبدالمنعم :

صلاح الدين في معركة حطين . مجلة (الدفاع
العربي) - العدد السادس/١٩٧٩ .

ج - الكتب المترجمة :

١ - ستيفن رونسيمان :

تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ (ترجمة د. الباز
العربي) طبعة دار الثقافة - سنة ١٩٦٩ .

٢ - انتوني ويست :

الحروب الصليبية (ترجمة شكري محمود نديم) .
الناشر - شركة النبراس - بغداد/١٩٦٧ .

٣ - المارشال ويفل :

حطين (ترجمة محمد عطية) . المجلة
العسكرية/العدد الثالث/١٩٥٥ دمشق .

٤ - العماد الكاتب الأصفهاني :

الفتح القسي في الفتح القدسي . طبعة عام ١٩٦٥
نشر الدار القومية/القاهرة .

ب - المراجع الحديثة :

١ - ابراهيم مصطفى المحمود :

حطين ، المجلة العسكرية - العدد ٦ و ٧ السنة ٢٥
شباط ١٩٧٥/دمشق .

٢ - د. أحمد بيلي :

حياة صلاح الدين الأيوبي - الطبعة الثانية/١٩٢٦ -
المطبعة الرحمانية - بمصر .

٣ - دريد عبدالقادر نوري :

سياسة صلاح الدين الأيوبي - مطبعة الارشاد -
بغداد/١٩٧٦ .

٤ - صبحي عبدالحميد :

معارك العرب الحاسمة . الطبعة الثالثة/١٩٨٦ -
الناشر/الدار العربية للموسوعات .

٥ - د. عبداللطيف حمزة :

أدب الحروب الصليبية - الطبعة الاولى/١٩٤٨ - نشر
دار الفكر العربي .

٦ - محمد كرد علي :

خطط الشام ج ١ دمشق/١٩٢٥ .

٧ - محمد فريد أبو حديد :

صلاح الدين وعصره - القاهرة/١٩٢٧ .

٨ - محمد عمارة :

معارك العرب ضد الغزاة . المؤسسة العربية
للدراسات والنشر - بيروت/١٩٧٢ .

٩ - اللواء محمود محمد السرساوي :

جيش صلاح الدين

د. محسن محمد حسين

كلية التربية / جامعة بغداد

الكماثن ، وكذلك المتعلقة بمجلس حرب الجيش وخطط القتال في جيش صلاح الدين .

اولا : تشكيل نواة الجيش الايوبي :

كان نور الدين محمود ، صاحب الشام ، قد بعث قائد جيشه اسدالدين شيركو الى مصر على رأس قوة عسكرية في ثلاث حملات متتالية للحيلولة دون وقوع مصر تحت السيطرة الصليبية . وكان عدد فرسانه يزداد في كل حملة عما سبقتها ، حتى بلغ في الحملة الثالثة (والاخيرة) ثمانية الاف فارس^(١) . الا ان المصادر لم تشر الى عدد الجنود المشاة الذين صاحبوا الحملة ، على الرغم من ان عدد المشاة كان اكبر من عدد الفرسان ، في كافة جيوش تلك الفترة . وقد ذكرت بعض المصادر المتأخرة ان جيش شيركو كان في «سبعين الفا» ما بين فارس وراجل^(٢) ، وان صح هذا القول فان عدد المشاة يكون ضخما .

هذا وقد خلف اسدالدين شيركو ، الذي صار وزيرا للخليفة الفاطمي العاضد ، بعد وفاته ، فرقة الخاصة التي سميت باسم «الفرقة الاسدية» وقد اضطلعت هذه الفرقة بدور واضح في تنصيب صلاح الدين وزيرا ، خلفا لعمه ، وكان عدد افرادها لا يقل عن خمسمائة فارس^(٣) ، وشكلوا نواة الجيش الايوبي في مصر ، وظهرت فرقة ثانية على مسرح الاحداث عرفت باسم «الفرقة الصلاحية» وكان افرادها من خواص صلاح الدين ، بقودهم الامير ابو الهيجاء السمين الهذباني . وقد قامت هاتان الفرقتان بدور بارز في تاريخ

المعروف ان الدولة الايوبية قد قامت على انقاض الدولة الفاطمية في مصر ، والدولة النورية الزنكية في الشام واطراف العراق . الا انها تأثرت في مجال نظمها الحربية بشكل مباشر او غير مباشر . بما كان معمولاً به في الدولة الزنكية نظراً الى ان الايوبيين الاوائل قد نشأوا في كنف عمادالدين زنكي ، كما نشأ الرعيل الثاني من بني ايوب من صلاح الدين واخوته وبني عمومته في كنف نيورالدين ابن زنكي .

ولهذا فان البحث عن التشكيلات العسكرية وادارتها والاسلحة والمعدات التي استعملها جيش صلاح الدين لم تكن الا استمرارا لما كان موجوداً من قبل ، مع بعض الاضافات التي استحدثت بفعل حالة الاحتراب المستمر مع الصليبيين ، وبفعل منطلق التطور . اما بالنسبة للمؤثرات المصرية (الفاطمية) على الجيش الذي استحدثه صلاح الدين فكانت ملحوظة اكثر ، كما اثبتت ذلك مصادر العصر ، بل نكاد نزعم ان تسنم صلاح الدين لحكم مصر لم يكن بمثابة انقلاب سياسي فحسب ، بل كان انقلاباً في المجالات العسكرية كذلك ، سواء أكان ذلك في العناصر التي ابعدها صلاح الدين عن تشكيلات جيشه ، او العناصر الجديدة التي اعتمد عليها في تكوين جيش دولته الفتى .

وفي هذا البحث نحاول ان نعالج جملة مسائل تخص هذا الجيش ، سواء في التغييرات التي استحدثتها فيه ، او ما ثبته فيه من امور ، مثل التموين والتعبئة العسكرية وكذلك في المؤسسات المتعلقة بامور البريد والاستخبارات ووضع

الجيش الايوبي ، وانجبتا امرأء وقادة كبار .

وكما هو متوقع ، فقد قام صلاح الدين ، بعد ان قضى على الجيش الفاطمي ، باحلال عناصر جديدة محل عناصر ذلك الجيش ، فقد ذكر ذلك مؤرخ مصر الكبير المقرئزي وابن اباس^(١٥)

واعتمد اسد الدين شيركو وصلاح الدين على العرب كذلك في تشكيل القوة العسكرية الايوبية ، ويذكر ان شيركو حين اضطر الى الالتجاء الى الجيزة ، خلال صراعه مع الصليبيين استمال العرب القاطنين هناك ولاسيما «الاشراف الجعفرىون والطلحيون والقرشيون وغيرهم»^(١٦) ويبدو ان العرب انضموا الى الجيش الايوبي بصفة جنود نظاميين ، ففي العرض العسكري الذي اقيم يوم ٨ محرم ٥٦٧ هـ / ١١ ايلول ١١٧١ م ، اي اثر قطع الخطبة الفاطمية ، وقبيل وفاة الخليفة العاضد الفاطمي بيومين ، اشترك في العرض (العرب الجذاميون)^(١٧) ، وكانت عدتهم - عددهم - سبعة الاف فارس ، في بداية التحاقهم بالجيش ، ثم انخفض عددهم في المراحل التالية . وكذلك انضمت جماعات من المغاربة الى الجيش الايوبي ، والراجح انهم انضموا اليه بصفتهم جنوداً متطوعين «غير نظاميين» ، تطوعوا بدافع الجهاد . فعن وجود المغاربة في صفوف هذا الجيش ذكر الرحالة المغربي (ابن جبير) الذي زار مصر والشام : ان اهل البر والاحسان من الاثرياء والخواتين والنساء النبيلات كانوا يخصصون جزءاً من ثروتهم لتحرير المغاربة الذين وقعوا في اسر الصليبيين^(١٨) . واثناء حصار عكا الطويل ، الذي دام حوالي سنتين ، كان المغاربة يديرون شؤون الحمامات الخاصة بالجيش الايوبي^(١٩) .

حجم الجيش الايوبي وتطوره :

ذكر المقرئزي نقلاً عن عبدالرحيم البيسانى مستشار صلاح الدين المعروف بـ(القاضي الفاضل) انه جرى في مستهل عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م عرض عسكري اشترك فيه مختلف صنوف الجيش الايوبي ، قديمها وحديثها ، بأسلحتها وخيولها وعدتها الحربية . وقد تتابع وصول القوات الى مكان العرض في القاهرة . ومن طريف ما يروى انه قد دُعي لمشاهدة العرض رسل الروم البيزنطيين ورسل الفرنج الصليبيين . وكان عرضاً عسكرياً ضخماً سارت المواكب فيه مواكب اثر موكب ، وطلب بعد طلب^(٢٠) . والطلب - بلغة الغزو (اي الترك) - كما يقول المقرئزي - هو

الامير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب ، وعدة من مائتي فارس الى مائة الى سبعين . وقد استمر العرض الى ان انقضى النهار ، ودخل الليل دون ان يكمل عرضهم . وكان عدد الاطلاب المشتركة مائة وسبعين واربعين طلباً ، اضافة الى عدم اشتراك عشرين طلباً كانت غائبة . ويضيف القاضي الفاضل قائلاً : وتقدير العدة يناهز اربعة عشر الف فارس اكثرها طواشية^(٢١) . والطواشي من كان رزقه سبعمائة الى الف الى مائة وعشرين ديناراً ، وله برك «دواب» الى عشرة رؤوس ما بين فرس وبرذون وبغل وجمل ، وللطواشي غلام يحمل له سلاحه . اما باقي الجند المشتركين في العرض ، كما ذكر القاضي الفاضل ، فكانوا (قراغلامية)^(٢٢)

ويبدو من هذا الكلام - الذي يشبه عملية احصائية - ان الجيش الايوبي صار تعداد الخيالة فيه حوالي ستة عشر الف فارس ، الا ان القاضي الفاضل ، ومن ثم المقرئزي ، لم يبين لنا عدد الطواشية وعدد القراغلامية الذين كانوا في هذا الجيش ، واكتفى بالقول : ان اكثر ما في الاطلاب كانوا من الطواشية .

وبعد عشر سنوات من التاريخ المذكور ، اي في سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م ، قام السلطان الايوبي بعملية حسابية جديدة لمعرفة قوة جيشه ، وخلال هذه السنوات حصلت تطورات هامة في تاريخ المنطقة - ولاسيما في مصر والشام - واثرت على مكونات وقدرات وحجم هذا الجيش وخبراته ، منها : ارسال حملة الى بلاد اليمن بقيادة شمس الدين توران شاه بن ايوب في رجب ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م^(٢٣) ، ثم الانزال الصقلي البيزنطي الواسع على ثغر الاسكندرية في نهاية عام ٥٦٩ هـ وبداية ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م^(٢٤) ، وثورة بقايا الجيش الفاطمي بقيادة الكنز سنة ٥٧٠ هـ^(٢٥) ، ثم قيام صلاح الدين بقيادة حملته الاولى على بلاد الشام وفتح بعض مدنها الداخلية ، ثم عودته الى مصر ، وتجريده حملة عسكرية على جنوبي فلسطين ، وهزيمته عند بلدة الرملة^(٢٦) . كل هذه الاحداث وغيرها ، قد سبب - كما يبدو لنا - في انخفاض عدد جند الجيش الايوبي خلال تلك الفترة ، الا انه سرعان ما عوض هذا النقص ، كما يظهر من الارقام الجديدة التي ذكرها المقرئزي ضمن متجددات السنة المذكورة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وقال : ان صلاح الدين قام للنظر في امور جيشه لمعرفة الزيادة والنقصان الحاصلين في

عدد جنده ، واستقرت العدة على ثمانية الاف وستمئة واربعين (٨٦٤٠) فارساً ، بينهم الامراء ، وستة الاف وتسعمائة وستة وسبعون (٦٩٧٦) طواشياً^(١) ، اما القراغلامية فكان تعدادهم الفا وخمسمائة وثلاثة وخمسين (١٥٥٣)^(٢) ويصبح المجموع اكثر من سبعة عشر الف مقاتل ، اي اكثر مما كانوا عليه في العرض الاحصائي السابق الذي جرى في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، هذا وقد بلغت نفقات الجيش السنوية (٣٠٠٠ ر ٣٦٧٠) دينار ، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لنفقات جيش في ذلك العصر .

ثانيا : تنظيمات الجيش الايوبي

مركز تمحيدات الجيش (دمشق)

كانت بلاد الشام مركزاً للمقاومة ضد الصليبيين المحتلين ، ولاسيما في عهد نورالدين محمود الذي ملك دمشق سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م حين كانت بيد الاتابك مجدالدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين^(٣) . ولما توجه صلاح الدين الى الشام سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م جعل من دمشق مركزاً للحكم . ولا شك ان موقع هذه المدينة القريب من الاقاليم التي يحتلها الصليبيون وبعد المراكز الاخرى ولاسيما حلب ، اضافة الى متانة اسوار دمشق وتوفر وسائل العيش فيها ولطف هوائها ، كل هذه العوامل جعلت من هذه المدينة مركزاً لا يعرض بالنسبة لصلاح الدين ليقوم بجهوده الرامية لتوحيد الجبهة الاسلامية ، ويتحرك لاسترداد الارض العربية . فمن دمشق انطلقت القوات الايوبية مراراً للاغارة على حصن الكرك المنيع ، والى طبرية وحطين في سنة الفتح (٥٨٣ هـ - ٥٨٤ هـ) والى جهات الشمال نحو انطاكية واعمالها وقلاعها ، والى الجنوب نحو صفد وكوكب ويسان وغيرها^(٤) . وكان يعود الى دمشق بقواته حين الانتهاء من عملياته الحربية^(٥) . وقد يحدث ان يجتمع في هذه المدينة جميع عساكر الجيش الايوبي ، كما حصل في سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م^(٦) ، وسنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وهذا يعني ان المشرفين على شؤون هذا الجيش قد وفروا المعسكر اللازم الذي يأوي اليه هذا العدد الغفير من الجنود ، ووفروا في المعسكر ما يحتاجون اليه من الطعام واماكن لراحتهم وراحة دوابهم وغيرها . والواقع ان معسكراً ضخماً كهذا كان موجوداً في دمشق قبل العهد الايوبي بمئات السنين ، وهو معسكر (الجابية) الشهير الذي كان في الاصل ضيعة قريبة من دمشق^(٧) قبل الاسلام ، ثم

تحولت بعد الاسلام الى معسكر من اكبر المعسكرات في بلاد الشام ومركزاً لجندها ، وامتازت الجابية بمناخها الصحي حتى اتخذت مصحاً للجنود^(٨) .

ولعل القلعة كانت ابرز معالم دمشق العسكرية والادارية ، فكان فيها مرافق الدولة من مخازن السلاح والسجن (الزرد خاناه) وبيت المال ودواوين الدول^(٩) . وكانت دمشق بمثابة مخزن للاحتياطي من الذخيرة والسلاح^(١٠) ، وماوى للاسرى الصليبيين^(١١) نظراً لقربها من ميادين القتال وسهولة ارسالهم اليها وتبادلهم مع الاسرى المسلمين .

ديوان الجيش :

كان هذا الديوان مسؤولاً عن الشؤون الخاصة بالجيش ، ويتولى امره احد المطلعين على قضايا هذه المؤسسة ، شرط ان يكون مسلماً وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة^(١٢) . وهذا الديوان كان اشبه بوزارة الدفاع في الوقت الحاضر ، والمتولي عليه مسؤول عن معرفة احوال الاجناد وتسجيل الامور الخاصة بحضورهم وغيابهم واوضاعهم الصحية وموتهم^(١٣) .

والمرجح ان يكون ديوانان للجيش الايوبي ، احدهما خاص بمصر والثاني بالشام ، الا اننا لا نعرف من الذي تولى امر هذا الديوان في الشام ، اما في مصر فقد تولاه احد النصاري هو «المهذب بن ابي المليح عماتي» منذ اواخر العهد الفاطمي ، واستمر على هذه المهمة ايام صلاح الدين ، بعد ان اعلن - مع اسرته - عن اسلامه ، وتولاه بعده ابنه (الاسعد) مصنف كتاب «قوانين الدواوين» ، واستمر على تولى مهمته طيلة فترة صلاح الدين وابنه وخليفته في حكم مصر الملك العزيز عماد الدين عثمان ، حين تولى ديوان المال اضافة الى ديوان الجيش^(١٤) .

زي الاجناد :

تحدث مؤرخون عديدون - وفي طليعتهم القلقشندي - عن مواصفات زي الاجناد في العصر المملوكي في مصر ذلك العصر الذي نضجت فيه واستقرت الكثير من

التقاليد الخاصة بمختلف شؤون (الحكم والادارة والكتابة والجيش والمال وغيرها ، والذي يعده المؤرخون استمراراً للعهد الايوبي ، بل انهم يعتبرون هذا العهد حلقة وصل بين العصر السلجوقي والاتابكي من جهة ، والعصر المملوكي من جهة اخرى ، ولا سيما في التقاليد العسكرية ، في حين نرى ان العصر الفاطمي الذي استمر في مصر اكثر من قرنين لم يترك ذلك الاثر في كيان الدولة الايوبية ، ومن ثم المملوكية ، على الرغم من ان الايوبيين كانوا ورثة الفاطميين .

عن زي القادة العسكريين والجنود الايوبيين تحدث القلقشندي وقال : ان الدولة الايوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها في الديار المصرية ، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة ، وغيّرت غالب معالمها ، وجرت على ما كانت عليه الدولة في عهد عماد الدين زنكي - مؤسس اتابكية الموصل وحلب الشهيرة - ثم ولده نور الدين محمود بالشام وما معه ، وكان من شأنهم انهم يلبسون الكلوتات^(١) الصفر على رؤوسهم مكشوفة بغير عمائم ، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها ، سواء في ذلك الممالك والامراء وغيرهم^(٢) .

الا ان تغييراً جرى في غطاء الرأس في بعض الفترات الاتابكية والايوبية ، فسيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي ، ثاني اتابكة الموصل (٥٤١ - ٥٤٤ هـ / ١١٤٦ - ١١٤٩ م) استحدث حمل السنجق على رأسه ، وقلده الملوك في ذلك ، والزم الاجناد ان يشدوا السيوف في اوساطهم ، ويجعلوا الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب^(٣) ، وحين ملك صلاح الدين الديار المصرية ، جرى على النهج نفسه او ما قاربه^(٤) .

واستحدث الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ابو بكر بن ايوب ، صاحب دمشق (٦١٥ - ٦٢٤ هـ / ١٢١٨ - ١٢٢٧) عادة لبس الكلوته الصفراء بلا شاش^(٥) ، كما ذكر

القلقشندي^(٦) ، فالكلوته في عهد صلاح الدين كانت تلبس وعليها شاش ، الى ان رفعه الملك المعظم المذكور ، واستمر هذا التقليد الى العهد المملوكي حين امر الملك الاشرف خليل ابن السلطان محمد بن قلاوون باعادة الشاش على الكلوته ، كما كانت عليه في عهد صلاح الدين^(٧) .

وقد استحدث صاحب الموصل المذكور (سيف الدين غازي) تغييرات في لباس الجند وقلده باقى الامراء والمقدمون واعيان الجند ، فكانوا يلبسون الاقبية^(٨) الواسعة والتكلات فوقها ، ثم القباء الاسلامي فوق ذلك ، اي انهم كانوا يلبسون قباءين تكون اكمام القباء الفوقاني أقصر من اكمام القباء التحتاني واوسع منه^(٩) . ويشد السيوف من جهة اليسار والصولق^(١٠) والكذلك^(١١) من جهة اليمين ، حسب ما ورد في كتاب القلقشندي^(١٢) .

التموين :

كان التموين يشكل احدى اهم مشاكل تعبئة الجيوش ، نظراً لصعوبة المواصلات ، والاعتماد في حمل المواد على حيوانات النقل البطيئة الحركة ، اضافة الى تلف المؤن ، وكذلك لصعوبة الاتصال بالمراكز لتوفير المؤن ، ولهذا فكثيراً ما كانت مسألة التموين تحدد مصير الحملات ، وتسرع في حسم نتائج المعركة لصالح الطرف الذي اخذ احتياظه الكافي من الزاد والماء . فكان على القائد ان يمين جيشه بالكمية اللازمة التي تكفي المدة التي يقضيها في الطريق الى ميدان المعركة ثم العودة منه ، وان يضع في حسابه استمرار التزود بالمؤن عند الحاجة ، ولا يقطع عنه خط التموين ما استطاع الى ذلك سبيلاً . واذا ادركنا ان حالة العطش الشديد التي عانى منها الصليبيون يوم حطين كانت في طبيعة اسباب هزيمتهم الشنيعة في ذلك القيظ من شهر تموز ، ادركنا اهمية سلاح الماء في رجحان كفة طرف دون آخر ، ولعل صعوبة تزويد عكا بالمؤن اللازمة كانت اهم اسباب سقوطها بيد الصليبيين بعد صمود طويل دام

مستين .

وكانت مواد التموين تحمل في مؤخرة الجيش عادة ، اي في الساقة ، وكانت تسمى به الثقل . ولكن حدث في بعض الحملات ان وضعوا الثقل في وسط الجيش ، اي بالقرب من قلب العسكر . ويحتمل ان يكون سبب ذلك خشيتهم من استيلاء العدو عليه والظفر به . ففي اواسط جمادى الاولى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م «رحل السلطان الى تعبئة لقاء العدو ، ورتب الاطلاق ، وسارت الميمنة أولاً والقلب في الوسط والميسرة في الاخير . . وسار الثقل في وسط العسكر»^(١) .

ونجد ان الجند من جهتهم كانوا يحملون معهم مواد التموين الضرورية في الجراب - الصولق - المعمول من الجلد الذي يعلق على الكتف . ولدى التهيؤ للسير يتعبأ الجند بتزولهم الى السوق والتزود بالضرورات ، ولعلها لم تتعد الخبز والجبن والبصل وبعض اللحوم المجففة وشيء من الحبوب والبقول والاثمار والتمور . فلدى الاستعداد للقيام بنوبة الرملة التي انتهت بهزيمة صلاح الدين سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م يتحدث عماد الدين الكاتب ويقول : نودي في الجنود : «خذوا زاد عشرة ايام اخرى زيادة للاستظهار ، فركبت الى سوق العسكر للابتياح ، وقد أخذ السعر في الارتفاع . .»^(٢) .

وفي الغزوات التي اعقبت موقعة حطين ، وقيام الجيش الايوبي بالاغارة على الساحل في منطقة امارة طرابلس الصليبية سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م نودي في الجنود : «انا داخلون الى الساحل ، وهو قليل الازواد ، والعدو يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر»^(٣) . وحين اشتدت الضائقة على اهل عكا في الحصار الشديد الطويل ، بعث الامير بهاء الدين قراقوش من داخل المدينة يشكو الى السلطات قلة الميرة ، فرتب لهم هذا بطسة «سفينة ضخمة» كبيرة وارسلها ، ولكي يتم دخولها الى عكا بسلام ، وضع

على البطسة بعض النصارى من اهل بيروت الذين كانوا قد اسلموا ، لكي يستطيعوا التفاهم مع الاعداء المحاصرين ويؤمروهم عليهم بلغتهم ولبسهم ويزقونهم الحليقة ، وللزيادة في التموين امرهم السلطان ان يرفعوا الصليبان على سارية البطسة ، ويضعوا الخنازير على سطحها ، وساروا نحو عكا ، وفي الطريق اعترضهم الصليبيون ، الا انهم استطاعوا تحرير الخديعة ، وايهامهم بأنهم صليبيون ودخلوا الميناء المحاصر^(٤) ، ومعهم الميرة وهي اربعمائة غرارة قمح وكميات من الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاجون اليه^(٥) .

وقد تكرر ارسال المؤن الى عكا نظراً لطول مدة الحصار ، وكانت تأتياها من مصر ، ذات الثروة الطائلة ، اضافة الى ما كان يرسل اليها من بيروت^(٦) . وابتدع المسلمون من اجل ذلك مختلف السبل المحيلولة دون سقوطها ، ثم حلت بهم الهزيمة وسقطت عكا ، وكانت صعوبة التموين اهم اسباب ذلك ، كما اسلفنا .

وحدث لبعض المدن التي كانت بيد الصليبيين ، ان سقطت بيد الجيش الايوبي بسبب انقطاع الميرة عنها ، بل ان حصن كوكب المنيع القريب من طبرية ، قد سقط بيد المسلمين حين «اعوز سكانها الملح ! فخرجوا منه اذلة ، وسلموه» الى الجيش الايوبي^(٧) . رغم ما في هذا السبب من طرافة . ونجد ان الجيش الايوبي كان يلجأ في الحروب الى قطع طرق التموين عن عدوه لتجويعه ، ومن ثم اضعافه وتسليمه . كما قام بافساد زرع الصليبيين وكرومهم ، وقطع اشجارهم في منطقة الكرك في محاولة لاضعاف صاحبها (رينودي شاتين) المعروف بـ(ارناط) في المصادر العربية^(٨) . وقام ايضا بحصد غلات العدو . . حتى جف زرعهم^(٩) .

التعبئة العسكرية :

تعني التعبئة مجموع الاعمال التي يقوم بها الجيش في مجال تحشيد القوات في ميادين المعارك ، وسوقها الى خطوط

القتال ، او تنسيق القوات للرد على هجمات العدو والانتصار عليه^(٥٥) ولم يخرج عن هذا المعنى مفهوم التعبئة قديماً وحديثاً ، الا ان اساليبها وصنوف جيشها والالات والمعدات التي يستعملها هي التي تغيرت .

وما يعنينا في التعبئة العسكرية للجيش الايوي ، هو ما كان عليه يومئذ فعلاً ، دون أن ندخل في تفاصيل الانظمة التي كانت عليها الجيوش العربية الاسلامية في العهود السابقة ، الا اننا نذكر ان ابرز اشكال تنظيم الجيوش هو نظام الصفوف المتراصة ثم نظام الكراديس^(٥٦) . اما النظام الذي سار عليه الجيش الايوي فهو نظام التخميس والذي لم يختلف صلاح الدين عن سبقة من القادة المعروفين الذين طبقوا هذا النظام من حيث الاساس . ولدى دراستنا تواجهنا مشكلة تحديد نوعية التخميس الايوي ، او طريقة رص اطراف هذا النظام - ولاسيما الجناحين ، الميمنة والميسرة - وموقعهما بالنسبة لجذعه (لقلب الجيش) . فالكتب التي اعتمدنا عليها ، والتي صنفنا في مجال ترتيب الجيوش ، تذكر عدة انساب سارت عليها الجيوش الاسلامية في العصر الوسيط . والواقع ان تلك الكتب لا تشجعهم الباحث من الناحية العملية ، اذ هي تتحدث عن قضايا من المحتمل انها لم تحدث في العصر الذي نبحث عنه ، ليس في مجال تنظيم الجيش فحسب ، بل بالنسبة للقضايا العسكرية الاخرى كذلك .

وتنظيم الجيش الايوي كان على نسق كتاب يشبه ترتيب اعضاء جسم الانسان الرئيسية ، او يشبه الصليب ، فالجذع في الوسط بمثابة قلب العسكر ، والرأس في المقدمة بمثابة طليعة العسكر او المقدمة ، واليدان في الجهتين بمثابة جناحي الميمنة والميسرة ، ثم الساقين معا في الخلف بمثابة مؤخرة او ساقة الجيش . ومن هذا ترى ان التنظيم على هذا النسق قائم على خمسة اجزاء ، ومنها تسمية الجيش بـ«التخميس»^(٥٧) .

ويرى ابن منكلي المصري ان الصفوف كان يتم ترتيبها بثلاثة اشكال ، الفرق بينها هو موقع الجناحين من القلب ، وفيما اذا كانتا تتقدمان على القلب ، او يتقدم القلب على الجناحين ، او كان القلب والجناحان على مستوى واحد في خط مستقيم ، وهو ما يسمى بالصف المستوي ، ويقول ان هذا الصف هو اوثق الصفوف ، ولعله اشهرها ايضاً كما نرى ، وكان ينظم في ستة صفوف ، في كل صف مائة وأحد عشر فارساً . اما الشكل الاخر فيسمى بالصف الهلالي ، وهو خارج الجناحين ، وكانوا يضعون في كل طرف من الجناحين الخارجين كردوساً من الخيل المقوية له .

والشكل الثالث كان على عكس الشكل الهلالي ، ويسمى بالصف المعطوف ، وهو داخل الجناحين ، وكان المسلمون لا يتخذون هذا النوع من الترتيب الا عند الضرورة ، حيث يجعلون اهل البأس والقوة في الميمنة والميسرة ، او يقوون القلب بكردوسين من الخيل ، وكان يراعى في تنظيم الصفوف ان يكون قصار القامة من الرجال قبل اطولهم^(٥٨) . وكان ثمة اشكال اخرى لتنظيم الجيش اقل اهمية وشهرة^(٥٩) .

ويرى الطرسوسي المعاصر لصلاح الدين ان الجنود المشاة (الرجالة) ينبغي وضعهم «أمام الفارس ليكون له كالحصن المانع» على ان يكون الراجل عمياً بستائر يتخذها امامه تكف عنه شر من يضرب بالسيف او الرمح او يرمى بسهم واقع من الاعداء ، ويجعل بين كل راجلين احد رماة النبال ليرمي اذا لاحت له فرصة في الاعداء ، او تبين له من الجمع اختلاله^(٦٠) .

وموضع القائد كان في القلب عادة^(٦١) ، ومعه الاعلام حتى يراه جميع امراء المراتب لتنفيذ التوجيهات التي تصدر منه ، الا انه كان يغير موضعه احياناً ويميل الى احد الجناحين لتفويته ، او لاعادة تنظيمه حين يضطرب لسبب ما ، وفي بعض الاحيان كان يتحول الى المقدمة لاثارة حماس الجنود ،

وليلقي الرعب في نفوس العدو . وكان صلاح الدين يضع القادة والامراء المعروفين على رأس الجناحين ، اما على رأس المقدمة (الطلائع) فكان يضع اصحاب الخيول : السبق والرمي والخفة في الطراد والمقابلة^(١١) . ففي (الوقعة العظمى) التي حدثت بمرج عكا في شعبان ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، والتي سخرها الصليبيون كل قوتهم بعد هزيمتهم الشنيعة في حطين والقدس وغيرها ، نظم صلاح الدين قواته للمسير ، ووضع في الميمنة ولديه الملك الافضل علي والملك الظاهر خضر ثم عسكر الموصل بقيادة ابن البلتكري ، وعسكر ديار بكر بقيادة قطب الدين بن نورالدين صاحب (حصن كيفا) وآمد ، ثم حسام الدين لاشين ابن اخت صلاح الدين ، صاحب نابلس ، وصارم الدين قايماز النجمي ، وجموعاً عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان يقودها جميعاً ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر ، ابرز ابناء الاسرة الايوبية شجاعة وجراً .

اما الميسرة فكان عليها الامير علي بن احمد المشطوب الهكاري مقدم الاكراد ، والامير مجلي بن مروان ، وجماعة من المهرانية والهكارية ، وسرتقش مقدم عسكر سنجار ، وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين كوكبوري بعسكره ، وفي مؤخرة الميسرة كبار الاسدية ، مثل يازكوج وارسلان بغا . وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى الهكاري وجمعه ، اما صلاح الدين فكان يطوف بنفسه على الاطلاب ويحثهم على القتال^(١٢) .

يظهر من ذلك ان العبد الاكبر كان يقع على الجناحين ، بوضع ابرز الامراء على قيادتهما ، في حين ان المقدمة وكذلك القلب لم يكن فيهما احد من القادة الكبار . وقد تكرر هذا الترتيب في شتى معارك هذا الجيش مع احداث بعض التغيير في هذا الجناح او ذاك^(١٣) . الا ان السلطان كان - في كل الحالات - يعيى العسكر ويتفقد الصفوف بنفسه^(١٤) ، ويبقى على اتصال وثيق باجزاء الجيش

كلها ومحافظاً على الارتباط بامراء التعبئة ويشرف على سير المعركة ، ليقدر الموقف اللازم اتخاذه حين تضطرب الصفوف ، ولذلك فانه يستخدم احتياطه في الاماكن الضرورية ، ويكشف قواته لمقاومة العدو^(١٥) .

الاطلاب واصناف الجيش حسب كل صنف :

كان الجيش الايوبي قد عرف نظام الاطلاب ، الذي تحدثنا عنه من قبل ، وهو قائم على اساس تقسيم الجيش الى مجاميع ، كانت بمثابة كتائب يكون على رأس كل مائتي فارس ، او مائة او سبعين فارساً ، امير مقدم^(١٦) . فيقال ان الحملة الفلانية تضم كذا من الاطلاب ، الا اننا لا نستطيع ان نجزم بان الجيش الايوبي اتبع نظام الاطلاب بتلك الدقة التي عرف بها الجيش المصري في عهد المماليك ، رغم ان لفظ الاطلاب يرد كثيراً في كتب المؤرخين المعاصرين لصلاح الدين^(١٧) وخلفائه . لكنه يرد احياناً وكأن القصد منه هو ترتيب الصفوف دون ان يقصد عدداً معيناً .

وكان لكل صنف من الصنوف المقاتلة والمساعدة مزاياه يتميز بها عن الصنوف الاخرى ، وهذا التميز يظن بنوع السلاح الذي يستعمله والعتاد الذي يتجهز به ، والواجبات الملقاة على عاتقه . ولا يمكن للجيش ان يتحرك بنجاح في العمليات العسكرية ما لم يعمل جميعاً بوفاق وتنسيق تامين ، ويساعد بعضها البعض الاخر في حالات الاشتباك . وكان هناك صنفان اساسيان في الجيش الايوبي ، اضافة الى الاصناف الجانبية ، وهما :

(أ) صنف الفرسان (الخيالة) ويؤلف هذا الصنف قسماً ملازماً لكل جيش ، ويقوم بأعمال مجيدة ، وهو عصب الجيوش في حروب العصور الوسطى ، وكانت من مهماته الرئيسية : القتال والاستطلاع (او الاستكشاف) نظراً لما تتطلبه هاتان العمليتان من سرعة الحركة الضرورية في الهجوم والكشف ومطاردة العدو وقطع طرق العودة عليه للتزود بالقوت والمؤن . وكانوا يختارون - عادة - اهل

النصيحة والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب ، ويتفادون الاشتباك مع العدو حين القيام بمهمة الاستكشاف ، فالهدف من عملهم - في الاساس - هو تقدير قوة العدو ، ومعرفة مواطن الضعف فيه^(٣١) . وكذلك يقوم الفرسان بنجدة المواضع المعرضة للخطر المفاجيء . الا انهم كانوا يوضعون خلف المشاة في ترتيب الصفوف ، كما يذكر الطرطوسي بقوله : «ولتكن الخيالة والابطال من وراء الرجال» . ينتظرون الحملة فاذا هموا بها ، فتح لهم باب يحملون منه بالتعاون مع الرجال^(٣٢) .

اما المزايا التي كان ينبغي ان تكتمل في الفارس ، فكانت تحدد من ناحية الترويض الجسدي بالقوة البدنية والالام بفن مواجهة العدو ، كفن المصارعة (النازلة) ومعرفة استعمال الرمح ، وفن الرماية^(٣٣) . وكان الفرسان ينسلحون بالسيوف والحراب الطويلة ، ويرتدون الزرد والترس والخوذ ، اما خيولهم فمن الراجح انهم كانوا يضعون عليها التجافيف والسروج^(٣٤) .

(ب) صنف المشاة (الرجال) :

وكان يؤلف القسم الاعظم من قوة الجيش ، ويقوم باعباء القتال وتحمل مشقاته ونتائجه . وكانت الاسلحة التي يحملها افراد هذا الصنف اسلحة خفيفة ، لانهم يسبرون على اقدامهم ، فكانوا يستعملون السيف والاقواس والرمح القصيرة . وكان المشاة يقومون باخراج افراد العدو من خنادقهم ويقضون عليه^(٣٥) ، ويكلفون بحماية الجيش اثناء المسير للحيلولة دون مداهمته من قبل العدو ، وحراسة القوافل التي تحمل المؤن والعتاد اثناء تنقلها . وفي ترتيب صفوف الجيش كان المشاة يوضعون في الصفوف الامامية ، وخلفهم الخيالة والابطال ، كما ذكر الطرسوسي^(٣٦) .

(ج) اما الصنوف الاخرى المساعدة :

فكانت تعرف باسماء الاسلحة والاعتدة التي كانت تستعملها ، والواجبات التي يقوم بها كل صنف ، كصنف

المتجنبيين والدبابين (قائدي الدبابات) والنفاطين وصنف المخابرة وصنف التموين وغيرها .

وقبل التوجه الى ساحة القتال كان القائد يقوم بعرض الجيش وتعيين مواضع الاطلاع وسد الثغرات والحروق والتأكد من صلاحية الاسلحة التي يحملها المحارب . فقبل التوجه الى حطين مثلاً وقف السلطان يوم العرض يرتب العسكر ترتيباً ويؤيه تبويبا ويعبئه بعيدا وقريباً . وقرر لكل امير امرا ولكل مقدم مقاماً ، ولكل موفق موقفاً ولكل كمين مكاناً . . وعين لكل امير موضعاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل عنه ، ولا يغيب جمعاً ولا يسرح أحد منه . واخرج الجاليشية^(٣٧) الرماة الكماة من كل طلب ، وقال : «اذا دخلنا بلد العدو فهذه هيئة عساكرنا وصورة مواردنا ومصادرنا ، ومواضع اطلالنا ، ومطالع ابطالنا»^(٣٨) .

وكان ثمة شخص في الجيش مهمته النداء واستنفار الجند للقتال ، وشحذ الهمم ، وكان موضعه قريباً من القائد عادة ، فكل ما يصدر منه من اوامر يبلغه بصوت عال الى عموم الجيش ، ويسمى «الجاووش»^(٣٩) . وكان ينادي بالقوم ان يستعدوا ، او ان الحاجة تدعو الامير الفلاني بالانتقال باطلائه لتقديم المساعدة الى الجهة الفلانية اثناء القتال ، بعد ان احدث العدو ثغرة فيها ، او يذكي حماس المقاتلين بنداءات مثيرة خاصة من مثل «بالاسلام وعساكر الموحدين»^(٤٠) . والملاحظ ان هذه المهمة «مهمة النداء» ظهرت بوضوح بعد سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، اي بعد موقعة حطين ، فلم نعث من خلال النصوص ، على وجود الجاووش في الجيش قبل التاريخ المذكور^(٤١) . ولعل تفسير ذلك هو ان الجيش الايوبي زاد حجمه فبات من الضروري وجود من يقوم بهذه المهمة لتعميم الاوامر السلطانية على الفرق والاجنحة ، ونرى - ايضاً - ان اذكاء حماس المقاتلين أصبح ضرورة اكثر من ذي قبل في الفترات التي لم يعد بوسع الجيش ان يحرز الانتصارات كالسابق ، بعد ان ضعفت لديه

قدرة الاقتحام بعد ان تلاحقت الامدادات الواسعة الى الصليبيين الذين كانوا لايزالون يحتلون بعض المواقع الحصينة في الارض العربية في فلسطين والساحل الشامي .
(د) الفرق الملحقة بالجيش :

١ - الفرقة الهندسية : وكانت تقوم بمهمات تتطلب معرفة خاصة بشؤون الهندسة العسكرية التي يلزمها القتال ، ولاسيما قتال الاسوار والخنادق ، مثل نصب المعدات الحربية الثقيلة ، كالمجنق والدبابات والاقواس الثقيلة مثل قوس الزبار والجرح والقوس المتعددة الاتجاه وقاذفات النفط ، ثم بناء المعسكرات والاسوار ، ولاسيما في الاماكن ذات الميزة العسكرية الحساسة ، وتشيد الجسور ونسفها وردم الخنادق وحفره وحفر الابار وتعين مواقع ضرب الحصار حول اسوار المدينة المنوي فتحها ، وتهشم هذه الاسوار وتغير مجاري الانهار ، وغيرها من الاعمال الهندسية التي كانت ضمن واجبات هذه الفرقة .

فلدى حصار بيت المقدس ظل صلاح الدين وجيشه يطوفون حوله طيلة خمسة ايام ، واخيراً استطاع الملمون بشؤون هندسة الاسوار ، العثور على المكان المناسب في الجهة الشمالية من السور ، نحو باب عمودا وكنيسة صهيون ، فأمر صلاح الدين بنصب معدات الحصار عند هذا الموضع^(٨١) .

وفي عام ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، ولدى حصار الموصل ، الذي عجز جيش صلاح الدين من احراز نصر عسكري مباشر فيه ، رغم تكرار محاولاته بسبب متانة اسوار هذه المدينة ، اشار عليه بعض رجاله الى تعطيش المدينة بتمويل مجرى نهر دجلة وعرضت الفكرة على فخر الدين ابن الدهان البغدادي ، مهندس زمانه ، لابداء رأيه ، فقال : «هذا ممكن ولا يتعذر ، ويتيسر ولا يتعسر»^(٨٢) . وجاء في كتاب بعث به صلاح الدين الى الخليفة العباسي ، والذي كتبه مستشاره المعروف القاضي الفاضل : «وذكر المهندسون

اهل الخبرة انه سهل تحويل دجلة الموصل عنها ، بحيث يبعد مستقى الماء منها ، وحينئذ يضطر أهلها الى تسليمها بغرق قتال ، ولا حصول ضرر في تضيق ولا نزال»^(٨٣) . الا ان صلاح الدين لم ينفذ المشروع ، ولعل ذلك كان لصعوبته وارتفاع تكاليفه وضيق الوقت .

٢ - الفرقة الطبية :

ومصاحبة الفرقة الطبية للجيش الى ميدان القتال لمعالجة الجرحى والمرضى كانت امراً ضرورياً . وكان الاطباء ومساعدوهم يشكلون ما يشبه مستوصفا متنقلا ، فيه ما يحتاجون اليه من ادوية وادوات ونقالات ، وكانت هذه المعدات تحمل على ظهور الحيوانات ، ثم ينصب المستوصف داخل خيام يبيت فيه المحتاج الى العلاج . والظاهر ان عهد صلاح الدين كان فترة انتعاش للشؤون الطبية ، وذلك لكثرة الحاجة اليها ، واغداق المال عليهم بسخاء ، والواقع ان الاهتمام بشؤون الطب وتشجيع القائمين عليها بدأ منذ وقت مبكر من العهد الايوبي ، وقد اولى صلاح الدين الاطباء الذين خدموا البلاط الفاطمي بمصر او البلاط النوري الاتابكي في الشام اهتماماً كبيراً ، ومن هؤلاء الاطباء ابو البيان بن المدور الذي كان له جامكية «مرتبة» تصل اليه كل شهر ، وبقي على تلك الحال نحو عشرين سنة . ولاي البيان مصنفات طبية^(٨٤) . والطبيب (حكيم الزمان) عبد المنعم بن عمر الغساني الذي كان علامة زمانه في صناعة الطب والكحل واعمالها ، وقد استقر في دمشق بعالج مرضاه ، وكان صلاح الدين يحله كثيراً^(٨٥) . ومن اطباء هذا العهد ابو الحسن علي بن ابي عبدالله عيسى المعروف بابن النقاش البغدادي الدمشقي^(٨٦) ، وعفيف الدين بن عبد القاهر الذي الف كتاباً اهداه الى صلاح الدين . وكان الاطباء يصحبون الجيش في تنقلاته حين تقتضي الضرورة . ويلاحظ ان الاطباء كانوا يستقرون في دمشق بسبب وجود المستشفى النوري

الكبير فيها ، وقد اختيرت دمشق بسبب قربها من ميدان القتال ، فكان جرحى ومرضى الحرب يرسلون اليها بيسر . هذا وكان لصلاح الدين طبيبه الخاص يصحبه في حملاته ، لانه كان يعاني من آلام والتهابات مزاج ، وتظهر دماامل في ظهره ، حتى لآمه اصحابه على قلة اعتناؤه بصحته ، وعدم اخذ قسط من الراحة ، فكان يرد عليهم بقوله : اذا ركبت للجهاد زال عني الالم حتى انزل .

٣ - فرقة الموسيقى العسكرية :

بعد ان ينادي الجاوش بالعسكر ان يستعدوا ، تشد الرايات وتبدأ الكوسات^(١١) بالضرب ، وكان هذا بمثابة الموسيقى العسكرية ، او المارشات في الوقت الحاضر ، كجزء من عملية اثارة حماس المقاتلين^(١٢) . وثبت وقائع التاريخ الايوبي ان الموسيقى العسكرية كان لها شأن كبير في الجيش حتى خصص لها مكان خاص يسمى «الطبلخاناه» اي «مكان الطبل» ، ويذكر المقريري بهذا الصدد انه بعد ان استقر صلاح الدين في مصر وانتهت الدولة الفاطمية «رتب نوب الطبلخاناه» ونظم شؤونها^(١٣) . ويشرح القلقشندي معنى هذا المصطلح ويقول : «ومعناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الآلات» وقد كانت هذه الآلات تضرب في اوقات القتال ، وفي بقية الايام «ثلاث مرات في كل يوم»^(١٤) ، وكان الذي ينقر على الطبل يسمى (دبندار) والنافخ في البوق يسمى (منفر) اما الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض ، فكان يسمى «كوسي»^(١٥) .

وكانت العادة ان تضرب على الكوسات لدى قدوم شخصية عسكرية هامة ، وتنشر معها الاعلام والبيارق وتنقر البوقات ، كما حصل - مثلاً - لدى قدوم واستقبال الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين^(١٦) . كما كان لكل مناسبة ايقاعها الخاص ، تمرن على عزفها العازفون ، وعلى سماعه المقاتلون ، فثمة ضربات خاصة حين تدعو الحالة الى

عدم التوقف عن القتال ، رغم الهزيمة التي لحقت بهم فكان «الكوس يدق ولايفتر» . وكذلك ضربات خاصة ببشائر النصر ، فحين وصل الخبر في شوال ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م بان الاسطول الايوبي قد استولى على مراكب الفرنج التي كانت تحمل اكثر من خمسمائة نفر منهم «سر المسلمون بذلك ، وضربت ببشائر النصر ، ونفق بوق الظفر»^(١٧) .

٤ - حملة اعلام الجيش :

وكان ضمن الجيش جماعة مهمتها حمل الراية والحفاظ عليها . والراية او العلم بمثابة الشارة التي تميز جماعة عن جماعة اخرى ، وتتخذ من لون معين . وكان لون راية صلاح الدين اصفر ، وفي وسطه صورة النسر علامة القوة والثقة في النصر . وبين الرايات «راية عظيمة من حرير اصفر مطرزة بالذهب عليها القاب السلطان واسمه ، وتسمى العصاة ، وراية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش ، ورايات صفراء صغار تسمى السناجق»^(١٨) ، وكانت الراية الكبيرة تحمل عادة في ركب السلطان .

ووضع صورة النسر على الراية ينحدر اصله الى عهود قديمة ، إذ وجد مرسوماً على رايات كثير من الدول القديمة^(١٩) . وفي التاريخ الاسلامي نقشه عماد الدين زنكي على النقود ، ثم اتخذها الارتقيون شارة مميزة لهم ، واخذ صلاح الدين هذا التقليد منهم ورسمه على رايته . ولعل صلاح الدين كان مبتكراً في اتخاذ الاصفر لونا لرايته^(٢٠) ، وعن الراية الايوبية يتحدث العماد الكاتب لدى فتح الجيش لصيدا سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، ويقول : جاء رسل صاحب صيدا بمفاتيحها ، واذهبنا ظلماتها من العزائم الغر بمصاييحها ، وطلعت الراية الصفراء باليد البيضاء على سورها^(٢١) ، ويقول العماد في مكان آخر «كانت الاعلام السلطانية صفراء»^(٢٢) .

هذا وقد ورد وصف الراية الايوبية في مجموعة من

فصائد شعراء ذلك العصر في مناسبات النصر على العدو الصليبي ، ورفع العلم الايوبي . ففي معركة (بيت الاحزان) سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، هنأ جماعة من الشعراء بالفتح ، منهم بهاء الدين ابو الحسن علي الساعاتي (ت . ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م) بقوله :

وما رفعت اعلامك الصفر ساعة
الا أن غدت اكبادها السود ترجف^(١٨)
ومدحه الشاعر الحسن المعروف بـ (العلم الشاتاني)
بقصيدة مطلعها :

ارى النصر مقروناً برايتك الصفرا
فسر واملك الدنيا فانت بها احري^(١٩)
وكانت الراية - بوصفها رمزاً للسيادة - ترفع في الاماكن الهامة كالحصون والسفن والمؤسسات الحربية الرئيسية ، وحين يهزم احد الطرفين ، فان اول ما كان يفعله الجانب المنتصر هو نزع راية المهزوم وانزالها ورفع رايته مكانها ، كما فعل المسلمون في الحصون التي حرروها والتي كانت بيد الصليبيين ، او كما فعل الصليبيون في عكا ؛ فحين هزموا المسلمين واخذوا هذه المدينة المهمة ودخل المركيس البلد ومعه اربعة اعلام . . فنصب علماً على القلعة ، وعلماً على مئذنة الجامع ! وعلماً على برج الداوية ، وعلماً على برج القتال ، عوضاً عن علم الاسلام الايوبي^(٢٠) . . .

ثالثاً : المؤسسات الخاصة بإدارة شؤون المعارك

١ - البريد والاستخبارات والكمائن

تنظيم امور البريد

اقتضت ظروف الحرب ، واشتداد الصراع مع المحتلين الصليبيين وجود مؤسسة تهتم باستطلاع احوال العدو ، ومعرفة مدى قوته من حيث التعبئة وانواع الاسلحة والاعتدة ، ورصد تحركاته . وتهتم كذلك بارسال الاخبار

وتسلمها من اطراف البلاد . وكان اولو الامر في الدولة يحرصون على سرية المعلومات وعدم تسرب الانباء الخاصة بالجيش الى الاعداء .

وكان تنظيم امور البريد يجري بواسطة ديوان خصص لهذا الغرض سمي بـ ديوان البريد ، وضع تحت اشراف بعض الموظفين ، وكلت اليهم ادارة شؤون هذه المؤسسة . وكانت الاخبار ترسل بخيول مقصوصة الاذنان ليكون ذلك علامة تميزها عن غيرها من الخيول . وبقي امر البريد على هذه الحال الى ان جاء بنو زنكي وبنو ايوب ، فانهم اعدوا لذلك النجب^(٢١) المنتخبة ، وما زال الامر كذلك الى ان انقرضت دولتهم وجاءت الدولة التركية^(٢٢) (اي دولة المماليك) .

وكان المتولون على شؤون هذه المؤسسة يرسلون البريدي ليقطع مسافة الى ان يصل الى محطة من المحطات التي وضعت بين اطراف اقاليم البلاد . وكانت (المحطات) تزود بالماء الكافي والزاد والعلف ، ويوفر فيها المكان الخاص ليقوم برده الشتاء وحر الصيف ، ومن هذه المحطات يستطيع البريديون ان يستبدلوا هجنهم المتعبة باخرى مسترجعة ، تعينهم على تأدية واجبهم بأقصر وقت وأيسر سبل^(٢٣) .

ويختار البريدي عادة من اشخاص عرفوا بالكفاءة والامانة والذكاء ومعرفة طبيعة الارض التي يعملون فيها ، نظراً لاهمية العمل الذي انيط بتنفيذه اليهم ، لذا قال القلقشندي : ينبغي ان يكون البريدي «قديراً على تنميق الكلام وتحسين العبارة ، وان يكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ولين واستحكام منعة . . صدوقاً بريئاً من الطمع»^(٢٤) .

وفرد الاوسي الانصاري صفات كثيرة يلزم توفرها في البريدي (في العيون والجواسيس) كأن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، وذا حدس صائب وفراصة تامة ، ليدرك

العدو ، ولا يشك بهم بسبب سمحتهم ومظهرهم . فكانوا يزودون الجيش الايوي باخبار العدو التي يصعب الحصول عليها عن طريق رجال استخباراته المسلمين ، فذات مرة اخبر هؤلاء صلاح الدين ما ينوي العدو القيام به من «كس العسكر الاسلامي ليلاً»^(١٠٠) . وكذلك زودوا الجيش بتفاصيل عن المنجنيق الصليبي الهائل الذي انفقوا عليه ألفا وخمسمائة دينار ، والذي اعدوه للهجوم على عكا^(١٠١) ، وكذلك زودوا الجيش باخبار الحملة الالمانية^(١٠٢) .

وقد استعمل في البريد في حصار عكا السبل كافة للاتصال بالمحاربين المحاصرين للاطلاع على اوضاعهم الصعبة ، وكذلك لارسال المال اللازم اليهم ، فكان يتصل بهم بوساطة الحمام الطائر والسباحين ، ولعل من اشهر قصص البطولة في البريد الايوي قصة العوام عيسى الذي اعتاد الدخول الى عكا رغم الحصار الصليبي البحري المضروب حولها ، لا يصال توجيهات القائد في كتب يشدها على وسطه مع مبلغ من المال ، ولدى وصوله الى عكا كانوا يطلقون طائراً لاعلام صلاح الدين بسلامة وصوله . ثم غرق عيسى في ساحل عكا^(١٠٣) .

٢ - اليزك «فرق الاستطلاع» :

اليزك : ومعناه (طلائع الجيش)^(١٠٤) . وينبغي التمييز بين ما يعنيه اليزك بهذا المعنى وبين (الجاليش) الذي يعني مقدمة القلب في الجيش ، او الطليعة منه . فالجاليش هو الجزء الامامي من مركز القلب ، او قلب الجيش الذي يسير برمته نحو القتال ، اما اليزك فهو جماعة الاستكشاف التي ترسل الى جهة العدو قبل توجه الجيش نحوه والمهمة التي يقوم بها محاربو اليزك كانت جزءاً من نظام الاستخبارات ، وابطال المعلومات العسكرية الآنية الى قيادة الجيش بالسرعة الممكنة . اذن فبوسعنا ان نقول ان اليزك عبارة عن الفعالية البريدية اليومية التي يقوم بها افراد مختصون يكونون تحت الطلب . ليذهبوا ويتعرفوا عن كتب على ما يفعله العدو او

بوفور عقله وصائب حدسه من احوال العدو ، وبالمشاهدة ما كتمه العدو عن النطق به فيستدل ببعض الامور على بعض . وان يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ، وله دربة بالاسفار ومعرفة بالبلاد التي يتوجه اليها ، وعارفا بلسان اهل البلاد التي يتوجه اليها ، ليلتقط ما يقع من الكلام الذي يسمعه ممن يخالطه من العدو ، على الا يكون من جنس العدو ، فان الجنس يميل الى الجنس بالطبع . واخيراً ان يكون صبوراً على ما لعله يصير اليه من العقوبة إذا ظفر به العدو ، حتى لا يخبر باحوال مرسله ، ولا يطلع على وهن فيه وفي عسكره^(١٠٥) . ولا شك انه كان من الصعب توفر كل هذه الصفات في رجل المخابرات ، وإذا وجد رجل كهذا ، فلا بد ان هذا يعني انه رجل استخبارات مثالي .

والواقع ان بريد واستخبارات الجيش الايوي اشتهر دائماً بالتفوق^(١٠٦) على ما كان عند الصليبيين . ففي وقعة الرملة التي حدثت سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م بجنوبي فلسطين ، والتي انتهت بهزيمة الجيش الايوي ، اثبتت احداثها اللاحقة ان هذا الجيش يملك بريداً فعالاً ، استطاع بسرعة تحركه ان يقضي على الشائعات التي انتشرت في مصر ، والتي افادت بمقتل صلاح الدين ، وقضت سرعة هذا البريد على طموح الرجال الذين مدوا اعناقهم للانقضاض على الحكم الايوي في مصر ، وكان ذلك حين ارسل قادة الجيش من الحدود المصرية رسلاً على الهجن الى القاهرة ليؤكدوا لكل من سولت له نفسه التمرد على حكمه ، ان القائد صلاح الدين ما زال على قيد الحياة ، وحمل الحمام الزاجل بطائق البشرى بعودته الى القاهرة^(١٠٧) .

وبلغت دقة وسرعة مخابرات الجيش الايوي حداً من الدقة والسرعة ان «اخبار العدو كانت تتواصل اليه ساعة فساعة الى الصبح»^(١٠٨) ، ولا سيما خلال حصار عكا الطويل . وكانت استخباراته تضم بعضاً من الصليبيين المستأمنين . وتكمن اهمية هؤلاء انهم كانوا يعرفون لغة

ينوي القيام به .

وكان افراد اليزك يختارون من بين اهل النصح والنجدة والتجربة في الحرب للقيام بهذا الواجب . وكان هؤلاء يتحاشون الاشتباك بالعدو عند الاستطلاع ، لان الهدف من واجبهم هو «تقدير قوة العدو وكشف مواطن الضعف فيه ، لذلك فانهم كانوا لا يلبسون الدروع او التروس وغيرها من الاثقال التي تعيق حركتهم ، ويختارون الجياد الهادئة السريعة ، الجيدة الخوافر والظهر ، التي لا تهيج بسهولة»^(١١) . ويلاحظ ان المؤرخين المعاصرين ، وخاصة ابن شداد ثم العماد الكاتب ، يذكرون لليزك في سياق رواياتهم مهمات كثيرة كان يقوم بها ، وصار ارسال الاخبار احدى تلك المهمات^(١٢) . ولا ادل على اهمية وحظوة اليزك في عهد صلاح الدين وخلفائه حين وضع على قيادته شخصيات عسكرية كبيرة من امثال الملك العادل اخي صلاح الدين^(١٣) ، وابنه الاكبر الملك الافضل^(١٤) وكبار امرائه مثل بدرالدين دلدردم الياروقي^(١٥) وعزالدين ابن المقدم^(١٦) وعزالدين جورديك^(١٧) ، وعلم الدين سليمان ابن جندر^(١٨) وغيرهم . وكان هؤلاء الامراء يقودون اليزك بالتناوب ، فكل منهم له نوبته^(١٩) .

ومن المهمات التي اوكلت الى اليزك تفقد احوال المدن ، ولاسيما بيت المقدس حين هدده الصليبيون باعادة احتلاله ثانية بعد تحريره في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، فما كان على الملك العادل الا ذهب على رأس يزك للاستطلاع على قدرة هذه المدينة الدفاعية ، في رمضان ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م^(٢٠) ، وكذا ما فعله الامير عزالدين جورديك وجمال الدين فرج حين سارا ليكونا قريبين من (يافا) في صورة يزك ، ويطلعا على حجم القوات الصليبية الموجودة فيها^(٢١) .

وحدث ان قام اليزك بمهمة الكمين ، كما حدث في طريق يافا ، وقد اوكلت المهمة الى بدر الدين دلدردم ، حين

«كمن حول الطريق مع جماعة جيدة ، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحملون قافلة تحمل ميرة» . وجرى بين الفريقين قتال كانت الدائرة فيه على العدو ، وقتل ثلاثون نفرا منهم وأسرت جماعة^(٢٢) . وصار اليزك يقاتل الصليبيين في مناسبات عديدة ، وكاد اليزك في احدى مصادماته ان يلقي القبض على الملك ريتشارد قلب الاسد بعد ان اصابته طعنة ، وحال احد المقاتلين الصليبيين دون اعتقاله حين قاده بنفسه . . وافلت الملك واخفي أثره^(٢٣) . وكذلك قام اليزك بحماية الجيش الايوبي من هجوم مباغت كان يقوم به الصليبيون ، كما حصل عند انطاكية^(٢٤) .

ان تلك المسؤوليات المتعددة الجوانب التي انيط تنفيذها الى اليزك لتدل على مكانة هذا التنظيم العسكري الصغير الفعال ضمن الجيش الايوبي . وهذا يعني ان هذا التنظيم كان يضم في صفوفه بعض خيرة الجنود واشجعهم ، كما رأينا ، وكان حجمه يتوقف على المهمة العسكرية التي يقوم بها .

٣ . حمام البريد :

من ابرز سبل الاتصال في العصور القديمة والوسطى ، استعمال الحمام الزاجل ، او ما يسمى بالحمام الهوادي لقدرته الفائقة على الاهتداء الى عشه رغم ابتعاده عنه مسافات شاسعة (١٢٨) وبسبب هذه القدرة اطلق عليه (الدميري) اسم الشيطان (١٢٩) في حين وصف القاضي الفاضل هذا الطير بانه «ملائكة الملوك» يشير الى نزوله على الملك من الجو نزول الملائكة على الانبياء من السماء ، مع فرط ما فيه من الامانة ، لا يتوهم من جهتها خيانة^(١٣٠) ويضيف صاحب الروضتين الى كلام القاضي الفاضل قوله : «لقد أحسن فيما وصف ، وابدع فيما استنبط وانصف ، وهو بذلك اولى واعرف»^(١٣١) .

ان هذا النوع من الحمام ، اضافة الى اهتدائه الى وكره ، اشتهر بسرعة طيرانه^(١٣٢) كما وربما اصطياد وغاب عن

موطنه عشر سنين فاكثر ، ثم هو على ثبات عقله وقوة حفظه ونزوعه الى وطنه ، حتى يجد فرصة ليطير اليه^(١٣١)، ولهذا بلغت اثمان الحمامة مبالغ مرتفعة جداً ، وصل الى سبعمائة دينار ، واحياناً الف دينار ، وبلغ ثمن البيضة الواحدة من هذا النوع الفاخر عشرين ديناراً^(١٣٢)

وكان للحمام البريدي مطارات منتظمة هي اوركارها^(١٣٣)؛ وقد عين عليها براجون او حراس برعوا في الاعتناء بشؤونه ، وفي تدريبه واطعامه وراحته ، واطلاقه واستقباله . لكن جرت العادة ان الطائر اذا هبط بالبطاقة لا يقطعها البراج بيده ، بل يأخذه الى القائد ، خشية ان يكون في البطاقة سر ، ينبغي عدم اطلاق احد عليه ، حتى ولو كان الوقت غير مناسب ، كأن يكون القائد يتناول طعامه او نائماً ، فيترك طعامه او يوقظ من نومه ، حتى لا يفوت على نفسه ورعيته الامور الهامة العاجلة ، فيفك الرسالة بنفسه^(١٣٤)، او يقوم رئيس الحرس بهذه المهمة^(١٣٥)

لا نريد الدخول في تفاصيل تاريخ استعمال حمام البطائق في العصور المختلفة ، لكننا نقول انه كان له شأن كبير في مخبرات الامم القديمة ، الا ان المسلمين كانوا اكثر عناية به من سواهم^(١٣٦) ورغم اعتناء العباسيين به؟ ، الا ان المصادر تؤكد ان انايكة الموصل كانوا اكثر من اولى الحمام اهتمامهم ، وهذا ما يقال بالنسبة لنورالدين محمود ، ثم صلاح الدين ، نظرا لظروف الصراع مع القوى الصليبية التي اقتضت الاهتمام بالبريد الجوي ، وكذلك عرف الحمام الزاجل في مصر الفاطمية^(١٣٧)

لقد استعمل الحمام على نطاق واسع في عهد نورالدين محمود منذ توليه حكم الشام وحلب^(١٣٨) وفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م - اي قبل وفاته بستين - نظم شؤون الحمام على اسس جديدة ، وشدد على الاهتمام بأمره . فكانت لرعايته به وتنظيم مهابطه في انحاء الدولة النورية ، ووريتها الدولة الايوبية ، وتعيين البراجين وتقاليده كتابة

الرقع وكيفية ربط البطاقة واستقبال الحمام ، وفك وقراءة الرسالة ، كل هذه الامور كانت موجودة حين استلم صلاح الدين مقاليد الامور ، وكل ما فعله هذا القائد انه زاد في ربط مصر بالشام بواسطة البريد الطائر ، حتى صارت هناك شبكة من المهابط في تلك البلاد ، تمتد من اقصى جنوبي مصر من اسوان الى الصعيد ، وعيذاب على البحر الاحمر الى القاهرة ، ومن القاهرة الى السويس والى بلبس ، ومنها الى الشام ، ومن بلبس ايضا الى الصالحية والى قطيا^(١٣٩) ، ومن قطيا الى الوراثة في الطريق الى غزة . اي ان بلبس الواقعة شرقي القاهرة كانت مركز المهابط في مصر ، ومثلها كانت غزة في جنوبي فلسطين على الساحل حيث يبدأ منها خط الى الخليل والى اللد ، ومنها الى قاقون^(١٤٠) ، ثم جنين فصفد فبيسان فاربد فسطفس ، ومنها الى الصنمين^(١٤١) . فدمشق ، ومن كل من هذه المراكز الى قارة^(١٤٢) ، ومن الانخيزة الى حمص ، ومنها الى حماه فالمعة فحلب فالبيرة ، وهكذا بقية مدن الجزيرة الشامية^(١٤٣) .

ان هذه المحطات الكثيرة كانت تضم ولاشك عدداً كبيراً من الحمام ، وقد قدر في وقت لاحق عدد الحمام الذي كان موجوداً في برج قلعة القاهرة وحده بحوالي الف طائر^(١٤٤) . وصارت مهنة تربية الحمام مهنة مربحة ، نظراً للقبال الشديد عليه ، ولاسيما اثناء حصار الصليبيين لعكا . يقول العماد الكاتب : صرنا نحبو صاحب الطيور بالاطراء ونخصه بالمدح والثناء ، ونأمره بالاستكثار ، ونطلبها منه مع الليل والنهار ، حتى قل وجودها عنده لكثرة الارسال^(١٤٥) ، وكان الجيش يصحب معه حمام الجهة او الجهات التي ينوي الاتصال بها ، او حين كان يبغى طلب المعونة منها ، كما حدث في سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م حين اجتمع الصليبيون وساروا نحو دمشق مع ملكهم ، فاغاروا على اعمالها ونهبوها واسروا وقتلوا وسبوا ، فارسل صلاح الدين ابن اخيه عزالدين فرخشاء في جمع من العسكر

اليهم ، وطلب منه ان يكون على اتصال دائم به عبر جناح الحمام^(١٠٠) . وحصل حادث شبيه في وقعة (بيت الاحزان) سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، إذ وردت بطاقة الطير الى دمشق ، فخرج السلطان فما وصل الى الكسوة القريبة من دمشق ، الا رؤوس الصليبيين واسراهم قد جيء بها^(١٠١) . ولعل ما يؤكد تنظيم البريد الجوي في هذا العهد تواصل الحمام على صلاح الدين من مختلف انحاء البلاد اثناء مرابطته على عكا ، فيما ذكره ابن شداد انه اثناء رمضان ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م ارسل حمام من حلب الى حماه ، ومن حماه الى عكا وتحت جناحه خبر يعلن فيه نواب الملك الظاهر صاحب حلب عن قيام قوات العدو من جنود امارة انطاكية الصليبية القريبة من حلب ، بشن الغارات على القرى التابعة لحلب ، مستغلين ضعف قواتها بسبب ذهاب جندها الى عكا ، الا ان قوات حلب الاحتياطية استطاعت دحر المعتدين الذين لم يشعروا الا بالسيف قد وقع فيهم ، فقتل من عسكرهم خمسة وسبعون نفراً ، واسر منهم خلق كبير^(١٠٢) .

وقد تفنن المشرفون على بريد الجيش الايوبي في اخفاء اسرارهم العسكرية ، لكي لا يطلع عليها العدو حتى انهم استعملوا رموزاً خاصة ، او ما تسمى بالشفرات - بلغة هذا العصر - تدل على امور متفق عليها مقدماً . فقد ذكر العماد الكاتب ان رجال البريد كانوا «يحملون كتباً وطيوراً ، ويعودون بكتب وطيور ، ونكتب اليهم ويكتبون البنا على اجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها سر الامور ، ويودع المكتوب والمكتوم ما نطلعهم عليه من الخفي المستور»^(١٠٣) .

٤ - الكمائين : لعل من اكثر فترات التاريخ الاسلامي نشاطاً للكمائين هي فترة الحروب الصليبية ، ولا سيما ابام صلاح الدين ، نظراً لقرب مواقع الاحتكاك العدائي واستمراره بين المسلمين والمرتكزات الصليبية التي اقاموها على الجهات الساحلية من بلاد الشام ، او القرية منها .

ونعني الكمائين ارسال جريدة^(١٠٤) او سرية من المحاربين الفرسان الى جهات العدو ومباغتته والايقاع به في مناوشات محدودة لا تصل الى حد القتال الواسع النطاق ، اي ان العملية كانت تبدأ في السر ، ولهذا كان ينبغي ان تتوفر في رجال الكمين جملة من المواصفات لكي يستطيعوا ان يقوموا بمهمتهم بالصورة المطلوبة .

وقد فصل مصنفو كتب اصول الحرب في ذكر تلك المواصفات ، فيما قاله الاوسي : ان على رجال الكمين ان يكونوا اشجع فرسان العسكر وادربهم بالحرب ، واعرفهم بالتجارب ، فانهم ينفردون عن العسكر ، ويكونون في مكان ليس لهم فيه من يعينهم ولا ينجدهم من أهل العسكر لبعدهم عنهم . . ويكونوا عارفين بامور الحروب ، عالين باحوال الاماكن الصالحة للاختفاء ، ليتحقق الغرض الذي من اجله ارسل الكمين .^(١٠٥) ثم يتحدث هؤلاء المصنفون عن قضايا اخرى^(١٠٦) ونوع الجياد التي يضطرون الى استعمالها ، اما الموضع الذي ينصب فيه الكمين فيجب ان يكون خفياً مستراً ، وأن يكون مما يحتمل الاقامة فيه ، اذا دعت الحاجة الى طول الاقامة ، بأن يكون فيه الماء والمرعى وسائر ما يحتاجه الكمين بحسب الامكان^(١٠٧) .

الا ان هذه المواصفات كان من الصعب ايجادها في الكمائين المرسله احياناً ، على الرغم من ان مواصفات فارس الكمين كانت متوفرة بشكل عام في جماعات البدو من العرب الذين شكلوا احتياطاً جيداً في تزويد الجيش الايوبي بالقوات الضرورية في اوقات الحرج لشن الغارات على العدو ، وقد استفاد هذا الجيش فعلاً من هذه الجماعات في مناسبات عديدة ، واكمنهم لقدرتهم على التظاهر بالهزيمة والضعف امام العدو ، وكذلك لسرعة اندفاعهم ولخفتهم^(١٠٨) .

ولعل ابرز حوادث الكمين ما وقع في جمادى الآخرة سنة ٥٨٥ هـ / ١١٩٠ م ، حين بلغ صلاح الدين خبر مفاده ان جماعة من افراد العدو يتبسطون ويخرجون من صور

ليصلوا الى جبل تبينين^(١١٠) لجمع الحشيش والخطب فرأى ان يضع كميناً كبيراً من الرجال الشجعان ، يتوزعون في الاودية والشعاب ، ويكون عدد رجال الكمين كافياً للقوة الغازية التي خرجت ، وللقوة الاحتياطية التي جاءت في اعقابها لحمايتها . انفذ صلاح الدين الى عسكر تبينين ، وطلب منهم ان يخرج من بين رجال الكمين نفر يسير وذلك لايهام العدو بأنهم قليلو العدد ، ثم يبدأون بالتحرش بتلك الجماعة الصليبية ، وحين يرد عليهم هؤلاء ، يتظاهرون بالفرار ليخرجوا خلفهم الجماعة الصليبية . وازافة الى هذا بعث صلاح الدين في اثر عسكر عكا وطلب منهم ان يخرجوا وراء عسكر العدو حتى اذا تحرك هؤلاء في نصرة اصحابهم قصدوا خيامهم . وركب هو وجماعة من رجاله وساروا باتجاه المكان الذي سيلجأ اليه رجال الكمين المنهزمين . ورتب صلاح الدين العسكر ثمانية اطلاب ، واختار من كل طلب عشرين فارساً من الشجعان ، فكون سرية ، وامرهم ان يبرزوا للعدو حسب الخطة المرسومة . ويبدوا ان خبر الكمين قد وصل الى العدو ، فاحتاطوا لذلك ، وتعبوا تعبئة القتال ثم جرى بين الطرفين قتال حقيقي لان افراد السرية الايوبية «انفوا عن الانهزام» ولو كاسلوب الخدع العدو «وحملتهم الحمية على مخالفة التعليمات ، واتصلت الحرب بينهم الى نهاية النهار ، وكان القتل من الفرنج زهاء عشرة انفس ، ومن المسلمين اثنين من اليك واربعة من رجال الكمين العرب^(١١١) . يقول العماد الكاتب عن هؤلاء الاربعة أنهم «رأهم العدو فعدا وراءهم ، وسار بجمعه ازاءهم ، فلما انتهوا الى الجبل ادركوا ، ولم يقدرُوا ان يسلكوا ، فقاتلوا حتى قتلوا ، واقبلوا على الله فقبلوا^(١١٢) .

ونجد ان الظروف التي مربها الجيش الايوبي في تلك الفترة ، وصلاحيه ارض الشام ، ولاسيما ارض فلسطين - لوجود الاحراش الكثيفة والجبال التي تأوي رجال الكمين المقاتلين ، قد حتمت على الجيش تنظيم مثل تلك العمليات

العسكرية المحدودة الاثر ، والتي كانت الغاية منها احراج العدو وجعله لا يشعر بالامان ، وهذا الاسلوب في القتال شبيه بما نسميه الان بحرب الانصار ، او المغاوير . لكن الملاحظ ان تفاصيل وضع الكمائن لم تكن تختلف عن تفاصيل الكمائن الاخرى ، بينها كمين شهير سميت احدي معارك الجيش الايوبي باسمه «وقعة الكمين»^(١١٣) .

مجلس حرب الجيش الايوبي :

كان من الطبيعي ان يكون ثمة مجلس اعلى في الجيش يقوم بتوجيه سياسة الحرب ووضع الخطط العسكرية وادارة شؤون الدولة ، وكان اعضاؤه يشكلون ما يمكن ان يطلق عليه الان اركان الجيش . وفي عهده كان صلاح الدين يرأس الاجتماعات ، وتتكون عضويته من اخوته ، ولاسيما الملك العادل ، واولاده الكبار خاصة الملك الافضل علي والملك الظاهر غازي ، واولاد أخيه مثل تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين عمود الحارمي ، وكبار الامراء والقادة القدامى والجدد ومستشاره الحكيم القاضي الفاضل ، وقاضي العسكر بهاء الدين بن شداد المؤرخ ، والمسؤول عن مراسلاته الحربية عماد الدين (العماد) الكاتب الاصفهاني الاديب المؤرخ ، وبهاء الدين قراقوش ، وسيف الدين المشطوب الهكاري ، وقادة آخرين ، مثل ابو الهيجاء المذباني وعلم الدين سليمان بن جندر ، كما اشترك في عضويته احياناً امير الاسطول حسام الدين لؤلؤ واصحاب المدن والقلاع المعروفين من امثال مظفر الدين كوكبري وشمس الدين ابن المقدم وعزالدين جودريك والفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري ، وغيرهم .

وكان لكل من هؤلاء حق ابداء الرأي في صراحة ، ما داموا يتصرفون وينطلقون من مبدأ خدمة الدولة وجيشها ، ولكن - وكما أثبتت وقائع الحروب ، لم يحدث - الا نادراً - ان علا صوت احد هؤلاء الاعضاء ، وانفرد بالمناقشات دون الاخرين بغية التأثير على صلاح الدين ، على الرغم من

ظهور بوادر لعصيان اوامره احياناً ، كما سئرى . وكان رأي صلاح الدين هو الغالب على المجلس بصورة عامة . الا ان هذا لا يعني انه كان يستبد برأيه ، والا لما استشارهم وأخذ بآرائهم وملاحظاتهم ، بل نجده يغير موقفه حسب مقتضيات المصلحة . ويلتزم برأيهم ، سواء عن قناعة او للحفاظ على وحدة الموقف . ويلاحظ ان صلاح الدين كان يهتم ، بصورة خاصة ، بمشورة اخيه الملك العادل ، وإذا كان هذا غائباً عن المجلس ارسل في اثره ليعرف رأيه بشأن مسألة خطيرة^(١٧) .

ولعل حرص صلاح الدين على مشورة اخيه في امور الدولة ، ومكاتبته المستمرة له ، ثم انتظاره جوابه قبل الاقدام على تطبيق القرار المتخذ ، كلفه غالياً وفوت عليه فرصاً من المنافع الحاصلة للدولة والجهاد^(١٨) . وفسر احد المؤرخين نقل الملك العادل من مصر الى حلب سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م بأن صلاح الدين رغب ان يكون اخوه قريباً منه ، لانه لا يقطع امراً دون مشورته^(١٩) . ويبدو للمتابع وكأن هذا القائد قد احل اخاه محل والده الذي كان لرأيه قيمته المميزة لديه ، لكن وفاته المبكر - بالنسبة لحكمه الفتي - حرمة مشورة رجل محنك .

وكان اول اجتماع هام عقده مجلس حربه في ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م حين عزم نورالدين محمود - حسب رواية ابن الاثير ومن نقل الخبر عنه - التوجه الى مصر لاجراء صلاح الدين منها ، يوم كان نائباً له في حكم مصر . لان صلاح الدين لم يشأ ان يجتمع بنور الدين محمود بالقرب من الكرك ، كما كان مقرراً بينهما ، وعاد الى مصر بسبب اختلال الوضع فيها او لخشيته ان يعزله نور الدين إذا تم الاجتماع بينهما . ولما علم ابناء الاسرة الايوبية وانصارهم نواباً نورالدين عقدوا اجتماعاً ضم صلاح الدين واباه وخاله وابن اخيه وغيرهم ، وتداولوا للخروج برأي حول الاجراء الذي ينبغي اتخاذه لردع نور الدين من التقدم الى مصر .

وطالب ابن اخيه امتشاق السلاح بوجه نور الدين في حين قام والده بتهذئة الخواطر وتصرف بحكمة تثير الاعجاب^(٢٠) .

وعند حصن (بيت الاحزان) اخذ صلاح الدين مشورة قواده حول ما ينبغي فعله تجاه هذا الحصن الذي تحصن فيه العدو وجعلوه مصدر خطر على الجيش الايوبي ، فطلب صلاح الدين منهم هدمه لقاء مائة الف دينار فأبوا . عندها جمع امراء جيشه واخبرهم بالموقف ، فكان رأيهم زيادة المبلغ ، ثم راسل ابن اخيه تقي الدين عمر في حماه وطلب منه ان يبدي رأيه ، فقال : رأيي هو صرف المبلغ على الاجناد ، وحثهم على الجهاد والعمل من أجل تخريب الحصن . فعمل صلاح الدين بتوجيه ابن اخيه ، فكان النصر للجيش الايوبي ، وتم تخريب بيت الاحزان^(٢١) . ومرة اخرى اجتمع المجلس الاستشاري للتباحث حول ما ينبغي عمله مع الموصل بعد ان ارسل صاحبها الاتابك عز الدين مسعود سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م وفداً من نساء البلاط لوضع حد للقتال بين الطرفين ، الا ان المجلس قرر مواصلة الحصار^(٢٢) .

ولعل من ابرز الجلسات التي عقدها المجلس كان عند اسوار مدينة صور العاصية ، وذلك في شوال ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، حين طلب صلاح الدين مشورة قادة جيشه بعد ان عجز عن فتحها ، فقالوا : هذا بلد حصين . . في البحر ثلاثة ارباعه . . قد احاط به البحر من جانبيه ، وقد قطعوه بخندق في عرضه ، وعمقوه ونزلوا في ارضه . . وكان من احكام الحزم ، تكميل الآلات وتتميمها ، ونحصيل المنجنيقات وتقديمها ، وتركيب الابراج والدبابات وتأليفها . .^(٢٣) . . بدأ اعضاء المجلس بمناقشة الاراء ، وما ينبغي فعله مع هذه المدينة التي ظلت صامدة امام الجيش الايوبي ، تتحداه الى النهاية . وانقسموا الى فريقين ، فريق يدعو الى الرحيل عن صور لكثرة القتلى والجرحى ، ولانه قد فئت النفقات وضجر العسكر ، وجاء الشتاء ، فمن

قتال العدو ، وكانت هذه الروح قوة فاقت اثراً قوة التنظيم^(١٧٨) .

وكان الهدف الاستراتيجي في قتال الجيش الايوبي هو استعادة الاراضي التي احتلها الصليبيون منذ اواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . ومن اجل تحقيق هذا الهدف سلكت الجيوش الاسلامية مختلف السبل وشتى الاساليب ، سواء عن طريق المجابهة المباشرة مع العدو ، او عن طريق اضعافه اقتصادياً^(١٧٩) ومعنوياً ، وحصره في نقاط الارتكاز التي تحصن فيها .

وقد اطلق في الاصطلاح الحديث لفظ (الاستراتيجية/Strategy) على فن تحريك القوات ، واختيار مواقعها المناسبة ، قبل الاشتراك في المعركة وبعدها ، وتوزيعها على ميادين القتال توزيعاً يناسب اهميتها ، واعداد حاجتها التي تكفيها زمناً طويلاً ، ومراعاة ذلك حتى في فترات السلام ، اي ان الاستراتيجية تعني فن القيادة العامة في الحرب بآجمعها .

كما اطلق لفظ (التكتيك Tactic) على فن تحريك القوات والتنسيق بينها خلال المعركة ، وطريقة تنظيمها في حالة الهجوم او الدفاع ، تبعاً للخطة الموضوعية بمعرفة القيادة العامة . فالتكتيك فن القيادة في ميدان المعركة . والمؤرخون المسلمون اطلقوا على هذين المفهومين لفظ «التعبئة» وقصدوا منه تنظيم الجيوش ، ووصف الكتائب في المعركة او قبلها ، فتعبير (عباً) يعني «نظم» او حصر القوى الموجودة تحت تصرفه استعداداً للقتال ، وتوفيراً لمستلزماته كلها^(١٨٠) .

وكذلك نعني بالتكتيك السياسة اليومية القصيرة الامد ، التي تتبع من اجل اضعاف الجانب الاخر ، او للوصول الى اهداف محددة مباشرة . واستمرار هذه الاعمال يتعب العدو ، ويجعله في حالة من القلق والترقب ، فالتكتيكات الناجحة المتواصلة ترعب العدو وتضعفه ، وهذا ما كان يدركه صلاح الدين وقادة جيشه ، ولهذا فان جيشه في الوقت

الضروري رفع الحصار على ان يعودوا في الربيع ، اما الفريق الاخر فقد رأى ضرورة الاستمرار في محاصرة صور ومضايقتها حتى تتحرر وظلت المشاورات مستمرة ، ثم رأى صلاح الدين رفع الحصار ، فرحل الجيش الايوبي الى عكا^(١٨١) .

وهكذا كان المجلس يجتمع كلما رأى ضرورة في ذلك ، فقد اجتمع للتشاور بشأن الوقوف بوجه الحملة الالمانية الهائلة التي اكتسحت بلاد الروم «الاناضول» بسرعة ، ووصلت الى ارض انطاكية ، وبدأت بالزحف جنوباً سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م^(١٨٢) ، وكذلك اجتمع حين وصل (الكندهرى) في جمادى الاخرة في نفس السنة المذكورة^(١٨٣) ، واجتمع اكثر من مرة اثناء المسير الى جهة عسقلان في ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م^(١٨٤) . وحتى لدى مراسلاته مع القادة الصليبيين ، كان يستدعي «ارباب الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم»^(١٨٥) واستشار المجلس بشأن الموقف المتفجر بعد هزيمة الجيش الايوبي في ارسوف^(١٨٦) وسقوط عكا المريع ، واتفق الرأي على تخريب مدينة (عسقلان) للحيلولة دون وقوعها في ايدي العدو^(١٨٧) ، على الرغم من ان صلاح الدين كان من المعارضين لهذا الرأي^(١٨٨) . وعقد المجلس جلسة هامة في ٥٨٨ هـ / حزيران ١١٩١ م حين عزم الصليبيون على قصد بيت المقدس^(١٨٩) الا انهم لم يستطيعوا تنفيذ ما عزموا عليه بفضل استحکامات المدينة المقدسة .

خطط واساليب القتال :

لا يستطيع اي جيش ان يشتبك مع العدو ويخوض معركة دون ان يكون قد رتب اموره ، بحيث تتوضح معالم الخطوات التي سيتخذها . وينبغي على المحاربين الا يتصرفوا بعشوائية تؤدي الى اضطراب صفوفهم . ولكن كان لروح الجهاد التي امتلأت بها قلوب اكثر المحاربين المسلمين في الجيش الايوبي اثرها الفعال في اندفاعهم نحو

الذي وضع نصب عينه الهدف الاساس الذي من اجله خاض غمار الحرب الا وهو تحرير كامل الاقاليم التي احتلها الصليبيون ، الا انه واصل استخدام التكتيكات المختلفة ، اضافة الى انه استفاد من نقاط ضعف الصليبيين .

والخطة العسكرية كان يضعها مجلس الحرب الاستشاري ، على الرغم من ان قيادة الجيش المركزية ظلت بيد القائد العام «السلطان» ، والنجاح يكون في الغالب مضموناً ، اذا حافظ القائد على الاتصال الدائم بالعدو ، للاطلاع على قوته ومعرفة خططه إن امكن ، وقد تحمل الهزائم بهذا القائد - كما يقول اومان - اذا فقد ذلك الاتصال^(١٨١) . وكان اليزك (الفرقة الاستطلاعية) يقوم بدور اساسي في هذا الصدد ، فكان واسطة اتصال دائم بين قيادة الجيش وقوى العدو .

ومن الاساليب التي استعملها الجيش الايوبي نجد انفسنا امام جملة من الاعمال والاجراءات التي يمكن ادراجها تحت اسم الاعمال التكتيكية . ومن هذه الاعمال التي قصد منها اضعاف العدو انه اوعز الى جنده بقطع كروم ضياع صفد في غور الاردن في موقعة بيت الاحزان التي حدثت سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م^(١٨٢) . كما امر بحصد غلاتهم^(١٨٣) وقصد من هذا تحطيم اقتصاد العدو ، وجعله لا يستفيد من الكروم واخشابها ، ومن الحبوب التي حصدها الجند^(١٨٤) . وقد تكرر هذا العمل في مناسبات عديدة . فيذكر المؤرخ الايوبي ان السلطان سار بمن انتخب من عساكره ، وتوجه بهم الى الكرك في مطلع سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ، ووصل اليها بعد ايام ، فوجد بها جمعاً عظيماً من الفرنج «فترلنا قريباً منهم ، فأذللناهم وضايقناهم حتى لاذوا بالفرار ، فاستولينا عليهم فقطعنا اشجارهم ونزعنا زروعهم»^(١٨٥) . وكذلك فعلوا حين تبيأوا لموقعة حطين الحاسمة حين ساروا الى حصن الشوبك وفعلوا به مثل ذلك^(١٨٦) . ويقول العماد الكاتب ان الفرنج فجعوا بكرمها وزيتونها^(١٨٧) .

وكان لتكتيك قطع الماء اثره العميق في اضعاف العدو وهزيمته ، فالمعروف ان سيطرة الجيش الايوبي على منابع الماء يوم حطين كان احد اسباب هزيمة العدو ، كما هو معلوم ، حين «حجز بينهم وبين الماء»^(١٨٨) حتى قتلهم العطش ، ولجأ الجيش الى افساد مياه بعض ينابيع القدس سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م للحيلولة دون وقوع هذه المدينة بأيدي الصليبيين بعد هزيمة المسلمين المعروفة في عكا^(١٨٩) . وكان افساد الماء يتم عن طريق القاء الزرنينخ او طرح الجيف^(١٩٠) او الفضلات فيه .

ومن الخطط التي اتبعها ، تطبيقه لاسلوب الحرب الخاطفة ومباغثة العدو والانتصار عليه قبل ان يستطيع تجميع قواه ، وقد استعملت هذه الخطة في سنتي ٥٨٣ - ٥٨٤ هـ / ١١٨٧ م - ١١٨٨ م اكثر من اي سنة اخرى ، وكان ذلك حين لم يكتف بالانتصار الحاسم في حطين بل انه اتبع الانتصار بانتصارات لاحقة سريعة بحيث يمنع الصليبيين من التجمع في مكان واحد والاشتباك معه في موقعة مكشوفة اخرى . فآثر فوزه المذكور هجم الجيش الايوبي على التوالي على عكا وصفورية والناصرية وقيسارية ونابلس والداروم وفتحها جميعاً . وحين استعصت عليه صور بسبب استحكاماتها ، اضطر الى تركها ، واستأنف فتوحه في البقاع الاخرى وتوجهها بفتح بيت المقدس والمدن الساحلية والداخلية ، ففتح هونين^(١٩١) وجبله اللاذقية وصهيون ، ثم توجه شمالاً فاستولى على حصون بكاس والشفر وبرزية ودربسك وبغراس ، المحيطة بامارة انطاكية الصليبية ، ثم انجبه قسم من جيشه مرة اخرى الى الجنوب ، ففتح في اواخر سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م حصن الكرك المتين ، واخيراً فتح صفد وكوكب قبل ان يعود الى دمشق لقُدوم فصل الشتاء ، ولاخذ قسط من الراحة .

واعاد صلاح الدين الكرة مع صور ، وعند اسوارها طبق خطة نفذها بنجاح في فتح القلاع مثل برزية ، وهي

خطة القتال بالتناوب^(١١٠) ، وذلك بأن قسم عسكره الى ثلاثة اقسام ، يقاتل كل قسم منها فترة محددة ، ثم يستريح ليواصل القتال قسم ثان ثم ثالث^(١١١) ، ثم العودة الى القسم المستريح . وقد قصد باتباعه لهذا الاسلوب انهاك الصليبيين وعدم فسح المجال لهم ليرتاحوا ، الا ان الاسلوب اصطدم بمتانة اسوار صور ، اضافة الى وضع المدينة الطبوغرافي .

ونجد ان الجيش الايوبي اتبع خطة شق صفوف الصليبيين ، والايقاع بينهم ، وكسب ود بعض قادتهم في محاولة منه اضعافهم ، فيذكر ابن شداد ان السلطان جلس ذات يوم واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه ، فحضر وحضر معه جماعة وصلوا معه ، . . ثم تقرر ان يصالح المركز مونتفرات صاحب صور الذي انضم اليه بعض اكابر الفرنجة بينهم صاحب صيدا . واشترط صلاح الدين على المركز المنشق ان يظهر عداوته لبني قومه وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم^(١١٢) .

ومن الاجراءات الحكيمة التي لجأ اليها القائد صلاح الدين بصدد اضعاف العدو اقتصادياً ، قيامه بتوطيد علاقاته الاقتصادية التجارية مع دويلات المدن الايطالية مثل (بيزا وجنوا والبندقية) . فمنذ ان تولى الحكم في مصر صار يبذل الجهود لجذب تجارة هذه المدن الى مصر ، وراح يعقد الاتفاقيات مع هذه الدويلات لتبادل السفراء معها ، ومما يؤسف له ان نصوص تلك المعاهدات قد فقدت^(١١٣) . وبذلك انتفع الجيش الايوبي من ناحيتين :

١ - ازدياد موارد دولته بسبب النشاط التجاري ، فحصل على حاجته من الحديد والخشب والشمع .

٢ - اضعاف تجارة الصليبيين ، ولا سيما اذا عرفنا ان صلاح الدين كان يسيطر على البحر الاحمر . ولا شك ان هذه التجارة ادت الى الاهتمام باعادة بناء الاسطول الايوبي^(١١٤) .

وفي خطاب وجهه صلاح الدين الى الخليفة العباسي

سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م قال : «ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة «البيازنة» والجنويون ، كل هؤلاء تاره يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون تجارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهونة ، وما منهم الا من هو الان يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف اعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصله ، وانتظمت معهم المسألة على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون^(١١٥) ، وهذه العلاقات بين مصر والمدن الايطالية لم تكن بالامر الجديد بل هي استمرار لما كانت عليه في العهد الفاطمي^(١١٦) .

ومما يذكر بصدد خطط الجيش الايوبي الحربية ، انه لجأ في سني صراعه الاخيرة مع العدو الى تخريب مدينة عسقلان التي كانت المفتاح الجنوبي لبيت المقدس وطريق القوافل الذاهبة الى مصر ، وكان يطلق عليها اسم (عروس الشام) لحسنها^(١١٧) . وقد لجأ الى هذا الاسلوب المدمر حين عجز عن الدفاع عنها^(١١٨) ، ولانه خشي ان يستولي عليها الصليبيون وهي عامرة - كما حصل لعكا - فيقطعوا بها طريق مصر . ورأى صلاح الدين ادخار قوة جيشه الدفاعية لحفظ بيت المقدس ، واستشار اخاه الملك العادل واكابر امرائه في ذلك ، فأقروه على رأيه ، وقال علم الدين سليمان ابن جندر ، احد كبار مستشاريه : هذه يافا قد نزل العدو بها ، وهي مدينة تقع في الوسط بين عسقلان والقدس ، ولا سبيل الى حفظ المدينتين معاً ، فاعمد الى اشرفهما وحصنها^(١١٩) . وهكذا تقرر تخريب عسقلان .

ثم تقرر تخريب حصن الرملة^(١٢٠) ، وحصن النطرون الذي كان من املاك الداوية^(١٢١) وجزءاً من سور يافا^(١٢٢) وغزة^(١٢٣) واللد^(١٢٤) ، والداروم الواقعة في اقصى ساحل الشام الجنوبي^(١٢٥) ، وقد خربها صلاح الدين حين ملك الساحل في سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م^(١٢٦) وخرب حصن يازور^(١٢٧) .

بسواحل الرملة من اعمال فلسطين^(١١٠) ، وخرب معه بلدة بيت جبرين^(١١١) ، قبيل عقد الصلح مع ريتشارد قلب الاسد ملك انكلترا . ومما يدخل ضمن خطط الجيش الايوسبي الاستراتيجية ، تأمينه للطريق الموصل بين الشام ومصر والذي يبلغ طوله حوالي ثلاثين يوماً^(١١٢) .

ويبدو ان صلاح الدين ادرك ، وهو في طريقه الى الكرك والشويك عن طريق ايلة^(١١٣) منذ ان كان نائباً لنور الدين محمود في مصر ان الضرورة الحربية تقضي بتطهير شبه

جزيرة سيناء كلها من الجماعات التي يمكن ان تلعب دوراً تخريبياً معيقاً لسلامة الطريق بينهما ، فظهر الوديان ومعابر الطرق منهم ، ثم رأى ان من الحكمة ان يشيد قلعة في قلب شبه الجزيرة ، والراجع انه بدأ بمشروعه منذ استيلائه على ايله في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م . واختار لتلك القلعة ارضاً مرتفعة مخروطية الشكل تقع على نحو ميل الى الشمال الشرقي من عين صدر العزيز ، والموجودة بدرب الشعري الذي يبدأ من السويس الى ايله ، على مسافة ٥٧ كيلومتراً الى الجنوب الشرقي من السويس^(١١٤) . كما شيد القلاع والمنحدر واقام الحراس على طول الطريق بين مصر والشام ، فاعاد الامن والسلام الى سيناء . وقد اعتاد الجيش الايوسي ان يسلك هذا الطريق في غدواته وروحاته من والى الشام ، وعبر هذا الطريق جاءت قوافل التموين المتواصلة من مصر مزودة بالعتاد والزاد اثناء جهاده الطويل مع الصليبيين .

واهتم بتحسين مدينتي مصر والقاهرة ، وثغور الديار المصرية ومدخلها ، واهمها الاسكندرية ودمياط ورشيد وعيذاب وتنيس^(١١٥) . وكان صلاح الدين على علم بمدى الخطر الذي قد يلحق بمصر من ناحية الشمال من جانب الصليبيين ، وكان ما حصل في دمياط حين حاصرها اموري الملك الصليبي برأ ويحراً سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩ م ، جعله يولي هذا الثغر قدراً كافياً من اهتمامه ، فحرص على تحصينه وكذلك اهتم بتحسين سواحل البحر الاحمر ، فقد

علم صلاح الدين سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م ان الصليبيين يحاولون مد نفوذهم الى جهاته ولاسيما حين حاول الامير ارنات انزال سفنه على الاقسام القريبة من امارته في الكرك ، الى جهات خليج العقبة^(١١٦) . ولم يكذب يتم تركيب قطع السفن التي جلبها هذا الامير الصليبي حتى استولى بعضها على جزيرة القلعة في عباب الخليج المذكور ، في حين قام البعض بالاغارة على الموانئ المصرية الصغيرة على البحر الاحمر .

اما في داخل مصر ، فلعل اهم التحصينات التي اقامها كانت في مدينة القاهرة التي بدأ بها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١ م ، غير انه يلاحظ ان ما فعله في تلك السنة لم يتعد احداث التجديدات في سور القاهرة الذي كان بحاجة الى اعمال الصيانة . ويتجلى ذلك من كلمة «عمارة» التي ترد في عبارة ابي شامة التي ينقلها من ابن ابي طي ، معاصر صلاح الدين ، ويقول فيها : «في هذه السنة شرع السلطان في عمارة سور القاهرة ، لانه كان قد تهدم اكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً ، وولاه لقراقوش^(١١٧)» .

وفي سياق الحديث عن خطط القتال نتكلم عن ارض المعركة لان الارض التي كانت تجري عليها المعارك ، كان لها تأثير كبير على الخطط العسكرية التي وضعها صلاح الدين مع مستشاريه ، وكانت نتائج المعركة تتوقف احياناً على الارض التي يختارها هذا الجانب او ذاك ، ونجاح القائد يظهر من حسن اختياره المواقع ، بحيث يكون جيشه في موقع حصين يضمن سلامته في حالتي الهجوم والدفاع ، ويضمن سهولة الحصول على المؤن والاعتدة والرجال ، ومن ثم المحاولة لجعل العدو لا يتمتع بهذه المزايا قدر المستطاع .

والواقع انه لم تكن هناك ارض معينة يلتقي فيها الطرفان بشكل دائم ، بل كانت المعارك تنتقل من ارض الى اخرى ، حتى ليخيل الى من لم يتعرف على طبيعة ارض الشام التي كانت مسرحاً لمعارك الجيش الايوسي كفاية ان

معارك هذا الجيش كانت مضطربة ، لا تسير على نظام ، ولكن الامر لم يكن كذلك ، بل ان قادة الجيش كانوا على علم بطبيعة الارض التي يحاربون عليها ، لذا طبقوا خططاً مختلفة ، تطلبتها طبيعة الارض في كل منطقة من مناطق هذه البلاد ، فطبقوا خطة في ارض قد لا يطبقونها في اخرى . ولكن المسألة لم تكن بهذه السهولة دائماً ، ولا سيما حينما كان الجانب الصليبي هو الذي يقرر موعد المعركة ويختار مكانها ، او انهم يجلبون معهم الآلات الضخمة ، عندئذ كانت الصعوبات تعترض سبيل الجيش الايوبي ، وتضطره الى تغيير خطته واساليبه .

موسم القتال :

كانت الاستعدادات تبدأ بانتهاء موسم الشتاء وارتفاع درجات الحرارة مع قدوم الربيع ، اما ما كان يجري في الشتاء بين الجانبين فلم تكن تتعدى المناوشات القصيرة ، ووضع الكمائن وارسال فرق الاستطلاع لمعرفة احوال العدو . واذا نظرنا الى فترات المعارك نلاحظ انها تقع خلال الثمانية او التسعة اشهر التي تبدأ مع انتهاء حدة البرد ، وتنتهي مع قدوم الشتاء . فعلى سبيل المثال حدثت موقعة حطين في شهر تموز ١١٨٧ م / ربيع الثاني ٥٨٣ هـ ، بل ان صلاح الدين وقادة جيشه قد استغلوا اشتداد الحر خيراً استغلال . وفي نفس هذا الموسم احرز الجيش الايوبي مجموعة انتصاراته الكاسحة في فتوح الساحل ، وتوجّها بفتح بيت المقدس في ايلول ١١٨٧ م / رجب ٥٨٣ هـ . ويذكر عماد الدين الكاتب ان جميع عمليات الجيش الايوبي العسكرية وفتوحه تمت في فصل الصيف بقوله : « وكل ما تم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل ، انما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره »^(١١٨) . ويقول ابن شداد ، ان السلطان « كان يعطي دستوراً في اوائل الشتاء »^(١١٩) .

والملاحظ ان الهدنة التي وقعها صلاح الدين مع

صاحب انطاكية عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م والتي كانت مدتها ثمانية اشهر ، تبدأ من تشرين الاول الى نهاية ايسار (مايس)^(١٢٠) ويسوغ العماد الكاتب عقد هذه الهدنة بضجر الجيش ورغبته في الراحة ، وبأن أمد الهدنة سينتهي « قبل ادراك الغلة واوان حصادها »^(١٢١) والظاهر ان العساكر كانوا يعودون الى اوطانهم في الشتاء ، ليس لصعوبة القتال في هذا الموسم ، او لاختذ قسط من الراحة والاستجمام ، فحسب ، بل لان الشتاء هو موسم اعداد الارض للزراعة ، وعلى العاملين في الزراعة ان يكونوا في اراضيهم في هذه الفترة .

وكذلك اذا تابعا اليوميات الخاصة بتحركات جيش صلاح الدين التي دونها كل من العماد الكاتب وابن شداد وغيرهما من المؤرخين المعاصرين ، نرى ان القتال ووصول جيوش الاطراف الى الميدان كان يتوقف في فصل الشتاء ، ولكن ما ان ينتهي هذا الفصل القارس والموحل - ولا سيما في بلاد الشام - حتى يدب النشاط في الجيش ، فيبدأ بالاستعداد لمجابهة عدوه ، وتصل الى ميدان القتال قوات الاطراف^(١٢٢) . اما بعد ان ينتهي موسم القتال فتعود العساكر الى بلدانها . فقد اعلن العماد الكاتب انه حين هجم « الشتاء » وانحرف حريف الخريف . . واشتعلت رؤوس الجبال شيباً للثلج ، وحل الوحل المخيم . . « طلب الامراء من صلاح الدين الاذن بالعودة الى بلادهم للراحة والاستجمام ، فسار صاحب سنجار ، وتلاه صاحب جزيرة ابن عمر ، وبعده ابن صاحب الموصل »^(١٢٣) .

ويذكر ابن شداد بهذا الصدد تحت عنوان (عود العساكر من الجهاد) انه « لما هاجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدو ان يضرب مصافاً ، وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الامطار وتوانرها ، أذن السلطان للعساكر الاسلامية في العودة الى بلادها ، لتأخذ نصيبها من الراحة ونجم خيولها الى وقت العمل . . »^(١٢٤) وقد تكررت حوادث

قدوم العساكر الى ساحة المعركة لانجاد الجيش بعد انتهاء الشتاء ، ثم العودة الى اوطانها بمجيء هذا الفصل . (٢٢٠)

الهوامش

- (١) ابن الاثير ، الكامل ، ٣٣٨/١١ . الباهر ١٣٩ .
ابن العديم الحلبي ، الزبدة ، ٣٢٦/٢ .
ويقول النوادري المصري : صارت وحدة جيش اسدالدين شيركو عشرة الاف فارس شجعان ، الدر المطلوب ص : ٣١ . وانظر الذهبي ، دول الاسلام : ٥٦/٢ .
- (٢) ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١١٧ .
ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ١١١/٤ .
- (٣) ابو شامة ، الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص : ٤٣٨ . ابن الفرات ، ج ١ ق ٤ ص : ٥٦ .
- (٤) المقرئزي ، الخطوط . اوفست بغداد ٩٤/١ .
- (٥) بدائع الزهور ، ٧٠/١ .
- (٩) الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥ .
المقرئزي ، البيان والاعراب ، ص : ٢٢ .
- (١٠) المقرئزي ، السلوك ، ٤٧/١ . الخطط (ط . اوفست) ج ١ ق ١ ص ١٦ .
- (١١) رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٠ .
- (١٢) المقرئزي ، السلوك ، ٩٤/١ نقلا عن عبد اللطيف البغدادي في كتابه ، الافادة والاعتبار .
- (١٣) طلب وجمعه (اطلاب) معناه الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويطلق ايضا على قائد المائة وكذلك السبعين .
واول استعمال (الطلب) كان بمصر والشام أيام صلاح الدين .
انظر : السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٤٨ . ومفرج الكروب ج ٢ ص ٥٩ هامش ٢ .
- (١٤) يرد لفظ (طواشي) بمعنى فارس ، كما في ابن الاثير (الكامل ، ٣٧٩/١٢) وابن واصل (مفرج الكروب ٤٩/٤) ويرى (لينبول - Lane - Pool, Saladin, p. 154 ان طواشيه اصلها طواويس Toassin على قول المؤرخ الصليبي المعروف «وليم الصوري» . والطاوس يعبر عن الرجل الوسيم او (نور) القيادة الكاملة) وكان الطواشيه يشارون من فئات

- راقية ، وصار بعضهم قواداً في الجيش الايوبي . د .
سمداوي ، التاريخ الحربي ، ص : ١١٠ .
- (١٥) المقرئزي ، الخطط (طبعة المعهد) ج ٢ ق ١ ص ١٦ .
والفراغلامية تعني بالتركية (ولد اسود) ولعلها كانت تطلق على المجندين الزنوج (السودان) ثم تطورت وصارت تطلق على باقي الفرسان الذين كان مستواهم دون مستوى الطواشي .
- (٦) ابن شداد ، النوادر ، ص : ٤٦ .
ابو نحرمة ، تاريخ عدن ، ج ١ ق ٢ ص : ٣٧ .
ابن قاضي شهبه ، الكواكب الدرية ، ص : ٢٢١ - ٢٢٢ .
- (١٧) ابن الاثير ، الكامل : ٤١٢/١١ .
ابن واصل ، مفرج الكروب : ١١/٢ .
النويري ، كتاب الامام بالاعلام ، ج ١ ص ١٦٣ - ١٦٥ .
- (١٨) الكامل ٤١٤/١١ .
النوادر : ٤٧ - ٤٨ . المقرئزي ، الخطط (ط . المعهد الفرنسي) ج ٣ ق ٢ ص : ٢٨٤ .
- (١٩) البنداري ، سنا اليرق الشامي : ٢٥٧/١ - ٢٦٠ .
الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص : ٦٩٩ - ٧٠٣ . الذهبي ، العبد : ٢١٦/٤ السلوك ، ٦٤/١ - ٦٥ .
- (٢٠) هنا نجد التمييز بين الفارس والطواشي .
- (٢١) المقرئزي ، الخطط (ط . المعهد) ج ٢ ق ١ ص ١٦ .
- (٢٢) الكامل : ١٩٧/١١ .
- (٢٣) بهذا الصدد يقول (جان سوفاجيه) ان اتابك السلاجقة والايوبيين وسما دمشق بسمه خاصة دائمة ، اذ جعلوها موقعا حريباً . وانظر كتابه (دمشق الشام) ص : ٣٤ .
- (٢٤) انظر على سبيل المثال : الكامل ٤٥٢/١١ ، ٦٢/١٢ .
وابن العديم ، زبدة الخلب : ج ٣ الصفحات التالية ٩ - ٢١ ، ٢٦ - ٢٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٢ - ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٨ .
- ابو الفدا ، المختصر ، ج ٥ ص ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٨ .
- (٢٥) الايوبي ، مضمار الحقائق ، المقرئزي ، السلوك ، ٨٤/١ .
- (٢٦) معجم البلدان ، ٩١/٣ .
- (٢٧) دائرة المعارف الاسلامية . ط ١٩٣٣ ج ٦ ص ٢٣٣ .
وعن اهمية الجابية انظر : الكامل ٥٠٠/٢ - ٥٠١ ، ٥٣٥ ، ٥٨٦/٥ وصبح الاعشى ، ٣٩٤/١ .
- (٢٨) الحموي ، دمشق في العصر الاموي ، ص ٣٥ .
- (٢٩) الكامل : ٤٨٧ك١١ .
- (٣٠) مضمار الحقائق ، ص ٢٩ .
- (٣١) صبح الاعشى : ٤٨٨/٣ .

- (٣٢) ن . م . ص .
 (٣٣) وفيات الاعيان : ٢١٠/١
 (٣٤) الكلوتات : ضرب من غطاء الرأس «كلاو» كان الامراء يلبسون في مصر وغيرها . انظر : دوزي كتابه «المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب» ص ٨٥ .
 (٣٥) صبح الاعشى : ٥/٤ ، ٣٩/٤ .
 (٣٦) الكامل : ١٣٨/١١ . المختصر : ٣١/٤ .
 (٣٧) صبح الاعشى : ٦/٤
 (٣٨) الشاش : قطعة من البز تلف حول طاقة او عرقية او حول الرأس ، وهي كلمة معادلة للعمامة . دوزي ، المعجم المفصل ، ص ١٩٧ - ١٩٩ .
 (٣٩) صبح الاعشى : ٥/٤ .
 (٤٠) ن . م . ص : ٦
 (٤١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .
 (٤٢) صبح الاعشى : ٤٠/٤ .
 (٤٣) الصولق : جراب او كيس من جلد يربط على الجانب الايمن من الحياصة توضع فيه حاجات السفر من الزاد . المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ق ٣ ص ٧٨٩ . واللفظ التركي يعني : «الذي في جهة اليسار» ويبدو انهم كانوا يعلقون الكيس على الرقبة من جهة اليمين ليندلى من جهة اليسار . ف«صول» يعني «يسار» .
 (٤٤) الكزلك : الخنجر و السكين . الديوبه جي ، الموصل في العهد الاتابكي ، ص ٧٢ . د . الجميلي دولة الموصل ، ص ٢٥٨ .
 (٤٦) ابن شداد ، النوادر (سيرة صلاح الدين) ص ٨٧ . ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢٥٦/٢
 (٤٧) سنا البريق الشامي : ٢٥٣/١ الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٩٧ .
 (٤٨) النوادر ، ص ٨٦ .
 (٤٩) الفتح القسي : ٤١٧ ، مرة الزمان ٤٠٤/٨ ، مفرج الكروب ٣٣٠/٢ ، البداية والنهاية ٣٣٧/١٢ .
 (٥٠) النوادر : ١٣٥ ، الفتح القسي ٤١٧ ، الروضتين : ١٦٠/٢ - ١٦١ ، مفرج الكروب ٢٢٠/٢ .
 (٥١) النوادر : ١١٧ ، الفتح القسي : ٤١٩
 (٥٢) الهروي ، التذكرة ، ص ٨٦
 (٥٣) مفرج الكروب ١٨٦ك٢ .
 (٥٤) الروضتين : ٨/٢
 (٥) الزعيم طه الهاشمي ، الجغرافية العسكرية ، ص ٨٣ .
 (٥٦) عن نظام الكراديس انظر : مقدمة ابن خلدون . ط الهيئة
- المصرية ص ١٩٠ - ١٩١ .
 (٥٧) الطرسوسي ، مخطوط تبصرة ارباب الالباب ورقة ١٩٠ أ .
 الفتح القسي ٨٩ ، ١٥٤ . معجم (الافصح في فقه اللغة) ج ١ ص ٦١٩ .
 (٥٨) د . جهادية القره غولي ، التنظيمات الادارية والعسكرية ، نقلا عن ابن منكلي (الادلة الرسمية في التعاميل الحربية) مخطوط ، ورقة ١٣ - ١٤ .
 (٥٩) للمزيد من التفصيل انظر جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ١ ص ١٩٩ .
 (٦٠) الطرسوسي ، التبصرة ، ورقة ١٩٠ ب .
 (٦١) مفرج الكروب ، ٢٩٥/٢ . الحسن بن عبد الله العباسي ، آثار الدول ، ص ١٧٥ .
 (٦٢) آثار الدول ، ن . ص . ويرى الطرسوشي ان من الحزم ان تكون حمة الرجال والابطال في القلب ، فانه مهما انكسر الجناحان فالعيون ناظرة الى القلب . . واذا انكسر القلب تمزق الجناحان . انظر (سراج الملوك) ص : ١٧٥
 (٦٣) النوادر ص ١١٠ مفرج الكروب ، ٢٩٥/٢ - ٢٩٦ .
 (٦٤) الفتح القسي ٣٠٨ .
 (٦٥) ابن منكلي ، التدبيرات السلطانية ، مخطوط ، ورقة ٢٧ .
 (٦٦) التذكرة الهروية ، ص ٩٩ .
 (٦٧) المقرئزي ، الخطط (طبعة المعهد) ج ٢ ق ١ ص ١٦ .
 (٦٨) النوادر ، ص : ٧٦ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٨٥ . الفتح القسي : ٦٩ ، ٧٠ ، ١١٥ ، على سبيل المثال .
 (٦٩) الهرشمي ، تفريج الكروب ، ص : ٥١ .
 (٧٠) التبصرة ، ورقة : ١٩١ أ
 (٧١) بولياك ، الاقطاعية : ص ٥٤
 (٧٢) احسان هندي ، الحياة العسكرية عند العرب ، ص : ١٦٦
 (٧٣) طه الهاشمي ، دروس المعلومات الجغرافية ، ص : ١٨
 (٧٤) الطرسوس ، التبصرة ، ورقة ١٩١ أ
 (٧٥) الجاليلية : الاصل في معناها هو الراية العظيمة التي في رأسها خصلة من الشعر ، ثم اطلقت على مقدمة القلب في الجيش او على الطلبة منه . صبح الاعشى ، ٨ك٤
 (٨٦) الفتح القسي ، ٦٩ - ٧٠
 (٧٧) الجاوش (او الجاويش - الشاويش) لفظ تركي انظر : مفرج الكروب ٢٩٥/٢ هامش ١ والمقرئزي ، السلوك ، ٨٧٠/١ هامش ٢ .
 (٨٧) النوادر : ١٠٩ مفرج الكروب ، ٢٩٥/٢ ، ٣٢٦ .
 (٧٩) انظر : الفتح القسي : ٢٣٥ . النوادر : ٩٨ ، ١٠٩

- (١٠٧) سنا البرق ، ١٨٥ ، ١٧٨ ، ١٥٩ ، ١٤٧ . مفرج الكروب ٢٩٥ .
- (٨٠) الكامل : ٥٤٧/١١ . الروضتين : ٩٢/٢ . النجوم الزاهرة : ٣٦/٦ .
- (٨١) الروضتين ، ٦٢-٦٣ .
- (٨٢) ن . م . ص : مفرج الكروب : ١٦٧/٢ .
- (٨٣) ابن أبي صبيحة ، هيون الانباء . ج ٣ ص ١٩١ .
- (٨٤) ن . م . ص : ٢٥٩/٣ .
- (٨٥) ن . م . ص : ٢٦٥/٣ .
- (٨٦) الكوسات ، صنوج تشبه الترس الصغير يندق باحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص . صبح الاعشى ٦/٤
- (٨٧) النوادر : ١٤٩ .
- (٨٨) الخطط (ط . الاوفست . بغداد) ٢٣٣/٢ .
- (٨٩) ن . م . ص :
- (٩٠) النوادر : ١١٩
- (٩٢) ن . م . ص : ١٨٣-١٨٤
- (٩٣) صبح الاعشى : ٨/٤
- (٦٤) يقول فيليب حق ان اصل استعماله يعود الى العراقيين السومريين ، كتابه (تاريخ سورية ولبنان) ص ٢٥١ .
- (٩٥) يقول د . الباز الميرني : ان استعمال الالوان (الرنوك) في الشرق والغرب ساد منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، كتابه (الممالك) ص ٢٢٧ .
- (٩٦) الفتح القسي : ص ١٠٣ .
- (٩٧) سنا البرق الشامي ، ٢٥٠/١ انظر (ديوان القاضي الفاضل) ص ٣٩ .
- الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٩٧ .
- (٩٨) مفرج الكروب ، ٨٣-٨٤ .
- (٩٩) سنا البرق ٢٥٠/١ وفيات الابهان ، ٢١١/٧ .
- الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٦٩٦ .
- (١٠٠) النوادر ، ١٧١ الروضتين ، ١٨٨/٢ .
- (١٠١) التجب من الابل ، هو القوي منها ، الخفيف السريع . تاج المروس : ٤٧٧/١ .
- (١٠٢) العمري ، التعريف ، ص : ١٨٦-١٨٧ صبح الاعشى : ٣٧٠/١٤ . الاوسي . تفريج الكروب ، ص : ١٤ محمد كرد علي ، خطط الشام ، ج ٥ ص ١٨ .
- ١٠٣ . د . عطيه مصطفى مشرفة : نظم الحكم بمصر في عهد الفاطميين ، صبح الاعشى : ١١٦ . ١٣٢
- (١٠٥) الاوسي ، تفريج الكروب ، ص : ١٧ .
- (١٠٦) ونسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ص ٦٧١
- (١٠٧) سنا البرق ، ١٨٥ ، ١٧٨ ، ١٥٩ ، ١٤٧ . الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٧٠٢ ، رنسيان ، ٦٧٣/٢ نقلًا عن المؤرخ الصليبي «وليم الصوري»
- (١٠٨) النوادر ، ص ١٤٨
- (١٠٩) ن . م . ص : ١٣١
- (١١٠) ن . م . ص : ١٣١
- (١١١) ن . م . ص : ١٤٠
- (١١٢) ن . م . ص : ١٣٥ ، والفتح القسي : ٤٢٣ الروضتين ١٦٢
- (١١٣) ادي شير ، الالفاظ الفارسية المعربة ، ص ١٦٠ محمد التونجي ، المعجم السذمي ، ص ٦١٩ . مفرج الكروب ٣٨/١ هامش ٣ .
- (١١٤) الهرثمي ، مختصر سياسة الحروب ، ص ٤٨-٤٩ . الاوسي ، تفريج الكروب : ٥١ .
- (١١٥) النوادر : ١٤٧ ، ٢٣٢ ، الكامل : ٢٩/١٢ . الروضتين ٢٠١/٢
- (١١٦) النوادر ، ١٩٢ .
- (١١٧) الكامل : ٦٩/١٢
- (١١٨) النوادر : ٢١٢ ، ٢٣٢
- (١١٩) الفتح القسي : ٥٤١
- (١٢٠) النوادر : ٢١٧ ، ٢٣١
- (١٢١) الفتح القسي : ٥٤٢ ، النوادر : ١٨٢
- (١٢٢) النوادر : ١٨٢
- (١٢٣) ن . م . ص : ١٩٢
- (١٢٤) ن . م . ص : ٢٣١ ، الروضتين : ٢٠٣/٢
- (١٢٥) النوادر : ٢١٢ .
- (١٢٦) الفتح القسي : ٥٥٢ وانظر النوادر : ١٩٠ الروضتين : ١٩٢/٢
- (١٢٧) النوادر : ٩٣
- (١٢٨) الجاحظ ، الحيوان ، ج ٣ ص ٢١٤
- (١٢٩) حياة الحيوان ، ج ١ ص ٢٩٦ .
- (١٣٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٢١ . السبوطي ، حسن المحاضرة : ١٦٦/٢ .
- (١٣١) الروضتين : ن . ص .
- (١٣٢) يقول امين الخولي : ان من الحمام ما يقطع ثلاثة الاف فرسخ في يوم واحد (الجندي والسلم ص ٧٢) اي حوالي الف كيلومتر في الساعة ، وهذا غير معقول .
- (١٣٣) البستاني ، دائرة المعارف ، مجلد ٧ ص ١٦٨ . امين الخولي ، الجندي والسلم ، ص ٧٢
- (١٣٤) صبح الاعشى : ٣٩٠/١٤

- Henry Treece, The Crusades, N. Y. 1962, P. 131

- (١٣٥) ويذكر ابن فضل الله العمري ان المسافة بين مطار وآخر كانت اربعة فراسخ (التعريف ص ١٨٤) اي حوالي ٣٢ كيلومترا .
- (١٣٦) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١٦٦/٢
- (١٣٧) ميخائيل صباغ ، مسابقة البرق والغمام في سعة الحمام . مجلة (المورد) مجلد (٢) عدد (٣) ص ١٤٤ .
- (١٣٨) جري زيدان ، تاريخ النمدن الاسلامي ، ٢٣٣/١
- (١٣٩) العمري ، التعريف ، ص : ١٩٦ ، لظاهري ، زبدة كشف ، ص ١١٧ .
- د - عطية مشرفة : نظم الحكم ، ص : ١٣٦ - ١٣٧ .
- (١٤٠) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص : ٣٤١ - ٣٤٠ .
- (١٤١) قطيا : قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما . معجم البلدان : ٣٧٤/٤
- (١٤٢) قاقون : حصن بفلسطين قرب الرملة . ٢٩٩/٤ . رحلة بنيامين ص : ٩٥
- (١٤٣) اندراعات : بلد في اطراف الشام ، يجاور ارض البلقاء وعمان ، معجم البلدان : ١٣٠/١ .
- (١٤٥) قارة : قرية كبيرة على قارة الطريق ، وهي المنزل الاول من حصن للقاصد الى دمشق . معجم البلدان ٢٩٥/٤
- (١٤٦) العمري ، التعريف : ١٩٦ - ١٩٧ . صبح الاعشى : ٣٩٣/١٤
- (١٤٧) ميخائيل صباغ ، مسابقة البرق . مجلة المورد ، ص ٤٤
- جرجي زيدان تاريخ التحدي الاسلامي ٢٣٣/١ ، احسان هندي ، الحياة العسكرية : ٢١٧ .
- ١٤٨ - الفتح القسي : ٣٦٠
- ١٤٩ - الكامل : ١١ / ٤٥٢ - ٤٥٣
- ١٥٠ - الروضتين : ٢ / ٦
- ١٥١ - النوادر : ١٤٣
- (١٥٢) الفتح القسي : ٣٦٠
- (١٥٣) الجريدة : تعني اقل المساكن ، وهي قطعة جردت من سائرها ، الثعالبي ، فقه اللغة ، ص : ٣٢٩
- (١٥٤) السرية : قطعة اكبر من الجريدة . ن . م ص
- (١٥٥) يكتوت الرماح ، السؤال والمنية ، مخطوط ، ص ١٩١ نقله . سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص ٢٢٢
- (١٥٦) الاوسي ، تفريع الكروب ، ص ٧١
- (١٥٧) النوادر : ١٠٨
- (١٥٨) تبين : بلدة في جبال بني عامر المطللة على بانياس بين دمشق وصور . معجم البلدان : ١٤/٢
- (١٥٩) النوادر : ١٠١
- (١٦٠) الفتح القسي ٢٩٤ . النوادر : ١٠١
- الكامل ٣٠/١١ - ٣١ ، الروضتين ١٤١/٢
- (١٦١) النوادر : ١٥٠ ، الفتح القسي ٤٤٨ ، الروضتين : ١٨٠/٢ مفرج الكروب : ٣٤٤/٢
- عن تفاصيل بعض الكمائن انظر : (١) النوادر : ١٠٨ ، الفتح القسي : ٣٠٦ ، مفرج الكروب ٢٩٤/٢ .
- (٢) النوادر : ٢٠٠ ، الفتح القسي ٥٥٩ - ٥٦٠
- (٣) النوادر : ١٥١ ، الفتح القسي ٤٤٩ الروضتين ١٨٠/٢ مفرج الكروب ٢٤٤/٢ وغيرها .
- (١٦٢) الروضتين ٥٢/٢ . د . سعداوي ، التاريخ الحربي ص : ١٧٨ .
- Lane-Poole, A History de Middle age, p. 196 ¾
- (١٦٣) الروضتين : ن . ص .
- (١٦٤) ن . م ص . وانظر سعداوي ، جيش مصر ، ص ٣٧ نقلا عن مخطوط (العيني ، ج ١ ق ١ ص ٨)
- (١٦٥) الكامل : ٣٧٢/١١ - ٣٧٣ . التاريخ الباهر : ١٥٨ - ١٥٩ .
- وانظر : الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥١٩ . مفرج الكروب ٢٢٢ - ٢٢١/١
- الذهبي ، العبر ، ١٩٥/٤ - ١٩٦
- (١٦٦) منا البرق الشامي ٣٣٣/١ - ٣٣٥ ، الكامل ٤٥٥/١١ - ٤٥٧
- الروضتين ١١/٢ - ١٣ ، البداية والنهاية ٣٠٣/١١ - ٣٠٤
- (١٦٧) الكامل ، حوادث ٥٨١ هـ . زبدة الحلب ، ١٨/٣
- مفرج الكروب ١٧٠/٢ - ١٧١ .
- (١٦٨) الفتح القسي : ١٥٧
- (١٦٩) الكامل ٥٥٧/١١ . الروضتين ١٢٠/٢ انظر بحثنا مسؤولية صلاح الدين في فشل حصار صور ، المنشور في المجلة العربية للعلوم الانسانية جامعة الكويت المجلد السابع سنة ١٩٨٧ ص ٢٩ - ٤٣ .
- (١٧٠) النوادر : ١٢٦ ، الفتح القسي : ٣٩٣
- الروضتين ١٥٥/٢ - ١٥٦ ، مفرج الكروب : ٣٢٤/٢
- (١٧١) النوادر : ١٣١ ، الفتح القسي ٤١٣
- الروضتين : ١٥٩/٢
- (١٧٢) النوادر : ١٧٨ .
- (١٧٤) ارسوف : مدينة على ساحل بحر الشمال بين قيساريه ويالا . معجم البلدان : ١٥١/١
- (١٧٥) الكامل : ٧١/١٢ - ٧٢
- (١٧٦) النوادر : ١٨٦ وانظر مرآة الزمان ٤١٠/٨ ، وفيات

الاعيان ١٩٨/٧ .

(١٧٧) النوادر : ٢١٦ ، الروضتين ١٩٨/٢ - ١٩٩ . مفرج

الكروب ٣٨٦/٢ Lane-Poole, Saladin, p. 341. Stevenson, p.

282.

(١٧٨) جورج كاستلان ، تاريخ الجيوش ، ص ٦٧

(١٧٩) محمد خالد ، قصة التعبئة ، ص ٤٥

(١٨٠) عبدالرؤف عول ، الفن الحربي ، ص ٢٠٦

(١٨١) Oman, A History of The art of war, p. 211

(١٨٢) الايسوي ، مضممار الحقائق : ص : ٢٦ ، السلوك

٦٩/٧ ، سنا البرق الشامي ، ص : ٣٣١/١

(١٨٣) الروضتين ٨/٢

(١٨٤) مفرج الكروب ٨٠/٢

(١٨٥) مضممار الحقائق ، ص ٩٣

(١٨٦) الكامل : ٥٣/١١ . الروضتين ٧٦/٢

(١٨٧) الفتح القسي ، ص . ٦٠

(١٨٨) ن . م ص : ٧٨ ، الروضتين ٧٧/٢

(١٨٩) النوادر : ص ٢١٧ ، الروضتين ١٩٩/٢

مفرج الكروب : ٣٨٩/٢

(١٩٠) اثار الاول : ١٩١

(١٩١) بلدة حصينة تقع الى الشرق من صور . معجم البلدان .

(١٩٢) الكامل : ٥٥٣/١١ - ٥٥٤

(١٩٣) النوادر : ٩٢ ، الفتح القسي ، ٢٤٩ ، الكامل

١٥/١٢ ، الروضتين ١٣١/٢ ، زبدة الحلب ١٠٥/٣ ،

مفرج الكروب ٢٦٦/٢

(١٩٤) النوادر : ٢٠٢

وانظر الفتح القسي : ٥٦٠

(١٩٥) Heyd, Histoire de Commerce ... p.3

جب ، صلاح الدين : ص ١٤٥ - ١٤٦ ارست باركر ،

الحروب الصليبية ص ٢٢٩

(١٩٦) د . الباز العربي ، الشرق الادنى في العصور الوسطى ،

ص ٧٨

(١٩٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٢١ - ٦٢٢

(١٩٨) د . صابر محمد دياب ، سياسة الدول الاسلامية في حوض

البحر المتوسط ص ٢٣٠

(١٩٩) معجم البلدان ، ١٢٢/٤ . اثار البلاد ، ص ٢٢٢

(٢٠٠) النوادر : ١٨٧ ، الكامل ٧١/١٢ ، الفتح القسي :

٥٥٠ ، الروضتين ١٩٢/٢ ، السلوك ١٠٦/١

(٢٠١) الفتح القسي : ٥٥٠ ، التاريخ المنصوري : ٢٠٧ ، مرآة

الزمان : ٤١٠/٨ .

(٢٠٢) النوادر : ١٨٩ ، الفتح القسي : ٥٥١

الكامل : ٧٢/١٢ ، معجم البلدان : ٦٩/٣

(٢٠٣) النوادر : ١٩١ ، الروضتين : ١٩٣/٢ ، وفيات

الاعيان : ١٩٩/٧ السلوك : ١٠٦/١ .

(٢٠٤) مرآة الزمان مان : ٤١٠/٨

(٢٠٥) شفاء القلوب : ١٧٣

(٢٠٦) النوادر : ١٨٩ ، الفتح القسي : ٥٥١ ، وفيات

الاعيان : ١٩٩/٧

(٢٠٧) معجم البلدان : ٤٢٤/٢ . شفاء القلوب : ١٧٣ .

(٢٠٨) الكامل : ١٣/١٢ ، زبدة الحلب : ١٠٤/٣

(٢٠٩) النوادر : ٢٢٨ ، مفرج الكروب : ٤٠٠/٢

(٢١٠) معجم البلدان : ٤٢٥/٥

(٢١١) بيت جبرين بين بيت المقدس وغزة . معجم البلدان

٥١٩/١

(٢١٢) الروضتين : ٢٨/٢

(٢١٣) ابله : مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام (معجم

البلدان ٢٩٢/١) وهي ميناء (ايلات) الحالية على خليج العقبة

في فلسطين المحتلة .

(٢١٤) انظر د . سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص : ٣٨

(٢١٥) قوانين الدواوين ، ص : ٣٢٥

(٢١٦) الروضتين : ٣٥/٢ ، مفرج الكروب : ١٢٧/٢

(٢١٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٨٨ .

(٢١٨) الروضتين ١٢١/٢

(٢١٩) النوادر ، ١٩

(٢٢٠) هكذا يحدد العماد الكاتب فترة الهدنة بالتقويم الشمسي

(الميلادي) وليس (الهجري) الفتح القسي / ٢٦٠ وانظر ايضا

(النوادر ٩٤) و(الكامل ١٢/٩) و(الروضتين ١٣٣/٢) .

(٢٢١) الفتح القسي ٣٨٥ - ٣٨٠ ، وانظر النوادر : (١٢١)

والروضتين ١٥١/٢

(٢٢٣) الفتح القسي ٤٥٤ . مفرج الكروب ٢٤٦/٢

(٢٢٤) النوادر صفحة : ١٥٠ - ١٥١ ، الروضتين : ١٨٠/٢

(٢٢٥) انظر على سبيل المثال: النوادر : ٢١١ ، ٢٣٠ . الفتح

القسي ٤٧٢ ، ٤٩٥ ، الروضتين : ٢٠٢/٢ .

المصادر

١ ابن ابي اصيحه الخزرجي ، ابو العباس موفق الدين احمد بن

القاسم (ت ٦٦٨ هـ / ١١٦٩ م) عيون الانباء في طبقات

الاطباء ، اصدار دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٧ .

٢ ابن الاثير ، ابو الحسن عز الدين علي ابن ابي الكرم محمد بن

- عبدالكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) .
الكامل في التاريخ ، دار صادر - بيروت ، بيروت ١٩٦٦ .
- ٣ نفسه ، الباهر في تاريخ الانابكي ، تحقيق د . عبد القادر طليمات . ط القاهرة ١٩٦٣ .
- ٤ ابن الازرقي ، ابو عبدالله محمد بن علي بن محمد بن علي بن قاسم بن مسمود (ت ٨٩٦ هـ / ١١٤٩٠ م) . بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق د . علي سامي النشار ، منشورات وزارة الاعلام العراقية ، دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٧ .
- ٥ ابن اياس ، ابو البركات محمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٢ م) تاريخ مصر (بدائع الزهور في وقائع الدهور) المطبعة الكبرى الاميرية ، بولاق ، مصر ١٣١١ م
- ٦ ابن تغري بردي ، ابو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي الانابكي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٨٨ .
- ٧ ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) . رحلة ابن جبير ، دار صادر - بيروت ، بيروت ١٩٦٤ .
- ٨ ابن خلدون ، ابو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) . المعبر وديوان المبتدأ والخبر «تاريخ ابن خلدون» دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٦١ .
- ٩ ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٧ م) . زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باعثناء وتصحيح بولس راويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ، ١٨٩٤ .
- ١٠ ابن شداد ، ابو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع الاسدي (ت ٦٣٢ هـ / ١٣٣٤ م) . السوائد السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د . جمال الدين الشيبان طبعة الدار المصرية ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ١١ ابن العبري ، ابو الفرج غريغوريوس اهرن الملطي (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) . تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، ط ٢ بيروت ١٩٥٨ .
- ١٢ نفس المؤرخ :
تاريخ الدول السرياني ، صنفه باللغة السريانية ، ترجمه الى اللغة العربية اسحق ارملة السرياني . منشور في مجلة (المشرق) البيروتية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت من السنة ٤٦ لعام ١٩٥٢ الى السنة ٤٩ لعام ١٩٥٥ ، ج ٤ ، ٥ .
- ١٣ ابن العديم ، ابو القاسم كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله الحلبي (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) . زبدة الحلب من تاريخ حلب ، تحقيق د . سامي الدهان . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٤ - ١٩٦٧ .
- ١٤ ابن العماد ، ابو الفلاح عبدالحفي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٨ م) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، مطبعة القدسي ، القاهرة . ط ١٣٥٠ هـ / ١٩٣١ م .
- ١٥ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) . تاريخ ابن الفرات ، تحقيق (د . حسن محمد الشماع ، مطبعة حداد ، البصرة ١٩٦٧ .
- ١٦ ابن قاضي شهبة ، ابو الفضل بدر الدين محمد بن تقي الدين ابن قاضي شهبة الاسدي الشافعي (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) . الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي) تحقيق د . محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ .
- ١٧ ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزة (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) . ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ .
- ١٨ ابن كثير ، ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٣٢ .
- ١٩ ابن ماضي ، الاسعد بن الخطير المهذب بن مينا المصري (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) . قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه ، طبع مصر ١٩٤٣ .
- ٢٠ ابن منكلي ، محمد الناصر بن محمود بن منكلي المصري (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، مخطوط مصور بالفوتوستات في المجمع العلمي العراقي ، تحت رقم (٦٤٦ - سلاح) .
- ٢١ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم الحموي (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م) . مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق د . جمال الدين الشيبان . المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٥٧ .
- ٢٢ ابو شامة ، شهاب الدين عبدالرحمن بن اسماعيل المقدسي الدمشقي (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (النورية والصلاحية) ج ١ ق ١ طبعة القاهرة ١٩٥٦ وج ١ ق ٢ ط ١٩٦٢ .
- نفس الكتاب بجزأيه ، مطبعة وادي النيل القاهرة ، ١٢٨٧ - ١٢٨٨ م
- ٢٣ ابو الفدا ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن تقي الدين عمر الايوبي ، صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) المختصر في اخبار البشر ، مطبعة دار الكتاب اللبناني ، بيروت .
- ٢٤ ابو نحرمة ، ابو محمد عبدالله الطيب بن عبدالله بن احمد القرن العاشر الهجري ، تاريخ ثغر عدن ، مطبعة بربل ، ليدن ١٩٣٦ .

- ٢٥ الاوسي الانصاري ، عمر بن ابراهيم (اوائل القرن التاسع /
اوائل القرن الخامس عشر الميلادي) . تفريج الكروب في تدبير
الحروب ، حققه وترجمه الى الانكليزية د . جورج
سكانلون ، منشورات الجامعة الاميركية بالقاهرة ١٩٦١ .
- ٢٦ الايوبي ، الملك المنصوري محمد بن تقي الدين عمر بن
شاهنشاه بن ايوب ، صاحب حماء (ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م) .
مضمار الحقائق وسر الحقائق ، تحقيق د . حسن حبشي ، دار
النهج ، طبع عالم الكتب ، القاهرة ١٩٦٨ .
- ٢٧ البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي (ت قرن سابع هـ / ثالث
عشر م) . سنا البرق الشامي (تلخيص كتاب البرق الشامي
للعقاد الكاتب الاصفهاني) تحقيق د . رمضان ششن ، دار
الكتاب الجديد ، بيروت ١٩٧١ ج ١ .
- ٢٨ بنيامين التطيلي ، بنيامين بن يونه الاندلسي (ت ٥٦٩ هـ /
١١٧٣ م) . رحلة بنيامين ، ترجمه من العبرية حداد ، المطبعة
الشرقية . بغداد ١٩٥٠ .
- ٢٩ النعالي ، ابو منصور عبدالله بن محمد (ت ٤٢٩ هـ /
١٠٣٦ م) . فقه اللغة وسر العربية ، مطبعة الاستقامة ،
القاهرة ١٩٥٩ .
- ٣٠ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٦ هـ / ٨٦٨ م) .
الحيوان ، تحقيق وشرح عبدالسلام محمد هارون ، مطبعة
مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م
- ٣١ الحموي ، ابو الفضائل محمد بن علي بن العزيزي بن علي
مزهر (ت ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م) التاريخ المنصور ، تلخيص
الكشف والبيان في حوادث الزمان (نشر بطرسفريا زنجويج
موسكو ، دار النشر للاداب الشرقية ، ١٩٦٠ .
- ٣٢ الحموي ، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي
(ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) . معجم البلدان ، دار صادر - دار
بيروت ، بيروت ١٩٥٥ - ١٩٥٧ .
- ٣٣ الحنبلي ، ابو البركات عز الدين احمد بن ابراهيم بن نصر الله
المسقلاني المصري (ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م) . شفاء القلوب
في مناقب بني ايوب ، تحقيق : د . ناظم رشيد ، دار الحرية
للطباعة ، بغداد ١٩٧٨ .
- ٣٤ الدميري ، كمال الدين ابو البقاء (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) .
حياة الحيوان الكبرى ، دار الطباعة ، القاهرة ١٢٩٢ هـ .
- ٣٥ الدواداري ، ابو بكر بن عبدالله بن ابيك (ت بعد ٧٣٦ هـ /
١٣٣٥ م) . الدر المطلوب في اخبار بني ايوب ، تحقيق د .
سعيد عبدالفتاح عاشور ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ،
القاهرة ١٩٧٢ .
- ٣٦ الذهبي ، ابو عبدالله شمس الدين محمد بن احمد الدمشقي
(ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) مختصر تاريخ الاسلام . مخطوط
مصور في مكتبة الدراسات العليا (قسم ١ ، ٢) تحت رقم
١٦٥٩ ، ١٦٦٠ .
- ٣٧ الزبيدي ، ابو الفيض محب الدين محمد مرتضى الحسيني
الواسطي (ت ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م) تاج المروس من جواهر
القاموس ، المطبعة الخيرية ، منشورات دار مكتبة الحياة ،
بيروت ، ١٣٠٦ هـ .
- ٣٨ سبط بن الجوزي ، ابو المظفر شمس الدين قزاوغلي التركي
(ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ،
مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية ، حيدر اباد الهن / الهند
١٩٥١ ، ج ١ قسم ١ .
- ٣٩ السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ /
١٥٠٥ م) . حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة ، المطبعة
الشرقية ١٣٢٦ هـ .
- ٤٠ الطرسوسي ، مرضي بن علي بن مرضي (ت ٥٨٩ هـ /
١١٩٣ م) (تبصرة ارباب الالباب . .) مخطوط مصور
بالميكروفيلم ، نسخة شخصية عن نسخة مكتبة بودليان
باكسفورد .
- ٤١ الطرطوشي ، ابو بكر محمد بن الوليد الفهري المالكي (ت
٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) . سراج الملوك . مطبعة بولاق ١٢٨٩ م
- ٤٢ العباسي ، الحسن بن عبدالله (بدأ بتأليفه سنة ٧٠٨ هـ /
١٣٠٨ م) اثار الاول في ترتيب الدول ، مطبعة بولاق
١٢٩٥ هـ .
- ٤٣ العليمي المقدسي ، ابو اليمى مجيد الدين عبدالرحمن بن محمد
علحنيلي (ت ٩٢٨ هـ / ١٥٢٠ م) . الانس الجليل بتاريخ
القدس والخليل ، منشورات المطبعة الحيدرية ، التجف
١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .
- ٤٤ العماد الكاتب الاصفهاني ، ابو عبيد الله محمد بن محمد حامد
(ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) . الفتح القسي في الفتح القدسي ،
تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح ، الدار القومية
للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٤٥ العمري ، شهاب الدين ابو فضل الله العمري (ت ٧٨٦ هـ /
١٣٨٤ م) التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ،
القاهرة ١٣١٢ م .
- ٤٦ القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م)
اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر - دار بيروت ، بيروت
١٩٦٠ .
- ٤٧ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي بن عبدالله
(ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) صبح الاعشى في صناعة الانشاء ،

- المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٧ .
- ٤٨ المقريري ، ابو العباس تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) . البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب ، تحقيق د . عبدالمجيد عابدين ، عالم الكتب القاهرة ١٩٦١ .
- ٤٩ المقريري . السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٣٤ .
- ٥٠ المقريري . المواعظ والاعتبار (الخطوط) مطبعة بولاق ١٢٩٤ ، اوفست مكتبة المتنى بغداد . نفس الكتاب ، طبعة المعهد الفرنسي ، القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٢ .
- ٥١ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) نهاية الارب في فنون الادب . دار الكتب القاهرة ١٩٥٤ .
- ٥٢ الهرثمي ، ابو سعيد (صاحب الخليفة المأمون العباسي) . مختصر سياسة الحروب ، تحقيق عبدالرؤوف عون . طبعة المؤسسة العامة للتأليف . القاهرة ، بلا
- ٥٣ الهروي ، علي بن ابي بكر بن علي (ت ٦١١ هـ / ١٢١٥ م) . التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، تحقيق مطيع المرباط . وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٢ .
- ٥٤ اليافعي ، ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي اليميني المكي (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ١٩٧٠ .
- الكتب الحديثة والمترجمة الى اللغة العربية
- ٥٥ احسان هندي : الحياة العسكرية عند العرب ، مطبعة الجمهورية ، دمشق ١٩٦٤ .
- ٥٦ ادي شير : الالفاظ الفارسية العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٠٨ .
- ٥٧ ارنست باركر . الحروب الصليبية ، ترجمة د . الباز العريبي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- امين الخولي ، الجندي والسلم
- ٥٨ د . الباز العريبي كته : الشرق الادنى في العصور الوسطى (الايوبيون) ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٥٩ الشرق الاوسط في الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية . لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٣ .
- ٦٠ المالبيك . دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٦١ بولياك ، ا . ن
- الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، ترجمة عاطف كرم ، منشورات دار المكشوف بيروت ١٩٤٨ .
- ٦٢ جان سوفاجيه دمشق الشام . المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٦ .
- ٦٣ جب ، السبرهاملتون أ . ر . صلاح الدين الايوبي ، دراسات في التاريخ الاسلامي ، حررها يوسف ابشر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣ .
- ٦٤ جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي . منشورات دار مكتبة الحياة ، مؤسسة خليفة للطباعة بيروت ١٩٦٧ .
- ٦٥ جورج كاستلان : تاريخ الجيوش . ترجمة كمال الدسوقي ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٦ .
- ٦٦ جهادية القرغولي : التنظيمات الادارية والعسكرية في العراق والشام ، رسالة دكتوراه ، مطبوعة على الالة الكاتبلا ، القاهرة ١٩٧٤ .
- ٦٧ دوزي ، رينهارت : المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ترجمة د . اكرم فاضل . دار الحرية للطباعة ، مطبوعات وزارة الاعلام العراقية ، بغداد ١٩٧١ .
- ٦٨ د . رشيد الجميلي : دولة الاتابكة في الموصل بعد عمادالدين زنكي ، دار النهضة بيروت ١٩٧٠ .
- ٦٩ ستيفن رنسيمن تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة د . الباز العريبي ، ط . دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨
- ٧٠ المرساوي ، اللواء محمود محمد : يوم حطين من روائع التاريخ العسكري العربي . مطبعة الدار القومية ، القاهرة ، بلا تاريخ
- ٧١ سميد الدبوهجي : الموصل في العهد الاتابكي ، مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٥٨ .
- ٧٢ سعيد عبدالفتاح عاشور الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٣
- ٧٣ نفسه : مصر والشام في عهد الايوبيين والمماليك ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٠
- ٧٥ طه الهاشمي : دروس في المعلومات الجغرافية ، مطبعة الشعب ، بغداد

- ١٩٣٦ .
- ٧٦ عبدالرزوف عون : الفن الحربي في صدر الاسلام ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ٧٧ د . عطيه مصطفى مشرقة : نظم اخكم بمصر في عهد الفاطميين ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، القاهرة ، بلا
- ٧٨ د . فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة د . كمال اليازجي ، مراجعة د . جبرائيل جبور ، دار الثقافة ومؤسسة فرانكلين - بيروت ١٩٥٩ .
- ٧٩ قدري قلمجي صلاح الدين الايوبي ، قصة الصراع بين الشرق والغرب ، دار الكاتب العربي . بيروت ١٩٦٦ .
- ٨٠ محمد التونجي المعجم الذهبي ، دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ .
- ٨١ محمد خالد قصة التعبئة ، مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٦٩ .
- ٨٢ محمد كرد علي خطط الشام ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٩٢٥
- ٨٣ محمد ياسين اخموي دمشق في العصر الايوبي ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٤٦
- ٨٤ ميخائيل صباغ (ت ١٨١٦ م) مسابقة البرق والقمام في سعة الحمام . رسالة منشورة في مجلة (المورد) البغدادية المجلد ٢ عدد ٣ بغداد ١٩٧٣ .
- ٨٥ نظير حسان سعداوي : التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧
- ٨٦ Hayd W, Histoire de Commerce de Levant ar moyen-Age, Amsterdam, 1959
- Henry Treaco, the Crusades, NY. 1962
- ٨٧ Omar, C. W. C., A History de the art of war in the Middle age, N.Y. 1924
- ٨٨ Lane-Poole, Stanley., A History of middle age London, 1901
- ٨٩ Lane-coole, Stanley., Saladin and the fall of the kingdom de Jerusalem, 1962 .



صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة



الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب

دلائل - في معركة حطين

د. د. عبد القادر نوري

استاذ التاريخ الاسلامي المساعد / جامعة الموصل

تقديم :

وانما جاء نتيجة للبيئة الجيدة التي نشأ فيها ، ولامتلاكه العديد من الموهلات القيادية اضافة الى مساعدة العديد من الظروف المواتية .

ويمكن القول بأن صلاح الدين قد تروى على ايدي كبار اساتذة عصره اضافة الى تروده على دور العلم ، كما تدرب عملياً على ايدي والده نجم الدين وعمه اسد الدين شيركوه والسلطان نورالدين محمود زنكي الذين كانوا ممن تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز على المستوى العسكري وفي مقاومة الغزو الصليبي لبلاد الشام^(١) .

ولذلك فلا عجب ان تولي صلاح الدين وفي وقت مبكر العديد من المهام القيادية منها رئاسة شرطة مدينة دمشق سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٥ م ثم نائباً لوالدها . وتبعاً لذلك كانت مهمة النائب قيادة العساكر والمحافظة على النظام ، وقد نجح صلاح الدين في كل ذلك فأظهر السياسة واحكم الامور^(٢) ، وفي سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م تولى صلاح الدين منصب رئاسة الوزارة الفاطمية في مصر^(٣) . فأظهر كفاءة ومقدرة تفوق الوصف تمكن بها من السيطرة على مقاليد الامور بالديار المصرية كان من نتائجها إسقاط الخلافة الفاطمية وعلان الانضمام للخلافة العباسية^(٤) .

وبعد ان اصبح صلاح الدين اميراً لمصر ونائباً لنورالدين

يعتبر صلاح الدين، الايوبي^(٥) من القادة العرب الافذاذ الذين تحدث عنهم التاريخ بفخر واعتزاز ، اذ على يديه تحققت طموحات شعبه في الوحدة والتحرير ، وكان مفتاح نصره « معركة حطين » تلك المعركة التي انتصر فيها على الغزاة الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م انتصاراً ساحقاً ، عبرت عن حسن مقدرته السياسية والعسكرية ، كما عبرت عن الروح المعنوية العالية لجنده والصبر الكبير على تحمل المشاق والبعد عن الاهل والاحباب من اجل احراز كامل النصر على الاعداء ، كذلك فإن العقيدة العسكرية والتلاحم بين القائد وشعبه وجنده والخطط العسكرية الجيدة كان لها اثرها الواضح في انجاح هذه المعركة .

ونظراً لاهمية (حطين) في التاريخ ، فقد وقع الاختيار عليها وذلك للاستحضار وتقويم الفكر العسكري العربي الذي كان له الاصاله والتفوق في مجال الفكر العسكري العالمي آنذاك ، وربطه بالفكر العسكري العربي المعاصر للافادة من قيمه بما يخدم اهداف امتنا المجيدة وطموحاتها المعاصرة في الوحدة والتحرير .

إن مما يجدر ذكره ان وصول صلاح الدين لمركز القيادة وتمكنه من تحقيق نصره على عدوه ، لم يكن بالامر العارض ،

في حكم البلاد جاءتته العديد من الظروف المواتية التي أهلته للقيادة كان من أهمها وفاة نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م وما أعقبها من تمزق في الجبهة الداخلية ، ذلك التمزق الذي تصدى له صلاح الدين بحزم والذي كسب به محبة الشعب والخلافة العباسية ليستقل بعدها من قيادة مصر الى قيادة جبهة مصر والشام وبلاد الجزيرة بعد ان خاض حروباً داخلية ضد الامراء الاقليميين مدة عشر سنوات تمكن بعدها من تحقيق وحدة قوية وبأسلوب قد تلائم عصره واهدافه .

علماً بأن صلاح الدين خاض في فترة الاعداد لبناء الوحدة من (سنة ٥٧١ - ٥٨١ هـ / ١١٧٥ - ١١٨٥ م) عدة معارك ضد الغزاة الصليبيين ، غير انها لم تكن حاسمة لان هدفه الاول كان القضاء على الغزاة قضاءً تاماً . وهذا لا يتيسر قبل اقامة دولة قوية وموحدة ، ومن هنا بدأ فكره العسكري وبعد نظره عندما صمم على توحيد الجيوش وتعبئة القوى الداخلية قبل البدء بمعركة حطين مما سنذكره تباعاً .

الموقف السياسي للجبهة العربية قبل معركة حطين

لقد كانت جبهة بلاد الشام والجزيرة مفككة سياسياً اثر وفاة الامير نورالدين محمود زنكي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م اذ لم يكن بين رجال البيت الزنكي من يشار اليه بأنه يصلح ان يكون خلفاً لنورالدين الذي لم يترك سوى ابن طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه اسماعيل^(١) كذلك لم يكن بين الاخوين الزنكيين سيف الدين غازي (امير الموصل) وعماد الدين (امير سنجار)^(٢) وفاق (وكانوا لضعف وثوق بعضهم ببعض يتبعون ما ابرموه امس في يومهم بنقض)^(٣) .

ولذلك لم يكن من المتوقع ان يحتل احد هذين الاخوين مكانة عمه نورالدين^(٤) ، كما لم يكن من المنتظر ان تبقى منطقة الجزيرة والشام محافظة على وحدتها وقوتها خاصة وان الامراء والضباط الكبار في جيش نورالدين دخلوا فور وفاة سيدهم في تنافس وصاية ابنه الصغير الملك الصالح^(٥) .

وفي هذه الفترة بالذات . توسع الخطر الصليبي في بلاد الشام واصبح ذا تأثير كبير في سير الاحداث السياسية في المنطقة ، فقد هاجموا بانياس في آخر شوال سنة ٥٦٩ هـ / مايو ١١٧٤ م

وهادنهم اميرها ابن المقدم على ان يؤدي اليهم مبلغاً من الاموال وان يطلق سراح اسراهم^(٦) . ومن الواضح فأنه لم يكن بمقدرة الملك الصالح ولا سيف الدين غازي ولا الامراء المحليين ان يهاجموا الخطر الصليبي على انفراد^(٧) خاصة وان الامدادات الاوربية لم تنقطع عن الغزاة في بلاد الشام لذلك اصبح واضحاً ان يتقدم احد امراء نورالدين الاقوياء ليملا الفراغ ويؤمّن الكلمة ويجمع الصف .

وقد كان صلاح الدين في هذه الفترة يملك قوة كبيرة من العدد والعدة فهو امير لمصر القوية الواسعة وقائد لعدة فرق عسكرية^(٨) ، ولذلك احس صلاح الدين بأنه الوارث الحقيقي لنورالدين وان من واجبه اعادة بناء الدولة وتوحيد الكلمة ومواصلة السياسة التي بدأها نورالدين والهادفة الى توحيد البلاد وتحريرها من الغزاة^(٩) ، خاصة وان بلاد الشام والجزيرة واقعة تحت عدة زعامات وهي بأمر الحاجة الى الوحدة .

فمدينة دمشق (جمع امراؤها على اعطاء القيادة فيها لولد نورالدين الطفل الملك الصالح) تحت وصاية الامير المقدم^(١٠) ، اما مدينة الموصل فقد استقل بها الامير سيف الدين غازي ثم تقدم بقواته للسيطرة على المنطقة وقد احتل نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقعة^(١١) ، وفي حلب تمكن حاكم قلعته شاذ بخت بالتعاون مع بن المقدم - المار ذكره - بتدبير مؤامرة نقلوا فيها الملك الصالح من دمشق الى حلب^(١٢) ، ثم سيطروا بعدها على وصايته والقوا القبض على كل اعيان البلد من اصدقاء صلاح الدين والمخالفين لسياستهم^(١٣) .

ان هذا الاضطراب السياسي في حلب ودمشق وبلاد الشام عموماً ، جاء سبباً ثانياً - اضافة الى وفاة نورالدين - دفع بصلاح الدين الى التدخل في الامور من أجل حسم الموقف لصالح طموحات الشعب في الوحدة والتحرير ، وقد جاء السبب الثالث ملحاً عندما وصلت الاخبار الى صلاح الدين بأن حاكم دمشق (بن المقدم) عقد صلحاً مع الغزاة الصليبيين وانه اطلق سراح اسراهم خوفاً منهم وحفاظاً على مصالحه الاقليمية الضيقة^(١٤) .

لقد اعتبر صلاح الدين مجاهدة الغزاة الصليبيين واجباً جماعياً (Obligation Collective) ولما وجد ان الامراء

الآخرين مشغولون عنه ، كان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة ولذلك اعتبر تقدمه نحو الشام واجباره للحكام الآخرين بالانضمام تحت لوائه ، انما هو الخدمة الجهاد في سبيل الله^(١٠٠) ، ولذلك ابتداء بتحريك الرأي العام ضد اولئك الامراء الرافضين لسياسته ، واستخدم علماء الدين لذلك الغرض فأرسل - كما مر - اول مكاتبة الى الشيخ بن ابي عصرون يطلب منه تنبيه المسلمين لاستنكار اعمال الخيانة والاعمال الانفصالية ، وقد كان آتئذ لعلماء الدين اثر كبير في اثاره عامة المسلمين .

وقد جاء المحفز الاخير لصلاح الدين في التحرك من مصر الى بلاد الشام عندما كاتبه اهالي دمشق في نهاية عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وطلبوا منه بالحاج التوجه اليهم خوفاً من تحركات الصليبيين المشبوهة في المنطقة ودفعاً لتشتت المدينة ووقوعها بيد امراء حلب^(١٠١) . مما يدل على ان صلاح الدين اصبح في تلك الفترة معقداً لطموحات الشعب ومحط انظارهم والمنقذ لهم من الاخطار المهددة لهم في الداخل والخارج .

وفي اوائل سنة ٥٧٠ هـ / النصف الثاني من سنة ١١٧٤ م تجهز صلاح الدين للسفر الى بلاد الشام ليقود من هناك عملياته الحدودية التحررية ، وقد كان من الطبيعي ان يقع الصدام بين صلاح الدين والامراء الزنكيين ، لانه ليس من المعقول ان ينضم كل الامراء الى صلاح الدين بالطريقة التي كان يراها صلاح الدين نفسه وهكذا وقع على كاهل صلاح الدين القيام بحملة اعلامية موسعة لأفهام كل الاطراف المعنية بأهدافه النبيلة) وانه عازم على فتح بيت المقدس وان من لم ينضم اليه فانه من غير شك سيكون مستعداً للتواطؤ مع عدوه ضده^(١٠٢) .

اذن كان على صلاح الدين اعادة التسليح الخلقي بين أبناء جيله من خلال (اعلانه للجهاد في سبيل الله) اي انه اخذ يعد الدولة بقادتها وشعبها عن طريق توضيح الاهداف المستقبلية للامة والتي حددها صلاح الدين بالكتاب الذي ارسله للخلافة العباسية عام ٥٧١ هـ اعلمها فيه اسباب تقدمه من مصر الى الشام ومن جملة ما جاء في ذلك الكتاب

قوله : (وعرفنا ان البيت المقدس ان لم تيسر الاسباب لفتحها وامر الكفر ان لم يجرد العزم في قلعه والا ثبتت عروقه وكانت همم القادرين بالقعود آثمة ، وانا لا نتمكن بمصر منه لبعده المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب واذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيول مستريحة والعساكر كثيرة^(١٠٣) .

وهكذا بين صلاح الدين لمن يهمهم الامر في عصره شعباً ومقاتلين وامراء ان الوحدة لازمة وان من لا ينخرط فيها فان قتاله واجباً جهادياً كواجب مجاهدة الغزاة وقد ذكر صلاح الدين قوله : (وما كنا بشهادة الله في قتال « للزنكيين » الا كقاطع كفه ليسلم سائر جسمه وكراكب حد السنان مضطراً في حكمه^(١٠٤) .

كما بين صلاح الدين ان هدفه وقبل كل شيء هو وحدة الجيوش المقاتلة وانتمائها لقيادة عسكرية واحدة لخدمة هدف تحرير القدس . وقد جاء على لسان كاتب صلاح الدين القاضي الفاضل اشارة الى ذلك اهدف قوله (ولا نختر الا ان تغدو جيوش المسلمين متحاشدة على عدوها لا متحاسدة بعثوها ، ولولا ان امور الحرب تصلحها الشركة لما عز عليه ان يكون كثير المشاركين ولا اساءه ان تكون الدنيا كثيرة المالكين وانما امور الحرب لا تحتل في التدبير الا الوحدة ، فأذا صح التدبير لم يحتل في اللقاء الا العدة^(١٠٥) .

وفي بداية صفر من سنة ٥٧٠ هـ / ٣ ايلول سنة ١١٧٤ م خرج صلاح الدين من مصر بحوالي سبعمائة فارس من عسكره متجهاً نحو مدينة دمشق ، وقد دخلها يوم الثلاثاء نهاية شهر ربيع الآخر من سنة ٥٧٠ هـ / الموافق ٢٨ تشرين الاول سنة ١١٧٤ م بعد ان مر بالعديد من الحصون والقلاع التي انضمت اليه واعلنت استعدادها للتعاون معه^(١٠٦) .

اما المدن العربية الاخرى في بلاد الشام والجزيرة فلم تقف من صلاح الدين موقف دمشق الايجابي ، وانما تصدت له بشتى الوسائل ، وخاصة مدينة حلب والموصل ، غير ان

صلاح الدين تمكن في النهاية من اجبارها على الدخول في الوحدة سواء كان ذلك بالاسلوب العسكري أم السياسي عن طريق الترغيب أو التهريب ، ففي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ - ١١٧٥ م دخل صلاح الدين حمص وحماه منتصراً ولم يلق مقاومة تذكر^(١٢) اما حلب والموصل فقد اتفق امراؤها على مقاومة صلاح الدين عسكرياً وتقدموا لحربه ، وقد حدثت معركة بين الطرفين في ١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ / ١٣ نيسان سنة ١١٧٥ انتصر فيها صلاح الدين على خصومه بعد ان حاول لمرات عديدة مصالحتهم ، واجتهد في ذلك كما ذكر المؤرخ ابن شداد - « فما صالحوه وراوا ان الحرب معه خير وسيلة لنيل مقصودهم »^(١٣) غير ان آمالهم خابت اذ ولوا مدبرين امام جند صلاح الدين^(١٤) .

ومما تجدر الاشارة اليه ان صلاح الدين كان يعامل خصومه من العرب معاملة اخوية وانسانية ، ويستخدم معهم كل الاساليب السلمية من اجل عدم اراقة دمائهم للاحتفاظ بها ليوم الفصل مع الغزاة الصليبيين ، فقد كان يرسل امراء حلب والموصل كلاً على انفراد من اجل فك ارتباطهم ، او كان يطمع احدهم بالآخر ، ولما اغلقت ابواب السلام امامه قاتلهم من غير قسوة ثم كان يأمر جنده بعد هزيمة اعدائه « ان لا يتبع مدبر ولا يقذف على جريح ، ثم انه كان يطلق من يقع في اسره منهم »^(١٥) وقد عبر عن هذه السياسة الحكيمة المؤرخ الفرنسي سيفان بقوله : (كان صلاح الدين يخاف ضرب الموصلين بقسوة لان دمهم واحد ، وقد استخدم الطرق النفسية حتى لا يثير غضب المسلمين ضده وتراق الدماء بينهم »^(١٦) .

لقد اعتبر صلاح الدين المدن العربية هي الطريق الموصل الى القدس . وعليه فان قتال حكامها من ذوي الاطماع الاقليمية الضيقة هو من تمام الجهاد في سبيل الله ، ولذلك ألح في طلبها الى ان استسلمت لارادة الوحدة ، وقد تم لصلاح ما اراد سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٦ م عندما قررت معاهدة الصلح مع صلاح الدين والتي اتفق امراء الشام والجزيرة خلالها على ان يكونوا صفاً واحداً ضد الغزاة وان تكون العساكر مجتمعة تحت قيادة صلاح الدين^(١٧) .

الدروس المستنبطة

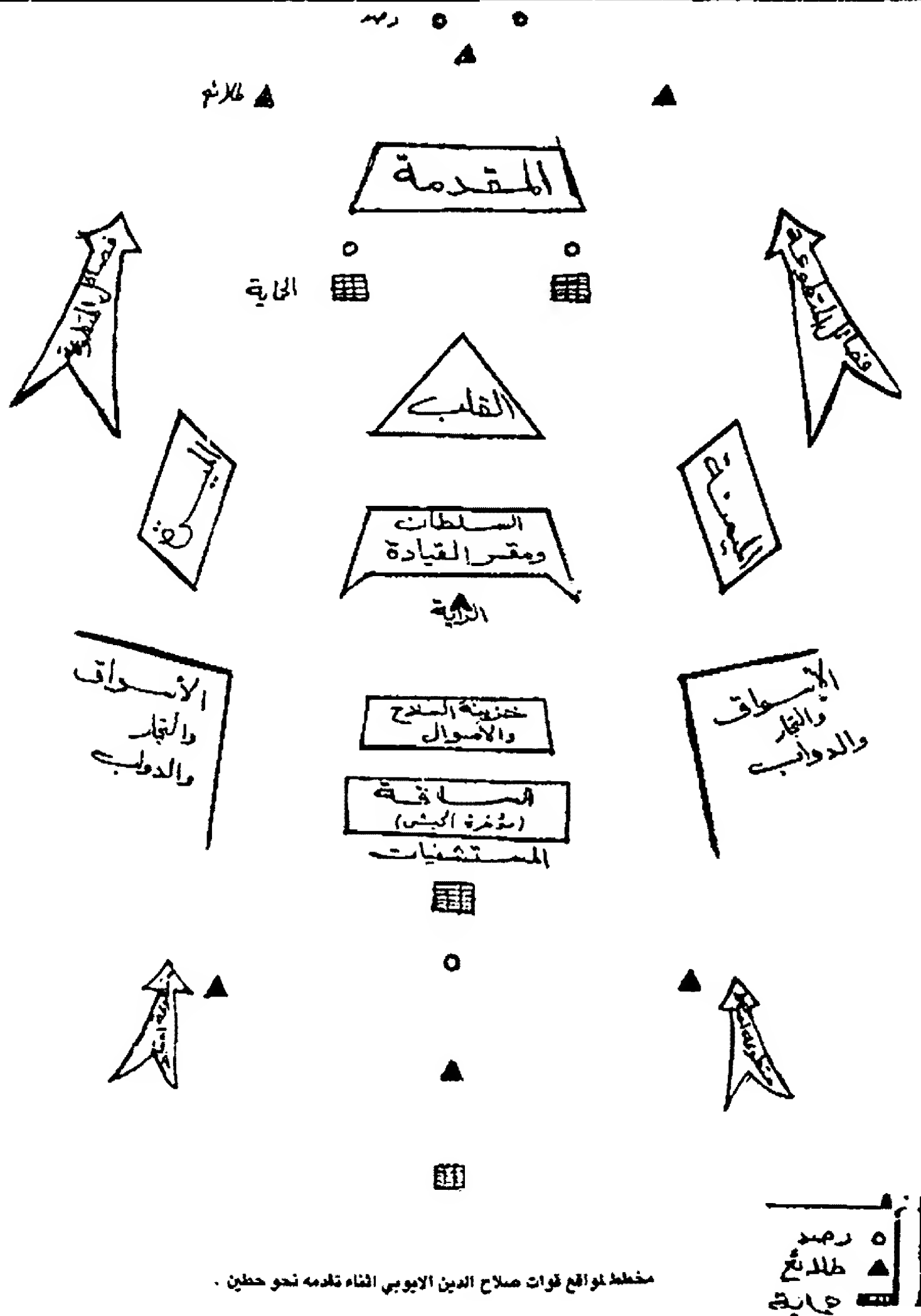
تبين مما سبق ان لصلاح الدين فكراً سياسياً واضح المعالم تجلّى في سعيه الاكيد من اجل قيام وحدة قوية ومتينة بين القوى العربية والاسلامية في منطقة الشام والجزيرة ، وانه عمل من اجل الوحدة اكثر من عشر سنوات (٥٧٠ - ٥٨١ هـ / ١١٧٤ - ١١٨٥ م) . وقد تجلّت في تلك السياسة الجوانب التالية :

- اولاً : التأكيد على وحدة الجيوش المقاتلة .
- ثانياً : التأكيد على عقائدية الجيش (العقيدة العسكرية) عن طريق احيائه لمعالم الجهاد في سبيل الله تعالى في نفوس مقاتليه .
- ثالثاً : رفض الافكار والاعمال الاقليمية والمصالح الشخصية للامراء .
- رابعاً : رفض فكرة التعاون مع الغزاة الصليبيين .
- خامساً : تعبئة الجبهة الداخلية (حشد القوى) انتظاراً للمعركة القادمة (حطين) .

الموقف العسكري والقوات المستخدمة في المعركة قبيل حطين

اختار صلاح الدين مدينة دمشق لتكون مركزاً لعملياته الجهادية ضد الغزاة الصليبيين وذلك لاهمية هذه المدينة من نواح عديدة فهي كبيرة وواسعة وبامكانها ان تستعد لتلقي المزيد من المقاتلين ، علماً بأن لها اسواراً جيدة وفيها من وسائل العيش ما يكفي لتموين جيشه ، كذلك فان هذه المدينة ، بشكل عام قريبة من تحصينات العدو ومراكز تجمعه ، اضافة الى ترسّطها بين العديد من المدن والقلاع العربية ، وعليه فان امكانية استجماع القوات العربية عند الحاجة يأتي بشكل متناسق سواء كان من ناحية ابصال خبر التعبئة العسكرية ، او من ناحية وصول تلك القوات الى مركز القيادة عند صلاح الدين في دمشق .

ومن الجدير بالذكر فان مدينة دمشق هي المدينة الاولى التي استقبلته بالترحاب في بلاد الشام ، كذلك فهي محيية الى نفسه من ناحية اهلها واطمئنانه لهم ولكونها محل سكناه الاول اذ فيها دار والده المعروفة بدار العقيقي^(١٨) . واطمئنانه الى غنى هذه المدينة



مخطط لمواقع قوات صلاح الدين الأيوبي أثناء تقدمه نحو حطين .

شكل رقم ١

بالمياه والمواد الزراعية ، فهي تحتوي على العديد من المعسكرات الخاصة بتدريب المقاتلين . وقد كانت تلك المعسكرات قديمة ، وكان بعضها خاصاً ، داخل المدينة ، لتدريب القادة والامراء على الفروسية والالعاب الرياضية واقامة المظاهرات العسكرية^(٣١) ، وبعضها كان خارج المدينة وقد وصفنا اثنين منها ، الرحالة ابن جبير وذكر بانها يقعان خارج البلدة في جهة الغرب وبانها مكسوان خزاناً لشدة خضرتهما^(٣٢) .

وفي مدينة دمشق هذه كان صلاح الدين يراقب الموقف العسكري ويرصد تحركات العدو الصليبي ، بعد ان كان كل شيء معداً له عند نهاية سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م ، ولم يشأ صلاح الدين ان يكون البادئ بالحرب ، وانما كان ينتظر الفرصة الملائمة للهجوم فربما يندفع لقتال لا يعلم نتائجه وتكون عاقبة الحرب وخيمة ، لذلك انتظر فرصة ملائمة تدفعه للحرب دفعاً ولا يكون هو المسؤول وحده عن نتائجها ، وقد جاءت الفرصة مواتية لصلاح الدين عندما نقض البرنس ارنات (حاكم حصن الكرك الصليبي) المعاهدة التي عقدها مع صلاح الدين والتي تعهد فيها بعدم الاعتداء على المسلمين ، غير انه غدر بقافلة تجارية وسيطر على حمولتها الثقيلة وهي في طريقها من مصر الى بلاد الشام^(٣٣) .

وهكذا عمد صلاح الدين ومن مدينة دمشق باستدعاء العساكر للجهاد المقدس من مصر وحلب والموصل والجزيرة وديار بكر . وقد أته مسرعة مليية للدعوة ، وكان تجمعها عند رأس الماء قرب دمشق وكان ذلك في مستهل سنة ٥٨٣ هـ / ١٢ آذار ١١٨٧ م^(٣٤) كذلك لما علم الصليبيون باستجماع العساكر الصلاحية ، اصططحوا واتفقوا فيما بينهم وقرروا منازلة صلاح الدين بعد ان نقضوا العهد التي كانت بينهم وبين صلاح الدين^(٣٥) ، وهكذا اصبح صلاح الدين في حل من عهوده ، ولم يبق امامه سوى التخطيط لمستقبل علاقته العسكرية مع الصليبيين ، وقبل التطرق الى تلك العلاقة التي شملت الخطط السوقية والتعبوية وسير المعركة لا بد من الاشارة الى قوات صلاح الدين وتنظيمها واسلحتها وصنوفها ليتسنى لنا تقدير الموقف العسكري على اتم وجه .

لقد اعتبر صلاح الدين ويعوجب كل المعاهدات التي

وقعت مع الامراء العرب والمسلمين هو القائد الاعلى للقوات المسلحة ، وقد خصص صلاح الدين لصناعة العمليات الحربية مجلس شوري ينعقد كلما دعت الضرورة وكان يتكون من عضوية اخيه الملك العادل (ابو بكر) واولاده امراء بعض الفرق العسكرية وامراء مدن الموصل واربل الذين هم قادة لجند تلك المدن ، بالإضافة الى وزيره القاضي الفاضل وسكرتيره الخاص العماد الكاتب الاصفهاني وقاضي الجيش بهاء الدين ابن شداد ، وكان لكل من اولئك الحق في ابداء رايه وموقفه ، وان كان من المسلم به ان ارادة صلاح الدين كانت هي السيطرة على المجلس باعتباره القائد والتمتع بالصفات العسكرية الجيدة^(٣٦) .

ويبدو ان هذا المجلس استشير بمن كان متوفر من اعضائه في موضوع مجابهة الغزاة الصليبيين قبيل حطين فوافق ولذلك امر صلاح الدين باستدعاء العساكر .

لقد رتب صلاح الدين العساكر التي وصلت اليه قرب دمشق بنفس النظام الذي كانت ترتب به العساكر الاسلامية من قبل وهو ما كان يعرف بـ (نظام التخميس) لانه يتكون من خمسة اقسام (انظر المخطط الملحق) : عسكر المقدمة ، ثم عسكر من ناحية اليمين ويسمى بالميمنة ، ثم عسكر آخر من ناحية الشمال ويسمى الميسرة ، ثم عسكر آخر من وراء العسكر يسمى الساقة (او المؤخرة) ويقف السلطان (قائد الجند) واصحابه والراية في وسط الاقسام الاربعة ، ويسمى موقعه (القلب) . (والتعية) ان يقف كل قسم في موضعه ، فالميمنة تكون في مقابلة ميسرة العدو ، والميسرة في مقابلة ميمنة العدو ، اما المؤخرة فتحتوي المطبخ وخزينة السلاح والدواليب والاحتياطي من الخيول والعدة^(٣٧) . وكان لكل من تلك التشكيلات قائد يسمى المقدم فيقال مثلاً مقدم الميمنة ، اما القلب فبقيادة صلاح الدين .

والجدير بالذكر ان صلاح الدين لم يقتصر موقفه على القلب انما كان يطوف بين صفوف مقاتليه في الميمنة والميسرة يستحثهم على القتال ويعين لهم المواضع المهمة للهجوم عليها او الانسحاب منها ، وكان كل قسم من الاقسام الخمسة يتكون من العديد من الفصائل (الاطلاب) التي كانت تضم امراً ومائة او مائتين من الجنود^(٣٨) ، وكان (بين كل جند فرجة ، وطريق ،

ومجال للخليل (١١١) .

اما اسلحة القوات العربية الاسلامية التي احتشدت تحت امرة صلاح الدين قبل معركة حطين فكانت تنقسم الى اسلحة فردية واسلحة ثقيلة واسلحة وقاية الجسم وبعض انواع الاسلحة الاخرى المساندة والمدافعة ، وتضم الاولى : السيف والخنجر والرماح والقسي والنبال ، اما الثقيلة من الاسلحة فقد شملت المنجنيق والدبابة (١١٢) ، اما اسلحة وقاية الجسم فقد تمثلت بالترس والدروع والدرق والبيضة والمغفر (١١٣) .

اما مقدار ما استجمع صلاح الدين من قوات عسكرية فقد بلغ تعدادها ما يقرب من اثني عشر الف جندي ، يبدو انهم جميعاً اشتركوا في معركة حطين (١١٤) . ويمكن تقدير هذا العدد من الجنود من تتبع ما وصل اليه من المقاتلين من مدن حمص وحماه والموصل وحلب ودمشق واربيل ، ففي سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م عندما دخل صلاح الدين مدينة دمشق كان فيها ما يقرب من الف جندي (١١٥) انضموا الى السبعماية جندي الذين جاء بهم صلاح الدين من مصر (١١٦) - كما مر - وبعد دخول حمص وحماه في الوحدة سنة ٥٧١ هـ انضمت قواتها الى صلاح الدين وكان في حمص ما يقرب من خمسمائة جندي ، بينما كان في حماه ما يقرب من الف جندي (١١٧) وفي سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م اضيف الى قواته حوالي الف فارس حلبي بعد دخول حلب في الوحدة (١١٨) ، اما قوات الموصل والجزيرة فان ابن الاثير قدرها بحوالي ستة الاف وخمسمائة نقلاً عن سجلات الديوان (١١٩) .

واضافة الى هذه العساكر النظامية فقد تقدمت الى صلاح الدين العديد من الفصائل المتطوعة والتي قدمت عوناً واضحاً لصلاح الدين في عملية انجاح معركة حطين ، وقد ألقت تلك الفصائل من العشائر الكردية والتركمانية والعربية ومن عامة الانقياء والعلماء ممن دفعتهم الحمية الدينية الى المعركة ، وقد اشار الى ذلك المؤرخ ابن كثير بقوله : « لقد قصده الصالحون والعلماء تطوعاً » (١٢٠) وما يجدر ذكره ان قبائل بنو منقذ وقبائل بنو طي (١٢١) كانوا على رأس من شارك في حطين من القبائل العربية ، حين شاركت قبائل الهكارية والسورانية والزرزارية وغيرهم (١٢٢) . وكان هؤلاء المتطوعة لا يدخلون ضمن فصائل الجيش النظامي وانما كانوا يسرون الى ميمنة او ميسرة الجيش وحياناً يتقدمونه

حياً في الاستشهاد وفي العديد من الحالات كان صلاح الدين يستخدمهم في عمل الكمان او الاستطلاع او ملاحقة مؤخرات قوات العدو (١٢٣) .

ومن استقراء مصادر التاريخ نستنتج ان قوات صلاح الدين كانت قبل معركة حطين تحوي العديد من الاصناف والفرق وانها كانت مقسمة الى اطلاب (كتائب) ويكون على رأس كل مائتي او مائة فارس يسمى امير مقدم (١٢٤) وكان لكل صنف من الاصناف المقاتلة خواص يتميز بها عن الصنف الاخرى وخاصة بنوع السلاح والاعتدة التي كان يتجهز بها والواجبات التي يتكلف القيام بها .

وكانت اعلام صلاح الدين التي رفعها جيشه قبل حطين صفراء اللون (١٢٥) وكانت الراية الام التي بحوزة صلاح الدين في القلب عليها صورة (طير النسر) دلالة على القوة والثقة بالنصر ، وكان الى جانبها رايات صفراء تسمى سناجق ، اضافة الى راية الجاليش (١٢٦) التي كانت تتميز بوجود خصلة من الشعر على رأسها (١٢٧) ، ومن البديهي فقد كان لكل قسم من اقسام الجيش راية خاصة به تظهر تحرك ذلك القسم ويستدل منها على قوته او ضعفه فللميمنة راية وللميسرة راية وللمقدمة راية وكذلك للفرسان راية وهكذا .

معنويات الجيش :

كانت معنويات جيش صلاح الدين عالية جداً ، اذ كان الجميع يعرف (لماذا يقاتل ؟) ويعرف من يقاتل ، فالجميع يقاتل بعقيدة (١٢٨) وهدف ويعرف ان عدوه شرس ومختال يستعمل ويستعمل مختلف انواع القسوة تجاه المسلمين وارضيتهم ، كما فعل بالقدس وصور وطرابلس واطاكية حين احتلها من قبل ، كما ان الجميع يعرف ان العدو اجنبي وانه سيطر على بلاد ليس له فيها حق ، وضافة الى كل ذلك فقد كان جيش صلاح الدين مؤمن بآلامه صادق في تطبيق فرائضه ، وكان الجهاد من احدى تلك الفرائض ، ولذلك كان جند صلاح الدين يندفعون الى ساحة المعركة والى تلبية الجهاد بروح عالية بل كانوا احياناً يستمتون في القتال ويندفعون من دون ان يدفعهم اليه احد ، وقد وصف ابن الاثير هذه الروح العالية لجند صلاح الدين بقوله (كانوا يرون ديناً واجباً ، فلا يحتاج الى باعث سلطاني ، بل كانوا

بمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يتزجرون (١١)

التموين :

من البديهي ان للتموين أهمية خاصة في ساحة العمليات العسكرية خاصة الحروب القديمة حيث المواصلات الصعبة ويكون الاعتماد في النقل على الحيوانات مما يعرض المؤن الى التلف او الى عدم الافادة منها ، فقد تنتهي بنتيجة سلبية اذا لم ينقل الجيش مؤنه اللازمة من طعام وشراب وبذلك يفقد توازنه ويضطر الى الدخول في معارك مرتجلة مرتبكة تكون نهايتها وخيمة عليه ، وقد حدث مثل هذا الموقف للقوات الصليبية عندما لم يفكر قادتهم بإيصال التموين المستمر وخاصة من المياه لجندهم مما اضعف قوتهم ودفعهم الى الاسراع في خوض معركة حطين من اجل الحصول على الماء ، وقد كان هذا الموقف الارتجالي من احد عوامل نكبة الصليبيين في حطين مما سنذكره تباعاً .

وفي الطرف المقابل كان صلاح الدين يفهم اهدافه ويعرف مسبقاً خططه ومنها الحفاظ على ايصال التموين المستمر ليكون زمام الامور بيده ، وقد كان تفكيره العسكري الثابت هذا معروفاً منذ ساعة خروجه من مصر الى الشام سنة ٥٦٩ هـ ، فقد حدد اهدافه المستقبلية الخاصة بشؤون التموين بقوله : « وانا لا نتمكن بمصر (من مجاهدة الغزاة) لبعده المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب ، واذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، والبلاد قريية والغزوة ممكنة والميرة متسعة والخيول مستريحة .. » (١٢) .

وهكذا فأن من اسباب نجاح القائد العسكري هو تفكيره بجدية بإيصال التموين المستمر لجنده على اتم وجه ، وقد كانت خطة صلاح الاولى هي حرب الغزاة من بلاد الشام وذلك لاستكمال ايصال التموين لجنده من مسافة قريية ، من المدن والقلاع العربية المجاورة ، مع دفع العدو الى خوض معركة في عمق الاراضي العربية ليتمكن من قطع خطوط امداده كما حدث في حطين عندما استدرج الغزاة الى قرون حطين بعد ان حاصروهم بعيداً عن الماء وقطع عنهم الامدادات من الخلف .

وفي الجانب العملي من ايصال التموين الى جنده ، فقد كان صلاح الدين يأمر بأخذ الاحتياطات الكافية من الزاد والماء بما يكفي للمدة المقررة التي يقضيها الجيش في الطريق والى فترة

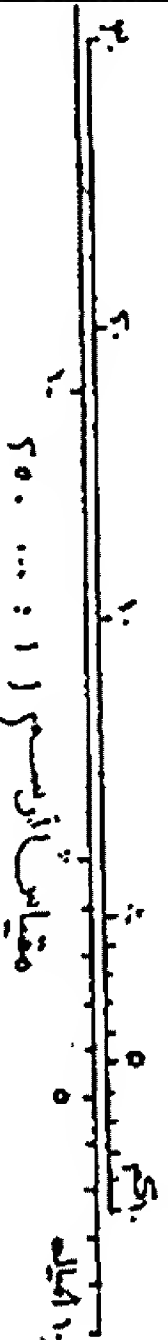
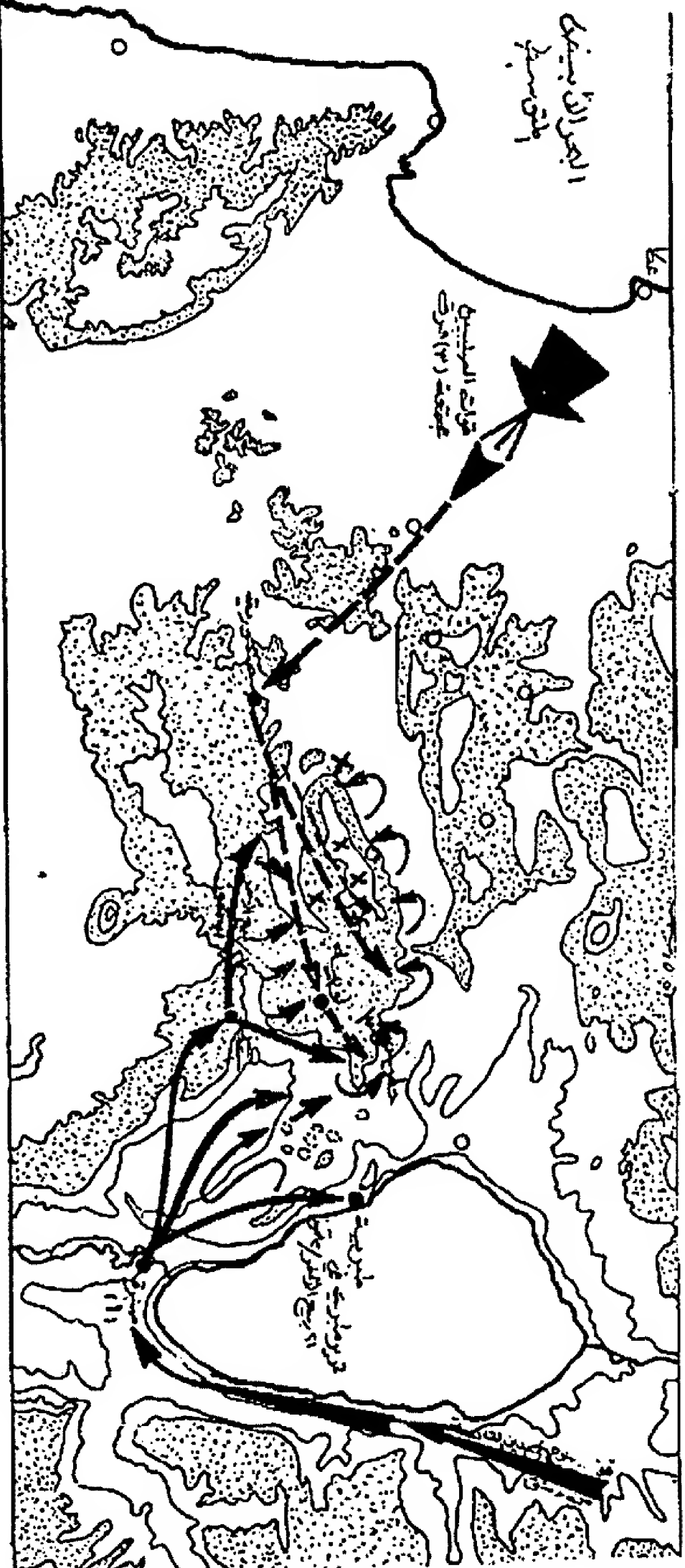
انحسار الموقف العسكري مع الحفاظ على خطوط التموين سالمة ، فينادي في الجنود « خذوا زاد عشرة ايام اخرى زيادة للاستظهار » (١٣) فكان الجند يحملون معهم ازواد المسافات القريية ثم يستعينون بالتموين المستمر الذي كان يصلهم من معسكراتهم ، وبالذات من قسم الساقة الذي يكون في مؤخرة الجيش وكان يسمى في جيش صلاح الدين بـ (الثقل) واحياناً كان صلاح يأمر بوضع الثقل في وسط المعسكر قرابة القلب اذا كانت مؤخرة الجيش غير مأمونة من العدو (١٤) .

واضافة الى ما سبق فقد كان يرافق جند صلاح المئات من التجار والباعة ممن كان يدفعهم الامل في حب المشاركة في الجهاد في سبيل الله تعالى حسب اختصاصهم وامكانياتهم ، بعد ان كان صلاح الدين قد عبأ شعبه من قبل للمشاركة في حملة الجهاد هذه ، اذ يرى المسلمون - استناداً الى قول النبي محمد (ص) بأن « افضل الصدقة هي خدمة جند في سبيل الله تعالى » (١٥) وانها تعادل عمل المجاهد ممن لا يتمكن من المجاهدة (١٦) .

وقد وصف لنا الرحالة عبداللطيف البغدادي (ت : ٦٢٩ هـ) سوق صلاح الدين الذي كان يرافق العسكر ، وبين عظم قوافل التموين التي كانت ترافق الجند . فقد كان السوق ذا مساحة فسيحة فيه مائة واربعون دكان ييطار ، ودكاكين للطباخين يملك الواحد منهم ما يقرب من ثمانية وعشرين قدراً يسع الواحد منها رأس غنم واحد ، وقد بلغت عدة الدكاكين سبعة الاف دكان من دكاكين المدينة ، وكان من يبيع البز العتيق والجديد (١٧) .

واضافة الى ذلك فقد كان يرافق جند صلاح الدين اصحاب الحمامات البسيطة ليستحم الجند فيها ، وينظفوها ، وذلك لعدم استحباب القتال على الجنباء او الوساخة لفضل المجاهد واحتمال استشهاده فكان الجميع يقاتلون على طهارة ، وقد كانت عدد الحمامات التي رافقت احدي معسكرات صلاح الدين اكثر من الف حمام ، فقد كان يجتمع رجالان او ثلاثة ويحفرون في الارض فراعين فيطلع الماء ، ثم يأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً ، ثم يسترونه بالحطب والحصير ، ويقطعون من البساتين التي حولهم ويحسون الماء في قدور ، حيث تكون عندها الحمام جاهزة للاستعمال (١٨) .

- ١- قواعد مروج الدين بختيغ في المبرز وكاين (١) وبعث يوم (١٧) رستم
- ٢- قوات المبريسين بختيغ في سكاو كاين وحقوا (١٤) في محامل
- ٣- وروى له المبريسين الخلفه قورند حطرين (١٥٥) سيج الكرخ / ٤ تسون



من ٥٠ كيلومتر فوق سيج لبحر
 كينار وروى سيج وروى بالسيار
 كينار وروى سيج وروى بالسيار

اما قوات الصليبيين فقد كانت تسير بشكل عام على نفس التقسيم الذي سارت عليه قوات صلاح الدين قبيل معركة حطين ، فقد كانت تضم ميمنة وميسرة وقلب وتحتوي على المشاة والفرسان ولديهم الكمائن والطلائع والفرق الكثيرة التي تشابه فرق جيش صلاح الدين مع ملاحظة ان الفارس الصليبي كان يختلف عن الفارس العربي ، فالمقاتل الصليبي كان محمياً بواسطة سلاح ثقيل هو وحصانه وكان الفارس منهم يحمل من الاقنعة ما يجعل السهم لا يؤثر فيه ، وكان الخطر الوحيد الذي يتهده هو السقوط من على ظهر الفرس^(١١) ، وقد كان صلاح الدين يعرف كل ذلك مسبقاً ولذلك كان يأمر جنده والفرسان من العرب بتبع الفرسان الصليبيين واصطياد خيولهم ليتمكن منهم .

كذلك فإن مجموع ما حشده الصليبيون من قوات في مقابل قوات صلاح الدين قبل معركة حطين بحدود اربعين ألفاً^(١٢) وقيل خمسين ألفاً^(١٣) وكانت طرق تموينهم مستمرة الى قبل معركة حطين بأيام حيث كانت مدن وقلاع الصليبيين (المدن العربية المحتلة) تمدهم بكل عوامل النصر وتزودهم بمختلف انواع التموين ، علماً بأن كل الدول الاوربية آنذاك كانت تزودهم بالسلاح والمال والمؤن وبخيرة المقاتلين ورجال الدين الذين كانوا يغذونهم بالروح المعنوية ويدفعونهم للقتال بكل حزم وقوة ، باعتبارها حرب دينية ولذلك اصطلح عليها الحروب الصليبية لان من قام بها كان يرفع شارة الصليب على اكتافه .

هكذا اذن رفع كلا الطرفين المتنازعين قبل معركة حطين شعار (الجهاد في سبيل الله) غير ان صلاح الدين وجنده كانوا متمسكين به بشكل اكبر لان معنوياتهم كانت كبيرة ولذلك فعلى اقل تقدير كانت قوات كلا الطرفين متكافئة بالرجال والسلاح والتموين ومختلفة بنوع القيادة وكفاءة المقاتلين وحسن التخطيط العسكري والتدبير .

وعليه يجب التنويه هنا الى ملاحظة هامة : وهي مبالغة العديد من المراجع الاجنبية والعربية وتضخيمها للموارد والطاقت التي حصل عليها صلاح الدين^(١٤) من وحدته - المار ذكرها من قبل - لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم وجهة نظر الغزاة من ناحيتين : اولها - انه يبرر خسارة الصليبيين في حطين امام صلاح الدين وثانيها - انه يقلل من اهمية انتصار

صلاح الدين . وفي ذلك تزوير واضح للحقائق التاريخية ونقص بين في المادة العلمية .

الخططة التعبوية لتنفيذ المعركة وخطوات سيرها

اما نوعية التضاريس فهي متعرجة فيها الوديان والهضاب والجبال ويصل معدل الارتفاع بين ٢٠٠ - ٤٠٠ م فوق سطح البحر ، فنه الاردن يجري في الغور المحصور بين جبال موآب شرقاً وجبال السامرة غرباً ويهبط بسرعة من بحيرة طبرية الى البحر الميت (١٢٩٢ قدماً تحت سطح البحر) ونظراً لهذا التمزج فقد كان الطريق الوحيد الصالح لسير القوافل والعجلات يمتد من دمشق الى طبرية - نابلس - القدس . ويغترق فرعاً من سلسلة جبال يهوذا ويقطعها بزاوية تبلغ ١٢٠ درجة^(١٥) .

اما جبل قرون حطين فهو من جبال الجليل الادنى ، يقع الى الجنوب الشرقي مباشرة من قرية حطين الواقعة غربي مدينة طبرية بانحراف نحو الشمال عند خط عرض ٣٢ م وخط طول ٥ ، ٢٧ - ٣٤ عن سطح البحر (٣٢٦ م)^(١٦) . ويوجد على هضبة حطين وغربي بحيرة طبرية باتجاه حطين العديد من الابرار والينابيع منها نبع طبرية وهو من الينابيع الحارة^(١٧) .

ويبدو من دراسة واقع معركة حطين ان صلاح الدين الابوي كان عارفاً بطبيعة الارض علماً باحواها ولذلك افاد من المناخ والارض في رسم خطته العسكرية التي انتصر فيها على الصليبيين ، اذ تقدم صلاح الدين بقواته المحتشدة قرب دمشق نحو بحيرة طبرية ، ووصل الى قرية (الصنبرة) الواقعة عند منطقة التلال القريبة من بحيرة طبرية وعلى مسافة ثلاثة اميال منها^(١٨) .

ومن منطقة الصنبرة قام صلاح الدين باستعراض عسكره وارسال العيون والكشافة لجمع المعلومات عن جيش العدو للتأكد من حجمه وتحركاته ، وقد وصلته الاخبار ان اعداءه مجتمعون ومتفقون على منازلته وانهم قدموا من عكا ونزلوا عند صفورية ، وهي - كما هو معروف - غنية بمياهها ومواردها الغذائية ومراعيها^(١٩) ، وهي بذلك تصلح لان تكون مقراً لتجمعات الصليبيين وتعينهم في الاستمرار على قتال صلاح الدين والصمود بوجهه ، ولذلك فنجاح صلاح الدين في اخراج اعدائه من صفورية يعتبر بحد ذاته نصراً تعبويّاً خاصاً ، كذلك فإن

استدراج الصليبيين لصالح الدين بالهجوم عليهم معناه جعل صلاح الدين يتعد قليلاً عن خطوط تموينه ويكون عندها عسكره مجهداً فيتمكنوا بعدها من القضاء عليه والعكس بالعكس .

ويبدو ان صلاح الدين كان يعرف مسبقاً خططه ويعي اهدافه وانه كان يسعى لاجبار الصليبيين على الخروج اليه مجتمعين بعيداً عن منطقة صفورية لينزل بهم الضربة الكبيرة ، وعليه ارسل على الفور بعض قواته الى قرابة حطين وتمكن من تسميم وردم كل الآبار والصهاريج الواقعة قبالة جيش العدو ، ولم يبق منها الا ما هو واقع في حفرة قواته^(٣٧) كذلك ارسل نصف قواته الى مدينة طبرية لفتحها من اجل تأمين جبهته الخلفية من التفاف قوات العدو على قواته وكذلك لاجبار الصليبيين على مغادرة صفورية والتقدم نحو حطين ، وبذلك يكون قد حقق بعض نتائج خطته ، وقد تمكن جيشه من فتح المدينة دون قلعتهما حيث بقت بيد زوجة القائد الصليبي ريموند التي خلفت زوجها في ادارة المدينة ، وقد عاد جند صلاح الدين بعد تحريرهم لمدينة طبرية للالتحاق بصلاح الدين عند حطين .

وهناك كان صلاح الدين مستعداً للمعركة صامداً في محله الذي هياه لصالح جنده وجعله مصيدة لعدوه ، يسهر الليل كله - كما ذكر كاتبه ومرافقه في المعركة الاصفهاني - ليعين مواضع القتال لاجناده ، يأمر بملء الجعاب وكنائنها بالنيال ، حتى انه فرق من الشباب اربعمائة حمل ، كما عين سبعين موضعاً ملاها بالشباب ليقصدها من عسكره من خلت جعابه منها^(٣٨) . ويتنظر تحركات عدوه ، اذ كان يأمل مسيرة قوات لنجدة طبرية وهو بذلك يكون كالذي وضع قطعة جبن لفارة في مصيدة من اجل اصطيادها .

لقد وصلت استغاثة طبرية للقادة الصليبيين المجتمعين في صفورية وكانوا يشكلون ثلاث فرق وضعت قيادته بيد الامير ريموند حاكم امارة طرابلس الصليبية ، بينما تولى الملك جي لوسينيان^(٣٩) قيادة القلب ، اما الامير ارنات حاكم حصن الكرك والفرسان من الصليبيين الرهبان فقد تولوا مؤخره الجيش وحمايته^(٤٠) وقد اجتمعوا على الفور وتدارسوا مستقبل عملياتهم العسكرية ورأى البعض منهم ضرورة التحرك السريع في حرب صلاح والانتقام من جنده ، في حين رأى آخرون منهم ضرورة الصبر في اتخاذ القرار ، غير ان الامير ارنات دافع عن الرأي

القائل بضرورة مهاجمة صلاح الدين واتهم انصار الرأي الآخر بالجن والخيانة وتحقق له ما اراد^(٤١) وبذلك جاءت الخطوة الايجابية الثالثة لصالح صلاح الدين بعد اختياره الموقع الجيد لقواته وردم وتسميم الآبار والصهاريج التي من الممكن ان يستفيد عدوه ، ولذلك فقد سر غاية السرور عندما علم بنبا تحركات العدو اليه اذ هتف قائلاً : « قد حصل المطلوب ... » وجاءنا ما نريد^(٤٢) و « اذا صحت كسرتهم ، فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع ولا عن فتحه وازع »^(٤٣) وهكذا كان صلاح الدين بحق يعرف مسبقاً خططه ويعي النتائج الايجابية المترتبة عليها .

ان تحرك العدو لملاقاة قوات صلاح الدين معناه محاصرتها بعيداً عن الماء اضافة الى مكابذتها عناء الطريق ، ويكون عندها صلاح الدين مستعداً بقواته للانقضاض على العدو وتدميره ولما تحرك العدو باتجاه حطين ارسل صلاح الدين بعضاً من قواته لتعقب مؤخرته وخاصة من الرماة الكمناء الذين امطروا مؤخره الجيش الصليبي بالسهم وتمكنوا من قتل عدد كبير من خيولهم وفرسانهم^(٤٤) مما دفع بالمؤخرة الى التلاحم قليلاً مع الفرق الاخرى ليزداد حصارها ، علماً بان قوات صلاح الدين كانت تشاغل العدو طوال تلك المدة بهجمات صغيرة من هنا ومن هناك واخيراً وصلت قوات الصليبيين جبل طبرية في منطقة تعرف (باللوبيا) وكان ذلك في صباح يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٣ تموز سنة ١١٨٧ م وكانت هذه المنطقة ارضاً مكشوفة خالية من كل شيء عدا حرارة الشمس المحرقة والحصى والرمال^(٤٥) .

وفي موقعهم الجديد عانى الصليبيون كثيراً من العطش ، كما اتعبتهم حرارة الشمس المحرقة والتي أثرت - بلا شك - على ما كانوا يحملونه من سلاح وخوذات ودروع وكان معظمها من الحديد ، وازافة الى كل ذلك قام بعض مقاتلي صلاح الدين باضرام النار في هشيم الاعشاب المتبقية من حصاد الصيف فتأجج لهيب النار والدخان على العدو مما اوقع اضطراباً آخر في قرائهم وخيولهم^(٤٦) ودفعهم وبأرتباك الى تعجيل الاصطدام بقوات صلاح الدين لانقاذ انفسهم من هذا المأزق ، وقد تعجل الامر (ريموند) ابتداءً فاصطدم ببعض قوات صلاح الدين فانفسح له تقي الدين عمر مجالاً ضيقاً فخرج منه من الحصار

ببعض قواته ، ثم لم تلبث قوات صلاح الدين ان التحمت مع بعضها ، وكان ريموند يظن ذلك نصراً وهو مكيدة له اذ حالت القوات العربية بينه وبين فصائل القوات الصليبية الاخرى المحاصرة مما اضطره الى الهرب والعودة الى امانة طرابلس^(١١) ، ويذكر أنه مات هناك هماً لأن اصحابه اتهموه بالخيانة والهرب من ساحة المعركة .

لقد ثبت ريموند هذا من عزائم الصليبيين ، اذ خسروا احد قادة فرقهم مع بعض فرسانه وكان صلاح الدين آنذا يحكم الحصار على اعدائه ويطبق عليهم من كل جانب ، فقد احاط بهم احاطة الدائرة بقطرها^(١٢) ، فأندفع الصليبيون الى اعلى التل لربما تكون هناك نجاتهم وتمركزوا حول ملكهم جي وخيام قياداتهم المنصوبة هناك ، ثم قرروا الاستبسال في القتال والخروج من طوقهم المحاصرين فيه^(١٣) .

وهكذا نزل الصليبيون مسرعين في نهار السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٤ تموز سنة ١١٨٧ م بمحذوهم الامل بالنصر الى قرون حطين . وهناك دارت معركة رهية انتصر فيها صلاح الدين انتصاراً عظيماً بعد ان كان قد احرق تحت اقدام عدوه الاعشاب « فأجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال »^(١٤) .

وقد بقي جيش صلاح الدين وقائده في اقوى عزيمة ورباطة جأش يتباطؤون عن القتال رغم شارات النصر الواضحة وكان صلاح الدين يستثير اصحابه ويراقب الموقف بحزم ويتطلع الى معنويات مقاتليه فيثير فيهم الهمم العالية ويدفعهم الى استمرارية القتال حتى تصفية كل بقايا الصليبيين ، فربما ينقلب النصر الى هزيمة ، وربما يصاب المتصرون بالغرور فينتكس انتصارهم ، فالملك جي بقي لوحده مع مائة وخمسين فارساً من قواته قرب خيمته الوحيدة وصلاح الدين يأمر بالقتال وينادي بـ « الله اكبر » باعلى وكان المعركة على اشدها ولم يهدأ له بال حتى سقطت الخيمة وأسر الملك الصليبي^(١٥) (انظر خارطة معركة حطين المرفقة) .

وقد اشاد المؤرخ العربي ابن الاثير بحزم صلاح الدين وعزمه في هذه المعركة وسجل لنا ما شاهده من قصة صلاح الدين وولده البكر الملك الافضل نورالدين الذي كان مرافقاً لوالده صلاح الدين في المعركة .

فذكر ان الافضل كان بجانب والده وسط المعركة ولما شاهد صلاح الدين تقهقر بعض افراد قواته صاح بأعلى صوته « كذب الشيطان . . كذب الشيطان » فعادت قواته بمعنوياتها العالية تهزم العدو ، ولما شاهد الافضل هذا الموقف صاح من فرحته « هزمناهم . . هزمناهم » فالتفت اليه والده صلاح الدين وقال له « اسكت ما هزمنهم حتى تسقط تلك الخيمة »^(١٦) يعني خيمة الملك الصليبي جي . وفي اثناء ذلك سقطت الخيمة فترجل صلاح الدين وسجد على الارض شكراً لله تعالى وبكى من فرحه وثبت انتصاره ، وكان من نتائجه قتل عدد كبير من جيش عدوه ، واسر مقدميهم ، وكان منهم الملك جي (جفري) والذي فقد كل فرسانه ، كما اسر البرنس ارنات واخا الملك وابن الهنري وابن حاكم طبرية ورؤساء الفرسان من الرهبان وحاكم جبيل ولم ينج الا القومص الذي هرب الى طرابلس اول المعركة ، وقد نال المعتدون : جزاءهم وعامل صلاح الدين الملك جي بالاحسان اكراماً لمركزه^(١٧) .

وهكذا كان لوجود صلاح الدين وابنائاه وسط ساحة المعركة وللخطط العسكرية الجيدة والمعنويات العالية التي تحمل بها جند صلاح الدين اثره الواضح في هذا الانتصار ، وعليه فلم تكن الهزيمة التي اصاب الصليبيين نتيجة ضعف او فساد كان فيهم انما كانت قياداتهم ضعيفة ، وقابلهم جيش موحد له قائد محنك هو صلاح الدين^(١٨) انتقلت صفاته ومقدرته الحسنة الى الاوربيين في العصور الوسطى ، وكانت حديث الساعة وقد اضفي عليها بعض اساليب الاسطورة الادبية^(١٩) .

ولذلك ايضاً ، فإن انتصار صلاح الدين هذا ، لم يكن نتيجة لضعف القوات الصليبية ، او لقلة عددهم ، انما للخطا العسكرية الجيدة والسياسة الحكيمة التي اتبعها صلاح الدين في اعداده للمعركة ومشاركته الفعلية فيها ، فقد احسن اختيار الارض وزمن وقوعها الذي كان شهر تموز ، اشد اشهر السنة حرارة واقلها ماء في الصحاريج ، اضافة الى انه خيم بمسكره على طبرية ، وبذلك اصبح بقواته حائلاً بين الصليبيين وبين الماء .

لقد دلت معركة حطين ، من دون شك ومبالغة ، ايضاً على مقدرة صلاح الدين العسكرية وحسن قيادته وتخطيطه المحكم والمسبق لها ، وكان وجوده داخل ساحة المعركة يدفع

بالجند الى الاستماتة في القتال اضافة الى ما كانوا يحملونه من معنويات عالية اوجدها فيهم حب الجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد أشاد المؤرخ الانكليزي (روزبيلت) بخطة صلاح الدين المحكمة وقيادته الحكيمة فقال : « لم يكن ثمة نصر كامل او نتائج مشمرة كما حدث في حطين ، ولم يكن ذلك النصر الكامل الا نتيجة الخطة الجيدة والقيادة القوية »^(١٠) فقد كان صلاح الدين طوال ليلة المعركة ونهارها وسط جنده يثير فيهم الحماس ويعين لهم مواضع القتال ويقرر « لكل امير اميراً ولكل مقدم مقاماً . . . ولكل كمين مكاناً ولكل رام مرتمى . . . ولكل امير موقفاً في الميمنة والميسرة لا يتنقل عنه »^(١١) كما كان يحدد مواضع النبال ومواقع الرماة^(١٢) .

كذلك فقد عبر انتصار صلاح الدين في حطين عن الصفات المعنوية والمادية التي تحمل بها القائد وجنده ، فالجميع كان يجارب العدو بعقيدة وكانوا يدخلون المعركة باندفاع مدهش لانهم كانوا يرون في القتال « ديناً وحتماً واجباً » - كما مر - وكان صلاح الدين باعتراف اعدائه يقاتل ليل نهار بحيث لا يدع لاعدائه وقتاً للأكل والراحة^(١٣) ، وقد اوضح المستشرق هاملتون جب بعض تلك الميزات الاخرى التي ساعدت صلاح الدين على تحقيق انتصاراته في حطين فقال : « جاءت بفعل امتلاك صلاح الدين لصفات معنوية لا تشترك مع المواهب الاستراتيجية الا في القليل ، كان رجلاً يستمد وحيه من مثال اعلى ذي قوة وثبات . . . وإيمان ديني راسخ الاركان . . . وفي سماحة النفس التي لا تعرف المكر والحذر »^(١٤) .

ومن الجدير بالذكر ان انتصار صلاح الدين في حطين لم يكن انتصار معركة فحسب ، وانما كان انتصاراً موفقاً تمكن فيه صلاح الدين من استثماره لصالحه وبشكل محكم . اذ كانت حطين بحق - كما ذكر كاتب صلاح الدين الاصفهاني - « مفتاح الفتوح الاسلامية »^(١٥) ، ان صلاح الدين تتبع فلول اعدائه المهزمين وتعقبهم الى كل مدنها وتحصيناتهم البعيدة قبل ان يتمكنوا من استجماع قوتهم من جديد وتمكن من تحريرها الواحدة تلو الاخرى ، ففي ٢٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ٨ تموز سنة ١١٨٧ م (اي بعد اربعة ايام من معركة حطين) حور مدينة عكا ثم اتجه بعدها الى كل الحصون الصليبية المجاورة

واخيراً توج انتصاراته بتحرير مدينة القدس^(١٦) في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ / ٢٢ - ٩ - ١١٨٧ م) مما يدل على حب صلاح الدين للجهاد وصبره عليه وجلده في تحمل المشاق الكبيرة من اجله .

الهوامش

- ١ . هويوسف بن ايوب بن مروان بن شادي ينسب للأسرة الايوبية ، ولد في مدينة تكريت وفي ليلة ولادته حمله معه والده الى الموصل سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م . عاش سبعا وخمسين سنة وتوفي في مدينة دمشق سنة ٥٨٩ هـ : انظر : ابن شداد ، سيرة صلاح الدين (القاهرة ١٩٦٤) ص ٦ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ (بيروت : ١٩٦٦) : ٩٥ / ١٢ .
- ٢ . ايوب بكر جلال طه ، صلاح الدين اسد الفارسيين (بغداد : ١٩٦٧) ص ٢١ - ٢٢ .
- ٣ . انظر : دريد القادر نوري سياسة صلاح الدين الايوبي (بغداد : ١٩٧٦) ص ٢٢ - ٢٠ .
- ٤ . السابق ص ٨٩ - ٩٢ .
- ٥ . ابن شداد ، التوادر السلطانية (القاهرة : ١٩٦٤) ص ٤٥ ، البغدادي سنا البرق الشامي : ١١١ / ١ - ١١٣ .
- ٦ . ابن الجوزي ، المشظم في تاريخ الملوك والاسم (حيدر آباد السدكن : ١٣٥٨ هـ) : ٢٤٨ / ١٠ - ٢٤٩ ، المقرئزي ، السنوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة : ١٩٣٩) : ٥٥ / ١ - ٥٦ .
- ٧ . سيف الدين غازي وعماد الدين : هما ابنا قطب مودود بن زنكي امير الموصل وهما ابنا اخي نورالدين محمود ، توفي الاول سنة ٥٧٦ هـ وتوفي الثاني سنة ٥٩٤ هـ ولمعرفة المزيد عنهم انظر ابن الاثير ، الكامل : ٣٥٥ / ١١ - ٣٦٢ - ٤٠٦ ر ج ١٢ / ١٢ .
- ٨ . ابن الاثير الكامل في التاريخ : ١٦٣ / ١١ .
- ٩ . البنداري سنا البرق الشامي : ١٥٩ / ١ - ١٦٠ .
- ١٠ . جب ، صلاح الدين ص ١٢٢ .
- ١١ . انظر : ابن العديم ، زبدة الخلب في تاريخ حلب (بيروت : ١٩٦٨) ١٢ / ٣ وانظر .
- ١٢ . Stevenson , The Crusaders in the East (Cambridge 1907) . p. 213 .
- ١٣ . Lanepool, Allstory of Egypt in the Middle ages (London : 1968) p. 199 .
- ١٤ . انظر : دريد سياسة ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
- ١٥ . انظر ، ابن الاثير ، الكامل : ٤٠٥ / ١١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٢٠ / ٢ .
- ١٦ . السابق : ٤٠٧ / ١١ ، ابن العديم ، زبدة الخلب : ١١ / ٣ - ١٢ .
- ١٧ . للاطلاع على تفاصيل المؤامرة التي وقعت بحلب - دريد سياسة ، ص ١٢٩ - ١٣٢ .
- ١٨ . انظر ، ابن العديم السابق : ٩ / ٣ .
- ١٩ . دريد سياسة ص ١٢٨ .
- ٢٠ . Sivan , L'Islam et la Croisade (Paris : 1968) P . 96 .
- ٢١ . انظر : ابن ثعري بردي ، النجوم الزاهرة : ٢٤ / ٦ - ٢٥ .
- ٢٢ . البنداري - سنا البرق : ٦٩ / ١ .

- ٢٣ . القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة : ١٩٦٣) : ٨٥/١٣ .
- ٢٤ . ابوشامة ، الروضتين : ٦٢/٢ .
- ٢٥ . السابق : ٤٨/٢ .
- ٢٦ . انظر ابن الاثير ، الكامل : ٤١٧/١١ ، ابن العديم ، الزبد : ٣ : ١٩ ، البنداري ، سنا البرق الشامي : ١٧٧/١ - ١٧٨ .
- ٢٧ . ارجع بخصوص دخول حمص وحماة في وحدة صلاح الدين : دريد ، سياسة ص ١٥٠ - ١٥٤ .
- ٢٨ . ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٥١ .
- ٢٩ . بان الاثير الكامل : ٤٢٢/١١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ٣١/٢ .
- ٣٠ . ابن كثير البداية والنهاية : ٢٩٠/١٢ .
- ٣١ . Sivan, L, Islam et la Croisade ideologie et propagande dans Les Reactions, . ٣١ P. 98 .
- ٣٢ . بخصوص الاتفاق بين صلاح الدين وامراء الموصل وحلب انظر : ابن شداد ، النوادر ص ٧٠ ، ابن الاثير ، الكامل : ٤٣١/١١ و ٥١٧ ، ابو شامة ، الروضتين : ٦٤/٢ .
- ٣٣ . ابن الاثير ، الكامل : ٤١٧/١١ .
- ٣٤ . انظر : ابن اياس ، كتاب تاريخ مصر (القاهرة : ١٣١١ هـ) : ٧٣/١ .
- ٣٥ . رحلة ابن جبير (بيروت : ١٩٦٤) ص ٢٦١ .
- ٣٦ . ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٧٤ - ٧٥ ، الاصفهاني الفتح القسي ص ١٣ .
- ٣٧ . انظر : ابوشامة ، الروضتين : ٧٦/٢ .
- ٣٨ . ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٢/١١ .
- ٣٩ . Lane pool, Saladin, P. 260 .
- ٤٠ . انظر : الاصفهاني : الفتح القسي ، ص ٨٩ ، ١٥٤ ، نظير حسان سعداوي ، جيش مصر في ايام صلاح الدين (القاهرة ١٩٥٩) ص ٤٠ .
- ٤١ . المفريزي ، السلوك : ٢٤٨/١ .
- ٤٢ . ابن جماعة الحموي ، مستند الاجناد في آلات الجهاد (بغداد : ١٩٨٣) ص ٨١ .
- ٤٣ . انظر : ابن منقذ ، كتاب الاعتبار (الولايات المتحدة : ١٩٣٠) ص ٥٢ .
- ٤٤ . انظر تعريفات هذه الاسلحة في ملحق التعريفات في نهاية البحث .
- ٤٥ . ابوشامة ، الروضتين : ٧٦/٢ .
- ٤٦ . جب صلاح الدين ص ٢٦٦ .
- ٤٧ . البنداري - سنا البرق : ١٦٦/١ - ١٦٧ .
- ٤٨ . جب - السابق ص ١٦٧ .
- ٤٩ . نفسه ص ١٦٨ .
- ٥٠ . ابن الاثير ، الكامل : ٤٢٩/١١ .
- ٥١ . البداية والنهاية (القاهرة : ١٩٣٢) : ٣٢٢/١٢ .
- ٥٢ . المفريزي ، البيان والاعراب حيا بارض مصر من الاعراب (القاهرة : ١٩٦١) ص ١٧ .
- ٥٣ . جب ، صلاح الدين ، ص ١٧٢ .
- ٥٤ . انظر : سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٣٩٣/٨ .
- ٥٥ . المفريزي ، الخطط ، ق ١ : ١٦/٢ .
- ٥٦ . البنداري ، سنا البرق الشامي : ٢٥٠/١ .
- ٥٧ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٣٥/٤ .
- (*) الجاليش هو مقدمة القلب او الطلبة منه الذي يسير في رمت للقتال وهو يختلف عن اليزك الذي هو (الطلائع) - انظر تخطيط مواقع الجيش الصلاحي .
- ٥٨ . للاطلاع على معنى العقيدة العسكرية واهميتها في المعرفة انظر : محمد جمال الدين محفوظ ، مفاهيم عسكرية ص ٨ - ١٠ .
- ٥٩ . الكامل في التاريخ : ٥٤٧/١١ .
- ٦٠ . القلقشندي ، صبح الاعشى ، ٨٥/١٣ .
- ٦١ . البنداري - سنا البرق الشامي : ٢٥٣/١ .
- ٦٢ . انظر : ابن شداد ، النوادر ص ٨٧ ، ابن واصل مفرج الكروب : ٢٥٦/٢ .
- ٦٣ . ابن جماعة الحموي - مستند الاحناد في آلات الجهاد ص ٤٦ .
- ٦٤ . السابق ص ٤٥ .
- ٦٥ . انظر المفريزي ، السلوك ، ق ١ : ٩٤/١ .
- ٦٦ . السابق .
- ٦٧ . Rosebault Saladin prince of Chivalry (London : 1930), P., 185 .
- ٦٨ . اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان (مؤسسة الاعلمي للمطبوعات : ١٩٧٠) : ٤٢٤ / ٣ .
- ٦٩ . المفريزي السلوك : ٩٢/١ ، العليمي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف : ١٩٦٨ : ٣٢٠/١ .
- ٧٠ . اشارت بعض المراجع العربية والاجنبية الى ذكر طاقات كبيرة جداً لصلاح الدين قبل حطين في حين ذكرت وجود ضعف ولحق بين القوات الصليبية وللإطلاع على تلك الاضطرابات في التحليلات التاريخية والتفديرات انظر : غرايه ، العرب والترك (دمشق : ١٩٦١) ص ٢٤٥ عاشور الحركة الصليبية : ٧٦٥/٢ ، قيسر تاريخ اوريا في العصور الوسطى : ١٩٠/١ .
- ٧١ . شكري عمود نديم ، حرب فلسطين (بغداد : ١٩٦٤) ص ١٩٣ - ١٩٤ .
- ٧٢ . خار ، موسوعة فلسطين ص ٩٦ .
- ٧٣ . السابق ص ٦٢ .
- ٧٤ . انظر : بانوت الحموي معجم البلدان : ٤٢٥/٣ .
- ٧٥ . Lane pool, Saladin (London : 1898), PP., 205 - 208 .
- ٧٦ . ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٤/١١ .
- ٧٧ . ابوشامة ، الروضتين : ٧٦/٢ .
- ٧٨ . الملك جي اوجفري : هو الملك جاي لوزجان ملك بيت المقدس الصليبي ، وقد اطلقت عليه المصادر العربية القديمة التسمية الثانية (الملك جفري) وقد تولى الملك بعد وفاة بلدوين الخامس سنة ١١٨٦ م انظر : Lane, pool Saladin, P. 197 .
- ٧٩ . رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية (بيروت : ١٩٦٨) : ٧٣٧/٢ .
- ٨٠ . انظر : ابن الاثير الكامل : ٥٣٣/١١ .
- ٨١ . الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٧٧ .
- ٨٢ . ابوشامة الروضتين : ٧٦/٢ .
- ٨٣ . انظر / ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٥/١١ .
- ٨٤ . السابق : ٥٣٦/١١ .
- ٨٥ . ابن شداد ، النوادر ، ص ٧٧ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٣٩٣/٨ .
- ٨٦ . انظر : ابوشامة ، الروضتين : ٧٧/٢ .
- ٨٧ . ابن الاثير ، الكامل : ٥٣٥/١١ .
- ٨٨ . الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٧٩ .

- ٨٩ . ابن الاثير . الكامل : ٥٣٦/١١ .
- ٩٠ . انظر ، ابن واصل ، مفرج الكروب : ١٩٠/٢ - ١٩١ ، ابو شامة الروضتين : ٧٨/٢ - ٧٩ .
- ٩١ . الكامل في التاريخ : ٥٣٦/١١ .
- ٩٢ . ابن شداد ، النوادر ص ٧٧ - ٧٨ ، المقرئزي ، السلوك : ٩٣/١ ابن العديم ، زبدة الحلب : ٩٤/٩٣/٣ .
- ٩٣ . انظر : لاهب ، شعلة الاسلام ، ص ١١١ هامش رقم (٣) .
- ٩٤ . Daniel, Islam and the West (Edinburgh, 1966) P. 248 .
- ٩٥ . Rosebaul, Saladin, P. 182 .
- ٩٦ . الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٦٩ - ٧٠ .
- ٩٧ . ابو شامة ، الروضتين : ٧٦ / ٢ .
- ٩٨ . لاهب ، شعلة الاسلام ، ص ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦ .
- ٩٩ . صلاح الدين الايوبي ص ١٥٠ - ١٥١ .
- ١٠٠ . انظر : الروضتين : ٧٧/٢ .
- ١٠١ . للاطلاع على خطوات تحرير صلاح الدين للقدس انظر : ابن الاثير ، الكامل : ٥٤٧/١١ ، دريد ، سياسة ص ٣٠٦ - ٣١٢ .
- ٨ . ابن شاهنشاه ، الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي (ت : ٦١٧ هـ) . مضممار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق د . حسن حبشي (القاهرة : ١٩٦٨) .
- ٩ . ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت : ٦٣٢ هـ) . النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د . جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٦٤) .
- ١٠ . ابن العديم ، كمال الدين ابو القاسم عزم (ت : ٦٦٠ هـ) زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان (بيروت : ١٩٦٨) .
- ١١ . ابن العماد الحنبلي ، عبدالحفي الحنبلي (ت : ١٠٨٩ هـ) . شذرات الذهب في اخبار من ذهب (بيروت : دلات) و (طبعة مكتبة القدس : ١٣٥٠ هـ) .
- ١٢ . ابن قاضي شهبة ، بدرالدين (ت : ٧٧٤ هـ) . الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق د . محمود زاير ، (بيروت : ١٩١٨) .
- ١٣ . ابن القلانسي ، ابو يعلى حمزه (ت : ٥٥٥ هـ) ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق آمد روز (القاهرة : ١٩٠٨) .
- ١٤ . ابن كثير ، عماد الدين ابن ابي الفداء اسماعيل (ت : ٧٧٤ هـ) . البداية والنهاية (القاهرة : ١٩٣٢) .
- ١٥ . ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت : ٦٩٧ هـ) مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٥٧) .
- ١٦ . ابو شامة ، شهاب الدين ابو محمد بن عبدالرحمن (ت : ٦٦٥ هـ) . الروضتين في اخبار الروضتين النورية والصلاحية (القاهرة ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ) .
- ١٧ . البنداري ، قوام الدين ابو الفتح علي بن محمد (ت : ٦٤٣ هـ) . سنا البرق الشامي ، وهو مختصر لكتاب (البرق الشامي) للعماد الاصفهاني تحقيق رمضان ششن (بيروت : ١٩٧١) .
- ١٨ . الحموي ، ابو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (ت : ٦٢٦ هـ) . معجم البلدان (بيروت : ١٩٥٧) .
- ١٩ . صبط ابن الجوزي ، شمس الدين بن المظفر يوسف (ت : ٦٥٤ هـ) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ق ١ ج ٨ (حيدر آباد
- ١ . الاصفهاني ، عماد الدين ابن عبدالله محمد بن احمد (ت : ٥٩٧ هـ) الفتح القسي في الفتح القدسي (لندن : ١٨٨٧) .
- ٢ . ابن الاثير ، عزالدين ابي الحسن علي بن محمد الشيباني (ت : ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ م ١١ - ١٢ (بيروت : ١٩٦٦) .
- ٣ . ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن (ت : ٨٧٤) . النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٥ - ١٣٥٣ هـ) .
- ٤ . ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت : ٥٩٧ هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والامم (حيدر آباد الدكن : ١٣٥٨ هـ) .
- ٥ . ابن جماعة ، بدرالدين محمد بن ابراهيم بن جماعة الكتاني الحموي (ت : ٧٣٣ هـ) مستند الاجناد في آلات الجهاد وتحقيق اسامة النقشبندي (بغداد : ١٩٨٣) .
- ٦ . ابن خلدون ، عبدالرحمن (ت : ٨٠٨ هـ) . تاريخ ابن خلدون المسمى (العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر) (بيروت : ١٩٦١) .
- ٧ . ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (ت : ٦٨٤ هـ) . وفيات الاعيان وابناء الزمان ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة : ١٩٤٩) .

٣٢ . فيشر ، هيرت ا . ل . تاريخ اوربا (العصور الوسطى)
القسم الاول ، ترجمة محمد مصطفى زيادة وزميله (القاهرة
١٩٦٩) .

٣٣ . قسطنطين عمار . موسوعة فلسطين الجغرافية نشر منظمة
التحرير الفلسطينية مركز البحوث (بيروت ١٩٦٩) .

٣٤ . كامب ، هارولد شعلة الاسلام ، ترجمة ، محمود عبدالله
(بغداد : ١٩٦٧) .

٣٥ محمد جمال الدين محفوظ مفاهيم عسكرية وقومية (الدار القومية
للطباعة ت : ١٩٦٥) .

ثالثاً : - المصادر الاجنبية :

36 . Champdor (Albert) : Saladin le puls Purheros de l'islam .
Editions Albin Micher, Paris, 1956 .

37 . Danied (Norman) :

Islam on the West the Making of an Image, Edinburgh,
1966 .

38 . Diercke :

Weltstatistik 84/85 (Munchen : 1984) .

39 . Lane Pool (S.) :

A History of Egypt in the Middle ages, (London . 1968)

40 . Lane Pool (S.) :

Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, Khayats
(London : 1962) .

41 . Rosebault (C.J) :

Saladin Prince of Chivalry (London : 1930)

42 . Sivan (Emmanuel) :

L'Islam et la Croisade l deologie et ProPagand dans les
Reactons Muslamanes aux cronsades Paris 1988 .

43 . Stevenson (W.R) : The Crusaders in the East (Cambridge
: 1907) .

(الدكن : ١٩٥١) .

٢٠ . العليمي ، عبدالرحمن الجبيري العمري (ت : ٩٢٧ هـ)

الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجف : ١٩٦٨) .

٢١ . القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (ت : ٨٢١ هـ) .

صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة : ١٩٦٣) .

٢٢ . المقرئزي ، تقي الدين احمد بن علي (ت : ٨٤٥ هـ) .

آ . السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة
(القاهرة : ١٩٣٩) .

ب . البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب
(القاهرة : ١٩٦١) .

٢٣ . الياضي ، ابو محمد عبدالله بن اسعد (ت : ٧٦٨ هـ) . مرآة
الجنان وعبرة البقطنان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان
(حيدرآباد الدكن : ١٩٧٠) .

ثانياً : - المراجع الحديثة :

٢٤ . ابو بكر جلال طه - صلاح الدين الايوبي اسد القارتين
(بغداد : ١٩٦٧) .

٢٥ . جب ، هاملتون ا . ر صلاح الدين الايوبي تحرير يوسف ايش
(بيروت : ١٩٧٣) .

٢٦ . دريد عبدالقادر نوري . آ . سياسة صلاح الدين الايوبي في
بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد : ١٩٧٦) .
ب . الوطن العربي والغزو الصليبي (جامعة الموصل :
١٩٨٠) .

٢٧ . رنسيان ، ستيمن المدينة البرنطية ، الحروب الصليبية - ترجمة
د . صالح احمد العلي (بغداد ١٩٥٦) .

٢٨ . شكري محمود نديم حرب فلسطين ١٩١٤ - ١٩١٨ (بغداد :
١٩٦٤) .

٢٩ . عاشور سعيد عبدالفتاح الحركة الصليبية صفحة مشرقة في
تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى (القاهرة ،
١٩٦٣) .

٣٠ . العربي ، السيد الباز مصر في عصر الايوبيين (سلسلة الالف
كتاب عدد ٢٦٩) . القاهرة لم يذكر السنة .

٣١ . غرابية ، عبدالكريم العرب والاتراك دراسة لتطور العلاقات
بين الامنين خلال الف سنة (دمشق : ١٩٦١) .

صَلَاحُ الدِّينِ كُيُوكُو وَالتَّحَدُّثُ مُؤَامَرَاتِ الْحَشِيشِيَّةِ الْبَاطِنِيَّةِ لِإِغْتِيَالِ صَلَاحِ الدِّينِ

د. فاروق عمر فوزي

كلية الآداب / جامعة بغداد

الى حد كبير ماتشده الان الساحة العربية الاسلامية فاذا كان العراق مركز الخلافة العباسية وكذلك فلسطين واجزاء من بلاد الشام هي الهدف الرئيسي للحركة الحشيشية المتطرفة الهدامة التي نبعت من بلاد فارس ولحملات الفرنج المستترين بالدين ، فإن نفس هذه الاقاليم هي المستهدفة من قبل الحركة الخمينية المتبرقة بالدين ومن قبل الصهيونية ربيبة الاستعمار الاوربي الغربي . ولعلنا نشير هنا بأن الحروب التي شنها الفرنج في العصر الوسيط والتي شنتها الصهيونية الامبريالية في العصر الحديث ضد العالم الاسلامي لم تكن وليدة الصدفة او اعتباطية ، بل ان بعض المؤرخين يعد حروب الفرنج اول تجربة من الاستعمار الغربي قامت بها الامم الاوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية وسياسية واسعة النطاق^(١) وان امراء الحملات الصليبية ، حين اندفعوا بسياساتهم التوسعية انما كانوا يستهدفون غايات دنيوية ، وعلى هذا تكون الحركة الصهيونية اخر تجربة افوزتها الامبريالية الغربية لتحقيق خططها في المشرق العربي . . . وما اشبه الليلة بالبارحة !!

اما الدعوة الحشيشية^(٢) فهي دعوة اسماعيلية متطرفة ، زعيمها الحسن بن الصباح الفارسي نشأ في قم وانضم الى الاسماعيلية في فترة مبكرة من حياته ثم انشق عن المذهب الاسماعيلي التقليدي ليؤسس مذهباً جديداً (الحشيشية) في بلاد

على سبيل التمهيد :

في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كان العالم العربي - الاسلامي يمر بحالة من الضعف السياسي والتفكك الاداري والانحلال ولقد شجعت هذه الحالة على ظهور حركات سياسية مناهضة للخلافة العباسية وعقيدتها وقيمها سواء في الداخل او في الخارج وكان الهدف واحداً والمجهود مشتركاً فالحركات الداخلية تسعى الى هدم المجتمع من الداخل وتفتيته مادياً ومعنوياً ، وكان لابد لها ان تبرقع بالدين لكي تنشط بين الجماهير وتكسبها الى جانبها ثم تستخدمها لضرب الخلافة بكل ما تمثله من قيم اسلامية ومثل عربية لتستبدلها بنظام جديد لا يمت الى العروبة او الاسلام بصلة ، ثم يأتي دور العدو الخارجي المتربص لكي ينقض فيجهاز على البناء المتداعي والمنخور من الداخل وحينذاك يتحقق الهدف المشترك !!

لقد كانت الحركة الباطنية الاسماعيلية الحشيشية تمثل في تلك الفترة التاريخية الحركة الهدامة من الداخل ، اما العدو الخارجي فكان يتمثل بحملات الفرنج على بلاد الشام ومصر والتي عرفت باسم « الحروب الصليبية » .

واذا جاز لنا المقارنه فإننا نقول بان طبيعة ماجرى على المسرح السياسي من مظاهر وتحركات في العصر العباسي المتأخر يشابه

فارس ولكنه مالبث ان اعلن عن ضرورة نشر المذهب في كل العالم الاسلامي عن طريق تصدير الدعوة الحشيشية . الا ان هذه الدعوة فشلت في الانتشار في العراق مقر الخلافة العباسية وفي اقاليم الخليج العربي . ولكنها تمكنت عن طريق الدعاة الفرس ان تجد موطناً قدم لها في اماكن متفرقة من بلاد الشام وكانت ارتباطات الحشيشية الفارسية قوية في اغلب الأحيان بالحشيشية في بلاد الشام .

اما الفرنج « الصليبيون » فالواقع ان النجاح الذي حققته حملتهم الاولى في اواخر القرن الخامس الهجري لم تدركه اية حملة اخرى جاءت بعدها . اذ انها تمكنت من احتلال الاراضي المقدسة بفلسطين وتأسيس اربعة امارات لاتينية في المشرق العربي . لقد انتهز الفرنج فرصة الفوضى والصراع السياسي في العالم العربي الاسلامي فاحتلوا انطاكية سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ثم احتلوا القدس سنة ٤٩٣ هـ / ١٠٩٩ م . وهنا يشير البروفسور جب(٣) قائلاً : اما ان الحملة الصليبية الاولى مدينة الى حد كبير في نجاحها الى ضعف المقاومة التي لاقتها فحقيقة يقبلها كل المؤرخين . ويزيد المؤرخ ستانلي لين بول الموقف وضوحاً حين يقول : « لو تقدم الزمن قليلاً بحملة

الصليبيين الاولى لصدتهم قوة السلاجقة

ولو تأخر بهم قليلاً لكان من المحتمل ان يلقي بهم عماد الدين زنكي او نور الدين محمود في البحر الذي جاؤوا منه . ولكنها كانت فترة من الفترات السعيدة للاربيين ان قرروا السير الى الاراضي المقدسة في هذا الوقت بالذات حيث اضطرب النظام في الدولة الاسلامية » . (٤) لقد كان طبيعياً ان يتعاون الحشيشية مع الفرنج مادام العدو واحد والهدف مشترك ، والواقع ان التعاون بدأ منذ وقت مبكر جداً وبعد وفاة نور الدين محمود مباشرة حيث تصدعت الجبهة في بلاد الشام ومصر ، وكان صلاح الدين الايوبي لا يزال في مصر . وقد تقرر ان يقوم اموري ملك بيت المقدس الصليبي وامير صقلية بالهجوم على مصر . وفي الوقت الذي يتقدم صلاح الدين لصد الهجوم يتآمر الاسماعيليه في القاهرة ضد الحكم الايوبي ويطيحون به ليصلوا من جديد عودة الدولة الفاطمية(٥) . وقد اتفق الفرنج والاسماعيليه ان يكون موعد المؤامرة شهر نيسان

سنة ١١٧٤ م / ٥٦٩ هـ لانه الوقت الذي تكون فيه العساكر متباعدة في نواحي اقطاعاتهم وعلى قرب من موسم غلاتهم وانه لم يبق في القاهرة الا بعضهم(٦) ولكن المؤامرة الاسماعيليه - الفرنجية فشلت بسبب وفاة اموري ملك بيت المقدس وتأخر وصول الاسطول الحربي الصقلي بقيادة تانكرد حتى حزيران من السنة نفسها ، وخرج صلاح الدين متصراً بعد سحق المؤامرة الثلاثية على حكمه في مصر(٧) .

الا ان التعاون الاسماعيليه - الفرنجي استمر حيث يشير المؤرخ وليم الصوري الى ان زعيم الاسماعيليه (الحشيشية) السورية راشد الدين سنان ارسل سنة ٥٦٩ هـ وفداً الى امليك ملك بيت المقدس لعقد اتفاق تعاون بينهما . واستقبل الوفد بحفاوة في القدس . ولاشك بأن زيارة هذا الوفد تمت قبل وفاة امليك اي قبل مؤامرة القاهرة آنفة الذكر . بل ان بعض المؤرخين المحدثين يرون بأن الاسماعيليه (الحشيشية) في بلاد الشام وفرسان الاستبارية الفرنج كونوا حلفاً ضد صلاح الدين الايوبي والامراء التابعين له . وان الحشيشية كانت تنشر دعوتها المتطرفة تحت حماية فرسان الاستباريه ، مقابل ان يرسل الحشيشية الارهابيين (القداوية) لاغتيال الامراء الذين يظهرون عداوة واضحة ضد الاستباريه وهذا ماحدث للامير ريموند والامير بوهيمند الرابع اللذين قتلوا من قبل الحشيشية بتحريض من الاستباريه . (٨)

كما تعاونت الحركة الحشيشية الاسماعيليه مع اليهود ، فقد كان رأس الجالوت وهو زعيم الطائفة اليهودية في المشرق يحث اليهود سراً على التعاون مع الحشيشية ، وقد اشار بنيامين التطيلي الذي زار المنطقة في هذا الوقت بالذات الى وجود حوالي ٤ آلاف يهودي مع الحشيشية السورية يقاتلون معهم ويأتمرون بأمرهم ومنهم علماء في الدين تابعين الى رأس الجالوت . (٩)

واكثر من هذا فان الحشيشية وهي حركة اسماعيلية متطرفة منشقة عن الاسماعيليه التقليدية التي كونت الدولة الفاطمية في مصر لم تتورع عن مساعدة البقية الباقية من الاسماعيليه الذين دبروا المؤامرة سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م آنفة الذكر من اجل القضاء على حكم صلاح الدين الايوبي في سنواته الاولى . فقد جرت مفاوضات سرية بين اقطاب المؤامرة وبين راشد الدين

سنان للتخطيط والتعاون ، فما دام العدو مشتركاً وخطراً فلا بأس من التفاهم ونسيان الماضي والتفاهي على الخلافات السياسية والعقائدية بين الفرقة الاسماعيلية الام والحركة الحشيشية المنشقة عنها^(١١) . !!

محاولات إغتيال صلاح الدين الايوبي :

من المعروف ان الحشيشية الاسماعيلية السورية تفرعت وترعرعت في كنف الحشيشية الفارسية ولهذا فقد تبنت عقيدتها وتعاليمها وعقيدتها في كره قيم العروبة وتعاليم الاسلام الصحيح . وحين تسلم راشد الدين سنان زعامة الحشيشية السورية سنة ١١٦٢م / ٥٥٨هـ تجلبت نزعته في حب السلطة والزعامة ورغب ان يكون الزعيم الاوحد للحشيشية^(١٢) . فحاول ان يشق طريقاً مغايراً عن الحشيشية الفارسية واهمل ذكر الزعامة الفارسية ، بل اكثر من ذلك جعل نفسه إلهاماً مقدساً للحشيشية السورية^(١٣) . إن ذلك يعني من جملة مايعنيه بأن طموحات راشد الدين سنان كانت من السعة بحيث بات يحلم بالاستيلاء على كل بلاد الشام ثم التوسع بعد ذلك الى الاقاليم المجاورة .

ولكن في هذه الفترة بالذات ظهر صلاح الدين الايوبي على المسرح السياسي في بلاد الشام بطلاً للوحدة الاسلامية وداعية للجهاد المقدس ضد التحريفية الداخلية وضد الغزو الفرنجي الاجنبي ، وهذا دون شك هو ما جعل منه العدو الرئيسي للحشيشية الاسماعيلية وللفرنج على السواء . بالاضافة الى اختلافه مع الامراء الزنكيين في الموصل وحلب الذين كانوا ضد الوحدة بزعامة صلاح الدين الايوبي .

ففي الرسالة التي ارسلها صلاح الدين الايوبي للخليفة العباسي في بغداد سنة ١١٨١م يشير صلاح الدين الى التفاهم بين المحور الثلاثي : الحشيشية والفرنج وبعض الزنكيين ، مؤكداً على دوره كمدافع عن الاسلام ضد الفرنج والحشيشية الزنادقة التحريفيين والامراء الزنكيين الذين لم يتورعوا من التحالف مع الاجنبي الغازي والزنادقة الباطنيين . ويبدو من بعض روايات التاريخ ان الزنكيين اعطوا الحشيشية حرية نشر مذهبهم وسمحوا لهم ببناء مركز للدعوة في حلب . كما وان الحشيشية انفسهم من اجل كسب ود الفرنج والتحالف

معهم لحروا الى احتمال اعتناقهم المسيحية حسب ما يرويه المؤرخ وليم الصوري^(١٤) .

وفي هذه الفترة بالذات جرت محاولتان لاغتيال صلاح الدين من قبل الحشيشية :

(١) المحاولة الاولى^(١٥) وكانت في شهر جمادى الاخرة من سنة ٥٧٠هـ كانون الاول من ١١٧٤م وقد تمت المحاولة حين كان صلاح الدين الايوبي يحاصر حلب . وتتفق الروايات التاريخية مع بعض الاختلاف في النص الى اتفاق سعد الدين كمشتكين اتابك حلب مع راشد الدين سنان على قتل صلاح الدين مقابل اموال وضياع يؤديها الاتابك الى زعيم الحشيشية الارهابية ، وقد استطاعت مجموعة من الفداوية الحشيشية التغلغل في معسكر صلاح الدين ولكن احد الامراء من الجيش الايوبي عرفهم وانفضح امرهم . تقول الرواية التاريخية^(١٦) :

« وارسل سعد الدين كمشتكين الى سنان صاحب الاسماعيلية بمصيف وقلاعها وبذل له اموالاً كثيرة ليقتل السلطان فارسلوا جماعة منهم الى عسكره فعرفهم الامير ناصح الدين خمارتكين وكان مثاغراً لهم لاي شيء جتئهم وكيف تجاسرتم على الوصول فجرحوه جراحات فمات منها رحمه الله »

وقد حدثت مصادمة بين الارهابيين وبعض الجند ذهب ضحيتها بعضهم كما هجم احدثهم على صلاح الدين ليقتله ولكنه قتل قبل ان يصل اليه . وقد قتل بقية الحشيشية دون ان يتعرض صلاح الدين الى اي اذى في هذه المحاولة الاثيمة .

ولا بد ان نشير هنا ان بعض المصادر لاتشير بالاسم الى اتابك حلب كمشتكين بينما هناك مصادر اخرى تشير اليه شخصياً بل تشير الى امراء حلب بصورة عامة .

(٢) المحاولة الثانية^(١٧) وقد تمت في شهر ذي القعدة من سنة ٥٧١هـ مايس ١١٧٦م اثناء محاصرة قلعة عزاز وهي من قلاع حلب المهمة . وكانت هذه المحاولة اكثر خطراً من الاولى حيث استطاع الارهابيون الحشيشية ان يلبسوا الزي العسكري للمجند الايوبي وان يتغلغلوا داخل المعسكر وينضموا الى صفوف المقاتلة حتى نواتيهم الفرصة المناسبة لاغتيال صلاح الدين الايوبي . وقد هاجم الفداوية صلاح الدين وضربه احدثهم بسكين على

رأسه ولكن صلاح الدين كان ومنذ المحاولة الاولى على حياته قد اتخذ جملة احتياطات لحماية نفسه فكان :

« لا يتزعج الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد من على رأسه »

وحين ذهبت الضربة الاولى هباء ثنى الارهابي بضربة اخرى جرحت صلاح الدين في وجهه حيث سال دمه ولكن صلاح الدين امسكه بقوة من يده حيث ادركه احد القادة وقتله .

ولكن ارباباً آخرأ هاجم صلاح الدين فاعترضه امير آخر وقتله غير انه اصيب بضربة سكين توفى على اثرها . ثم تقدم ارباب ثالث للقيام بالعمل فقتل دون ذلك . ولما رأى الارهابي الرابع الحالة هرب فلاحقه الجند وقتلوه .

لقد اذهلت المحاولة الثانية القادة والجند في معسكر صلاح الدين ، كما وانها تركت اثرأ واضحاً في نفسية صلاح الدين . وقد توقف القتال في ذلك اليوم كله بسبب الحادث . واستعرض صلاح الدين جنده واخرج منه كل جندي انكره او لم يعرفه . كما اتخذ احتياطات جديدة وشديدة لحماية نفسه من اية غدره يقوم بها الحشيشية خاصة وان الحشيشية اثبتت من خلال عملياتها هذه دقة وسرية تنظيماتها بحيث استطاعت ان تتغلغل داخل معسكر صلاح الدين دون ان يكشف امرها . كما وان الارهابيين لم يهاجوا صلاح الدين مرة واحدة فلربما استطاع واحد منهم ان يحقق الهدف دون ان يكشف امر البقية الباقية .^(١١) وبالنظر لاهمية وخطورة هذه المحاولة فان معلوماتنا عنها جيدة حيث تذكرها كل المصادر ذات العلاقة ، الا أن المصدر الوحيد الذي يتهم امراء حلب بالتحريض على المؤامرة والاتصال بالحشيشية هو ابن أبي طي الذي يشير ابو شامة اليه في الروضتين ، يقول ابن أبي طي بأن امراء حلب عادوا الى دسائسهم ضد السلطان صلاح الدين وكتبوا للمرة الثانية الى راشد الدين سنان واقنعوه بالمال والوعود باغتيال صلاح الدين .

وكان لا بد ان يرد صلاح الدين الايوبي على التحدي فقرر التقدم نحو قلاع الحشيشية في بلاد الشام وتخريبها فحاصروهم واحتل بعضها مثل الكهف والقدموس والعليفة والرصافي ولكن حصن مصياف على الساحل قرب مدينة طرابلس ومركز زعيم الحشيشية راشد الدين سنان استعصى عليه ولم يتمكن من احتلاله حيث

انسحب منه بعد اسبوع من الحصار . ويبدو ان خال صلاح الدين الايوبي الذي كان اميراً على حماه المجاورة لبعض حصون الحشيشية لعب دورأ في التوسط بين السلطان صلاح الدين وزعيم الحشيشية سنان من اجل عقد صلح بينها وانهاء حالة الحرب . تقول بعض الروايات :^(١٢)

« ورحل [صلاح الدين] الى بلد الاسماعيلية وحصرهم ثم صالحهم بواسطة خاله محمود بن تكش وسار بعسكره الى مصر . . »

ويبدو ان المبادرة من اجل إيقاف القتال بين صلاح الدين وراشد الدين سنان جاءت من الاخير . فإذا كان الامر كذلك فلماذا قرر سنان الصلح وهو يعلم علم اليقين ان السلطان صلاح الدين هو العقبة الكبيرة في سبيل نشر مذهبه وتحقيق طموحاته السياسية ؟

ثم لماذا قبل السلطان هذا العرض بالصلح ؟

الواقع ان محاولات راشد الدين سنان لاغتيال صلاح الدين لم تكن مدفوعة كلفة من قبل امراء حلب الزنكيين واغرائهم لسنان بالاموال والقلاع ، اي ان سنان لم يكن يعمل أجيراً لدى الزنكيين بل ان هذه الخطة كانت تتفق تماماً مع طموحاته السياسية والتي كان صلاح الدين يحول دون تحقيقها . الا ان فشل محاولتي الاغتيال وحصار صلاح الدين لقلاع الحشيشية وتخريب بعضها وقتله للحشيشية ومصادرته ماشيتهم واموالهم ثم تهديده لمركز زعيم الحشيشية في قلعه مصياف الحصينة . . كل ذلك جعل راشد الدين سنان يبادر الى المطالبة بالصلح .

اما بالنسبة لموقف صلاح الدين فبالرغم من ان بعض الروايات^(١٣) تشير الى احداث اسطورية وخوارق قام بها الحشيشية لاجبار صلاح الدين على قبول الصلح ، فالواقع ان الاسباب التي دعت السلطان صلاح الدين للانسحاب من حصار مصياف وقبول الصلح لاتعدو ان تكون حالة من الحالتين او الحالتين معاً :

اولها - بدء هجوم فرنجي جديد على بلاد الاسلام . فقد اخبر ابن المقدم صاحب بعلبك صلاح الدين عن هجوم جديد للفرنج وانه اصطدم بهم واسر اكثر من مائتين منهم بينما قتل مجموعة اخرى .

عند ذلك قرر صلاح الدين العودة الى دمشق وتوفير الجهد والمال والرجال لصد هجوم فرنجي متوقع بدلاً من البقاء امام اسوار مصياف . ويؤكد العماد الاصفهاني ذلك حين يقول^(١) :

لولا هذا الحادث [الهجوم الفرنجي] لم بصرف عنها [مصياف] الاحداث

ثانيهما - كان الجيش الايوبي قد غنم غنائم كثيرة من معاركه مع الحشيشية وغيرهم خلال تلك السنة وكانوا ميالين الى العودة الى بلدانهم للاستراحة والتمتع بهذه الغنائم مع اهليهم . وحينما طال حصار مصياف زاد الملل لديهم . وتشير رواية تاريخية الى ذلك بقولها ان صلاح الدين الايوبي احسن من بعض قادة جيشه و ميلاً الى الانكفاء^(٢) فقرر رفع الحصار والعودة الى دمشق وقبول وساطة خاله للصلح بينه وبين سنان . الا ان المصادر المتيسرة لدينا لاتسعفنا في تبيان طبيعة هذا الصلح او شروطه ولكننا نعرف ان راشد الدين سنان وخلال السبع عشرة سنة التالية لم يتدخل في جهود صلاح الدين او نشاطاته ضد اعدائه من الفرنج (الصليبيين) او من الامراء الزنكيين ، وهكذا استطاع صلاح الدين الايوبي ان يحجم الحشيشية ويوقف نشاطاتها المذهبية والسياسية ويركز جهوده للاستعداد لطرد الافرنج من فلسطين التي توجت بانتصار حطين في تموز ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ .

الخاتمة

من الطبيعي ان يتحالف الحشيشية الباطنية مع الفرنج الغزاة المعتدين ومع الامراء الانفصاليين ضد قيادة صلاح الدين الايوبي لأنها تقف على طرفي نقيض من مخططاتهم من اجل تفتيت المجتمع العربي الاسلامي وكل مايمثله من قيم ومثل وارث حضاري .

إن سيرة صلاح الدين تشير الى حقيقة اساسية هي عدم امكانية الاستغناء عن الزعامة في اي شكل من

اشكال التنظيم الاجتماعي ، وفي اي زمان او مكان . والجماعية عبر التاريخ تتطلع في خضم الازمات الى من ينقذها . فإن ازمة حادة تزيد الاهتمام بالقائد وان الامل من ايجاد حل لتلك الازمة مقترن بالامل بظهور قيادة قوية حازمة قادرة على التغلب على الاخطار واجتياز العقبات . وكلما ازدادت الازمة حدة اشتد التوق الى البطل المنقذ . ولا يستطيع المؤرخون مهما كانت اتجاهاتهم ان يكتبوا التاريخ دون الاعتراف والاقرار بأن بعض الافراد « الابطال » لعبوا في اللحظات الحرجة من تاريخ الامة دوراً حاسماً في التأثير على الحدث التاريخي او اعادة توجيه الموجة التاريخية .

لقد كان صلاح الدين الايوبي واحداً من هذه النماذج القيادية الفذة التي ظهرت على مسرح تاريخنا العربي الاسلامي على ان سر نجاحه المثير لم يكن في المقام الاول قدرته العسكرية او امتلاكه جيوشاً قوية وكبيرة او حنكته السياسية بقدر ماكانت محاولته الناجحة في استلهاام روح الاجداد العرب المسلمين العظام وبعث مثلهم وقيمهم الاخلاقية العليا ووضعها موضع التطبيق على نفسه اولاً وعلى الذين من حوله ثانياً .

لقد ادرك صلاح الدين الايوبي بثاقب بصيرته ان انهيار الكيان السياسي للخلافة وضعف المجتمع العربي الاسلامي الذي ادى الى تغلغل الفرنجة وتأسيسهم اربعة كيانات سياسية في بلاد الشام، من جهة والى نشاط الحركة الحشيشية الباطنية من جهة اخرى ، انما نجم عن الانحطاط في الخلق السياسي والى اهمال المثل والقيم العليا التي يتمسك بها الاجداد في تعاملهم فأوصلت دولتهم الى مصاف الدول القوية المهابة الجانب وجعلت مجتمعاتهم موحداً مزدهراً . وهكذا فلم يكن امام صلاح الدين غير طريق واحد يوصله الى الوحدة والتحرير هو العودة الى روح الاجداد وبعث قيمهم ومثلهم . لقد حير

صلاح الدين اعداءه بشجاعته وعزمه وتواضعه وانكاره لذاته ، وكرمه وبساطته واخلاصه لمثله العليا وصدقه ووفائه بوعوده حتى لاعدائه ، وبذلك استطاع ان يدعم القوة العسكرية والولاء السياسي بمثل قيم اخلاقية ومعنوية كانت مشار الدهشة والاعجاب لدى الاعداء قبل الاصدقاء .^(١) فلقد ظهر صلاح الدين بمظهر « الفارس الشهم » في الادب الاوربي ولعلنا نشير هنا الى احدى رسائله التي يقول فيها انه لن يسمح بتداول الحروب بين امراء المسلمين بدلاً من اتحادهم معاً في الجهاد^(٢) . وهي رسالة تدل على مدى تقديره للمسؤولية الملقاة على عاتقه وعاتق امراء المسلمين من اجل الوحدة وتحرير الارض المقتصة من قبل الفرنج الغزاة ، على أن عملية التوحيد لم تكن تتم في اغلب الاحيان بقوة السلاح ، فلو استعمل صلاح الدين القوة العسكرية فقط لما انضم اليه الا جزء يسير من امراء المدن الشامية والجزرية ولكن هؤلاء الامراء انضموا اليه من تلقاء انفسهم حين وثقوا به وبخلقه وسياساته ووجدوا فيه « البطل المنقذ » من الاوضاع السياسية المتردية .

ويرى البروفسور جب^(٣) ان كلمة صغيرة قالها صلاح الدين الايوبي توجز الطبيعة الحقيقية لمشاره وهذه الكلمة هي : « فإني لو حدث بي حادث الموت ماتكاد تجتمع هذه العساكر » . فلقد انتشل صلاح الدين الاسلام في فترة حرجية من الانحطاط الاخلاقي السياسي حين نادى بمثل اخلاقي أعلى طبقه أولاً على نفسه فخلق حافزاً للاتحاد كان كافياً لمواجهة التحدي .

وبعد . . . فإن الاسس الاخلاقية والقيم المعنوية التي تحمل بها صلاح الدين وعمل على نشرها كانت عاملاً من جملة العوامل الرئيسية التي يسرت له سبل تحمل المسؤولية والاضطلاع بالمهمة الكبيرة التي القيت على عاتقه وجعلت منه بالنالي بطلاً منقذاً في نظر الاجيال والتاريخ .

الهوامش والتعليقات

(١) راجع : د . فاروق عمر . تاريخ فلسطين السياسي ، المين ١٩٨٣ ، ص ١٥٥ . وكذلك تاريخ فلسطين في المصور الوسطى ، مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، ١٩٧٣ ، (المقدمة)

(٢) راجع : B. Lewis, The Assassins, London, 1967.

(٣) جب مقالته الموسومة « ظهور صلاح الدين ١١٦٩ - ١١٨٩ » في الجزء الاول من كتاب « الحروب الصليبية » الذي اصدرته جامعة بنسلفانيا سنة ١٩٥٨ .

كذلك جب صلاح الدين الايوبي في « دراسات في التاريخ الاسلامي » بيروت ١٩٧٣ .

(٤) Lane-poole, Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, London, 1898, p.57.

(٥) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ ، ج ١١ ص ٤١٢ .

(٦) أبو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، القاهرة ، ج ١ ص ٢٢١ .

(٧) ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيه ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٨ لما بعد

(٨) راجع : دريد النوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي : رسالة ماجستير ، جامعة بغداد سنة ١٩٧٦ ، ص ٣٦٢ . وقد نشرت الاطروحة ولم يتيسر لي مطالعتها منشورة .

اما فرسان الاسبتارية فهم فرسان القديس حنا الذين اسسوا تنظيمهم قبل الحروب الصليبية باقامة دير ومستشفى لهم في القدس وكان واجبههم مساعدة الحجاج الا اهم ما لبثوا ان اصبحوا فرساناً محاررين اثناء حروب الفرنجة في فلسطين واشتهر بعض قادهم بالفدر والمكر ضد المسلمين وصلاح الدين .

(٩) بنيامين التطيلي ، رحلة بنيامين ، بغداد ١٩٤٥ ، ص ١٥٣ ، كذلك النوري المصدر السابق ، ص ٣٦٣ - ٣٦٤ .

(١٠) راجع : أبو شامة ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢١ . كذلك لويس ، صلاح الدين والحشيشية ، مجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية ، لندن ، ١٥ ، ١٩٥٣ ، ص ٢٤٢ .

(١١) د . فاروق عمر ، الدعوة الجديدة في بلاد فارس وبلاد الشام ، آفاق عربية ، ١٩٨٥

(١٢) لويس ، الحشيشية ، بالانكليزية ، ص ١١١ - ١١٢ .

(١٣) نفس المصدر السابق . . النوري ، المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(١٤) ابو شامة ، ج ١ ، ٢٣٩ - ٢٤٠ . ابن الاثير ج ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٨ . ابن واصل مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، القاهرة ١٩٥٧ ، ج ٢ ص ٢٤

(١٥) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤

(١٦) ابو شامة ، ج ١ ص ٢٥٨ ابن شداد ، ص ٥٢ . ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٨٥ .

(١٧) النوري ، المصدر السابق ، ٣٦٨ .

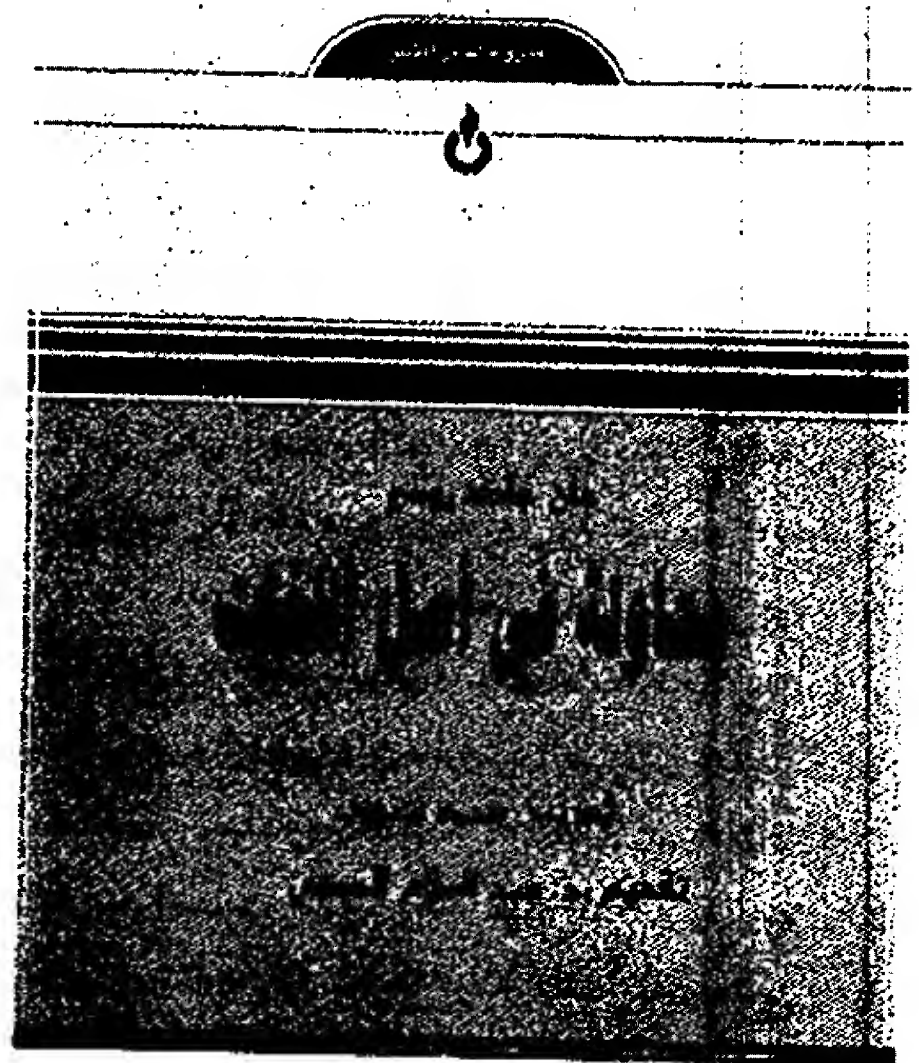
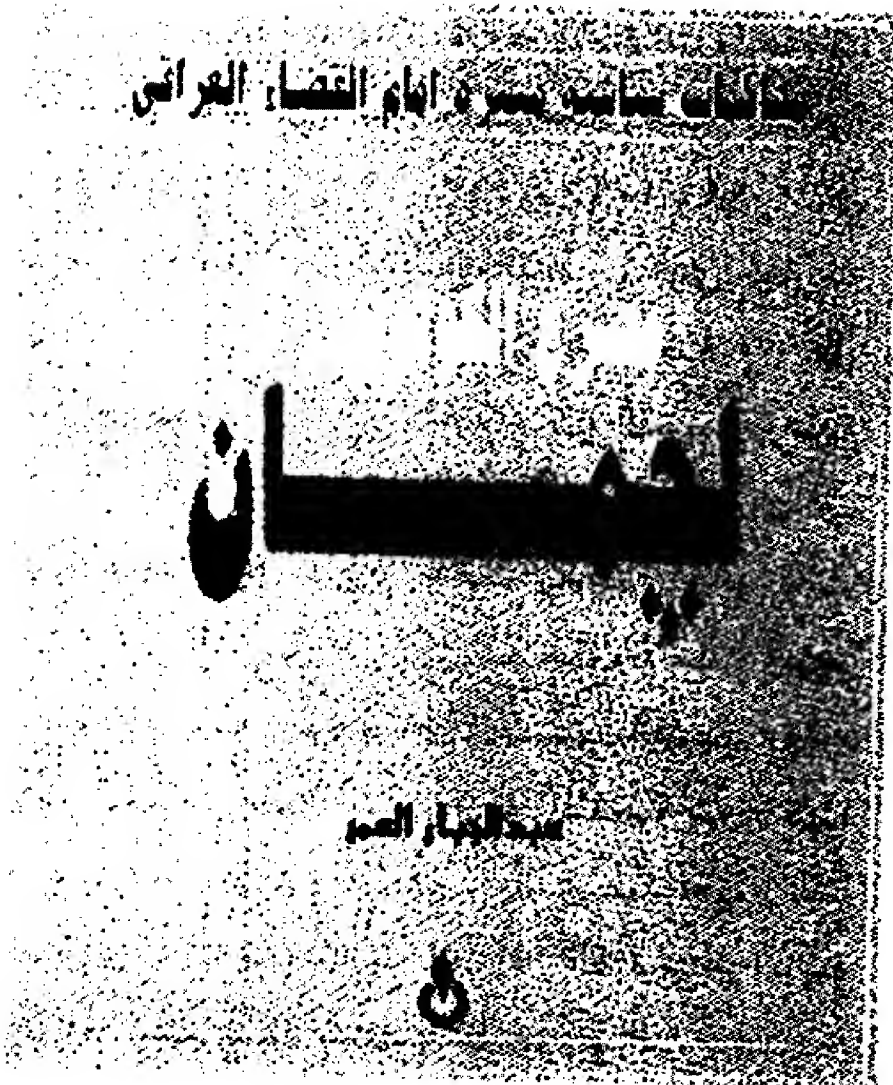
(١٨) ابو شامة ، ج ١ ص ٢٦١ .

الاصفهانى ، الفتح القسى في الفتح القدسي ، لندن ، ١٨٨٧ .
 نفس المؤلف البرق الشامي الذي اختصره البنداري في كتابه الموسوم
 (سنا البرق الشامي) بيروت ١٩٧١ . وكذلك ماكتبه القاضي
 القاضل من كتب ورسائل عن تلك الفترة وهي مبعثرة في مؤلفات
 ابي شامة و عماد الدين الاصفهاني .
 (٢٣) جب ، مآثر صلاح الدين في دراسات في حضارة الاسلام ،
 بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٣٤ .
 (٢٤) المصدر السابق ، ص ١٤٠ نقلا عن ابن شداد ، ص ٢١٨ .

(١٩) راجع لويس ، المصدر السابق ، ١١٣ . - النوري ، المصدر
 السابق ، ٣٧٠ - ٣٧١ .
 (٢٠) ابو شامة ، جدا ص ٢٦١ . - البنداري ، سنا البرق الشامي للعماد
 الاصفهاني ، بيروت ١٩٧١ ، جدا ص ٢١٩ .
 (٢١) المصدر السابق ، جدا ، ص ٢٠٨ .
 (٢٢) من اجل التعرف على طبيعة صلاح الدين واخلاقه راجع : ابن
 شداد ، النوادر السلطانية ، القاهرة ١٩٦٤ . - عماد الدين

* * *

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة



عماد الدين زنكي وسياسة الجهاد تجاه الصليبيين

د. مرتضى حسن البقيب

كلية الاداب / جامعة بغداد

ثاني اولاد زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي الشهيرتين . . ولم تكن انجازات زنكي هذه من المسائل العادية التي يمكن لأي حاكم من حكام السلاجقة أو نابعيهم من تحقيقها ، بموجب اخفاق المحاولات السابقة التي قام بها عددٌ من الشخصيات الاسلامية الحاكمة هناك ، قبل ان يربط زنكي مستقبله بحرب الجهاد ، وبموجب الخطر الصليبي الناجم عن وجود وتوسع الامارات الأربعة على امتداد بلاد الشام ، بعد اختفاء مجتمعات اسلامية كاملة وحلول مجتمعات فرنجية عليها .

وبسبب هذه الانجازات المهمة ، فقد حظى عماد الدين زنكي بأهتمام بالغ من قبل المهتمين بالدراسات الصليبية والمتخصصين فيها من مستشرقين ومفكرين عرب ، فدرسوا سيرته الذاتية ودولة الاتابكة وتاريخها السياسي ، وبعض النظم والمؤسسات المرتبطة بها ، بما في ذلك دور « الزنكيين » في مقاومة الصليبيين كالمقالة التي خصصها المستشرق الراحل هملتون كيب (H. Gibb) ، للوضع السياسي الذي عاشه عماد الدين زنكي بين وقت ظهوره وسقوط امارة الرها^(١) ، ودراسة عماد الدين خليل

يأخذ عماد الدين زنكي اسمه في التاريخ العربي - الاسلامي من دوره في تكوين دولة وراثية في الموصل والجزيرة وبلاد الشام خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي باسم « الدولة الاتابكية » ، ومن دوره في مقاومة الامارات والممالك الصليبية الأربعة التي تكونت في اعقاب الحملة الصليبية الاولى في بلاد الشام (٤٩٠ - ٤٩٣ / ١٠٩٦ - ١٠٩٩) في كل من الرها وانطاكية وطرابلس والقدس ، الذي جعل منه ومن سيرته بطلاً من ابطال الاسلام بدون منازع : فإلى زنكي يرجع الفضل في معالجة حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي كانت تسود مناطق الجزيرة والشام في اعقاب سقوط مملكة تتش السلجوقية والحكم الفاطمي ، التي كانت مبيهاً في تمكن الصليبيين من عملي السلاجقة والانتصار عليهم بسهولة بالغة لم يكن يتوقعها حتى الصليبيون انفسهم ؛ واليه يرجع الفضل في تطوير حرب الجهاد المقدسة بدوره فيها « كغازي » و« مجاهد » لا يقهر ، والذي مهد لظهور تلك الشخصيات المعاصرة لتاريخ الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة ، يقصد بذلك شخصية كل من نورالدين محمود ،

المتعة عن حياة وتشكيلات دولة هذا الاتابك^(١) ، وما تقدم به شاكر ابوبدر عن الحروب الصليبية والأسرة الزنكية^(٢) ، اورسالة السيدة علية عبدالسميع عن امارة الرها ودور زنكي في سقوطها^(٣) ، اضافة الى ما اعتمدت عليه هذه الدراسات من مساهمات لعدد كبير من المختصين الاوائل في هذا الحقل^(٤) .

وبالرغم من فائدة هذه الدراسات في زيادة معلوماتنا التاريخية عن عماد الدين زنكي وتاريخ الدولة الاتابكية التي اسسها ، وعن جهوده في محاربة الصليبيين ومقاومتهم ، الا ان عماد الدين زنكي لم يدرس لحد الان كظاهرة تاريخية لاحداث الدولة السلجوقية التي سادت الموصل والشام خلال النصف الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بوجه الخصوص لم يتوضح لحد الان الخصوصيات التي تتميز بها شخصية زنكي ، سواء كانت تلك التي تخص عمله السياسي والعسكري كأحد امراء السلاجقة ونجاح مؤسساتهم العسكرية ، او تلك التي تخص اتابكيته والتي تساعد كليهما على تبيين دوره في تاريخ المنطقة والتاريخ الاسلامي ككل . ومن هذا ، سوف نتعرف في هذه المقالة المختصرة على ظاهرة ارتقاء عماد الدين زنكي على مسرح الاحداث في الموصل والجزيرة والشام خلال الربع الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والظروف التي مهدت لظهوره ، ودوره في تكوين الدولة الاتابكية ، ثم نحلل بوجه الخصوص سياسة عماد الدين زنكي في الجهاد ضد الصليبيين من حيث طبيعة هذه السياسة والخصائص المرتبطة بها ، والتي توجت بانتصار زنكي في الرها على جوسلين الثاني سنة ١١٤٤/٥٣٩ . فقط انذاك يصبح بإمكاننا توضيح بعض القواعد التي استقر عليها عمل عماد الدين زنكي ونتمن دوره وشخصيته كبطل من ابطال الاسلام وبجاهديه . والآن ما هي الظروف التي

مهدت لظهور عماد الدين زنكي وارتقائه الحكم على ولاية الموصل وكيف استفاد منها في تكوين اتابكته ؟

كان صعود عماد الدين زنكي للحكم في ٥٢١ / ١١٢٧ وبقائه على رأس الدولة التي كونها الى وقت مقتله في ٥٤١ / ١١٤٦ حدثاً مهماً وانجازاً كبيراً لشخص الاتابك : فقد كانت الموصل والجزيرة والشام قبيل ظهور زنكي تعيش حالة من الفوضى وعدم الاستقرار لا يوجد ما يشبهها في مناطق العالم الاسلامي كله^(٥) ، فكانت بأحوج ما يكون الى قائد يعمل على وضع حد لحالة الفوضى هذه ، وكان الحل يكمن في شخص عماد الدين زنكي الذي كان يبحث عن مركز مهم وثابت لتطلعاته ، بعد حالة الضجر التي ظلت تنتابه من جراء تحرك قواته الدائمة داخل دولة الخلافة ، التي كانت تخضع لأشراف والي الموصل آق سنقر البرسقي وتوجيهاته وتضطلع بمهام عديدة وعاجلة ضمن مناطق نفوذ السلطنة السلجوقية^(٦) .

ترتبط حالة الفوضى في المناطق الشامية والموصل بظاهرة تعدد حكام وولاة السلاجقة ، فهي تسود معظم ، ان لم نقل كل ، المدن الشامية التي تخضع لحكمهم ، ولو بالاسم وحده . ويرجع السبب في ذلك الى ان هذه المنطقة لم تشهد منذ انتهاء عهد السلاجقة^(٧) زمن ملكشاه قيام اية سلطة مركزية واحدة تخضع لها الولايات والمدن الشامية المتعددة وتلتزم بأوامرها . ومع ان هذا السلطان كان قد نجح في توحيد مناطق الموصل والشام تحت حكم السلاجقة مؤقتاً ، الا انه هو الذي ازال بأسم السلطة المركزية مجموعة الامارات والدول التي كانت تحكم باستقرار ولايات المنطقة وتمثلها ، كالامارة العقيلية في الموصل وحلب ، والدولة الروانية في ديار بكر^(٨) . وقد نجح الملك تنش بشكل مؤقت ايضاً في اعادة عمل اخاه ملكشاه في توحيد مناطق دمشق وحلب والموصل وديار بكر من بين مناطق اخرى الى مملكته ،

الا ان ذلك لم يَدُم طويلاً ، اذ قُوَّت عليه فرصة حكم مثل تلك المملكة في اثناء نزاعه على السلطنة مع ابن ملكشاه الكبير بركياروق ، الذي نجح في التخلص من عمه تتش عشية الغزو الصليبي للمنطقة . وهكذا توزعت مملكة تتش بين ولديه واتابكتهم : دُقاق ورضوان وطفكتين ، وعدد من امراء البيت السلجوقي ومن امراء الجيش من طبقة المماليك والغلمان^(١٠) .

ولم يختلف وضع الموصل عن ولايات ومدن الشام في ظاهرة تعدد الحكام ايضاً بعد زوال حكم العقيليين العرب عنها . وقد حانت لها فرصة من الاستقرار اثناء ولاية قسيم الدولة آق سنقر البرسقي والمكلف بمتابعة الحرب ضد الصليبيين . ولكن هذه الفرصة ضاعت ايضاً عندما تمكنت جماعة مكلفة من الياطينية (الاسماعيلية) باغتيال هذا الامير في قلب الموصل نفسها سنة ٥٢٠ / ١١٢٦^(١١) . وكان والي الموصل يكلف من قبل السلاجقة بمتابعة حرب الجهاد التي كانت تضطلع بها حالياً دمشق بشخص الاتابك طفتكين .

وبالرغم من ان هؤلاء الامراء كانوا يمثلون السلطان السلجوقي في ولاياتهم ويعترفون بسلطته عن طريق الخطبه له ، الا انهم كانوا على حالة لا يحسد عليها من الاستقلال والتصرف بعد تأمينهم الواردات للسلطان . ويسبب ذلك فقد سيطرت حالات الحسد وروح المنافسة والنزاع على موقف هؤلاء الامراء الى حد انها كانت تقرر نوع مواقفهم في قضية مثل حرب الجهاد وتحالفاتهم ازاء هذا الامير او ذاك ، ثم التغير بسرعة فيما بعد ، رغم ان حرب الجهاد لها خصائصها العامة المشتركة ، مثلاً ، كان والي الموصل الجديد مسعود يتحمل مسؤولية حرب الجهاد ، الا ان ما كان يتطلع اليه وراء المشاركة فيها هو تملك المناطق الشامية الخاضعة لحكم طفتكين كما يشير الى ذلك ابن

القلانسي^(١٢) . ويشترك امراء التركمان بمثل هذه الخصائص من انهم كانوا يشكلون احد العناصر الرئيسية المشتركة في حملات الجهاد ؛ وقد قدموا من اجل ذلك منتهى التضحيات اللازمة خلال سير هذه الحملة ، ولذلك لا توجد ادنى دهشة في تلك اميرها بتقديم المساعدة اللازمة الى غريمه عند تعرضه لخطر خارجي^(١٣) ، كالتحدي الكبير الذي جاءت به الحملة الصليبية الاولى الى بلاد الشام في ٤٩٠ / ١١٩٦ ، والنجاح الذي ادى الى تكوين الامارات الصليبية الاربعة ، بالرغم من ان خصائص الوضع بين الصليبيين لم تكن تختلف عن الخصائص السائدة بين حكام المدن والولايات الشامية ، اي حالات الحسد والمنافسة القائمة بين لوردات الصليبيين وباروناتهم ، وبين البعض منهم والبيزنطيين من جهة اخرى وانعدام تمثيلهم بدولة قوية واحدة^(١٤) . ولذلك سرعان ما اثرت الخصائص السياسية لمنطقة الشام على تصرفات الصليبيين ومواقفهم السياسية والمشاكل التي تترتب على ذلك من محالفات وغيرها .

وقد قلب عماد الدين زنكي بصفته اتابك وحاكم على الموصل والجزيرة والشام هذا الوضع بنجاحه في تكوين « دولة الاتاكة » من بين تلك المدن والولايات المجزأة . والاهم من ذلك في عدم سماحه بتكرار حالة الفوضى وعدم الاستقرار التي عاشتها المنطقة مرة اخرى ، الى حد انه عندما حدث اغتياله في ٥٤١ / ١١٤٦ لم يُصَب الدولة الفتية من الاضرار الا مبدئياً ، بالرغم من ان اعداء الاتابك حاولوا اقتسام ممتلكاتها ، وسرعان ما قام ابنه الموهوب نورالدين محمود بتكملة العمل بنجاح . فكيف حدث هذا واي من العوامل والمتغيرات ساعدت زنكي على تحقيق هذا الوضع الجديد للمنطقة ؟

كان عماد الدين زنكي قبل قيامه بدور الاتابك لولدي^(١٥) السلطان محمود وبدء ولايته على الموصل في

٥٢١ / ١١٢٧ قد خدم ضمن تشكيلات الجيش السلجوقي وتدرج في الرتبة العسكرية الى وقت وصوله رتبة امير في الجيش . وكانت علاقته مبنية بشكل خاص مع امراء الموصل ممن كانوا قبل ذلك اما زملاء في العمل مع والده قسيم الدولة آق سنقر^(١١) او ضمن تشكيلات قوته كالامراء من ولاية الموصل كربوقا وشمس الدولة جكرمش ومودود بن التونتكين . الا ان نقطة التحول في حياة زنكي جاءت عندما ارتبط بآق سنقر البرسقي^(١٢) ، الذي كان يكلفه بشئى الواجبات والاعمال داخل العراق ابان اشغاله لولاية الموصل وشحنكية العراق خلال حكم السلطان محمود كأعمال ولايتي واسط والبصرة ، وبعض المهمات الحربية ضد عدد من الامراء المتمردين كدبيس امير الحلة ، وتوليته العاجلة لشحنكية العراق بعد عودته من دركاه السلطان^(١٣) . وكانت هذه المهمات وحدها كافية لأن تؤهل زنكي لأشغال اي منصب مهم ضمن اعمال السلطنة السلجوقية من تلك التي تستدعي رضا وموافقة السلطان . الا ان تطلع زنكي كان موجهاً نحو اشغال ولاية الموصل التي يرتبط بولاتها بأوثق الصلات .

يدين عماد الدين زنكي بمنصب ولايته على الموصل الى سمعة والده آق سنقر المتميزة ، وهو الامير الذي يعترف بفضل في خدمة السلطنة السلجوقية بشخص السلطان ملكشاه ، والى شخصية زنكي وقدراته العسكرية والسياسية المرتكزة على المناورة والمراوغة مع الادارة السلجوقية ، فكان من السهل عليه مثلاً التخلص من منافسه الضعيف على هذا المنصب وهو اخ صغير للامير الراحل مسعود لولا وجود جاولي المستأثر بالحكم بوصايته عليه . ولذلك لم تصبح الولاية من نصيب عماد الدين زنكي الا بعد ان أمّن وفد مؤلف من ثلاثة اعضاء^(١٤) كان قد ارسلهم زنكي الى بغداد للتفاهم مع انوشروان بن خالد ، وزير السلطان محمود

آنذاك هو الترشيح زنكي حيث تقرر ان يقدم الوزير هذا الترشيح مقابل معطيات مالية مجزية يتقدم بها زنكي للادارة السلجوقية والسلطنة ، وبعد ان ضمن الثلاثة بدورهم مراكز عالية في ادارة زنكي الجديدة^(١٥) ويشمل ذلك منشور^(١٦) التولية ، الذي صدر في رمضان ٥٢١ / ١١٢٧ على « الموصل والجزيرة ونصيبين وما كان بيد البرسقي »^(١٧) ضمن بلاد الشام .

كان عماد الدين زنكي مؤمناً بتكوين دولة يتزعمها ، يطلق عليها ابن الاثير « الدولة الاتابكية » لخدمة طموحاته التي كانت موجهة لمعالجة مشكلة الصليبيين بالدرجة الاولى . . . الا ان تكوين هذه الدولة كان يعني التوسع على حساب الامراء المحليين ، الذي لم يجد زنكي تردداً فيه لان سياسته تجاه الامراء والحكام المنافسين لمركزه كانت تستقر على الاعتقاد بأن المعارضة المحلية ضمن منطقة حكمه والمناطق التي تحيط بها يجب ان تجث وتقطع ،^(١٨) بغض النظر عن ردود الفعل التي سيثيرها هؤلاء الامراء تجاه محاولته المرتقبة . ففي التوسع الجغرافي ، كان ذلك يعني توجه حملات زنكي نحو المناطق التي تخضع لحكم الارتقين التركمان في ديار بكر وجزيرة ابن عمر ، ونحو مخلفات مملكة تش في دمشق وحلب برئاسة طفتكين ، وما الى شملها وجنوبها من مناطق خاضعة للصليبيين والبيزنطيين ، ولم يضع الوالي الجديد وقته منذ صدور المنشور بولايته للعمل على تكوين نواة اتابكيته .

بدأ زنكي بالقوة التي تحت امرته بجولة من الحملات السريعة المفاجئة ، فأنتهى أولاً خطر جاولي بتعويضه منطقة الرحبة مؤقتاً ؛ ثم قام بنفس السنة ٥٢١ / ١١٢٧ من مد نفوذه على جزيرة ابن عمر ونصيبين وسنجار وحران . وجاءت نقطة التحول في حملاته سنة

٥٢٢ / ١١٢٨ عند عبور عماد الدين زنكي الفرات لأخذ حلب ، التي كانت مهددة بالسقوط بيد الصليبيين والتي كانت في حالة تامة من الفوضى ، لم يغب عن بال زنكي استغلال اوضاعها لصالح نجاح مهمته ؛ اعقبها في ٥٢٣ / ١١٢٩ بأخذ حماه التابعة لدمشق بحجة الجهاد ضد الصليبيين^(١١) . وقد كانت هذه المناطق كافية لتكوين نواة الاتابكية التي عمل زنكي على تثبيت اسسها بنجاح ، ويلاحظ بأن توسع زنكي كان محصوراً في المناطق العربية والتركمانية من الموصل والجزيرة وديار بكر وشمال سوريا لمحاذاتها لمناطق التوسع الصليبي في الشام . ولكن يلاحظ ايضاً بأن عماد الدين زنكي لم يوجه حملاته صوب اذربيجان او فارس مثلاً ، التي كانت تقرر مستقبل السلطنة السلجوقية ، لان محور اهتمام زنكي كان باتجاه مناطق النفوذ الصليبي ولم يكن مهتماً بقضايا النزاع التي تدور بين امراء السلاجقة حول السلطنة الا بقدر ما يقرر هذا النزاع شأن اتابكيته .

وكان نموذج دولة الاتابكة يعني تصميم عماد الدين زنكي على الاحتفاظ بوضعه الجديده مهما كانت الصعوبات ، وذلك بعدم التساهل مع اي تغير قد يسبب اقالة شخص الاتابك وهذا التغير كان يتسبب نتيجة لغضب السلطان الشخصي عليه لصالح مرشح جديد للولاية ، او بسبب حدوث شيء ما لشخصه نتيجة لفعاليات الباطنية^(١٢) في المنطقة التي تخطط لاعمال الاغتيالات السياسية وتحترفها ، رغم الضربات الموجهة التي وجهت اليها^(١٣) . والمعروف ان زنكي كان كثير الحذر من مثل هذه المحاولات وقد طور حرسه الخاص كوسيلة من وسائل هذا الاحتراز . بينما كان السلطان السلجوقي يأمل من زنكي ومن غيره من الامراء ان يتقدموا بأداء صنوف الطاعة الى شخص السلطان وعدم العصيان عليه بأرسال احد اولادهم من الذكور الى الدركاه كرمز لهذه الطاعة ، اضافة الى تأدية ما يترتب على الامراء من

شروط الخدمة من تلك التي تتمثل بمساهمات مالية وعسكرية لازمة لحملات السلطان اما بالحضور شخصياً الى الدركاه او بأرسال قوة عسكرية الى هناك لتمثلهم برئاسة احد المقدمين . ولم ينخل عماد الدين زنكي بأداء هذه الواجبات طيلة وجود السلطان محمود على رأس السلطنة مستفيداً من وضعه كأتابك لولدي هذا السلطان ، وبالأموال الجمة التي كانت تحت تصرفه . ولكن علاقة زنكي بكل من السلطانين طغرل الثاني ومسعود ظلت تتأرجح طبقاً لمصلحة الاتابك العليا والامراء الذين في معيته . وكان مسعود قد شهر العداء لزنكي واراد التخلص منه لانه كان ينسب الى الاتابك مسؤولية كل المشاكل التي يواجهها في سلطته من الامراء . وبعد استقراره نهائياً في السلطنة ، توفرت لمسعود فرصة للتوجه شخصياً بحملة كبيرة الى الموصل لتصفية خلافاته مع زنكي ، ولكن السلطان تخلى عن هذا المشروع بعد ان تقدم بمبالغ مالية كبيرة لشخص السلطان^(١٤) . وكان بإمكان زنكي من جانبه ان يبقى بعيداً عن مركز السلطنة متى ما اراد بحجة انشغاله بحرب الجهاد التي يترأسها الان عملياً . يضاف الى ذلك بأن علاقة زنكي بالسلطان كانت تتأثر بعامل جديد لم يكن يدخل في حساب واضعي السياسة السلجوقية ايام عهد السلاجقة ، وهو دور الخليفة في تحديد الاتجاهات السلجوقية وفي تعيين الولاة على اثر قيام الخلفاء العباسيين بممارسة سياسة النهوض والاستقلال بالخلافة التي طور سياستها ثلاثة خلفاء من معاصري عماد الدين زنكي هم كل من المسترشد والراشد والمقتفي بالتابع . وكانت هذه السياسة تستهدف طرد السلاجقة من بغداد ومباشرة الخليفة لمهام الامور بنفسه عن طريق احتفاظ الخلافة بجيش خاص بها وقيادة الحملات شخصياً وتحقيق الاستقلال المالي ، تلك السياسة التي حولت اهتمام السلطان صوب بغداد اكثر من اي شيء اخر كحرب الجهاد للحفاظ على امتيازات

السلاجقة هناك^(٢٨) . وكان زنكي في المنطقة التي يتحكم بها مصدر المشاكل بالنسبة لهؤلاء السلاطين والخلفاء بعد تمرّكه في ولاية الموصل ونجاحه في تكوين دولة الاتابكة هناك . ولكن الاتابك كان قد ترك بالتدريج امر التدخل في شؤون السلطنة والخلافة لصالح مسألة حرب الجهاد التي يسعى لمتابعتها .

على اية حال ، فقد اعطى الوضع الخاص بالسلطنة زنكي ما يتوفر له من وقت لازم لأن يقوي اسس الدولة الجديدة (التي تكونت بفضل حملاته العسكرية الناجحة) ، من تكوينه جيش خاص بالاتابكة الى نظام مستقر للأدارة على طريقة زنكي السياسية في الحكم . وكان زنكي شخصاً مهماً في تقرير امور السياسة السلجوقية ، ولكنه لم يكن مولعاً في ربط مصيره بمستقبل السلطنة^(٢٩) ، بالرغم من ان صفة وضعه كاتابك كانت تسمح له بالمنافسة مع بقية الامراء الكبار عن طريق ترشيح احد اولاد السلطان محمود لها ، والسبب في ذلك يرجع الى ان زنكي كان في طريقه لان يصبح « سلطاناً غير متوجاً » ، دون ادنى حاجة لمنزلة الاتابك لولا مقتله المفاجيء الذي جاء في اعقاب تحوله الى اهم شخصية في المنطقة على اثر انتصاره في الرها على الصليبيين . الا ان المعارضة الحقيقية لعماد الدين زنكي كانت تصدر دائماً من جهة الامراء والحكام المحليين ممن كانت مصالحهم تتهدد بالضرورة لسياسة زنكي في التوسع والجهاد .

وواضح ان عماد الدين زنكي لم يتمكن من التخلص من كل القوى التي كانت تعارض تطلعاته من زاوية حرب الجهاد كالحادثة التي تسببت في مقتله عشية محاولته التخلص من احدى هذه الحلقات^(٣٠) ؛ فمثلاً ، كانت دمشق ، اهم تلك القوى المنافسة ، تحكم من قبل افراد اسرة طغتكين ونتمتع من وجهة نظر المسلمين والصليبيين بأهمية سياسية

وإستراتيجية كبيرة ، ولكن زنكي لم يفلح في ضمها الى دولته رغم محاولته العسكرية والسياسية التي وقعت خلال سني ٥٢٩ / ١١٣٥ ، ٥٣٢ / ١١٣٨ ، ٥٣٣ / ٥٣٤ ، ١١٣٩ / ١١٤٠ ، وفي ٥٤٠ / ١٠٤٥^(٣١) ؛ كذلك في عدد من محاولاته مع امراء الارائقة من الذين لم تؤثر فيهم حملات زنكي العسكرية او مصاهرات الزواج التي عقدها معهم كالامير حسام الدين تمرتاش ، صاحب ماردين وحليف جوسلين الثاني ، امير الرها وغريم عماد الدين زنكي ، بالرغم من ان اسلوب المحادثات هذا كان مسموحاً به من قبل واضع السياسة الزنكية ، زنكي نفسه .

يرجع اهتمام المؤرخين المسلمين بسيرة عماد الدين زنكي الى ما حققه هذا الاتابك في مجال حرب الجهاد « كغازي » و « بطل » من ابطال الاسلام العظام ، بينما يرجع بغض الصليبيين له الى اجهازه الكبير عليهم في الرها ، اول الامارات الصليبية التي اختفت من خارطة بلاد الشام السياسية ، التي بسببها جاء تنظيم الحملة الصليبية الثانية : فإذا كان العماد الأصفهاني ينص على ان عماد الدين زنكي هو « قطب يدور عليه فلك الاسلام »^(٣٢) ، تنعته بعض المصادر المسيحية ، على عكس ما هو معروف عن الاتابك « بالجن » و « الغدر » لانه في هجومه على الرها ضيق واجهز عليها كزحف الثعابين على فريستها^(٣٣) . واذا كان زنكي قد اراد من تكوين دولة خاصة به ان يكون هو على رأسها في الحكم من اجل تخصيص موارد وطاقات تلك الدولة لمحاربة الصليبيين واجتثاث حصونهم وقلاعهم من الشام فلماذا كان مهتماً بحرب الجهاد وما طبيعة وخصائص سياسته بهذا الخصوص ؟ سنستعرض أولاً وضع الصليبيين في بلاد الشام والمشاكل الرئيسة التي كانت مسؤولة عن هزائم المسلمين امامها ، ثم نتعرف على طبيعة وخصائص واهداف

سياسة زنكي في الجهاد حتى يتمكن من تقويم مساهمات زنكي في هذا الحقل .

لقد نجح الصليبيون قبل مجيء عماد الدين زنكي في تثبيت قواعد الحكم في الامارات الصليبية الاربعة التي تم تكوينها في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس بمساحة تمتد ما بين ماردين من الشمال الى العريش في الجنوب ، بحيث لم يبق طبقاً لقول ابن الاثير مما يحتفظ به المسلمون من ولايات الا حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض الاعمال والحصون التابعة لها^(٣١) ؛ كما مدّوا سيطرتهم على الموانئ الساحلية لبلاد الشام (باستثناء عسقلان) ، للحفاظ على خطوط مواصلاتهم الدفاعية مع اوربا ، التي تحرسها وتمدها اساطيل المدن الايطالية . واخيراً جدد الصليبيون في بناء عدد من القلاع الداخلية لاستعمالها لاغراض الدفاع والهجوم على مدن بلاد الشام والجزيرة بحيث اصبحت اعداد من المدن الامامية التي بقيت في حوزة المسلمين مهددة بالسقوط ، رغم دفع الضرائب المباشرة للصليبيين ورغم الاموال الجمة التي كانت تقدم لحكامهم بأمل الحفاظ على حياة وممتلكات سكانها^(٣٢) . . . وقد كانت هذه التغيرات بحد ذاتها كارثة كبيرة لسكان بلاد الشام ، التي لم يدرك خطورتها المسلمون في مناطق العالم الاسلامي الاخرى الا تدريجياً ، وبأجراءات عسكرية عاجلة لتهدئة خواطر المنكوبين وويلاتهم : فقد تمت تصفية مجتمعات هذه الولايات والمدن التابعة لها بمذابح جماعية لسكانها من العرب - المسلمين وحلت محلها مجتمعات كاثوليكية من الفرنج مكونة من جماعات اللوردات والبارونات والقساوسة والتجار وعامة الناس ، وتجمعت لديهم ثروات طائلة جداً لم يحلم الاوربيون بامتلاكها في يوم من الايام بدون التصفية للحاجات وممتلكات سكان هذه المجتمعات . . . وبأختصار كان الصليبيون قبل مجيء عماد الدين زنكي يعيشون قمة انتصاراتهم ، وفي وضع الهجوم ،

وييدهم زمام المبادرة في قيادة الحملات^(٣٣) ، التي لم تتوقف بالاندفاع نحو مدن الشام الداخلية .

وعلى العكس من ذلك ، كان الوضع في المدن والولايات الاسلامية ، الذي يتسم بالفوضى وعدم الاستقرار ، كما نوهنا سابقاً ، نتيجة ما اصابها من تفكك بعد سقوط مملكة تنش السلجوقية ، فكانت انتصارات الصليبيين باعثاً على اثاره الفزع والخوف في سكان المدن التي ظلت بحوزة الامراء المسلمين ، بحيث نقرأ في المصادر عن هجرات كثيرة للفلاحين والمزارعين من قراهم ومدنهم وعن استغاثات لانقاذ سكان هذه المدن دون جدوى^(٣٤) . وكانت حالة الخوف من السقوط بيد الصليبيين واضحة بشكل خاص في حلب ، التي كانت تحمل في نظر كلب ميزان التوازن بين الجماعات المسيحية والاسلامية ، والتي عولجت من قبل عماد الدين زنكي مباشرة^(٣٥) . وكل هذا يدل على ان مشكلة المسلمين الرئيسية ازاء الصليبيين كانت تدور حول افتقارهم الى قيادة ثابتة تقود سير حملات الجهاد ضدهم ، والتي لم تنجح لحد الان في معالجة التوسع الصليبي واحتوائه .

ولم تكن المشكلة بالنسبة لحرب الجهاد مع الصليبيين اي نقص في عدد المقاتلة المسلمين او في تغلب الصليبيين عليهم بكثرة العدد ، فقد كان للمسلمين سيلٌ من المقاتلة والمتطوعة التركمان المتحمسين للجهاد بصفة خاصة ، ما يغمر به الامارات الصليبية الاربعة مجتمعة ، بالرغم من ان الامدادات البشرية من الفرنج كانت تصل باستمرار للصليبيين على شكل فرسان ومحاربين . كما لم تكن المشكلة ايضاً اي نقص في حماس الامراء الديني عند مواجهتهم لقوى الصليبيين او منازلة فرسانهم : فقد كانت هناك بأسم الجهاد حملات اسلامية يكلف بها السلطان والي الموصل او نظيره من عمال السلاجقة لمعالجة اعتداءات الصليبيين وتهديداتهم

للمدن الشامية المستهدفة . ولكن هذه الحملات لم تتوقف في درء خطر الصليبيين عن المدن والولايات الاسلامية ولا حتى مؤقتاً ، وكل ما ينتج من هذه الجهود في حالة الانتصار هو اخذ اعداد لا بأس بها من اسرى الصليبيين وامرائهم لادامة روح الحماس والتفاوض . اما في الحالات العامة فكثيراً ما كانت تتحول هذه الحملات الى هزيمة موجهة لامراء المسلمين المشاركين في الحملة بسبب الاختلافات التي تحدث بين امراء الجيوش ممن حصل على نصيب المشاركة والتي قد تؤدي الى التحاق احد من هؤلاء الامراء الخارجين بالعدو الصليبي كما حدث في حملات سنة ٥٠٥ هـ و ٥٠٨ هـ لكل من رضوان وطفنكين وايلغازي ، وكل ذلك بدون شك يعكس حالة التجزئة وفقدان القيادة الحازمة لسير هذه الحملات ونجاحها^(٣) . وقد جَهَّز عماد الدين زنكي بأتاكيته القاعدة اللازمة لتحقيق الاستقرار ، وبشخصيته القيادة التي تتمكن من قلب الموازين لصالح المسلمين . فلا غرابة في عودة الاستقرار الى سكان المناطق المستهدفة تدريجياً وفي تحول زنكي من واجب الدفاع عن المدن الاسلامية الى الهجوم على مراكز الصليبيين الامامية ، الامر الذي سبب في استعادة القلاع والمدن الشامية تدريجياً ابتداءً بحصن الاثارب في ٥٢٤ / ١١٣٠ . الا اننا يجب ان ننبه الى ان هذا التحول في وضع المسلمين لم يأت نتيجة لجهود زنكي وحدها ، وانما يدخل في ذلك جهود عدد من الامراء المعروفين في مجال محاربتهم للصليبيين ومقاومتهم قبيل استلام زنكي للمسؤولية .

لم يكن عماد زنكي اول حاكم بين حكام السلاجقة ممن نادى بسياسة الجهاد ضد الصليبيين وطلب تطبيقها ومتابعتها ضدهم لضمان نجاح المسلمين عسكرياً وسياسياً ، فقد كانت هذه المسألة من الواجبات المفروضة على كل مسلم

تابع لهذا الدين الحنيف . كما لم تكن عملية التطبيق والمتابعة هذه وفقاً على احد من الامراء دون غيره ، بالرغم من ان الاوامر المرسلة لهم في هذا المجال كانت تصدر باسم الخليفة والسلطان معاً ، فقد كان التركمان ورؤساؤهم من اخلص الامراء في محاربة الصليبيين ، ولكن تحمل المسؤولية اصبح بالتدريج من مهام ولاية الموصل ودمشق وامراء التركمان بسبب اوضاعهم الاستراتيجية والعسكرية والمالية التي يمثلونها ، ويسبب قربهم من الصليبيين وتهديداتهم بواسطة سياسة التوسع التي يمارسونها انطلاقاً من قلاعهم وحصونهم الامامية . ففي هذا الاطار ظهرت شخصيات لا تقل اهمية عن عماد الدين زنكي وسبقته في اداء واجب الجهاد على خير ما يجب ، مثلاً ، الامير طفتكين ، حاكم دمشق ، كان كزنكي اتابكاً ومجاهداً جيداً ، فكان اهم شخصية في حرب الجهاد خلال سنوات الربع الاول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي (ت ٥٢٢ / ١١٢٨) ، بالرغم من محالفاته الاولى التي عقدها مع الصليبيين^(٤) . وقد حدث هذا عند اضطلاع عماد الدين زنكي بأعمال ولاية الموصل ، الذي عوّض بظهوره عن عمل هذه الشخصيات ووفر القيادة اللازمة لنجاح مهمة الحرب مع الصليبيين . ولكن هناك فرقاً اساسياً بين ما عمله عماد الدين زنكي في هذا المجال وبين ما انجزه سابقوه من الامراء في ان زنكي كان قد نجح في اثارة روح جديدة للمقاتلين تناسب مع روح وطبيعة حرب الجهاد ، وفي انه قلب الموازين على الصليبيين بواسطة اتاكيته التي ساعدت بإمكاناتها الكبيرة على اخذ زمام المبادرة من الصليبيين ، بعد تخلصه الى حد ما من حالة التمزق المسؤولة عن اخفاق المحاولات السابقة . ويرجع السبب في هذا الى ان عماد الدين زنكي كان قد تهيأ لمواجهة الصليبيين منفرداً ، فلم تكن تتوفر لهؤلاء الامراء الامكانيات التي توفرت لزنكي على

شكل دولة الاتاكية ، كما انهم كانوا يعترفون بحالة من التعايش مع امراء الصليبيين قاداتهم. فلم يكن في محاولاتهم شيء من التسرع ، بل كانت تعتمد على ما تسنح لهم الفرص من حملات لاستعادة ما فقد منهم في جولاتهم السابقة بعد تخرشات الصليبيين بأحد المراكز التابعة لهم ، بخلاف عماد الدين زنكي ، الذي كان يرى بأن هذه المهمة تشكل الحجر الاساس في واجباته الحربية لأن زنكي كان قد ربط مصيره بحرب الجهاد ، ولكنه كان مجبراً على التريث في المجابهة الى وقت استكمال الاستعدادات اللازمة حتى لا يتعرض للهزيمة التي ميزت عمل سابقيه من الامراء ، وحتى يتمكن من توجيه الضربات الموجهة لهم بنجاح ، تلك الاستعدادات التي كانت تتطلب منه معالجة موقف الامراء المحليين أولاً . الا اننا يجب ان ننوه ايضاً بأن استلام عماد الدين زنكي لمسؤوليات حرب الجهاد لم يبلغ من واجبات نظرائه من الامراء في تجهيز حملات مماثلة ، عادة لمواجهة توسعات الصليبيين في مناطق نفوذهم ، مثلاً الحملة التي قادها الامير بزاوش ، مقدم العساكر الدمشقية ضد فرنج طرابلس الشام في ٥٣١ / ١١٣٧ بالتعاون مع جمع من المتطوعة والتركمان^(١) ، او الهجوم الذي قام به التركمان قبل ذلك^(٢) (٥٢٧ / ١١٣٣) على طرابلس نفسها بحيث اوشكوا على اخذ قلعة بعين الحصينة ، الذي لم يتحقق الا على يد عماد الدين زنكي في ٥٣١ / ١١٣٧^(٣) . ولكن ما هي الاسباب التي كانت تدعو عماد الدين زنكي الى الاهتمام بحرب الجهاد ومقاومة الصليبيين وما هي سياسته في هذا الصدد ؟

كما قلنا ، كان عماد الدين زنكي قد ربط مصيره بحرب الجهاد وليس بمستقبل السلطنة ، ولكنه كان يترث في منازل الصليبيين حتى تنقر قواعد حكم اتاكية وحتى تستكمل مهمة تهيئة وتوسيع حجم الجيش الذي يضطلع

بمهمة الجهاد . وكان زنكي ، بالطبع ، اميراً متحمساً للجهاد ولا يتردد في اخذ الاجراءات اللازمة من اجل مقاومة الصليبيين ودرء اخطارهم ولكن زنكي كان يستعمل حرب الجهاد كوسيلة من وسائل التوسع لدولته الاتاكية ايضاً ، فقد كانت هذه الحرب بالنسبة لزنكي تفتح مجالاً للتوسع في جبهتين متداخلتين : «١» المدن والقلاع التي كانت تخضع لحكم الامراء المحليين من الذين تصدوا لسياسة زنكي وتوسعه في الشام ، او من الذين رفضوا الاعتراف بسيادة زنكي عليهم من الاتاكية والتركمان وامراء العرب ، كأتابك دمشق وبعض من امراء الارائقة وبقي منقذ ، ٢) القلاع والمدن التي كانت في حوزة الصليبيين ، كان سقوطها ، يد زنكي يسبب سمعة كبيرة له كمجاهد وغاز ،

والتي تساعد بدورها على التخلص من ضغط السلطنة عليه عن طريق السمعة التي يحصل عليها والاموال التي تأتي بها نتائج هذه الحملات (مع ان السلب والنهب او الاثراء الشخصي على حساب الصليبيين لم تكن من صفات عماد الدين زنكي اولها دخل بحملاته كمجاهد) ؛ ذلك ان حكام الولايات من الذين واجهوا خطر السقوط بيد الصليبيين كانوا يخشون قوة مثل تلك التي يمثلها عماد الدين زنكي بأن تأتي الى نجدتهم ، لانه في حالة دعوته لقوة من هذا النوع لتقديم المساعدة اللازمة لهم في مجابهتهم مع الصليبيين ، فإن قوة زنكي هذه سوف تستحوذ على المنطقة التي دعيت اليها وتضمها الى ممتلكات سيدها الاتابك ، فمثلاً ، في ٥٢٤ / ١١٣٠ تظاهر عماد الدين زنكي بجهاد الصليبيين فاستجاب له الملك بوري ، حاكم دمشق ، فيما كان من زنكي الا ان اوقع به وملك حماة التابعة ادارياً لدمشق^(٤) . . . ونفس الشيء يقال عن المخاوف التي لازمت زنكي عندما تقدم الى السلطان مسعود بطلب المساعدة العاجلة بعد التهديد البيزنطي - الصليبي الكبير لمدينة الشام

(حلب) ، على اثر نجاح زنكي في اخذ قلعة بعين من الصليبيين في ٥٣١ / ١١٣٧" ، ولم يتخلص زنكي من تهديدات مسعود بالزحف صوب المناطق التابعة لزنكي (باسم المشاركة في الجهاد . ، الا بعد شراء عماد الدين ذمة السلطان بمبالغ مالية مجزية . الا ان زنكي كان محققاً في نوع الاجراءات التوسعية التي يقوم بتبنيها ضد الامراء المحليين لانهم كانوا مسؤولين عن تبلور شتى صنوف الخلاف بين جماعة الامراء من المشاركين في حملة الجهاد ، وذلك في اللحظات الحرجة التي كان المسلمون يتوقعون تسجيل انتصار لهم على الصليبيين مثلاً . وكان زنكي يهاجم ممتلكات احد الامراء المحليين ممن يقف حجرة عثرة بوجه توسعته او في استقرار اناطكيته بعد كل انتصار يحققه على الصليبيين . ولم يكن عماد الدين زنكي بغافل عن علاقة هذه الخلافات بهزائم المسلمين المتكررة قبله ؛ فكان مصمماً ، بهذه السياسة على عدم تكرار مثل هذه الامور تحت زعامتهم كان في ذلك تهديد مباشر لمصالح الامراء المحليين وامتيازاتهم .

هناك اذن بعض التضارب في سياسة عماد الدين زنكي الخاصة بالجهاد : فبينما كانت هذه السياسة تتطلب منه ازالة العقائل التي تقف بوجه نجاح حروبه مع الصليبيين ، اي التجزئة وتعدد القيادة متمثلة بتلك القوى التركمانية والمحلية المجاورة لاناطكيته والتي تمكن منها زنكي باستثناء حكم اسرة طغتكين وبعض الامراء من العرب والتركمان ، كانت نفس السياسة تستقر على مبدأ الجهاد وتنتفع منه ، التي تتطلب نلية نداء الجهاد متى ما طلب منهم ذلك وهم في هذه الحالة تحت قيادة زنكي الذي يدعو الامراء عن طريق مراسلاته الى الالتحاق به لغرض تحويل التزاماتهم الى مواقف عسكرية وسياسية ثابتة .

على اية حال ، فقد كانت سياسة عماد الدين زنكي

بمسألة الجهاد تقضي الضرب أولاً بشدة في تلك المناطق الصليبية المتاخمة لحدود الولايات الشامية والتي تشمل على عدد من القلاع والحصون الدفاعية - الهجومية كالاثارب وحارم وبعين وغيرها (عادةً بواسطة قوة زنكي النظامية او بالحملة التي يضطلع بها أمراؤه ، وبواسطة تلك القوى التي تليها واجب الجهاد من الذين يؤدون نداء زنكي اما اختياراً او خشيةً من بطشه) ، ثم التحرش فيما بعد بممتلكات الامارات الصليبية الاربعة مباشرة ، خاصة تلك التي تخص امارتي الرها واناطكية^(١) . ولكن عماد الدين زنكي لم يكن مولعاً من وراء حشد هذه الطاقات بتكوين جبهة اسلامية كما تدعى دراسة عماد الدين خليل عن زنكي لان مثل هذه الجبهة لم تكن قائمة ولا يوجد لها من اساس في سياسة زنكي ، بالرغم من وجود بعض من الحقيقة لها في الفترة التي سبقت حكم الاتابك عندما كان سلطان السلاجقة محمد يدير حرب الجهاد^(٢) . صحيح ان الامراء المسلمين كانوا يحاربون من اجل قضية عامة مثل الجهاد ، ولكن لم تكن هناك جبهة بهذا الاسم زمن عماد الدين زنكي : فاناطكية دمشق ، التي تلعب دوراً مهماً في سياسة المنطقة على مستوى الصليبيين والمسلمين سوياً ، كانت لها وجهة نظرها في هذا الموضوع ، وكانت سياسة عماد الدين زنكي تستهدف الاستحواذ على دمشق ومحلاته غير الموفقة لضمها تعكس هذه السياسة حتى اواخر ايام حياته ؛ ثم ان الامراء التركمان كان لهم نشاطهم الخاص وميزاتهم الحربية الخاصة بهم ، التي من اهمها عدم الاعتراف باية قيادة ليس لهم ارتباط بها ، كما كان زنكي يقوم بالتوسع في اراضي امرائهم تدريجياً ؛ وكان سلاجقة الروم لهم مشاكلهم ومشغولون في استعادة ما فقدوه للامبراطور بوحنا كومنين ؛ وانخيراً كان الفاطميون في نظر السلاجقة هراطقة المسلمين . وكانوا فرحين بالهزائم التي حلت بالسلاجقة على يد

الصلبيين . وقد وجدت مثل هذه الجبهة بين البيزنطي والصلبيين عندما عرض عماد الدين زنكي ممتلكات امرائهم للخطر ، كما تم اقتراح مثل هذه الجبهة بين اوربا والمغول عندما اضطلع المماليك البحرية بواجب الجهاد ، الا ان عماد الدين زنكي لم يعمل على تكوين مثل هذه الجبهة وليس هناك في سياسته ما يؤيد ذلك ، مع ان هذا لا يعني بأن الاتابك لم ينتفع من حرب الجهاد ومن مواقف عدد من الامراء منها تلبية لنداءاته عند تعرضه للخطر او للهجوم او في اثناء تعرض الآخرين غير زنكي للهجوم من الصليبيين وتلبية لدعوة السلطان بذلك .

وللتوضيح عملياً بامثلة نقول بأن اول انتصار لعماد الدين زنكي على الصليبيين كان في حصن الاثارب سنة ٥٢٤ / ١١٣٠ ، مع ان هذا اللقاء لم يكن اول مشاركة له في حرب الجهاد ، التي تعود الى ايام والي الموصل مودود في حملته على طبرية^(١١) . ويأخذ انتصار الاثارب اهمية متعددة : فهذه المعركة اختبرت قبل كل شيء قوة الدولة الجديدة التي اوجدها زنكي وقيادة مؤسسها الاتابك ؛ كما ان هذه المعركة عرفت الفرنج (الصليبيين) بالقيادة الجديدة للمجتمع العربي - الاسلامي ضمن منطقة الجهاد المواجهة للصلبيين ، والتي باشرت بعمليات هجومية ناجحة في الاثارب وحارم تفسر من قبل ابن الاثير على ان مشروع التوسع على حساب الاراضي الاسلامية قد انتهى^(١٢) ، فهو نقطة تحول في سير العمليات الصليبية للمسلمين والفرنج سوية . واخيراً توضح هذه المعركة حالة الثنوية في سياسة زنكي المتمثلة في متابعة الجهاد من جهة واستغلال الانتصار من اجل التوسع على حساب الامراء الآخرين من جهة اخرى كاستحواذه على سرجي ودارا من امراء التركمان وحسام الدين تمرتاش وركن الدولة داود بن سقمان^(١٣) .

وكان زنكي هو الذي قد بدأ الهجوم على الحصن لتهديده المباشر لمدينة حلب ، الداخلة في اتابكيته ، كما قام بضرب

القوى الصليبية التي تجمعت لحمايته بمنتهى القسوة والعنف لانه اراد ان يوضح للصلبيين وامرائهم اي نوع من الشخصيات يعني عماد الدين زنكي^(١٤) . ويلاحظ بان الاتابك لم يلجأ الى استعمال اسلوب التمويه الذي قام باستخدامه فيما بعد عند اختياره اهدافاً صليبية لحمالاته الحربية .

ثم جاء اختبار الصليبيين لزنكي سنة ٥٣٢ / ١١٣٨ عندما قام البيزنطيون بحملة كبيرة على الشام (اقصد زنكي) ، بقيادة الامبراطور يوحنا كومنين تلبية للنداءات التي وجهت له من الصليبيين على اثر سقوط قلعة بعيرين القريبة من حماة بيد زنكي في ٥٣١ / ١١٣٧ . توصف هذه القلعة بأنها « من امنع معاقل الفرنج واحصنها » ، كما اطلق على هذا الانتصار « بالفتح المبين » لان القوة الصليبية التي هُزمت كانت تشتمل على تجمع هائل « للفرنج وملوكهم »^(١٥) ، وقد هدد البيزنطيون بحملتهم هذه اتابكية زنكي ، بصورة خاصة حلب عن طريق مهاجمة حصن بزاعة القريب منها . ولكن يلاحظ بان الامبراطور البيزنطي لم ينتخب زنكي هدفاً للمجابهة مع قواته ، بل فضل اختيار عدد من الامراء المحليين (شيزر مثلاً متمثلة بأميرها ابن منقذ الكنائي) ، عن طلبوا من الاتابك التدخل وتقديم المساعدة . واستغل البيزنطيون من جانبهم هذه الفرصة للاستحواذ على عدد من سوانء الصليبيين وقواعدهم^(١٦) اذ يجب التنبيه على ان للبيزنطيين خلافاتهم مع الصليبيين في مسألة تنظيم الحملات الصليبية ، وفي مسألة السيادة التي يمارسها الامبراطور على الامارات الصليبية الاربعة ، تلك الخلافات التي اثرت في مجرى نتائج هذه الحملة البيزنطية . كما كان الصليبيون يعيشون فترة من الخلافات ايضاً ، التي ترجع الى ايام مجيئهم الى بلاد الشام في بدء الحملة الصليبية الاولى ، بالرغم من ان ابن الاثير ينسب تاريخ هذا الخلاف الى الحوادث التي اصاب الصليبيين في ٥٢٧ / ١١٣٣ ، والى موت كبير

« الفرنج » واقوى شخصية بينهم ، بلدوين الثاني (ت ١١٣١ م) ، ملك مملكة القدس ، اكبر « الامارات » الاربعة واهمها نفوذاً^(١٠٠) . وكان عماد الدين زنكي يدرك ، بدوره ، خطورة الوضع الذي سببته هذه الحملة على اتابكيته ومناطق بلاد الشام الاخرى ؛ ويظهر النداء الذي تقدم به زنكي الى السلطان مسعود بأن الاتابك كان يواجه موقفاً صعباً لا يمكن لزنكي من معالجته بنفسه ، الا ان الغاء طلب المساعدة من قبل الاتابك بعد زوال الخطر البيزنطي وعدم موافقة السلطان على ذلك الا بعد تقديم عروض مالية كبيرة امر ممتع ايضاً ، لان السلطان مسعود كان عدواً مفتوحاً لزنكي ، وله الاقوال المشهورة بحقه^(١٠١) . ولذلك وقف هذا السلطان موقف الصمت من طلب الاتابك ولم يأمر باعداد اي جيش لالتهاق بزنكي الا بعد نوالي صيحات البغداديين ونداءاتهم . ولكنه اصر ، بعد زوال الخطر عن زنكي ، على وجوب توجه الحملة الى بلاد الشام لتأدية واجب الجهاد بحجة ان الحملة كانت قد نظمت ولا يجوز الغاءها ، ولم يتزحزح السلطان عن موقفه هذا الا بعد مساهمة زنكي المالية . وكان الاتابك يرى ضرورة ابعاد هذه القوة السلجوقية عن اراضيه حتى لا تستقر هناك ويجبر على الدخول معهم في مواجهة عسكرية .

على اية حال ، فقد اثبت زنكي في هذه المواجهة البيزنطية - الصليبية قابلياته في تحقيق انتصارات عسكرية وسياسية على الصليبيين مما لا يتمكن غيره من الامراء انجازه حتى من قبل تلك القوى التي تشتهر بشجاعتها المتميزة ، فقد كانت بعيرين قد هوجمت في ٥٢٧ / ١١٣٣ من قبل التركمان دون نجاح ، رغم الخسائر الكبيرة التي اوقعوها بقوة الصليبيين المدافعة عن الهدف^(١٠٢) . واخيراً فإن ما حدث في الاثارب تكرر في بعيرين والرها من حيث تصميم الاتابك على التوسع في قلاع وحصون الامراء المسلمين والصليبيين

سوية^(١٠٣) .

كانت الرها (اورفة الحالية) المتاخمة لحدود الاتابكة الشمالية والتي تحكم من قبل جوسلين الثاني هي الاختيار الطبيعي لهدف حملة زنكي الكبرى على الصليبيين في ٥٣٩ / ١١٤٦ (ستين قبل مقتل الاتابك) . اما مملكة القدس ، التي لها صلة القربى بالرها والتي تنزع « الامارات الاربعة » من حيث مكانتها الدينية والسياسية ومن حيث تمركزها بين وقت وآخر بحدود اتابكته مباشرة او عن طريق محالفاتها مع دمشق ، فلم تشكل في يوم ما هدفاً لحملات الاتابك ، لا بسبب المكانة التي تتمتع بها هذه المملكة وانما لعدم تمكن زنكي من انهاء حكم اسرة طغتكين في دمشق . وكان الاتابك يريد اخذ هذه المدينة بكل الوسائل والسبل الممكنة واستعمل معها الاسلوب العسكري والدبلوماسي مراراً^(١٠٤) . ومع ان الاتابك نجح في الاستحواذ على بعض الممتلكات التابعة لدمشق ادارياً ، الا ان هدف زنكي الاساس في ضم دمشق الى اتابكته ظل حليماً غير محققاً ، وذلك بعد تأجيل محاولته على دمشق وجه عماد الدين زنكي اهتمامه نحو الرها^(١٠٥) .

كانت محاولة زنكي على الرها عملية عسكرية ناجحة جداً فقد كانت « حصناً منيعاً للفرنج »^(١٠٦) ، مما حدا بالاتابك الى تخصيص كل الوسائل والسبل المتوفرة لديه من عدد وآلات ومهرة وفنين ومن تلك التي تتعلق بعمليات الحصار والهجوم . وعملت مخابراته على اخفاء هدف الحملة مستعملاً كل وسائل التعويه والمراوغة التي عرفت بها سياسته ، خاصة على امير الامارة المستهدفة جوسلين الثاني ، الذي عبر الفرات بعد الاطمئنان على ان زنكي سوف لا يهاجم الرها . ولكن المدينة ، بعد ثمانية وعشرين يوماً من الحصار الشديد ، سلمت لزنكي ، محققاً انتصاراً كبيراً يستحقه بكل جدارة^(١٠٧) .

لم يبق الا تابلك اكثر من سنتين بعد الرها ليرى ماذا كان سيتم انجازه خلال السنوات المتبقية من حياته ، التي لم يتمتع بها بعد الاغتيال الذي دُبّر عليه من قبل زمرة من حرسه الخاص يقودهم يرنفش الخادم^(١١) ، مع اننا نعلم بأن الاتابك كان ينوي خلال هذه الفترة تجديد مشروعه لاخذ دمشق ومهاجمة عدد من الامراء المحليين ممن تستوجب تصفيتهم لضمان الاستقرار في اتابكته بعد حوادث الشغب التي قامت بها قوة من عسكر قلعة الموصل بالتعاون مع الملك السلجوقي المتمرد فرخشاه ، الذي يعمل زنكي اتابكاً له^(١٢) .

ولكن انتصار زنكي في الرها ساعد بالطبع على توسيع حدود دولة هذا الاتابك الكبير وعلى ارتقائه الى مستوى لا يساويه في المنزلة اي من امراء وملوك المنطقة من المسلمين والصليبيين سوية ، فلا يوجد من ينافسه بينهم على زعامة المنطقة الا ان الاكثر من ذلك أهمية على المستوى الروحي هو وضع عماد الدين زنكي كقائد لحركة الجهاد ضد الصليبيين ، فقد اتضح للمسلمين بأن سياسة هذا الاتابك تجاه الصليبيين قد نجحت وبأنه سائر بكل تأكيد نحو اجتثاث مناطقه نفوذهم تباعاً . ويمثل سقوط الرها في نظر المؤرخين الغربيين اول هزيمة كبرى للصليبيين^(١٣) ، وهو حكم صحيح في ضوء الاحداث التي اعقبت هذا السقوط لانها تسببت في قيام الحملة الصليبية الثانية على الشام .

من اجل ذلك اصبح عماد الدين زنكي « بطلاً » للمسلمين^(١٤) ، واشهر شخصية بين معاصريه فهو الزعيم الجديد الذي لا غبار عليه وتقف هذه الصورة الجديدة لزنكي^(١٥) ولزعامتته وراء نظرية ابن الاثير في تفسير ظاهرة ارتقاء الاتابك وارتباطه بحركة الجهاد وهي ان اختياره لقيادة هذه الامة ولاخراجها من محتتها مع الصليبيين كان اختياراً ربانياً ، فالatabك بحكم هذا الاختيار كان من افضل الحكام المسلمين واعلامهم شأناً وهو لذلك يحظى بالتأييد الالهي

ويدعمه ، ومسؤول عن نجاحه مع الصليبيين^(١٦) ، وقد وجدت هذه النظرية استجابة لدى بعض الباحثين المحدثين فتبنوا محتواها لتفسير ظاهرة عماد الدين زنكي ودوره في التاريخ الاسلامي^(١٧) .

ان من اهم ما يميز عمل زنكي كظاهرة تاريخية هو ان هذا الاتابك منذ البداية كان قد ربط مصيره بحركة الجهاد ، التي كان احد عناصرها الاساسية ، فقد كانت سياسته بهذا الصدد مسؤولة عن شهرته ومكانته كبطل من ابطال الاسلام ، اما سياسته تجاه السلطنة والخلافة فكانت دفاعية في طبيعتها ، وكان وضعه مع الصليبيين يتطلب منه التريث لمعالجة الخطورة التي كان يثيرها ضده كل من السلطان والخليفة سوية . . . يضاف الى ذلك ان اهتمام عماد الدين زنكي ببلاد الشام وميله الى التوسع على حساب الولايات التي تتكون منها كان امراً طبيعياً ، وتقضي بذلك نفس سياسته تجاه الصليبيين ، الذين كانوا يتوسعون باتجاه حدود اتابكته والذين لم يغيروا في مسار هذا التوسع الا بعد اختفاء عماد الدين زنكي . لكن هذا الاتابك لم يكن خالياً من التطلعات التي كانت تشغل بال امراء السلاجقة وقادتهم لانه كان يمثل نتاج السلاجقة ومؤسسات السلطنة السلجوقية ، العسكرية منها خاصة ؛ فكان من اساس تطلعاته ان يرى من نفسه على رأس دولة يمثلها خير تمثيل اسلوبه السياسي والعسكري في الحكم .

جمع عماد الدين زنكي في شخص قيادته بين النوعية العسكرية والسياسية للقائد^(١٨) ، مما لم يكن واضحاً عند كثير من سابقيه من الامراء : فصفاته العسكرية تفوق حد الوصف ، فهو عسكري مقاتل من الطراز الاول ومتمكن من شتى صنوف القتال وفنونه وخاصة القتال المرتبط بالقلاع والحصون ، الذي عرفته بلاد الشام ، وفي المصادر اجماع عام على شجاعته وقابلياته على المناورة واتخاذ القرارات وعلى

الصبر والجلد في الحروب ؛ وتحوي هذه الادبيات على شتى القصص والحوادث للتدليل على تلك القدرات المتميزة . كما ان الجيش الذي بناه الاتابك بنفسه يدل على تنظيم عسكري ناجح جداً ، بما في ذلك نوع الضبط والنظام الذي كان يمارسه على وحداته . ولكن على الرغم من سمعته كمحارب و « غاز » وسياسي ، فان زنكي لم يفلح في كسب ما قاده من حملات على مناوئيه من تلك التي استهدفت الخلافة ودمشق وبعض امراء التركمان ، فكان عندما لا يرى نصراً قريب الوقوع له ، يسمح لنفسه بالانسحاب للاحتفاظ بماء الوجه للمناسبة القادمة^(١) .

كما كان عماد الدين زنكي سياسياً وادارياً ناجحاً على خلاف كثير من امراء الجيش السلجوقي ممن عاصروه او ساواه في الرتبة والوظيفة . وقد ساعدته على ذلك صفاته الفسيولوجية والعسكرية التي تدخل في تركيب شخصيته والتي تثبتها المصادر بأقوال مختلفة^(٢) اساسها عدم تعرف مناوئيه العسكريين والسياسيين على نواياه واهدافه وعدم التردد في اخذ الاجراءات الكفيلة بتحقيقها . فكان من مظاهرها نجاح الاتابك في فرض الامن والنظام على المناطق التي تتكون منها اتابكيته ، خاصة في المناطق التي يصعب تطبيق مثل ذلك عليها ، من ذلك مثلاً حملاته الكردية^(٣) ، التي كانت ترتبط بسياسته في عمارة البلاد وفلسفته السياسية في الحكم التي تدور حول مفهوم العدل والاخلاص في الواجب .

لقد كان عماد الدين زنكي بدايةً لظاهرة سياسية جديدة في الموصل والشام ، ولكنه لم يكتب له اتمام مهمته مع الصليبيين كما يجب وترك الامر لابنه نورالدين لانجاز ذلك : فان كان الخطر الصليبي مسؤولاً عن ظهور الاتابك ، فزنكي هو الرجل المناسب لمعالجته ، والذي لم يبخل في اعطاء ما لديه من مواهب لذلك . ولكن عماد الدين زنكي

زال قبل ان يتمم الكثير مما يتمكن من انجازه ، مع ان هذا لا يغير من الحقيقة الواقعة بأن ما عمله في مجال الجهاد وتكوين الاتابكية قد اسهم في وضع اسس المملكة التي تخلد بها اسم نورالدين محمود . فيما بعد .

الهوامش :

(١) واحدة من مجموعة مقالات عن الحروب الصليبية نشرت في كتاب يحمل عنوان :

A History of the Crusades, ed. by K.M. Setton (2 Vols.) Philadelphia : university of Pennsylvania press, 1958, Vol.2.

(٢) هذه الدراسة في الاصل رسالة ماجستير منشورة بعنوان : عمادالدين زنكي (بيروت : الدار العلمية ، ١٩٧١) .

(٣) بعنوان الحروب الصليبية والاسرة الزنكية (بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢) ، والكتاب يحتوي على معلومات نافعة .

(٤) رسالة جامعية نشرت في : (القاهرة : مطابع سجل العرب ، ١٩٧٥) .

(٥) من بين ذلك ما ساهم به ستيفن رانسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريفي (مجلدان : بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٧) ؛ وما نشره سعيد عبدالفتاح عاشور وحسن حبشي ؛ ورسالة محمد محمد مرسى الشيخ المنشورة عن : الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الاسكندرية : دار الثغر ، ١٩٧٤) ؛ وما كتبه رشيد الجميل عن التاريخ السياسي لدولة الاتابكة في الموصل (بيروت : دار النهضة ، ١٩٧٠) . وتجدر الاشارة الى ان تعبير « الصليبيين » الشائع الاستعمال هو من التعابير التي لم تكن تعرف زمن عماد الدين زنكي ، الذي يقابله في المصادر العربية « الفرنج » او « الفرنج » ، اي المجتمعات الكاثوليكية التي تكونت في قلب بلاد الشام من اوربا الغربية وقد استعمل تعبير الصليبيين هنا لما يقابل هذه المجتمعات الفرنجية . عن هذا التعبير ووقت شيوعه راجع : Cl. Cahen, (Crusades), EI, II, 63 — 68

(٦) انظر : M. G. S. Hodgson, The venture of Islam (Chicago : The University of Chicago Press, 1974) Vol. 2, p. 264 .

(٧) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، م ١٠ ، ص ٥٨٨ ، ٦٠٤ ، ٦٢٢ . وكان السلطان محمود قد اصدر اوامره بوضع وحدات من جيوش امراء الاطراف تحت اشراف والي الموصل آق سنقر اليرسقي ، وكان زنكي ، بسبب تنقل القوة التي يترأسها قد ضاق ذرعاً بهذا كما يظهر من حواراه مع قادة الوحدات التي تتبعه : « كل يوم للموصل امير جديد ونريد نخدمه ، وقد رأيت ان اسير الى السلطان فأكون معه » ، انظر المصدر ذاته ، م ١٠ ، ص ٦٢٣ .

(٨) الذين حلوا محل الفاطميين

(٩) قام باداء هذه المهمة كل من فخر الدولة بن جهر ، وزير الخليفة المقتدى في حينه وابنه محمد الدولة ووالد زنكي المدعو قسيم الدولة آق سنقر ، من

بين كثير من الانتصارات راجع ابن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، ص ٥ ، العماد الاصفهاني ، تاريخ دولة اق سلجوق ، ص ٧٦ .

(١٠) راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، صص ٢٤٤ - ٤٨ .

(١١) وهو احد الشخصيات المتحركة بسلطنة محمود ، وكان مسؤولاً عن جملة من امراء السلاجقة من بينهم زنكي وقتل على يد الباطنية في جامع الموصل . ولم يكن ابنه مسعود ، الذي كُلف بمتابعة حرب الجهاد مع الصليبيين ، بمستوى والده وكفايته . راجع عن آق سنقر البرمقي وسيرته ابن القلانسي ، ذيل تاريخ مدينة دمشق ، ص ٢١٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، صص ٢٣٣ - ٣٤ ، وتكرر الملاحظات في الباهر .

(١٢) لاحظ ما يقوله ابن القلانسي في ذيل دمشق ، صص ٢١٦ - ١٧ : « انه (اي مسعود) عازم على التائب والاحتشاد لقصد اعمال الشام واللمب فيها والافساد . فعزم ظهير الدين اتابك (اي طفتكين) على الاستعداد لقصده في عسكره . . فيوقع بعسكره ويشقى غيلة بالفنك بحوزته . »

(١٣) ويتوقع هؤلاء الامراء زوال الخطر دون ان تقع لهم اية كارثة .

(١٤) راجع ملاحظات هوجسن في : Venture of Islam, Vol. 2, P. 265 .

(١٥) وهما كل من الملكين آلب - ارسلان وفرخانشاه المعروف بالحفاجي ، راجع ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، م ٢ ، ص ٣٢٨ ، العماد الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٨ ، قارن مع ابن الاثير ، الباهر ، ص ٧١ ، بشأن هوية كل منهما وتمرد الحفاجي على نائب زنكي في الموصل في ٥٣٩ / ١١٤٤ .

(١٦) يجب التمييز بين قسم الدولة آق سنقر والد عماد الدين زنكي وبين الامير آق سنقر البرمقي ، والي الموصل قبل زنكي بقليل بسبب وقوع الخلط بينهما ، (انظر مثلاً محمود ياسين التكريتي ، الايوبيون في شمال الشام والجزيرة ، ص ٢٣ ، هـ ٥ ، كما لم يكن زنكي ابناً لجر كمش راجع رنسمان ، مصدر سابق ، م ٢ ، ص ١٧٨ . عن السيرة الذاتية لقسم الدولة آق سنقر والوظائف التي تقلدها وعن مكانته بين امراء السلطان ملكشاه راجع ابن الاثير في كل من الكامل ، م ١٠ ، صص ٢٣٢ - ٣٣ ، الباهر ، ص ١٥ .

ويذكر ابن تغري - بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، م ٥ ، ص ٥٤١ ، ان من بين القاب قسم الدولة لقب « الاتابك » ، وهذا مما لا يرد في المصادر الرئيسية كأبن الاثير وابن العديمي ، الذي يقتبس منه ابن خلكان في ترجمة عماد الدين زنكي ، راجع وفيات الاعيان ، م ٢ ، صص ٣٢٧ - ٢٨ . اما عن سيرة عماد الدين زنكي (٤٧٧ - ٥٤١ هـ) ، فمن الضروري لاية دراسة هستريوغرافية من القيام بمقارنة عامة بين ما يورده ابن الاثير عن زنكي وبين تلك التي يخص بها ابن القلانسي في ذيل دمشق (مع اضافة ابن العديمي اليها) ، لان الاثنين يمثلان وجهات نظر متضاربة . ولا ينفع ابن الجوزي في المتظم من متابعة سياسة زنكي في الجهاد ، الا انه مهم فقط من ناحية تمثيله لوجهة نظر الخلافة وموقف زنكي منها ، الذي كان يتذبذب طبقاً لمصالحه ، كذلك ما يورده ابن كثير في البداية والنهاية . واذا اردت مفصلاً لحياة عماد الدين زنكي فراجع عماد الدين

خليل ، عماد الدين زنكي ، صص ٣١ - ٤٥ ، صص ١٦٩ - ٨٧ ولكن يجب الا ينظر الى زنكي في عتوى غير النظم العسكرية السلجوقية ومؤسستها .

(١٧) راجع ما ورد قبلاً هـ ٧ ، هـ ١١ .

(١٨) هناك تفاصيل كثيرة عن هذه المناصب ، والتعيينات قام بدراستها وتصنيفها وتنسيقها عماد الدين خليل . انظر اعلاه هـ ١٦ .

(١٩) هؤلاء هم كل من الاميرين صلاح الدين الياغسياني ، « امير حاجب » البرمقي سابقاً ، والذي حل بنفس منزله السابقة عند زنكي ، ثم صهر الياغسياني ، نصير الدين جعفر ، والقاضي البارح بهاء الدين الشهرزوري . راجع عن دور هؤلاء الثلاثة في ولاية زنكي : ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، صص ٢٤٣ - ٤٤ ، وانظر ابن قفري - بردي ، النجوم الزاهرة ، م ٥ ، ص ٥٤١ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، م ١١ ، ص ٢٢١ .

(٢٠) راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، صص ٢٤٤ - ٤٥ ، وايضاً الباهر ، ص ٣٢ .

(٢١) نص منشور التولية لا يرد في المصادر ، ولكن ما ثبت مأخوذ من ابن الاثير الباهر ، ص ١٢ .

(٢٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢٣) يقتبس ابن الاثير قولاً لزنكي نصه : « ان البلاد كپستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على غورتها ويطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرق الخصوم اليها » ، وهذا يعكس جانباً من فلسفته السياسية في الحكم ، انظر الباهر ، ص ٧٩ .

(٢٤) عن تفاصيل هذه الحملات راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، صص ٦٤٥ - ٤٧ ، صص ٦٤٩ - ٥١ .

(٢٥) بالرغم من تحرزه لم يمنع من الوقوع فريسة للاغتيال بيد رجال من حرسه الخاص . وكان زنكي على علم بسلسلة الاغتيالات التي قام بتنفيذها رجال الباطنية ضد سابقه من ولاية الموصل والامراء والشخصيات السلجوقية . عن هذه النقاط راجع ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٢٨٥ ، العماد الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، ص ١٩٠ .

(٢٦) وكانت الباطنية قد اصيبت بنكسة كبيرة خلال حكم زنكي على اثر الضربة التي وجهت الى قاعدتهم في دمشق سنة ٥٢٣ / ١١٢٩ بسبب اجراءات حاكمها تاج الملوك بوري ، خلف طفتكين ، راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، صص ٦٥٦ - ٥٧ ، ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، صص ٢٢١ - ٢٣ .

(٢٧) كان السلطان عمود ميالاً للاتابك ومعجباً بشخصيته ويحفظ بعلاقات جيدة معه ، ولكن السلطان مسعود يقف على التقيض ويقول ابن الاثير بهذا الصدد بان السلطان : « كان قد تجهز لقصد اتابك زنكي ، وبانه كان قد حقد عليه حقداً شديداً بسبب ما ينسبه مسعود الى زنكي من اثارته لامراء الاطراف ضده » ، راجع الكامل ، م ١١ ، ص ٩٣ ، وانظر ايضاً ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٥ .

(٢٨) ينسب ابن خلكان قولاً الى ابن العظيمي (الذي كان معاصراً لزنگي والذي لم يصل جميع تاريخه اليها الا ما بقي منه محفوظاً في مكتبة المتحف العراقي) ، مفاده بان الخليفة المسترشد هو الذي رشع زنگي دفعاً لغريمه ديبس بن صدقه المزبلي ، راجع وفيات الاعيان ، م ٢ ، ص ٣٢٨-٢٩ .

(٢٩) كان زنگي في البداية واحداً من امراء السلاجقة المنغسين في مسألة الصراع حول السلطنة ، ولكنه تخلص من هذا الموقف خلال النصف الثاني من فترة ولايته (٥٣٠ - ٥٤١ هـ) لصالح سياسته الخاصة بالجهاد . عن تفسير اخر يغاير هذا الرأي راجع عماد الدين خليل ، عماد الدين زنگي ، ص ٢٢٧ .

(٣٠) عند محاصرة زنگي لقلعة جعبر التابعة للامير العقيل سالم بن مالك ، عن الروايات الخاصة بهذه النقطة راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ١٠٩ ، ايضاً الباهر ، ص ٧٤-٧٥ ، ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٣٨٤-٨٥ .

(٣١) وهي تتضمن الدعوة التي وجهت لزنگي من شمس الملوك ومشروع زواجه من زمرد خاتون ، ثم محاولة زنگي لاختد دمشق بالقوة عن طريق الحصار . وجاءت محاولته الاخيرة بعد انتصاره في الرها ولكن زنگي ارجأ المشروع ولم يتحقق كلياً . للمعلومات عن هذه المحاولات راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٢٠-٢١ ، ص ٥٠ ، ص ٦٩ ، ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٢٨٤ .

(٣٢) العماد الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٦ .

(٣٣) راجع النص في الجنزوري ، اسارة الرها الصليبية ص ٣٨٦ وما بعدها ، وهي لترسيس ، بطريك الارمن .

(٣٤) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٣ .

(٣٥) المصدر ذاته .

(٣٦) M. Hodgson Venture of Islam, Vol. 2, P. 265 .

(٣٧) وقد استغلت الباطنية هذا الوضع لصالحها .

(٣٨) وهي نقطة الاساس في مقالته راجع : Gibb (Zengi and the fall of Edessa), P. 448 .

(٣٩) التفاصيل يسورها ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، ص ٥١٣-٥٠٩ .

(٤٠) راجع عنه ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٢١٨-٢٢٠ .

واشارة ابن الاثير ، الباهر ، ص ٣٨ ، وانظر : F. Gabrieli, Arab Historians of the Crusades, P. 40 .

ومثل اخر في شخص والي الموصل آق سنقر البرسقي كما نوهنا سابقاً .

(٤١) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥٠ .

(٤٢) ابن الاثير ، المصدر السابق ، م ١١ ، ص ٧ ، المصدر ذاته ، م ١١ ، ص ١٢-١١ . نموذج اخر بشخص شمس الملوك ، الذي خرج لمواجهة الصليبيين مع حشد كبير من التركمان وغيرهم ، وانظر كذلك ، م ١٠ ، ص ٦٨٤ ، بالنسبة لما عملوه في بانياس .

(٤٣) المصدر ذاته ، م ١١ ، ص ٥١ .

(٤٤) راجع ما ورد قبلاً ،

(٤٥) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٩٥ ، نعمن في قول زنگي بعد انحسار الخطر : « بأن لا يستصحب من العسكر احداً » ، وفي رد السلطان : « بأن العسكر قد تجهزوا ولا بُد من الغزاة الى الشام » ، وتعليق ابن الاثير : « ولم يعد العسكر الا بعد الجهد وبذل الخدمة العظيمة له (للسلطان) ولاصحابه !! »

(٤٦) عن حملات الامير اسوار وتواريخها راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، ص ٦٨٥ ، م ١١ ، ص ٨-٩ . وكان زنگي يضطلع عادة بأداء المهمات الرئيسة المستهدفة قلاع الصليبيين وحصونهم ، بينما كان اسوار يكلف بمتابعة الجهاد في مناطق حلب وقد قام اكثر من مرة بايقاف هجمات الرها واللاذقية والقدس .

(٤٧) هذا الرأي يتكرر في عدد من المصادر الثانوية المتداخلة ، راجع مثلاً عماد الدين خليل ، عماد الدين زنگي ، ص ١٦٥ ، عماد محمد مرسي الشيخ ، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ، ص ٣٠٠-٣٠١ ، عمود ياسين التكريتي ، الايوبيون في شمال الشام والجزيرة ، ص ١٣٥ (والمصادر التي يشير اليها . قارنه بما يذكره شاكرا ابو بدر ، الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، ص ٦٩ . وكان هدف زنگي تكوين امارة خاصة به وليس ايجاد جبهة اسلامية موحدة لان الجبهة من خصائصها المحافظة على حكم الامراء المحليين ، بينما كانت سياسة زنگي تستهدف التخلص منهم تياً .

(٤٨) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ١١٢ ، وانظر ايضاً الباهر ، ص ٨٠-٨١ .

(٤٩) ابن الاثير ، الكامل ، م ١٠ ، ص ٦٦٣ .

(٥٠) المصدر ذاته ، م ١١ ، ص ٦٦٤ .

(٥١) كذلك ، م ١١ ، ص ٦٦٣ حيث قال زنگي : « بأن هذا اول مصاف عملنا معهم ، فلنلقهم من بأسنا ما يبقى رعبه في قلوبهم » .

(٥٢) للتفاصيل راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥١-٥٢ ، انظر ايضاً الباهر ، ص ٥٩ . وهي مذكورة باسم (بارين) ، راجع ياقوت ، معجم البلدان ، م ١ ، ص ٣٢٠-٣٢١ ، ص ٤٥٢ .

(٥٣) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥٣ ، ص ٥٧ ، ص ٥٨ .

(٥٤) المصدر ذاته ، م ١١ ، ص ٨ .

(٥٥) كذلك ، م ١١ ، ص ٩٣ .

(٥٦) كذلك ، م ١١ ، ص ٧-٨ .

(٥٧) للاطلاع على نماذج من حملات زنگي هذه راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥٢ ، ص ٩٨ ، من بين اشارات اخرى كثيرة .

(٥٨) راجع ما ورد قبلاً ، هـ ٣١ .

(٥٩) راجع ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، ص ٢٨٢ ، وما كتبه : B. Lewis, (Egypt and Syria), The Cambridge History of Islam (London, Cambridge University press, 1979), Vol. 1A, 200 .

(٦٠) ياقوت ، معجم البلدان ، م ٣ ، ص ١٠٦ ، وتكتب (الرها) ، وصنعتها الجنزوري ، مصدر سابق ، ص ٥٣ : « بأنها جزيرة مسيحية وسط »

عبط من الاتراك المسلمين .

(٦١) ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، صص ٩٨ - ١٠٠ ، وايضاً الباهر ، صص ٧٧ - ٧٠ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، م ١٠ ، ص ١١٢ (مقتضب) .

(٦٢) عن برنقش ودوافعه راجع ابن القلانسي ، ذيل دمشق ، صص ٢٨٤ - ٨٥ ، قارن ذلك بما ورد في العماد الاصفهاني ، تاريخ آل سلجوق ، صص ١٨٩ - ١٩٠ ؛ ابن الاثير ، الباهر ، صص ٧٤ - ٧٥ .

(٦٣) عن ترد - لرخشاه راجع ما ورد قبلاً في هـ ١٥ .

(٦٤) انظر : B. Lewis, (Egypt and Syria), in op. cit, vol. 1A, p.200 .

(٦٥) انظر : C. E. Bosworth. The political and Dynastic History of the Iranian : world, in the Cambridge History of Iran, ed. by Boyle (Cambridge: The University press, 1988), vol. 5, 127. Dynastic

(٦٦) نتيجة لانتصار الرها حصل زنكي على القاب جديدة يوردها ابن القلانسي في ذيل دمشق ، ص ٢٨٤ .

(٦٧) ابن الاثير ، الباهر ، صص ٣٣ - ٣٤ .

(٦٨) عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ، ص ١٠ .

(٦٩) كما يتضح من حكم ابن الاثير (يتبعه ابن خلكان) عليه : « شديد الهية على عسكره ورعيته عظيم السياسة » ، راجع الكامل ، م ١١ ، ص ١١١ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، م ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٧٠) مثلاً حصاره لحمة في ٥٣١ هـ ، الذي انتهى بالفشل ، راجع ابن الاثير ، الكامل ، م ١١ ، ص ٥١ : « فأقام عليها الى العشرين من شوال ورحل عنها من غير بلوغ غرض » .

(٧١) راجع مثلاً ما يقوله عنه العماد في تاريخ آل سلجوق ، ص ١٨٧ .

(٧٢) قارن مع ما يذهب اليه : Bosworth in op.cit, vol. 5, p. 127 .

المصادر والمراجع

ابن الاثير ، عز الدين . الكامل في التاريخ (بيروت : دار صادر ، ١٣٨٦ / ١٩٦٦) ، م ١٠ - ١١ .

التاريخ الباهر في الدولة الاتاكية ، تحقيقه علقاد طليحات (القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣) .

ابن تغري بردي ، جمال الدين . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . (القاهرة : المؤسسة المصرية العامة ، ١٩٦٣) ، م ٥ .
ابن الجوزي ، عبدالرحمن . المنتظم في تاريخ الملوك والامم حيدرآباد :

دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٧ / ١٩٣٨) ، م ٩ - ١٠ .

ابن خلكان ، شمس الدين . وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس (بيروت : دار صادر ، ١٩٦٩) ، م ٢ .

ابن القلانسي ، ابو يعلى . ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق امدرود (بيروت : مطبعة السورين ، ١٩٠٨) .

ابن كثير ، اسماعيل ، البداية والنهاية (بيروت : المعارف والنصر ، ١٩٦٦) ، م ١١ .

ابريدر ، شاكرا احمد . الحروب الصليبية والامرة الزنكية (بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٢) .

Bosworth C.E. The political and Dynastic History of the Iranian World, in The Cambridge History of Iran, ed. by J.A. Boyle (Cambridge : The university press, 1968), vol. 5.

التكريتي ياسين محمود . الايوبيون في شمال الشام والجزيرة (بغداد : دار الرشيد ، ١٩٨١) .

Gabriali Francesco. Arab Historians of the Crusades (London : Routledge Kegan , 1969) .

Gibo, H.A.R. (Zengi and the fall of Edessa) in A History of the Crusades, ed. by K.M. Setton (Philadelphia : University of pennsylvania press, 1958), vol. II

الجنزوري ، علية عبدالسميع . امارة الرها الصليبية (القاهرة : مطابع سجل العرب ، ١٩٧٥) .

خليل عماد الدين . عماد الدين زنكي (بيروت : الدار العلمية ، ١٩٧١) .

رسيما ستهفن . تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد البازي العربي (مجلدان : بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٧) .

الشيخ ، محمد مرسي . الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الاسكندرية : دار الثغر ، ١٩٧٤) .

العماد الاصفهاني . تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار اليهذاري (القاهرة : مطبعة الموسوعات ، ١٣١٨ / ١٩٠٠) .

Cohen, cluda. (Crusades) in El. 2., vol. II., Hodgson, M.G.S. The Venture of Islam (Chicago : The University of Chicago press, 1974) vol. 2.

ياقوت الحموي ، شهاب الدين . معجم البلدان (بيروت : دار احياء التراث ، د. ت م ، م ١ ، م ٣) .



جِهَادُ صَلَاحِ الدِّينِ لَا يُوجِبُ «التَّارِيخُ وَالشَّعْرُ»

د. نَاطِلُ شَيْد

كلية الآداب - جامعة الموصل

قائدا شهما بحلب لنور الدين محمود ، ثم يذهب لمعاونة أخيه شمس الدين توران شاه حينما كان يعمل في ديوان الجيش بدمشق ، ويعود ثانية الى حلب ويتصل بنور الدين محمود ، ويتعلّم منه أمور الجهاد كما يقول ابن الفرات^(١) ، ويصبح واحدا من ملازميه المقربين ومعاضديه المؤتمنين « لا يفارقه في سفر ، ولا حضر ، وكان يفوق الناس في لعب الكرة ، وكان نور الدين يحب لعب الكرة »^(٢) ، وهي لعبة الفرسان آنذاك ، يمارسونها على ظهور الخيل ، يقاذفون كرة خشبية بمضارب طويلة ، وللعمداء الأصبهاني قصيدة جميلة في صلاح الدين ، وقد عثر جواده وهو يضرب الكرة مع نور الدين ، مطلعها^(٣) :

لا تنكرنّ لسابحٍ عشرتُ به

قدمٌ ، وقد حمل الخضمّ الزاخرا

لقد كان صلاح الدين بالنسبة الى نور الدين خير خلف

لخير سلف في النضال والجهاد ، قال أبو شامة المقدسي

عنهما^(٤) : « فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين - رضي الله

عنهما - في المتقدمين ، فان كل ثانٍ من الفريقين حذا حذو من

تقدمه في العدل والجهاد ، واجتهد في اعزاز دين الله أيّ

أنجبت الامة الاسلامية رجالا أفذاذا ، لا نزال نفتخر بهم لما لهم في نفوسنا من حب واجلال ، ونعتز بأعمالهم العظيمة ، ونقرأ أخبارهم ، ونقف عند سيرهم ، نلتهم منها صور الشهامة والشجاعة والبطولة والاقدام . . . ومن هؤلاء الأفذاذ الذين سطوروا في سجل التاريخ بحروف من نور ملاحم خالدة ، ومواقف نادرة ، « العالم العادل المجاهد المربط - كما نعتة الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله^(٥) - صلاح الدين يوسف بن أيوب » المولود في قلعة « تكريت » سنة اثنتين وثلاثين وخسمائة ، حيث كان والده واليا عليها ، ثم انتقل به الى « الموصل » ، وترعرع فيها ، ومنها تحوّل والده الى « بعلبك » بعد ان ولّاه نور الدين محمود بن زنكي حكمها . وكان صلاح الدين كما يقول ابن شداد^(٦) : « يتربّى تحت حجره ، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه امارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة » .

كان صلاح الدين منذ الصبا مولعا - الى جانب

التحصيل العلمي - بالرماية والفروسية ، فراه يلتحق - وهو

لا يزال غض الاهاب - بعمه أسد الدين شيركوه الذي كان

اجتهاد » .

جاء الفرنج بجيوش جرارة الى الديار المصرية سنة اثنتين وستين وخسمائة ، وعلى أثر ذلك أرسل نور الدين محمود جيوشا قوية لمحاربتهم ورد كيدهم بقيادة أسد الدين ومعاونة ابن أخيه صلاح الدين ، واستطاعت هذه الجيوش المؤمنة بالحق طرد الغزاة ومحققهم بعد مجابهة عنيفة ومضاربة شديدة ، وكان فيها للشاب المتألق صلاح الدين دور بارز ومشرف في مقارعة الأوغاد الظالمين ، ومصاولة الأشرار الغادرين . ولما زال الخطر وهدأت الامور وتخلصت مصر من شر المهاجمين قفل أسد الدين راجعا الى الشام مع صلاح الدين .

عاود الفرنج هجومهم الغادر على مصر سنة أربع وستين وخسمائة حاملين معهم كل أسباب الفتك والدمار والخراب . وقد دفع الخوف منهم ان يبعث صاحب مصر العاضد بالله رسالة استغاثة الى نور الدين محمود . ومعها خصل من شعر نسائه ، يقول فيها^(١) : « أدركني ، واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج » .

جهّز نور الدين العساكر المجاهدة بقيادة أسد الدين وبرفقته صلاح الدين المتحمس للنضال واستئصال جذور البغي والعدوان ، ولما اقترب هذا الجيش من القاهرة هرب الفرنج هلعاً وفزعا ، وصاروا - على قوتهم وعنادهم - كالغنم المدعورة كما يقول اسامة بن منقذ في قصيدة يخاطب فيها صلاح الدين^(٢) :

وهم اسود الشرى ، لكنْ أذْهَمُ

ملكٌ لديه الاسودُّ الغَلْبُ ، كالغنم
وبقي أسد الدين في مصر ، وتقلّد الوزارة للمعاضد ، وبعد شهرين وخمسة أيام قضى نحبه ، وتولّى الوزارة من بعده صلاح الدين ، ومن هنا بدأ نجمه يلمع ، وهلاله يعلو ويسطع ، « وارتفع قدره عند المصريين ، واثلت عليه القلوب ، وخضعت له النفوس^(٣) » ، ونظم العماد

الأصبهاني في هذه المناسبة قصيدة حماسية تصوح برائحة الصديق طلب فيها من صلاح الدين ان ينهض كالأسد القوي ، غضباً للحق المسلوب ، وانتصاراً للدم المسكوب ، ويهجم على الافرنج في أوكارهم ويطردهم من الأرض المقدسة^(٤) :

وما يرتوي الاسلامُ حتى تُفادروا

لكم من دماء الغادرين بها عُذْرا
فصبّوا على الافرنج سوطَ عذابها
بأن تقسموا ما بينها القتل والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس واعزموا

على فتحه غازين واقترعوا البكرا
تدعيون بالمعروف طيب ذكركم

وما الملكُ إلّا ان تدعوا لكم ذكرا
ان هذا الشعر صدى لما في نفوس الناس من ألم وحسرة وأسف على الديار التي نهبت ، والمقدسات التي انتهكت ، والأرواح التي زهقت . ويظهر ان الشاعر أراد بهذه القصيدة ان يثير حمية صلاح الدين ويدفعه الى تحرير ممتلكات المسلمين كاملة بعد تسلمه القيادة وتسئمه أمر الوزارة في مصر .

أحسن الافرنج بنوايا صلاح الدين ورجاله المخلصين في اقامة وحدة قوية بين دمشق والقاهرة يشد بها أزره ويضرب فلولهم الى الأبد ، ولذلك قرروا ان يُفشلوا هذه الخطة ونزلوا على شواطئ مصر سنة خمس وستين وخسمائة ، وداهموا دمياط « بالمنجنقات والدبابات والجروح وآلات الحصار وغير ذلك^(٥) » تمهيدا للسيطرة على القاهرة ، وحاصروها خمسين يوما ، ومنعوا عنها الأرزاق . ولكن القائد الهمام استطاع بفكره النير وخطته المحكمة الدقيقة وجيشه المقتدر من سحقهم وإبادة الكثيرين منهم . قال ابن شداد المرافق الدائم لصلاح الدين^(٦) : « وشنّ عليهم الغارات ، حتى بان لهم الخسران ، وظهر على المرق

الايمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون
بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مناجيتهم ،
ونُهبت آلاتهم ، وقتل منهم خلق عظيم ، وسَلِمَ البلد
- بحمد الله ومنه - عن قصدهم . وبهذا العمل النبيل
كسب سمعة كبيرة ، وودّه الناس ، صغارا وكبارا ؛ لأنهم
وجدوه الذائد الأمين عن حياضهم ، والمدافع المخلص عن
شرفهم وعرضهم ، وصدق الأسعد بن نمّات حين قال مخاطبا
صلاح الدين^(١٧) :

وملكت الباب أنا

م كأنك السيف الصقيل

أنت المقيّل من الخطو

ب وظلّ دولتك المقيّل

وصوّر فتیان الشاغوري هذه المعركة تصويرا بارعا ،
وأبان عن شجاعة البطل النادرة ، في مواجهة الزخم الهائل
من القوات المهاجمة ، وشلّ حركتهم ، وتحطيم عددهم ،
وسحق جموعهم ، وطرد من تبقى منهم كالأنعام الجوافل
كما يقول^(١٨) :

ولما أتوا دميّاط كالبحر طاميا

وليس له من كثرة القوم ساحل

يزيد عن الاحصاء والعدّ جمعهم

الوفّ الوفّ خيلهم والرواحل

رأوا دونها أشداً بأيديهم القنا

وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقل

فعادوا على الأعقاب منها هزيمة

كأنهم ذلاًّ نعماً جوافل

ولما استقل صلاح الدين بملك مصر سنة سبع وستين

وخمسائة بعد وفاة العاضد أعاد الخطبة لبني العباس ، وهزّ

الفرج الخليفة المستضيء بأمر الله حينما وصل اليه هذا

الخبر ، وزيّنت بغداد ، وخرج الناس بالأهازيج ، وشارك

الشعراء في هذا المهرجان ، منهم شمس المعالي أبو الفضائل

الحسين بن محمد بن تركان حاجب الوزير ابن هبيرة ،
ومما جاء في قصيدته قوله^(١٩) :

لتهنك يا مولى الأنام بشارة

بها سيف دين الله بالحق مرهف

ضربت بها هام الأعداي بهمة

تقاصر عنها السميري المثقف

بعشت الى شرق البلاد وغربها

بعموئاً من الآراء تُحيي وتُسلّف

فقامت مقام السيف والسيف قاطر

ونابت مناب الرمح والرمح يرعف

وقدّت لها جيشاً من الروع هائل

الى كل قلب من عدااتك يسزحف

وتهيأت الظروف لصلاح الدين في توحيد مصر

والشام ، فقد توفي نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ ، وكان

ابنه الصالح اسماعيل صغيرا لا يتجاوز احدى عشرة سنة .

واستطاع صلاح الدين فيما بعد السيطرة على بلاد الجزيرة

وديار بكر والحجاز واليمن ، وهكذا اتحد قسم كبير من العالم

العربي تحت لوائه ، يقود الامة من نصر الى نصر .

بدأ البطل الصنديد جهاده ، ونهّد لمعارك التحرير

التي سببها من خلال أصوات الشعراء الذين شاركوه في

القتال وهم قرييون منه او الذين آزروه في النضال وهم

بعيدون عنه ، تلك الأصوات الهادرة التي لم تفترا وتهدأ الى

ان مضى الى جوار ربه فريز العين وقد حقق الجزء الأكبر من

آماله في طرد الصليبيين من الشام ، اللهم إلا رقعة صغيرة

تمتد من « صور » الى « عكا » .

انتقل الى رحمة ربه بكرة الأربعاء السابع والعشرين

من صفر سنة تسع وثمانين وخمسائة للهجرة . وكان قد

أوصى ان يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصى ، ويكون قبره

على النهج السائل ، وطريق القوافل ، ليدعوه الوارد

والصادر ، والبادي والحاضر ، وتجاوز عليه في الغزوات العساكر^(١١) . قال أبو شامة المقدسي^(١٢) : « وكان يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وتالله لقد كنتُ أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم » . ورثاه الشعراء بعيون هامية ، وقلوب دامية ، وكان العماد الأصبهاني أكثرهم حزناً ، حيث بلغت قصيدته مئتين واثنين وثلاثين بيتاً أتى فيها سيرته وجهاده وفجيرة المسلمين بفقده ، ومطلعها^(١٣) :

شمل الهدى والملك عمّ شتاته

والدهر ساء وأقلعت حسناته
ومن الرثاء الجيد في بطل التحرير قصيدة أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة ، منها قوله^(١٤) :

ألست ترى كيف انبرى الخطب نائراً
ومدّ يداً منه الى دافع الخطب
الى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
جزاه عن الاسلام خيراً إلهه
فما ملّ عنه من دفاعٍ ومن ذبٍّ
تداركه بعد ابتذالٍ ، فقد غدا

وكان شديد الخوف ، في أمنع الحجب
وأصبح للبيت المقدس مُنقذاً
بأصلب عزمٍ في مقارعة الصليب
أذلّ له الله العدا مُذْ أطاعه

وسهل منهم كلّ محتنعٍ صعبٍ
ان هذا اللون من الرثاء - وهو كثير في هذه الحقبة - يثير في النفس القوة والعزيمة والمضاء والاستماتة من أجل المبادئ الشريفة التي تعلّى الأمة وتنير لها درب الخلود .

ويجدر بنا أن نكشف عن بعض جوانب هذه الشخصية الخالدة التي نستشف منها معاني التضحية

والفداء ، والعزة والاباء ، وما أحسن قول ابن قلاؤس فيه^(١٥) :

بدائع في الحروب ولُدها
من فطنٍ لا تزال متّقده
لقد كان - رحمه الله - تقياً نقياً ، حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، عادلاً ، حليماً ، ناصراً للضعيف على القوي ، يغضب للكبائر ولا يُغضي عن الصغائر ، يرشد الى الهدى ، ويهدي الى الرشاد ، ويسدّد الأمر ، ويأمر بالسداد . وكان معتدلاً في مأكله ومشربه ومركبه ، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، قال فيه ابن عُنين^(١٦) :

صلاح الدين يا خير البرايا
ومن قد عمّ بالفضل الرعايا
وكان كثير المروءة ، نديّ اليد ، مبسوط الوجه ، عطوفاً ، رؤوفاً بالأسرى ، شديد الشغف بأولاده الصغار ، صبوراً على مفارقتهم ، راضياً ببعدهم عنه احتساباً لله تعالى . وقد رويت أخبار كثيرة عن صبره وجلده في الحرب ، من ذلك ما قاله قاضيه ابن شداد^(١٧) : « لقد رأيته على صفد وهو يحاصرها ، وقد قال : لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمسة مجانيقٍ ، وربّ لكل منجنيق قوما يتولون نصبه . . . وكنا طول الليل في خدمته . . . حتى أتى الصباح ، وقد فرغ منها ، وكانت من أطول الليالي ، وأشدّها برداً ومطراً » .

ومن الصفات المحمودة لهذا البطل المجاهد الشجاعة والاقدام ، قال ابن شداد الذي رافقه في حروبه وسجل مشاهداته^(١٨) : « ولقد كان - رحمه الله تعالى - من عظماء الشجعان ، قويّ النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر . ولقد رأيته - رحمه الله - مرابطاً في مقابلة عدّة عظيمة من الفرنج ، نُجدهم تتواصل ، وعساكرهم

تتواتر ، وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر . . . وكان - رحمه الله - اذا اشتدت الحرب يطوف بين الصفين . . . يخرق العساكر من اليمين الى اليسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره . . . وما رأيته استكثر العدو أصلا ، ولا استعظم أمرهم قط . . . وننقل صورة اخرى من شاهد عيان لهذا القائد المنتصر الذي دوّخ الفرنج وروعهم ، قال ابن أبي أصيبعة^(١١) : « قادتني الضرورة الى التوجه الى صلاح الدين ، فأخذت من كتب القدماء ما أمكنني ، وتوجهت الى القدس ، فرأيت ملكا عظيما ، يملأ العين روعة ، والقلب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا محببا ، وأصحابه يشبهون به ، يتسابقون الى المعروف كما قال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾^{٢٥} ، وأول ليل حضرته ، وجدت مجلسا حُفلا بأهل العلم ، يتذكرون في أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار ، وحفر الخنادق ، ويتفقه في ذلك ، ويأتي بكل معنى بديع . وكان مهتما في بناء سور القدس ، وحفر خندقه ، يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس ، الفقراء والأغنياء ، والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب ، والقاضي الفاضل . ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ، ويأتي داره ، ويمد الطعام ، ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المساء ، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا . هذا هو البطل وجنوده الميامين ، الاسود الصابرون المرابطون ، لا يخشون الموت ولا يهابونه . وقد أجاد القاضي الفاضل حين قال^(١٢) :

قالوا : رأينا الاسود ، الصبر عادتهم
فقلت : أبناء أيوب ، ولا عجب
الشاربون كؤوس الموت مُترعة
ولأسنة في حافاتها حبيب

والمضرمون لنار الحرب ليس لها
إلا الرماح وأضلاع العدا حطب
رجال شجعان لا يبتغون غير كشف الغمة عن
الامة ، واصلاح ما أفسده فاقدو الذمة من الدخلاء على
أرض الرسالات السماوية ، لذلك نصرهم الله نصرا عزيزا
وثبت أقدامهم على القوم الظالمين .

كان صلاح الدين فقيها - كما يقول السبكي - حافظا
للقرآن الكريم ، وكتاب « التنبيه » في الفقه للشيخ ابراهيم
ابن علي بن يوسف ، و « الحماسة » لأبي تمام الطائي^(١٣) .
وحفظ الحديث الشريف ودرسه على الشيخ اسماعيل بن
مكي بن عوف الزهري والشيخ الحافظ ابن أبي طاهر أحمد
ابن محمد السلفي . قال السيوطي^(١٤) : « رحل الى
الاسكندرية بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث على
السلفي ، ولم يُعهد ذلك لملك بعد هارون الرشيد ، فانه
رحل بولديه الأمين والمأمون الى الامام مالك لسماع
الموطأ . أما الشعر فهو أحب الفنون الأدبية الى نفسه ،
حفظه وورده ، لا سيما الحماسي منه . قال العماد
الأصبهاني^(١٥) : « ولزمت خدمته أرحل برحيله وأنزل
بنزوله ، وكنت ليلة عنده ، وهو يذكر جماعة من شعراء
الزمان ، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة اسامة بن مرشد بن
سديد الملك علي بن منقذ ، وهو به مشغوف وخاطره على
تأمله موقوف ، والى استحسانه مصروف » .

كيف لا يستأنس بشعر اسامة بن منقذ ، وهو واحد
من مشهوري الفرسان الشجعان الذين لهم صولات في
حومة الوغى وجولات في ساحة الردى ، وله شعر موجه الى
صلاح الدين يدعوه فيها الى الجهاد ، مثل قوله^(١٦) :

لا تستقل الذي صنعت ، فقد
قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدا ، وأفنيت من
أبطالهم ما يجاوز العددا

فسر إلى الشام ، فالثلاثكة الـ
أبرار تلقاك جمعهم مَذا
والله يعطيك فيه عاقبة النـ
صر كما في كتابه وعدا
وكيف لا يحفظ شعر هذا الشاعر وهو بصور نفسية
المقاتل الهمام وثباته في مضائق الحرب بشموخ وصلابة^(٣١) :
سل بي كمة الوغى في كل معركة
يضيق بالنفس فيها صدر ذي الباس
ينبئوك بأنني في مضايقها
ثبت ، اذا الخوف هز الشاهق الراسي
أخوضها كسحاب القذف يصحني
عضب كبرق سري أو ضوء مقباس
ان حديث الجهاد من ألد الأحاديث الى نفسه وأقربها
الى روحه ووجدانه ، لا يمل منها ولا يسأم . قال ابن
شداد^(٣٢) : « ولقد كان الجهاد حبه والشغف به قد استولى
على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له
حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا
برجاله ، ولا ميل إلا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر
في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر
ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب عليها
الرياح يمنة ويسرة . . وكان الرجل اذا أراد ان يتقرب اليه
يحثه على الجهاد ، او يذكر شيئا من أخبار الجهاد . ولقد ألف
له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابا ، جمعت
فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روي فيه
فضله ، وشرحت غريبها ، وكان - رحمه الله - كثيرا
ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل » . وإلى جانب
كتب الجهاد كان يحب قراءة الكتب التي تتناول شؤون
الحرب والدفاع ، وتعبئة الجيوش ، واعداد الآلات ،
وتدريب المقاتلين ، وترويض الفرسان . وقد أدرك أحد
معاصريه هذا الولع والاهتمام ، وهو مرضي بن علي بن

مرضي فالف له كتابا بعنوان « تبصرة أرباب الالباب في
كيفية النجاة في الحروب من الأسواء ، ونشر أعلام الاعلام
في العُدَد والآلات المعينة على لقاء الأعداء »^(٣٣) .

لقد كان هدفه تحرير الأرض وانقاذ الديار ، ديار
المسلمين من دنس الغزاة الطارئين ، وتخليص العباد من شر
الطامعين ، وعودة الفرحة والطمأنينة الى نفوس المكالمين ،
والابتسامة الى عيون النساء والأطفال المروعين . وقد حقق
القسط الأعظم من هذا الهدف بالقوة ، وبقي يجاهد ويجالد
بلا هوادة لتحرير الديار واقصاء الأشرار . وما أعظم مقولته
وهو واقف ينظر الى البحر الأبيض المتوسط بعد فتح « عكا »
سنة أربع وثمانين وخمسمائة^(٣٤) : « في نفسي ، أنه متى يسر
الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت ،
وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائرهم ، أتبعهم فيها
حتى لا ابقى على وجه الأرض احدا منهم أو أموت » .
وما ألفت تعليق ابن شداد على هذه المقولة^(٣٥) : « فانظر الى
هذه الطوية ما أظهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها
وأجسرها ، رحمة الله عليه ، اللهم انك تعلم انه بذل جهده
في نصرة دينك ، رجاء رحمتك ، فارحمه » .

الجهاد ، وما أدراك ما الجهاد ، كلمة ملكت قلبه
وعقله وروحه ، كان لا يتسل إلا بذكرها ، ولا يستأنس إلا
بأخبارها وأنبائها ، ومن نافلة القول ان نورد هنا خبرا طريفا
للعقاد الأصبهاني في حوادث سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة
للهجرة ، قال^(٣٦) : نزلنا ببركة الجب - خارج القاهرة من
الجهة الشمالية - لقصد فرض الجهاد ، وعرض الأجناد ،
فكتب الأسعد بن مماتي الي قصيدة في الملك الناصر :

يا صلاح الدين ، يا ملكاً

قد براه الله للامم

إن يك الشطنج مشغلة

لعل القدر والهمم

فهى فى نادىك تذكرة

لامور الحرب والكرم

فلكم ضاعفت عدتها

بالعطاء الجسم لا القلم

فابق لاسلام ترفعها

وامر الأقدار كالخدم

يبدوان الشاعر - وهو ناظر دواوين صلاح الدين - قد

أشفق على قائده من تعب الجهاد ، وأراد ان يريحه بتسلي

لطيفة وخفيفة فيها طابع عسكري هي لعبة الشطرنج التى

اتحرك فيها الملك والجنود بلا سهيل خيول وصليل سيوف

وإثارة غبار وسفك دماء .

لقد أقام مجدا أثيلا ، شاعها أبد الدهر شموخ الجبال

الراسيات ، تذكره الأجيال المتعاقبة ، تزهو به وتباهى فى

محافلها وأنديتها ، وتتخذ رمزا فى ساحات نضالها

وكفاحها ، وحسبه قول الشاعر على بن أحمد بن الزبير^(٣٧) :

شيدت بالبيض والعسالة الذبل

مجداً أناف على النسرين والخنل

تحضر أكناف أرض إن نزلت ورن

نازلت تحمر أرض السهل والجبل

كان صلاح الدين حريصا - الى جانب حرصه على

اعراض الناس وشرفهم - على لغة القرآن التى هى جزء

أساس من كيان الامة التى جاهد من أجل كرامتها وعزتها ،

وناضل فى سبيل وجودها وهويتها . ولا يخفى على القارىء

الكريم ان هذا البطل الغيور لم يكن فارسا مجاهدا فقط ، بل

كان عالما مثقفا ، ومفكرا نابها ، ومن هنا نجده يفتح ذراعيه

لكل خطوة انسانية تعمل على سعادة المجتمع وتدفع عنه

عوادي الزمن وغوائله . وقد تجاوزت الأموال التى كان

ينفقها على أرباب القلم كما يقول أبو شامة المقدسي^(٣٨) :

«مئتي ألف دينار ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» . انه

القلم سلاحا الى جانب السيف فى محاربة الخصوم ،

ولا غرابة فى ان يقول وهو جالس فى محفل كبير مع قادته^(٣٩) :

« لا تظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي

الفاضل » . وقد سطر القلم آنذاك أدبا كثيرا ، ولا سيما

الشعر الذى أحبه صلاح الدين ورغب فيه وحفظه ورددده فى

مجالسه وقت الراحة او فى مواقع الأحداث بين اسوده

الممثلين عزيزة وثباتا ، المتحمسين للوثوب على من تقرب من

عريتهم . وقد أدرك أثره فى النفوس خاصة قبل الاقتحام

والالتحام ، فجمع حوله الشعراء وشملهم ببره واحسانه

وأحاطهم بعطفه وحنانه . قال ابن العديم^(٤٠) : « ولم يجتمع

بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة الحمداني ما اجتمع

ببابه من الشعراء رحمه الله وزاد على سيف الدولة فى الحباء

والفضل والعطاء » .

أصبح صلاح الدين مثار اعجاب الشعراء ومحط

آمالهم ، وقد تجمعت لديّ أثناء كتابة هذا البحث أسماء

خمس وستين شاعرا أزروه ووقفوا الى جانبه فى احقاق الحق

وازهاق الباطل ، ولا عجب ان يقول الشاعر عمر بن محمد

المعروف بابن الشحنة^(٤١) :

ولاني امرؤ أحببتكم لكارم

سمعت بها والاذن كالعين تعشق

وقالت لي الآمال : إن كنت لاحقا

بأبناء أيوب فأنت الموفق

تضافر شعراء كثيرون من الشام ومصر والعراق واليمن

والمغرب على معاضدة صلاح الدين ، واظهار مناقبه ،

ورسم بطولاته فى محاربة الفرنج وجولاته فى جلاء الغاصبين

عن المواقع التى احتلوها والمدن التى استباحوها ، وقد نعته

أحدهم برب الملاحم^(٤٢) :

رب الملاحم ، لم يؤرخ مثلها

العلماء قديماً فى قديم الأعصر

من رام من كل الملوك مرامه

تُحقق مساعيه ويكُتب ويعثر

ودر در سبط ابن التعاويذي حين دعاه بـ « ربّ المذاكي » :

ربّ المذاكي الجياد مُقَرَّبَةٌ
والنصل عريان غيرُ مقروبٍ
خَوَاض موج الوغى وقد اخذت
أبطالها الحُصْنُ بالتلابيبِ
تنكرُ أغمادها مناصله
في يوم حلّ ويوم تأريبِ
تسلّ في الحرب للمفارق وال
هم وفي السلم للعراقيبِ
سلطانُ أرض الله الذي ضمننت
رماحه نصرَ كل محروبٍ^(١٦)

ان الحرب الضروس التي خاض غمارها هذا المجاهد مع جنده الميامين وقادته البسلاء أذكت قرائح الشعراء ، القريبين منهم والبعيدين ، وألهبت مشاعرهم ، وقدحت زناد عواطفهم ، بشعر حماسي كثير ، يفيض بالحياة والنشاط ، وينبض بالحركة والغلبان ، يعكس صدى وصولات المقاتلين وهبات الفوارس الأشداء .

ويكاد القسم الأكبر من دواوين بعض الشعراء يكون في أدب الحرب ، ووصف الجيوش ، والآلات والأدوات القتالية ، والأخلاق العسكرية ، والمهارات القتادية ، كما هي الحال في ديوان فتیان الشاغوري ، وديوان أبي الفضل عبد المنعم بن عمر الجلياني الأندلسي المسمى بـ « المبشرات والقدسيات » ، الذي قال عنه ابن أبي أصيبعة^(١٧) : « انه نظم وتديب ، وكلام مطلق ، يشتمل على وصف الحروب والفتوح على يد صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب فاتح بيت المقدس » . ويعد ديوان راجع ابن اسماعيل الحلبي من أكبر الدواوين التي اختصت بنضال أبناء أيوب بعد صلاح الدين ، فانه ضم أكثر من ثمانية آلاف بيت^(١٨) . وكان للمرأة نصيب في هذه المشاركة ، وقد

نوه ابن خلكان بوحدة منهن ، هي تقيّة بنت أبي الفتح غيث الدين بن علي الصوري ، فقال^(١٩) : « نظمت قصيدة حربية ، وصفت الحرب ، وما يتعلق بها أحسن وصف » . سجّل الشعراء النجباء الذين وفدوا على صلاح الدين الأيوبي أو الذين راسلوه من ديارهم النائية ، مآثره الخالدة . فهو في نظر ابن الساعاتي شهاب نور وهداية للضالين ، وسيف بتار للخارجين عن طاعة الله^(٢٠) .

شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب
وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على « حصن المخاض » وانه
لموقف حق لا يوازيه موقف
هذان البيتان من قصيدة قالها الشاعر بعد معركة ضارية ومجابهة حادة دامية مع الفرنج في حصن « بيت المخاض » القريب من دمشق ، غنم فيها جيش صلاح الدين « مئة ألف قطعة من أنواع الأسلحة ... وكان عدد الأسرى سبعمائة »^(٢١) .

ان صورة هذا البطل ، او لنقل خياله ، قد خيم كالطير على رؤوس الأعداء المارقين ، وأصبح يخيفهم ويرهبهم ، ويرعد فرائصهم ، ويرجف قلوبهم ، ويقض مضاجعهم ، وكم كانوا يتمنون ان يعطيهم فرصة يغمضون فيها جفونهم المرهقة من السهر ويببتون براحة بال وأحسن حال :

يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فامسى
مناهم لويبتهم بأمن
بيتان أنشدتهما الشاعر الشهيد ابن راحة الحموي ضمن قصيدة طويلة أمام صلاح الدين وهو يستقبل أساطيل ثغري دمياط والاسكندرية المحملة بالأسرى الذين تجاوز عددهم الألف^(٢٢) .

كيف يستطيع الأعداء ان يركنوا الى السكينة ،
ويخلدوا الى الراحة ، وهم يرون « دار الجهاد » التي شيدها
الفارس صلاح الدين ، ترسل عليهم الأبطال تلو الأبطال
حاملين شواظاً من نار لتحرق وجوههم الشريرة ورؤوسهم
المملوءة بالحقد والكراهية ؟ قال ابن سناء الملك (١٠) :
ومن شاد داراً للجهاد فأصبحت

بها الرمح يني ، والحسام يهندس
ويرسل عزماء للأعداء مبكراً
فيأتيه فتح للأعداء مغلّس
يُرى جذلاً في حومة الحرب ضاحكاً

فلا القلب منخوب ولا الوجه معبس
أعطى الشاعر صورة واضحة لهذا التأثير بوجه البغاة
الذين نزعوا الرحمة من قلوبهم ، واندفعوا نحو الشرق ،
مقيمين لأنفسهم امارات على أشلاء قتلاهم . والبيت
الأخير يذكرنا بصورة بديعة لسيف الدولة الحمداني وهو في
حومة الوغى يقارع الروم في بيت أبي الطيب المتنبي
المشهور (١١) :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضّاح ، وثغرك باسم
ويترسل ابن سناء الملك في إظهار جلالة قائده وقوة
ارادته بين جنوده في قهر الأعداء ، والاجهاز عليهم بكل
اقتدار ومضاء . فما هوذا يصول عليهم بسيفه البتار كالبرق
اللامع او النار الحارقة ، وهم يستسلمون لسطوته الجبارة ،
حتى لو كان هذا السيف مغمداً في قرابه :

تطير اليه طالبات أمانه
ومعتذرات منه أيدي وأرؤس
وفي كفّه ماضٍ مضى وكأنه
من البرق يجني او من النار يقبس
وكم أسلموا من خوفه وهو مغمد
ولو أبصروا نيرانه لتمجّجوا

ما أهيب صورة هذا القائد الذي تحيط به الكماة
الشجعان وهم يمتطون صهوات خيولهم ، المثلثة بالحديد ،
يبلج أتون الحرب ، مثيرة النقع بسنابكها ، وباعنة الموت
الزؤام بظبي المعتلين ظهورها :

وكل حصان بالحديد ملثم
عليه كمي بالحديد مقلنس
تزاحمت الأبطال فيه فخرقت

ثياب لها من عهد داود تلبس
وأظلم فيها النقع واشتبك الظبي
فأصبح فيها الموت لا يتنفس

وتأتي صورة البطل المهيب عند فتیان الشاغوري أكثر
وضوحاً واشراقاً ، فهو اذا ما بدا تترانجف عساكر الأعداء ،
وتخور عزيمتها ، وتتخاذل ارادتها ، وتتضاءل معنوياتها (١٢) :

اذا ما بدا خرت الى الأرض سجداً
له عن ظهور الصافنات الجحافل
تظل ملوك الأرض خاضعة له

فكل عظيم عنده متضائل
وتزداد رهبتهم ، وتتعاظم خشيتهم اذا ما سمعوا زئير
الاسود ، اسود القائد ، وهي مندفعة نحوهم ، لتدق
أعناقهم ، وتحيلهم مزقاً ، وتجعلهم طعاماً للطيور
الجارحة :

جحافله اسد تزاءر في السوغى
وما غيلها إلا القنا والقنابل
خيس له الرايات ظل وفوقه

من الطير ظل يحجب الشمس سادل
وصورة الطير الذي يرافق الجيش القوي المنتصر
- وان كانت مألوفة في أدبنا القديم (١٣) - تتكرر عند الشعراء
الذين رافقوا صلاح الدين وشاهدوا معاركه العنيفة ومقدار
خسارة الأعداء في الأرواح ، منهم ابن الدهان الموصل في

قوله (١) :

والطير من ثقة بأكل مشبع

تبعث جيوشك فوق غاب مُسبع

وهذا البيت من قصيدة طويلة رسم فيها الشاعر

صورة لهذا القائد المنتصر ، مجسدة في اطار فخم ، تبرز فيها

خيوله المغيرة ، وسيوفه الموشحة بالدماء ، ورماحه النافذة في

كلوم الأعداء ، وهو ثابت الجنان ، يجالذ أنداده الفرسان

بكل صلابة ومعنوية :

واذا تنمّر قال للأرض ارجفي

بالصاهلات وللجبال تزعزعي

واذا علا في المجد أعلى غاية

قالت له الهمم الجسم ترفع

ثبت الجنان اذا القلوب تطايرت

في الروح يعدل ألف ألف مدرع

وترتفع الصورة عند الشاعر ، وتأخذ أكثر أبعادا ،

فهو يلقي الرعب في نفوس الفرنج بطلوعه عليهم ، واقباله

نحوهم بنيران جيشه القوي ، وهم ليسوا بشيء في نظره وان

كان عددهم كالرمل كثرة والحصى وفرة . يدوسهم

بخيوله ، ويقذفهم كالسيل العرم ، ويفتت جمعهم ،

ويحيلهم الى قتيل مخرج بدمائه ، وأسير مكبل بقيوده ،

وهارب يملا قلبه الهلع والفرع (٢) :

وهابوك حتى الفارس الشهم من رأى

بجيشك نارا أو تأمل فسطلا

ولو أنهم كالرمل او عدد الحصى

لما بيّنوا إذ عابنوك كلا ولا

وطشتهم رغما فلم يغني حشدهم

ومن ذا يرد السيل من حيث أقبالا

فقسمتهم في الملتقى قسم جائر

وان كنت فيهم عادلا ومعدلا

قتيلاً صريعاً او جريحاً مضرجاً

ونجلاً طريداً أو أسيراً مكبلاً

ان هذا الهمام الغضنفر - كما يسميه أبو علي الحسن بن

علي الجويني - أضحي الخصوم لديه مخذولين ، ومهزومين

مرذولين ، تطاردهم سيوفه المؤيدة بنصر الله وعونه ، ولم

تستطع القلاع الرصينة والحصون المنيعة ان تحميهم وتدفع

عنهم الهجمات الكاسحة والضربات الماحقة والطعنات

الساحقة (٣) :

الهمام الغضنفر الملك النا

صر مولى الورى صلاح الدين

يا مليكاً أضحي الزمان يناجيه

به بلفظ المذلل المسكين

فارتأت أهلها الحصون الى با

سك حتى عوضتهم بالسجون

وأراهم رب الساء بأسيا

فك ما لم يحل لهم في ظنون

وهذا النصر الذي أحرزه شفاء للصدور وقرة

للعيون ، ويشبهه الشاعر بيوم « حنين » الذي انتصر فيه

جيش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المشركين في

السنة الثامنة للهجرة ، وأسر منهم خلقا كثيرا ، وفيهم قال

الله تعالى في محكم كتابه (٤) : ﴿ لقد نصرَكُمُ اللهُ في مواطنَ

كثيرةٍ ، ويومَ حُنينٍ إذْ أعجبتُكمْ كثيرُكمْ فلمْ تُغنيْ عنكمْ شيئاً

وضاقتْ عليكمْ الأرضُ بما رَحبتْ ثمَّ ولَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ :

إن هذا الفتح المبين شفاء

لصدور ، وقرة لعين

هو يوم أضحي كيوم حنين

مهّل الله نصره في الحزون

ولم يكن صلاح الدين قائدا حريبا ، وموجها

ميدانيا ، ومشرفا قتاليا فقط ، بل هو مشارك فعال ، ومقاتل

عنيد ، ومبارز كرار ، مغرئ بضرب السيوف وقراع القنا

كما يقول سعادة بن عبدالله الأعمى^(١٨) :

تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا

وكل امرئ مغرئ بما قد تعودا

ويبدو ان هذا الشاعر قد نظر الى بيت أبي الطيب

المتنبى الذي قاله في سيف الدولة الحمداني^(١٩) :

لكل امرئ من دهره ما تعودا

وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

وللشاعر سعادة بن عبدالله الضرير قصيدة جيدة

يصف فيها الفارس المطعان وهو يقود الخيل التي تقل

المجاهدين وبأيديهم السيوف الرقاق ، تفري الأعناق في

وسط الرهج المتعالي في سماء المعركة^(٢٠) :

القائد الخيل تهوي في أعنتها

مثل الأجادل ، والأبطال في جدل

والبيض من علق الأقران في حلل

حمر ، ومن قمم الشجمان في خلل

والشمس شمس الضحى في النقع آفلة

وشمس همته الغراء لم تفل

وهذا القائد - كما يرى عبدالرحمن بن بدر النابلسي -

يتحمل المتاعب ويستهن بالمصاعب ، سواء كان ذلك في حر

الصيف اللاهب ام في برد الشتاء العاصب . لا تأخذه

الراحة إلا على ظهر جواده يصول ويجول في خضم معركة

المصير ، متجملاً بثوب الصبر ، صبر العظماء في الشدائد

وأيام المحن^(٢١) :

ملك تساوى جمادى في الجهاد وتم

حوز لسديه وضاهى ناجراً صفر

ولا يرى الروح إلا ظهر سلهبة

في بطن معركة مركوبها وعر

صبر جميل كطعم الشهد في فمه

وعند كل مليك طعمه الصبر

وحينما شاهد الشاعر ، أبو المكارم هبة الله بن وزير

ابن مقلد ، بطله يجهد نفسه فوق طاقتها ، ويتعبها تعباً

مضنيا شاقاً بلا هواة ، قال^(٢٢) :

أما أن ان يرثي لخيل مغيرة

وشهرين عنها ما ازيلت لبودها

وأن تغمد البيض الرقاق وقد شكت

الى عفوه طول الفراق غمودها

مواقع خلف العدا وأمامها

نما ينشني إلا اليه طريدها

كيف يريح خيوله ، ويرفع عنها سروجها ، ويخلع

لجمها ، ويغمد أسيافه ، ويمسح ما علق بها من دماء ،

وينشني عن جهاده المتواصل ، وهو يعلم ان الخصم الجائر اذا

ما اعطي فرصة يستيقظ من سكرته ، ويسترجع أنفاسه

الحائرة ، ويستعيد قواه الحائرة ، ويضرب من وقف بوجهه

واخذ ما بيده وسعى الى طرده .

كيف يلقي سلاحه ، والعالم الاسلامي ينظر اليه ،

ويتتبع اخباره النضالية ، ومواقفه القتالية ، ويتتظر الساعة

التي يعلن فيها خلاصه من القوم الظالمين . انظر ما يقوله

الشاعر الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي

من أهل الحلة^(٢٣) :

وأوردت بيض الهند ماء رقايبهم

وأصدرتها تحتال في حلل حر

جلوت به صمصامة الدين بعدما

علا منها من بغيم صدا القسر

هي الفتكة الغراء لازلت قاشماً

بأمثالها للدين في السر والجهر

فأصبح في أقصى خراسان ذكرها

وفي كل قلب منه جيش من الذعر

حقاً انه أورد سيوفه رقاب الأعداء ، وطعنهم طعنة

نجلاء ، وقتك بهم فتكة غراء ، وصلت أخبارها أقصى

خراسان ، ودخلت أنباؤها قلوب أبناء الغرب . تأمل

ما يقوله ابن الساعاتي في ملك انكلترا ، او الانكتير كما هو المعروف آنذاك^(١١) :

سَلَّ عنه قلب الانكتير ، فإنَّ في خفقائه ماشئت من أنبائه تسَلَّم صلاح الدين أمانة الجهاد ، وارتضاها باخلاص ، وحملها بصدق ، وانشغل بها دون غيرها ، ووفَّى حقها باقتدار ، وحسبه قول جمال الدين أبي غالب محمد بن سلطان بن الخطاب^(١٢) :

لقد جُمِّلَ اللهُ منك الوري بأوفى مليك وفي هجان تهشُّ الى نغمات السُّنُو

في في الهام لا نغمات القيان انه لا يطرب إلا بصليل السيوف ، وخفق البنود ، ما دام مرهونا بالجهاد الذي دعا اليه الله تعالى في آيات كثيرة ، منها قوله^(١٣) : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . ومن هنا نرى القاضي الفاضل يقول لصلاح الدين^(١٤) :

جهادك حكم الله ليس بمصدود وعزمك أمر الله ليس بمردود لا يخلف الله المواعيد بعدما بعثت القنا مستنجزاً بالمواعيد ونال جيش صلاح الدين وأفراد قواته الميامين من بحر معاصريه قسطاً كبيراً ، وصفوا فيه بشدة البأس ، وقوة الإرادة ، وعلو الكفاءة ، وسمو القدرة ، وحسن التنظيم ، وجودة التدريب ، ومهارة الضرب والطعن . وقد استوفى ابن سناء الملك كثيراً من هذه الصفات في قصيدة طويلة ، منها قوله^(١٥) :

وجيش به اسد الكريهة غضب وان شئت عقبان المنية حوِّم

يعفون عن كسب المغانم في الوغى فليس لهم إلا الفوارس مغنم اذا قاتلوا كانوا سكوتاً شجاعة ولكن ظباهم في الطلى تتكلم بإقدامهم نالوا الحياة وربما يؤخر آجال الرجال التفدُّم وانت الذي هذبتهم فتهذبوا وانت الذي فهمتهم فتفهموا وإنهم يوم الوغى بك أقدموا وأعداؤهم يوم الوغى بك أحجموا صورة متألفة لجيش قائد النصر ، تتجلى فيها الاسود الغاضبة ، والعقبان الكاسرة ، تغير على الأعداء بضراوة ، وتجهز على الفوارس بإحكام ومهارة فائقة ، تلك المهارة التي اكتسبوها من رائدهم الذي علمهم فنون القتال وصنوف النضال وأحاطهم بشؤون النزال وكيفية الاقدام ثم الالتحام ، وكانت ثمرة كل ذلك النصر المؤزر والحياة الحرة الأبية .

لقد جابه جنود صلاح الدين جيوشاً جرارة ، مدججة بصنوف السلاح ومختلف أدوات القتال . نذكر - على سبيل المثال - احدى هجمات الفرنج سنة ٥٧٠ هـ التي حملت أعداداً كبيرة من المقاتلين ، « ما بين فارس وراجل ، وكانت عُدَّة الطرائد - نوع من السفن - ستة وثلاثين طريدة ، تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني - نوع من السفن الحربية - في كل شيني مئة وخمسون رجلاً ، وكانت عُدَّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عُدَّة المراكب الحاملة برسم الأزواد والرجال أربعين مركباً ، وفيها من الراجل المتفرق ، وغلمان الخيالة ، وصنَّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته المنجنيقية ، ما يتم خمسين ألف رجل^(١٦) . لكن ماذا كان مصير هذا العدد الهائل من

المقاتلين ، والكمية الكبيرة من العتاد والسلاح أمام جيش صلاح الدين المزود بذخيرة الايمان ؟ نترك الجواب للعماد الاصبهاني ، حيث قال^(٧٠) : « لم يسلم منهم إلا من نزع لبسه ، ورمى في البحر نفسه ، وتقحّم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فحسّفوها وأتلفوها ، فولّت بقية المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله الغالبة ، وبقي العدو بين قتل وغرق ، وأسر وفرق » .

لم يعلم الماردون ان الظفر حليف أصحاب الحق ، والنصر نصيب الصابرين الثابتين وان كانوا قليلين ، وما أعظم كلمة رب العالمين^(٧١) : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . وقد أشار الى ذلك الشاعر أبو حسان نعمة بن حسان الضرير^(٧٢) :

وقالوا قليلٌ جنده وجمعه

وليس من الشرقي في موقع العشر
ولم يعلموا أن الإله مؤيدٌ

له ومُيَّدٌ بالمعونة والنصر
ان سلاح جيش صلاح الدين - على يسره - بيد
فرسان أبطال ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾^(٧٣) ، وقد
أجاد سبط ابن التعاويذي وصف هذا السلاح بقوله^(٧٤) :

عتاده للرب عسالةٌ

سمرٌ وأبطالٌ مذاويدٌ
ومحكّمات النسيج موضونةٌ

قدّرها في السرد داودٌ
ومرهفات الحدّ مطرورةٌ

وضُمُرٌ أقرباها قودٌ
رماح لدنة ، وسيوف مرهفة ، ودروع محكمة

النسيج ، استطاع ان يرعب بها العدو ويدمر حشدهم ، ويقضي على من تبقى منهم قضاء مبرما كما صورهم الشاعر في القصيدة نفسها :

جيوشهم بالربعب مغلولة
وزرعهم بالسيف محصودٌ
جهاد من لم يبق يوماً له
في نصر دين الله مجهودٌ
ومن تبقّاه الردى منهم

في الأسر مكبولٌ ومصفودٌ
وكانت الخيول المطهمة الوسيلة الرئيسة في اللحاق
بالعدو ومباغتته والاجهاز عليه بسرعة ، والامساك
بتلابيه . وهذه الخيول كانت مدربة على الجري القوي
ومروضة على الكر والفر ، وقد ورد ذكرها في كثير من
القصائد الحماسية التي تناولت الحروب الجهادية آنذاك ،
من ذلك قول فتیان الشاغوري مخاطباً صلاح الدين^(٧٥) :

فخيلك تغشى الروع شعناً ضوامراً

شواذبٌ قد عوّدتها الفتح والنصرا
تري الحرب روضاً والدروع بها أضيّ

وسمر القنا دوحاً وخرصانها زهرا
سنابكها عزّت بإذلالك العدى

فداستُ خدوداً كنّ من عزّها صُعرا
أبيات نذكرنا بقوله تعالى^(٧٦) : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ

مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ . عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ ﴾ . ما أعظم هذه الخيول الضوامر الشعث !

وما أروعها ! تغشى الوغى مستأنسة فرحة وكأنها تدخل
روضة ، ولكن أي روضة ؟ غدرانها دروع ، وأشجارها

رماح ، وأزهارها أسنة ، تتحرك فيها وتجول ، مذلةٌ
بسنابكها خدود المتجبرين المتفطرسين ، المملثة قلوبهم

حقداً وضعفينة على اناس أبرياء كانوا قاطنين في ديارهم
بسلام وأمان .

ونشاهد لوحة اخرى جميلة للخيال دبجتها يراعة
الشاعر سعادة بن عبدالله الأعمى^(٧٧) :

خيّل هي العقبان في طيرانها
لا بل هي السيدان في عسلانها
فالشهب ما حملته في أرماحها
والغُلب ما نقلته في عدوانها
كم قدتهنّ أبا المظفر ظافراً
والاسد صائلة على عقبانها
متوثباتٍ للطعان ، فلا كبت
تلك العتاق الجرد يوم طعانها
صورة رائعة متحركة ذات تشكيل بهيج ، ترى فيها
الخيول المهاجمة كالعقبان المحلقة بأجنحتها القوية في
الفضاء ، والنور الكاسرة في عنان السماء . وتزداد الصورة
هيبه ورهبة حين ترى هذه الخيول ومن فوقها غلب الرجال
حاملين الشهب المحرقة في نواصي الرماح العوالي ، يقودهم
أبو المظفر صلاح الدين للوثوب على المارقين والانقضاض
عليهم .

ان دور الشعر في معارك المصير جليل وعظيم ، يرافق
المقاتلين أنى حلوا وارتحلوا ، ويحرضهم دوماً على الكفاح
والاستبسال وأخذ الثأر من الطارئين على الديار ظلماً
وعدواناً . فهذا محمد بن محمد بن الفراهيدي يدعو
صلاح الدين الى ارواء سيفه من أوداج الطامعين ،
وخوض خيله في دماء مرضى العقول الخائبيين^(٧٨) :

وفجّر منبج الأوداج منهم
تخوض الخيل في العلق الصبيب
ترى الاسلام قد وافاك يعدو
الى لقياك مشقوق الجيوب
وقد نادى مؤذّنهم ، فنادى
ليوث الغساب : حيّ على الحروب
اناس دبت الأعلال فيهم
وليس لهم كسيفك من طبيب

حيّ على الحروب ، نداء قوي ، وصوت عالٍ
مجلجل ، يبعثه من أعماق قلبه الى الناس كافة كي يستيقظوا
ويهبوا كالليوث الى سوح المعارك ، مؤذّنين ما عليهم من
فروض الجهاد .

وتعالت أصوات الشعراء الشرفاء من كل مكان ،
طالبة النهوض بهم الأبطال ومعنوياتهم ، والمسير الى مواقع
الأحداث ، لكبح جماح المغيرين على الأرض ، أرض
المسلمين التي فقدت عزتها وحصانتها بعد فتور رجالها وخول
فتيانها ، وقعود أصحاب الشأن عن نصرتها . وقد آلم هذا
الواقع المرير الشاعر سعادة بن عبدالله الأعمى ، ونادى
بصوت جهور^(٧٩) :

شِمّ بالشام سيوفاً من عزائمهم
إذا غمدت المواضي ليس تنغمد
ولا تخفّ فالعوالي شوكها ثمر
حلو الجنى ، والمعالي صابها شهد
واخطب بحدّ المواضي كل شامخة
في أنفها شمّم في جيدها غيد
فمن يكن بالمواضي مخاطباً أبداً
زفّت اليه بلاد كلها خرد
نعم ، بالسيف المواضي تتحقق الأمانى ، وبالرمح
العوالي تجنى الثمار الغوالي . ومن ينظر الى دعوة الشاعر ،
المقدمة بأسلوب رقيق جذاب ، يجدها مغرية ومشوقة ، فهو
يريد من قائد الفرسان ان يتقدم لخطبة الشائحات المنيقات ،
أي المدن الحصينة والقلاع الرصينة ، وهو متأكد بزفافها اليه
بأبهى حلّة ما دام مقبلاً عليها بحماسة ومقتحماً إياها
بشجاعة .

ان صورة العروس البهيجة المتوشحة بالحلي والزينة
كثيرة في أدب الحروب الصليبية ، اتخذها الشعراء وسيلة
للاغراء وأداة للاندفاع والخروج الى جبهات القتال للمنازلة

والمصاولة وقهر الأعداء ، من ذلك قول عرقلة الكلبي^(٨٠) :
 الى كم ذا التواني في دمشق
 وقد جاءتكم مصر تهادى
 عروسٌ بعملها أسدُ هصور
 يصيد المعتدين ولن يصادا
 ألا يا معشر الأجناد سيروا
 وراء لسوائه تلقوا رشادا
 وما كل امرئٍ صلى مع النسا
 من مأمونا كمن صلى فرادى
 تحريض واستنهاض للمسير خلف القائد الهمام ،
 بجماعات متكاتفه ، وأياد متضامنة ، وصفوف متراصة .
 ومثل هذا الشعر نجده أيضا عند الشاعر ابن الساعاتي حينما
 حث صلاح الدين على التوجه نحو حلب ومنازلتها ، ولكنه
 لم يشبهها بعروس غيداء ، بل بعقيلة حسناء ، رشيقة
 القد ، أسيلة الخد ، تزهو بهاء ورواء^(٨١) :
 هي العقيلة حسناً والزمان بها
 متيماً كلف الأحشاء غير خلي
 رشيقة القد لا تسمو اليه يدُ
 أسيلة الخد لا تدنو من القبل
 كم مقلبة سهرت وجداً بمقلتها
 لم تكتحل بكري شوقاً الى الكحل
 بكر المعازل فاخطبها مكابرة
 بكل أعمى أصم الكعب معتدل
 أخذ صلاح الدين هذه العقيلة ، وجعلها في امرته
 معززة مكرمة . قال العماد الأصبهاني^(٨٢) : « وأقام بالقلعة
 مستويا على عرش السمو والرفعة ، فأدار العدل في داره ،
 وأفاض الفضل بأنوائه وأنواره ، ووظف المكارم ، وكشف
 المظالم . . . وكتب الى أصحاب الأطراف والأوساط ،
 لاجتماع عساكر الجهاد من جميع الجهات عنده للرباط » .

لازم الشعراء صلاح الدين ، ورافقوه في خطواته
 الموفقة ، وباركوا له فتوحاته في قصائد عامرة بالفاظ الكفاح
 والجهاد ، وطالبوه بالاستزادة من هذه الفتوحات ، حتى
 تتحرر الأرض المغتصبة كاملة ، وتنجو الأمة من العصبية
 الغادرة ، ومن هؤلاء الشعراء عمارة بن عقيل اليماني في
 قوله^(٨٣) :

أضفت الى أجر الجهاد زيارة الـ
 خليل ، فأبشُر ، أنت غازٍ موفق
 وهيئت للبيت المقدس لوعة
 يطول بها منه اليك التشوق
 وغزوك هذا سلمٌ نحو فتحة
 قريباً ، وإلا رائدٌ ومُطرق
 هو البيت ، إن تفتحه ، والله فاعل
 فما بعده بابٌ من الشام مغلق
 هذا الصوت في ذكره القدس « نسمعه من شاعر في
 مطلع حكم صلاح الدين ، وما جاء فيه أمنية الأمانى ؛ فان
 البيت المقدس قبلة المسلمين الاولى ، ومسرى الرسول
 الأكرم محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - وفيه قبة
 المسجد الأقصى الذي ورد ذكره في قوله تعالى^(٨٤) :
 ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى
 المسجد الأقصى ﴾ ، كما جاء ذكره أيضا في الحديث
 الشريف^(٨٥) : « لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا الى ثلاثة مساجد ،
 مسجدي هذا ؛ والمسجد الحرام ، ومسجد البيت
 الأقصى » .

ان احتلال القدس من الفرنج وبقاءهم فيها زمنا
 طويلا أقلق المسلمين كثيرا وأزعجهم ، وكان العماد
 الأصبهاني كاتب صلاح الدين وأمين سره من أكثر الشعراء
 الذين شغلهم هذا الاحتلال المقيت ، فقال في أول قصيدة
 هنا فيها صلاح الدين بقيام دولته^(٨٦) :

ولا تهملوا البيت المقدس ، وأعزموا
على فتحه غازين ، وافترعوا البكرا
وذكره بالقدس في قصيدة ثانية ، فقال^(٨٧) :
فتمل فتحك ، واقصد القدس الذي
بحصوله لفتوحك الإتمام
دُم للعلی حتى يدوم نظامها
واسلم يعز بنصرک الاسلام
وقال له في قصيدة ثالثة^(٨٨) :
فیسر وافتح القدس ، واسفك به
دماء متى تجرها ينظف
واستهضه في قصيدة رابعة^(٨٩) :
نهوضاً الى القدس یشفى الغلیل
بفتح الفتوح ، وماذا عسیر
سل الله تسهیل صعب الخطوب
فهو على كل شيء قدير
هذا التكرار في الاستنهاض ، والالاحاح في استعادة
القدس السليب دليل الحب لهذا المكان الطاهر المقدس الذي
یؤمه المسلمون ، ویبرکون به ، ویستلهمون منه مواقف
السلف الصالح حين هبوا لنشر رسالة الاسلام .
كيف یبنا المسلمون ویبدأ بالهم وهو یرون المسجد
الأقصى یید المحتلین الغاصبین من الفرنج ، یجوسون في
أروقته ، ویجلسون في حجراته ، یتجاذبون أطراف الحديث
بحرية وكأنهم أسسوه بسواعدهم ، وینوه بأيديهم ، وصانوه
بعرق جبینهم .
لقد كان الشعراء لسان حال المسلمین الذین یتمنون
ان ینخرج الاغریة من المسجد الأقصى ، ویعود الى أصحابه
الشرعیین ، ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾^(٩٠) وكان
صوت الشاعر الحکیم أبی الفضل عبدالمنعم بن عمر الجلیانی
قویاً ومدویاً في هذا المقام^(٩١) :

فذا المسجد الأقصى وهمتك العليا
وعزمتك القصوى ورميتك الصمًا
فما هو إلا ان تهم وقد أتت
فتسوح كما فاض الخضم الذي طمًا
وان أنت لم تُرد الفرنج بوقعة
فمن ذا الذي يقوى لبنائها هدمًا
وليس كفتح القدس منية قادر
وما إن تلقاها سوى يوسف جزما
علم الشاعر ان الخلاص من الذل والعبودية لا يتم إلا
بید صلاح الدین ، حامی الحمی الذي نذر نفسه للجهاد ،
فوجه اليه هذه الأبيات التي دعا فيها ان یبذل كل جهده ،
وأقصى همته ، وأقوى رميته في ضرب الفرنج وطردهم من
البلد الذي طالما انتظر المسلمون ان یعود الى أحضانهم بفارغ
الصبر بعد غيبة طويلة استغرقت تسعين عاما كما قال الشاعر
الحسن بن علي الجويني^(٩٢) :
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ وال
إسلام أنصاره صم وعميان
نعم ، صرخت بلاد الله كثيراً ، ونادت :
وا إسلاماه ! ، وطال جواب النداء ، حتى هيا الله لها
المجاهد الكبير صلاح الدین ، فلبى النداء ، ونهد لمعارك
الجللاء بأمانة واخلاص ، وقرت بعباته عیون المؤمنین
كما یقول ابن الساعاتي^(٩٣) :
جَلَّتْ عِزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمَبِينَا
فَقَدْ فَرَّتْ عِیُونَ الْمُؤْمِنِينَا
وهذا البيت مطلع لقصيدة نظمها الشاعر بعد فتح
« طبرية » الموقع الحصين الذي اتخذته الفرنج درعا واقيا
لهم ، وأشار فيها الى ابتهاج « القدس » بهذا النصر وتفاؤلها
بمقدم يوم الفتح الأكبر :
تهز معاطف القدس ابتهاجاً

وَتَرْضِي عَنْكَ مَكَّةَ وَالْحَجُونَ
فَلَوْ أَنَّ الْجِهَادَ يَطِيقُ نَطْقاً
لَنَادَتْكَ ادْخُلُوهَا آمَنِينَا
فَقَلْبَ الْقُدُسِ مَسْرُورٌ وَلَوْلَا
سُطَاكَ لَكَانَ مَكْتُوباً حَزِينَا
أَدْرَتْ عَلَى الْفَرَنْجِ وَقَدْ تَلَاقَتْ

جَمُوعُهُمْ عَلَيْكَ رَحَى طَحُونَا
كثرت معارك صلاح الدين قبل فتح القدس ،
وتعددت مواقفه الشديدة مع الفرنج ، واستغرقت أكثر من
خمس عشرة عاماً ، وكانت معركة « جطين » الخالدة من
أعنف المعارك وأشدّها وطأة على الأعداء ، وكان فضل
الانتصار فيها للقيادة الحكيمة التي ترأسها هذا البطل العظيم
والجنوده الميامين ، وننقل هنا طرفاً من هذه المعركة ، قال
العماد الأصبهاني (١) : « أما عساكرنا فلإنها اجترات ، ومن
كل ما يعوقها برئت ، فهذا لسانه شاحذ ، وهذا لعنانه
آخذ ، وهذا سهم مفوّق ، وهذا سهم موفّق ، وهذا مكث
للتكبير ، ومتنظر للتكبير . . . والسلطان رحمه الله قد وثق
بنصر الله ، فهو يمضي بنفسه على الصفوف ، ويحضهم
ويعدّهم من الله بنصره المألوف ، ويفري المئين بالالوف ،
وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون ، ويصدّون العدو
ويردّون ، وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول
الناس ، وكان حصانه قوي الراس ، فابعد عن اخوانه ،
ولم يتابعه أحد من أقرانه ، فانفرد به الفرنج ، فأثبت في
مستنقع الموت رجله ، وقاتل الى ان بلغوا قتله ، فلما اخذوا
رأسه ظنوا انه أحد أولاد السلطان ، وانتقل الشهيد الى جوار
الرحمن ، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده
حميت حميتهم وخلصت لله نيتهم . . . » بهذه الروح كان
يقاتل جند القائد صلاح الدين ، وقد وقعت هذه المعركة
التي قصمت ظهور الفرنج وبددت أحلامهم سنة ٥٨٣ هـ ،

وهي على مشارف القدس ، وكانت مقولة هذا القائد قبل
خوضها مؤثرة في قواده المسكين بزمام المبادرة (٢) : « هذا
اليوم الذي كنت أنتظره ، وقد جمع الله لنا العساكر ، وأنا
رجل قد كبرت ، ولا أدري متى أجلي ، فاغتنموا هذا
اليوم ، وقاتلوا الله تعالى ، لا من أجلي . نعم ، كان لله
قتالهم ، وفي سبيله نضالهم ، ولتنفيذ أمره جهادهم
واستشهادهم ﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده ﴾ (٣) .

هيا القائد مستلزمات النزال ، وعبأ الطاقات ، كل
الطاقات لملاقاة القوات المتجحفلة أمامه بأعدادها البالغة
خمس وأربعين ألفاً ، وزادها بعضهم الى ثلاثة وستين ألفاً ،
بين فارس وراجل . أما عدد المسلمين فكان اثني عشر ألف
مقاتل . واصطدم الجمعان ، وتضارب الطرفان ، واحتدم
القتال بضراوة ، واشتد الجلال بقساوة ، الى ان انكسر
الفرنج شر كسرة ، وتحطمت آلاتهم وأدواتهم ، وهلك منهم
الآلاف ، وفر الباقون فزعين من هول ما رأوا وشدة ما وقع
على أصحابهم ورفاقهم . وقد أحدث هذا النصر المبين رنة
فرح تردد صداها في أنحاء العالم الاسلامي ، وكتب العماد
الأصبهاني على لسان صلاح الدين الأيوبي « في ذلك سبعين
كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع » (٤) ، ونظم قصيدة
بهذه المناسبة الخالدة مطلعها (٥) :

أطيب بأنفاسٍ تطيب لكم نفساً

وتعتاض من ذكراكم وحشتي انسا

ومنها :

كسرتهم إذ صخّ عزمك فيهم

ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم

ولم ترض أرض ان تكون لهم رسا

وطارت على نار المواضي فراشهم

صلاء فزادت من خودهم قسا

وقد خشعت أصوات أبطالها فيما
يعي السمع إلا من صليل الظبي هما
تقاد بدماء الدماء ملوكهم
اسارى كسفن اليم نُطت بها القلسا
تعطينا هذه القصيدة صورة للفرسان المهاجمين بعزيمة
وثبات على الأعداء ، ضاربين بسيوف الحق رقابهم ،
وتاركين جثثهم تملاً الأرض طعاماً للطيور الجارحة والذئاب
الجائعة ، الى جانب الاسارى وهم يساقون للبيع بأبخس
الأثمان ، وقد جاءت الصورة أوضح عند فتيان
الشاغوري^(١) :

أوردت أطراف الرماح صدورهم
فولغن في علق النجيع الأحمر
ولوا وعقبان النون مِسْفَةً
والخيل تعثر بالقنا المتكسر
لا ينظرون سوى حسام مشهر
ومن الدماء كأنه لم يشهر
فالقوم نهبٌ للسباع تنوشهم
من كل ذي ناب وصاحب منسر
فمن الذي من جيشهم لم يخترم

قبلاً ومن من جمعهم لم يؤسر
انهم أصبحوا كالفراش المبتوث بين قتيل تنهش فيهم
السباع ، وأسرى بأيدي تباع . وقد أحسن العماد الأصبهاني
وصف هذا الموقف ، فقال^(٢) : « وامتلاً الملأ بالأسرى
والقتل ، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى ، وقيد
الاسارى في الحبال واجبة القلوب ، وفرشت القتلى في الوهاد
والجبال واجبة الجنوب ، وحطت حطين تلك الجيف عن
متنها ، وطاب نشر النصر بنتنها ، وعبرت بها فالفيتها محل
الاعتبار ، وشاهدت ما فعل أهل الاقبال بأهل الادبار ،
وعاينت أعيانهم خبراً من الأخبار ، ورأيت الرؤوس

طائرة ، والنفوس باثرة ، والعيون غائرة ونجد
لوحة غريبة عن هذه المعركة الفاصلة عند ابن سناء
الملك^(٣) :

خائنهم ذلك السلاح فلا الرم
ح ثنى ولا المهند طنا
ونولت تلك الخيول فكم يث
مخ عليها بأنها ليس ثنى
أشجع القوم فيهم جاعل الدر
ع هروباً او الفرار مجنا
ونصبتهم بحلقة صيد

تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بحاراً
فجرت فوقها الجزائر سفنا
صنعت منهم وليمة وحش
رقص المشرفي فيها وغنى
لم تنجهم قواتهم الكثيرة ، ولم تحمهم اعتدتهم
الغفيرة ، وولت خيولهم شاردة ، وفرسانهم هاربة ، ووقع
من تبقى منهم في الشباك ، تشويهم النار في وليمة ، وأي
وليمة ؟ كان المشرفي يرقص فيها تارة ويغني تارة أخرى .

لم يقف صلاح الدين عند هذا الفوز الساحق والظفر
المالحق ، ولم يمهل الأعداء ان يرتقوا فتقهم ويجددوا بنيانهم
المتهاوي ويلموا شعثهم ويهيئوا أمرهم لمعركة جديدة ، بل
مضى مسرعاً الى البيت المقدس ودخله دوغماً عناء او مقاومة
شديدة ، وأمر ملك الفرنج ، ودخل المسجد الأقصى ،
ونصب المنبر الذي هياه من قبل نور الدين محمود لمثل هذا
اليوم ، يوم النصر ، وصلى مع صحبه المجاهدين ، وشكر
الله على هذا الفتح المبين ، وقام قاضي القضاة عبي الدين
محمد بن علي المعروف بابن زكي الدين وخطب في أول جمعة
خطبة طويلة استقصى فيها مكانة القدس عند المسلمين والاثـر

الذي أحدثه رجوعها في النفوس ، ومما جاء فيها قوله^(١٠٠) :
« فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات
النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ،
والفتوحات العمرية ، والفتكات العلوية . جددتم للإسلام
أيام القادسية ، والواقعات اليرموكية ، والمنازلات
الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن محمد نبيه
أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في
مقارعة الأعداء » .

كان هذا الفتح الجليل نصراً لا نظير له آنذاك ، هز
النفوس ، وسر الأفتدة . وراح الشعراء يترغمون من نشوة
الطرب ، وينشدون لقائدهم قصائد الابتهاج بيوم الجلاء
من المدينة الشفاء التي استعصى فيها زمناً طويلاً ، وتسابقوا
في الدخول عليه والمثول بين يديه للتهنئة ، وكان أول صوت
يشنف أذنه من ابن أخيه تقي الدين عمر قصيدة
مطلعها^(١٠١) :

دع مهجة المشتاق مع أهوائها
يا لائمي ما أنت من نصحاءها
ومنها :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحاً
يا كفأها ، ما العذر من عذرائها
زفت اليك عروس خدر تجتلى
ما بين أعبيدها وبين إمائها
إيه صلاح الدين خذها عادةً
بكرأ ، ملوك الأرض من رقبائها
كم خاطب لجمالها قد رده

عن نيلها ان ليس من أكفائها
شبه هذه المدينة الصامدة بالفتاة الحسناء الممنعة
الحصان التي لم تجد كفاء لها غير صلاح الدين ، الفارس
الأبي ، فزفت إليه مجلوة لتعيش في ظله آمنة مطمئنة . وهذه

الصورة - كما قلنا سابقاً - مكررة ومعادة عند الكثيرين .
واهتز رشيد الدين عبدالرحمن بن بدر النابلسي بهذا
الفتح الباهر ، وأخذته أريجية النصر القاهر ، وجادت قريحته
بقصيدة لطيفة عبّر فيها عن مشاعر المسلمين تجاه هذا العمل
البطولي النادر الذي عجز الكثيرون عن تحقيقه والأتيان به ،
مطلعها^(١٠٢) :

هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف الله أقواماً بما نذروا
نعم انتظار طويل ، عمل وثقيل ، دام تسعين عاماً ،
تحمل فيه الناس قسوة الفرنج وجورهم ، وعاشوا مروعين
هلعين لا حول لهم ولا طول ، الى ان جاء الفرج الأكبر ،
وانكشفت الشدة ، وزالت الغمة ، وذهب شبح الخوف ،
وعادت قبة الصخرة الى أهلها بسلام ، يرفرف عليها علم
الاسلام ، وصوت المؤذن بكلمة « الله أكبر » يجلجل في
جوانبها كما يقول الشاعر :

الآن قسرت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حلفاً له السهر
يا بهجة القدس إذ أضحي به علم الـ
إسلام من بعد طي وهو منتشر
الله أكبر ، صوت تقشعر له
شم الذرا ، وتكاد الأرض تنفطر
ونرى الشاعر لا يقف عند هذا الحد ، حد النصر
والفتح ، وتسلم مفاتيح البيت المقدس ، بل يريد مطاردة
الفرنج وملاحقتهم في الساحل الشامي (الطراز الأخضر)
ورميهم بعيداً ، وتثبيت أعلام الظفر وأكاليل الفرح :
يا مالك الأرض مهذها فما أحد
سواك من قبائم للمهد ينتظر
ما اخضر هذا الطراز الساحلي ثرى
إلا لتعلو به أعلامك الصفر

ويندهش نقيب الأشراف بالديار المصرية محمد بن
أسعد بن علي المعروف بالشريف الجواني من هذا النبأ ،
وينذهل من خبر دخول الجيش الاسلامي منتصرا في مدينة
القدس التي حصنها الفرنج وأقاموا فيها الحواجز
والتاريس ، وزجوا خلفها آلاف المقاتلين المدربين على أنواع
السلاح ، فقال^(١٠٠) :

أترى مناماً ما بعيني أبصر ؟
القدس يفتح والفرنجة تكسر !
ومليكنهم في القيد مصفود ولم
يُر قبل ذاك لهم ملك يؤسر !

أيفتح القدس وينكسر الفرنج ؟! ويؤسر مليكنهم
ويساق مقيدا ؟! لماذا هذا الاستغراب وقد مشى بالجيوش
مجاهد ، يلهب حماسا ، ويتوقد ايمانا بقضيته العادلة ،
مجاهد استلهم قوة ارادته ، وصلابة عزيمته ، ومتانة همته ،
من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

فُتِحَ الشَّامُ ، وَطُهِرَ الْقُدْسُ الَّذِي
هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ الْمُحْشَرُ
يَا يُوسُفَ الصَّدِيقُ أَنْتَ لِفَتْحِهَا
فَارَوْقَهَا عَمْرُ الْإِمَامِ الْأَطْهَرُ
وَأَنْتَ عَثْمَانُ الْمُشْرِفُ بَعْدَهُ
وَأَنْتَ فِي نَصْرِ النِّبْوَةِ حِيدَرُ
مَلِكُ غَدَا الْإِسْلَامِ مِنْ عَجَبٍ بِهِ

يُخْتَالُ وَالْدُنْيَا بِهِ تَتَبَخَّرُ
ويطلع علينا نجم الدين يوسف بن المجاور لقصيدة
هادرة ، ذات معانٍ سامية نادرة ، مطلعها^(١٠١) :

الْوَقْتُ أَضِيقُ مِنْ سَمَاعِ قَصِيدَةٍ
مُوسِمَةٍ لَصِفَاتِ أَغْيَدِ أَهْيَفِ
الْجُدُّ فِي هَذَا الزَّمَانِ مُبَيَّنٌ
والهزل فيه مع الغواية مخفف

لا مجال للهزل والغواية والجري وراء الملذات والغبد
الحسان والوقوف عند محاسنهم وأطايب أحاديثهم ، الوقت
أضيق من ذلك ، فهو يقتضي الإسراع الى الحرب واللقاء
بالمملك الناصر صلاح الدين ومؤازرته في الموقف الحاسم مع
العدو الغاشم :

بالناصر المهدي والهادي الى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستمين بربه والواثق الـ
منصور والمستظهر البر الوفي
شُدَّتْ قُوَى أَرْكَانِ مِلَّةِ أَحْمَدِ
وَتَحَمَّلَتْ بِجَهَادِهِ فِي الْمَوْقِفِ

عِزُّمٌ وَحِزْمٌ أَنْسِيَا مَا كَانَ مِنْ
عِزْمِ ابْنِ مُرْدَاسٍ وَحِلْمِ الْأَحْنَفِ
هذا المجاهد الصامد الثابت أنسى مآثر الرجال
المشهورين بالحلم والعزم ، مثل الأحنف بن قيس والعباس
ابن مرداس صاحب البيت المشهور^(١٠٢) :

نَقَاتِلْ عَنْ أَحْسَابِنَا بِرْمَاحِنَا
فَنَضْرِبَهُمْ ضَرْبَ الْمَذِيذِ الْخَوَاصِمَا
ويحث الشاعر ابن المجاور في القصيدة نفسها
السلطان صلاح الدين بعدما أحكم أمر الجهاد ، اوه ديوان
الجهاد ، كما يسميه ، ان يمد سيطرته على البسيطة ويوحدها
ويقوم العدل الذي فقدته بين ربوعها :

لِلَّهِ يَوْمَ عَرُوبَةٍ إِذْ أُعْرِبَتْ
سَاعَاتُهُ عَنْ نَصْرِكَ الْمُتَعَرِّفِ
هذا الطراز الأخضر استفتحته

نَزَهَا بِثَوْبٍ مِنْ عِلَاكَ مُسَجِّفِ
وَضَبَطَتْ دِيْوَانَ الْجِهَادِ بِعَامِلِ
من عامل ، وبمشرّف من مشرفي
وبجهبذ العزم الذي لا ينثني
وينظر الرأي الذي لم يطرف

فخذ الخراج من البسيطة كلها
 واستأد فرضي جزيّة وموظف
 واقبض على الدنيا بكفّ زهادة
 وابسط لرحمتها جناح تعطف
 وتابع الشاعر المشهور ابن الساعاتي أنباء معارك
 التحرير ، وتفاعل معها ، واندمج بها بكل جوارحه ،
 وكتب عنها قصائد طويلة تزخر بالصدق ، صدق العواطف
 تجاه الكماة الذين حملوا راية الكفاح . ففي إحدى هذه
 القصائد يتساءل عن العي الذي أصاب بعض الألسن ، مع
 ان الأعين قد شاهدت الانتصارات الباهرة والأذان قد
 سمعت أخبار الاشتباكات الساخنة والمصادمات الطاحنة .
 وتتمنى ان ينهض الفاتح الأول الخليفة عمر بن الخطاب ويرى
 ما صنع الأبناء البررة من الخلف الصالح ، ومقدار التضحية
 التي قدموها ، والدماء التي سكبوها قربانا لقضيتهم
 العادلة^(١١٨) :

أعياً ، وقد عايتم الآية العظمى
 لأية حال تدخر النثر والنظما
 وقد ساغ فتح القدس في كل منطقي
 وشاع الى ان أسمع الأسل الصمّا
 فليت فتي الخطاب شاهد فتحها

فيشهد أن السهم من يوسف أصمى
 ان صدى الفتح - في نظر الشاعر - تردّد في كل
 الآفاق ، حتى في أكناف الكعبة الشريفة بمكة ، ومشوى
 الرسول الكريم في ثرب . وقدم صورة بديعة ، اذ جعل
 للدين - بعد ان حسمت الجيوش الاسلامية الموقف ،
 وداوت القروح التي أعيا دواؤها بالسيوف المرفهة - ثغرا
 مفترقا تنهادى عليه السنة الأغمد لثما وتقبيلا :

حبا مكة الحسنى وثني بيثرب
 وأطرب ذياك الضرب وما ضمّا

وما كان إلا الداء أعيا دواؤه
 وغير الحسام العضب لا يعرف الحسا
 وأصبح ثغر الدين جذلان بأسا
 وألسنة الأغمد توسعه لثما
 ويعيد الشاعر في قصيدة أخرى ذكر الصحابي الجليل
 الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان له الفضل
 الأول في فتح بيت المقدس . ويعد صلاح الدين المجدد لهذا
 الفتح الذي تحامته آنذاك سادات الدنيا ومسودها ، ولم
 تستطع ان تزيل عنه الكابوس الثقيل وتحرره من القيود التي
 طوقته زمنا ليس بالقصير^(١١٩) :

هو الفاتح البيت المقدس بعدما
 تحامته سادات الدنيا ومسودها
 فضيلة فتح كان ثاني خليفة

من القوم مبدئها وأنت معيدها
 وأثرت الحروب الصليبية بالشاعر الرحالة المشهور
 ابن جبير الذي زار مصر والشام ، واعجب بشخصية
 صلاح الدين ، ووجده عن كذب سلطانا مهيبا « محال البدع
 اللعينة كلها - كما يقول - وبسط العدل ونشر الأمن »^(١٢٠) ،
 وتآلم من جانب آخر حينما شاهد المحتلون يؤذون المسلمين
 والمسلمات ، فقال^(١٢١) : « ومن الفجائع التي يعانيها من
 حل بلادهم أسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ،
 ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات
 المسلمات كذلك ، في أسوقهن خلاخيل الحديد ، فتتفطر
 لهم الأفئدة ، ولا يغني الأشفاق عنهم شيئا » . ولكن زال
 هذا الألم وحل محله الفرح والخبور بعدما جاء نصر الله بفتح
 بيت المقدس ، ونظم قصيدة تناول فيها الخطوات الجبارة
 التي خطاها صلاح الدين في تحرير أرض المسلمين من قبضة
 الفرنج ، والضربات القاصمة التي جعلتهم يولون الأدبار ،
 وأشاد بصبره وجلده على مقارعتهم ، وسهره في مرضاة

الله ، ننقل منها الأبيات الآتية (١١١) :

وجاهدت مجتهداً صابراً

فلله درك من صابري

تبعت الملوك على لشرشها

وترفل في الزرد السابري

وتؤثر جاهد عيش الجهاد

على طيب عيشهم الناصر

وتسهر جفونك في حق من

سيرضيك في جفونك الساهر

فتحت المقدس من أرضه

فعادت الى وصفها الطاهر

وأعلنت فيه منار الهدى

وأحييت من رسمه الدائر

وكان الشاعر الأندلسي الآخر أبو الفضل عبد المنعم

ابن عمر الجلياني أكثر حماسة لاستعادة الحمى الذي كل كل

عليه الفرنج بظلمه وجبروته ، ونظم قصائد طوالاً شكلت

ديواناً كبيراً نقل منه أبو شامة المقدسي خمسا منها ، جاء في

أحداها المسماة بـ « القدسية الكبرى » وهي في مئة وأثنين

وخمسين بيتاً (١١٢) :

لسرعة فتح القدس سر مغيب

وفي صرعة الافرنج معتبر بدا

أتوا كحبال ابرمت لاسارنا

فسفناهم فيها قطيناً مجددا

وجروا جيوشاً كالسيول على الصوى

لأضحت غشاء في البطاح عمدا

أرى الله فيها معجز النصر مخلصاً

لأمر صلاح الدين في الناس تخلدا

ومن عجب خمسون ألف مقاتل

سبهم جيوش ليس فيها من ارتدى

وعلى الباغي تدور الدوائر - كما يقال - فانهم جاءوا

بجنود مجندة لضرب قوات المسلمين وبادتها ، ولكن هذه

الجنود تحولت بهمم الرجال الشجعان الى غشاء لا قيمة له ،

وهباء متناثر لا شأن له ، الى جانب عدد كبير من الأسرى

وهم منكسرو الرؤوس من القهر الذي تحملوه في النفوس .

وله قصيدة أخرى تسمى بـ « التحفة الجوهريّة »

مطلعها (١١٣) :

رفاهية الشهم اقتحام العظام

طلاباً لعز ، او غلاباً لضائم

البطل الصابر الجريء الذي ارتضى ان يكون مهاده

شوك القتاد ، قتاد الحرب ، عاشق للجهاد عشق الحبيبين

المولّين المرتبطين برباط دائم لا انفصام له ، وملازم لهذا

الجهاد ملازمة العابد في صبحه ومساءه وصيفه وشتائه بصوت

المؤذن لأداء فروض الصلاة :

فانت المليك ، الناصر الحق معناً

يرى دهم شوك الحرب مهد النواجم

أعشقتك الهيجاء أم أنت عاشق

لها في وصال من حبيبين دائم ؟

شتاء وصيفاً لا نزال نراك في

مساء وصبح كالأذان الملازم

ويكرر هذا الشاعر في أكثر من قصيدة مطلباً عظيماً ،

هو إقامة « الوحدة الكبرى » التي يتقوى بها المسلمون

ويستعيدون بها مجد البطولات الباهرة في عصر الرسالة (١١٤) :

يا فاتح المسجد الأقصى علي بهم

وقانص الجيش لا يحصى بقنصرته

أبشر بملك كظهر الشمس مطلع

على البسيطة فتاح بنشسترته

حقى يكون هذا الدين ملحمة

تحكي النبوة في أيام فترته

الحق لا يسترد إلا بالقوة والوحدة والتضامن ، وقد أدرك الشاعر هذا الشيء ، لذلك دعا الى جمع الشمل وتوحيد العالم الاسلامي تحت راية واحدة وبأمرة قائد حكيم واحد ، وهذا الطموح المشروع نجده أيضا عند العماد الأصبهاني^(١١٠) :

ترَكَلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَكَ أَصْبَحْتَ
كَلَاءَتَهُ دِرْعاً ، وَعَصْمَتَهُ تَرَساً
وَدُمُرْ عَلَى الْبَاقِينَ ، وَاجْتِثْ أَصْلَهُمْ
لَمَّا نَكَ قَدْ صَيَّرْتَ دِهْنَارَهُمْ فَلَسَا
وَلَا تَنْسَ شَرْكَ الشَّرْقِ غَرْبَكَ مَرْوياً
بِمَاءِ الطَّلِيٍّ مِنْ صَادِيَّاتِ الطُّبِيِّ الْخَمْسَا
وَأَنْ بِلَادَ الشَّرْقِ مَظْلَمَةٌ فَخُذْ
خِرَاسَانَ وَالنَّهْرِينَ وَالتُّرْكَ وَالْفَرَسَا
بِهَذِهِ اللَّغَةِ السَّهْلَةِ يَخَاطِبُ الشَّاعِرُ قَائِدَهُ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى
مَوَاصِلَةِ الْجِهَادِ ، وَيَمْدَحُ حُكْمَهُ فِي بِلَادٍ وَاسِعَةٍ تَظَلِّلُهَا رَايَةُ
وَاحِدَةٍ قَائِمَةٌ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ .

ان الشعر الذي ذكرنا أمثلة منه في هذا البحث جزء يسير من سفر كبير نستطيع ان نطلق عليه « ديوان جهاد صلاح الدين » شاركت فيه أقلام كثيرة من بلدان مختلفة ، سَطَّرت فيه بأمانة وإخلاص ما جرى على الساحة العربية زمن صلاح الدين الأيوبي من كفاح ونضال في مجابهة فئة حاملة في جعبتها سهاما مرديّة لآناس لا ذنب لهم سوى أنهم يعيشون على أرضهم بأمان وأطمئنان ويحسون أمانهم المقدسة التي توارثوها مفتاحها من آباؤهم وأجدادهم .

وبما يميز هذا الشعر انه كان يدور في مضمون واحد ، او في تجربة واحدة ، تجربة الحرب المريرة التي انهكت العالمين آنذاك ، وازهقت أرواحا بريئة ، واتلفت أموالا كثيرة ، وقد

تضافر الشعراء على توضيح هذه التجربة ونقلها الى القارىء بأسلوب سهل مأنوس . وسمة السهولة والوضوح معروفة في القرن السادس للهجرة ، تسدهى باتجاه الرقة والسهولة ، او مدرسة الرقة والسهولة كما يسميها الدكتور محمد كامل حسين^(١١١) . وهذه الطريقة شاعت وراجت وكثر سالكوها ، لأنها أسير السبل في إيصال الأصوات في هذا الظرف العصيب المكفهر الى العامة والخاصة من الناس . وكان المعجم الشعري لهذه الأصوات ميسورا وسهلا لا تعقيد فيه ولا غموض ولا التواء في دلالة ، الى جانب اللغة الفصحى .

لقد عبر الشاعر آنذاك عن واقع الحرب وما يعانيه الناس في ظلها تعبيرا صادقا ، والتجربة الشعرية كما هو معروف « حدث وجداني او عاطفي ، حدث ينبع من نفس صاحبه ، ومن عقله ، ومن كل حواسه ، ودخائله النفسية والفكرية ، الظاهرة والباطنة ، حدث عاشه أوضح ما تكون المعيشة »^(١١٢) . وهل هناك أكبر من هذا الحدث الذي هزه وأقلق ونقص عليه حياته ؟ وهل هناك أصعب من هذه المشكلة التي ثلثت العزة وجرححت الكرامة ؟ لا أظن أمرا يعادل الحرب والدمار والصراع الدامي - ان لم أكن مخطئا - في تأثيره على النفوس . ومن هنا جاء تعبير الشاعر في تلك الظروف صادقا وصحيحا لا كذب فيه ولا تزوير . يقول الدكتور محمد النويهي^(١١٣) : « والصدق الذي نريده من الأديب دائما ان يقول بلسانه حقيقة ما في قلبه ، فإن قالها فهو صادق بمعنى الصدق الأدبي ، وان خالف كلامه الواقع في بعض الأشياء ، وان لم يقلها ، فهو كاذب بمعنى الكذب الأدبي » . وكان الشاعر - وهو من الطبقة المثقفة الواعية - أميناً في تصوير الواقع ، وقد استعان في هذا التصوير بالفنون البيانية . فمن التشبيه قول علي بن أبي الحسين يحمي المعروف بابن الدروي في وصف الجيش الذي لا يقهر^(١١٤) :

لله جيشٌ منك لا ينشني
إلا بنصلٍ دُميتْ شفرتاه
ما بين عقبانٍ ولكنها
خيلٌ وفرسانٌ كمثّل البزاه
آساد حربٍ فوق أيديهم
أساود الطعن ، فهم كالخواه
ومن الاستعارة الممتزجة بالكناية قول العماد
الأصبهاني^(١١١) :

واهترّ عطف الاسلام من جذلٍ

وافترّ ثغر الايمان وابتنسما
ومن الاستقراء الداخلي للنصوص الشعرية في هذه
الحقبة يستبين للقارئ ولع بعض الشعراء بالبديع في تزيين
الصور ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء القاضي الفاضل ،
الذي اختط لنفسه طريقة عرفت به ، وامتاز بها في زمنه ،
وما تلاه من الأزمان ؛ فانه أكثر من استعمال التورية ،
والجناس ، والطباق ، والتلميح ، والاستخدام ،
والتوجيه ، ومراعاة النظير ، والاقتراس من آيات القرآن
الكريم . . . وقد اعجب رجال الصنعة بطريقته ، مسجلين
له أعظم تقدير وثناء ، ولا سيما ابن حجة الحموي^(١١٢) .
ونورد هنا أمثلة قليلة جدا ، لأننا لا نريد ان نثقل البحث
بالشواهد ، فهي كثيرة لمن يريد ان يطلع عليها في مصادر
هذه الحقبة . فمن الطباق الى جانب التقسيم قول سعادة بن
عبدالله الأعمى من قصيدة وجهها الى صلاح الدين^(١١٣) :

صدعت ما شعبوا ، قطعت ما وصلوا

فللت ما شحذوا ، حللت ما عقدوا

ومن المقابلة قول ابن سناء الملك^(١١٤) :

يرؤه الصبح المنير اذا بدا

ويوحشه الليل البهيم اذا جئنا

ومن الجناس قول رشيد الدين النابلسي^(١١٥) :

زاروا غموراً ، ولا تغني وقاحتهم
اذا اسودك في ابطالهم زاروا
ومن الترصيع قول العماد الأصبهاني^(١١٦) :

مسعودة غدواته ، محمودة

روحاته ، ميمونة ضحواته

ان هذه النماذج وأمثالها - وهي كثيرة في شعر الجهاد -
لم تسط على المعنى وتوضح به ، بل زادت من الشرح
والإبانة ، ومن دعم الصور الشعرية التي عبّر الشعراء من
خلالها عن واقع المعارك العنيفة آنذاك وحالات المواجهة
الشديدة مع الفرنج .

والجدير بالذكر ان سمة المبالغة بارزة وشائعة في شعر
الحرب في عصر صلاح الدين ، وقد تصل عند بعضهم حدا
غير مستساغ ، مثل قول ابن سناء الملك في وصف قوة
صلاح الدين وشدة بأسه^(١١٧) :

بضربٍ يذيب الشمس في الافق حره

ويحرق ما بين القلوب من الشحنا

وقول ابي المكارم هبة الله بن وزير بن مقلد المصري في
وصف جيوش صلاح الدين التي تضيق الأرض بهم ، وتكاد
تميد من الخوف حين تحقق بنودهم فوق نجودها^(١١٨) :

جيوش تضيق الأرض عنها كأنها

أفاويض بحر عاجلتها مدودها

تمور نجود الأرض من عظم خوفه

اذا خفقت في الخافقين بنودها

وتقترن المغالاة بالحشو والتطويل والتكرار عند

الكثيرين من الشعراء الذين ولبوا باب الشعر الحربي^(١١٩) ،

وهذا الأمر - وان كان يعكس الحركة النفسية الداخلية لدى

الشعراء تجاه الحرب آنذاك - يقلل من القيمة الفنية لهذا

الشعر ، ويضعه في مرتبة دنيا اذا ما قيس بالشعر الحربي في

عصر المتنبي وأضرابه من الشعراء .

وفي الختام أقول : ان الشعر - وهو مرآة تنعكس عليها صورة الواقع - عبّر خير تعبير عن حالة المجتمع الذي عاش سنوات الشدة والضيق والخرج في ظل الاحتلال الأجنبي المتمثل في الامارات الصليبية ، ثم الأمل والانطلاق والانفتاح والعيش بعزة وكرامة في عهد المجاهد الأبى صلاح الدين الذي اتصف بسمو الخلق ونبيل النفس . وهذا الشعر الذي درسناه في هذا البحث الوجيز سلط الأضواء على مواضع صغيرة وأطراف محدودة لا تكفي ان تعطي صورة واضحة ومتكاملة عن رجل عظيم تعلق به الامة في القرن السادس للهجرة ووجدت فيه الأمل المنشود في استرداد الوطن الحبيب من الغاصبين . ونأمل ان يتناول أحد الباحثين هذا الشعر في دراسة كبيرة يكشف فيها عن جوانب مشرقة وصفحات مضيئة من تاريخنا العظيم الذي قدم فيه أبنائه التضحيات الجسام على مذبح الحرية ودرب الخلاص من التبعية .

الهوامش

- (١) حسن المحاضرة ٢ : ٨ .
- (٢) النوادر السلطانية ص ٦ .
- (٣) تاريخ ابن الفرات ١/٤ : ٥٥ .
- (٤) الروضتين ١ : ١٠٠ .
- (٥) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ١٥٨ .
- (٦) الروضتين ١ : ٥ .
- (٧) حسن المحاضرة ٢ : ٤ .
- (٨) الروضتين ١ : ٣٩٥ .
- (٩) حسن المحاضرة ٢ : ٥ .
- (١٠) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ١٦١ .
- (١١) النوادر السلطانية ص ٤١ .
- (١٢) النوادر السلطانية ص ٤١ .
- (١٣) الخريدة ، قسم مصر ، ١ : ١٠٨ .
- (١٤) ديوان فتیان الشاغوري ص ٣١٩ .
- (١٥) الروضتين ١ : ٥٠١ .
- (١٦) الروضتين ٢ : ٢١٤ .
- (١٧) الروضتين ٢ : ٢١٣ .
- (١٨) الروضتين ٢ : ٢١٥ ، مرآة الزمان ٨ : ٤٣١ ، الانس الجليل ١ : ٣٩٥ ، شفاء القلوب ص ١٨١ .
- (١٩) الروضتين ٢ : ٢٢٤ ، وينظر شفاء القلوب ١٨٢ .
- (٢٠) ديوان ابن قلاقس ١ : ٢٨٩ .
- (٢١) ديوان ابن عنين ص ٢٦ .
- (٢٢) النوادر السلطانية ص ٢٦ .
- (٢٣) النوادر السلطانية ص ١٩ .
- (٢٤) عيون الأنباء ٣ : ٣٣٧ .
- (٢٥) سورة الحجر ، الآية ٤٧ .
- (٢٦) ديوان القاضي الفاضل ١ : ١٦٢ .
- (٢٧) طبقات الشافعية ٧ : ٣٤٠ .
- (٢٨) حسن المحاضرة ٢ : ١٩ .
- (٢٩) الروضتين ١ : ٦٣١ .
- (٣٠) الروضتين ١ : ٦٠٥ .
- (٣١) ديوان اسامة بن منقذ ص ٢١١ ، وينظر اسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية ص ٢٤ .
- (٣٢) النوادر السلطانية ص ٢١ .
- (٣٣) طبع في بيروت سنة ١٩٤٨ . بتحقيق كلود كاهين .
- (٣٤) النوادر السلطانية ص ٢٢ .
- (٣٥) النوادر السلطانية ص ٢٣ .
- (٣٦) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ١٠٦ ، الروضتين ١ : ٦٩٥ .
- (٣٧) الخريدة ، قسم مصر ، ١ : ٢٠٣ .
- (٣٨) الروضتين ١ : ٢٠٣ .
- (٣٩) مرآة الزمان ٨ : ٣٠٤ .
- (٤٠) زبدة الخلب ٣ : ١٢٥ .
- (٤١) شفاء القلوب ص ١٩٢ .
- (٤٢) ديوان فتیان الشاغوري ص ١٤١ .
- (٤٣) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٠ .
- (٤٤) عيون الأنباء ٣ : ٢٦٥ .
- (٤٥) حققته أميرة محمود باشرافنا ، ونالت به درجة الماجستير من جامعه الموصل .
- (٤٦) وفيات الأعيان ١ : ٢٩٧ .
- (٤٧) ديوان ان الساعاتي ٢ : ٤٠٩ .
- (٤٨) الروضتين ٢ : ٨٢ .
- (٤٩) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤٩٢ .

- (٥٠) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ١٧٤ .
 (٥١) شرح ديوان المتنبي (لبرقوقي) ٢ : ٢٧٤ .
 (٥٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ٣١٧ .
 (٥٣) ينظر على سبيل المثال ديوان النابغة الذبياني ص ١٣ ،
 ديوان صريع الغواني ص ١٢ .
 (٥٤) ديوان ابن الدهان الموصل ٣٣ .
 (٥٥) ديوان ابن الدهان ص ٤٣ .
 (٥٦) مفرج الكروب ٢ : ٧٨ ، الروضتين ٢ : ٩ .
 (٥٧) سورة التوبة ، الآية ٢٥ .
 (٥٨) الروضتين ٢ : ١٢ .
 (٥٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٨٥ .
 (٦٠) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤٢٠ .
 (٦١) الروضتين ٢ : ٢٢١ .
 (٦٢) الخريدة ، قسم مصر ، ٢ : ١٤٥ .
 (٦٣) سنا البرق الشامي ١ : ٣٣٩ .
 (٦٤) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٤١١ .
 (٦٥) مفرج الكروب ٢ : ٩٩ ، الروضتين ٢ : ١٦ .
 (٦٦) سورة التوبة ، الآية ٤١ .
 (٦٧) ديوان القاضي الفاضل ١ : ١٨٤ .
 (٦٨) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٢٩٢ .
 (٦٩) الروضتين ١ : ٥٩٨ .
 (٧٠) الروضتين ١ : ٦٠٠ .
 (٧١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .
 (٧٢) الخريدة ، قسم الشام ، ٢ : ٢٣٣ .
 (٧٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢٣ .
 (٧٤) ديوان سبط ابن التعاويدي ص ١١٠ .
 (٧٥) ديوان فتيان الشاغوري ص ٢٥١ .
 (٧٦) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .
 (٧٧) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤٠٦ .
 (٧٨) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٣٠٣ .
 (٧٩) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤١٢ .
 (٨٠) ديوان عرقلة الكلب ص ٣٢ .
 (٨١) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٨٣ .
 (٨٢) البرق الشامي (مخطوط) ٥ : ٩٤ .
 (٨٣) النكت المصرية ص ٢٢٩ ، الروضتين ١ : ٤٩٢ .
 (٨٤) سورة الاسراء ، الآية ١ .

- (٨٥) صحيح مسلم ٢ : ٩٧٦ .
 (٨٦) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ١٦١ .
 (٨٧) نفسه ص ٣٧٨ .
 (٨٨) نفسه ص ٣٠٤ .
 (٨٩) نفسه ص ١٩٤ .
 (٩٠) سورة آل عمران ، الآية ١٧٠ .
 (٩١) الروضتين ٢ : ١١٦ .
 (٩٢) الروضتين ٢ : ١٠٥ .
 (٩٣) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٤٠٦ .
 (٩٤) الروضتين ٢ : ٧٧ .
 (٩٥) الروضتين ٢ : ٨٢ .
 (٩٦) سورة الحج ، الآية ٧٨ .
 (٩٧) الروضتين ٢ : ٩٦ .
 (٩٨) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٢٣٠ .
 (٩٩) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٤ .
 (١٠٠) الروضتين ٢ : ٧٨ .
 (١٠١) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٤١ .
 (١٠٢) الروضتين ٢ : ١١٠ ، مفرج الكروب ٢ : ٢١٨ ،
 وفيات الأعيان ٣ : ٣٦٤ ، شفاء القلوب ص ١٣٠ .
 (١٠٣) الخريدة ، بداية شعراء الشام ، ص ٢٥ ، مفرج
 الكروب ٢ : ٢٣٦ ، كنز الدرر ٧ : ٩١ .
 (١٠٤) الروضتين ٢ : ١١٨ .
 (١٠٥) الروضتين ٢ : ١٠٥ ، مفرج الكروب ٢ : ٢٣٣ ،
 كنز الدرر ٧ : ٩٦ .
 (١٠٦) الروضتين ٢ : ١٠٣ .
 (١٠٧) ديوان العباس بن مرداس السلمي ص ٧٠ .
 (١٠٨) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٨٥ .
 (١٠٩) نفسه ٢ : ٤١٠ .
 (١١٠) رحلة ابن جبير ص ٣١ .
 (١١١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ .
 (١١٢) ابن جبير الأندلسي شاعرا ص ٥٠٢ .
 (١١٣) الروضتين ٢ : ١١٧ .
 (١١٤) عيون الأنباء ٣ : ٢٦٠ .
 (١١٥) الروضتين ٢ : ١٠٣ .
 (١١٦) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٢٣٣ .
 (١١٧) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٠ .

(١١٨) في النقد الأدبي ص ١٣٨ .

(١١٩) وظيفة الأدب ص ٤٨ .

(١٢٠) الروضتين ١ : ٥٣٢ .

(١٢١) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٣٧٧ .

(١٢٢) انظر الخزانة ٥٨ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٩٩ .

٣٠٠

(١٢٣) الخريدة ، قسم الشام ، ١ : ٤١٢ .

(١٢٤) ديوان ابن سناء الملك ص ٣٢٤ .

(١٢٥) الروضتين ٢ : ١٩٤ .

(١٢٦) ديوان عماد الدين الأصبهاني ص ٨٧ .

(١٢٧) ديوان ابن سناء الملك ٢ : ٣٢٣ .

(١٢٨) الخريدة ، قسم مصر - ٢ : ١٤٥ .

(١٢٩) ينظر بحثنا (القدس في شعر القرن السادس

للهجرة) مجلة المورد ، العدد الأول لسنة ١٩٨٢ . ويبحثنا (شعر

الحرب في عصر بني أيوب) مجلة آداب الرافدين ، العدد الخامس عشر

لسنة ١٩٨٢ .

المصادر والمراجع

١ - اسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية : جمال الدين

الآلوسي . مط أسعد - بغداد ١٩٦٧

٢ - الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل : مجبر الدين

الحنبلي . المط الحيدرية - النجف ١٩٦٨ .

٣ - البرق الشامي : عماد الدين الأصبهاني . مخطوطة

المتحف البريطاني . ج ٣ رقم ١١ ، ج ٥ رقم ٤٢٥

(توجد مصورة منه في مكتبي) .

٤ - تاريخ ابن الفرات : محمد بن عبد الرحيم بن

الفرات . تح : د. حسن محمد الشماع . ج ٤ .

مط حداد - البصرة ١٩٦٧ .

٥ - ابن جبير الاندلسي شاعرا : منجد مصطفى بهجت .

مجلة آداب الرافدين - العدد التاسع لسنة ١٩٧٨ .

٦ - حسن المحاضرة : جلال الدين السيوطي . مط دار

إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٦٧ .

٧ - خريدة القصر وجريدة العصر : عماد الدين

الأصبهاني ، تح : د. شكري فيصل . ج ٢ (قسم

الشام) المط الهاشمية ١٩٥٩ . بداية شعراء الشام .

المط الهاشمية - دمشق ١٩٦٨ . وقسم شعراء مصر .

تح : أحمد أمين ، د. شوقي ضيف ، د. احسان

عباس . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة

١٩٥١ .

٨ - خزانة الأدب : ابن حجة الحموي . المط الخيرية -

القاهرة ١٣٠٤ هـ .

٩ - دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : د. محمد كامل

حسين . مط دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٥٧ .

١٠ - ديوان ابن الدهان : عبدالله بن أسعد الموصل . تح :

عبدالله الجبوري . مط المعارف - بغداد ١٩٦٨ .

١١ - ديوان ابن الساعاتي : تح : أنيس المقدسي .

المط الأمريكية - بيروت ١٩٣٨ .

١٢ - ديوان سبط ابن التعاويذي : تح : مرجليوث .

مط المقتطف - القاهرة ١٩٠٢ .

١٣ - ديوان ابن سناء الملك : تح : محمد إبراهيم نصر - دار

الكاتب للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٩ .

١٤ - ديوان العباس بن مرداس السلمي : تح : د. يحيى

الجبوري . دار الجمهورية - بغداد ١٩٦٨ .

١٥ - ديوان فتيان الشاغوري : تح : أحمد الجندي .

المط الهاشمية - دمشق ١٩٦٧ .

١٦ - ديوان القاضي الفاضل : تح : د. أحمد أحمد

بدوي . مط دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٦١ .

١٧ - ديوان ابن قلاقس : تح : د. سهام الفريخ .

المط العربية الحديثة - القاهرة ١٩٨٢ .

١٨ - ديوان عرقلة الكلبي : تح : أحمد الجندي . مط دار

- ٢٧ - عيون الأنباء : ابن أبي أصيبعة . مط الاقبال - بيروت ١٩٥٦ .
- ٢٨ - في النقد الأدبي : د. شوقي ضيف . مط دار المعارف - القاهرة د. ت .
- ٢٩ - كنز الدرر وجامع الغرر : عبدالله بن أبيك الدواداري . ج ٧ . تح : سعيد عبدالفتاح عاشور . ط دار إحياء الكتب العربي - القاهرة ١٩٧٢ .
- ٣٠ - مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية - الهند ١٩٥١ .
- ٣١ - مفرج الكروب في أخبار بني أبوب : ابن واصل . ج ٢ . تح : جمال الدين الشيال . المط الأميرية - القاهرة ١٩٥٧ .
- ٣٢ - النكت العصرية : عمارة اليمني . طبع مدينة شالون ١٨٩٧ .
- ٣٣ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : بهاء الدين بن شداد . تح : د. جمال الدين الشيال . ط الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٤ .
- ٣٤ - وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي : د. محمد النويهي . مط الرسالة - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٣٥ - وفيات الأعيان : ابن خلكان . تح : د. احسان عباس . مط دار صادر - بيروت ١٩٧٢ .

- الحياة - دمشق ١٩٧٠ .
- ١٩ - ديوان عماد الدين الأصبهاني : تح : د. ناظم رشيد . مط جامعة الموصل ١٩٨٣ .
- ٢٠ - ديوان ابن عُنين : تح : خليل مردم . مط دمشق - ١٩٤٦ .
- ٢١ - رحلة ابن جبير : مط دار صادر - بيروت ١٩٦٤ .
- ٢٢ - كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : ابوشامة المقدسي . ج ١ . مط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢ . ج ٢ مط وادي النيل - القاهرة ١٢٨٧ هـ .
- ٢٣ - زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم . تح : د. سامي الدهان . المط الكاثوليكية - بيروت ١٩٦٨ .
- ٢٤ - سنا البرق الشامي : العماد الأصبهاني ، اختصار الفتح بن علي البنداري . تح : د. رمضان ششن . مط دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٧١ .
- ٢٥ - شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي . تح : ناظم رشيد . دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٧٨ .
- ٢٦ - طبقات الشافعية الكبرى : عبدالوهاب بن علي السبكي . تح : محمود محمد الطناحي . ج ٧ . مط عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٩٧٠ .



شعر الجهاد في معارك صلاح الدين الأيوبي

د. نوري حمود القيسي

كلية الآداب / جامعة بغداد

تكتسب مفردة الحرب لونها الزاهي من خلال القدرة القتالية المتميزة وترسخ صورتها في النفس وهي تحمل القيم الأصيلة التي تمنحها دلالة التعبير ، وقوة الانحاء ، وحالة التوازن المطلوبة في تصوير الحدث فهي ليست مفردة محددة من حيث الأداء وإنما يبقى تأثيرها فاعلا بمقدار ما تؤديه من حالات مرحلية تناسب صدق انحاءها وجمالية تركيبها واستيحاء جوانبها التي تعطي كل مظهر من مظاهرها ما يستحق . فالمفردة في شعر عمرو بن كلثوم لها وقعها الذي جعلها نشيدا يتجاوز الزمن ويعبر مسافات المراحل التاريخية لأنها اكتسبت حياة الاكتمال الذاتي في تكثيف المشاعر وحقت صوتها الواعي في استحضار القيم السائدة واستجابت لما كان المقاتل يراه نموذجا في التعبير القتالي . والمفردة في شعر حسان وكعب لها نغمها المشرق بروح الجهاد ولونها الزاهي بألق العقيدة وحركتها المعبرة عن قوة الايمان الذي أصبح صفحة متميزة في طبيعة المصاولة وحقيقة القتال . وبعد استقرار هذه المفردة في السياق الشعري لقصائد الحماسة وارتباطها بحياة الامة وهي تؤدي أمانة الوفاء لما ارسلت اليه ودعيت الى نشره كانت معانيها تشرق انبعاثا لتناسب حسا بطوي ضلوع المؤمنين والمجاهدين

لتقويض دعائم الشرك واسقاط رموز العبودية وانقاذ البشرية من طواغيت المجوسية المقيتة . ولعل الصور التي أعقبت تحرير العراق والشام وأرض العرب قد شهدت مواكب المحررين وهي تعيد هذه المفردة حية دافقة تواصل عطاءها في اطار الصورة الجديدة التي حملتها القلوب وعبرت عنها المبادئ واستقامت في حياة المقاتلين جهادا وبطولة وفروسية . . ولعل هذا العطاء الشعري الزاخر الذي توج بمجاميع كتب الحماسة يؤكد الايمان الذي ساور نفوس الحريصين على جمع هذا الفن الشعري ليظل عطاء متدفقا يملأ الحياة بما ينبغي ان عملا ويغني النفوس بما يترك لها فرصة الاستحضار الوجداني الصادق ويضفي على الحياة طابع التضحية الفريدة التي قدمت ليبقى لالاؤها بارقا وزهوها حيا وصوتها معبرا عن الارادة الواعية والتواصل التاريخي والرسالة الكريمة .

وارتبطت المفردة في التكوين الشعري بحالة التحدي وأصبحت صوتا لهذه الحالة واستجابة لارادية لما يتعرض له الانسان فهي تأخذ بعدها في التعبير من قوة الاحساس بمقدار التحدي ومن عمق التقدير بالنتائج المترتبة عليه والأحداث المستقبلية التي يمكن ان تغير التاريخ الذي ظل صوتا نابضا

من أصوات هذا التكوين وعندها تصبح الصورة في إطار هذا الأداء متكاملة من حيث امتلاك العناصر الدافقة والموجهة والمعبرة في الأسلوب والصياغة والبناء . ومثلما كانت المفردة في هذا الامتداد مفردة حية وواعية في ظل الجو الشعري الذي يتيح لها مجال التأثير فان التركيب الجملي للصيغة البيانية أصبح حالة أخرى تندخل فيها القيم الأساسية التي تبناها المجتمع وحدد أجواءها وارتضاها قويا تعطي السلوك وجهه المقبول وتضعه في المرتبة التي تجعلها موضع احترام الآخرين .

فالتضحية قيمة تتحدد بمقدار العطاء الذي يقدمه المضحى والشجاعة قيمة تكبر في إطار الأداء البطولي الذي يتجلى في حالة المنازلة ، والاستشهاد قيمة تسمو الى الدرجة التي تعطي الشهيد شرف الخلود وكرامة التكريم وجلال السمو ولكل قيمة من هذه القيم جلالها في التعبير ومكانتها في التقويم ومثلها مجموعة القيم التي تعارف الناس على الاعتزاز بها والتمثل بنماذجها والاقتداء بروادها فتدخل أحداثها في الموروث الثقافي الحضاري وتميز حالتها من خلال المبالغة أحيانا ولاضافة طابع التقديس عليها اجلالا لمكانتها وترسيخا لاصولها واشباعا لمطامعها التي يراد لها ان تستقر اسلوبا من أساليب الحياة واشراقة زاهية من اشراقات التربية الحقيقية للامة التي احتفظت بها ووجدت في إحيائها إحياء لمكارمها وتكريما لتاريخها واستحضارا لمجدها . ومن الطبيعي ان تستمر اللفظة مفردة ومركبة أداء وتعبيرا عن السياق التاريخي الذي مرت به والتداول الشعري الذي لازمها وهي تنتقل من شاعر الى شاعر ومن قصيدة الى قصيدة ومن وصف معركة الى وصف معركة أخرى وهي تتوهم أحيانا الى حد التآلق وتخبر أحيانا أخرى الى درجة الخفوت ولكنها تبقى قادرة عند استخدامها في الموضع المناسب والحالة المتأججة ليعود شعاعها ثانية يغمى العيون ليجلي بصرها وتتدفق ينابيع حروفها نغما تردده أصوات

المنشدين ويعلوه تناسق تراكيبها لحنا بلاغيا يجعلها موضع اعتزاز النقاد ومجال استشهاد المریدین الذين يطربهم الابداع اللفظي وتستهوهم البراعة المعنوية .

وقد أسهمت قدرات الشعراء العرب في اغناء ديوان الحرب وتوثيق أواصر المفردات واعطائها ما تستحق معبرين عن صوت العصر بالصورة المستوحاة من ضمير الجمهور ومستشعدين بالحالة التي يمجدونها ويكتبون في ظلها صفحات العز والفخر والمآثر . حتى اتسمت قاعدة الاستعمال وكبرت مساحة المفردات وهي تغنى ببيئات جديدة وتحمل الى أماكن بعيدة وتؤدي في صور مختلفة لنظير عبقة بشدا القرارات الانسانية وهي تتجدد صوراً وتزداد تأثيراً وتنحت ألفاظاً ومعاني ولم تقتصر مفردة الحرب على شعر الحماسة او تشوق عند ذكر المعارك وانما تجاوزت هذه الأغراض لتستقر في قصائد المديح وهي تشيد بالمدوح وتظهر خصائصه وتحدث عن معاركه وتجلبو صوراً من بطولته . . . ولتظهر في قصائد الرثاء وهي تذكر مناقب المرثي وتعدد وجوه شجاعته وبلائه واقتداره وصولاته حتى تتحول الأبيات الى أجماد تاريخية يجد فيها الشاعر وجهها من وجوه الاستشارة وصوتا من أصوات الكوا من التي تعيد للمرثي جانباً من فعاله وحالة من حالات الاعتزاز به . أما الجانب الديني فقد امتد في هذا العصر امتدادا واسعا واستغرق من الشعر مساحات كبيرة لأنه يعبر عن حالة التحدي ويوثب مشاعر الجمهور ويدخل الى نفوسهم الحماسة ويشير في دواخلهم أسباب الجهاد دفاعا عن المبدأ ووفاء بتعاليم الاسلام ورغبة في تحقيق الاستشهاد وبعد ان أصبح طريقا من طرق المفاخر ولونا من ألوان المحامد التي تمنح الانسان الخلود والبقاء والذكر الحميد . واذا كانت مفردة الحرب قد اتسعت من حيث المدلول وتطورت وفق أساليب القتال واستقامت في ظل الانجازات الحربية التي توثقت حقائقها فان الشعر الحربي في إطار الأغراض الفنية الأخرى أصبح

قاعدة واسعة وحالة تزخر بالعطاء القتالي والنضالي الذي عبر عنه المقاتلون وهم يخوضون حروباً طويلة ويكتبون صفحات نادرة في التضحية ويسجلون أياً ما خالده في الدفاع عن الأرض والعقيدة . وقد سجل الشعر العربي في مرحلة القرن الخامس والسادس والسابع الهجرية معارك بطولية ظلت أصداؤها تنحت في الذهن الأدبي وتستذكر ملاحمها في قصائد الشعراء وهم يرفعون رايات الجهاد ويخوضون معارك التحرير ويكتبون صفحات الاستبسال بعد أن أصبحت أصول الشعر الحربي جزءاً من الحياة وأدب الجهاد لونا من ألوان العقيدة وصوت الضمير استجابة حية من استجابات المنطق البطولي لحالة التوثب والافتقار .

فحمل الشعر أنفاس المقاتلين وضم أحاسيسهم وهم يؤدون أمانة الدفاع وعبرت معانيه الصادقة عن حركة الحياة التي تلمسها الرجال في خنادق الشرف وقلاع المبادئ وعزيمة الثغور ومنعطفات السهول والهضاب وهي تشهد الرجال الأشداء يقاومون الغزاة ويملأون الدروب بتكبيرة (الله أكبر) و (فتح من الله ونصر قريب) و (اقتلوهم حيث تقفتموهم) . . وكل الآيات القرآنية التي تحرض المؤمنين على القتال وتشل قدرة المنهزمين الذين طوت أجسادهم مهاوي الردى وتناثرت أشلائهم نبها لكل طريدة . لقد استطاع الشعر في هذه المعارك أن يخلد الصوت القتالي ويشير الهمم ويؤدي دوره وهو يتسرب من خلال أغراض الشعر بعد أن وجد في باب الجهاد حصته الكبيرة وتلمس في معانيه وإيماءاته وأساليبه صوته المعبر ولونه المؤثر ومضاته المشرقة التي تضيف إلى المعركة روح الإيمان وتبعث في نفوس المقاتلين حب الشهادة وتدفعهم إلى التضحية جزاء ما يناله الشهداء عند الله من رفعة وسمو .

لقد هزت الأحداث الخطيرة التي حاولت أن تعمق بالدولة العربية الإسلامية وجدان الشعراء وفجرت قدراتهم الفنية وهم يقفون على أعتاب حالة تعاونت فيها قوى الردة

وتآمرت على تجميعها عناصر الحقد فوجدت في أرض العرب وامة العرب ميداناً تباشر فيه دورها التخريبي وتنفت في ديارها نفثات سمومها القاتلة لتقويض دعائمها وتهديم أصول قيمها واسقاط معالم حضارتها التي بقيت ترفع صوتها الانساني وتملأ العالم بجهود أبنائها الأخيار وهي تفيض عدالة وتنشر ولقاء لكرامة الانسان واحياء للتشريع الالهي الذي أعطى البشر حق الحياة ومنحهم فرصة العطاء وقد تركت أحداث غزو الفرنج آثاراً واسعة وجروحا عميقة في نفوس الشعراء وأتاحت لهم مجالاً خصباً لاستلهام الجوانب البطولية واستشارة عناصر القوة وتحشيد البواعث الحقيقية التي استحضرت التاريخ بكامل مفرداته واستوعبت الوقائع والأيام والغزوات الحربية بكل أعجافها وبطولاتها لتوثيب الحالة الحية وترديد الصوت الشعري الدافق ليرسم لوحة الفروسية المعبرة بكل ما يعيد إلى الامة قدرتها في المواجهة وحكمتها في الاعتبار واندفاعها في رد الخصوم . متخذين من ويلاتها المبررة مواضع استشارة ومن نتائجها بواعث تحفيز ، مؤكدين الدور القيادي لقدرة الرجال وجهاد الأبطال وتضحية المؤمنين الذين قدموا على طريق النصر أرواحهم رخيصة وجاهدوا في سبيل الله والوطن حق الجهاد لرد الغزاة المعتدين وأخراجهم من الأرض العربية مدحورين خائبين .

ويسهم ابن دننير الشاعر الموصلية المتوفى سنة (٦٥٠ هـ) في ديوان الحرب الذي امتدت مساحته في هذه الحروب الطاحنة حوالي مائتي سنة وترك قصائد طويلة يشيد فيها بشجاعة الملوك الأيوبيين ودورهم في قيادتها ودفاعهم واستبسالهم لنصرة كلمة الحق والدفاع عن أرض الكرامات ويستنهض هم الملوك ويدعوهم إلى التوجه إلى مصر لنجدة الملك الكامل الذي نزل دمياط ليتصدى للفرنج الذين حاصروا المدينة . فيقول (١) :

نقل الملوك الخائفين اليكم

عن الملك أو شددوا عن الأمر ما شددوا

ملك السورى أين الملك عن الذى
تصدت فيه للعدا حينما صدوا
أيطمع أقوام بنعمة عيشة
مقى عطشوا فالموت دونهم ورد
إلام التماذي والفرنج بجمعهم
على جيد دمياط كما انتظم العقد
وقد أفاض الشاعر بالحديث عن هذه الحرب وقد أكد
فيها الدور البطولي لكل الذين يسهمون فيها ويواصلون
السير على طريق التصدي للأرتال التي حاولت تدنيس بيت
المقدس وقد حاول الشاعر فيها أن يستمد من معارك الإسلام
الأولى صوت شاعريته ويستلهم من جهاد المؤمنين إيمان
المبادئ التي يدافع عنها وهي ظاهرة لم تقتصر على ابن دنيير
وأما شاعت في شعر الفترة حتى أصبحت واجهة جديدة
وغرضاً متميزاً استثار فيه الشعراء روح الجهاد مستلهمين من
معانيه قدرة المواجهة ومن مبدأ الوفاء جذوة التضحية حتى
دفعه هذا الإيمان إلى افتتاح بعض قصائده بالإشارة إلى عمود
الدين والاستشهاد بذكر الرسول عليه الصلاة والسلام
والتأكيد على اظهار الحق واخماد صوت الباطل حيث
يقول:" :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا

فقد جاءكم عيسى وهذا عمود
وكثيراً ما يصبح التأكيد على هزيمة الغزاة هو النهاية
المحتومة والحالة الأخيرة التي ينتهي إليها الشعراء لإشاعة
روح الانتصار في نفوس المؤمنين وترسيخ جانب الهزيمة في
نفوس الأعداء ولم ينس الشعراء أن يوثبوا العزائم وهم
يدعون إلى اقتحام المعارك ويعاودون مقاتلة الأعداء
ويصبرون على الشدائد في ساحات الوغى ويذكرون بعار
الهزيمة الذي لا يرحم ويعيدون إلى الأذهان النتائج المترتبة
عليها ووصمة الهجاء التي تظل لاحقة في حالة الاحجام
والتردد والتراجع . وإلى ذلك يشير ابن دنيير :

فمن أنقذ الإسلام من بعدما وهي
بهندية بيض وخطية سمر
وآساد غيل في ظهور صلادم
تعد العلى في الكر والعار في الفسر
ويبقى الموقف الشجاع في نصرة الحق والاستجابة
لدواعي الوطن ومبدأة العقيدة هي الدافع المحرك لكثير من
الشعراء لتمجيد هذه المواقف والاشادة بالرجال الميامين
الذين يدركون العواقب المؤلمة التي تنتظر الامة اذا تخلت عن
مبادئها وتنازلت عن قيمها ومثلها فحين لى المعظم واخوه
الملك الأشرف نداء الواجب وجمعا العساكر لنصرة الكامل
وانقاذ دمياط من الفرنجة مما عجل في كسر شوكتهم وفك
الحصار عن المدينة المحاصرة وإحكام القبضة على الفرنج
وانزال الخسائر الفادحة في جيشهم المهزوم والشار لأهل
دمياط الذين واجهوا الغزاة بقوة الرجال وشجاعة المؤمنين
لا بد أن تكون البداية بالتكبير على هذا النصر فكانت
قصيدته . . .

ها قد بلغت الذي قد كان ينتظر
الله أكبر هذا النصر والظفر
أكذبت ظن الأعادي بالذي كملت
به السعادة واستهنى لك الخطر
هذا هو الفتح فتح لا يقوم به
نظم المديح ولا نثر فيبتكر
يا يوم دمياط قد راحت مسودة
منك الطروس وقد سارت بك السير
أنطقت خرس الأماني وهي صامتة
ورضت صعب المعاني فهي تبدر
في يوم ذي رهج لا وصف يدركه
يكاد منه فؤاد الدهر ينفطر
أنى بجيش وغى في الأرض عسكره
وفي الساء قضاء الله والقدر

وكانت الصورة بين فتح مكة وفتح بيت المقدس
مقاربة فبكليةما تعزز موقف المسلمين وخلل أعدائهم وفي
الظفر فيها والنصر بدخولها تباشر المؤمنون بنصر الله وعزته
وتذكروا بنعم الله وقوته فكانت الصيحة واحدة وكانت
البداية على طريق النصر متوازنة . وقد وجد الشعراء فيها
مدخلا للحديث والمقارنة فقال ابن دنيير :

تهلل الدين والدنيا به فرحا
واستبشرت مكة والحجر والحجر
لم تحش يشرب تشربا لفاتحة
من بعده اذ سرت في ذكره السور

وتبقى صور المعارك الطاحنة وغبار الخيول وهي
تحجب نور الشمس ، ورؤوس الرماح وهي تلمع هي
اللوحة الفنية الحية التي يجد فيها الشعراء مجد الرجال بتلألا
وصوت المبادئ يرتفع وقدرة الرجال تتزاحم وتضحياتهم
الفريدة تسمو انها الساحة الكبيرة التي تدفقت في رحابها
أعداد الرجال وهي تصول على الأعداء بما عرف عنها من
شجاعة وتمتلك ناصية الوغى مما أبدته من بسالة حتى تحول
الأعداء البغاة الى أصوات صراخ تطلب السلم والأمن
وتبدل عنادهم المقيت وعداءهم المستحكم الى خضوع
وخنوع بعد ان تحكمت القوة في الحسم وعزائم الرجال
المؤمنين في المجالدة والمصاولة فكانت لوحة اخرى من
لوحات الشعراء الذين وجدوا فيها اشارة تاريخية تكشف عن
نفوس الخائبيين :

قد عاد صبحهم ليلا نضياء به
زرق الأسنة فهي الأنجم الزهر
ورعتهم بين بيض الهند مصلثة
وبين سمر القنا والموت معتكر
فللرماح قلوب منهم أبدا
وللسيوف الطلى والهام والقصر

راموا بحيث اطلختم الأمر سلّمهم
وقد رأوا غارة هانت لها الغير
لم يطلبوا السلم إلا بعد علمهم
بأن سيفك لا يبقي ولا يذر
أضحى لرومية الكبرى بما شهدوا

ويل طويل وقد وافاهم الخير
لقد استطاع الشعر في هذه المرحلة ان يعبر عن الواقع
الذي زخرت به كتب الأدب والتاريخ وهي تصور حالة
الغزو الذي تعرض له الوطن العربي وما عانى منه الشعب
وهو يجابه هجمة ظالمة ويقاوم غزاة طامعين وقد استبدت بهم
نزعة الشر وامتلكتهم سورة الحقد وعلت نفوسهم كبرياء
الغرور فارتكبوا من المجازر ما ظل التاريخ شاهدا عليها
ومن الشرور ما ضاقت به صفحات الكتب ومن الجناية على
الحضارة ما أوهن بعض اصولها وأضعف حلقات سلسلتها
وكانت هذه الأحداث تأخذ مداها على امتداد الرقعة العربية
وقد وجدت الشاعر الاسلامية صيغتها في الأساليب المعينة
وهي تستوعب حالة التحضر وتؤكد روح المقاومة التي
أصبحت حالة معبرة وصوتا مسموعا وأثرا بينا في توجيه
الاحاسيس لأن التعبير المشترك عن حالة التوقع والتصور
الحقيقي لمجريات الأحداث والتهويل لما يمكن ان يحدث كانت
تملا قصائد الشعراء وهي تنذر بالآخطار وتوحي بالمآسي وقد
تواردت أخبار الغزاة وهم يحرقون الأرض ويقتلون البشر
ويدمرون المدن وينشرون الرعب والفرع (٣) ..

وقد آثرت ان أقف عند شعر الحرب في معارك
صلاح الدين بعد ان ازدهرت معاني هذا الفن الحربي ومهد
له عدد من الشعراء الذين أشادوا ببطولة المقاتلين وهم
يصدون حملات الغزاة وتحذثوا عن خطط الحرب وهي تواجه
مخططات الطامعين وقوة السلاح وهو يؤدي دوره في ملاحم
المعارك . . ويتغنون بانتصاراته الباهرة التي كانت تسجل في
كل موقف من المواقف الصعبة .

وشعر الجهاد لون من ألوان شعر العقيدة تميزت معانيه بالصدق والفاظه بالایمان وصوره بالتضحية التي واكبت روائعه معارك التحرير وارتسمت فرائده في دراوين الشعراء زهوا بملا النفس واعتزازا بشير الكوامن وتضحية تسجل روالع البسالة وخوالد الفعال لتاسعت أهوايه في أحداث المجاهدين من الشعراء واستوحيت بطولات الرجال الأماجد من الصحابة والقادة والمقاتلين فكانت أسفارا من أسفار التاريخ المشرق وصفحات من صفحات المجد العريق وهو في كل مرحلة له قوته وصلابته يتحدد في اطار الفعل المقتدر والتحدى المفروض ويتجلى في جراءة المقاتلين وعمق إيمانهم ويستنهض حين تشرق قسماات الحياة بحب الآخرة وكرامة الخلود وهزة الذكرى ويستحضر في صوت الحقيقة وهي مملا جوانب المعركة بكل ما يدهو الى الاقدام لأنه حسنة فيتجاوز حالة التردد وهو يرى الموقف التاريخي بكل أجماده ويستذكر الموقف الحميد بكل خصائصه لما يتركه من أثر في الحالتين ويعتقه من مآثر في الموقفين .

ويمثل شعر الجهاد وجهها من وجوه الملاحم الأدبية الخالدة التي تعالی فيها صوت التضحية حتى أصبح نموذجاً في الاقتداء وارتفعت فيه عزة النفس حتى صارت حديثاً من أحداث البطولة له في كل معركة ذكر وفي كل مجاهدة صوت وهند كل القحام صرخة وإذا كانت المعارك الإسلامية الأولى قد روحت المشركين ببلاء المقاتلين ورسمت بدايات شعر العقيدة وجددت معالم الطريق للدين استرخصوا الدماء من أجل الوفاء بالمبادئ فان هزو الفرنج الذي بدأ منذ نهاية القرن الخامس الهجري كان بداية جديدة لهذا الضرب الشعري الذي أضاف الى الأدب العربي في هذه المرحلة والتي تلتها أصواتاً جديدة وألواناً فنية أعادت لشعر الحماسة صورته وأفاضت في تلوين روائعه بما نهض به الشعراء وهم يراكبون حملة الدفاع عن أرض العرب بعد ان بدأت أرتال الغزاة تدنس السواحل العربية .

لقد أدرك صلاح الدين مهمة الجهاد التي اضطلع بها وقوة الهجمة التي حاولت ان تتحدى الأمة بعد ان ظلت جذور أطماعها تغذي وأساليب تجميعها تأخذ وجوها مختلفة اختلطت فيها عوامل الدين بالتبشير وتداخلت أسباب الاستعمار والسيطرة وامتزجت المطامع الذاتية بروح الاستحواذ والامتداد والاستيطان حتى تكاملت غزوة ظالمة وتجمعا ترسخت في أعماق مدبريه عوامل الحقد وعناصر الشر لاقتطاع جزء من الوطن عزيز على حماه .

وأدرك صلاح الدين ان الدولة التي يمكن ان تحياه هذه الحملة لا بد ان تكون قوية صلبة تمسك أطرافها أياها أمانة وتحكم ادارتها عقول مقتدرة وتسير امورها أحكام لا عهاون في تطبيقها ولا تخلف في حلقاتها يشد انساها مبدأ ويلتصق أبنائها بفكر وتوحد صفوفها في نمط اجتماعي موحد يشعر الجميع بأمانته ويتحسون حرصه ووفاءه ويشقون بعدالته وحصافته . فكانت القدرة العسكرية مبدأ والتدريب على أساليب القتال منهجا والانصراف الى التسليح اسلوبا وتعبئة الجمهور وتوعية وتثقيفه وتحذيره من النتائج المترتبة أساسا من اسس المجاهدة ولعل الاهتمام البالغ الذي أولاه صلاح الدين للعناية بكتب الجهاد والاستماع الى أشعار الحماسة والاعتناء بقصص المعارك والبطولات تعطي هذا الجانب دوره في المعارك .

الأخبار التاريخية تؤكد ان يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسائة كانت بداية للمعركة وان البطل صلاح الدين قد أيقن ان الواجب يدهوه الى أخذ دوره التاريخي بعد ان وجد شعور الناس يلزمه بالتحرك وإعلان حالة الجهاد وان الله سبحانه وتعالى ناصرهم وممكنهم من استرداد الأرض لسير جنده واندفع بإيمانه قاصدا أرض العدو وقد تعود ان يرفع راياته أيام الجمع بعد صلاة الجمعة تبركا بدهاء الخطباء وثقة بنصر الله الموعود وهم يدهون الله النصر والظفر وبعد خمسة أيام

نزل غربي طبرية فمكنه الله من احتلالها وحين علم الفرنج تقدموا بجنودهم للدفاع عنها وكانت الطلائع الاسلامية في مقدمة المتصددين للحملة وكانت المعركة على سطح جبل طبرية وحين ضاق الخناق بالفرنجة وهم يعلمون انهم يساقون الى الموت صاغرين وقد أيقنوا بالنهاية المحتومة والهزيمة المنكرة وان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره وأجراه على وفق ما قدره وشهدت سيوف الحق وحل الرجال الأماجد وصاحوا صيحة الرجل الواحد ألقى الله الرعب في قلوب الغزاة (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) وخذلوا فلم ينج منهم أحد إلا من استسلم طائعا فتبددت جموعهم وتناثرت أشلائهم وكان الواحد منهم يخلد الى الأسر خوفا على نفسه وقد ذكر بعض شهود العيان انه لقي بحوران شخصا واحدا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده " ،

لما أصابهم من خذلان وما قولوا به من مقاومة وجوبها به من شدة وقد اسر في المعركة الملك جفري وأخوه والبرنس ارناط وبعد ان تم فتح قلعة طبرية رحل الى عكا فاستنقذ ما فيها من الاسارى وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر وتفرقت عساكره في بلاد الساحل يفتحون الحصون والقلاع والأماكن المنيعه فاستعادوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصره وواصلت مواكب المؤمنين المجاهدين وهم يحررون تبين وبيروت وعسقلان وفي كل معركة من معاركه يضيق الخناق على الغزاة بالزحف وتهيب عليهم حمم المجانيق من حرها اللاهب ويقاتلهم قتالا عنيفا وبعد حصار طويل استسلمت غزة وبيت جبرين والنظرون وأصبح فتح القدس المبارك هدفا سويقيا بعد ان اجتمعت العساكر وتوحدت الغايات واستنهضت الهمم والعزائم فسار معتمدا على الله مفوضا أمره اليه منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه اذا فتح بقوله عليه السلام . من فتح له باب خير فلينتهزه فانه لا يعلم متى يغلق دونه وكان نزوله سنة ثلاث وثمانين

المباركة وكان عدد المقاتلة بما يزيد على ستين الفا ما عدا النساء والصبيان وقد نصبت المجانيق وتقدمت زحف المقاتلين وتدافعوا بالمناكب واشتد رمي الرماة حتى تمكنوا من ثقب السور فتدفقوا منه أشداء وتقاطروا عليه رجالا يحبون الموت كما يحبون الحياة فأيقن الغزاة ما نزل بهم من الأمر الذي لا يدافع عنهم ولاحت تبشير نصر الحق على الباطل فألقى في قلوبهم الرعب وهم يرون أبطالهم قد تقاسمهم الأسر والسبي والقتل وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ وأيقنوا انهم صائرون الى النهاية التي وعدوا بها فاستكانوا وأخلدوا الى طلب الأمان وكان تسلمه القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ليلة المعراج فيسر الله عوده الى أيدي المسلمين وكان فتحا عظيما شاهده خلق عظيم بعد ان بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وقصده العلماء من مصر والشام وارتفعت الأصوات بالدعاء والتهليل والتكبير وخطب فيه وصليت الجمعة يوم فتحه ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر وقد ترك فتح بيت المقدس آثاره في قصائد الشعراء .

وكانت حطين بداية لانهايار الفرنج بعد ان حاول (ارناط) الذي عرف بغدره وخبثه ونقضه للمواثيق ونكته للعهد " ، صاحب حصن الكرك تنفيذ خطة تحقق للفرنج سيطرتهم على مياه البحر الأحمر ، وغزو الحرمين ولكن ارناط هذا تناسى ان كفة المسلمين قد رجحت فتحول التفكك والدفاع الى وحدة وهجوم وان الجبهة التي تمتد من حلب الى القاهرة أصبحت أقوى على رد العدوان وأكثر تماسكا من ذي قبل بعد ان استوعب القائد أبعاد الخطط التي أعدت لهذا الهجوم وان حدود الفرنج أصبحت غير مأمونة بعد ان ضعفت قدرتهم على احكام سيطرتهم لحمايتها وان قوتهم وتماسكهم أصبح أكثر ضعفا وانحلالا .

وتؤكد الأخبار التاريخية " انهم نقلوا نشاطهم الى ساحل الحجاز وأشرفوا على المدينة المنورة " وقد أثارت هذه

الأخبار التي أصبحت حقيقة حفيظة المسلمين بعد ان تجرأ الفرنج على الاقتراب من المدينة وهي الأرض التي لم يسبق ان وصل اليها رومي . . وقد تركزت أهدافهم في قطع طريق الحج وضرب المسلمين في أعز موقع وأقدس بقعة والاستيلاء على عدن لاحكام السيطرة على البحر الأحمر واغلاقه واحتكار التجارة فيه . وقد وجد القائد صلاح الدين في هذا التحدي عاملا من عوامل الاستحضار وتعبئة المسلمين للوقوف بوجه هذه الحملة التي لم تترك خيارا في التردد فكانت أوامره الى أخيه العادل سريعة لاعداد العدة وتحضير الاسطول فكان الحاجب حسام الدين لؤلؤ قائدا وهو الذي قوى الاسطول بالديار المصرية .

وقد سجلت المعركة الاولى انتصارا للمسلمين بعد ان ترك الفرنج سفنهم ولاذوا بالجبال حتى وقعوا في الأسر^(١) . ان خطة السيطرة على مكة والمدينة أظهرت نوازع الحقد الديني وأكدت أطماع الغزاة في ديار المسلمين وكشفت عن الحملة الظالمة التي كانت تساور نفوس المتعصبين الذين طافوا اوربا يجرضون وجابوا ديارهم يستشيرون كوامن النعرات تأليا واثارة وتأجيجا ارضاء لأغراضهم واشباعا لرغباتهم حتى وضعت الفرنج في مأزق خطير وأخرجت موقفهم وحملت المسلمين على توحيد صفوفهم وهم يرون أماكنهم المقدسة تتعرض للانتهاك وديارهم التي بقيت موضع تقديرهم للغزو والاستباحة لا سيما بعد ان استمعوا الى أخبار الفرنج وهم ينهبون المراكب ويقتلون الحجاج ويسرقون الأطعمة ويحدثون الأحداث التي لم يسمع عنها المسلمون^(٢) .

وحين يخترم الموت أحد القادة الذين يؤمل عليهم في عوادي الأيام او يرحل بطل تعلقت في بطش ساعده آمال المؤمنين باستعادة الأرض او حماية كرامة ينبري الشعراء مرة اخرى لاستذكاري أولئك الذين ينصرون المقاتلين في غزواتهم فيأسرون ملوك الفرنج والذين يكبحون جماح الخطوب

ويكشفون بلوامع سيوفهم داجيات الليالي وهنا يستذكرون الناصرين لجيوش المجاهدين الحافظين كرامتها وحدودها^(٣) :

من للفرنج ومن لأسر ملوكها
من للهدى يبغى فكاك أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها
من للجهاد ومن لحفظ اموره
من للفتوح محاولاً أبكارها
برواحه في غزوه وبكوره
وكثيرا ما كان الجهاد يدفع الشعراء الى مفادرة
أوطانهم والابتعاد عن أحبابهم فيعتاضون به عن شوقهم .
فهذا عماد الدين يمدح العماد نور الدين سنة ٥٦٥
فيقول^(٤) :

أتمنى في الشام أهلي ببغدا
د وأين الشام من بغداد
ما اعتياضي عن حبهم يعلم . . .
.. الله تعالى إلا بحب الجهاد
وفي قصيدة اخرى يؤكد الجهاد ويذكر معركة من
المعارك التي خاضها الملك العادل نور الدين محمود
فيقول^(٥) :

يا واحدا في الفضل غير مشارك
أقسمت مالك في البسيطة ثان
أحلى أمانيك الجهاد وانه
لك مؤذن أبدا بكل أمان
وقد تبدو ظروف الحرب واحدة لما تشابه من أحوالها او
اتفق من مسبباتها وما تنتهي اليه نتائجها وفواجعها وآسيها
وكل جانب من هذه الجوانب له صلة بحياة الانسان حاضره
ومستقبله وله صورة في وجدانه وأحاسيسه ومشاعره
لما يرافقها من رعب وفزع وأحداث دوامي وفواجع مؤلمة لأن
البشر مادتها والسلاح وسيلتها والدماء مظهر واحد من

مظاهرها وهذا كانت الحرب حالة مرعبة تخشى عواقبها ويهاب الخوض فيها ولكنها تركب اذا كانت طريقا للسلام الذي ينشد وتحمل نتائجها على كل محمل اذا أصبحت طريقا من طرق النجاة او سبيلا من سبل الكرامة التي لا يجد الانسان سعادة بدونها ولا عزة بغير التمسك بها واذا كانت هذه البدايات موحدة من حيث التأثير واذا كانت نتائجها معروفة - مهما اختلفت أبعادها - فمن الطبيعي ان تظل أساليب التعبير الوجداني محصورة في هذا الاطار وخاضعة هذه المسالك وكفيلة بما يتحدد من أحوالها لأنها ترى في كل ظاهرة صوتا من أصوات الحالة المقررة مسبقا وفي كل حالة من حالاتها حكما وضعت قواعده في اطار التجارب التي تلمسها الانسان من خلال اطلاعه عليها او قربه منها او سماعه عن أخبارها . . . وقد بقيت هذه الحالة الصعبة تشد الانسان اليها وهو يستعيد من أخبارها ما يتغنى به أحيانا ويستبشعه أحيانا أخرى ويفخر به اذا وجد مجالا للفخر وتعلوه نشوة الفرح اذا استهوته لوحة حربية تسربت من مضامينها صورة ملونة بخوافق جمالية زاهية . ولعل تواصل ذكر الوقائع واستلهاام روح المعارك الكبيرة والاستشهاد بأحداث الملاحم البطولية حقيقة او رموزا تحدد الصورة التي ظلت حية في أذهان الشعراء والادباء والمؤرخين لأنها تقرب هم البعيد وتوحي بالجديد وتثير أسباب النزوع وتحقق وحدة الموضوع .

فكان شعر الحرب لوحة متكاملة تتجدد بعض ألوانها أحيانا لأسباب تخص المعركة ذاتها وتتصل بقدرة الشاعر المتمكن الذي يعطيها من قوة الحركة وفنية الابداع ما يجعلها ناطقة ومعبرة ويملاها عمقا نفسيا يترك في نفوس السامعين آثارا تحملهم على الانتباه الى فصولها ومتابعة أجزائها والاعجاب بما تركه الشاعر في أبياتها من دفق عاطفي وصوت وجداني وقدرة شعرية متحركة تهب الى صفة الخلود وتترك أبياتها شواهد على كل لسان وتعطي صورها البيانية

بجال الاستشهاد والمناقشة والنقد والحوار ويمثل عماد الدين الاصبهاني (٥١٩ - ٥٩٧) الشاعر الفارس الذي رسم في قصائده صور المعارك التي خاضها الناصر صلاح الدين وما أبلى فيها وما سجل من مواقف حاسمة وملاحم بطولية كانت أصداؤها في أسفار التاريخ خالدة وأحداثها في وقائع الأيام مشهودة وقد نطقت بها أشعار هذا الشاعر وهو يشيد بمواقف القادة ويتحدث عن بلاد المقاتلين ويسجل المواقع التي كتب الله فيها النصر والظفر وكان أول لقاء له في حصن سنة ٥٧٠ وقد أنشده مدحته التي يقول فيها^(١) :

وللناس بالملك الناصر الصـ

لاح صلاح ونصر وخير

وكم قد فلتت جموع الفرنج

بحد اعتزام شباه طرير

بضرب تحذف منه الرؤوس

وطعن تحسف منه النحور

وغادرت غادرهم بالعراء

ومن دمه كل قطر غدير

بجيشك أزعجت جيش العدو

فما نضر منه إلا نفور

تزاحم فرسانها الضاربات

فتصدم فيها النسور النسور

ويمكن اعتماد قصائد عماد الدين الاصبهاني في توثيق

معارك الجهاد التي خاضها البطل الناصر صلاح الدين بعد

ان استغرقت منه مجموعة من قصائد المديح وهو في كل فريدة

منها يشير الى شجاعته ويتحدث عن الرعب والهلع الذي

يأخذ بقلوب خصومه والفرع الذي يستحوذ عليهم وهم

يسمعون أخباره ويتسقطون أنباء انتصاراته وهي تتوالى

وتظل مأساة القدس لحنا مستثيرا يعزفه الشعراء لاستنهاض

الهمم وصوتا محركا من أصوات التوثيب تشده أوتار القصائد

ليظل النغم الرامي تذكرة لكل حريص على تراثه غيور على

ترابه وقد وجد الشاعر عماد الدين في الناصر صلاح الدين موثلاً يدعى وناصرًا يستنجد به فكانت صرخته التي تذكره بها ويده التي اطلق عليها فتح الفتوح حيث قال^(١١) :

نهوضاً الى القدس يشفي الغليل

بفتح الفتوح وماذا عسير

سَلِ الله تسهيل صعب الخطو

ب فهو على كل شيء قدير

البِكْ هجرتُ ملوك الزمان

فمالك والله فيهم نظير

وبقيت امنية استرجاع القدس حلماً من أحلام سلاطين الدولة الأيوبية وانقاده من دنس البغاة لتعود أرضاً عربية وقد وقف الشعراء عند هذه الأمانى لما تركته من آثار في نفوس الرجال المؤمنين الذين يحز في نفوسهم بقاء البيت المقدس بيد مغتصبة . . .

ويذكر عماد الدين ذلك في أبيات وهو يرثي نور الدين^(١٢) :

أوما وعدت القدس أنك منجز

مبعاده في فتحه وظهوره

فمتى تجبر القدس من دنس العداء

وتقدس الرحمن في تطهيره

وليس غريباً ان يأخذ الفرنج قبل ظهور البيت الأنابكي الذي تقدمه البطل صلاح الدين أكثر البلاد بالشام والجزيرة . وقد تولى أمر الدولة بنو عبيد اللذين استمر حكمهم من سنة تسع وتسعين ومائتين الى سنة سبع وستين وخمسمائة وكان يسر ملوك هذه الدولة ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم^(١٣) :

وفي أيامهم افسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بشغور الشام كالنصيرية والدرزية والحشيشية نوع منهم وقد مهدوا لدخول الفرنج بعد ان تواطأوا معهم . فرسخوا أقدامهم وثبتوا كيانهم الى ان من الله على المسلمين

بظهور البطل صلاح الدين فاسترد البلاد وأزال ظلم هذه الدولة التي تحكمت برقاب العباد^(١٤) .

وتتجلى خيانة هذا النفر في رسالة كتبها القاضي الفاضل الى نور الدين يقول فيها :

«انهم أعداء وان تعدت بهم الأيام» وأضداد وان وقعت عليهم كلمة الاسلام لا تخلو سنة تمر ولا شهر يكر من مكر يجتمعون عليه وفساد يتسرعون اليه وحيلة يبرمونها ومكيدة يتمنونها وكان أكثر ما يتعللون به ويستريحون اليه المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة الى الفرنج خذلهم الله تعالى التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ويزينون لهم الاقدام والقدوم . وكان ملك الفرنج كلما سولت له نفسه الاستئثار في مراسلتهم والتحيل في مفاوضاتهم سير كاتبه رسولا اليها ظاهراً واليهام باطناً^(١٥) .

وبدأت أعمال صلاح الدين تؤكد أثرها الديني في تطور الحوادث منذ تولى وزارة مصر سنة ٥٦٤^(١٦) وهي مرحلة حاسمة في تطور اليقظة الشعبية في الشام ومصر بعد ان لاحت عوامل التحدي وتجلت أسباب الغزو الصليبي وهي تحاول اقامة حكومات مستقلة في قلب الوطن العربي وكانت المرحلة توجب ايجاد قيادة حكيمة تدفع عن الجماهير غائلة الغدر وتمسح عن وجه الأرض العربية ما ران عليها من امارات الدخلاء وغدر الظالمين والحاquدين وتعيد وحدة القوة المؤمنة وتوحد الجهد المخلص وتجمع القلوب التي أرهقتها خصومة المنافسين وأضاعهم تنازع المتحكمين فكان عماد الدين رجلاً تجمعت تحت رايته حشود الجماهير والتفت حوله قلوب المجاهدين وهي تراه ينقذ الرها من أيدي الفرنج بعد ان استطاع وبقوة الوعي الشعبي والاحساس المشترك وخطورة النتائج المتوقعة على مستقبل الامة ان يوحد جزءاً كبيراً من أرض الجزيرة العراقية والشام في ظل حكومة واحدة تجمعها أهداف وطنية ويوجهها صوت

وجداني مخلص . وبعد مجيء نور الدين محمود تمكن من انتزاع الرها من الفرنج بعد اغتيالهم لها عقب وفاة عماد الدين وقد أكدت الأحداث ان نور الدين كان يسعى لجمع شمل الامة وتوحيد جهودها لمواجهة الفرنج بقوة موحدة وجهد متكامل .

لقد كانت جهود صلاح الدين متميزة في ترصين وحدة الصف منتفعا من تأييد الشعب ورافعا راية الجهاد وتحقيقا للمطامح المشروعة التي اكتملت في استعادة بيت المقدس وقد ساعده في ايصال صوته وايضاح أفكاره ونقل مشروعاته القاضي الفاضل الذي عمل وزيرا له وحرص على تسجيل أيامه والأحداث الكبيرة والمناسبات البارزة من خلال رسائله التي كانت تنقل الى امرائه وفيها من الآراء التي يشر بها ويسعى الى نقلها . ولم يكن القاضي الفاضل وحده عوننا لصلاح الدين في مهماته وانما أصبح العماد الاصفهاني كاتب الديوان عمادا آخر يقوي ساعده ويعينه على تأدية رسالته^(١١) . لقد أدرك الشعراء ان مظاهر البطولة في قيادة صلاح الدين توحى بالمستقبل الذي ينتظره وان بدايات هذه المظاهر تؤكد قدرته في ميدان النزال ورحاب المعارك .

فقد أشار اسامة بن منقذ الى هذه البطولة منذ وقت مبكر حيث قال^(١٢) :

الناصر الملك الموفى بذمته

ومن ندى كفه بغني عن الديم
ومن اذا جرد البيض الصوارم في الـ
هيجاء أغمدها في البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطماعة في
انتزاعه بشبا الهندية الخدم
ورد طاغية الافرنج بحسب ما
رجاه عن ملك مصر كان في الحلم

وله من قصيدة اخرى^(١٣) :

أقمت عمود الدين حين أماله

لطاغي الفرنج الغتم طاغي بني سعد
ويؤكد عمارة اليماني الآمال الكبيرة التي علقت عليه
وهو يتولى الوزارة فيقول^(١٤) :

لك الحسب الباقي على عقب الدهر

بل الشرف الرفائي الى قمة النسر
كذا فليكن سعي الملوك اذا سعت
بها الهمم العليا الى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة

أقلتم بها الاقدام من زلة العثر
حيتم من الافرنج سرب خلافة
جريت لها مجرى الأمان من الذعر
كتائب في جيسرون منه أواخر

وأولها بالنيل من شاطئ مصر
أخذتم على الافرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مُري على مسري
طريق تقارعتم عليها مع العدا

فقرتم بها والصخر يقرع بالصخر
يد لا يقوم المسلمون بشكرها
لكم آل أيوب الى آخر الدهر
وللحكيم عبدالنعم الجلياني من قصيدة طويلة^(١٥) :

أبو المظفر ماوى كل مضطهد

بحلمه ونداه يضرب المثل
مهما يمل جائر او عاث غيبة
فعند عدل صلاح الدين يعتدل
كم للفرنج بها ورداً ومنتجعاً
ودارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ النصر المنصور جذوتهم
وأدبروا بقلوب شهمها وجل

ولما قصد الفرنج دمياطا انفذ صلاح الدين من
الرجال والأبطال والفرسان والميرة والسلاح وآلات السلاح
ما أمن معه عليه 'ازعاج العدو وكانت امداداته تتوالى .
وحين نزل الفرنج عليها واشتد زحفهم عليها وقتلهم لها وهو
يشن الغارات عليهم بعد ان أحرقت مجانيقهم وقتل منهم
خلق كبير وقد تركت المعركة آثارها في نفوس الشعراء
فأفاضوا في تمجيد المقاتلين وللشهاب فتیان الشاغوري من
قصيدة يقول فيها^(٣٧) :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا
وليس له من كثرة القوم ساحل
رأوا دونهم اسدا بأيديهم القنا
وبيضاً رفاقاً أحكمتها الصياقل
وداروا بها في البحر من كل جانب
ومن دونها سد من الموت حائل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة
كأنهم - ذلاً - نعم جوافل
وما أملوا ان يلحقوا ببلادهم
لتعصمهم مما رأوه المعاقل
وللعماد أبيات يهني فيها صلاح الدين بالنصر^(٣٨) :

وفي كل مرة يستذكر الشعراء بيت المقدس
ويستذكرون وقائع النصر التي تبعث في نفوسهم الهمم وتثير
اللوعة ويعلو شعار الجهاد والغزو وطرد الفرنج فمن قصيدة
لعمارة اليميني في مدح صلاح الدين يقول^(٣٩) :

لعل بني أيوب ان علموا بما
تظلمت منه ان يرقوا ويشفقوا
وما عصمتهم منك إلا معاقل
تأنوا على تحصينها وتأنقوا
جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى
سواده سورٌ عليهم وخندق

أضفت الى أجر الجهاد زيارة الـ
خليل فأبشّر أنت غازٍ موفق
وهيبت للبيت المقدس لوعة
يطول بها منه اليك التشوق
وغزوك هذا سلمٌ نحو فتحه
قريباً وإلا رائد ومطرق
هو البيت ان تفتحته والله فاعل
فما بعده باب من الشام مغلق
وحين حصل صلاح الدين على دمشق وحرر قلعتها
واستوطن بقعتها نشر علم العدل والاحسان وعفى آثار
الظلم والعدوان وأبطل ما كان الولاة استجدوه بعد موت
نور الدين وقد وجد اسامة بن منقذ في جهاد صلاح الدين
مدعاة للمديح بعد ان جاس أرضهم وأفنى أبطالهم وغزاهم
في عقر دارهم وقد أحاطت به الملائكة تبارك نصره وتعاون
فتحته وتمده بمدد من عند الله الذي حباه بعزه فأهّمه العدل
وأعطاه الملك^(٤٠) .

ومدح وحيش الأسدي صلاح الدين عند تحريره
دمشق بقصيدة طويلة منها :

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبها
فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد
أدن فريسته الأيام ان وثبا
رايت جلق ثغرا لا نظير له

فجئتها عامرا منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها
وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد
أعدت من عدوها ما كان قد ذهبها
ويوم شاور والایمان قد هزمت

جيشه كان فيه الجحفل اللجبا
أبت له الضيم نفس مرة ويد
فعالة وفؤاد قط ما وجبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه
زهداً ويستصغر الدنيا اذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد
أصارهم مثلاً في الأرض قد ضربا
والشام لو لم يدارك أهله اندرست
آثاره وعفت آياته جقبا
وكان الشاعر يشير الى منازل الفرنج في دمياط بعد
تولي صلاح الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ اذ انهزمت
جيشهم وأساطيلهم فارتدوا عنها في سنة ٥٦٥ . أما
الاسكندرية فاشارة الشاعر فيها الى الحصار الذي ضربه
الفرنج عليها سنة ٥٦٢ وصلاح الدين يدافع عنها .
وتبنى صورة صلاح الدين في قلوب الفرنج مرعبة ،
ويسومه عليهم عبوساً قمطريراً تذكر الشعراء بطولته
...هوس ، لاستعادة القدس والتي يعد تحريرها فتح الفتوح
...عمله تحريرها من معاني .

يسوم الفرنج اذا ما لقوك
عبوس يرغمهم قمطرير
نهوضاً الى القدس يشفي الغليل
بفتح الفتوح وما ذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطوب
فهو على كل شيء قدير
أبك هجرت ملوك الزمان
فما لك والله فيهم نظير
وأنت تريق دماء الفرنج
وعندهم لا نراق الخُمور^(٣)
وتظل مفردة الفتح لامعة في قصائد الشعراء وهي

تتجل نصرا وعزة وذكرى وتوالى مفردات النصر والاشراق
لتبقى نشيدا يتلى وقصيدة تروى ونغما يملأ أسماع المقاتلين
ليعيدوا للتاريخ صورته وديوانا بضم النفثات الصادقة وهي
تستعيد الأيام الخوالد تحصد شوكة الخصوم وترد عادية اللثام
وكانت مناجاة نور الدين بعد وفاته صرخة تواصل صداها في
عصر البطل صلاح الدين لتظل الراية مرفوعة والهمة قائمة
فيقول العماد^(٣) :

كم قبصر للروم رمت بقصره
ارواء بيض الهند من تاموره
اوتيت فتح حصونه وملكت عقه
ر بلاده وسبيت أهل قصوره
أوما وعدت القدس أنك منجز
ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى نجير القدس من دنس العدا
وتقدس الرحمن في تطهيره
وظل الشعر يواكب المعارك ويرسم للقائد طريق
النصر ويحدد له الأماكن العزيزة التي بدأت تعود الى الوطن
بعد ان بدأت أرتال الفرنج تلوذ بالجبال والوديان مهزومة
مخذولة وهذا شاعر من دمشق يكتب على قصائده سعيد بن
عبدالله يقف بين يدي الملك الناصر صلاح الدين قبل تحرير
بيت المقدس ، فيقول^(٣) :

سلطانها الملك ابن أيوب الذي
كفاه لا تنكف عن هطلانها
تلك السيوف المرففات بكفه
أمضى على الأيام من حدثانها
ملك اذا جليت عرائش ملكه
رصعت فريد العدل في تيجانها
فاسلم صلاح الدين وابق لدولة
ذلت لدولتها ملوك زمانها
وانهض الى فتح السواحل نهضة

قادت لك الأعداء بعد حرايتها
ويقف شاعر آخر ليصف غارته على غزة وعودته من
ذلك الغزو بالعزة^(٢٤) :

فتى مذ غزا بالخييل والرجل غزوة
نأى عن نواحيها الرضا ودنا السخط
رماها بأسد ما لهن مرابض
ولا اجتم إلا الذي تنبت الخط
ويقف الحق مرة أخرى مع المؤمن المحتسب المجاهد
السلطان صلاح الدين وهو يجابه عشرين ألف مقاتل
وما وراءهم من امداد وهم يزيدون كل يوم قوة وشدة ولم
يكن معه من الجيش سوى ستة آلاف فارس . ولكن إيمانه
بالله الذي يمدّه بنصره وثقته بالرجال الذين تقاثل الملائكة
معهم كان أقوى من العدد الضائع فشل جموعهم حتى ولوا
مدبرين وتبددت سيولهم في كل شعب ، واندحرت فلولهم
عند كل ثنية لا تملك لنفسها ردا ولا تدفع عن نهايتها موتا .
وقد وجد العماد في هذه المعركة التي أذلت عسكر الفرنج
تعبيرا عن الصورة الكبيرة التي تعيش في قلوب المؤمنين الذين
حاولت سيوف الفرنج ان تزيع وجودهم ليردوا الغزاة
ويدفعوا عن الوطن غائلة الغدر فقال وهو يحمد الله على
نصره وأفضاله^(٢٥) :

فالحمد لله الذي أفضاله
حلوا الجنا عالي السنا وضاحه
عساد العدو بظلمة من ظلمه
في ليل ويل قد خبا مصباحه
وجنى عليه جهله بوقوعه
في قبضة البازي فهبط جناحه
حمل السلاح الى القتال وما درى
ان الذي يجنى عليه سلاحه
ان أفسد الدين الغلاة بخبثهم
فالناصر الملك صلاح صاحبه

وتبقى القدس محور الدفاع عن الأرض والقطب
الذي تدور حوله قصائد الشعراء والمحك الذي يمتحن فيه
الرجال لأنها عقدة النصر الحقيقي والهدف المرجو في سير
المعارك والقبلة الدينية التي ينتظر تحريرها من أيادي الفرنج
المغتصبين وكانت أحاديثها في مدائح صلاح الدين واسعة
والإشارة بطرد الغزاة منها ماثرة من مآثر المديح وجهاد البغاة
منقبة من مناقب المستأثرين بالحديث . وإلى ذلك يشير
العماد في بعض مدائحه^(٢٦) :

ويسوسف مصر بغير التقى
وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس واسفك به
دماء متى تجرّها ينظف

وقد بلغ خوف الغزاة من الملك الناصر انهم كانوا
يخافونه حتى في أحلامهم لما أدخله في نفوسهم من رعب
وأثاره من فزع وقد تردد هذا المعنى في قصائد الشعراء حتى
وجدنا ابن رواحة ينشده في بعض قصائده فيقول^(٢٧) :

لقد خسر التجارب منه حزم
وقلب دهره ظهراً لبطن
فساق الى الفرنج الخيل برأ
وأدركهم على ظهر بسفني
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً
فمرناناً تنوح على مرن
يرون خياله كالطيف يسري
فلو هجموا أتاها بعد وهي
أبادهم تخوفه فأمسى
مناهم لو يبببتهم بأمن

انها صورة الأدب الحي الذي يرسم لوحة الحروب
المقدسة وقدرة الشعراء الذين يعبرون عن روح المقاتلين من
خلال الضمائر الحية والأساليب القتالية الواعية التي تعطي

الأدب مهمته وتحدد لأغراضه المهمات الأساسية التي تترك له خيار التعبير الفني والوظيفي .

وإذا كانت قصائد الشعراء قد تركت هذه الآثار على وجه الأسفار التاريخية وهي تقود معارك الجهاد وتخوض ملاحم القتال فإن الأدب بقي يحمل العطاء الفكري للمبادئ التي كانت تدفع المقاتلين وتخطط للقادة وهم يستحضرون الأجداد ويرفعون راية التاريخ وهي تلورؤوس

الهوامش

الثاني/ ٣٩٤ .

(٢٢) أبو شامة : كتاب الروضتين / المقدمة / (د) .

(٢٣) أبو شامة : كتاب الروضتين / الجزء الأول - القسم

الثاني/ ٣٩٥ .

(٢٤) المصدر نفسه / ٣٩٥ .

(٢٥) المصدر نفسه / ٤١٢ - ٤١٣ .

(٢٦) المصدر نفسه / ٤١٥ .

(٢٧) المصدر نفسه / ٤٦١ .

(٢٨) الديوان / ٢٧٥ نقلا عن الروضتين ١ / ٤٦١ والديوان

٣٠٦ - ٣١٢ وللقاضي الفاضل كتاب يصف فيه غزاة غزاهما

صلاح الدين في زمان وزارته وهي من الرسائل التي وثقت الأخبار

وتابعت أحداث الغزوة بأسلوب أدبي رائع .

(٢٩) أبو شامة : كتاب الروضتين / الجزء الأول - القسم

الثاني/ ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٣٠) ينظر كتاب الروضتين / الجزء الأول - القسم

الثاني/ ٦٠٥ .

(٣١) ينظر كتاب الروضتين / ٦٣٠ .

(٣٢) العماد / الديوان / ٢١٥ .

(٣٣) كتاب الروضتين / ٦٤٦ .

(٣٤) نفس المصدر .

(٣٥) العماد / الديوان / ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣٦) عماد الدين - الديوان / ٣٠٤ .

(٣٧) كتاب الروضتين / ٦٩٣ .

(١) الديوان / الورقة من ٣٢ - ٣٥ .

(٢) ابن دنيير / مخطوطة الديوان الورق (٩) .

(٣) تنظر كتب التواريخ ذيل مرآة الزمان والحوادث الجامعة

والنجوم الزاهرة وذيل تاريخ ابن الوردي .

(٤) ابن شداد / سيرة صلاح الدين / ٧٧ وتراجع تفاصيل

المركة في جمال الدين الشيبان وقصة الكفاح بين العرب والاستعمار .

(٥) أبو شامة / كتاب الروضتين ٢ / ٧٥ .

(٦) أبو شامة / كتاب الروضتين ٢ / ٣٧ .

(٧) ابن واصل / مفرج الكروب ٢٨ / ١٢٧ .

(٨) ابن واصل / مفرج الكروب ٢ / ١٢٨ .

(٩) المقرئزي / السلوك ١ / ٧٩ .

(١٠) عماد الدين - الديوان / ٢١٣ .

(١١) عماد الدين - الديوان / ١٢٥ .

(١٢) عماد الدين - الديوان / ٤١٠ .

(١٣) الديوان / ١٩٠ - ١٩٢ .

(١٤) الديوان / ١٩٤ .

(١٥) عماد الدين - الديوان / ٢١٥ .

(١٦ - ١٨) ينظر كتاب الروضتين / الجزء الأول القسم

الثاني / ٥١٠ - ٥١٣ واصل الاسماعيلية لبرنارد لويس

(١٩) للاستزادة من تفاصيل عقائدهم وما اترفوه من آثام

وجنوه بحق الامة وعلمائها تنظر الصفحات من ٥١٠ - ٥١٦ .

(٢٠) ينظر كتاب الروضتين / ٥٦٣ .

(٢١) أبو شامة : كتاب الروضتين / الجزء الأول - القسم

الحكمة الشريفة في ظلال الغزو الفرنجي

د. عبد العزيز حميد صالح

كلية الاداب - جامعة بغداد

يمدد من الجند لصد شراذم من الرُّحل سماهم بـ (خبيرو) .
ومن المتفق عليه بين المختصين في الوقت الحاضر ان (خبيرو)
هم (العبريون) (١) .

والقدس من المدن التي لها تاريخ حافل متميز توالى عليها
من الاحداث والنكبات ما يملأ المجلدات الضخمة . فقد
حوصرت في الالف الاول قبل الميلاد وحده سبع عشرة مرة
وهدمت مرتين . وربما اول نكبة حقيقية حلت بها هي عندما
استولى عليها العبريون وفتحوا بأهلها في السنة السادسة من حكم
الملك داود في اواخر الالف الثاني قبل الميلاد .

والقدس من المدن القليلة في العالم التي لا تزال تحتفظ
بأسوارها ، او على الاقل بالجزء الاكبر منها . وان كانت هذه
الاسوار متأخرة . حيث ان السور الذي يحيط بها اليوم هو الذي
شيده السلطان العثماني سليمان القانوني في سنة ١٥٣٥ م .

لقد حرر العرب المسلمون مدينة القدس من أيدي القوات
البيزنطية صلحاً في السنة الخامسة عشرة من الهجرة وكانت تعرف
آنذاك باسم (ايلياء) . ويعود السبب في التسمية أنه في سنة
١٣٥ م هدم الامبراطور الروماني هادريان (١١٧ - ١٣٨ م)
مدينة اورشليم تماماً حتى ألحق اعلاها بأسفلها ثم حرث الموقع
وسوّاه وشيّد فوقها مدينة رومانية جديدة سمّاها (ايليا كابيتلينا)
Aelia Capitolina وقد خطّت المدينة الجديدة على رقعة أصغر

لقد كانت فلسطين منذ العصور القديمة هدفاً وطريقاً الى
الهلال الخصيب بالنسبة الى الهجرات العربية من قلب شبه
الجزيرة العربية . والواقع ان الوجود العربي في فلسطين يرجع الى
الالف الثالث قبل الميلاد على الاقل يوم هاجرت اليها والى سورية
القبائل العمورية والكنعانية (٢) .

تعتبر بيت المقدس او بيت المقدس كما يسميها العرب واحدة
من بين اقدم مدن العالم واعرقها تاريخاً . لقد اتمتع بيت المقدس
بشيء من القدسية منذ ان مصرها الملك الكنعاني (ملكي
صادق) في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . ويروى ان (ملكي
صادق) هذا الذي كان معاصراً لنبي الله ابراهيم الخليل عليه
السلام معروفاً بالثقوى والزهد والمحافظة على سنة الله
القيومة (٣) .

لقد سمي العرب الكنعانيون وهم سكان البلاد الاصليين
مدينة القدس باسم (يروشالم) وتعني (مدينة الاله شالم) او
(مدينة السلام) . وقد عرفت عند الاشوريين والبابليين باسم
(اورشاليمو) وهو نفس الاسم الكنعاني .

لقد وصل اليها من اسماء ملوك القدس ايضاً الملك (عبد
خييا) جاء اسمه في الواح (تل العمرنة) من مصر وذلك في
رسائل وجهها الى فرعون مصر (امنحوتب الرابع) أحد ملوك
السلالة الثامنة عشر (١٣٧٥ - ١٣٥٨ ق . م) يستنجد فيها

من الرقعة التي كانت تشغلها اورشليم^(١) . ولم يسمح لأي من اليهود الدخول اليها أو حتى الاقتراب منها . لقد ورد اسم (ايلياء) في المدونات التاريخية الاسلامية المبكرة كما وردت في التحذير الذي وجهه الصحابي ابو عبيدة ابن الجراح الى حاميتها البيزنطية عند محاصرته لها . وجاء الاسم الجديد ايضاً في وثيقة الأمان التي حررها لأهلها عمر بن الخطاب (رض) عند فتحها وهي الوثيقة المعروفة بالعهدية العمرية . ومما تجدر ملاحظته انه عُثر على فلس نحاسي مؤرخ من سنة سبعة عشر للهجرة وقد نقش على خافة احد وجهي النقد (بسم الله) باللغة العربية في حين ان بقية النصوص بلغة الروم . وعثر على فلس آخر من نفس الشاكلة مؤرخ في السنة الثامنة عشر للهجرة^(٢) . وفي هاتين الفترتين تؤكد لما أفادتنا به المصادر العربية الاسلامية من ان عمر بن الخطاب (رض) كان اول من أمر بسك النقود في ظل الاسلام . وقد ظل اسم ايلياء قيد الاستعمال كما يبدو حتى اواسط العصر الأموي على الأقل . .

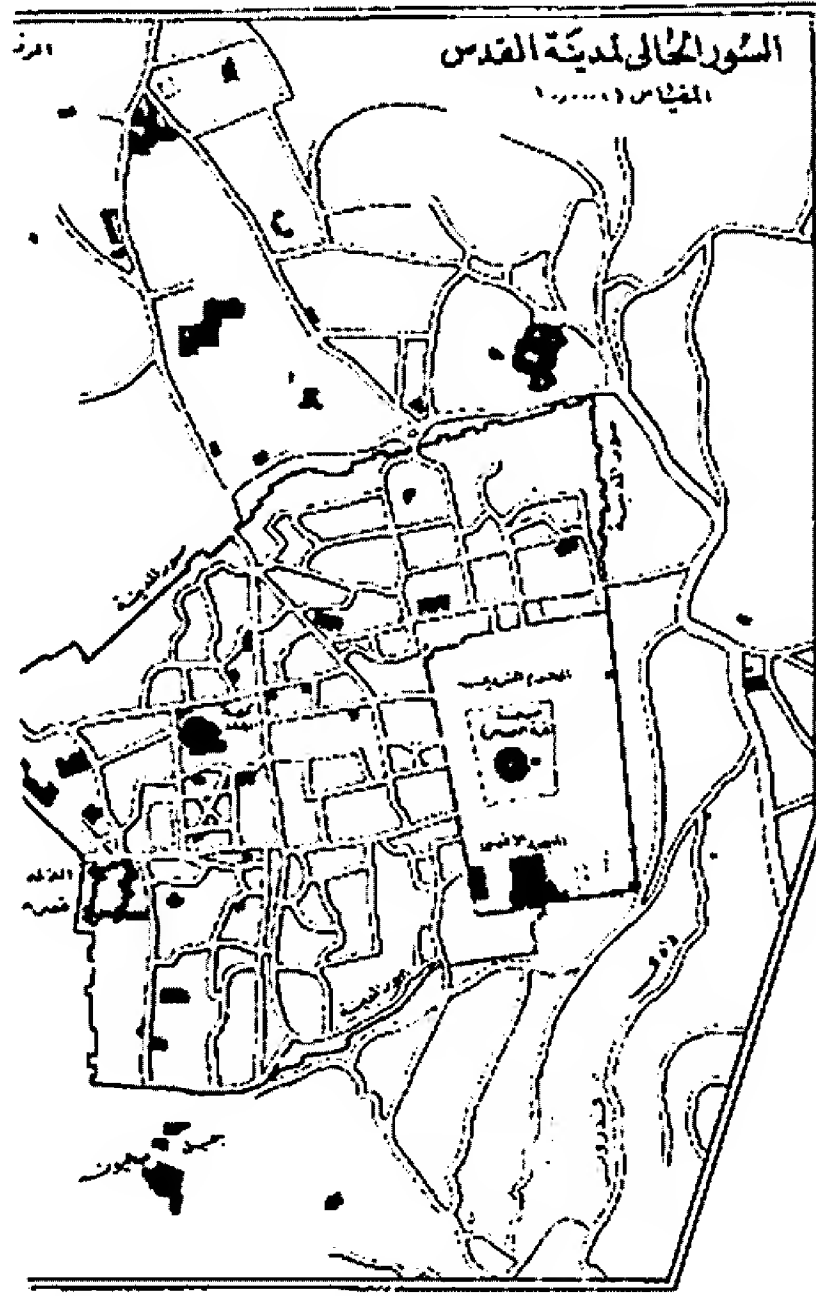
وفي السنة التي حررت فيها بيت المقدس يذكر لنا سعيد بن بطريق ان عمر بن الخطاب (رض) طلب الى البطريق سفرونيوس Sophronius ان يدلّه على موضع ليشيد فيه مسجداً للمسلمين . فأشار البطريق بيده الى الصخرة المشرفة وكانت في بقعة خالية من البناء مليئة بالأتربة مرتفعة عما يجاورها من الارض . فمسك الخليفة هناك بطرف ثوبه فملأه تراباً ورمى به في واد قريب . و « اقتفى المسلمون أثره فراحوا يحملون التراب في حجورهم وفي الثياب والاتراس ، وفي الزنايل والاجانين حتى نقوا الموضع ونظفوه واستبانَت الصخرة »^(٣) .

وهكذا فقد بنى المسلمون ايام خلافة عمر الفاروق مسجداً في المنطقة التي كانت مليئة بالأتربة بجوار الصخرة المشرفة . وتتفق معظم هذه المصادر على ان عمراً صير الصخرة في آخر المسجد . ويذكر المطران البيزنطي اركهولف Arculus الذي زار بيت المقدس لغرض الحج سنة ٥٠ هجرية (٦٧٠ م) انه شاهد ذلك المسجد . وأشار انه كان مربع الشكل شيد أغلبه من الواح الخشب وجذوع الاشجار

الغليظة . وذكر ايضاً بانه قيل له ان المسجد كان يتسع لثلاثة آلاف من المصلين^(٤) .

لقد صار مسجد عمر نواة للحرم الشريف فيما بعد حتى ان كثيراً ما اطلقت كلمة المسجد على الحرم كله . وتبلغ مساحة الحرم الشريف نحو سدس مساحة القدس القديمة المسورة^(٥) . ويشير احمد بن عبد ربه الاندلسي المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية (٩٣٨ م) أن طوله ٧٨٤ ذراعاً وعرضه ٤٠٠ ذراعاً^(٦) . غير ان ابن الفقيه المتوفى سنة ٣٤٠ هجرية (٩٥١ م) يذكر لنا ان طوله الف ذراع وعرضه سبعمائة ذراع^(٧) . ولا شك ان قياسات ابن الفقيه هي اقرب الى الحقيقة فنحن نعلم اليوم ان مقاسات الحرم الشريف - وهو ذو شكل منحرف قليلاً - هي كما يلي : طول ضلعه الغربي ٤٨٠ متراً وضلعه الشرقي ٤٦٥ متراً . وطول ضلعه الشمالي ٣٠٠ متراً والجنوبي ٢٨٠ متراً .

ويسمى السور الغربي للحرم الشريف بحائط البراق الذي يعتقد المسلمون ان الجدار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ربط فيه البراق عندما عرج به الى السماء . ويسمى اليهود هذا الجدار الغربي بحائط المبكى . فهم يدعون انه البقية الباقية من هيكل سليمان الذي هدمه القائد الروماني تيتوس سنة ٧٠ ميلادية . وقد انتهز اليهود فرصة وعد بلفور سنة ١٩١٧ واخذوا يجلبون المقاعد والحصار والمصابيح والستائر الى الساحة الواقعة امام جدار البراق على غير العادة المألوفة . ولم يقف العرب المسلمون في القدس مكتوفي الايدي امام تعدي اليهود على حائط البراق وجراتهم على تسميته بحائط المبكى ، فقد حدثت اشتباكات كثيرة بين الطرفين ، مما حمل حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين الى ارسال لجنة دولية خاصة عرفت باسم (لجنة البراق الدولية) للتحقيق في ذلك ، وكان اعضاؤها من الدول الاوربية ووافقت عصبة الامم على تشكيلها في ٥ ايار سنة ١٩٣٠ . واصدرت اللجنة قراراتها والتي كانت الفقرة الاولى منها كما يلي :

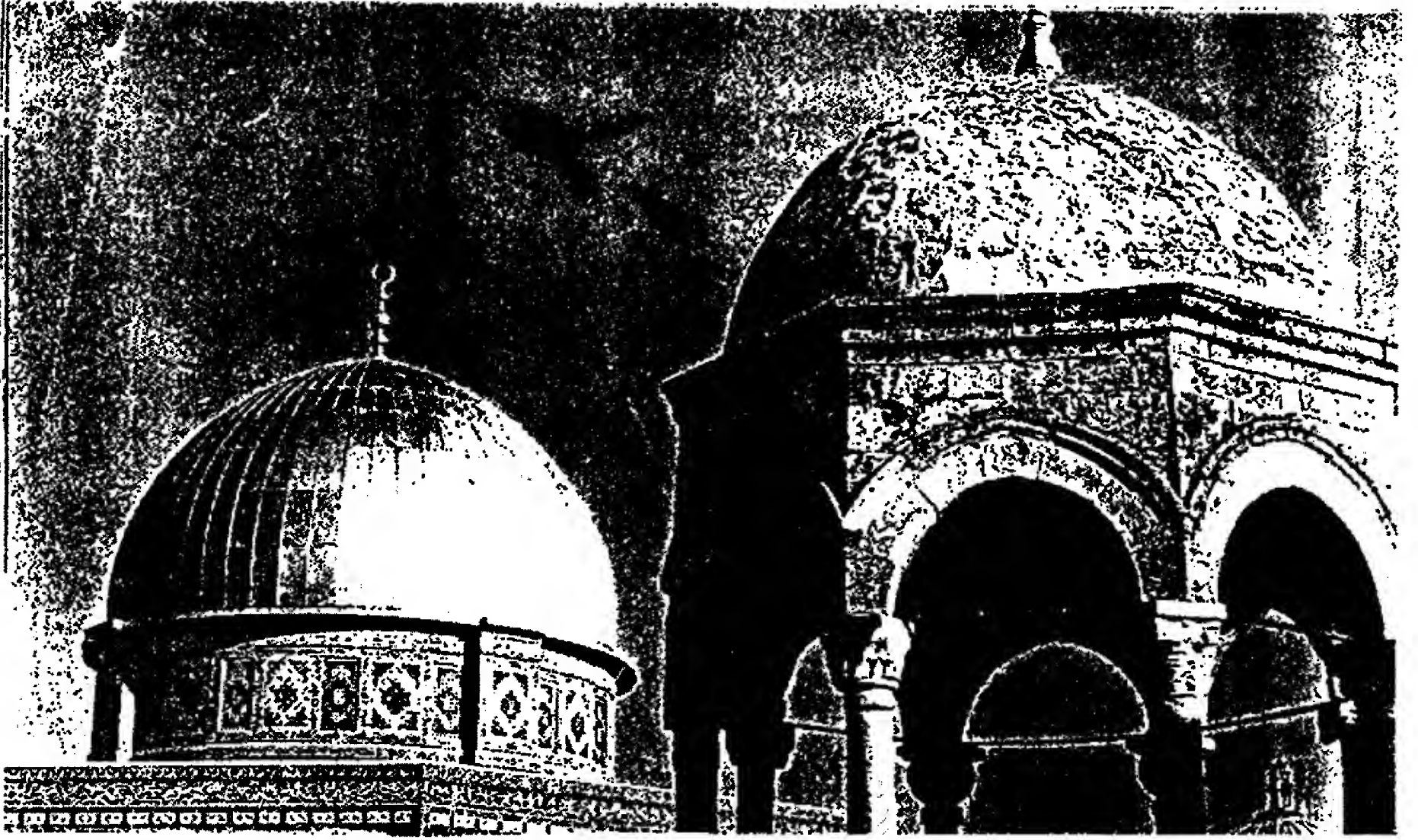


الحرم الشريف وسور مدينة القدس

شكل رقم ١

للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي . ولم وحدهم الحق العيني فيه لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من املاك الوقف . . . (١) . ويذكر ابن الفقيه انه كان للحرم الشريف عند زيارته له خمسون باباً داخلاً وخارجاً : وأن هناك داخل الحرم الشريف سبعمائة عمود . ولا ندري ان كان المقصود بالاعمدة هنا تلك التي تشتمل عليها العمارات الواقعة داخل ساحته ام غير ذلك . فنحن نعلم انه تحيط به اليوم من ثلاث جهات قناطر قائمة على اعمدة رخامية يبلغ عددها ثمانية قناطر اقام قسماً منها الأمير ليث الدولة منصور توشتكين الغوري امير الجيوش وحاكم سورية زمن الخليفة الفاطمي الظاهر لأعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧ هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م) (٢) . وتم تشييد بعضها من قبل المماليك في سنة ٧٢٦ هـ هجرية (١٣٢٥ م) . ويذكر ابن الفقيه ايضاً وكذلك ابن عبدربه ان هناك داخل هذا المسجد

ثلاث مقاصير للنساء اضافة الى خمسة عشر قبة من العمارات الدينية التي لها قدر كبير من القدسية عند المسلمين . ففي وسطه قبة الصخرة وفي الجزء الجنوبي منه المسجد الأقصى والى الجهة الشرقية من قبة الصخرة قبة السلسلة والتي تسمى ايضاً بقبة داود ثم قبة المعراج وغيرها من العمارات والقباب (شكل ١) غير أن اكثر المباني الواقعة ضمن الحرم الشريف اهمية هو البناء المعروف بقبة الصخرة (شكل ٢) . لقد شيدت قبة الصخرة على دكة قديمة واسعة منحرفة قليلاً طولها من الشمال الى الجنوب حوالي ١٦٥ متراً وعرضها الشمالي ١٥٠ متراً في حين ان عرضها الجنوبي ١٣٥ متراً ، وارتفاعها عن مستوى الارض المحيطة بها ٤,٥ متراً . ويوصل الى ساحتها سبعة مراقب موزعة في جهاتها الاربعة . اما الصخرة التي من اجلها اقيم هذا البناء والتي يروى ان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد وضع قدمه عليها عندما عرج به الى السماء ليلة الاسراء والمعراج فغير



منتظمة . اقصى طول لها ١٧,٥ متراً وابعد عرض لها ١٣,٥ متراً ، واعلى ارتفاع لها عن مستوى الارض المحيطة بها ١,٥ متراً (شكل ٣) .

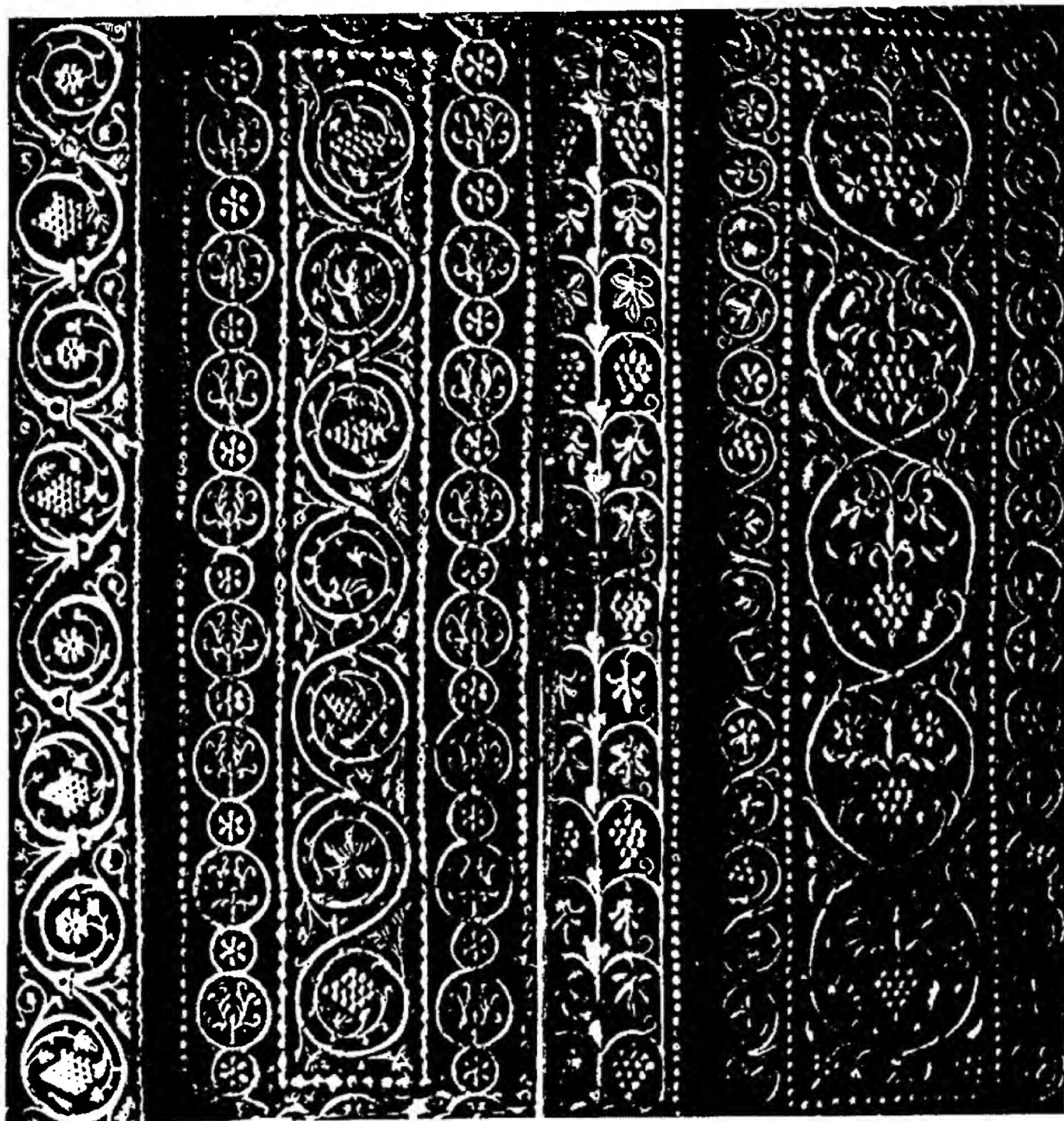
لقد اختار المصمم للصخرة بناءاً مثمناً ليتماشى مع شكلها غير المنتظم . ويجد الداخل الى قبة الصخرة باثنتين محمولتين على عدد من الاكتاف والاعمدة الرخامية المجزعة . وتشد عقودها بعض الى بعض روابط خشبية متينة مغلقة بصفائح برنزية مطروقة تشغلها تفريعات نباتية دقيقة ناتئة ترجع الى عصر البناء الاول (شكل ٤) . وتحمل البائكتان والجدر الثمانية سقفاً منحدرأ وقبة عظيمة ترتفع في الهواء ٣٥,٥ متراً . والقبة من الخشب وهي مزدوجة ، اي انها كما يقول ابن الفقيه « قبة على قبة » . وهناك بين القبتين فراغ ، اي انه هناك بين القشرتين الخشبيتين ، ان صبح القول ، فراغ واسع فيه سلم يمكن التسلق بواسطته الى القمة حيث نصب هلال برنزي كبير . وقد ثبتت على القشرة

الخارجية للقبة صفائح الرصاص لعزل الخشب لغرض حمايته من الامطار والثلوج والريح . ويقول ابن الفقيه ويؤكد المحدثي ان صفائح الرصاص كانت مغلقة من الخارج بالواح رقيقة من النحاس المذهب الأخاذ (شكل ٥) .

لقد زينت قبة الصخرة عند بنائها من الداخل والخارج بما في ذلك بواطن وكوشات العقود بالفسيفساء . غير ان السلطان سليمان القانوني قلع فسيفساء الواجهات الخارجية للجدران ليكسوها بتريعات الخزف المزجج وذلك في سنة ٩٥٢ هجرية (١٥٤٥ م) . ولقد تساقطت بعض اجزائها من داخل البناء على مر الأيام غير انه لا يزال هناك ما لا يقل عن ألف متر مربع من الفسيفساء التي ترجع الى عصر التشييد والتي تظهر قدرة العرب على الابداع والالتقان في هذا الضرب من الفن سواء كان ذلك في تنفيذ رسومها الهندسية او في التفريعات النباتية والزهور وغير ذلك . والتي تتجلى

شكلى ورقه ٥

صفائح البرنز المطروقة ذو الزخارف البارزة التي تكسو الرواسط الخشبية في قبة الصخرة



ايضاً في اختيار موضوعات الزخرفة والنسجاء وتسييفها والتوفيق في اختيار ألوانها (شكل ٦) .

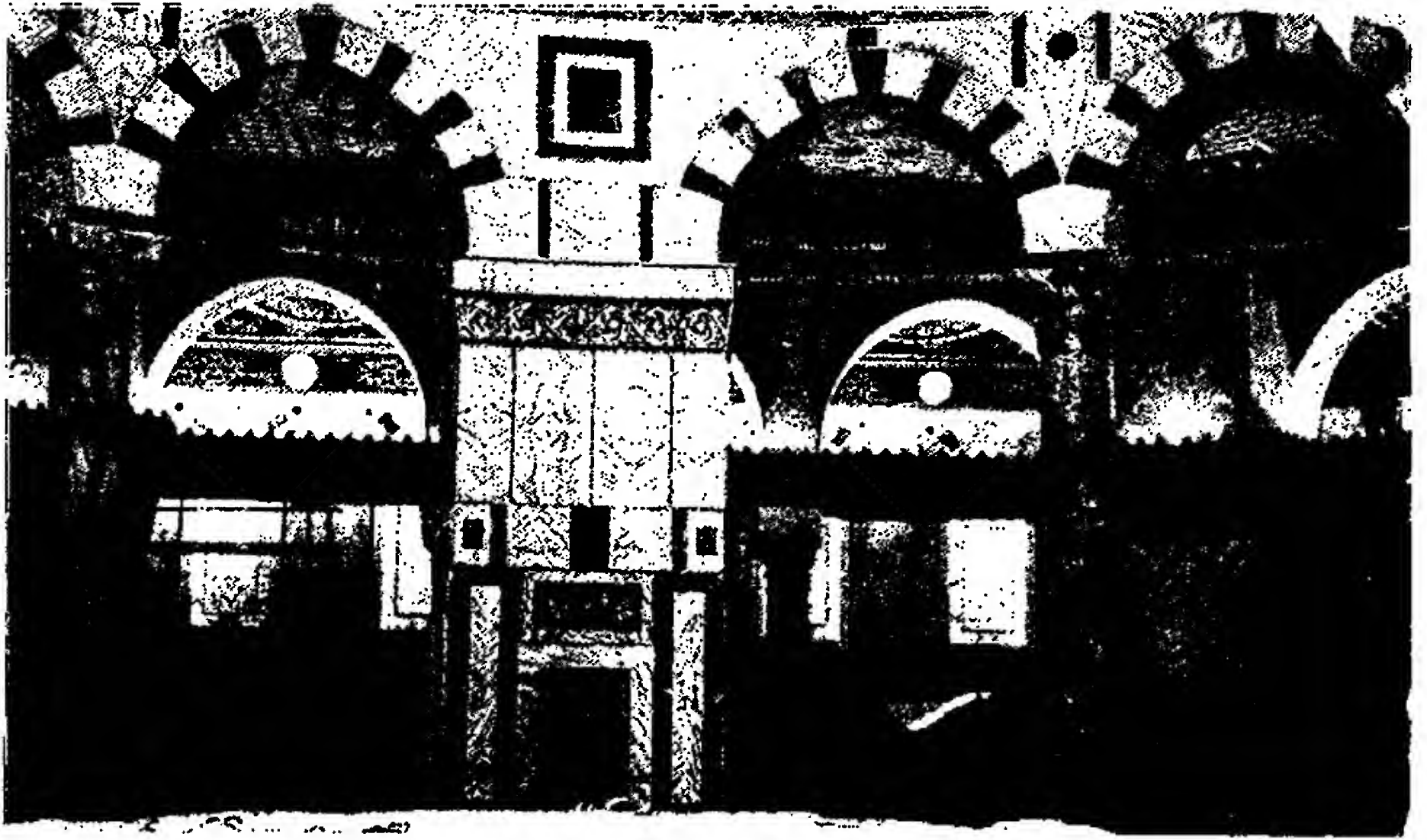
اما عن تاريخ قبة الصخرة فقد أفادت جميع المصادر العربية القديمة ان الخليفة الاموي عبدالملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) هو الذي امر ببنائها بعد ان استشار المسلمين ورصد لها خراج مصر لسبع سنين . وعهد بأدارة العمل الى اثنين من رجاله هما رجاء بن حياة الكندي ويزيد بن سلام . وقد فرغ من البناء في سنة ٧٢ هجرية (٦٩١ م) كما يشهد بذلك الشريط الكتابي التذكاري الذي يبلغ طوله ٢٤٠ متراً والذي نقش بالفن الفسيفساء المذهبة وعلى ارضية زرقاء وبخط كوفي جلي ومتناسق . ان هذا النقش الكتابي هو ليس فقط اقدم ما وصل من كتابة تذكارية على بناء اسلامي شاخص بل اقدم نقش كتابي يجمع بين الاعلام والزخرفة . كما انه بحق افضل ما وصلنا من الخط العربي من حيث التطور والجمال والجودة وحسن الاداء

لقد صار هذا البناء بقبته المتقنة وبنائه المتين وتكوينه الرائع آية في فن هندسة البناء لا في العصر الذي شيد فيه فحسب وانما على مر الايام والعصور ، حتى انه بهر بروعة وبهاء وفخامته وتناسقه كبار المختصين في العمارة من الاوربيين . فقال بعضهم بان قبة الصخرة من اجمل الابنية فوق البسيطة واجمل الاثار التي خلدها التاريخ^(١٠) . ويذكر آخرون بانها تعد النموذج الامثل في التناسق والانسجام . ويكتب آخر بانه لم يجد في اي بناء آخر مثل هذا التناسب البديع بين الاجزاء المعمارية والتناسق في الالوان المستخدمة في الزخرفة^(١١) .

ويذكر المتخصص البريطاني في الاثار والعمارة الاسلامية الاستاذ كرسويل بان قبة الصخرة قد بهرت ببنائها ورونتها وفخامتها وسحرها ودقة نسبها كل من حاول دراستها من العلماء والباحثين^(١٢) .

وعلى بعد ١٦٠ متراً الى الجنوب من لبة الصخرة وعلى الحدود القبلية للحرم الشريف يقع المسجد الاقصى . ولقد اختلفت الآراء حول من كان له شرف البدء بهذا البناء المبارك في العصر الاموي وهو ثاني مسجد جامع يشيد في بيت المقدس بعد مسجد عمر (رض) . وربما يعزى السبب في الاختلاف الى عدم وجود كتابة تذكارية مثل تلك الكتابة الرائعة الموجودة داخل قبة الصخرة . وقد كرر بعض القدامى من المؤرخين والبنائين العرب في هذا الخصوص ان مشيد هذا المسجد هو عبدالملك بن مروان^(١٣) ، بينما يذكر آخرون ان ذلك الشرف كاد من نصيب الوليد بن عبدالملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٥ م) . ويعتقد بعضهم ان البناء قد بدأ أيام عبدالملك وتكامل في خلافة الوليد^(١٤) . ويرى عدد من المختصين ، ومنهم كرسويل ، ان المسجد الحالي قائم في نفس الموضع الذي شيد فيه عمر بن الخطاب (رض) مسجده الاول في بيت المقدس (شكل ٧) . لقد كان المسجد الاقصى اوسع مما هو عليه في الوقت الحاضر ، ارضه مرصوفة بالرخام ، وابوابه ملبسة بصفائح الفضة . غير ان المسجد لم يبق على حاله القديم فقد مكرت عليه مع الزمن تغيرات بسبب التجديدات التي اضطر اليها القوامون عليه بسبب ما كان يلحق به من تصدع . وبشكل خاص بسبب الزلازل . ومن اقدم الزلازل التي احدثت اضراراً كبيرة به الزلزال الذي ضرب القدس سنة ١٣٠ هجرية (٧٤٦ م) وانهار بسببه الجزء الشرقي من البناء . ولم ينسئ اصلاح القصر الا في سنة ١٥٤ هجرية أيام خلافة ابي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨ هـ / ٧٥٤ - ٧٧٥ م) . غير انه لم تمض الا اربع سنوات على هذا التجديد حتى ضرب بيت المقدس زلزال عنيف آخر . فنان للمهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ / ٧٧٥ - ٧٨٥ م) شرف اعادة بنائه في سنة ١٦٣ هجرية (٧٧٩ م) (شكل ٨) .

ويعتبر المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠ هجرية (٩٩٠ م) اول من وصف المسجد الاقصى من البنائين وصفاً مسجداً وذلك عند زيارته للقدس سنة ٣٧٥ هجرية (٩٨٥ م) . فقال انه يتكون من بيت صلاة كبير يقوم على اعمدة من الرخام ومسقف بجسولون عال وينتهي عند جدار القبلة بقبة عظيمة . وذكر ايضاً ان للمسجد خمس عشرة بلاطة كما ان له سنة وعشرون باباً

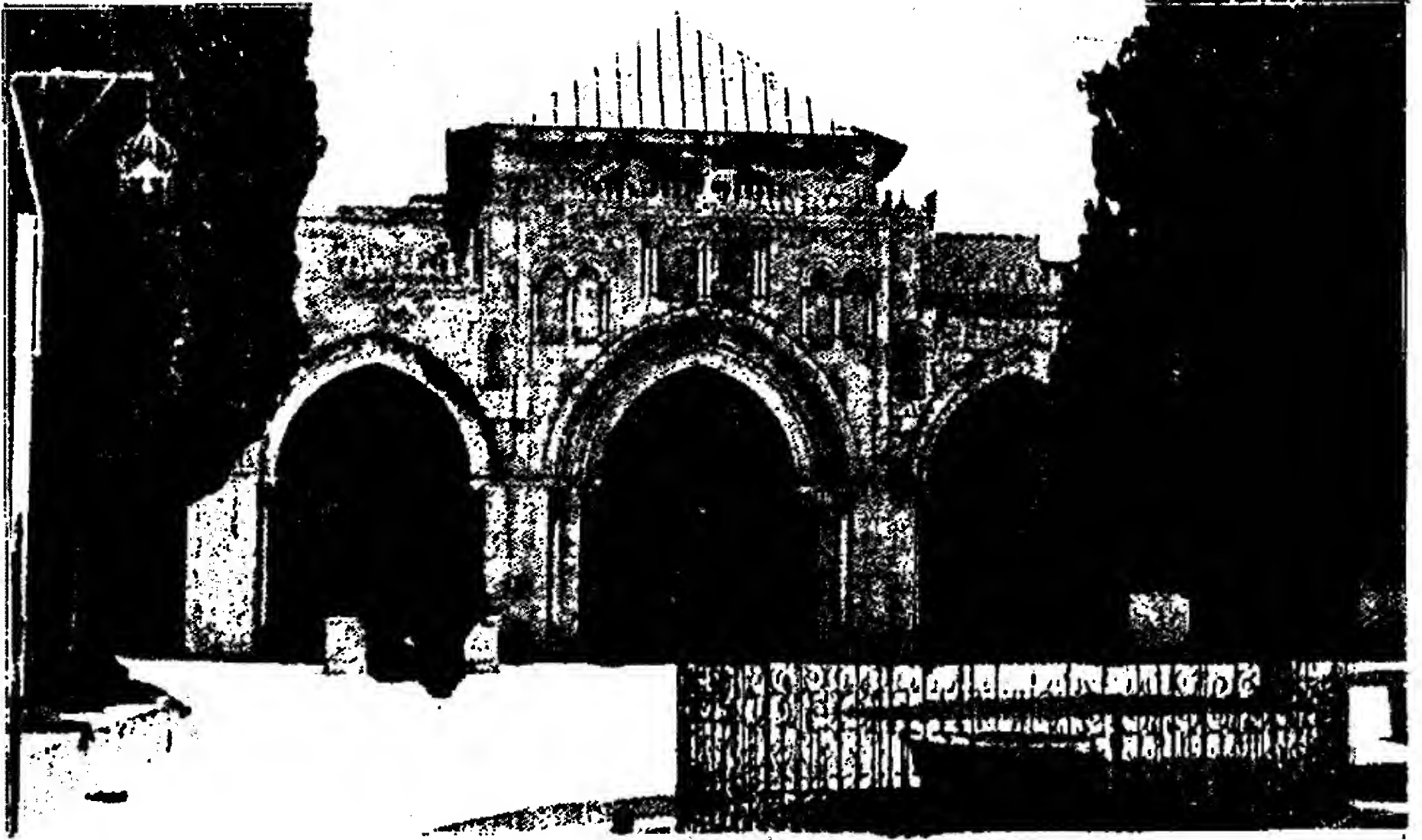


وستوفه كلها مكسوة بصفائح الرصاص^(١١).

هذا وان آخر تجديد للمسجد الاقصى قبل وصول الصليبيين كان في سنة ٤٢٦ هجرية (١٠٣٤ م). والسبب في التجديد يعود الى زلزال ضرب المدينة في السنة السابقة الحق بالمسجد اضراراً بليغة. وقد ابقى اثناء التجديد على ما امكن الحفاظ عليه من بناء المهدي. فلم يتغير من تخطيطه سوى تقليص بيت الصلاة بحذف اربع بلاطات من كل جهة من جهتي الشرقية والغربية. غير ان القبة الحالية ورقبتها والعقود في بيت الصلاة والاروقة والابواب السبعة التي في الجدار الشمالي للمسجد ترجع كلها الى عصر هذا التجديد الاخير (شكل ٩)^(١٢).

وفي اواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عندما استطاع الصليبيون ان يحصلوا على موقع قدم لهم في العالم الاسلامي كان هدفهم الاول الوصول الى بيت المقدس. فبعد ان تم لهم الاستيلاء على انطاكية عقدوا العزم على السير الى بيت المقدس، وكانت وقتذاك تابعة للفاطميين. وبعد حصار دام اربعين يوماً استطاعت القوات الصليبية اقتحام

المدينة فانسحب منها القائد الفاطمي افتخار الدولة وقواته باتفاق مع الصليبيين تاركين بيت المقدس لمصيره المشؤوم وذلك في صيف سنة ٤٩٢ هجرية (تموز ١٠٩٩ ميلادية)^(١٣). فالتجأ الكثير من سكانها العرب المسلمين الى الحرم الشريف غير ان الجيش الصليبي انقض عليهم وبدأت مذبحة من ابشع المذابح في تاريخ المدن، فلم ينج من العرب المسلمين الا القليل جداً، اذ انطلق الصليبيون في شوارع بيت المقدس والى الدور والمساجد يقتلون كل من يصادفهم من رجال ونساء واطفال دون تمييز. وفي اليوم التالي افتحم الصليبيون ابواب الحرم الشريف فقتلوا في ساحته وفي داخل قبة الصخرة والمسجد الاقصى جميع المسلمين الذين التجأوا الى هناك. ولبت الافرنج في القدس اسبوعاً كاملاً يقتلون فيه العرب المسلمين، ويذكر المؤرخ ابن العبري بانه قتل داخل المسجد الاقصى وحده ما يزيد على سبعين الفاً منهم^(١٤). ويكتب مؤرخ صيني كان مواكباً للحملة الصليبية بان جنودهم وحيوهم كانت تغوص حتى سيقانها في دماء المسلمين. ويذكر لنا المؤرخ المعروف فيليب حتي نقلاً عن



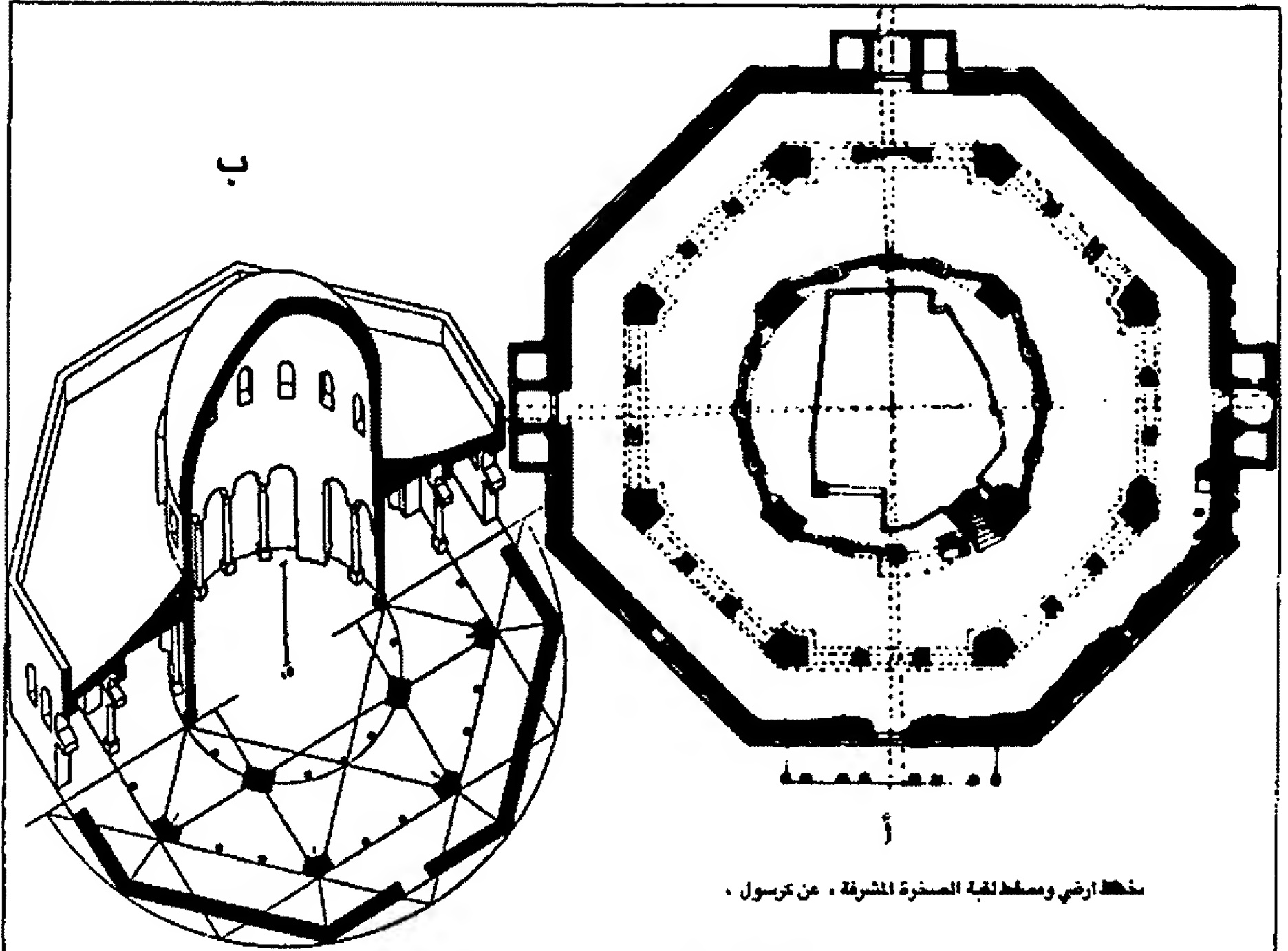
والمسلمين في موكب يتسم بالخشوع التام الى كنيسة القيامة ليؤدوا صلاة الشكر هناك .

أين هذه المذابح من ذلك الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب (رض) لأهل بيت المقدس عندما تم تحريرها على يديه من يد الاستعمار البيزنطي ؟ لقد هـ اعطاهم اماناً لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم . . . وانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبيهم ، ولا من شيء من اموالهم ، ولا يكرهون على دينهم . . . " انى آخر ذاك الأمان العظيم الذي يعتبر بحق من اروع الانجازات الانسانية في تاريخ الحروب . وقد سمح المسلمون للجيش البيزنطي بالانسحاب بحرية تامة فكان الجندي البيزنطي : « آمن على نفسه وماله الى مأمنه » على ان يدفع من ينسحب منهم فدية صغيرة . ومن اراد البقاء منهم فهو آمن ويعامل معاملة أهل القدس . ولا بد ان نذكر بهذا الصدد انه عندما حان وقت الصلاة وكان عمر الفاروق في صحبة بطريق « بيت المقدس داخل كنيسة القيامة خرج وصلى خارج الكنيسة . وقال للبطريق : لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدي

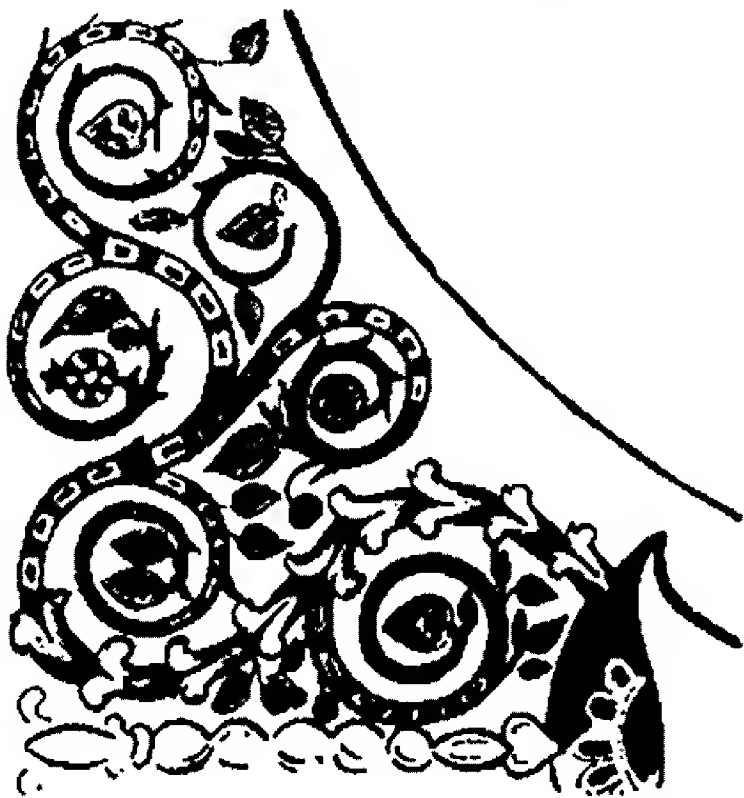
بعض المصادر اللاتينية ان الداخل الى بيت المقدس ليجد بعد المذبحة اكواماً من رؤوس النساء العربيات والاطفال والشيوخ واكفهم واقدامهم في جميع شوارع ودروب وازقة المدينة وساحاتها^(١١) . وان قائد الجيش الصليبي المدعو (ريموند اجيل) عندما اراد في اليوم التالي على دخول الجيش الصليبي ان يصل الى داخل الحرم الشريف اخذ يلتمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه^(١٢) .

ويذكر ابن القلانسي ان يهود بيت المقدس التجأوا الى معبدهم الكبير ، غير انه تقرر القاء القبض عليهم بحجة انهم ساعدوا المسلمين . فاشعلوا النار في المعبد ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين^(١٣) . وتذكر المصادر الاوربية والعربية على حد سواء انه لم ينج من القتل أحد من العرب والمسلمين وقد ظلت شوارع القدس ودورها وساحاتها مصبوعة بالدماء لفترة طويلة بعد الاحتلال الصليبي .

ومن الامور الغريبة حقاً ان امراء الحملة الصليبية الذين فعلوا فعلتهم الشنعاء هذه ساروا بعد ان قتلوا جميع العرب



مخطط لمصفاة جهة الصخرة ، عن كرسويل ،



وقالوا : هنا صلي عمر .

ان ما فعله الفرنج يذكرونا تماماً بما فعله الفرس عندما اجتاحت بيت المقدس وذلك قبل تحرير العرب لها بأربع وعشرين سنة . كان ذلك على يد الملك الساساني كسرى الثاني الذي هدم كل ما وجدته من قصور وكنائس واديره وذبحوا من سكانها المسيحيين تسعين ألف نفس . واخذوا الصليب الأعظم الذي يعتقد المسيحيون انه هو الذي صلب عليه السيد المسيح عليه السلام . وقد ذكر المؤرخون أن يهود الجليل عاونوا الفرس في ذلك .

ومهما يكن من امر فقد اسس الفرنج في بيت المقدس والمدن الفلسطينية المجاورة مملكة لاتينية . واستولت هذه المملكة على جميع المباني والممتلكات داخل بيت المقدس وحرمت على العرب المسلمين دخولها تحريماً قاطعاً .

اما بالنسبة الى الحرم القدسي فانهم نهوا ما في داخل قبة الصخرة والمسجد الأقصى من تحف ثمينة . ونذكر على سبيل المثال ان القائد الفرنجي نانكرد سرق ثمانية قناديل ضخمة من الفضة كانت معلقة داخل قبة الصخرة^(٣١) . وحول الصليبيون قبة الصخرة الى كنيسة سموها المعبد المقدس Templum Domini . وقد كتب بنيامين التطيلي عن ذلك عند زيارته لبيت المقدس وهي في ظل الاستعمار الفرنجي قال : « ... وعليه اليوم البناء الذي يسميه الافرنج (المعبد المقدس) . . . وليس يسمح لأحد ان يدخل فيها تمثالاً لأنها محل خاص بالعبادة . . . »^(٣٢) .

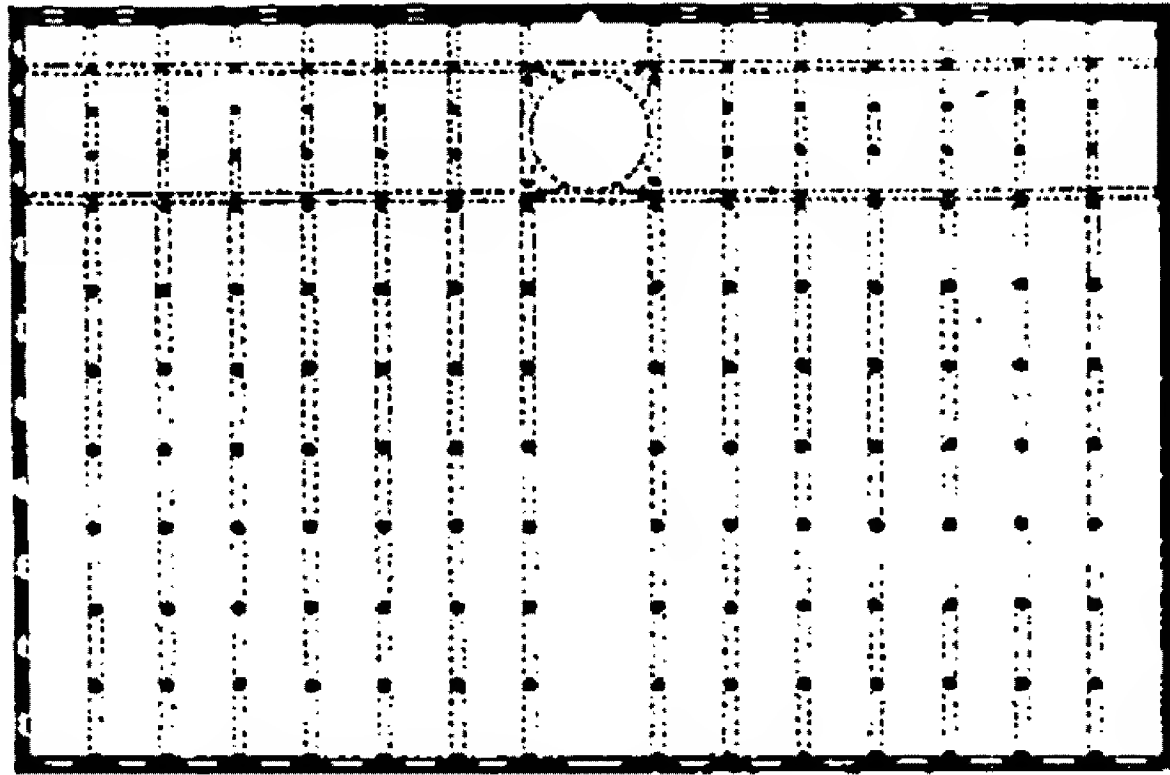
واتخذ فرسان الهيكل Knights Templars قبة الصخرة مقراً لهم معتبرين ان هذا البناء هو البيت الحقيقي للرب . وقد صار شكل قبة الصخرة شعاراً لفرقتهم ونقلوا طرازها الى اوربا حيث ظهرت كنائس مشابهة لها في التخطيط في لندن ولون Loan ومتز Metz وغيرها من مدن اوربا . وفي لوحة روفائيل الشهيرة « الزواج » Sposalizio والمحفوظة في متحف براره Brara Gallery في ميلانو والتي رسمت امام كنيسة مثمانية الاضلاع لا تبعد في الشكل كثيراً عن قبة الصخرة^(٣٣) . لقد سمى العرب هذه الفرقة ، أي فرسان الهيكل بفرسان

الداوية وهي الفرقة التي تشكلت في بيت المقدس بعد احتلالها من قبل الفرنج وكانت من الداء اعداء العرب المسلمين واكثرهم تعصباً وقد نذر افراد هذه الفرقة انفسهم لقتل المسلمين وافنائهم .

ويكتب لنا ابو عبدالله محمد العماد الكاتب القرشي الاصبهاني المتوفي سنة ٥٩٧ هجرية (١٢٠٠ م) ان الفرنج زينوا قبة الصخرة بالصور والتماثيل والايقونات ، وافردوا لموضع القدم (الصخرة) قبة صغيرة مذهبة محمولة على أعمدة رخامية . . . وقالوا : محل قدم المسيح وهو مقام التقديس والتسبيح . . .^(٣٤) كما ان الصليبيين قلعوا الهلال الذي كان يعلو قبة الصخرة ووضعوا بدلاً عنه صلياً كبيراً شأن تلك الصلبان التي تعلو عادة قباب الكنائس المسيحية . كما انهم وضعوا حول الصخرة اطاراً من الحديد بدلاً عن الاطار الخشبي القديم . ويذكر لنا الاصبهاني ويؤيده في ذلك المؤرخون الاوربيون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية بان « الافرنج كانوا يقطعون قطعاً من الصخرة ويحملونها الى القسطنطينية وبقية المدن الاوربية لبيعوها هناك بوزنها ذهباً وقد اتخذوا من ذلك تجارة »^(٣٥) . ويضيف الى ذلك ابن الاثير بان الذين كانوا يقومون بذلك العمل هم القساوسة يبيعونها للحجاج المسيحيين ليضعونها في الكنائس التي كانت تشيد في المدن الاوربية . ومن اجل ذلك اصدر ملوك الافرنج امراً بتغطية الصخرة بالألواح الرخامية حتى لا تختفي كلياً نتيجة التكسير والتفتيت المستمر^(٣٦) .

اما بالنسبة الى المسجد الأقصى فقد غير الفرنج كثيراً من معالمة وصاروا يسمونه بهيكل سليمان Templum Salomonis او البلاط Palatium . واتخذوا جانباً منه كنيسة وجانباً منه مكاناً لسكنى فرسان الهيكل . ويذكر ايضاً انهم اضافوا الى المسجد من ناحيته الغربية وعلى طول الحائط القبلي صفاً مزدوجاً من القناطر المعقودة متخذين منها مستودعاً لأسلحتهم^(٣٧) .

ويذكر ابن الاثير ان الجزء الذي استقطعوه من المسجد الأقصى واتخذوه مسكناً لبعض فرسان الهيكل لم يكن كافياً فاستخدموا مقصورات الصلاة الثلاثة الخاصة



تخطيط الأرضي للمسجد الأقصى في بيت المقدس في أيام المهدي

المخطط الأرضي للمسجد الأقصى في بيت المقدس في أيام المهدي .

يشبه المحراب بينهما . وقد سميت بهذا الاسم بسبب وجود سلسلة تتدلى من وسط قبتها . ان هذه القبة مكسوة من جهتها الخارجية بصفائح الرصاص ومرفوعة على ستة أعمدة وبقيّة سطح البناء على أحد عشر عموداً خارجياً .

ويكتب الادريسي المتوفي سنة ٥٤٩ هجرية (١١٥٤ م) معتمداً على بعض المصادر المسيحية ان الفرنج قد حولوا قبة السلسلة الى كنيسة صغيرة اطلقوا عليها اسم (قدس الاقداس) أو كنيسة سانت (جيمس دي ليس) The Chapel of St. James the Less نسبة الى ذلك القديس الذي عرف بهذا الاسم واستشهد في ذلك الموقع حين لقاء اليهود من فوق سطح المعبد^(٣١) .

وفي الربع الاخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وهي الحقبة الزمنية التي تميّزت بمظهر الوحدة الكاملة للعالم الاسلامي ظهر في العراق بطلان قادات الامّة العربية والاسلامية نحو التحرير القومي : الاول هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ / ١١٨٠ - ١٢٢٥ م) الذي استطاع ان يخلص العالم

بالنساء لنفس الغرض . كما انهم شيّدوا الى الغرب من المسجد ابنية مستقلة لسكنى ما تبقى منهم والحقوا بها ما يحتاجون اليه من المطابخ ودورات المياه وغير ذلك وقد ادخلوا جزءاً من المسجد الاقصى في تلك المباني^(٣٢) .

وجعل الفرنج من السراييب التي تقع تحت المسجد الاقصى مباشرة ، وبشكل خاص تحت الجزء الشرقي من بيت الصلاة ، اسطبلًا لخيولهم . ولا تزال الى اليوم آثار مرابط الخيل وبنايا المعالف الحجرية محفورة في جدران تلك السراييب .

ومن المباني الأخرى المهمة في الحرم والتي لم تسلم من عبث الفرنج ، البناء المعروف بقبة السلسلة (قبة داود) الواقعة في الجزء الشرقي من جوار قبة الصخرة والتي يعتقد معظم المؤرخين والبلدانيين انها شيّدت من قبل عبد الملك بن مروان قبل بناء قبة الصخرة بقليل . وقيل أن السبب في بنائها هو لتكون انموذجاً لقبة الصخرة والتي لا تختلف في التصميم عنها غير أنها أصغر بناءً وأنه لا جدران فيها سوى من جهتها القبليّة حيث يوجد حائط بين عمودين ليشكل ما



ميلادية . لقد دخل صلاح الدين بيت المقدس ظافراً معزراً واقام اول صلاة جمعة في المسجد الاقصى وعلا على المآذن صوت لا اله الا الله محمد رسول الله فأرتجت المدينة باصداء التكبير والتهليل . ومما يدل على سمو نفس صلاح الدين وعمق انسانيته انه لم ينكل بالفرنج او اهل المدينة من المسيحيين بل بحث عن روابط يتفق فيها مع المسيحيين العرب ضد الافرنج الغزاة . فواجه العرب : مسلمون ومسيحيون الغزاة العنصرين الذين ارادوا ان يستروا استعمارهم للمنطقة ولبيت المقدس خلف اعلام المسيحية والصليب . وقد صرح كثير من المؤرخين الذين كتبوا عن هذه الحرب من وجهة نظر الصليبيين من ان انهيار المقاومة كان سببه انحياز المسيحيين الشرقيين الى صلاح الدين (٣) . حتى انه لما علم الامبراطور البيزنطي عمانوئيل الاول (١١٤٣ - ١١٨٠ م) بانباء انتصارات صلاح الدين التمس منه إعادة كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية الى الكنيسة الارثوذكسية كما كان عليه الامر قبل الاحتلال الصليبي لبيت المقدس . فاستجاب صلاح الدين لطلبه وفي مقابل ذلك اقر البيزنطيون وصاية صلاح الدين الابوي على الجالية العربية الاسلامية في القسطنطينية

الاسلامي من التسلط السلاجقة على الخلافة العباسية ونهي سيطرة آخر سلاطين السلاجقة طغرل الثاني حيث جلب رأسه الى بغداد سنة ٥٩٠ هجرية (١١٩٤ م) . والبطل الثاني هو السلطان الظاهر صلاح الدين الايوبي ذلك الرجل العظيم الذي وهب نفسه وحياته وضحي براحته والعيش الرغيد لأعلاء كلمة الله والدفاع عن ديار العروبة والاسلام في الساحة الغربية وذلك ضد مستعمر ظلم غاشم تستر بستار الدين ليحقق اطماعاً سياسية واقتصادية في الشرق العربي ويستذل اهله ويسلبهم ما بأيديهم من خيرات .

لقد قاد صلاح الدين الايوبي الامة العربية الاسلامية ضد عدو البلاد الاول الفرنج ووجه لهم الضربة القاصمة في معركة (حطين) الشهيرة .

وما اعقبها من سقوط كثير من المدن والقلاع الصليبية التي كانت مراكز هامة للفرنج في فلسطين والشام . ثم حرر الله على يديه بيت المقدس وارجعها الى حضيرة العرب والاسلام في ٤ شعبان من سنة ٥٨٤ هجرية الموافق ١٩ تشرين اول سنة ١١٧٨

فارسل الى مسجد المسلمين هناك الخطباء والمؤذنين والقراء .
لقد اخذ صلاح الدين يتفقد مباني وعمارات الحرم الشريف فوجد ان الفرنج قد اقاموا الكثير من الجدران داخل المسجد الاقصى ليخفوا معالنه وشاراته الاسلاميه . فعمد الى اصلاح وازالة ما اضافنه الصليبيون اليه كما اعاد الاجزاء التي حذفوها منه . وقد بحث عن محراب المسجد وامر بهدم الجدار الذي بني امامه لاختفائه . وامر بشرخيمه ونقش حول عقده بالفيسفساء المذهبة النص التالي:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس ، عبدالله وليه يوسف بن ايوب ابو المظفر الملك الناصر صلاح الدين والدین عندما فتحه الله على يديه في سنة ثلاث وثمانين وخمسائة وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة واجزال حظه من المغفرة والرحمة. » (١)

ثم فكر صلاح الدين بعمل منبر يليق بالمسجد الاقصى ، ولكنه علم بأن السلطان عمود نورالدين عندما عزم على فتح القدس كان قد طلب من أرباب الصناعة في حلب ان يصنعوا له منبراً خليقاً بعظمة مسجدها الاقصى ولكن المنية عاجلته ، فلما حرر بيت المقدس على يدي صلاح الدين أمر باحضار المنبر من حلب ووضع في مكانه بجوار المحراب . وهو المنبر الذي أحرقه الصهاينة الاسرائيليون في سنة ١٩٦٩ .

لقد أزال صلاح الدين الاثار التي وضعها الافرنج فوق قبة المسجد الاقصى وزين القبة من الداخل بالنقوش الجميلة .

أما بالنسبة الى قبة الصخرة فلقد أعاد صلاح الدين البناء

الى حاله القديم فزال معالم الكنيسة ورفع المذبح ومحا كافة الصور وأخرج التماثيل وكافة الشارات من صلبان وايقونات وغير ذلك .

كما تسلى المسلمون القبة فتزحوا من فوقها الصليب الكبير المذهب الذي كان الصليبيون قد ثبتوه هناك بدلا من الهلال ووضعوا بدلا عنه هلالاً جليلاً وكبيراً . ورفع المسلمون ايضاً الواح الرخام التي كان الافرنج قد كسوا بها الصخرة المشرفة . وزين صلاح الدين قبة الصخرة من الداخل بالنقوش الجميلة . وجدد بعض كسوات الجدران الرخامية . وانك تقراً اليوم على باطن القبة وفوق اقواس الدهليز التي ترفع رقة القبة النص التالي بخط الثلث :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد وتذهيب القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل صلاح الدين يوسف بن ايوب تغمذه الله برحمته وذلك في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسائة » .

ورتب السلطان صلاح الدين الايوبي لقبة الصخرة اماماً واقام على خدمته سدنة واقف عليها بعض الاملاك وحمل اليها والى المسجد الاقصى . عدداً من المصاحف الشريفة لتلى فيها آيات الله .

ثم رحل صلاح الدين عن بيت المقدس تاركاً فيها القاضي ابن شداد ليعنى بها وبالمستشفى وبقية العمارات وبأهلها واتجه الى دمشق وعاجلته المنية فيها في صفر سنة ٥٨٩ هجرية (ايار سنة ١١٩٣ م) . وقال ابن شداد وهو ينعيه : اللهم انك تعلم انه بذل جهده في نصرة دينك ، وجساهد رجاء رحمتك ، فارحمه . . . »

الهوامش

٢٥. الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، طبعة دار المعارف ، ٦٠٩/٣ واليك ايها القارئ الكريم المهددة العمرية كاملة كما جاءت عند الطبري .
- « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمتها وبرئيتها ومنازل ملتها ، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا يتنصص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص (اللصوص) ؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بينهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يلقوا بأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قتلوا عليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع الى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .
- شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية ابن أبي سفيان وكتب وحضر ستة خمسة عشرة .
٢٦. ستيفن رنيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ٤٠٨/١ .
٢٧. بنيامين الطبطبي الاندلسي . رحلة بنيامين ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ١٠١ .
٢٨. عبد الحميد زايد ، المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .
٢٩. العماد الكاتب الاصفهاني ، الفتح القسبي في الفتح القسبي ، تحقيق محمد محمود صبيح . ص ١٤١ .
٣٠. المصدر السابق ، ص ١٤٢ .
٣١. ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت ، ١٩٦٧ ، ١٨٥/٩ .
٣٢. Le Strange, Palestine Under the Moslems, P. 113 .
٣٣. ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٨٦/٩ .
٣٤. عبد الحميد زايد ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
٣٥. المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .
٣٦. عارف العارف ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .
١. احمد سوسة ، مفصل العرب واليهود في التاريخ ، ص ٧١٦ .
٢. نسيم وهبة الحازن ، من الساميين الى العرب ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٩ .
٣. احمد سوسة ، المصدر السابق ، ص ٧١٧ .
٤. Gray, J., A History of Jerusalem, London, 1969, P. 191 .
٥. عبدالرحمن فهمي ، فجر السكة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٠٨ .
٦. سعيد البطريق ، كتاب التاريخ ، ١٨/٢ .
٧. Arculfus, The Pilgrimage of Arculfus to the Holy Land, (Palestine Pilgrims Texts, 1889) P. 4 .
٨. غازي محمد رجب ، المسجد الاقصى بالحرم الشريف بيت المقدس ، سوبر ، ١٩٧٢ ، ص ١٣٤ .
٩. احمد بن عبد ربه الاندلسي ، المعتمد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ٢٦٣/٦ .
١٠. احمد ابن الفقيه الممداني ، مختصر كتاب البلدان ، طبعة لندن ، ١٨٨٥ ، ص ١٠٠ .
١١. عبد الحميد ، القدس الخالدة ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .
١٢. عارف العارف ، تاريخ الحرم القدسي ، القدس ، ١٩٤٧ ، ص ٧٣ .
١٣. Hayler, T., The Holy Places of Jerusalem, P. 26 .
١٤. Fergusson, J., The Temples of the Jews and other Buildings in the Haram area Jerusalem, P. 12 .
١٥. Creswell, K.A.C., The Origin of the Plan of the Dome of the Rock, P. 27 .
١٦. مجير الدين العليمي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف ١٩٦٨ ، ٢٧٢ / ١ .
١٧. غازي محمد رجب ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
١٨. محمد بن احمد المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، لندن ، ١٩٠٩ ، ص ١٦٨ .
١٩. عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة والمسجد الاقصى ، القدس ، ١٩٥٥ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .
٢٠. عبد الحميد زايد ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .
٢١. المصدر السابق ، ص ٢١٥ .
٢٢. Hitti, P.K., History of the Arab, London, 1958, P. 639 .
٢٣. عبد الحميد زايد - المصدر السابق ، ص .
٢٤. نفس المصدر والصفحة .

التراث المعماري العربي وأثره في العمارة الأوربية من خلال الحروب الصليبية

د. صلاح حسين الجبدي

كلية الآداب - جامعة بغداد

الاسلامي باوربا في العصور الوسطى بوساطة التجارة اولا والاندلس وجزيرة صقلية ثانيا وبفضل مشاهدات الحجاج المسيحيين ثالثاً واخيراً بواسطة الحروب الصليبية التي حدثت بين سنتي (١٠٩٦ - ١٢٧٣ م) .

والحروب الصليبية كما هو معروف آثارها تعصب الغرب لأخراج العرب المسلمين من الارض المقدسة (فلسطين) وقد اتخذها البابا وسيلة للسيطرة على الشرق .

وكانت فرنسا مبعث هذه الحركة اختارها البابا لأعلان الغزو . وقد سار الصليبيون برا وبحرا الى الشرق وحدثت حروبهم في فلسطين وسورية ومصر وتونس وكان عدد الحملات ثمانية وكانت الحملة الثالثة من اعظم الحملات التي نفذها الافرنج اشترك فيها ثلاثة ملوك فيليب اغسطس ملك فرنسا وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا وفردريك ملك المانيا ، وقد انتهت الحملات الصليبية بانتصار العرب وهزيمة الصليبيين .

وفي هذا البحث دراسة عن التراث المعماري العربي الاسلامي واثره في العمارة الاوربية من خلال الحروب الصليبية .

ومن المعروف ان الحروب الصليبية كان لها نتائج خطيرة وهامة غير النتائج العسكرية والسياسية وهي النتائج الحضارية

يمثل التراث العربي الاسلامي حصيلة حضارية ثرة وسجل في أسفار الامم حضوراً متميزاً له دوره في التأثير وقدرته في الابداع وصورته في التواصل المباشر وغير المباشر .

واذا كانت الآثار الحضارية قد تركت بصماتها بوضوح في كثير من المعالم فإن سمات الفن كانت من ابرز هذه الملامح لما تتصف به من خصوصية وتتميز به من معالم بعد ان اتسعت دائرة الاهتمام به والتأثير بفنيته فأخذ موقعه بين الفنون العالمية وسجل دوره المتميز في التاريخ الواضح في المدارس الفنية والعمارة والصناعات .

وعلى الرغم من التأثير الواضح الذي حققته براعة الفنان العربي وسجلته قدراته الابداعية في الفنون الاوربية بفرعها التشكيلي والمعماري فإن آراء كثيرة حرص بعض المستشرقين على ناكيدها بدافع التعصب والحسد والجحود فحاولوا تبرير ذلك بحجج لا تسندها الوقائع العلمية ولا تؤيدها الادلة .^(١)

والمعروف ان الاوربيين قد عرفوا الفن العربي في العصور الوسطى ممثلاً في التحف الفنية التي نقلوها من الشرق او نقلت اليهم كما انهم شاهدوا الكثير من العمائر التي اقامها العرب المسلمون في بلدانهم فأعجبوا بها وبزخارفها وعناصرها فأقبلوا على تقليدها وكان التقليد في بعض الاحيان صادقاً .

وليس مثل هذا التبادل الفني غريباً ، فقد اتصل الشرق

من فنية وثقافية وكانت بعيدة المدى عميقة الاثر في اوربا كلها ، وقد استوقفت مظاهر الحضارة العربية انظار الاوربيين خاصة فآخذوا عن العرب الكثير من الفنون الصناعية والمعارف المختلفة فأحبوها وفضلوها على غيرها حتى اصبحت جزءاً من فنونهم وعلومهم ومعارفهم .^(١)

وليس من شك ان الحروب الصليبية لعبت دوراً مهماً في نقل الكثير من سمات العمارة العربية الاسلامية الى اوربا بواسطة الجنود واصحاب الحرف والصناع والمهندسين والمعماريين الذين كانوا ضمن تلك الحملات الصليبية والتي كانت تأتي الواحدة منها تلو الأخرى ويعود منها من بقي على قيد الحياة الى موطنه ليزاول فيه مهنته وحرفته متأثراً بما رآه وانطبع في ذهنه من تقاليد فنية عربية اسلامية وظهر اثر ذلك واضحاً في فنون العصور الوسطى في اوربا .^(٢)

فقد اقتبست اوربا كثيراً من عناصر العمارة العربية وبشكل خاص الفن القوطي الذي اشتمل على عناصر ترجع اصولها الى بلاد الشرق ويسمى المهندس المعماري الانكليزي « ورن » تلك العناصر باسم « العناصر الاسلامية »^(٣) وقد تأثر هذا المهندس بالعمارة العربية الى درجة انه اخذ ينتفع من عناصرها عند تصميم الابنية . ومن العناصر المعمارية التي استغلها عند تشييد ابراج كنائسه ، المآذن الاسلامية كما يتضح ذلك في كنيسة سانت ماري لويواو بلندن^(٤) .

كما اثر المآذن الاسلامية في تصميم ابراج النواقيس الايطالية في عصر النهضة فقد كان للمآذن الاندلسية وخاصة لمئذنة المسجد الجامع بقرطبة ومئذنة مسجد اشبيلية المشهورة اثر بليغ على ابراج الكنائس الاسبانية سواءاً من حيث اشكالها المربعة القاعدة الشاهقة الارتفاع او من حيث امتداد الزخارف عليها من عقود مقصصة صماء متشابكة ونوافذ مزدوجة^(٥) .

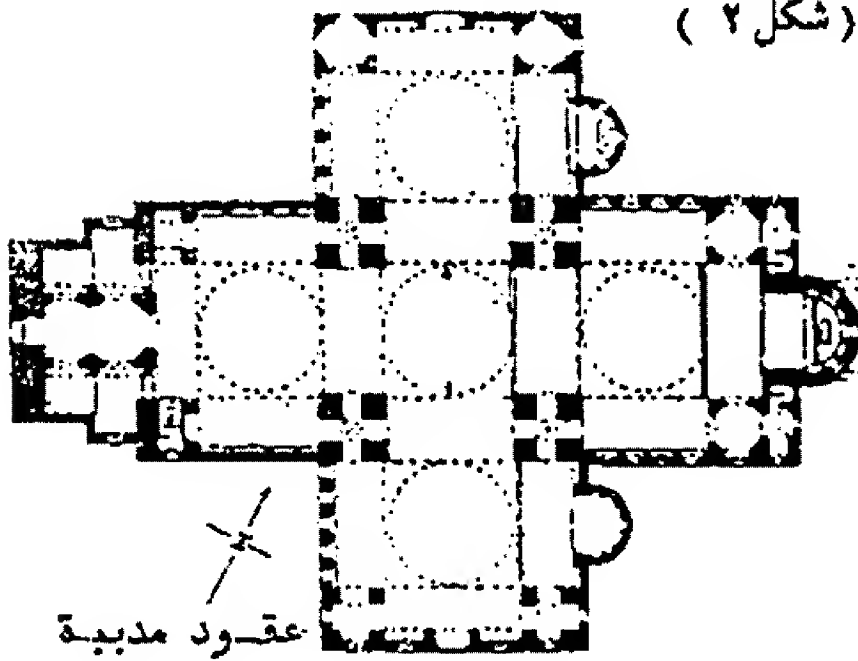
(شكل ١)

ومن الجدير بالذكر ان اسم المئذنة ما زال مستخدماً في الكثير من بلدان العالم الاسلامي وهو الاسم الذي عرفته اوربا الغربية Minaret^(٦) .

كما اخذت العمارة الاوربية بعض العناصر المعمارية العربية ومن هذه العناصر العقود ومنها العقود المدببة وهي

من العناصر المعمارية الهامة التي اخذها الاوربيون عن العرب وكان لها أثرها البعيد في العمارة الاوربية ويعتبر العراق البلد الذي نشأ فيه هذا النوع من العقود وكان ذلك في حصن الاخيضر ثم ظهر بعد ذلك في قصر الجوسق الخاقاني في سامراء وفي المسجد الجامع بالقيروان وفي مقياس النيل بالروضة في مصر ولم يكن هذا النوع من العقود معروفاً عند الاوربيين فلما وقفوا على اهميته في البناء نقلوه عن العرب واستخدموه في كنائسهم نذكر منها على سبيل المثال كنيسة (سان فرون) في مدينة (بيريجيو) في فرنسا^(٧) .

(شكل ٢)



وما يستوقف نظرنا في هذه الكنيسة انتشار العقود من النوع المدبب بما يؤكد وصول التأثيرات العربية الاسلامية الى فرنسا من الشرق الاسلامي عن طريق الحروب الصليبية وليس من الاندلس التي يندر فيها وجود العقد المدبب اذ كان النوع السائد في عمارتها هو العقد نصف الدائري من نوع حدوة الفرس ، وفرنسا كما هو معروف كانت من البلاد التي خرجت منها الحملات الصليبية الاولى^(٨) .

ومن انواع العقود الاخرى التي تميزت بها العمارة العربية الاسلامية النوع المعروف بالعقد المنفوخ وظهر هذا النوع لأول مرة في المسجد الاموي في دمشق ثم انتشر الى سائر انحاء العالم الاسلامي ، وقد اقتبس الاوربيون هذا النوع من العقود فظهرت آثار هذا الاقتباس في أديرة وكنائس المستعربين مثل كنائس (بوياسترو) (Bobstro) و (سان ميغيل ده اسكالادا) وظهر العقد المنفوخ في كنائس فرنسا مثل (سانت اندريه ده

كاتدرائية نورويش Narwich التي شيدت عام ٥١٣ هـ - ١١١٩ م^(١٧) (شكل ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) .

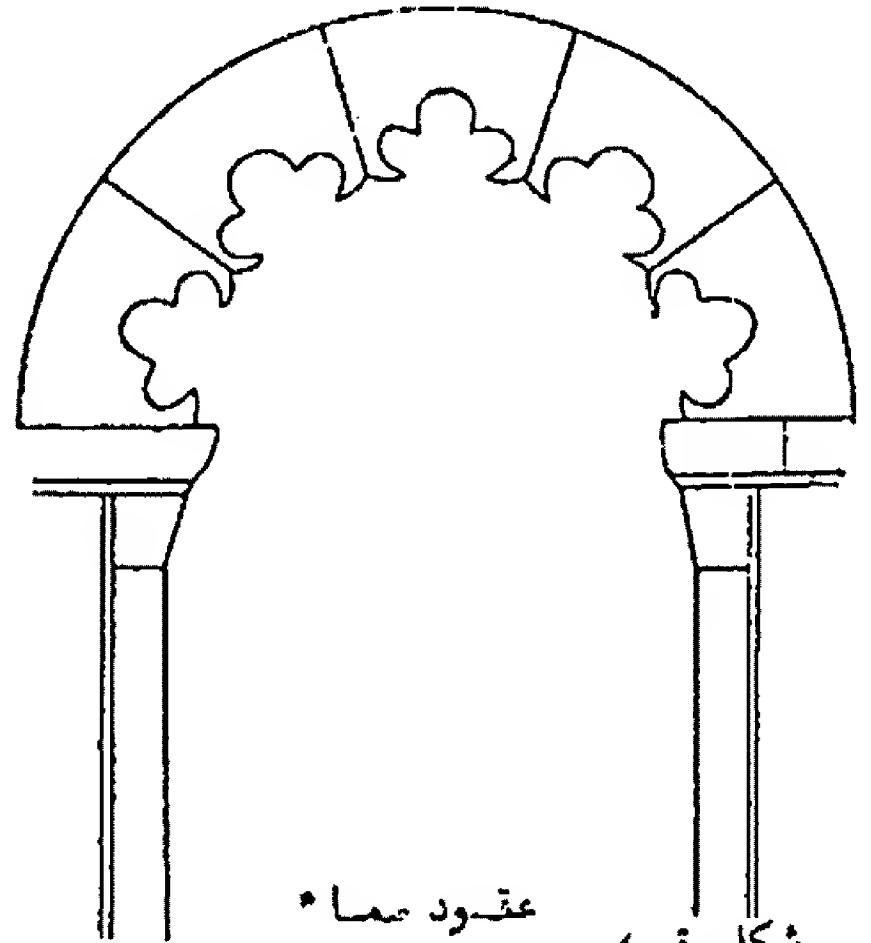
وعند تشييد الحصون والقلاع والمدن الغربية ادخلت فيها وسائل دفاعية كثيرة عاد بها الصليبيون الى بلادهم . ومثل هذه الوسائل الدفاعية العسكرية قد استخدمت في اسوار المدن الالمانية والقلاع الانكليزية والحصون الغربية ، ومن هذه الوسائل المداخل المنكسرة او ما يسميه المؤرخون العرب بالباشورة وبالانكليزية Machicoulis^(١٨) (شكل ٨ ، ٩) والمداخل المنكسرة هي التي ينعطف فيها بالداخل يمينا ويسارا مرة او عدة مرات وذلك لعرقلة هجوم من يحاول اقتحام الحصن او القلعة وتجعل العدو هدفاً سهلاً للمدافعين واقدم امثلة لهذا العنصر المعماري ظهر في ابواب بغداد المدورة التي بناها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور .^(١٩)

ونشاهد امثلة من هذه المداخل في فرنسا اكثر من غيرها من الاقطار الاوربية وذلك في (Carcassonne) . كما تظهر المداخل الملتوية في انكلترا ، وهناك مثال جيد لها في (Beaumaris)

كما اقتبس الاوربيون من العرب الجسور او القناطر المتحركة فوق الخنادق التي تصل بين الابواب وبين ضفاف الخنادق المحيطة بها بحيث يمكن رفعها بسهولة في حالة تعرض المدينة او الحصن لهجوم الاعداء .^(٢٠)

ولم يقتصر تأثير اوربا على ما تقدم بل تعداها الى اتخاذهم اساليب دفاعية كانت معروفة في العمارة العربية الاسلامية منها فكرة الابواب المصنوعة من القضبان الحديدية القوية المتشابكة . وتنتهي من اسفلها بسنان حادة كالحراب وتنزلق بثقلها الكبير رأسيا ولا يمكن رفعها الا بواسطة الحبال والبكرات من داخل الحجرات المعدة لذلك فوق الابواب .^(٢١)

اما العنصر الدفاعي العربي الاخر الذي انتقل الى اوربا فهو ما يعرف بالسقاطة ، والسقاطة عبارة عن شرفة تبرز عن وجه جدران الاسوار تحاط بالبناء وتحملها كوابيل بارزة وبها مزاغل وهي على نوعين مزاغل عمودية واخرى افقية ، والعمودية تكون عادة في ابراج وحنايا جدار الحصن



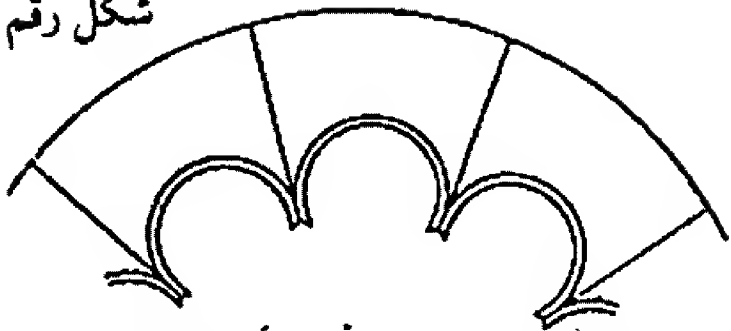
كورزاك) . (Saint Andre de Cubzac) وكنائس اخرى في جنوب ايطاليا مثل (سانتا مريا ان تلس) (Santa Maria in Collis)^(٢٢) .

كما اخذ الاوربيون عن العرب العقد المفصص وهي عقود قصت حوافرها الداخلية على هيئة سلسلة من انصاف دوائر او على هيئة عقد من انصاف فصوص .^(٢٣)

وهذا العقد كان منتشرا في العمارة العربية الاسلامية فظهر اول ما ظهر في القصور الاموية في بادية الشام مثل قصر الحلابات وقصر الطوبة . ومن العصر العباسي وصلت امثلة منه في قصر العاشق في سامراء وفي الرقة كما شاع استخدامه في العمائر في الاندلس وخاصة في مسجد قرطبة الجامع ، وتقابلنا امثلة منه في العمارة الاوربية في كنائس (شاسبوزاك) (Chaspuzoc) و (كراوس) (Cruass) ومواسلك (Maissac) وكاتدرائية (كليرمونت) ودير (كلوني) (Cluny)^(٢٤)

بقي ان نذكر ان للعرب الفضل الاكبر ايضا في ادخال العقود الصماء المنفرجة الى اوربا فكان لها اثرها البعيد في العمارة الاوربية كما يتجلى ذلك في كاتدرائية « درام » Durham التي شيدت في سنة ٤٨٦ هـ - ١٠٩٣ م وفي

شكل رقم ٥



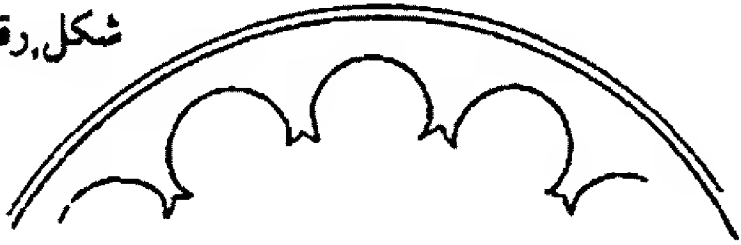
بوابة كنيسة بلاساك في لواء الشارانت السفلى - فرنسا

شكل رقم ٦



بوابة كنيسة لابيل دنواز في لواء كروز - فرنسا

شكل رقم ٧



بوابة كنيسة شنييه في لواء الشارانت - فرنسا

عقود مفصصة مقتبسة من الفن الاسلامي

ان اشير الى رأى طالما حرص المستشرقون على تأكيدهم وهو ان محراب المسجد منقول من حنية الهيكل او الكورس في الكنيسة وهو قول بينه وبين الواقع بون شاسع .

والحقيقة ان الاختلاف كبير بين محراب المسجد وحنية الكنيسة واذا كان هناك وجه شبه بينهما من حيث ان كلا منهما اشبه بنصف دائرة فان المهم في امور العمارة ليس مجرد الشكل بل الاعم من ذلك هو الوظيفة . فحنية المسجد كان صغيرا لا يسمع بوقوف اكثر من شخص واحد وهو الامام الذي يتولى امامة المسلمين في الصلاة ولم يكن من الضروري ان يقف داخل تجويف المحراب في حين ان حنية الهيكل في الكنيسة تشغل مساحة كبيرة قد تصل الى ٣/١ حجم الكنيسة وهي دائما على هيئة حنيات كثيرة يوجد بها المذبح وتجرى فيها الطقوس التي يقوم بها رجال الدين ومساعدوهم الذين يقومون بأداء مراسيم الصلاة حول المذبح . فليس الغرض اذن من المحراب ان يؤدي في

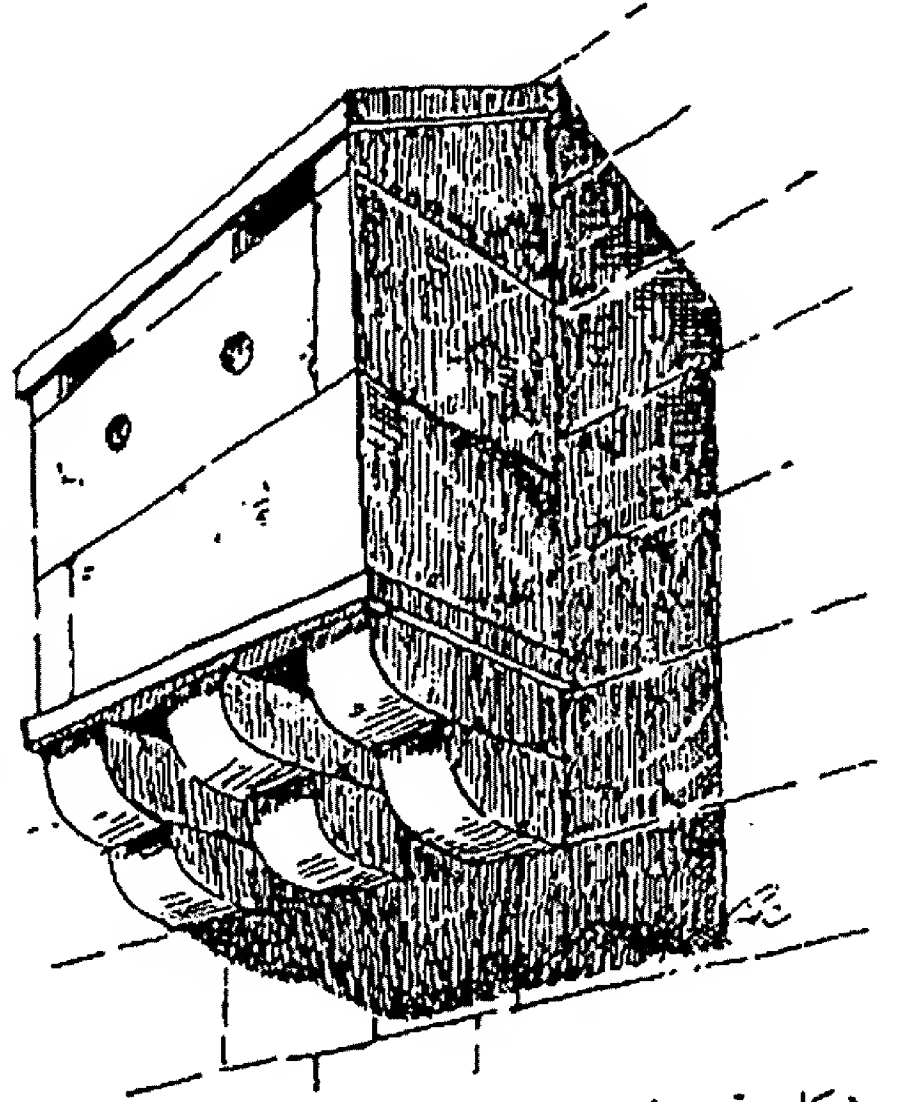
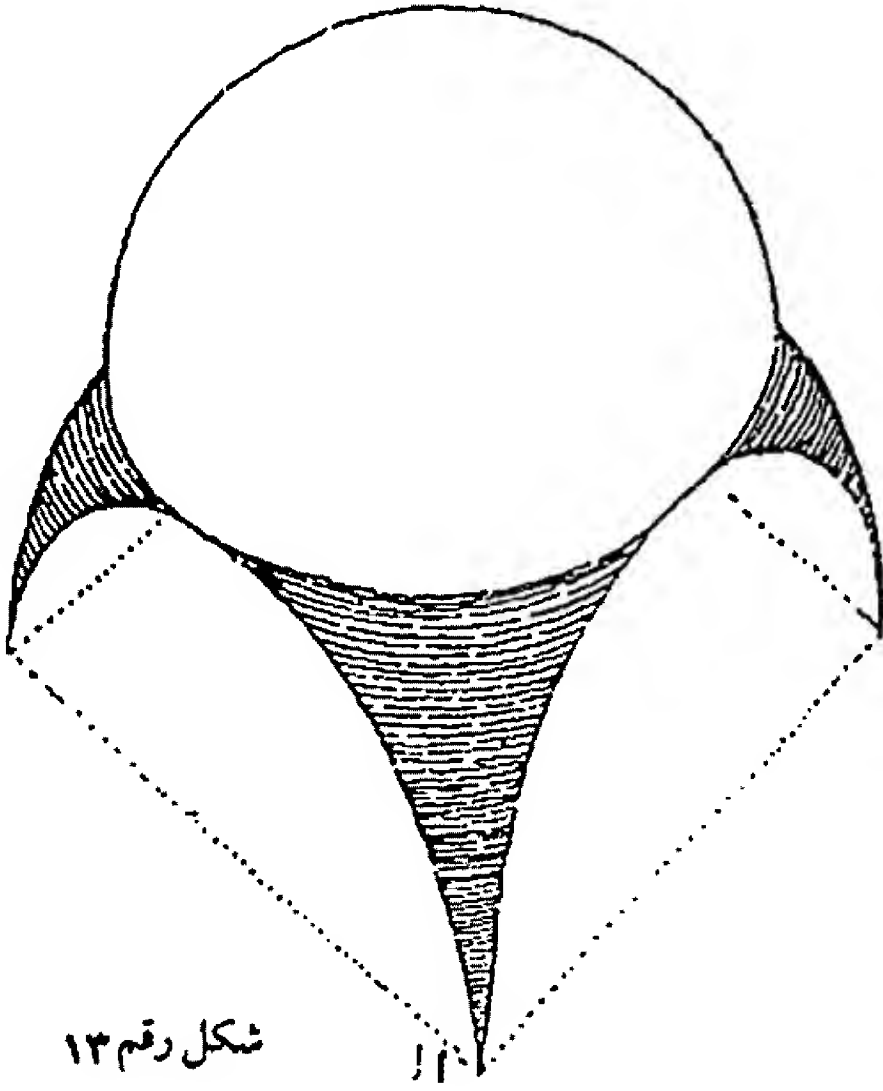
وهي تستعمل لرمي السهام ، واما النوع الثاني من المزاغل وهي الافقية فتكون في ارضية سقف مدخل الحصن وهذه المزاغل تستعمل لسكب سوائل محرقة او ملتهبة كالماء والزيت الحار او القار او النار او اي شيء آخر يمنع جماعة الاقتحام من الوصول الى داخل الحصن ، كما توجد مثل هذه المزاغل في ارضية ابراج الحصن نفسه ، وهي تؤدي نفس المهمة التي تؤديها المزاغل السابقة اذ تمنع عملية تسلق الاعداء الى اعلى الحصن او حفر الجدار بغرض الوصول الى داخل الحصن ، (شكل ١٠)

وهذه الظاهرة العسكرية الدفاعية اي السقطة كما يقول « كريزول » لم تعرف في اوربا قبل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) وانها انتقلت الى اوربا بتاثير العمارة العربية الاسلامية عن طريق الصليبيين ، وقد قلدها الانكليز في القصبان والسيجات المعدنية (١١) .

كما ان الصليبيين الذين شيدوا في الارض المقدسة الكنائس والقلاع الجميلة قد تعلموا من العرب شيئا من التحصين وعمل الاستحكامات . (١٢)

كما عرفت العمارة الاوربية طريقة ملء الشبايك والفتحات بالواح زخرفية من الزجاج الملون المجمع على بعضه بصلوع من الرصاص وهي فكرة مقتبسة من الشمسيات العربية وهي الواح من الحجر او الرخام او الجص وضعت في الشبايك وزخرفت بتفريغ الزخارف فيها وكانت من فئة الزخارف الهندسية في اول الامر ثم دخلتها الانواع الاخرى من الزخارف مثل النباتية والكتابية وبعد ان كانت تلك الالواح مفرغة تماما زاد عليها مع التطور صنع قطع من الزجاج الملون سدت بها الاجزاء المفرغة . فابرزت زخارفها وجمال تكويناتها . الا ان الصليبيين اضافوا رسوما والوانا الى قطع الزجاج ليخرجوا منها لوحات تصور القصص المسيحية والمناظر المختلفة (١٣) .

كما اخذت اوربا عنصراً معمارياً آخر هو المحاريب وبخاصة المحاريب التي تشبه الاصداف والتي ظهرت في عصر النهضة تقليداً لما هو موجود في المساجد الاسلامية . (١٤) وقبل ان تغادر هذا النوع من العناصر المعمارية احب



ونلمس في العمارة البيزنطية شكلاً لحنية عربية اسلامية
ركنية تعرف بالمقرنصة وهي على هيئة حنية مجوفة ذات رأس من
قبة نصف دائرية ويحملها احيانا عمودان^(١٣) (شكل ١٤)

والمقرنصات في نظر معظم الباحثين ظاهرة عراقية ظهر
اول مثل لها في العصر العباسي وكان ذلك في مدينة سامراء وفي
القصر المعروف بالجوسق الخاقاني الذي بناه الخليفة المعتصم عام
(٢٢١ هـ - ٩٣٦ م) .^(١٤)

ويبدو ان سبب ابتكار هذه المقرنصة عند العرب هو
الاقبال من استعمال المثلثات الكروية .

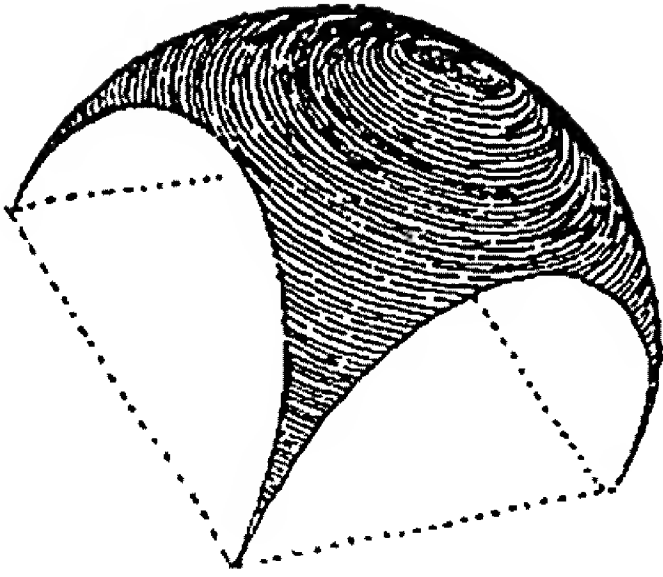
وانتقلت الى العمارة الاوربية من العمارة العربية
النوافذ الصغيرة رؤوسها ذات الفصوص . واقدام مثل لهذا
العنصر ظهر في الجدار الجنوبي في الجامع الكبير في سامراء .

وهكذا لم ينتصر العرب في هذه الحروب في ميداني الحرب
والسياسة حيث انتهت بهزيمة الفرنج وحسب ، بل وانتصروا في
ميدان الحضارة وقد تمثل في سيادة الفن المعماري العربي في
المشآت الاوربية في عصر النهضة .

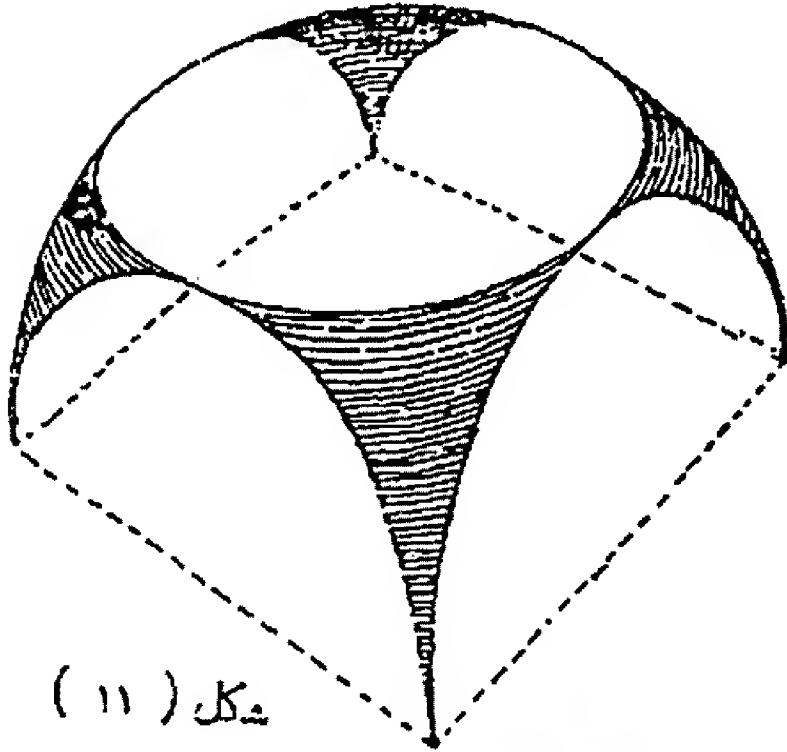
المسجد وظيفة كالتى يؤديها الهيكل في الكنيسة كل ذلك يعزز
استبعاد ان يكون مصدر المحراب المجوف المنحني هو هياكل
الكنائس .^(١٥)

واما الشرفات الزخرفية والمخرمة وهي شرفات بارزة لها
جدران من البناء توضع في الاسوار وخاصة فوق الابواب فانت
الى القاهرة من العراق^(١٦) وانتقلت منها الى اوربا ، ومن المحتمل
ان يكون مهندسو قصر الدوق وغيره من القصور الاخرى في
البندقية قد تأثروا بها^(١٧) .

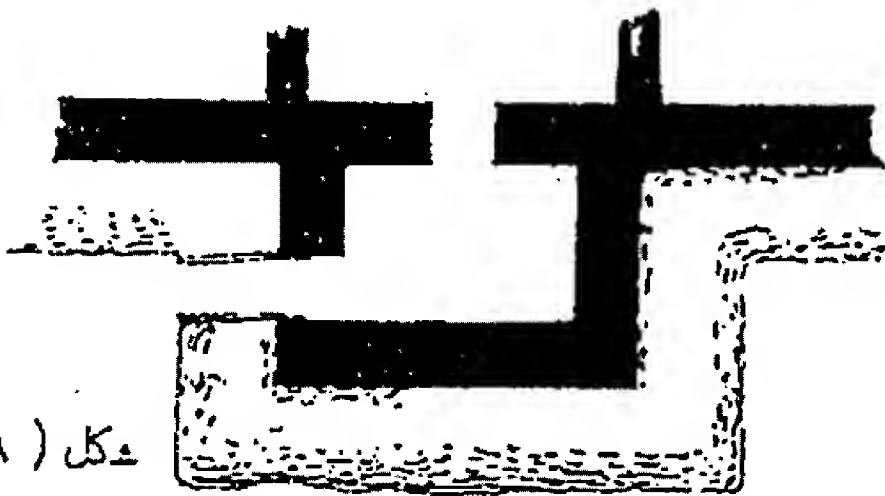
وكما تدين العمارة البيزنطية بالفضل للعرب الشاميين في
ابتكار المثلثات الكروية في مناطق الانتقال وهي المثلثات التي
انتشرت في الطراز البيزنطي (شكل ١١ ، ١٢ ، ١٣) فانها
تدين ايضا بالفضل من ناحية اخرى للعرب العراقيين في تزويدها
بالابتكار الثاني لمنطقة الانتقال وهو حنية الاركان وهو على هيئة
نصف قمع او مخروط تبلغ زاوية رأسه (٩٠ °) ووضع على جنبه
بحيث ينطبق كل من جانبيه المستقيمين على ضلعي زاوية مربعة
للمنطقة التي ستغطي^(١٨) .



شكل (١٢)



شكل (١١)



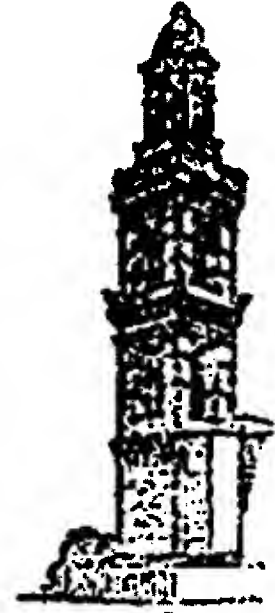
شكل (٨)

المباشرة (مسقط)

عن كتاب العمارة العربية في مصر للدكتور فريد شافعي .



ب



ج



د



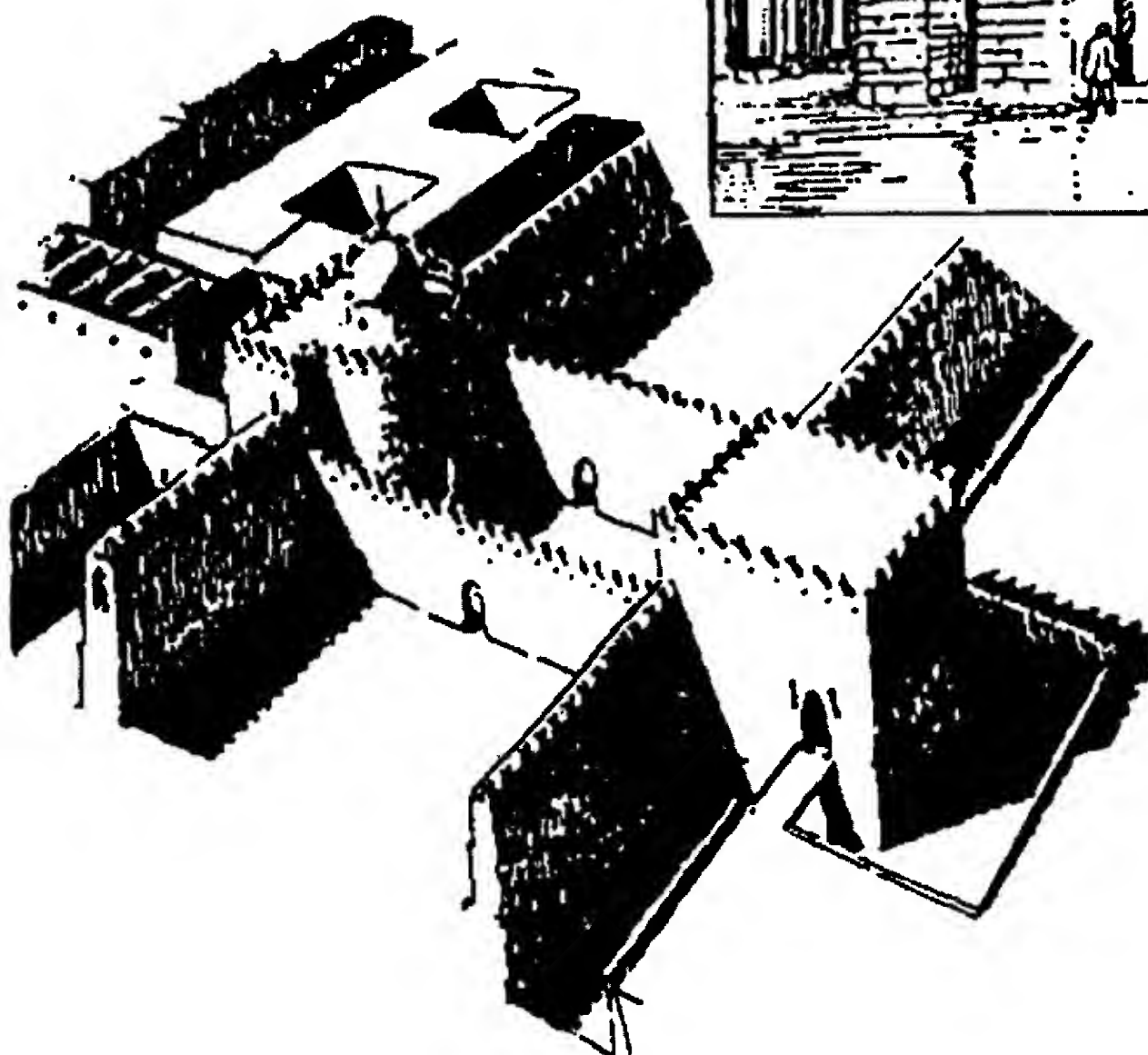
هـ

شكل رقم ١

- (ب) برج في مدينة فيرونا من القرن الثالث عشر الميلادي .
- (ج) برج في مدينة سيوليتو من القرن الرابع عشر الميلادي .
- (د) برج في مدينة لسكة Lecco بإيطاليا من القرن السابع عشر الهجري .
- (هـ) برج كنيسة St Mary le Bow بلندن من القرن السابع عشر الميلادي .

عن كتاب فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن

شكل رقم (٣)
 عقود عديبة
 عن كتاب العمارة العربية الإسلامية في مصر للدكتور فريد شافعي



شكل رقم (٩)
 بغداد اسوار مدينة المنصور المورة والمدخل
 المنكر (الباشورة) عن كتاب العمارة
 الإسلامية في مصر للدكتور فريد شافعي



الحنية الركنية في باب العامة في قصر الجوسق الخلفي في سامراء
عن مكتب العمارة العربية في مصر للدكتور فريد شافعي .

الهوامش

- ١١ . فكري ، المصدر السابق ص ٧٣ .
- ١٢ . فكري ، المصدر السابق ص ٧٤ .
- ١٣ . فكري ، المصدر السابق ص ٧٥ .
- ١٤ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٩١ .
- ١٥ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٩١ .
- ١٦ . شافعي ، المصدر السابق ص ٢٧٤ .
- ١٧ . شافعي ، المصدر السابق ص ٢٧٤ .
- ١٨ . المبيدي ، صلاح ، الآثار العربية الإسلامية ص ٥٠٩ - ٥١٠ .
- ١٩ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٩٥ .
- ٢٠ . المبيدي ، صلاح ، الآثار العربية الإسلامية ص ٥١٠ .
- ٢١ . شافعي ، فريد ، المصدر السابق ص ٢٧٢ .
- ٢٢ . المبيدي ، صلاح ، الآثار العربية الإسلامية ص ٥٠٩ .
- ٢٣ . شافعي ، فريد ، المصدر السابق ص ٥٨٤ - ٦٢٤ وانظر
عبد الحميد ، سعد زغلول ، المصدر السابق ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
- ٢٤ . المبيدي ، صلاح ، الآثار العربية الإسلامية ص ٥١٠ .
- ٢٥ . كرسني ، الفنون الإسلامية الفرعية وتأثيرها في الفنون الأوروبية .
تراث الإسلام ج ٢ ص ١٤٦ .
- ٢٦ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٤٣ .
- ٢٧ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٤٤ .
- ٢٨ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٤٤ .
- ١ . المبيدي ، صلاح ، الآثار العربية الإسلامية وأثرها في الفنون الأوروبية
في عصر النهضة . مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد . العدد الثالث
والعشرون . أ ب ١٩٧٨ ص ٤٧٣ .
- ٢ . المبيدي ، صلاح ، الفنون الزخرفية العربية الإسلامية منشورات وزارة
التعليم العالي والبحث العلمي (مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٦) ص
١٧٤ .
- ٣ . شافعي ، فريد ، العمارة العربية في مصر الإسلامية (عصر الولاة)
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٩٧٠) المجلد الأول ص ٢٧٠ .
- ٤ . كرمب وجاكوب ، تراث العصور الوسطى ، الناشر مؤسسة سجل
العرب ص ٨٩ .
- ٥ . المبيدي ، صلاح ، الآثار العربية ص ٥٠٧ .
- ٦ . فكري ، احمد ، التأثيرات الفنية الإسلامية على الفنون الأوروبية .
سومر . الجزء الأول والثاني . المجلد الثالث والعشرون ١٩٦٧ ص
٧٩ .
- ٧ . عبد الحميد ، سعد زغلول ، العمارة والفنون في دولة الاسلام . الناشر
منشأة المعارف بالاسكندرية ص ٣٩٦ .
- ٨ . شافعي ، المصدر السابق ص ٢٧٢ .
- ٩ . شافعي ، المصدر السابق ص ١٣٧ .
- ١٠ . فكري ، المصدر السابق ص ٧١ - ٧٢ .

الغزو على النصارى الصليبية لغزو قنزل العراق والشرق العربي

د. سواد عبد محمد

استاذ مساعد / جامعة البصرة

وكأنهم لا يعوزهم سوى المزيد من المتطوعين الذين يحملون الرايات التي نقش عليها صورة « الصليب »^(١). لتعزيز وجودهم هناك وتدعيم مواقفهم ومعاقلهم وقواعدهم ، والاندفاع نحو اسيا وتوسيع دائرة الحروب فيها واخضاع زعمائها ، ووضع خطة شاملة لتغيير العالم آنذاك وكان جيمس فيتري James of Virty الذي جرى تعيينه اسقفاً سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م وتلقى من البابا «هونوريوس الثالث» التعليمات والصلاحيات ، يأمل في ان قوة من الصليبيين ، مؤلفة من اربعة الاف فارس ، تستطيع ان «تسرد» بيت المقدس^(٢).

ان الانهيار السياسي والعسكري والتداعي الذي وصل اليه العالم الاسلامي ومنه المشرق العربي أبان الحرب الصليبية الاولى ، وتؤدي المعنويات حيث غلبت على اكثر حكامه روحية الاستسلام لهؤلاء الغزاة ، وشعورهم بالانهزامية والعجز ، كرس اجراءات الصليبيين في الاراضي المقدسة وثبتت اقدامهم في المراقع التي احتلوها ؛ بيد ان ذلك التراجع لم يتجاوز سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م حيث بدأنا نسمع عن سريان روح جديدة لدى اهل المشرق العربي ، تمثلت بالافاقة والنهوض العربي الاسلامي بوجه الغزو الصليبي^(٣) ؛ وقد توجت هذه الافاقة في مرحلتها الاولى ، بسقوط مملكة الرها الصليبية بيد جيوش عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م ، ولكتها بلغت

في الربع الاخير من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وفي أوج الحماس المنبعث من اروقة «كليرمونت»^(٤) ، انطلقت صيحات الاوربيين الذين استبد بهم الفقر والبؤس ، للانخراط في حملة صليبية الى «الارض التي تفيض باللبن والعسل»^(٥) الى بلاد المشرق العربي والارض المقدسة في فلسطين . لقد اختلطت النداءات للحملة فيما بعد ، باصوات الجموع الضخمة من اخلاط المتحمسين الاوربيين «الافرنج»^(٦) و«النورمان»^(٧) من مختلف الفئات والطبقات امراء ونبلاء وعامة ومنهم من كانوا ، قطاع طرق ومجرمين وصفوا هدفهم دائماً بأنه «بيت المقدس» لكنهم عند الوصول سوف ينعمون في مواطن اقدمهم ، هناك بالسعادة والرخاء . . .!! وفي هذا الجو المشبع بحشرجات رواد الحملة الصليبية الاولى ورؤاهم ونبؤاتهم^(٨) تنادى الصليبيون بالاعتماد المطلق على قواهم الذاتية ، اذ ليست هناك ، حسب رأيهم ، أية مبررات للتفتيش عن حلفاء او ركائز للاستمكان من الاهداف المرسومة في الغزو والتوسع . وعلى الرغم من ان هؤلاء الرواد ، كانوا يضيقون ذرعاً بالحماس الذي تجاوز الحد في فترة الاعداد لغزواتهم ، فانهم اعدوا الترتيبات اللازمة للتدفق نحو الاراضي المقدسة ، بكل ما عرفوه من قوة وشدة ؛ ولم يمض اقل من نصف قرن ، حتى تركزوا في بعض بلاد الشام وفلسطين وبلاد الجزيرة الفراتية ، وظهروا

ذروتها بظهور صلاح الدين الايوبي ، حيث اصبح دون منازع قائداً للمشرق العربي بأفكاره وتصميمه على استعادة الارض المقدسة ، ففي معركة قرون حطين ، حررت ابادة اضخم جيش حشده الصليبيون ، حيث انتقم هذا القائد لما حدث في الحرب الصليبية الاولى من المهانة والاذلال ، وتم تحرير بيت المقدس من الاحتلال سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ومن المؤكد انه بعد سقوط الرها وبيت المقدس ، انحطت هبة الصليبيين ومكانتهم وكسرت شوكتهم وتبددت اسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون التي تمت وترعرعت اثناء مغامرة تخرب الصليبية الاولى^(١) وازدادت متاعبهم وبدأوا ينظرون من حولهم وينادون بتجميع قواهم او بالاتحاد مع البيزنطيين ؛ ولكن حتى هذه الصيحات لم تنفذهم من المأزق الذي وصلوا اليه ، فقد زرعت انتصارات صلاح الدين الايوبي ، الشكوك بين صفوفهم من جهة وبينهم وبين البيزنطيين من جهة اخرى^(٢) . لقد كان محتما عليهم ، الاتجاه نحو حلفاء اقرباء ، ولم يكن سوى المغول ، الذين ظهروا بقوتهم في المشرق الاسلامي ، يمكن كسبهم والانتفاع من مخالفتهم في «استعادة» مواقعهم التي فقدوها ، وفي مقدمتها بيت المقدس واسقاط النظم السياسية في المنطقة واولها الخلافة العباسية في بغداد منبع الالهام الروحي والمبدئي لصلاح الدين الايوبي في تخطيطه للوجود الصليبي في بلاد الشام والارض المقدسة .

ولعل من المفيد ان نستعرض الاتصالات والمراسلات او ما تطلق عليه المصادر اسم السفارات بين الصليبيين والمغول منذ بداية النصف الاول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حتى نهاية النصف الثاني من هذا القرن ، لكي ندرك طبيعة التحالفات التي اريد عقدها او التي عقدت بين هاتين القوتين اللتين ظهرتتا في المشرقين العربي والاسلامي والنتائج التي ترتبت عليها . ويمكن تبعا الى ذلك تقسيمها الى مرحلتين تاريخيتين : الاولى ، بدأت سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م وقبلها بقليل ، اي قبل استباحة المغول لحاضرة الخلافة العباسية ، بغداد . والثانية بعد سنة

٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م حتى تاريخ طرد الصليبيين من آخر معقل لهم في المشرق العربي سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م . والواقع اننا اذا اردنا ان ندرس المرحلة الاولى ، علينا ان نشير الى الطبيعة التوسعية لحكم ايلخانات المغول ، وخاصة مغول فارس ، ليس في منغوليا والصين وتركستان والهند عبر هضبة الياهير فحسب ، بل في جميع المناطق العربية بما فيها ايران والعراق وبلاد الشام ؛ ففي ٦٥٠ هـ والى منكو ، عرش الامبراطورية المغولية نتيجة المحاولات التي بذلتها امة «سورخقتاني»^(٣) حيث استقر الخان في «قراقورم»^(٤) وقد اودع حكومة فارس الى يد اخيه «هولاكو» .

ان خطة المغول في التوسع ، هي سياسة رسمية اتخذها الايلخانات وقد اشار اليها اغلب المؤرخين المعاصرين ؛ غير ان الصليبيين لم يكونوا على علم تام بها ، الا البعض منهم عندما تلمس عن قرب اهداف المغول الحقيقية في الغزو والفتح^(٥) ؛ كما ان عقلية المغول في هذه الفترة لا تقبل من الاخرين سوى الطاعة والتبعية^(٦) .

وفي ظل سياسة المغول هذه ، عول الصليبيون على الاستعانة بهم لتهديد القوى السياسية في المشرق العربي ففي ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م انتبه البابا «أنوسنت الرابع» الى اصوات المغول التي كانت تصك السمع وتعكره في اواسط اسيا والقوقاز وايران ، في محاولة توجيهها صوب الاراضي

المقدسية ، بعد ان يتم التحالف معها لانقاذ الفرنج^(٧) هناك ؛ وقد تميز هذا البابا عن سبقه من البابوات ، باتباعه دبلوماسية جديدة في معالجة مشكلة الدولة الصليبية ، فسعى الى فتح باب المفاوضات مع المغول ، لتكوين حلف عسكري ، بغية تطويق الدول والامارات العربية الاسلامية من جهتي الشرق والغرب ، وذلك اثناء افتتاح جلسة المؤتمر العام الاولى (اينوسانيسون) الذي عقد في فرنسا في مدينة ليون (السينودس) وحضره الاساقفة و«بودوين» ملك القسطنطينية ونواب الملك «فريدريكوس» ملك النمسا ، حيث كانت القضية الاولى

مسألة المغول بعد تقدمهم في اوربا الشرقية^(١١) وقد استقر رأي البابا نتيجة المناقشات ، على انفاذ سفارتين الى منغوليا ، الاولى برئاسة الراهب الفرنسيكاني «يوخنا بيان دل كاريني John Gran de Carpini» الذي غادر مدينة ليون متوجهاً الى البلاط المغولي عن طريق روسيا ، فوصل المعسكر المغولي في (سيرأ أوردو) الواقع قرب قراقورم العاصمة المغولية سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م وقد صادف وصول السفارة اعتلاء «كيوك Guyuk» عرش المغول حيث شهد انعقاد مجلس «الغوريلتاي» وهو مجمع رؤساء وممثلي القبائل المغولية ، لانتخابه ايلخانا للمغول . وعلى الرغم من حسن استقبال السفارة فان كيوك طلب من الوفد ان يبلغ البابا وسائر امراء الغرب ، ان يحلفوا بيمين التبعية له كشرط اساسي للتحالف . لكن دعاة الصليبيين وخصوصاً البابا انو سنت الرابع ، لم يرض لاهامه ان تتبدد ولم يعدم استمالة المغول للتحالف بدون التقيد بشروط كيوك ، فأجروا الاتصالات بواسطة سفارة ثانية ، تألفت برئاسة الراهب الدومينكاني «اسكلين اللومباردي» حيث ارتحلت سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م وذلك بعد فترة قصيرة مضت على السفارة الاولى ، فاجتازت بلاد الشام والعراق ثم ايران والتقت في مدينة تبريز بالقائد المغولي الشرس «بيجو» زعيم مغول القوقاز^(١٢) ؛ وعلى الرغم من ان الوفد صادف في بيجورجلا بميل الى الاعتداء والهجوم ، فضلاً عن انه ليس مقبولا ، فان بيجو ، أعرب عن استعداد له لمناقشته احتمال قيام تحالف لمناهضة دول المشرق العربي ؛ وقد توضحت خطته التي طرحها على المفاوضين ، وهي تستند في اساسها على مهاجمة بغداد واسقاط الخلافة العباسية من قبل الجيوش المغولية وهو البند الاول ، اما الثاني فيقوم على انصراف الصليبيين لتأليف حملة صليبية جديدة على بلاد الشام لتخفيف الضغط عن المغول هناك واستخلاص بعض المراكز والمدن من ايدي القوى الاسلامية ، للاجهاز على المواقع الاستراتيجية المهمة الاخرى .

ويبدو ان المفاوضين الصليبيين في السفارة لم يستطيعوا

ان يبدوا وجهة نظرهم امام بيجو ، مما دعا هذا الاخير ، ان ينفذ رسولين منه الى اوروبا هما «ايبك» الوثني و«سركيس» من النساطرة ليصحبوا الوفد الصليبي في عودته الى روما ويعرضوا على قادة الصليبيين اقتراحات بيجو في التحالف ، ومع انه لم يكن فذين الرسولين ، سلطات السفراء المفوضين فان الآمال ، انتعشت من جديد في الغرب حيث مكث هذان الرسولان نحو سنة عند البابا ، وفي ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م أخطرا بان يعودا الى بيجو بعد ان جرى الاعراب لهما عن الاسف بعدم حصول ، اتفاق حول المقترحات والشروط التي اوصى بها بيجو فيما يتعلق بالحملة الصليبية^(١٣) التي لم يكن على ما يبدو بمقدور القوى الاوربية الصليبية ان تعبئها في هذه الفترة العصيبة من تاريخ اوربا .

ومن المفيد ان نذكر ان البابا انوسنت الرابع ، كان يسعى في ان تصدر دياجة التحالف الصليبي المغولي ، اعتناق ايلخانات المغول للمسيحية ، لكي تكتسب مهمتهم في الحرب صفة «القداسة» وتصبح جزء من واجبهم «المقدس» وذلك بعد ان تقع الاراضي المقدسة بين امبراطورية المغول «المسيحية» واوربا المسيحية ، فلا يكون هنا مفر من بقائها في قبضة الصليبيين بقاء دائماً وعلى هذا الاساس ، يمكن صياغة تاريخ جديد للصليبيين ليس في الاراضي المقدسة وفلسطين وبلاد الشام فحسب ، بل في العراق وفي جميع المشرق العربي والاسلامي^(١٤) . وربما يكون من غير المؤكد اشتراط الايلخان المغولي «كيوك» على دعوة البابا انوسنت الرابع لاعتناق المسيحية وانمام هذه الخطوة ، دخول البابوية وجميع ملوك الغرب الاوربي وامرائه ، تحت سيادة المغول وتبعيةهم حيث اتضح فيما بعد لرسلي السفارتين الصليبيتين ، ان المغول لم يخرجوا الا للغزو والفتح^(١٥) .

واخذ القديس لويس (وهو لويس التاسع ملك فرنسا) على عاتقه ، انقاذ الحركة الصليبية من نكستها ، بعد

الاندحارات التي منيت بها في المشرق العربي في هذه الفترة ،
فبينما كان في قبرص سنة ٦٤٦ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٨ -
١٢٤٩ م وهو يعدّ العدة لحملة جديدة على مصر ، ربما
تعوض ما خسره الصليبيون ، تناهى اليه ، ان المغول
يعدون هم ايضاً لاجتياح العراق ، وقد رأى في ذلك فرصة
للائتقام و«استرداد» بيت المقدس . وعلى الرغم من انه لا
توجد لدينا معلومات كثيرة ، بشأن مبادرة لويس التاسع
للائتصال مع المغول بخصوص التفاوض حول نقاط يمكن
لائتفاق حولها لصياغة حلف بين الطرفين ، ولكن من
المرجح ، ان اتصالات هذا القائد الصليبي العنيد السرية
التي اشار اليها الاستاذ رنسيان ، تضمنت معنى حث المغول
على التعاضد ومحاولة جرهم الى حلف عسكري ؛ ويمكن ان
نفهم ذلك بيسر ، عندما نقرأ عن وصول مبعوثين مغوليين
من الناصرة اليه وهو في نيقوسيا سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م
وهما «مارك» مرقص وداود ، حيث انها بأنها انفذهما
«الجهيداي»^(٢٢) Al-Jighidai القائد المغولي الذي كان في
جبهات الموصل ، وكان المبعوثان يحملان رسالة منه تحدثت
في عبارات جافة غليظة في امور تتعلق بالمسيحية في اوربا
والمشرق العربي وعطف المغول على افكارها ومؤسستها .
لعل هذه الرسالة هي الرد على تلك الاتصالات وربما اعتبر
لويس التاسع ان ممثل الايلخان المغولي ، اعطاه الضوء
الاخضر لمفاوضات قد تؤدي الى التحالف المنشود . وامتلاً
الملك الفرنسي بالامال العريضة ، فاعرب عن اغتباطه
وبادر بارسال بعثة مؤلفة من رهبان دومينكان برئاسة «اندرو
لونججيمو»^(٢٣) وأخيه اللذين يتحدثان العربية فضلاً عن لغة
المغول ، وحمل الاخوان معها «كنيسة متنقلة على هيئة
خيمة - اعتبرت هدية تليق بخان بدوي حديث العهد
باعتناق المسيحية وما يلزم مذهبها من المخلقات الدينية»
فغادرا قبرص سنة ٦٤٧ هـ / ٢٤٩ قاصدين معسكر

الجهيداي الذي ارسلها بدوره الى منغوليا ، حيث وصلا الى
قراقورم فتبين هما ان «كيوك» قد مات وان ارملة «أغول
قايميش»^(٢٤) Qaimish تولت الوصاية على العرش ؛ فاستقبلت
البعثة في شيء من الظرف ، غير انها اعتبرت هدايا الملك
لويس التاسع ، أتاوة من تابع الى سيد ، وعلى التابع ان
يواصل ارسال الهدايا اليها كل سنة ، كما حملت الوفد رسالة
تتضمن تبريرها بعدم ارسال حملة ضخمة لمساعدة الصليبيين
بسبب نشوب المشكلات الاسرية والتناحر القبلي على
العرش ، وقد اكدت تلك الرسالة سيادة وصية عرش
المغول ، كما انطوت على الشكر لما يديه تابعها من الاهتمام
بها . وارتاع الملك الفرنسي لهذا الرد ، غير انه ظل يأمل في
ان يتحقق مثل هذا التحالف العسكري مع المغول^(٢٥) .

لم يعدد الملك لويس التاسع الامل في عقد حلف مع
المغول وفي هذه المرة مع مغول وسط روسيا ، حتى بعد فشله
في حملته الصليبية على مصر ووقوعه في الاسر في «معركة
المنصورة» ثم افتدائه ونعده بعدم دق طبول الحرب والعودة
الى اوربا^(٢٦) ، لكنه بدلاً من ذلك ، ارسل سفارته الثانية
سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م الى «سرتاق بن باطو» لعله فيما اذا
تكللت مساعيه بالنجاح يعرض ما فقدته في عملية غزوة
لمصر ، فعهد للراهب الفرنسي سكاني «وليم روبروك
William of Rubrack» ، غير ان «سرتاق بن باطو» لم يستطع ان
يقطع في الموضوع برأي حاسم دون اذن من ابيه «باطوخان»
وهكذا بجمت السفارة وجهها شطر الايلخان المغولي الذي
حوّلها بدوره الى «منكوخان» . ويذكر كروسيه ، ان روبروك
قضى خمسة ايام في بلاط الايلخان في قراقورم ، التقى
خلالها ببعض رسل الملوك والحكام يتسكعون على عتبة
البلاط المغولي مثل رسل الامبراطور البيزنطي ورسل البابوية
وغيرهم ممن اراد ان يتودد الى المغول رهبة وخوفاً^(٢٧) .

ويبدو ان روبروك كان ينسقط سماع اخبار حروب

المغول وتحركات جيوشهم واهم ما جاء في رسالته الى الملك لويس التاسع الذي كان قد غادر منذ اشهر عائدا الى فرنسا ، ان المغول وضعوا الترتيبات اللازمة لغزو العراق ومحاصرة بغداد وان هذا الامر اعلن رسميا في الحفل الذي اقيم لمبعوث الصليبيين اثناء المحادثات التي اجريت معه ، حيث تم تكليف «منكو» لاختيه هولاکو مهاجمة جميع بلدان غربي آسيا واهمها الاستيلاء على العراق وانهاء الخلافة العباسية التي وصفت اثناء الاجتماع بانها «العدو اللدود» ؛ وكذلك تضمن الاعلان الرسمي ، «استعادة» بيت المقدس^(٢٧) . وقد استخلص روبروك وعداً صادقا بان يتلقى الصليبيون مساعدة كبيرة ، طالما يقدم امراؤهم للایلخان المغولي في قراقورم الولاء والطاعة^(٢٨) .

وانتقلت الفترة من ٦٥٦ - ٦٥٩ هـ / ١٢٥٨ -

١٢٦٠ م بأحداث جسام تصدرتها عمليات الغزو المغولي للعراق وبلاد الشام ، وهي نفسها مشاريع المغول التي كان روبروك قد سمعها اثناء وجوده في قراقورم . وقد اظهرت تلك الاحداث ، المغول في صورة الحلفاء الطبيعيين للصليبيين ضد «عدو» مشترك واحد^(٢٩) ، ولهذا السبب فان الصليبيين كانوا يحرصون على ادامة اتصافهم بالمغول طالما كانت الكنائس المغولية تجوس تلك الديار . اما ما يقال عن «خشية» منكوخان ونائبه «الجهيادي» في بلاد فارس من تحمل المسؤولية السياسية الجديدة التي تنجم عن التحالف مع الصليبيين فلا صحة له البتة . وهؤلاء الغزاة يمتازون بالغطرسة وعدم قبولهم وضع انفسهم على قدم المساواة مع اية جهة في السيادة والسلطة مع الامبراطور المغولي ، ويمكن ادراك ذلك من المحاورات الطريفة التي دارت بين روبروك ومنكو ، تنبأ فيها الاول بان الامبراطور المغولي سوف يحكم العالم ويسبغ عليه «العدل والسلام»^(٣٠) وقد اجابه منكو بغطرسة وتعال ، ان ذلك سيحدث فعلا .

ويعتقد ارنست باركر انه لم ينجم عن سفارة الملك لويس التاسع ، ما يزيد عن المعرفة الجغرافية ، لكنه يرجح ان اهم النتائج التي اتت بها هذه السفارة كان في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م حيث كان لها تأثير في سير الحروب الصليبية ، وذلك عندما اغار هولاکو على بلاد الشام واستولى على دمشق^(٣١) وعهد بادارتها الى حاكم مغولي يساعده ثلاثة من الفرس هم علاء الدين الشاش وجمال الدين القزويني وشمس الدين القمي^(٣٢) . وسار قائده ، «كتبغا»^(٣٣) .

وتسمية المصادر العربية الاولى «أبغا» ، نحو الجنوب للاستيلاء على مصر غير انه حلت به هزيمة ساحقة ، ثم استردت القوات الاسلامية دمشق ؛ وعلى الرغم من تدخل المغول وانتشار سراياهم وكتائبهم في منطقة المشرق العربي ، فقد اتخذت القاهرة ودمشق مرة اخرى مثلما اتخذتا في عهد صلاح الدين الايوبي ، وهنا يمكن القول ان اوربا انغمست في احلامها بمساعدة المغول لها ، ولكن ما ترتب على اتساع الامبراطورية الايلخانية المغولية من نتائج لم يكن الا تحدياً للصليبيين في المشرق العربي بصورة خاصة^(٣٤) .

ويبدو ان اشترك عساكر (الكرج) الذين اشتهروا بشدتهم وقسوتهم التلوي التدمير والجورجين والارمن في الحملة ، يجعلنا نستنتج ان حلفاء الصليبيين وركائزهم في المنطقة من امثال هؤلاء مثلوا التواجد الصليبي في المعركة ، حيث كان لذيوع انباء تدمير بغداد اثر عميق في جميع انحاء آسيا ، فابتهج الصليبيون في كل مكان وكتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية وهلكو هولاکو ودقوز خاتون واعتبروهما «قسطنطين وهيلينا» وانها ليس الا ادوات للانتقام من «اعداء» الصليبيين .

لا شك في ان تعقد الاحداث السياسية في المشرق العربي بعد القضاء على حضاره الخلافة العباسية ، قد فرضت على هولاکو الاكتفاء بتحالفه الفعلي والعملي مع مملكتي ارمنية وجورجيا والعمل على تقوية هذا التحالف فيما ترك الامارات الصليبية وشأنها ، ولكنه لم يشأ التحرش

حدودها اثناء غزوه لبلاد الشام وبذلك تلقى رسالة من البابا «اسكندر الرابع» يشكره فيها على حسن رعايته للصليبيين . ويدوانه فعل ذلك لكي يقتنع الصليبيون بقوة المغول وضرورة التحالف الحقيقي معهم ، ولا يمكن التسليم بالقول ان بعض القوات التابعة للامارات الصليبية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية قد تجرات على الاعتداء على بعض الكنائس المغولية وساعدت بشكل غير مباشر على هزيمة المغول في معركة «عين جالوت» وذلك عندما سمحت للجيش الاسلامي بالمرور في اراضيها ؛ ان ذلك يكشف عن قصر نظر المغول والصليبيين معاً وجهلهم بحقيقة الاوضاع السياسية واختلال موازين القوى التي استجذت في هذه المنطقة ، كما كشفت عن سوء تقديرها لمستقبل وجودها فيها فالمشرق العربي اصبح قوياً وتخلص من التداعي واخذ يواجه اعداءه من الصليبيين والمغول مجتمعين فان الجيوش العربية الاسلامية تستطيع ان تخرق دفاعات الصليبيين لمواجهة الجنود المغولية .

اما سياسة هولاكو تجاه البيزنطيين ، فقد تطلع لكسب صداقتهم فخطب ابنة الامبراطور البيزنطي « سبيلا » وقد اصبحت القسطنطينية في تلك الفترة مركزاً سياسياً يوجه الصليبيين الجدد الذين يتوجهون من اوربا في الحملات الصليبية ، اضافة الى ان هولاكو قصد من هذه الخطوة ، اضعاف ابناء عمه وخصمه « بركة خان المغولي » حيث كانت القسطنطينية محطة انتقال لرسائل الفريقين المتحالفين وحلقة الوصل ، بينهما .

ولعل من المفيد هنا ان نوضح ، الدور الذي كان ينوء به هيثوم ملك ارمينية الصغرى في قيلية في مجال التحالفات مع المغول وتقريب مساعي الطرفين لعقد حلف عسكري مشترك يضم قوات من الارمن والبيزنطيين والمغول لمواجهة الاحداث في المشرق العربي وانقاذ الصليبيين وممالكهم من

الضربات التي كانت تسدد اليهم والاندحارات الممالية التي لازمت جيوشهم وكتائبهم ، وذلك بعد ان انجز هيثوم تحالفه الفعلي مع المغول ونشاطه في تحويل الحلف الطبيعي القائم بين المغول والصليبيين الى التحالف الواقعي العملي ، ويمكن بهذا الصدد ان نذكر ، ان هيثوم ارسل الى بيغو خان سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م كتاباً يفيض بالولاء والاحترام مقدراً اهمية الصليبيين ومتنبأ بان جيوشهم ستغطي المنطقة ، وبعد اربع سنوات من رسالته الى بيغو ، انفذ اخاه الكندسطل سباد^(٣٦) الى سلاط «كيوك» في قراقورم^(٣٧) حيث استقبل بمودة وحفاوة بالغتين ، وقد اطلع سباد ، الايلخان المغولي ، ان هيثوم مستعد لان يعتبر نفسه من اتباعه فوعده الايلخان ، بان يبذل للارمن المساعدة اللازمة «لاسترداد» ما انتزع منهم في نواحي قيلية في آسيا الصغرى ، ورجع سباد ، يحمل تقليداً من الايلخان يكفل سلامة ممتلكات هيثوم ووحدتها^(٣٨) .

غير ان تطورات الاحداث في مملكة المغول والصراع حول العرش بين الايلخانات بعد وفاة «كيوك» التي اوقفت كل اجراء مباشر ، ووصول منكوخان الى السلطة ، جعل هيثوم ، يقرر المثول بنفسه امام الايلخان الجديد سنة ٦٤٥ - ٦٤٦ هـ / ١٢٤٧ - ١٢٤٨ م ، يذكر ذلك ابن العبري بشيء من التفصيل بقوله : «ان حاتم ملك الارمن توجه الى خدمة رمونككا قآن فخرج متنكراً مع رسول بزي بعض الغلمان ، ويفيد هذا المؤرخ قائلاً : «حدثني الملك حاتم عند اجتماعي به بمدينة طرسوس بعد سنين من عودته من خدمة رمونككا قآن» ويؤكد هارولد لامب ان هيثوم ملك ارمينية لم يستسلم لمنكوخان المغول فحسب ، بل تحالف مع الوثنيين وشارك بوهمند السادس امير انطاكية في هذا التحالف ، ودفع جزية صغيرة للمغول ، وقد استمع الايلخان الى توسلات هيثوم وكان بما قاله ، انه سيرسل اخاه

هولاكو لاطاحة بالخليفة العباسي و«استرداد» بيت المقدس^(٣٨) ، بدأ الايلخان المغولي امام هيثوم متساهلا مع جميع الاديان الا مع المسلمين الذين كان في حرب معهم ، وقد كتب الى البابا يطلب منه ارسال سفراء وعدد من الفلاسفة لزيارته وتعليمه ، وان اخاه هولاكو مكلف باكتساح قلب بلاد المسلمين ، بغداد ، وهويسعى للاتصال بالصليبيين في الارض المقدسة ، ويزيدنا هارولد لامب بيانا بقوله : لقد تهلل الارمن للتحالف الذي ابرمه ملكهم هيثوم مع رئيس القطيع وتنقلت الحكايات من قرية الى مدينة عن اكتشاف «مملكة برستو حنا» اخيرا في الشرق وظهور «شجرة الصين» وسط النار والدخان^(٣٩) .

ونقرأ عن وصول هيثوم ملك ارمينية ، عقب رحيل وليم روبروك مبعوث لويس التاسع ملك فرنسا ، ففي حفل الاستقبال الذي اقامه له منكو منحه الايلخان وثيقة تكفل لشخصه ومملكته السلامة وعدم انتهاك حرمتها وجرت معاملته على انه كبير مستشاري الايلخان المسيحيين في كل ما يتعلق بأمور غرب آسيا . وصرح له بانه من غير الممكن الدخول الى بلاد الشام والارض المقدسة ما لم يتم غزو العراق وتدمير سلطان الخلافة العباسية وتعاهد انه اذا تعاونت معه كل القوى الصليبية فسوف يعيد اليهم «بيت المقدس ذاتها» ويفهم من اسلوب الايلخان ان «عودتها هذه المرة ستكون في نطاق الامبراطورية المغولية» .

ويكاد يتعذر الافتراض بان التحالف بين هيثوم ومنكوخان ، كان العامل الرئيس في اقناع المغول بارسال هولاكو لمحاصرة بغداد ، وذلك على الرغم من وجود بعض الكتابات الارمنية والجيورجية في الجيش المغولي الذي استباح حاضرة العالم الاسلامي ، كما جاء في النبذة التي كتبها المؤرخ الارمني من القرن السابع الهجري «الراهي متاكي» قوله : «بعد دعوة الجيوش للتأهب ، التي ساهمت فيها

العساكر القديمة والجديدة التي عدادها الخيالة الارمن والجيورجية لان المغول بأعدادهم التي لا تحصى زحفوا نحو بغداد ، وبعد وقت قليل فتحوا هذه المدينة العظيمة المجيدة^(٤٠)» ولكن بالتأكيد فان دور هيثوم لم يكن الا لتنفيذ السياسة التي خطط لها المغول في زمن سابق على ذلك^(٤١) كما ان اماره انطاكية الصليبية ، دخلت في تحالف مع المغول بتأثيره ، فأسهمت كل من انطاكية وارمينية مع المغول اثناء الهجوم على حلب ودمشق سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م وتؤكد المعلومات المتوفرة ، ان امارتي انطاكية وطرابلس التي كان صاحبها الملك بوهمند السادس تعاونتا مع هولاكو ، بحكم معاهدة بوهمند مع هيثوم ملك ارمينية ، فيشير محيي الدين ابن عبدالظاهر الى ان «بيموند بن بيموند» صاحب طرابلس قد كثر تعديبه على بلاد الاسلام ، وبعد ان استولى المغول على بلاد الشام ، ذكر هذا المؤرخ ، يصف بوهمند السادس قائلا : «وكان من اكبر اعوان التتار»^(٤٢) والجدير بالذكر ان بوهمند السادس قد نال نصيبه من غنائم هولاكو التي كان قد غنمها من العراق وبلاد الشام نتيجة تعاونه معه ، كما اقطعه بعض البلاد المجاورة لامارته ، مثل قلاع دير كوش ويلميس وشقيب وحارم^(٤٣) .

ويبدو ، ان الحصول على المكاسب لجميع الفرقاء الذين انضموا فعلا الى المغول ، وهم بوهمند السادس امير انطاكية الصليبية وهيثوم ملك ارمينية قد أستمروا ما دام الزحف والغزو المغولي على بلاد الشام مستمرا وما دام هؤلاء الحلفاء يقدمون الطاعة والخدمات لحلفائهم ، فبالاضافة الى ما حصل عليه من الغنائم التي غنمها المغول من حلب ، فقد استرد هيثوم ما انتزعت منه الجيوش الاسلامية من اراضي قيليقية ، كما «استعاد» بوهمند السادس ما سبق ان حرره صلاح الدين الايوبي من بلاد وحصون ، كان صليبيو انطاكية قد استحوذوا عليها واهمها اللاذقية^(٤٤) .

على انه عندما بلغ هولاء عتبة فلسطين سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وافته الانباء - ب وفاة «منكوخان» وكان لازما عليه وفقاً لعادات القبيلة - ان يعود ادراجه فوراً الى قراقورم ومعه جيشه ؛ لكن هيثوم ، اقنعه قبل مغادرته ، على ترك فرقة واحدة مؤلفة من ١٠٠٠٠ فارس بأمرة «كتبغا» «للمحافظة» على بلاد الشام ، وقد زحفت هذه الفرقة جنوباً على فلسطين واحتلت الخليل وبيت جبرين ، وهكذا تقابل المغول في الطرف الجنوبي لفلسطين ، مع الممالك الصليبية في مواقعها ، وجها لوجه»^(٤٨) .

ومن الجدير بالذكر ، ان منح الجاثليق الارمني ، البركات لهولاء في حملته وهو يستبيح مدن الجزيرة الفراتية ، يجعل من هذه الحملة وكأنها قد اتخذت صفة حملة «مغولية أرمنية صليبية» ، كما ان دخول «كتبغا» نائب هولاء في بلاد الشام ، الى دمشق سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م وبصحبه هيثوم ملك ارمنية وبوهمند السادس امير انطاكية ، كان مشهداً مثيراً لسكان العاصمة السابقة للخلافة الاسلامية ، حيث شهدوا لأول مرة منذ ستة قرون ، ثلاثة من القواد الغزاة الأجانب يركبون معاً وهم يشقون موكبهم في شوارع

المدينة»^(٤٩) . وكذلك فقد سقطت حلب بأيدي المغول وهي المدينة التي طالما قاومت البيزنطيين في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، والصليبيين في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، ودمرت قلعتها العتيقة التي ثبت امام هجمات الصليبيين ، تنكرد وروجس الانطاكي وبلدوين الثاني وغيرهم»^(٥٠) والواقع ان سقوط المدن الثلاثة الكبرى بغداد ودمشق وحلب في فترة قصيرة ومتقاربة بأيدي المغول يعتبر من الكوارث الفاجعة في تاريخ العصور الوسطى .^(٥١)

ولابد من القول ، ان هيثوم ملك ارمنية وبوهمند السادس امير انطاكية بدأوا يقتنعون بان الوجود الصليبي في المنطقة هو وحده الذي يحميهم ويكرس وجودهم ، فيشير محي الدين بن عبد الظاهر ، وهو معاصر ، الى ان «هيثوم بن قسطنطين متملك الارمن قد وصل من جهة هولاء وكان معه قاضي التار وكان يقول له : «لا اقدر على الدخول الى بلاد الروم حتى يحضر جماعة من التار تحفزي»»^(٥٢) كما اكد هذا المؤرخ ، ان هيثوم عول كثيراً على المغول فقال : «اهتم متملك الارمن هيثوم وجمع العساكر المخذولة من كل جهة وفصل الف قباء تترى والف سراقوج ألبسها اصحابه ليوهم انهم نجدة من التار»^(٥٣) وقد فعل مثله غيره من الصليبيين الذين كانوا يرون في المغول حمى لهم فقال : «وكان الطاغية صاحب حوص الفرنجي وهو بارو بهرام قد كتب الى انطاكية يطلب نجدة فأنجد بمئة وخمسين فارساً ولبس الجميع السراقوجات تشبها بالتار واجتمعوا كلهم قرب حارم»^(٥٤) . اما التحالف الصليبي المغولي في الفترة اعتباراً من ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م - ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م تاريخ طرد آخر صليبي من المشرق العربي ، فلدينا معلومات مفيدة بهذا الصدد يمكن ان تقدم فيها لطبيعة هذا التحالف ، فالتغيرات الجديدة لكل من النظامين اختلفت ، فبينما كان الصليبيون سابقاً يطلبون التحالف مع المغول اصبح المغول الان يقدمون عروضهم للاتفاق على صيغة لحلف عسكري يستطيع مواجهة الاحداث في المشرق العربي . لقد رأى حلفاء هولاء القدامى من الصليبيين في انطاكية والارمن والكرج ، انه لابد لاجتذاب عناصر جديدة من الصليبيين لحلفهم بغية تمثينه ؛ الاتجاه صوب البيزنطيين اولاً ثم اقناع صليبيين اوربا ثانياً ، لذلك فقد سمح هولاء سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م بان يحضر حلفاؤه»^(٥٥) انعقاد «القوريلتاي» في معسكره قرب تبريز ويشهدوا جلساته بشأن

وضع خطة للحلف الموسع غير ان موته طوى ملف القضية وطرحها جانبا .

وبدا «ابقان هولوكو Abaga ٦٦٤ - ٦٨١ هـ / ١٢٦٥ - ١٢٨٢ م» بتطبيق سياسة ابيه فيما يتعلق بالسعي لعقد تحالف مع الصليبيين عن طريق البيزنطيين لان هؤلاء كانوا فعلا يسرون على سياسة مصادقة ايلخانات ايران . ولعل اشتراك ميخائيل باليولوغوس مع صهره ابقا في دعوة «جيمس ملك ارغونه ، للقيام بحرب صليبية واستجابة الاخير لتلك الدعوة واعداده العدة للحملة واستعداد ميخائيل باليولوغوس لتقديم سفن واغذية ، دليل على التقارب في الرأي حول مفهوم التحالف»^(١١) . ولكن لدينا كذلك ما يشير الى ان الامبراطور لم يكن جادا او انه كان يدفع غيره للحلف والانضمام الى جانب المغول في هذه التكتلات السياسية والعسكرية ، وذلك بسبب ادراكه لتطورات الوضع السياسي وخوفه من القوى المتنامية في المشرق العربي في عهد قوتها وكذلك من مغول «القبجان» وهم اصحاب «بركة خان» اولاد عم هولوكو ، وكانوا في صراع مستمر مع مغول فارس وكثيراً ما كانوا يهاجمونهم من جهة الدربند في الشمال»^(١٢) . كما سار ايضا على السياسة السابقة تجاه هيثوم ملك ارمينية الصغرى ، بل انه سعى الى تمتين العلاقات حتى اصبحت بينهما عهود ومواثيق للتحالف السياسي والعسكري ، وظهرت اوجه التعاون بين الطرفين في ميادين كثيرة ، ويقرر المؤرخون ان افضل المساعدات التي قدمها الابلخان المغولي للصليبيين ، هي انه بذل الى هيثوم واحدا من اشهر الامراء المسلمين وهو «شمس الدين سنقر الاشقر»^(١٣) حيث استطاعت احدى الكتائب المغولية ان توقعه في كمينها عندما اغار بجيشه على مملكة ارمينية بسبب تحالفها مع المغول واسرته ثم سلمته الى هيثوم ، ولم يستطع هذا الاخير ان يبادل بآبئه الاسير لدى القوات الاسلامية الا

بعد ان «سأل مهلة سنة الى ان توجه الى «الاردو» وحقق خبره وسير يعلم بانه قد اجيب الى اطلاقه»^(١٤) . وقد أقر ابقا ، ليو الثالث ابن الملك هيثوم على عرش ارمينية ، فتوجه اليه ليو وبذل له عيّن الولا»^(١٥) ؛ وذكر ابن العبري ان ليو هيثوم التزم بسياسة ابيه تجاه التحالف والتعاقد مع المغول فكان يطلعهم على التحركات العسكرية للجيش الاسلامي في المنطقة ومما قاله هذا المؤرخ يلقي الضوء على تلك السياسة «ان الملك لاون ابن ملك الارمن سير الى امراء المغول الذين في بلد الروم وعرفهم وحذرهم من عزم - البندقدار - على دخول بلده سنة ٦٧٥ هـ»^(١٦) .

ومهما يكن من امر ، فإن أبقا سعى لايجاد تضامن مغولي صليبي اوروبي عسكري مستغلا بذلك سقوط مملكة انطاكية الصليبية وتداعي احوال للصليبيين في المشرق العربي عموماً ، حتى ان البابا «كليمنت الرابع» وجيمس الاول ملك الاراكون انفذ له سفارة برئاسة «جيمس الاريك بريجنان James Alaric سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ لیسراً له نبأ وصول حملة صليبية بقيادة «لويس التاسع» فوعده ابقا بالعمل العسكري المشترك حال قدومها الى فلسطين ، ولكن وفاة لويس التاسع حالت دون ذلك . بيد ان «ادوارد الاول ملك انكلترا» تلقى معونات عسكرية فعلية من المغول اثناء حملته سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م حيث ارسل حال نزوله في عكا ، وفداً ثلاثياً الى ابقا طالباً منه القيام بعمل موحد ضد القوى الاسلامية في المشرق العربي ومصر وقد تألف انوفد من كل من ريجنالد رسل Reginald Russel وكودفري ويلز Godfrey Welles ويوحنا باركر John Parker فارسل ابقا عشرة الاف فارس ، استولوا على حلب ومعرة النعمان واقاميا»^(١٧) ، وقد اعتبر ادوارد الاول هذه المساعدة غير مجدية لتسوية الاوضاع فاجتمع بالملك هيو الثالث وتم الاتفاق بينهما على ان «استرداده البلاد المقدسة لا يكون الا بالاستيلاء

على مصر وان تأميل الصليبيين بالشام يتطلب كذلك الاستيلاء على القسطنطينية ، فاقترح اخضاع مصر وبلاد الشام ، ولأجل ان يستجيب أبقا للاقتراح اكتفى بارسال بعض الجموع المغولية سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م الى شمال بلاد الشام عن طريق عينتاب ، وقام هؤلاء بغارات لمجرد السلب والنهب في حوض نهر العاصي وحول حارم وافاميا ثم عادوا من حيث اتوا قبل ان تصل اليهم القوات الاسلامية المصرية^(١٠٠) .

ومن هنا يمكن ان يلقي المؤرخ مفضل بن ابى الفضائل بعض الضوء على طبيعة العلاقات بين المغول والصليبيين ، ففي ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م توجه امير طرابلس الصليبي الى ابقا يستصرخه على المسلمين ويذكر له ما انجزه الجيش المصري من استرداد بعض القلاع والحصون ، فصاح به ابقا قائلاً : «انت ما جئت الا لتخوفني منه - اي من الظاهر بيبرس صاحب مصر - وتنفري عنه وتغلق قلوب عسكري رعباً»^(١٠١) فكلا الطرفين لا تهمهما غير مصالحهما الخاصة ، وان المغول تبنوا نوايا حلفائهم الصليبيين .

الى جانب ذلك وعلى الرغم من هذا الواقع فقد كانت رسل ابقا تطوف ابواب اوروبا يدعونهم للتعاون ، وقد حفلت سياسته في هذا المجال بالعديد من الرسائل مع بابوات اوروبا وملوكها لاجلاء اهداف الكنيسة القديمة في «استعادة» بيت المقدس التي اخذت الامال «باستعادتها» تضعف بسبب اهمال الامارات الصليبية وتهاويها امام ضربات القوى الاسلامية في المشرق العربي ومصر . ولدى عقد مجمع ليون سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م برئاسة البابا «جريجوري العاشر» لتقرير سياسة الكنيسة ، ارسل ابقا مندوبين عنه للمشاركة في هذا المؤتمر ، وبعد تعميدها حسب التعاليم الكاثوليكية ، عرضا على المجتمعين دعوة الابلخان واستعداده للتعاون في حملة صليبية مشتركة ، غير

ان اختلاف الصليبيين في وجهات نظرهم من المشروع المغولي المعروض امامهم ، جعل المجمع ، ينهي اعماله ، قبل ان يستطيع اتخاذ قرار بذلك .

ولا ريب في ان سياسة نقولا الثالث الذي تولى كرسي البابوية سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م كانت اكثر فاعلية ، لتحقيق فكرة التعاون مع المغول من سلفه . فقد اجاب على سفارة ابقا بسفارة مكونة من خمسة من الرهبان سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م حملوا اليه تقدير البابا على اخلاصه ورغبته في «انقاذ» بيت المقدس ووعدته بارسال هذه الحملة^(١٠٢) .

ولم تقتصر دعوة ابقا على البابوات ومعالجة ترددهم حول احياء الحروب الصليبية وايقاد جذوتها من جديد بل شملت تحريض ملوك اوروبا وامرائها على تسعير اوار الحرب والتعهد لهم بتقديم المساعدات لانجاحها ، واهم رسائله تلك التي وصلت الى «فيليب الثالث» ملك فرنسا وادوارد الاول ملك انكلترا يحثهم فيها على المبادرة في هذا المجال ، فخير ان المحرك الاساسي لاشعال الحروب الصليبية هو البابا وليس للملوك والامراء يد في ذلك .

ويبدو ان تردي اوضاع مملكة عكا للصليبية ، لم يمنع من استمرار المغول في المفاوضات مع حكام اوروبا والباباوية من اجل القيام بعمل عسكري موحد ضد المشرق العربي وقواه السياسية ، حيث تعهدت مملكة عكا بأبصال رسائل ابقا الى ادوارد الاول ملك انكلترا ، وقد كلف الراهب الدومينيكاني «داود» بهذه المهمة ، وكان ابقا يستفسر في رسالته عن الوقت الذي يعيد فيه ادوارد الكرة على المشرق العربي والاراضي المقدسة وكان ابقا قد استغل في وقت سابق وصول ادوارد الاول الى قبرص على رأس حملة صليبية جديدة سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م قبل اعتلائه العرش ، فبادله الرسائل واتفق معه على الزحف سوية ، وكان ادوارد

الاول قد ارتاع لتدهور اوضاع الصليبيين في المشرق نتيجة الاندحارات التي منيت بها جيوشهم ، ومع انه ادرك في حينها ، ان جيشه صغير ، فانه كان يأمل في ان يعمل على توحيد صليبي المشرق في قوة ضخمة ، ثم يفيد من مساعدة المغول في القيام بهجوم شديد على المواقع التي استردها المسلمون .

على ان ابقا ، اخذ يسرف في الالحاح على الغرب في تكوين تحالف عسكري مغولي صليبي ففي ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م انفذ سفارة ثنائية الى اوربا ، تألفت من الاخوين الجيورجين جون وجيمس فازلي Vasalli وقابل الوفد كلا من البابا انوسنت الخامس وفيليب الثالث ملك فرنسا وادوارد الاول ملك انكلترا ، ولم تأت تلك المفاوضات بنتيجة عملية ، على الرغم من اتفاق وجهات نظر القادة الصليبيين لمقترحات الايلخان المغولي المتحمس ومشاريعه لعقد تحالفات من اجل استئناف الحروب الصليبية^(١١) .

ومعروف ان الرسائل التي حرص ابقا على تدبيجها الى البابوات وملوك اوربا كانت تتضمن اغراءات كثيرة ، لاقتناعهم بشن حرب صليبية جديدة ، وقد انحى باللائمة عليهم لتقاعسهم وفند حججهم بهذا الصدد و اشار فيها الى انه قد تم الاستعداد لغزو الاراضي المقدسة وانه ينتظر الجيوش الصليبية لتساهم معه في الغزو ولكي تتولى بعد ذلك مسؤولية الحكم في تلك البلاد ؛ اما رسله فكانوا مكلفين بتضخيم الاخبار التي كان الايلخان يرغب في اذاعتها على مسامع الاوربيين ، حتى تحولت مملكة الايلخان في نظر هؤلاء الى «جنة عامرة» لرعاية الصليبيين^(١٢) ولكن الغرب الاوربي ، اخذ ينظر الى عروض ابقا بشيء من الريبة والشكوك وبدأ تدريجياً يقف موقفاً سلبياً منها ، ويبدو ان ابقا نفسه كان يشعر بهذا الموقف ؛ وقد اتضح له موقف الصليبيين عندما التقت جيوش المغول قرب «ابلستين» بالجيوش الاسلامية سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م حيث تمزق

الجيش المغولي ، وكان من المفروض ان تشترك في الحملة ضد المسلمين فرق من الصليبيين ولكن تبين للايلخان المغولي ، ان الجند الصليبيين فروا قبل بدء المعركة ونجوا بأنفسهم ، فاستشاط غضباً وأمر بقتل الاسرى من الجيش الاسلامي ٦٥ وبيروني المقريري ، ان القوات المغولية تتبعت القوات المصرية حتى شهدوا «ابلستين» حيث اوقعت القوات الاخيرة بالمغول وهزمتهم شر هزيمة حتى «عاين القتل بالمعركة وليس فيهم من الروم ولا من عساكر السلطان - صاحب مصر - الا القليل مع كثرة رمم التار ، فشق ذلك عليه وقتل من ببلاد الروم من المسلمين^(١٣) .

وعلى الرغم من اضطراب احوال مملكة ابقا في بلاد فارس ، فان الايلخان المغولي - لم يلبث ان عقد تحالفاً مع ليو الثالث ملك ارمينية الصغرى واتفقا على القيام بحملة كبرى على بلاد الشام ، لعلها تعوض اندحاراتهم بهدف «استخلاص» بيت المقدس ؛ كما اتفقا على ارسال السفارات الى ملوك اوربا لمساعدتها في ذلك المشروع عن طريق انفاذ حملة صليبية كبرى لكي تنضم الى الجيوش المتحالفة ، ولكن لم يشأ الايلخان المغولي ان ينتظر وصول الرد على مشروعه من الغرب ، وانما قرر مهاجمة بلاد الشام ، بيد ان عوامل المناخ حالت دون تنفيذ خطته تلك ثم صرف نظره مؤقتاً عن فكرة الهجوم^(١٤) .

والملاحظ ان تأكيد الايلخان المغولي ابقا على ضرورة عقد تحالف مجد ومفيد مع الصليبيين هو لمواجهة البقعة العارمة التي غمرت المشرق العربي ومصر في هذه الفترة ، فقد اخذت هجمات الجيوش الاسلامية تتركز حول الكيانات التي ارتبطت مع المغول فيشير محيي الدين بن عبد الظاهر الى احراق مدينة «سيس» التي كان صاحبها قد تحالف مع ابقا المغولي كما يذكر المقريري في ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦ م «ان جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب وبعثوا الى ابقا ابن هولاكو بانهم واصلون لمواعده من جهة «سيس» في

سفن كثيرة^(١٨) ، غير ان تلك الحملة فشلت بسبب عوامل الطقس . كما يذكر هذا المؤرخ خروج «فرنج عكا وخيموا بظاهرها وركبوا واعجبتهم انفسهم بمن قدم اليهم من فرنج الغرب ومواصلة التتار^(١٩) . وفي السنة نفسها يذكر المقرئزي ورود «الخبر بان الفرنج قد اغاروا على قاقون بمواعدة التتار^(٢٠)» .

ومن الجدير بالاشارة الى ان كلا من المغول والصليبيين كانوا يتحاشون كل إثارة يسببها احدهم للآخر ، غير انهم لم يكن بوسعهم ان يضبطوا تصرفات المتهورين منهم ، و-ث ما كان يخشاه الامراء الصليبيون ذلك ان جوليا امير صيدا وشقيق وارنون الصليبي ، وهو رجل وسيم ضخم الجثة اشتهر بالمجون والمباذل والتهور كما اشتهر بالتبذير بحيث حمله على ان يرهن امارته صيدا لدى الفرسان الداوية الصليبية ، مقابل اموال طائلة استدانها منهم ولما اتصف به ذلك من سوء الخلق وسرعة الاثارة دفعه الى الشجار والخصام مع فيليب امير صور الصليبي الذي يعتبر

من اعمامه (وقد تزوج من احدى بنات هيثوم ملك ارمينية غير انه لم يكن لصهره تأثير عليه ونتيجة للمعارك التي نشبت بين المسلمين والمغول فقد تهيأت له الفرصة للاغارة من الشقيف على ارض البقاع الخصيبة التي كانت تحت نفوذ المغول ولم يكن للجنرال المغولي «كتبغا» الذي كلف بالمراقبة في بلاد الشام التي كانت تحتلها الكتائب المغولية لان يجيز هؤلاء المغيرين ان يفسدوا ما استقر من نظام المغول ، فارسل ثلة من العساكر لرد المغيرين ولانزال العقاب بهم ولم يلبث جوليان امير صيدا ان استنفر جيرانه للنهوض الى مساندته فاستطاعوا ان يوقعوا القائد المغولي في كمين وان يجهزوا عليه . ولم يسع كتبغا الذي اشتدت ثائرته الا ان يرسل جيشا كثيفا نفذ الى صيدا ونهبها وحطم المساعدة التي قدمت له من اسطول جنوى الذي قدم من صور وقد انحنى

هيثوم ملك ارمينية باللائمة على فرسان الداوية الذين استغلوا خسائر جوليان كيما ينتزعوا منه صيدا والشقيف لعجزه عن تسديد الاموال التي استدانها منهم . كذلك ما قام به «يوحنا الثاني صاحب بيروت الصليبي» من الغارة على الجليل التي كانت بيد المغول حيث لم تمض الا فترة قصيرة على الغارة السابقة ، فلقيت من القوات المغولية ما تستحقه من العقاب والردع^(٢١) . ان هذه الاحداث اضعفت الصليبيين وفككت قواهم وعملت على بذر الشكوك بينهم وبين المغول من اجل اتفاقات تحالف للمستقبل .

وجاء ان تعرض الصليبيين للمغول والاعتداء على حامياتهم ومعسكراتهم والتحرش بهم ومقابلة المغول لهؤلاء بالمثل واحتلالهم لصيدا وتدميرها كان بسبب امتناع الصليبيين عن الاشتراك معهم في غزو مصر^(٢٢) لانهم بحاجة الى اصلاح احوالهم في بلاد الشام حيث بدأت اقدامهم تزلزل فكان تأكيدهم على المغول بالاتجاه نحو هذه البلاد والمحافظة على ما تبقى من معاقلهم ومراكزهم .

والظاهر ان المغول كانوا يفضلون التعاون مع صليبي المشرق العربي او كانوا يعيرون الاولوية لهم على الصليبيين الجدد الذين تقذف بهم اوروبا في الحملات الصليبية ، اذ كان هؤلاء يشعرون ان التحالف الذي ربط بين بوهمند السادس امير انطاكية والمغول له اخطار سياسية وادبية وربما ينجم عنه اكتساح المغول للوجود الصليبي في المشرق العربي وابتلاعه . لكن المغول اصبح من مصلحتهم التواجد الصليبي في منطقة المشرق العربي وانه من السابق لاوانه اتخاذ اجراء من المغول فتضيع الفرصة بانتهاء سعي الحروب الصليبية ، فاخذ المغول يبذلون جهودهم في مواجهات عسكرية مع القوى الاسلامية للمحافظة على الوضع الراهن ، في الاقل ، فيذكر ابو الفدا ان الجيش المصري سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م هزم «الجيش المتحالفة» وكانت عدة

الترثمانين الف فارس منهم خمسون الفا من المغول والباقي حشود وجموع من اجناس مختلفة مثل الكرج والعجم وغيرهم^(٣٣). ثم كرر المغول محاولتهم التصدي للجيش الاسلامي ، فخرج أبقا الى بلاد الشام سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م على رأس جيش من المغول والتحق به اخوه «منكو تيمور» قادماً من كبدوليا ثم انضم اليهما حلفاؤهم الصليبيون ممثلين في ليو الثالث ملك ارمينية الصغرى وبعض امراء الساحل^(٣٤).

ويقرر الاستاذ رنسيما ، ان المغول ، قد توجهوا سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م الى بلاد الشام بجيشين مغولين فيهما بعض الفصائل الصليبية ، الاول يقوده الايلخان ابقا ، غزا الحصون الاسلامية الواقعة على امتداد حد الفرات ؛ اما الجيش الثاني فيقوده شقيقه «منكو تيمور» الذي اتصل بليو الثالث ملك ارمينية الصغرى فأمدّه بالعساكر ثم هبط الى وادي نهر الادرنج بعد ان اجتاز عينتاب وحلب وقد التقت هذه الجيوش بالجيش الاسلامي ، خارج مدينة حمص ، ومن خلال توزيع المناصب العسكرية في جيش المغول تبين لنا خطة التحالف التي وصفت ، فقد اتخذ امراء المغول مواقعهم في قلب الجيش وميسرته على حين كان على ميمنته ، عساكر الكرج وعساكر الارمن والاستباريه من الصليبيين^(٣٥) ويروي عن مقدم الاستباريه الانكليزي «يوسف شونسي» الذي كان يزور المشرق ، انه كتب الى ادوارد الاول ملك انكلترا ، يصف له «معركة حمص» فذكر ان الملك هيو والامير بوهمند ، لم يستطيعا اللحاق بالمغول في الوقت المناسب ، والراجح انه اراد ان يحميها من غضب ملك انكلترا ، الذي يعتبر الوحيد من بين ملوك الغرب الذي لا زال مهتما بالحروب الصليبية وشديد التأييد للتحالف مع المغول^(٣٦).

اما بعد سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م حيث طرأت

تغيرات في دولة مغول فارس ، فقد جاء الى العرش المغولي الايلخان «ارغون» في انقلاب ضد اخي «ابقا» وهو «تكودار»^(٣٧). وسرعان ما اتخذ «ارغون» سياسة احياء التحالف مع الصليبيين ، فاتفق مبدئياً مع ليو الثالث ملك ارمينية الصغرى فتعاهد على «استرداد» الاراضي المقدسة ، وارسل اربع سفارات الى البابوية ، يقترح فيها استعداده للقيام بحملة مشتركة لخوض الحروب في الاراضي المقدسة يقوم الفرنجة ، بغزو مصر ، في الوقت الذي يقوم هو بغزو بلاد الشام ، ولكن الايلخان المغولي «ارغون» لم يجد استجابة من صليبي اوروبا ، ومن الجدير بالذكر ، ان السفارة الاخيرة التي انفذها «ارغون» جاءت في الوقت الذي سقطت فيه عكا وهي آخر حصون للصليبيين الكبرى في بلاد الشام بيد القوات الاسلامية^(٣٨).

وليس من شك في ان ما كتبه الايلخان «ارغون» سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م الى البابا هونوريوس الرابع ، يقترح عليه القيام باجراء عسكري مشترك ، له اهمية كبيرة بالنسبة الى فتح باب الاتصالات مع اوروبا لاحياء آمالها وتخريض الصليبيين على تشكيل حملات من جديد الى الاراضي المقدسة وبلاد الشام وعلى الرغم من عدم استجابة البابا لرسالته ، فقد قرر بعد مضي سنتين ان يوفد سفارة الى الغرب يعرض فيها شعوره وعواطفه نحو الصليبيين ويعدد خدمات ابيه وجده نحوهم ويعتذر عن انقطاع المراسلة بسبب «مروق» الايلخان السابق ، ثم يتعهد لهم اخيراً باستعداده للتعاون معهم في «انقاذ» البلاد المقدسة ! فاختار رابان سوما سفيراً له ، وبدأ السفير رحيله في اوائل سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م فلقى استقبالا ودياً حافلاً من الامبراطور البيزنطي «اندرونيقيوس» الذي كان مستعداً لان يذل للمغول مساعداته التي تسمح بها موارده الضئيلة ثم توجه السفير الى نابولي ثم الى روما ، وقد تبين له ان البابا

هونوريوس الرابع قد مات ، فغادر الى فرنسا وقابل الملك فيليب الرابع ، ولما أزمع على مغادرة باريس عين الملك ، سفيراً له اسمه «جورج هيلفيل ليصبح «رابان سوما» في عودته الى بلاط الايلخان ، وليعد معه التفصيلات اللازمة عن التحالف مع المغول ، ثم رحل «رابان سوما» الى انكلترا وقابل الملك ادوارد الاول ، الذي طالما دافع عن التحالف مع المغول . وفي ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م تم اختيار «نقولا الرابع» بابا جديداً ، وكان اول اعماله ، انه استقبل السفير المغولي ، فقامت بينهما احسن العلاقات الشخصية ، وغادر السفير روما وبصحبه «جورج هيلفيل» يحمل من البابا هدايا وكثير من المخلقات الدينية القيمة للايلخان والجاثليق ، ورسائل اليهما ، والى اميرتين مسيحتين في البلاط المغولي والى «دنيس» اسقف اليعاقبة في تبريز» .

غير ان سفير الايلخان المغولي لم يجد البابا متمكناً من تحديد الوقت للتعاون العسكري الفعلي ولتشكيل حملة صليبية جديدة يتوق اليها الايلخان .

وبعد مرور سنة على جلوس البابا نقولا الرابع على كرسي البابوية ، ارسل كتابين الى الايلخان «ارغون» واخر سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م مع رسوله «يوحنا دي مونت كورفينو» الذي هو نفسه مؤسس الكنيسة اللاتينية في الصين وقد اصبح فيها اسقفاً للكمبالوك (بكين) وارسل البابا كتابا رابعاً سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م على اثر سقوط عكا وصيدا وطرد الصليبيين ، يستحثه على احياء الحروب الصليبية» .

وهكذا فقد اقترح الايلخان «ارغون» على البابا وملوك اوروبا ، ان يقودوا الحملات الصليبية بأنفسهم حتى يضمنوا تحقيق النصر ، لكنهم كانوا مشغولين بشؤونهم الخاصة ويتوجسون الخيفة وخاصة فيليب الرابع ملك فرنسا الذي كان يناور في عودته ويضيع الوقت ويكسبه في مبادلة الرسل للاتفاق على خطة موحدة للعمل ، في الوقت الذي

كان يستغل ذلك في الداخل لجمع الاموال بحجة الاستعداد للحرب «المقدسة» حتى اضطر ارغون لكي يضع حداً للوقت المضاع معه ان يحدد تاريخ ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م موعداً لبدء الزحف «المقدس» بحيث يلتقي جيش الطرفين ، الصليبيون والمغول على اسوار دمشق» . اما ادوارد الاول ملك انكلترا ، فقد احسن استقبال «رابان سوما» الذي قام بالمهمة نفسها في عهد الايلخان ارغون ، ولما علم منه ان للايلخان اقتراحات بهجوم مشترك على الارض المقدسة من جهتي الشرق والغرب قال له : «نحن ملوك هذه البلاد قد وضعنا علامة الصليب على اجسامنا ، واهتمامنا بهذا الموضوع اهتمام زائد وان قلبي لينشرح حين اعلم ان ما ارغب فيه يريد به ايضا الملك ارغون» .

ومن المحتمل جداً ، انه الى هذا الحد ، لم يتطرق اليأس الى قلب ارغون على الرغم من فشل مهمة سفارته ، حيث لم يعتقد بان عدم الاكتراث الاوربي لموضوع الاراضي المقدسة ، بلغ الحد الذي يتغاضون فيه عن استردادها من قبل اهل المشرق العربي ، الامر الذي جعله يرسل سفارة اخرى سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م متمثلة في شخص احد الجنويين المقيمين في بلاده وهو «بسكاريل جيزولف» Bus-carel Gisolf زوده برسالة الى كل من ملكي فرنسا وانكلترا والبابا . والظاهر ان المغول وضخوا اهدافهم بدقة في الرسالة المعنونة الى فيليب الرابع ملك فرنسا بصورة خاصة والمكتوبة باللغة المغولية وبحروف ايغورية وقد اضاف بسكاريل جيزولف الى الرسالة حاشية كتبها باللغة الفرنسية تنطوي على تحيات لبقة ، موجهة الى الملك الفرنسي» وجاء في الرسالة «ان الخاقان قويلاي قد فوض ايلخان مغول فارس «ارغون» ان يقوم بحملة عسكرية على بلاد الشام وانه سوف يكون في دمشق ومنها يشرع باحتلال القدس التي سوف تقدم الى الملك الفرنسي شريطة ان ترسل فرنسا ،

فرقا عسكرية، وان الايلخان على استعداد لتجهيز الجيش الصليبي بعشرين الف حصان ، وفي حالة تعذر التعاون العسكري مع الفرنجة ، فان المغول لا يرون اية فائدة من القيام بحملتهم^(٨٧)» واكد السفير بيسكاريل جيرولف الى ملك فرنسا ان امراء جورجيا وارمينية سيشترون في المشروع المغولي . وقد احتوت الرسالة الموجهة الى ادوارد الاول ملك انكلترا على النقاط نفسها كما اكدت الرسالتان على البابوية انه لا يمكنها القيام بخطوة مجدية ما لم تتأكد من تأييد فرنسا وانكلترا وسائر حكام اوربوا مقدماً . ولما لم يتلق المغول جواباً قاطعاً عن موضوع التحالف ارسل الايلخان ارغون سفارته الاخيرة سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م الى اوربوا وهي مؤلفة من الوفد الثلاثي برئاسة بوسكاريل جيرولف وعضوية كل من زاكازان Zagan وسهادين Sahadin المغولين ، فقصدت السفارة اولاً ، ألبانيا نقولاً الرابع ، حيث زودها برسالة الى ادوارد الاول ملك انكلترا الذي لم يقابلها لانشغاله في مشكلات «سكوتلاندا» فاضطر الوفد الى الرجوع الى روما ومن ثم اصبح متعذراً على الوفد ، الاستمرار في المفاوضات نظراً لان مصير المشرق العربي قد تقرر بسقوط عكا وهي آخر قلاع الصليبيين بيد الجيش الاسلامي^(٨٨) .

وتكررت السفارات بين المغول وصليبي اوربوا ، بعد موت الايلخان ارغون سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م حيث ارسل جيمس الثاني ملك ارغون الى الايلخان الجديد «غازان» كتاباً سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م يقول فيه انه على استعداد لتقديم مساعدات من سفن حربية وعساكر وخيول وذخائر ويود ان يحاط علماً بما يريده غازان من هذه العروض ، كما يقول انه سمح لاهالي مملكته الذين يريدون بالذهاب الى الاراضي المقدسة او الانضمام الى جيشه بتنفيذ رغبتهم ، وانه يود ان يقف على موافقة الايلخان بعد ان تنظم اليه قواته على ان يعطيه خمس الاراضي المقدسة وغيرها

من البلاد التي تفتح بعد ذلك ، وطلب في آخر الكتاب الحرية لرعاياه في الذهاب الى بلاد الشام وبيت المقدس بدون ان يدفعوا ضريبة ما^(٨٩) .

ثم ارسل غازان بيسكاريل جيرولف ، حاملاً رسالة الى ادوارد الثاني ملك انكلترا ، وقد تضمنت الدعوة الذهاب الى بلاد الشام «لتخليص» الارض المقدسة من المسلمين !! وقد اهتم الملك الانكليزي بهذه الرسالة اهتماماً كبيراً ورد عليها بكتابين سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م احدهما الى الايلخان غازان وقد كتب في «نور ثامبتون» وارسل الى «الجايو خدابنده» واحالها بدوره الى الايلخان غازان^(٩٠) ، اما الكتاب الاخر فارسل الى بطريق الشرق . وقد وردت ترجمة للرسالة الاولى جاء فيها : «لقد تلقينا الكتب التي ارسلتها الينا مع سفيرك بيسكاريل جيرولف الذي يحمل لنا الهدايا وعلمنا مضمونها كما سمعنا الاخبار الشفوية التي ذكرها لنا على لسانك عن مسألة الارض المقدسة ، وقد منعنا الحروب التي تضطرب لها المسيحية في اوربوا عن اتخاذ قرار فيما يختص بهذه المسألة ، وهذا يتفق وما نريده من زمن بعيد ، على انه عندما نكلف بالعمل في سبيلها فانتا سنبدل عن طوعية واختيار كل ما نستطيع من جهد بقصد اتمام هذا المشروع الذي نتمنى له النجاح اكثر مما نتمنى النجاح لاي مشروع آخر في هذه الحياة الدنيا^(٩١)» .

وتحركت اوربوا لتوجه الصليبيين صوب الاراضي المقدسة ، بعد التقدم النسبي المحدود للجيش المغولي في بلاد الشام على يد الايلخان غازان ، فاعد القائد المغولي اوجايو خدابنده من الامدادات لاستقبال الجيش الصليبي من الخيل الفا ومثلها من حمول الذرة لاعاشته واعد من جيشه الف جندي على قدم الاستعداد ، واكد الايلخان لصليبي اوربوا ، ان الوحدة بين الاسر والقبائل المغولية قد تحققت وهو ينصحهم ان يتحدوا مثلهم ويتعاونوا لانجاح الاهداف

«المقدسة»^(١) . ولكن كل هذا ذهب ادراج الرياح ، وهكذا ظل الایلخان المغولي غازان رافعاً عقيرته بنداء مثقل بالهم والحسرة من معسكره قرب دمشق الى صليبي اوروبا يردد انه مستعد «لإعادة» مملكة بيت المقدس الى ما كانت عليه ، اذا ما تعاون جيش صليبي معه في مقاتلة اهل المشرق العربي . . وظل يبعث برسائله الى البابوات والملوك في اوروبا ولم يتلق الجواب من الصليبيين ، لان اهل المشرق العربي حطموا الروح المعنوية لجموع الغزاة الاوربيين ، وعليهم ان يحطموا الوجود المغولي وهكذا فإن إسلام الایلخان غازان (المغولي الاصل ، الفارسي الثقافة) لم يمنعه من السعي الى التحالف مع الغزاة الفرنجة ، تحقيقاً لأطماع متأصلة في نفسه ، فعاد وجحافلهم يجرون الاذيال الى سهوبهم في اواسط آسيا وفي اعماقهم ألم دفين ، حيث ضاعت «الفرصة» وانتهت الحروب الصليبية بانتصار اهل المشرق العربي .

الهوامش

- (١) احدى المدن الفرنسية تحقق فيها اجتماع البايا ايريان الثاني مع رجال الدين والمحتشدين من الاوربيين سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م حيث انطلقت شرارة الدعوة للحروب الصليبية .
- (٢) رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية (ترجمة د . السيد الباز المريبي ، بيروت الطبعة الاولى - ١٩٦٧) ج ١ ص ١٧٢ .
- (٣) وهي تعريب "FRANKS" اي فرنسيون ؛ وقد اصبح اصطلاح الاقرنج منذ ذلك الوقت يطلق على الاجانب من الاوربيين ، وتطلقه المصادر العربية الاولى على الصليبيين .
- (٤) سكان شمال اوروبا ؛ بعضهم من جنوبي ايطاليا ومن صقلية .
- (٥) وصف هذا العصر في اوروبا بانه «عصر الرؤى» فكانت تعاليم الرؤيا والنبؤات . (رنسيان ، المصدر نفسه ص ٣٤٣ - ٣٥٠) .
- (٦) ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، (ج ٣ تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة - ١٩٦٠) ص ٧
- (٧) أرنست باركر Ernest Barker الحروب الصليبية (ترجمة د .

- السيد الباز العربي ، بيروت) .
- (٨) للاستزادة راجع د . سوادي عبد محمد بحثه «الافاق العربية الاسلامية بوجه الخطر الصليبي» ص ٢٤ مجلة المورد / المجلد الثالث عشر / العدد الثاني السنة ١٩٨٥ .
 - (٩) المصدر السابق ص ١٣
 - (١٠) رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٤٦٣
 - (١١) وهي ارملة «طولوي» اصغر ابناء جنكيزخان ؛
 - (١٢) المدينة الصحراوية في غروب وقد اتخذها المغول عاصمة لامبراطوريتهم واصبحت في تلك الفترة مركز الدبلوماسية في العالم (رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٠٧) .
 - (١٣) المصدر السابق ص ٤٤٦ .
 - (١٤) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ، (التجف - ١٩٧١) ص ٤٢٢ .
 - (١٥) لم نجد دعوته في اوروبا استجابة من الامبراطورية الرومانية المقدسة وذلك بعد خلافه مع الامبراطور فردريك الثاني ؛ كما لم يكن هنري الثالث ملك انكلترا في وضع يمكنه من الاسهام في مساعدة البايا ، فضلا عن رفض حكومة البندقية لمشروع البايا ، لتحافظ على مصالحها التجارية مع مصر . اما بيزا وجنوا فتعهدتا بتقديم المساعدات ، وكذلك وجدت الدعوة استجابة من لويس التاسع ملك فرنسا (د . عبد القادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، بيروت - ١٩٦٩) .
 - (١٦) سيد علي الحريري ، كتاب الاخبار السنية في الحروب الصليبية (الطبعة الثانية ، مطبعة النيل ، مصر - ١٣٢٩) ص ٣٤١ .
 - (١٧) Setton (K.M.) A History of the Crusades (Pennsylvania, Vol. 11, P. 722) 1958 وكانت الاليخانات المغولية الاربعة التي انقسمت اليها الامبراطورية ، كل واحدة منها تؤلف امبراطورية قائمة بذاتها ونخص بالذكر منها «القسم الفارسي» وكانت عاصمته تبريز ، قريبة من البحر المتوسط فأخذت تتدخل في شؤون (كتاب تراث الاسلام باشراف سير توماس ارنولد ، ترجمة جرجيس فتح الله ، بيروت - ١٩٧٢) ص ١٤
 - (١٨) رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٤٦ ؛ د . عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٣ - ١٨٤ .
 - (١٩) ايرنست باركر بحثه الحروب الصليبية (كتاب تراث الاسلام ج ١ ، ترجمة علي احمد عيسى ، لجنة الجامعيين لنشر العلم ، - ١٩٣٦) ص ١٤٣ .
 - (٢٠) رنسيان ، المصدر السابق ص ٤٤٧ .

- (٢١) وهو نائب الخاقان في القوقاز وفارس وتسميه المصادر العربية الاولى باسم «جغتاي خان» ويقول رنسيما ، انه كان مندوبا ساميا للايلخان الكبير في الموصل (تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٤٧) .
- (٢٢) كان كبير مندوبي البابا انوسنت الرابع فيما دار من مفاوضات مع المونوفيزتيين (م . ن ص ٤٤٧)
- (٢٣) كانت وصية على ابنائها الثلاثة الصغار ، قوشو ونقو وقوغو وقد انتصرت عليها «سور خقتاي» ارملة طولوي اصغر ابناء جنكيزخان ، حيث نصب ابنها «متكو» خانا في قراقورم وتقرر ادانة «اغول قايميش» بالسحر فقتلت غرقاً وتم ارسال ابنائها الى المنفى (رنسيما ، المصدر نفسه ص ٥٥)
- (٢٤) Joinville : History de Saint Louhs (ed. N. de Waiky) Paris. 1874. P.74.
- (٢٥) رنسيما تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٤٤٧
- (٢٦) Grousset (R.) History des croisades et du Royaume frque de Jerusalem (Paris, 1943) 111. p. 524.
- (٢٧) Recueil des Historiens Grusades Documents Armeniens. 11. pp. 164 — 169 ثم انظر : د . سعيد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية (الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٦) ج ٢ ص ١٠٤٩ - ١٠٥٠ .
- (٢٨) رنسيما وتاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥١٠
- (٢٩) د . سعيد عبدالفتاح عاشور ، المصدر نفسه ص ١٠٥٠ D'ohsson, History des Mongols (Amsterdam, 1952) 111. p524.
- (٣٠) د . عبدالقادر البوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ١٩٧
- (٣١) الحروب الصليبية ص ١٢٦ .
- (٣٢) د . السيد الباز العريبي ، المغول (بيروت - ١٩٦٧) ص ٢٤٧
- (٣٣) وهو كتبنا النسطوري الذي ينتمي الى عنصر «النايمان» وقد شاع بانه ينحدر من حكماء الشرق الثلاثة ، وهو غير صحيح ، والمعروف ان كتبنا اعاد سلطة المغول على المدن الكبيرة في هضبة ايران وكان قد ارسل من قبل هولاكوس سنة ٦٥٣ هـ في سرايا وعساكر لتمهيد الطريق نحو العراق وكشفه . (رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥١٤)
- (٣٤) ارنست باركر ، المصدر السابق ص ١٢٦ - ١٢٧
- (٣٥) وهو المؤرخ الشهير وصاحب الحولية المعروفة في عصر الحروب الصليبية .
- (٣٦) رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ١٠٥٠ د . سعيد عبدالفتاح عاشور
- (٣٧) رنسيما المصدر السابق ص ٥٠٧
- (٣٨) شعله الاسلام ص ٥٦٤
- (٣٩) م . ن . ص ٥٦٦ - ٥٦٧
- (٤٠) بحث الاستاذ الدكتور ضياء موسايفيج بونياتف ، رئيس قسم العلوم التاريخية في اكااديمية العلوم الاذربيجانية في باكو ، الموسوم «احتلال المغول لبغداد سنة ١٢٥٨ م في المصادر الارمنية» المؤتمر الدولي للتاريخ ، بغداد - ١٩٧٣ (النبذة ، طبع بطرسبورج ١٨٧١ م ص ٩٠٢٧ .
- (٤١) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٢٣ - ٤٢٤
- (٤٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (تحقيق ونشر عبدالعزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦) ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .
- (٤٣) ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩١٩) ص ١٦٧ .
- (٤٤) د . السيد الباز العريبي ، المغول ص ٢٤٥ (في مقابل ان يوافق بوهمند على ان يحل البطريرك اليوناني بوثيمبوس في انطاكية مكان البطريرك اللاتيني (رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٦)
- (٤٥) هارولد لامب ، المصدر السابق ص ٥٦٧
- (٤٦) رنسيما ، المصدر السابق ص ٥٢٨
- (٤٧) هارولد لامب ، المصدر السابق ص ٥٦٣
- (٤٨) د . السيد الباز العريبي ، المغول ص ٢٤٨ .
- (٤٩) الروض الزاهر ص ١٩١ - ١٩٢ .
- (٥٠) م . ن . ص ١٩٦
- (٥١) م . ن . ص ١٩٧
- (٥٢) وتركت المفاوضات ايضا في مسألة اخرى هي حصول هولاكوس على سيدة من اسرة الامبراطورية البيزنطية بالقسطنطينية ليضمها الى زوجاته العديدا ، فأختار الامبراطور ميخائيل بالبولوجوس ابنته غير الشرعية «ماريا» وقد رافقها الى تبريز البطريرك بوثيمبوس الذي كان قد لجأ الى القسطنطينية ، ولكن هولاكوس مات قبل وصول هذه الاميرة فتزوجها ابنه وأبقاه وهي التي تسمى عند المغول باسم Despina ومعناه في اليونانية الاميرة (رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٤٨) .
- (٥٣) د . مصطفى طه بدر ، مغول ايران ص ٧٢
- (٥٤) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٢٧
- (٥٥) رنسيما ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٥٦٨
- (٥٦) محي الدين بن عبدالظاهر ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ص ٣٢٧
- (٥٧) رنسيما ، المصدر السابق ص ٥٧٠

(٧٧) الذي خلف ابقا في الحكم ، اعتنق الاسلام وتسمى باسم احمد واتخذ لنفسه لقب سلطان ولكنه لم يبق في الحكم طويلا ، اذ ثار ضده بعض قواده وقتلوه ، واحلوا محله ابن اخيه «ارغون» .

(٧٨) Grousset, History des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem (Paris, 1943) 111. P.727.

(٧٩) ونسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٧٣ .

(٨٠) د . مصطفى طه بدر ، مغول إيران ص ٧ - ٩ .

(٨١) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٣٤ .

(٨٢) د . مصطفى طه بدر ، المصدر السابق ص ٦٥ .

(٨٣) ريسمي ونسيان بوسكارد (تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٧٧)

(٨٤) م . ن . ص ٦٧٧

(٨٥) د . عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢٥ .

(٨٦) د . عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢٦ .

(٨٧) د . مصطفى طه بدر ، مغول إيران ص ٦٧

(٨٨) براون ، تاريخ الادب في إيران (ترجمة د . ابراهيم امين الشواربي مطبعة السعادة مصر - ١٩٥٤) ص ٥٦٢ .

(٨٩) د . مصطفى طه بدر ، مغول إيران ص ٦٨

(٩٠) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٣٩

(٥٨) تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٧ .

(٥٩) د . عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢١ - ٢٢٢

(٦٠) د . سميد عبدالفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠٣

(٦١) كتاب النهج السديد ص ١٩٢ - ١٩٥

(٦٢) د . محمد صالح القزاز ، المصدر السابق ص ٤٢٧ - ٤٢٨

(٦٣) د . عبدالقادر يوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٢٢٣

(٦٤) د . محمد صالح القزاز ، الحياة السياسية ص ٤٣٢

(٦٥) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر حوادث سنة ٦٧٥ هـ

(٦٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ط ١ ق ٦٣٣

(٦٧) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ص ٦٣ - ٧٠

(٦٨) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ط ١ ص ٥٨٤

(٦٩) م . ن . ص ٥٨٥

(٧٠) م . ن . ص ٦٠٠

(٧١) د . السيد الباز العريبي ، المغول ص ٢٥٠

(٧٢) قدرى قلعجي ، صلاح الدين الايوبي ص ٥٧٠

(٧٣) المختصر في اخبار البشر ج ٤ ص ١٥

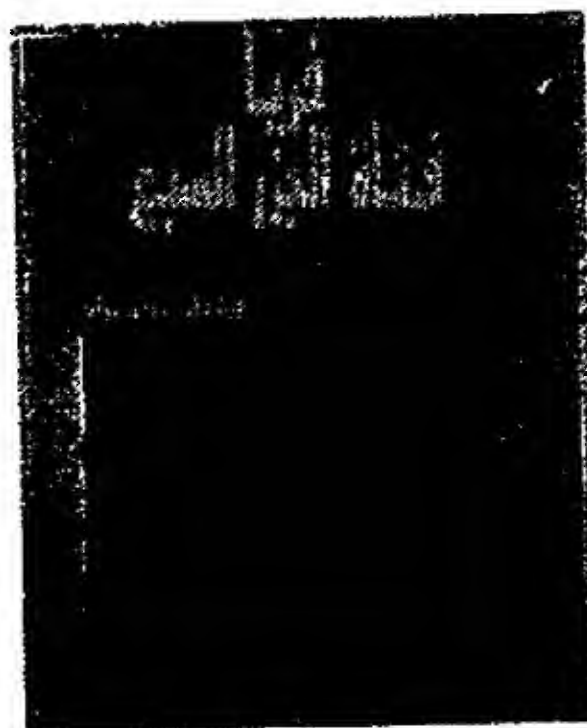
(٧٤) م . ن . ص ١٢١

(٧٥) تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٦١

(٧٦) م . ن . ص ٦٦٣



صدر عن دار الشؤون الثقافية



الحملة الصليبية الثامنة على تونس

د. أحمد الطوي

كلية الآداب والعلوم الانسانية / القيروان

أما المصادر العربية القديمة ، فلم يبق لنا كتاب مما ألفه المؤرخون التونسيون في القديم عن وقائع هذه الحملة إلا كتاب ابن قنفذ وعنوانه « المتوكلي »^(١) وهو كتاب كبير ، وكتاب الأديب جمعة الذي استقى منه أبو عبد الله محمد الآبي (ت ٨٢٨) بعض الأخبار في كتابه « اكمال المعلم في شرح صحيح المسلم »^(٢) ونجد من المؤرخين القدامى الذين أرخوا لها أمثال ابن خلدون في تاريخه^(٣) وابن الشماخ في « الادلة البيضة النورانية عن مفاخر الدولة الحفصية »^(٤) وابن قنفذ في « الفارسية »^(٥) . أما المتأخرون فنذكر ابن أبي دينار في « المؤنس في أخبار إفريقية وتونس »^(٦) وأحمد بن أبي الضياف في الجزء الأول من كتابه « تحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان »^(٧) والباحث المسعودي في « الخلاصة النقية في أمراء إفريقية »^(٨) وحسن حسني عبد الوهاب في « خلاصة تاريخ تونس »^(٩) . فهم قد اقتصروا في سطور قليلة أخبار هذه الحملة معتمدين على المؤرخين السابقين ، ولم يضيفوا شيئا جديدا . أما المعاصرون فنذكر منهم الاستاذ روبرت برنشفيلد في أطروحته عن بلاد البربر في العهد الحفصي^(١٠) فقد استعرض أهم أحداث هذه الحملة الصليبية معتمدا على بعض الوثائق الغربية . ونذكر من التونسيين محمد العروسي المطوي الذي خص هذه الحملة بفصل في كتابه عن الحروب الصليبية^(١١) ثم بفصل آخر في كتابه المنشور

قلما تناولت الدراسات المتعلقة بالحروب الصليبية الحملة الصليبية الثامنة التي كان مسرحها شواطئ قرطاج ، وكانت ترمي الى احتلال تونس العاصمة الحفصية ، وكان يقودها لويز التاسع المشهور بالقديس لويز ، ومنيت بالفشل الذريع لما وجدته من مقاومة شعبية عنيفة مستمرة ، وللحصار المضروب حول الصليبيين ، حتى أصيبوا بالمجاعة والعطش والابوثة . وتنتهي جل المراجع العربية الخاصة بالحروب الصليبية ، بالغزوة الصليبية السابعة على مصر والتي قادها نفس الملك لويز التاسع فمضى أيضا بشر هزيمة ، اذ اعتقل واقتدى نفسه ونفوس من معه بغرامة مالية فادحة ، وسلم دمياط بلا قيد ولا شرط وذلك سنة ١٢٥٠ .

وقام المسلمون سواء في الحملة الصليبية السابعة على مصر ، او الثامنة على تونس ، مقاومة شديدة رائعة كتبوا بها صفحات ناصعة مجيدة في تاريخ مصر وتونس في العصر الوسيط .

وتحتل الحملة الصليبية الثامنة على تونس مكانة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية اذ أنها كانت الاخيرة المرقمة ، تلقى فيها الصليبيون درسا لا ينسى ، اذ فقدوا فيها ملكهم وأعيانا كثيرين منهم ، ومنوا بأقسى العذاب تصفه لنا بعض المصادر الغربية خاصة كتاب « تاريخ القديس لويز ملك فرنسا » بقلم دو بوري^(١٢)

حديثاً عن « السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب العربي »^(١٣) .

دام الاعداد للحملة الصليبية الثامنة سنوات قبل أن يغادر الملك لويز التاسع أرض فرنسا ، فقد راسل البابا كليمن الرابع ملوك انكلترا واسبانيا وبولونيا والمانيا والقسطنطينية وأرمينيا ، يعلمهم بهذه الحملة ويحثهم على المشاركة فيها ، وخصص عشر مداخل الكنيسة لمدة أربع سنوات لتجهيز هذه الحروب ، وفرض آداءات مختلفة على أعيان المدن والقرى كنفس هذا الغرض . وابتدأت التحضيرات الفعلية أوائل سنة ١٢٧٠ ، ولم تغادر السفن المقلدة للجنود مرفأ « ايق مورت » — Aigues Mortes ، وهو يبعد حوالي ٧٠٠ كلم جنوبي باريس ، الا في تموز ١٢٧٠ ، من نفس المكان ويعين الطريقة التي غادرت بها السفن هذه البلدة في الحملة الصليبية السابقة للتوجه صوب مصر ، إلا أن البابا كليمن الرابع لم يشهد انطلاق الاسطول القاصد تونس اذ توفي قبل سنتين في تشرين الثاني ١٢٦٨ ، وشغل بعده منصب البابا حوالي ثلاث سنوات الى أن انتخب « قريقوار العاشر » مكانه سنة ١٢٧١ بعد فشل الحملة على تونس .

وقد تجمع الغزاة في مرفأ « ايق مورت » ، محدثين اضطرابات ، جاؤوا اليه من كل فج عميق خاصة من فرنسا وكانلانيا ، وكان من المنتظر أن تفد عليهم مراكب من جنوة تحملهم الى المشرق فتأخرت عليهم طويلاً ، وقد مات من الخصومات والمعارك بين هذا الخليط الغريب من الاجناس أكثر من مائة شخص^(١٤) ، أما عدد المشاركين في هذه الحملة فيقدر بحوالي أربعين ألف رجل ، يذكر ابن خلدون أنهم زهاء ثلاثين ألفاً من الرجال وستة آلاف فارس موزعين في ثلاثمائة سفينة بين كبيرة وصغيرة ، تحت أمرة سبعة يعاسيب^(١٥) .

وتقول المصادر التونسية خبر عدد أفراد هذه الحملة ، يقول صاحب « الفارسية » : « وكانت في أيام المستنصر حوادث عظام منها في سنة ٦٦٨ نزول الفرنج بتونس بسبعة من الملوك وبكثرة من العدد والعدد والخيول والأخبية وذلك في صلاة الظهر من يوم الخميس السادس والعشرين

من ذي الحجة »^(١٦) .

وقال صاحب « الادلة البينة » : « وكان نزوله على تونس في يوم الخميس السادس والعشرين لذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة بجموع وافرة فرساناً ورجالاً ورماة . ومددهم متصل كل يوم بالرجال والأقوات والعدة »^(١٧) .

أما المشاركون فيها فهم بالإضافة الى لويز التاسع أبناؤه الثلاثة فيليب وبيار وجان تريستان ، وأخوة الفونس كونت دي بواتي وتولوز ، وابنته ايزابلا وصهره تيو ملك نافار وكونت دي شمبانيا والكردينال سفير البابا رودولف البانو ، وعدد من كونتات بريطانيا والاو وفلاندر واللوكسمبور^(١٨) وعدد من النبلاء الفرنسيين ورجال الكنيسة . ولم تصحبهم زوجة لويز التاسع على عكس ما ذهب اليه ابن خلدون^(١٩) . ولم يكن المشاركون يعلمون أن البلد المقصود هو تونس اذ كانوا يعتقدون أن وجهتهم ليست سوى فلسطين أو مصر لاعادة الكرة عليها .

وقبل أن يصل الاسطول الى كافياري بجزيرة ساردانيا تعرض الى عاصفتين كادت توديان بمعظم السفن . وفي يومي ١٢ و ١٣ تموز ١٢٧٠ عقد لويز التاسع مجلساً في مركبه وعرض على أهم رفقائه قصده وهو التوجه اولا الى تونس وطلب موافقتهم فاندھشوا لذلك (٢٠) ولم يوافق الكثير منهم (٢١) وعارضوه معارضة شديدة ، الا أنهم في النهاية اقتنعوا بأفكاره ، وأقلعت السفن قاصدة تونس ووصلت الى قرطاج بعد ستة أيام في ١٧ تموز ١٢٧٠ . فما الذي أسره لويز التاسع الى رفقائه وبماذا أقنعهم للتوجه صوب تونس ؟

اختلف المؤرخون لهذه الغزوة حول سبب تغيير الملك الفرنسي وجهته من فلسطين أو مصر الى تونس . ولكن يبدو أن السبب الجلي أن لويز التاسع ، كان يروم القضاء على أزهر مدينة اسلامية في تلك الفترة ، صارت عاصمة لخلافة جديدة هي الخلافة الحفصية ، وتحولت الانظار اليها بعد سقوط بغداد في أيدي التتر سنة ٦٥٦ هـ وانقراض دولة بني العباس بقتل الخليفة العباسي ، وتولية أبي عبدالله محمد بن أبي زكرياء الحفصي الحكم بتونس وعمره لا يتجاوز ٢٢ سنة وتسميته بأمر المؤمنين إثر قدوم

البيعة بذلك من مكة وتلقبه بالمستنصر بالله عندما وصلته بيعات الشام والأندلس^(١١). كان لويز التاسع يرمي الى مهاجمة المسلمين في مركز قوتهم وقلب عظمتهم ، مثلما فعل في غزوته السابقة^(١٢). كانت تونس قد وصلت الى أوجها الحضاري ، فازدهر العمران بها وحفل بالفصور والمدارس والجوامع ونضدت البساتين حول العاصمة تغني بها النواخير (وتألفت) الحياة الفكرية والأدبية خاصة بمن أقام فيها من الشعراء والأدباء الأعلام الأندلسيين والمغاربة ، منهم محمد بن الأبار وأبو بكر بن سيد الناس وأحمد بن الغماز وعلي بن عصفور ومحمد بن أبي الحسين وعلي بن سعيد الأندلسي وأبو جعفر الليلي وأبو المطرف بن عميرة وأبو الحجاج البياسي^(١٣).

وكان المستنصر نفسه شخصية لامعة ، أحاط نفسه بالعلماء والأدباء والشعراء من أفارقة وأندلسيين ومغاربة ، وكان يقرض الشعر ، وقد وصف ابن خلدون عهده والثائق الحضاري فيه وما أنشأ من رياض وقصور في فصل أدبي شيق في تاريخه^(١٤) ، قال : « وكثر ترف ساكنها وتأنق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والأبنية فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها الى أن بلغت غايتها » . ويختتم فصله عن المستنصر بقوله : « كان شأن هذا المستنصر في ملوك آل حفص عظيماً وشهرته طائفة الذكر بما انفسح أمد سلطانه ومدت اليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلح وكاتب بليغ عالم تحرير وملك أورع وشجاع أبيض متفئفئ ظل ملكة . . »^(١٥)

وكان للمستنصر علاقات مع ملوك الفرنج لا سيما لويز التاسع نفسه ، وقد وصف برنشفينغ في أطروحته مدى تطور العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين تونس والشرقا وأراقون وبيزا وصقلية^(١٦). ويلاحظ برنشفينغ أن المستنصر قد أرسل رسلا الى باريس في أكتوبر ١٢٦٩ لمعالجة بعض المسائل المالية كانت بين بعض التونسيين وبين تجار افرنج^(١٧). ويذهب ابن خلدون الى أن من أسباب هذه الحملة الصليبية على تونس أن بعض التجار الافرنج ادعوا « أنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون اليه فغضبوا لذلك واشتكوا الى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو

تونس (. . . .) فارسل الى ملوك اوربا يستنفرهم الى غزوها »^(١٨).

الا أن هذا السبب يبدو مستبعدا لعدم ذكره في الاتفاقية التي تمت بين المستنصر والصليبيين .

وقد لاحظ أحد المؤرخين الفرنسيين للحروب الصليبية ، أن لويز التاسع قد ارتكب خطأ تاريخيا فادحا بهجومه على تونس ومحاربه ملكا لامعا نابغا ومفتحا^(١٩) ، كانت تصله به علاقات طيبة ولا سيما أنه كان يقيم بتونس كثير من الفرنج وعدد من الأمراء المسيحيين^(٢٠) ، وكانت تونس مركزا تجاريا مهما مفتوحا لكل الأديان في حوض البحر المتوسط^(٢١) خاصة وأنها مدينة جد محصنة ومنيعه^(٢٢).

ولعل تأثير شخصيتين في نفس لويز التاسع كان عاملاً قوياً وحاسماً في اتخاذه قرار تحويل الوجهة من المشرق الى تونس . أما الشخصية الأولى فهي الراهب راييمون مازتين أستاذ العربية والعبرية في الدير الدومينيكي بتونس ، وكان مرتبطا بعلاقة مع المستنصر ، ويبدو أنه هو الذي أوحى لقائد الحملة الصليبية على تونس أن السلطان الحفصي مستعد للتنصر^(٢٣). ويرى المؤرخ بريبي أن سبب هذه الحملة على تونس كان نتيجة لنشاط المبشرين بعد أن أقيم بالعاصمة الحفصية دير للدومينيكيين وانتصب فيه هذا الراهب مدرساً وواعظاً^(٢٤). فذهب في ذهن لويز التاسع أن المستنصر ينتظر الفرصة للإعلان عن دينه الجديد وسيكون هو كفيلاً^(٢٥) ! الا أن قائد الحملة قد ارتطمت نفسه على صخرة الحقيقة على شاطئ قرطاج وأدرك أنه ذهب ضحية لأوهامه وخيالاته حين رأى بأم عينيه مدى استفار المستنصر للجيش وتنظيمه المقاومة الرسمية والشعبية ونضاله المستميت ضد الغزاة .

كما أن سيرة المستنصر بالله لا تدل على أي تهاون بالدين وهو الخليفة الجديد للمسلمين وكان آملاً للموحدين ببلاد المغرب يتغنى الشعراء من مادحيه بأنه حامي ساحة الاسلام وناصره على الأعداء^(٢٦). فلعل هذا السبب اختلقه الملك لويز التاسع نفسه حيلة منه لاقتناع مشركيه للتوجه نحو تونس ربوا بنفسه من النزول ثانية بمصر بعد انهزامه هناك وأسرهم ووضع القيود في يديه ورجليه ، وما زالت الذكريات الأليمة تحز في نفسه ولا ينسى ما

قاساه من فظاظة الطواشي صبيح في دار القاضي فخر الدين بن لقمان حتى أنه قال للأمير حسام الدين بن أبي علي نائب السلطنة : « سألتك بدينك إلا ما قتلتموني ورحمتموني من حس هذا الخادم ونظره فانه أصعب علي من كل ما أنا فيه »^(٣٨) .

وقد هدده أمير مصر حينها علم أن الحملة الثامنة مستقصدة مصر فأرسل له رسولا ينشد بين يديه قصيدة للصاحب بن مطروح يحيي بن عيسى جمال الدين (٥٩٣ - ٦٤٩ هـ - ١١٩٦ - ١٢٥١ م)^(٣٩) يحذره من الرجوع الى مصر ويلوح له أن دار ابن لقمان على حالها وأن صبيح سيحرسه من جديد . ولا ندري في أي مكان استقبل لويز التاسع السفير المصري ، هل في قاقلياري أم في تونس^(٤٠) . إلا أن هذه القصيدة قد راجت في تونس واتخذها المجاهدون التونسيون نشيدهم الحماسي مع بيتين للشاعر التونسي أحمد بن اسماعيل الزيات علق بها على قصيدة ابن مطروح^(٤١) . والقصيدة هي :

قل للفرنسيس اذا جثته

مقال نصح من قؤول فصيح

آجرك الله على ماجرى

من قتل عباد يسوع المسيح

أتيت مصرا نبتغي ملكها

تحسب ان الرمز بالطبل ربح

فساقك احي الى ادهم

ضاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك اودعتهم

بسوء تدبيرك بطن الضريح

سبعون الفا لا يرى منهم

الا قتيل أو أسير جريح

الهمك الله الى مثلها

لعل عيسى منكم يستريح

ان يكن البابا بذا راضيا

فرب غش قد أتى من نصيح

فاتخذوه كاهناً انه

انصح من شق لكم أو سطيح

وقل لهم ان أزمعوا عودة

لأخذ ثأر أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالها

والقيد باق والطواشي صبيح

أما (بيتا) الشاعر التونسي فهما :

يافرنسيس هذه أخت مثر

فتأهب لما اليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبراً

وطواشيك منكر ونكير^(٤٢)

وعمل صاحب « المؤنس » الى نفس الرأي ، وهو أن

لويز التاسع قد « ذلت نفسه على العودة الى مصر وأراد أن

يأخذ ثأره من تونس فدمره الله تعالى »^(٤٣) . ناهيك أن

السلطان المملوكي الظاهر بيبرس حينها بلغه خبر غزو تونس

كتب الى المستنصر « بوصول العساكر اليه نجدة له على

الفرنج وكتب الى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير الى نجدته

وأمرهم بحفر الآبار في الطرقات برسم العساكر وشرع في

تجريد العساكر »^(٤٤) إلا أن موت لويز التاسع ورحيل

الصليبيين عن قرطاج حالاً دون وصول النجدة المصرية الى

تونس .

أما الشخصية الثانية التي أثرت في اتخاذ قرار تحويل

الوجهة الى تونس ، فهو شارل دانجو ملك صقلية منذ سنة

١٢٦٨ وأخولويز التاسع ، فقد شاهد هو نفسه الأسر بمصر

مع أخيه وأراد أن ينتقم من المستنصر الذي لم يعترف به

واحتمى بأعدائه وتدخل في شؤون صقلية الداخلية اذ

استقبل منذ سنة ١٢٦٠ أميرين مسيحيين هما هنري

وفريدريك دي قشتالية وساعدهما على تنظيم غزوة ضد صقلية

في أوائل اوت ١٢٦٧^(٤٥) ، وكادا ينتصران ، لولا أن تراجع

الأمر أخيراً لفائدة شارل دانجو ، فأسرع هذا بطلب اداء

سنوي كان يدفعه قديماً والد المستنصر أبو زكرياء الحفصي

الحاكم صقلية فريدريك الثاني وتخلي المستنصر عن دفعه حينما ولي شارل دانجو^(١) . وهكذا اتصل بأخيه لويز التاسع وحرّضه على الهجوم على تونس كي تدخل في حوزته ، ووعدّه بأن يلتحق به بقرطاج في أسطول جرار . فيكون لشارل دانجو دور كبير في التأثير على أخيه لتحويل الأشرعة نحو تونس^(٢)

الصلبيون بقرطاج :

أ) استعداد المستنصر :

بلغ المستنصر بالله خبر الحملة الصليبية المتوجهة نحو تونس فأعد العدة للمواجهة الخامسة ، ولم تكن هذه غزوته الأولى بعد ان انتصب في الخلافة ، فقد شن حروبا عديدة ولاقى ثورات كثيرة تغلب عليها ابتداء من ثورة عمه عليه سنة ٦٤٨ ، ثم أخيه سنة ٦٥١ ، الى ثورات قبائل عديدة عليه خاصة قبيلة رياح التي كان انتصاره عليها حدثاً كبيراً هنأته به الشعراء^(٣) وحينما تأدى اليه خبر الهجوم الصليبي المزمع بادر بتحصين عاصمته باصلاح الأسوار^(٤) ونادى بالاستعداد للعدو واستنفر الناس للجهاد كاتباً لهم قوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »^(٥) ، فاستجاب الناس حتى قال بعض المؤرخين « انه اجتمع في تلك الحرب من الخلق ما لم يجتمع في حرب منذ خلق الله سبحانه آدم عليه السلام »^(٦) .

وعقد المستنصر مجلس الشورى ، وهو يتكون من وجهاء الأندلسيين المهاجرين الى تونس والموحدين أصيلي المغرب الأقصى ، وعرض عليهم أن يدع الصليبيين ينزلون الى البر وهناك تتم محاربتهم ومحاصرتهم وتضييق الخناق عليهم حتى ينهزموا أو يصدّهم عن النزول بقرطاج حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد ويقلعون . وفي هذه الحال يخشى أن يولوا وجهتهم نحو إحدى المدن الساحلية فيملكوها ويستبيحوها ويعسر ردهم (عنها)^(٧) وقد استقر الرأي أن يتركوهم

ينزلون فيطوقهم المسلمون من جميع النواحي . وقد حاول الخليفة الحفصي المهادنة لكن لويز التاسع امتنع « وغلظ للرسول وعرفه أنه متوجه اليه »^(٨) . ويعلمنا ابن خلدون أن المستنصر أوفد رسله الى لويز التاسع « لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه وحملوا ثمانين ألفا من الذهب لاتمام شروطهم فيما زعموا فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه الى أرضهم ، فلما طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه »^(٩) . ولم يكن هذا الموقف من المستنصر غريبا اذ جنح في الأول الى عرض المسألة لكنه حين جوبه بالرفض لم يجد بدا من المواجهة فبدأ بتنظيم جيشه وتعبئته . وكان هذا الجيش محل عناية خاصة ، كان متنوعا ، وافر العدد ، عتيذا ، قويا « ضرورة أنه كان مكلفا بالسهر على أمن الأمير ومنوطا بعهدته السهر على أمن البلاد »^(١٠) . ويتكون من قسمين : « جند ملكي وهو حرس خاص بالأمير ، يتركب من فرقة للفرسان عناصرها مسيحيون ، ومن فرقة للمشاة تنوعت عناصرها وتغيرت فكانت من السود من سكان العاصمة ومن مهاجرين أندلسيين ومن أتراك وجميعهم ماجورون ، وكانت لهم خطوة خاصة في البلاط ويرتدون زيا خاصا »^(١١) .

وقد ذكر ابن الشماخ هؤلاء الأتراك حينما أورد أن المستنصر أشار اليهم وكانوا بين يديه قائلاً عن لويز التاسع : « هو الذي أسره هؤلاء فأطلقوه »^(١٢) . وذلك « احتقارا لأمره فبلغ الفرنسيين مقالته فحقدوا عليه وحشد أهل ملته واستعان بملوكهم »^(١٣) كما أن المقرئ أشار في « السلوك لمعرفة أحوال الملوك » الى الأفرنج الذين كان يستخدمهم المستنصر وعابه الظاهر ببيرس باستعمالهم^(١٤) ، ويذكر ابن الشماخ أن المستنصر كان يلزم بابه « ألف فارس من الشجعان يقفون عند باب غدر الى ان رحل الصليبيون عن تونس »^(١٥) .

أما القسم الثاني من الجيش فهو الجند النظامي ،

ويتركب من مشاة وفرسان ، :قاداته من الحفصيين
الموحدين ، وعناصره من رجال القبائل ، يجندون بواسطة
قبائلهم مقابل اعفائها من بعض الضرائب أو بعنوان مساهمة
مجانبة في المحافظة على أمن البلاد أو مقابل أجور معينة أو
بعنوان ولائها للدولة ، ولم يكن عدده قارا ، بل تغير حسب
الظروف ، وكثيرا ما انخرط في سلوكه متطوعون عندما
يдахم البلاد خطر أجنبي ، وكثيرا ما وقعت الاستعانة بالبدو
الرحل عند الحاجة»^(١١)

وقد حلل الأستاذ برنشفينغ في الفصل التاسع من
أطروحاته ، نظام هذا الجيش وعناصره المختلفة ونقاط قوته
وضعفه ، وأنواع أسلحته ، وطرق التحصين وكيفية
قتاله^(١٢) ، ونص أن التونسيين كانوا لا يجهلون المجانيق^(١٣) ،
استعملوها خاصة في الهجوم ، واستخدمت عند حصار
المهدية سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م ، لاعتصام أحد
الثائرين ، بها ، « اذ كانت كل واحدة منها ترمي قذائف من
الحجارة والكور الحديدية فتسقط وسط المدينة »^(١٤) .
ولوحظ في الحملة الصليبية الثامنة استعمال المسلمين لألات
تقذف الرمال الرقيقة المحرقة في الوجوه فيقاسي منها الغزاة
الولايات الشديدة»^(١٥) .

ب) تنظيم المواجهة :

حينما استنفر المستنصر الناس ودعاهم الى الجهاد
اجتمع له منهم عدد عظيم ، ووافته الامداد من كل ناحية
خاصة من الأندلسيين المهاجرين الى تونس ، وقد تسنى لهم
أن يواصلوا جهادهم ، وكسان مكان تجمعهم رادس ،
الضاحية الجنوبية لتونس ، وعددهم زهاء أربعة آلاف
فارس وكان يقودهم محمد بن أبي الحسين الأندلسي رئيس
الدولة^(١٦) ، « وكان أحد رجالات الدنيا دهاء ورأيا وذكاء
ومعرفة » حسب تعبير ابن قنفذ^(١٧) .

وعقد المستنصر لسبعة من الموحدين على سائر الجند
من المرتزة والمتطوعة ، مقابل الجيوش السبعة الصليبية التي

يقودها سبعة من ملوك الفرنج حسب تصور المسلمين
لجيش العدو . وكانت هؤلاء الموحدين قيادة ثنائية يقوم بها
يحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر^(١٨) . ويفيدنا ابن خلدون
أن أبا هلال صاحب بجاية قد وصل الى تونس كما وصلت
الجموع من قبائل وسدويكش وولخاصة وهوارة وزناتة وبني
توجين»^(١٩) .

وقدم المتطوعون من داخل افريقية خاصة من
القيروان ونواحيها وضربوا خيامهم بأريانة ، وكانوا يهجمون
كل يوم منها على قرطاج ، يقودهم الصلحاء والفقهاء
والمرابطون»^(٢٠) .

ولنا نص ثمين ورد في « معالم الايمان في معرفة أهل
القيروان » لابن ناجي يرسم فيه صفحة من هذا الجهاد
المثير^(٢١) . جاء في هذا النص :

« لما نزل الافرنسي وشرون»^(٢٢)
'بتونس وذلك عام ٦٦٨ بجيوش الصليبيين
دمرهم الله ونحاض حال الناس واشتد الأمر على المسلمين
وفزع الناس من كل بلد توجه الشيخان المذكوران (أبو علي
سالم القديدي وأبو علي عمار المعروفي) في جمع كثير من
الناس فلما وصلوا الى قرب تونس نزلوا بأريانة وضربوا
خيامهم فكانوا يمشون منها كل يوم للجهاد الى ان انقضت
المقاتلة بين المسلمين والنصارى لصلح وقع بينهم وبين أمير
المؤمنين المستنصر بالله ثم حدث بالشيخ أبي علي عمار مرض
استرسال ببطنه فأقام الشيخ أبو علي سالم بسببه هناك أياما الى
أن مات فدفنه بها وقبره هناك معروف مشهور يزار ويترك
به » .

وكانت معنويات المقاتلين المسلمين جد مرتفعة ،
كانوا مؤمنين بالنصر والغلبة ، كانوا يرددون أبيات ابن
مطروح المصري وأحمد الزيات التونسي ، الا أن الجواسيس
كانوا ينشرون دعايات مغرضة في صفوفهم منها أن السلطان
يحدث نفسه بالانتقال الى قسنطينة»^(٢٣) أو الى القيروان»^(٢٤) .

ج (المسارك :

وصل الغزاة الصليبيون الى مياه قرطاج يوم ١٧ تموز ١٢٧٠ ، وحالما وصلوا ، أرسل لويز التاسع طلائعه في البر للاستكشاف ، فوجدوا المكان خاليا فأعلموا سلطانهم وأشاروا عليه بالنزول لكنه خشي خدعة حربية بالليل فجمع المجلس الحربي واستشار أعضائه في النزول ، واختلفت الآراء وأخيرا أجلوه الى صباح الغد حيث نزلوا بقرطاج ولم يجدوا أي مقاومة^(٣٧) . وقد انبهروا بسحر المكان ، أودية وغابات وكل ما تصبو اليه النفوس مما يتمتعها وبحقق رغباتها^(٣٨) ، ولمحوا قصرا فخما سرعان ما احتلوه . لقد أنزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنة ، وكانت مائلة الجدران ، اضطرم المعسكر بداخلها ووصلوا الى ما فصله الخراب من أسوارها بالواح الخشب ونضدوا شرفاتهم وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصنوا^(٣٩) . الا أنهم لم يجدوا ماء وكادوا يموتون عطشاً ، ولمحوا آبارا من بعيد حاولوا احتلال مواقعها لكن ردّ المهاجمون عنها وقتلوا^(٤٠) وأرسل الخليفة الحفصي الى لويز التاسع رسولا يطلب منه الرحيل والا فانه سيجر له جيشا يعد مائة ألف شخص^(٤١) ، لكن الصليبيين أصروا على الحرب ، وسرعان ما أدركوا أنه من العسير جدا عليهم احتلال تونس ، فهي مدينة جد محصنة ، يدافع عنها جيش عرمرم ، لذلك أحسوا بخيبة مرة وتحلوا عن نية الهجوم عليها واكتفوا بالدفاع عن موقعهم بقرطاج^(٤٢) ، وقد بدأ المسلمون يناوشونهم من كل مكان في مجموعات ، تعتمد طريقة الكر والفر وتنازل منهم كثيرا ، وكانت الهجومات عليهم لا تكف كل آن^(٤٣) . ولقي الصليبيون من أمرهم عنتا ، وشعروا بالوبال والندامة فبالإضافة الى القيظ الشديد الذي لم يتعودوا عليه ، كانوا يعانون من الرمال المحرقة التي يذروها التونسيون بآلات في وجوههم ، فتأخذها الرياح الساحلية الى الأنوف والأفواه ، فهي تدخل الأجسام عن طريق التنفس وتجفف الرئات كما أن انعدام

الماء الصالح للشرب وشرب المياه الأسنة والمتعفنة وأكل الأغذية الفاسدة جعلهم يحسون بأنهم مسجونون ، مطوفون من جميع الجهات^(٤٤) حتى انتشرت الحمى في صفوفهم وأصيب عدد كبير منهم بالاسهال وقضوا نحبهم ، من بينهم كونتات وأعيان عديدون منهم خاصة جان كونت دي نوفار المعروف بترستيان ابن لويز التاسع وكان أثيرا عنده ، وسرعان ما لحق به والده في ٢٥ أوت ١٢٧٠ في سن السادسة والخمسين بعد أن تولى الملك أربعاً وأربعين سنة^(٤٥) . وقد فرغ الصليبيون لموته . وخلفه عليهم ابنه فيليب الجسور (لوهاردي) .

وفي اليوم نفسه وبعد ساعات قليلة من موت لويز التاسع ، أطلت مراكب شارل دانجو عملة بالغزاة والأغذية . وكم كانت خيبة هذا الأمير عظيمة حينما رأى الوضع المتردي بقرطاج وشعر بالمأزق الذي وقع فيه . ولا سيما وأن أخبار المعارك لم تكن مشجعة ، وقد تسرب في جيش الصليبيين عيون المستنصر على أنهم يرغبون في التنصر ولقوا أحسن استقبال^(٤٦) ، وكان المسلمون يهجمون عليهم من جميع النواحي خاصة عبر البحيرة وهي موقع استراتيجي حاول شارل دانجو احتلاله بدون جدوى^(٤٧) . ويذكر ابن خلدون بعض الوقائع الحربية التي أصاب فيها المسلمون (ثغرة) في العدو فظفروا وغنموا حينما سلكوا طريقا في البحيرة^(٤٨) . ويذكر لقاء منتصف محرم من سنة ٦٦٩ بالمنتصف حيث تقابل الفريقان في العشاء ليلاً ، وتكبدا خسائر باهضة في الأرواح وقتل من (الصليبيين) زهاء خمسمائة^(٤٩) .

ويبدو أن المجاعة والعطش والوباء واليأس من الانتصار على هذه الجموع الغفيرة من المقاومين وقرب حلول فصل الشتاء ، عوامل دفعت الصليبيين الى طلب الصلح . وقد وقع هذا الطلب في نفس المستنصر الموقع الحسن اذ بدأ يضيق بالأمر بعد أربعة أشهر من القتال العنيف منذ حلوا بقرطاج في ١٧ تموز ١٢٧٠ . كما أن الوباء قد أخذ ينتشر في

صفوفهم لذلك رضي بالصلح^(٨٨) .

د (اتفاقية الصلح :

اشتملت اتفاقية الصلح على تسعة عشر بنداً ، نصت على ضمان الأمن للمسلمين من رعايا المستنصر في بلاد الافرنج وكذلك الأمن لرعايا الممضين من المسيحيين في بلاد افريقية .

والمضون من الجانبين هم فيليب الجسور وشارل دانجو وتيبو ملك نافار والمستنصر وأبو زيان محمد بن عبد القوي أمير بني توجين الذي انعقد على يديه الصلح والعلماء عبد الحميد بن أبي الدنيا الصدي الطرابلسي (٦٠٦ - ٦٨٤) قاضي الجماعة والفقير الشاعر^(٨٩) ، وعلي بن ابراهيم بن أبي عمر التميمي وهو كاتب بديوان الانشاء وأبو القاسم بن أبي بكر بن زيتون اليميني (٦٢٠ - ٦٩١) المدرس الشهير والعالم الكبير^(٩٠) .

كما أن الاتفاقية تضمن حرية التجارة بين الجانبين خاصة التردد والاقامة في بلادهما وعدم مساعدة الأعداء من الطرفين وطرد المهاجرين المعارضين وذلك لمدة خمس عشرة سنة بالإضافة الى تبادل الأسرى . ولئن كان هذا العقد يشجع تجار تونس على الاتجار في الشواطئ الأوربية فانه يحتوي على بنود أخرى غير مبررة وخاصة البند الثالث عشر والثامن عشر^(٩١) .

فالبند السابع يقضي بأن يكون رهبان النصارى وقسوسهم ، سكاناً في بلاد أمير المؤمنين وهو يعطيهم موضعاً يعمر فيه دياره وبيوت الصلاة ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورين (هكذا) يعظون ويصلون جهرًا في كنائسهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم

معودون في بلدهم » .

أما البند الثالث عشر فيقضي بأن يعطي المستنصر مائتي ألف أوقية ذهباً وعشرة آلاف أوقية من الفضة نصفها معجل والنصف الثاني مقسط في عامين .

والبند الثامن عشر أضيف أخيراً الى العقد ويقضي بأن يؤدي المستنصر لشارل دانجو أتاوة سنوية زيادة على أتاوة السنوات الخمس الماضية . وما زال المؤرخون التونسيون يتساءلون عن سبب قبول المستنصر لهذه الشروط علماً أنه كان في موقع قوي . وقد أغرم الرعايا ما أعطاه من مال للعدو ، فدفعته عن طواعية^(٩٢) وطيب نفس^(٩٣) .

وبعد توقيع الاتفاقية دخل الصليبيون الى تونس كما دخل المسلمون معسكرهم وباعوا معهم واشتروا^(٩٤) . وبعد يومين أفلح الصليبيون بأساطيلهم يوم ٢٥ تشرين الثاني ١٢٧٠ .

وفي رجوعهم الى صقلية أصابهم عاصف من الريح أغرق كثيراً من سفنهم وأهلك العديد منهم^(٩٥) .

وكان من نتائج هذه الحملة أن أمر السلطان الحفصي بتخريب قرطاج وتهديم سورها وما تبقى من بنيانها خشية من أن يعود الافرنج الى هذا المكان من جديد ويتحصنوا به^(٩٦) . وقد حرص المستنصر أن يدعم ملكه ، ولم تكن هذه الحملة عزمه على التفتح نحو الامارات الغربية فما لبثت العلاقات أن عادت بين افريقية وصقلية وازدهرت التجارة بين التونسيين والاوربيين^(٩٧) . وقد فشلت هذه الحملة في ضرب قلب الاسلام الذي كانت تمثله تونس انذاك واستمرت افريقية في ذلك العصر موطن أمن وسلام وسط بلاد الاسلام الممزقة المغلوبة على أمرها^(٩٨) .

الهوامش

- ٢٢ . De Bury, Histoire de Saint Louis, P. 126.
- ٢٣ . نفسه .
- ٢٤ . De Bury, Histoire de Saint Louis, P. 214.
- ٢٥ . Louis Brehier, Les Croisades, Paris 1928, P. 214.
- ٢٦ . De Bury, Histoire de Saint Louis, P. 126.
- ٢٧ . انظر خاصة ديوان ابن الأبار، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٥، وديوان حازم القرطاجي، تحقيق عثمان الككاك، بيروت ١٩٦٤، فهما يعرجان بمدائح المستنصر.
- ٢٨ . انظر فصل لويز التاسع أسير المنصورة للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، مجلة «العربي» العدد ٣٤٠، مارس ١٩٨٧، ص ٦٠.
- ٢٩ . شاعر مصري ولد بأسبوط وتوفي بالقاهرة خدام الملك الصالح أيوب، كان ناظرا على الخزانة بمصر ثم نقل إلى دمشق وعاد إلى مصر بعد وفاة الملك الصالح وله ديوان شعر، (الاعلام للزركلي: ج ٨، ص ١٦٢).
- ٣٠ . ابن خلدون: التاريخ: ج ٦، ص ٢٩١، ولعل اللغاة كان يتونس كما يفهم من هذا المصدر.
- ٣١ . الفصيحة في السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، ج ١، ص ٣٦٤، طبعة مصر، وفي تاريخ ابن خلدون باختلاف، ج ٦، ص ٢٩٢، وفي «الأدلة البينة»: ص ٦٦.
- ٣٢ . نفس المرجع إلا أن ابن خلدون لم يذكرها وذكرها صاحب «المؤنس»: ص ١٢١. يقول الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور في فصله المذكور أن دار ابن لقمان قائمة بالمنصورة بجوار جامع سيدي عبدالله الراقي وهي مشيدة باللبن وكان لويز التاسع مسجوناً بالطابق الأرضي.
- ٣٣ . ص ١٢٢.
- ٣٤ . السلوك ج ١، ص ٥٩٠.
- ٣٥ . R. Brunschwig, La Barberie Orientale, I. 1, P. 54.
- ٣٦ . نفسه.
- ٣٧ . عرف امبراطور صقلية السابق فريدريك الثاني من عائلة الهوهنشتوفن بحسن علاقاته بالمسلمين المقيمين بصقلية من بقايا عرب الفتح وتسامحه معهم وعينه للثقافة الإسلامية، وحينما توفي خُفّت مسلمي صقلية وجنوب إيطاليا اضطهادات ومعاملات سيئة. انظر: محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية: ص ٩٩.
- ٣٨ . الفارسية: ص ١١٧، ١٢٩ - ١٣٠.
- ٣٩ . Ch. Andre Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Paris, 1931, P. 422.
- ٤٠ . الأبي: اكمال اكمال المعلم: ج ٥، ص ٢٦٤، والآية عدد ٤١ من سورة النوبة.
- ٤١ . نفسه.
- ٤٢ . ابن خلدون التاريخ: ج ٦، ص ٢٩٢.
- ٤٣ . الأدلة البينة: ص ٦٦.
- ٤٤ . ابن خلدون: التاريخ: ج ٦، ص ٢٩١.
- ٤٥ . أحمد بن عامر: الدولة الحفصية، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٧٤، ص ٣٧.
- ٤٦ . نفسه: ص ٣٨ - ٣٩.
- ٤٧ . De Bury, Histoire de Saint Louis Roi de France, Tours, 1896.
- ٤٨ . الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية لابن قنفذ تقديم وتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٦٨، ص ١٣٢.
- ٤٩ . طبع بمصر في سبعة أجزاء سنة ١٣٢٨، انظر ج ٥، ص ٢٦٤.
- ٥٠ . ج ٦، ص ٢٩٠ - ٢٩٥، ط بولاق.
- ٥١ . تحقيق عثمان الككاك، مطبعة العرب، تونس ١٩٣٦، ص ٦٥ - ٦٨.
- ٥٢ . ص ١٣١ - ١٣٢.
- ٥٣ . ط. تونس. ١٣٥٠، ص ١٢١ - ١٢٢.
- ٥٤ . تونس ١٩٦٣، ص ١٦٢.
- ٥٥ . تونس ١٢٨٣، ص ٦٢ - ٦٣.
- ٥٦ . الدار التونسية للنشر. ص ١٣٠ - ١٣١.
- ٥٧ . Robert Brunschwig, La Barberie Orientale sous les Hafsides des origines a la fin de XVe siècle, 21., Paris, 1982.
- ٥٨ . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الكتب الشرقية، تونس ١٩٥٤، ص ٩٦ - ١٠٧.
- ٥٩ . دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٦، وقد نشر هذا الفصل سابقا في مجلة والحياة الثقافية، عدد ١٥ - ١٦، السنة ١٩٨١. وذيل هذا الفصل باتفاقية الصلح بين المستنصر والصليبيين ولم يعد نشرها في الكتاب.
- ٦٠ . De Bury, Histoire de Saint Louis, P. 123.
- ٦١ . ابن خلدون: تاريخ: ج ٦، ص ٢٩٢، يورد هذه الأخبار عن أبيه عن أبيه، واليعسوب: مورثيس الغوم وكبيرهم.
- ٦٢ . الفارسية: ص ١٣١.
- ٦٣ . الأدلة البينة: ص ٦٧.
- ٦٤ . R. Brunschwig, La Barberie Orientale sous les Hafsides, I. 1, P. 55.
- ٦٥ . التاريخ: ج ٦، ص ٢٩٣، وانظر: De Bury, Histoire de Saint Louis.
- ٦٦ . De Bury, Histoire de Saint Louis, P. 125.
- ٦٧ . R. Brunschwig, La Barberie Orientale, I. 1, P. 61.
- ٦٨ . تاريخ ابن خلدون: ج ٦، ص ٢٨٠ وما بعدها.
- ٦٩ . Rene Grousset, l'epopee des Croisades, Plon ed., 1939, P. 349.
- ٧٠ . انظر اطروحتنا عن الحياة الأدبية بتونس في العهد الحفصي (تحت الطبع)، وقد عرفنا هؤلاء وبغيرهم وبيننا دورهم في الحياة الأدبية بتونس أوائل للمعهد الحفصي.
- ٧١ . ج ٦، ص ٢٨١ - ٢٨٢.
- ٧٢ . نفسه: ص ٢٩٦.
- ٧٣ . R. Brunschwig, La Barberie Orientale, I. 1, P. 50 - 55.
- ٧٤ . نفسه: ص ٥٦.
- ٧٥ . تاريخ ابن خلدون: ج ٦، ص ٢٩١.
- ٧٦ . Rene Grousset, Histoire des Croisades et du Royaume franc de Jerusalem, Paris, 1936, I. 3, P. 651.
- ٧٧ . منهم أخو ملك اشبيلية الذي أكرمه المستنصر وبذل له الأموال. انظر: الفارسية: ص ١٢٣. وأميران صقلان انظر اسفله ملاحظة عدد ٤٥.

- ٨٢ . نفسه : ص ١٣٠ .
 ٨٣ . غلي جسمه في الخمر الممزوج بنساء ، وأخذ اللحم والأمعاء الى دير مونريال قرب مالرم بصقلية ، وأخذ القلب والعظام الى دير القديس دونيس بباريس (انظر : ص ١٣٥ من كتاب تاريخ القديس لويز) .
 ٨٤ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 129 .
 ٨٥ . نفسه : ص ١٣٦ .
 ٨٦ . ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٣ .
 ٨٧ . نفسه .
 ٨٨ . نفسه : ص ٢٩٤ .
 ٨٩ . عرفنا به في اطروحتنا .
 ٩١ . نشر نص الانفاية بالفرنسية عن العربية ، وكذلك بالعربية مرات كثيرة ، انظر ملاحظة عدد ١ ، ص ٦٢ من اطروحة الاستاذ برنشتينغ ، ج ١ ، (بالفرنسية) .
 رآخها في مجلة « الحياة » الثقافية ، عدد ١٥ - ١٦ ، السنة ١٩٨١ ، بمثابة الاستاذ محمد العروسي المطوي .
 ٩٢ . ابن خلدون : المصدر المذكور : ص ٢٩٤ .
 ٩٣ . الخلاصة النقية : ص ٦٣ .
 ٩٤ . الأدلة البينة : ص ٦٧ وتاريخ القديس لويز (بالفرنسية) : ص ١٣٩ .
 ٩٥ . ابن خلدون : المصدر المذكور . ص ٢٩٤ ، وتاريخ القديس لويز : ص ١٣٩ .
 ٩٦ . ابن خلدون : المصدر المذكور : ص ٢٩٤ .
 ٩٧ . محمد الهادي الشريفة تاريخ تونس : دار سراس للنشر ، تونس ١٩٨٠ ، ص ٥٤ .
 ٩٨ . نفسه : ص ٥٣ .

- ٥٧ . الأدلة البينة : ص ٦٥ .
 ٥٨ . نفسه : ص ٦٦ .
 ٥٩ . ج ١ ، ص ٦٠١ .
 ٦٠ . الأدلة البينة : ص ٦٨ .
 ٦١ . أحمد بن عامر : الدول الحفصية : ص ٣٩ .
 ٦٢ . ج ٢ ، ص ٧٥ - ٩٨ .
 ٦٣ . نفسه : ص ٨٥ .
 ٦٤ . الدولة الحفصية : ص ٣٨ .
 ٦٥ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 130 .
 ٦٦ . عرفنا به في الجزء الاول من اطروحتنا .
 ٦٧ . الفارسية : ص ١٣٢ - ١٣٣ .
 ٦٨ . ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٣ .
 ٦٩ . نفسه .
 ٧٠ . نفسه .
 ٧١ . ج ٤ ، ص ٢٢ ، نسخة مخطوطة بمكتبتنا . والكتاب مطبوع .
 ٧٢ . يعني شارل داتجو .
 ٧٣ . الفارسية : ص ١٣٢ .
 ٧٤ . ابن خلدون : التاريخ : ج ٦ ، ص ٢٩٤ .
 ٧٥ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 127 .
 ٧٦ . نفسه .
 ٧٧ . ابن خلدون نفس المصدر ، ص ٢٩٣ .
 ٧٨ . De Bury , Histoire de Saint Louis , P . 127 .
 ٧٩ . نفسه : ص ١٢٨ .
 ٨٠ . نفسه : ص ١٣٠ .
 ٨١ . نفسه : ص ١٣٠ .

* * *

صدر عن دار الشؤون الثقافية العامة



رسائل صلاح الدين الأيوبي

بعث بها الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله حول تحرير
القدس سنة ٥٨٣ هـ وما سبقه ذلك من انتصارات
« دراسة وتحقيق »

د. عبد الواحد الرضائي

كلية الآداب - جامعة الموصل

د. أحمد الحسني

كلية الآداب - جامعة الموصل

« القسم الاول »

تعتبر رسائل السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي / التي بعث بها الى خلفاء بني العباس وامراء المسلمين من جهة ، والى امراء الفرنج ممن كانوا يحتلون أجزاء من بلاد الشام وفلسطين من جهة اخرى ، ذات أهمية تاريخية كبيرة ، لأنها تعكس نظرة هذا القائد الكبير تجاه أحداث عصر ، كان له هو شخصياً دور كبير في صنعها وتوجيهها .

وليس من شك ان بناء جانب كبير من تصوراتنا عن هذه المرحلة ، يعتمد على مدى جدية الجهود التوثيقية المنصبة على الرسائل المشار اليها ، وبمعنى آخر ، فان توفر وثائق مدروسة دراسة علمية رصينة عن هذه المرحلة ، يعني تهيئة لبنات سليمة تمكن المؤرخين ، والمنظرين منهم بشكل خاص ، من ان يبنوا تصوراً تاريخياً سليماً ، كما ان غياب هذه الدراسات التوثيقية يعني ان تاريخنا يبني بلبنات غير سليمة ، وقد ينجم عنه - تبعاً لذلك - تصور مخطوء ، لذا فان ثمة ضرورة لوقف نقدية ، أمام الأعمال التوثيقية المنصبة على هذه الرسائل ، وهو ما تحاول هذه الدراسة ان تفعله . ان دراسة مجموع الأعمال التوثيقية الخاصة بالرسائل المشار اليها ، هو ما يتطلع اليه الباحثان إلا انها أمام مثل هذا الهدف ، وفي حدود ما يفيان عرضه قاما باختيار رسالتين اثنتين من رسائل صلاح الدين الأيوبي ليكونا النموذج الذي تنصب عليه الدراسة . وقد جاء اختيارهما هذا نظراً لأن الرسالتين وردتا في الاصول الأولية المعاصرة لصلاح الدين ، أو في اصول تالية اعتمدت اصولاً معاصرة ، ثم انها كانتا موضع اهتمام عدد من المحققين وهو ما سنشير اليه أدناه .

الاصول التي وردت فيها الرسالتان :

حرر الرسالة الاولى^(١) باسم صلاح الدين الأيوبي كاتبه عماد الدين الاصفهاني (ت ٥٩٧ هـ)^(٢) المعروف بالعماد الكاتب وهي موجهة الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يشره فيها بالانتصارات التي حققتها حروب التحرير في المرحلة التي مهدت لتحرير القدس ويشرح له انجازاته في تحرير طبرية ، وعكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، الفوطة ، السطور ، الشقيف وغيرها من القلاع اضافة الى حصن تبين ومضائق صور .

لم تصل اليها هذه الرسالة عبر الآثار التي تركها لنا العماد الاصفهاني ، اذ ان كتابه « الفتح القسي في الفتح القدسي » لم يتطرق الى الفترة السابقة لتحرير القدس ، في حين ان الرسالة تتعلق^(٣) بهذه الفترة ، كما ان الاجزاء الموجودة من كتابه الثاني - ونعني بها البرق الشامي - والتي ما تزال مخطوطة تحتفظ بها مكتبة المتحف البريطاني بانكلترا لم تتضمن نص الرسالة لأنه يقع ضمن الاجزاء المفقودة منه^(٤) .

اما فيما يخص الرسالة الثانية^(٥) التي حررها القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) ، والذي كان بمثابة مستشار او وزير بل ونائب عن صلاح الدين أحيانا^(٦) ، فقد تضمنت نقل البشري للخليفة بتحرير القدس والانتصار على الفرنج سنة ٥٨٣ هـ . وصلت اليها هذه الرسالة عبر خطيات عديدة للقاضي الفاضل مما تحتفظ به مكتبات عديدة كمكتبة الأزهر ودار الكتب المصرية وغيرها^(٧) ، كما وردت الرسالتان كلتاهما كلاً او جزءاً في عدد من المصادر القريبية نسبياً من عصر صلاح الدين أبرزها كتاب : الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة (ت ٦٦٥ هـ)^(٨) وكتاب مفرج الكروب لابن واصل (ت ٦٩٧ هـ)^(٩) ووفيات الأعيان لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)^(١٠) ومراة الزمان لسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ)^(١١) كما تضمنتها مصادر متأخرة ككتاب صبح الأعشى^(١٢) .

الأعمال التوثيقية للرسالتين :

اهتم عدد من الباحثين بتحقيق وتوثيق الرسالتين موضوعتي البحث او احدهما في اطار تحقيقهم للمخطوطات التي تضمنتها كالدكتور المرحوم جمال الدين الشيال في تحقيقه لكتاب مفرج الكروب ، ومحمد محيي الدين عبد الحميد في تحقيقه لكتاب وفيات الأعيان ثم الدكتور احسان عباس الذي قام بتحقيق هذا الكتاب تحقيقاً جديداً ومحمد عبدالرسول ابراهيم في تحقيقه لكتاب صبح الأعشى ، وعبدالستار أحمد فراج في تحقيقه لكتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي ، كما وردت الرسالتان ضمن النصوص التي احتواها كتاب الوثائق السياسية والادارية في جزئه الخاص بالحروب الصليبية والغزو المغولي للدكتور محمد ماهر حمادة^(١٣) معتمداً في ذلك على كتاب مفرج الكروب والروضتين . . . المشار اليهما آنفاً ، كما ان الدكتور أحمد

أحمد بدوي الذي توفرت له خطيات القاضي الفاضل قام بتحقيق الرسالة الثانية^(١) التي تناولها بالاهتمام كذلك الدكتور ناظم رشيد في تحقيقه لكتاب : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب للحنبلي .

نظرة نقدية :

ليس من شك ان أي جهد يبذل لنشر تراثنا العربي الاسلامي يعتبر خطوة تستحق التقدير الكبير وان ما قام بنشره وتحقيقه الباحثون المشار اليهم - وبينهم أساتذة عرفوا بمكانة علمية كبيرة - لا يشك بأهميته وفائدته للباحثين واذا كنا قد أخذنا أعمالهم - وبقدر تعلق الأمر بالرسالتين المشار اليهما - لتكونا موضع هذه الدراسة النقدية ، فليس المقصود بذلك التقليل من جهودهم ، بل القاء الضوء على مدى توفر الأسباب الموضوعية لتقديم أعمال توثيقية متكاملة وغير مجتزأة .

لتحقيق هذا الهدف قمنا بمقارنة النص الخاص بالرسالتين ، بين اصوله الاولى بعضها للبعض الآخر من جهة ، وبين هذه الاصول وبين المراجع الحديثة التي تولت تحقيقها من جهة اخرى ، وقد خلصت هذه المقارنة الى تقديم نص جديد للرسالتين لا ندعي انه يمثل أقرب صورة للشكل الذي كتبنا به من قبل محرريها ، ولكنه - في أقل تقدير - نص يستند الى اصوله الاولى ، ونعني بذلك كتاب الروضتين لأبي شامة ، ومفرج الكروب لابن واصل ، بالنسبة للرسالة التي حررها العماد الكاتب (الرسالة الاولى) ، أما الرسالة التي حررها القاضي الفاضل (الرسالة الثانية) ، فاننا لم نتمكن من الحصول على نصها المخطوط ضمن رسائل كاتبها المحفوظة في المكتبة الأزهرية بالقاهرة ، ومكتبة الفاتيكان ، والمكتبة الوطنية بباريس وغيرها ، وان كنا قد أخذنا في المقارنة من النص الذي أخذ عن الرسائل المحفوظة بمصر ، مما تضمنه كتاب الدكتور أحمد أحمد بدوي الموسوم : « القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج » ، اضافة الى اننا أخذنا بنظر الاعتبار في تثبيت النص مقارنة بالمصادر والمراجع الاخرى التي تعرضت له . مما أشرنا الى تفصيلاته في الهوامش (انظر القسم الثاني من هذه الدراسة) .

ولقد أفرزت هذه المقارنة ، ودراسة الأعمال التوثيقية السابقة التي انصبت على هاتين الرسالتين النتائج

التالية :

١ - يتضح من الجدول التالي ، وفي ضوء المقارنة بين مجموع الهوامش التوثيقية التي اعتبرناها ضرورية لسلامة النص المرفق بهذه الدراسة ، وبين هوامش الدراسات التي سبقتها ، ان نسبة كبيرة من الحالات التي لا تتفق النصوص فيها مع بعضها البعض الآخر ، لم يشر اليها في التحقيق الذي قام به محمد عبدالرسول في تحقيقه لكتاب صبح الأعشى ، ومحمد محيي الدين في تحقيقه لكتاب وفيات الأعيان ، والدكتور احسان عباس في تحقيقه للكتاب ذاته ، وعبدالستار أحمد فراج في تحقيقه لكتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة .

جدول يبين عدد الهوامش الخاصة بالرسالتين الأولى والثانية

اسم المحقق	عدد هوامش الرسالة الأولى	عدد هوامش الرسالة الثانية	الملاحظات	المصدر
محمد عبدالرسول	١	٧	-	صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٩٦ - ٥٠٤ ، ٥١٧ فما بعدها
محمد محيي الدين عبدالحميد	لم ترد الرسالة	٤	-	وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٧٩ - ١٨٦
عبدالستار أحمد فراج	٢٤	لم ترد الرسالة	بلغ عدد الاختلافات في النص الذي أورده الفلقشندي في صبح الأعشى والانافة (٦ حالات) أي ان عقق الانافة لم يشر الى (٢٩ حالة) منها	مآثر الانافة ج ٣ ص ٣٠١ - ٣٠٨
د. احسان عباس	لم ترد الرسالة	٢٣	-	وفيات الأعيان ج ٧ ص ١٨١ - ١٨٦
محمد ماهر حمادة	٦	٢	قدم أكثر من نص للرسالة الواحدة مما يساعد على المقارنة	وثائق الحروب الصليبية ج ٥ ص ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، رقم ٤٧ ، مكرر ٤٩ و ٥٠
د. أحمد أحمد بدوي	لم ترد الرسالة	لم يذكر أية هوامش تتعلق بصلب النص	اهتم بالجانب اللغوي فقدم (١٥٥) هامشا تتضمن	القاضي الفاضل / دراسة ونماذج ، مصر ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م ص ٨٨ - ١٠٣ شروحا لغوية
الحسو/الرمضان	٩٧	١٦٣	-	انظر القسم الثاني من هذه الدراسة

٢ - رغم ان الدكتور أحمد أحمد بدوي ، هو من الرواد الذين اهتموا بدراسة القاضي الفاضل ، وتحقيق ونشر أدبياته ، ومع توفر الخطيات الخاصة به بين يديه كما يفهم من قائمة مصادره التي رجع اليها في كتابه الموسوم : القاضي الفاضل^(١) ، فانه لم يشأ ان يقدم لنا الرسالة الثانية التي ضمنها كتابه المشار اليه ؛ مقارنة بتلك الاصول الخطية ، بل اكتفى بالتأكيد على الجانب اللغوي ، في حين انه أشار الى (١٥٥) حالة اقتضت شرحا لغويا او تعقيبا موضحا ، ولم يشر الى حالة واحدة من حالات التباين بين هذا النص وغيره^(٢) .

٣ - أما الدكتور محمد ماهر حمادة الذي كان له فضل جمع عدد كبير من الوثائق في سلسلة (وثائق

الاسلام) ووضعتها في متناول أبدي الباحثين ، فقد أورد نص الرسالتين موضوعتي البحث في الجزء الخامس من السلسلة المشار اليها تحت عنوان « وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي . . . » ، بيد انه لم يقدم دراسة نقدية توثيقية للنص . ولعل كون الدكتور حمادة متخصصا في علم المكتبات ، وليس في علم تحقيق النصوص دفعه الى الاكتفاء بمجرد الاشارات غير الوافية كقوله في ما يخص الرسالة الاولى : « ذكر أبو شامة في كتاب الروضتين نصا يكاد يكون مطابقا لنصنا أعلاه »^(١) . او كقوله في ما يخص الرسالة الثانية : « ورد نص هذه الرسالة الشهيرة في عدد من المصادر ، فالقلقشندي نفسه يعيد نص هذه الرسالة مع شيء من الخلاف في صبح الأعشى ج ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٩ ، كما وان أبا شامة في كتاب الروضتين ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ . يأتي بنص مختصر بهذه الرسالة وكذلك يفعل ابن خلكان في وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٧٠ - ١٨٠ ، وابن واصل في مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٨ ، وياقوت في معجم الادباء ج ١٩ ص ٢٠ - ٢٢ »^(٢) ومهما حاولنا ان نبرر منهج الدكتور حمادة فان حقيقة ان المتخصصين في علم المكتبات ليسوا في الواقع إلا رجال توثيق وتحقيق يجعلنا نتوقع شيئا أكثر مما قدمه الدكتور حمادة ، وإلا فماذا يضيف أحدنا اذا هو قدم وثائق غير موثقة ؟

٤ - في تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، لكتاب مآثر الانافة في معالم الخلافة للقلقشندي الذي يتضمن توثيق الرسالة الاولى ، يلاحظ ان الرسالة رغم ورودها في كتاب آخر لهذا المؤلف وهو صبح الأعشى فان المحقق لم يقم بمقارنة النصين إلا في حدود ضيقة جدا ، حيث أشار الى (١٧) حالة من حالات التباين من مجموع (٤٦) حالة ، اي انه لم يأخذ بنظر الاعتبار أكثر من ٦٠٪ من مجموع حالات التباين^(٣) . كما انه لم يرجع في تحقيقه الى الاصول الاولى التي ورد فيها النص ، ونعني بذلك كتاب الروضتين وكتاب مفرج الكروب (أنفي الذكر) . ولعل من البديهي القول ان مثل هذا التجاهل للمصادر الأولية والاكتفاء بالنزول اليسير من الهوامش والتعقيبات على حساب غيرها ، مسألة مرفوضة في أي عمل توثيقي .

٥ - رغم ان الدكتور احسان عباس والدكتور ناظم رشيد في تحقيقهما لكتاب وفيات الاعيان وكتاب شفاء القلوب في مناقب بني أيوب رجعا الى الاصول الأولية والاصول التالية ، خلافا لما فعله غيرهم كعبدالستار أحمد فراج ، إلا ان الجميع يتفقون في عدم مقارنة نص الرسالتين او احدهما مع الأصل الأول لهما ، ونعني بذلك رسائل القاضي الفاضل ورسائل العماد الأصفهاني ، بيد ان عذرهم في هذا واضح لأن معظم هذه الرسائل ما يزال مخطوطا والحصول عليها ليس مسألة ميسرة مما اضطرهم في جهدهم التوثيقي هذا الى التحدد بالمصادر المطبوعة ، قدر تعلق الأمر بالرسالتين موضوعتي البحث .

ان الاضطرار الى عدم الأخذ بالاصول الاولى التي ما تزال مخطوطة ، مهما كانت مبرراته يضعنا أمام اشكالية كبيرة لا تنحصر بالوثائق الخاصة بعصر صلاح الدين الأيوبي التي تناولنا جانباً منها في هذه الدراسة بل تتعداها الى كل حالة مماثلة في ما يتعلق بترائنا العربي الاسلامي .

ان هذه الاشكالية في نظرنا ترجع الى الاسباب التالية :

١ - ان الجهود التوثيقية المنصبة على تراثنا العربي في اطاره العام تمثل جهودا فردية تعوزها كثير من الامكانيات ، وتحكمها ظروف خاصة ، وبالتالي فانها ترتفع او تنخفض في مستواها ، كلما كانت الظروف ملائمة او كانت على عكس ذلك ، كما ان اطراد هذه الجهود او تناقصها مسألة مرتبطة بمدى تشجيع نشر الأعمال التوثيقية والمردود الذي يوازي ما يرافقها من عمل مضمّن ومتعب .

٢ - غياب المنهج التوثيقي الموحد من جهة ، وغياب الموقف الواضح من التراث الذي يترتب في ضوئه تحديد الاولويات في ما يجب ان يحقق أولا انسجاما مع مناهجنا ، وفلسفتنا التربوية ونضال امتنا .

٣ - تركيز الجهود على تجميع الوثائق والمخطوطات - وهو عمل ضروري - دون ان يرافق ذلك حملة موازية لهذا النشاط في اتخاذ تلك الوسائل التي تؤمن وضع هذا الحشد الهائل من المخطوطات والوثائق بين أيدي الباحثين مع الأخذ بنظر الاعتبار ما توفره التقنيات المعاصرة .

٤ - قلة المؤسسات والكوادر التوثيقية :

وبعد ، ألا يبرز هذا الواقع الحاجة الماسة الى حملة تميّط اللثام عن وثائقنا بما يشبه حملة عو الامة ؟

أترانا من دون حملة كهذه سنتمكن من اعادة كتابة تاريخ امتنا العربية ؟

ليس من حق مؤرخينا ان يقف الى جانبهم جيل من المؤرخين الذين تنصب جهودهم على العناية بتحقيق ونشر تراث امتنا عما هو موزع في مكتبات العالم ، شرقه وغربه ؟

ليس من حق مؤرخينا حين يقومون بمهمة وطنية وقومية وهم يعيدون كتابة التاريخ ان تكون بين أيديهم أعمال توثيقية تتجاوز اطار التوثيق الكلاسيكي الى المفهوم الموسع للتوثيق ، فتقدم اليهم الوثيقة محفّة ومفهرسة بصيغ تختصر لهم الزمن ونعني بذلك :

التحليل البيبليوغرافي للوثيقة بأشكاله المختلفة . . .

اختزان هذه المعلومات على الآلة الحاسبة . .

استخدام وسائل التصوير الإلكتروني على الأقراص البصرية المتكثرة حديثا ، والتي يمكنها ان توفر للمؤرخ مئات المخطوطات وآلاف الصفحات الى جواره ، وفي مكتب بيته .

تلكم تساؤلات لم يغيب عن فكر القيادة جوهرها ، فهي في كل ما طرحته تلتقي مع ما دعا اليه السيد الرئيس القائد حين قال :

« يجب ان نهتم بالوثائق التاريخية في المكتبات المركزية ، وأماكن التوثيق الاخرى . علينا ان نجتمع في مكتباتنا وفي مراكز التوثيق شتى الوسائل والتفسيرات التي يحتاجها الباحثون ، وعموم الاختصاصيين بما في ذلك المتعلقة بتاريخنا العربي ، على ان يكون النمط المتداول من وثائق التاريخ على نطاق واسع شعبيا هو النمط الذي يعزز وجهة نظرنا لأغراض النضال والصمود ، وقدرة الامة في التقدم الى أمام » .

من هنا ، فاننا - مؤرخين ومؤرخين بحاجة الى وقفة وثائقية نقدية نتعرف فيها على النقطة التي نقف عندها فعلا ، والنقطة التي يفترض ان نتحرك نحوها ضرورية ، ومن عرف موقعه ، وعرف متجهه ، أمكنه ان يصير الى ما يريد .

الهوامش

- (١) انظر نص هذه الرسالة في القسم الثاني من هذه الدراسة .
- (٢) عن العماد الكاتب ، انظر ياقوت الحموي : معجم الادباء ، دار المستشرق ، بيروت ج ١٩ رقم ٤ ص ٢٨ - ١١ .
- (٣) انظر مقدمة الفتح القسي في الفتح القدسي ، مطبعة الموسوعات ، القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٥ .
- (٤) تتوفر نسخة مصورة لهذين الجزئين لدى الدكتور ناظم رشيد ، وقد تفضل مشكوراً بإعارتهما لنا لغرض هذه الدراسة .
- (٥) انظر نص هذه الرسالة في القسم الثاني من هذه الدراسة .
- (٦) انظر عنه د. احمد احمد بدوي ، القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٣٧٨ هـ / ١٩٧٩ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٥٧ - ٦١ .
- (٨) ابوشامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، طبعة دار الجليل بيروت ج ٢ ص ٨٩ ، ١٠٠ - ١٠١ .
- (٩) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ج ٢ ص ١٨٨ .
- (١٠) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ١ مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م ، ج ٦ ص ١٧٩ - ١٨٦ ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ، بيروت بلا تاريخ ، ج ٧ ص ١٨٠ - ١٨٦ .
- (١١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان : ط ١ : حيدر آباد الدكن ، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ ج ٨ (حوادث ٤٩٥ هـ - ٥٨٩ هـ) .
- (١٢) القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، النسخة المصورة عن الطبعة الأميرية ، بتصويبات وإستدراكات الشيخ محمد عبدالرسول عليها ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م ج ٦ ص ٤٩٦ - ٥٠٤ ، ٥١٧ فما بعدها .
- (١٣) د. محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي (٤٨٩ - ١٢٠٦ هـ / ١٠٩٦ - ١٤٠٤ م) ، دراسة ونصوص ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ ج ٥ ص ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، رقم ٤٧ مكرر ، ٤٩ ، ٥٠ .
- (١٤) د. أحمد أحمد بدوي ، المصدر السابق ص ٨٨ - ١٠٣ .
- (١٥) د. أحمد أحمد بدوي ، المصدر السابق ص ٨٨ - ١٠٣ .
- (١٦) المصدر نفسه : ص ١٦٩ فما بعدها .
- (١٧) د. محمد ماهر حمادة ، المصدر السابق ص ١٣٦ هامش (١) .
- (١٨) المصدر نفسه ص ١٤٤ هامش (١) .
- (١٩) قارن الهوامش التي أوردها في تحقيقه النص في الانافة (المصدر السابق ج ٥ ص ٣٠١ - ٣١٥) بما تضمنه تحقيقاً للنص مقارناً بصبح الأعشى ، الهوامش ٦ ، ٧ ، ١٣ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ / ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ - ٨٣ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ .

الرسالة الاولى

رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي
الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله
يبشره فيها بالفتوح التي سبقت
تحرير القدس^(١)
من انشاء العماد الأصفهاني

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾^(٢) .
(الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد)^(٣) ، وعلى^(٤) نُصْرَتِهِ لهذا^(٥) الدين الحنيف من
قبل ومن بعد) ، (وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما اشتمل على شِبْهِهَا كرام^(٦) الصُّحَّافِ ،
ولم يُجَادَلْ عن مثلها في المواقف في الأيام الامامية الناصرية زادها الله غُرُوراً وأوضاحاً ، ووالى
البشائر فيها^(٧) بالفتوح غُدُوراً ورواحاً ، ومكن سُيُوفَهَا في كل مأزق ، من كل مارق ،
ولا أخلاها من سيرة سَرِيَّةٍ تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدي أوليائها
لتحيمي بالحقيقة جمى الحقائق ، وأنجزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق ، وملئها هوادي
المغارب ومرامي المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتيح ،
وأطراف أسنتها لدماء الأعداء نوازح . والحمد لله الذي نصر سلطان الديوان العزيز وآيده ،
وأظفر جُندَه الغالب وأنجده ، وجلا به جلايب الظلماء وجدد جُدُدَه^(٨) ، وجعل من^(٩) بعد
عسر يسرا ، (وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهون الأمر)^(١٠) الذي ما كان الاسلام يستطيع
عليه صبرا وخوطب الدين بقوله : (ولقد مَنَّا عليك مرة اخرى)^(١١) فالاولى في عصر النبي
صلى الله عليه وسلم^(١٢) والصحابة (والاخرى هذه التي عَتَقَ فيها^(١٣) من رِقٍّ^(١٤) الكآبة . فهو^(١٥)
قد أصبح حراً^(١٦) فالزمان^(١٧) كهَيْئَتِهِ استدار^(١٨) ، والحق بيهجته^(١٩) قد استنار^(٢٠) ، والمروق
قد^(٢١) رَدَّ ما كان عنده من المتاع^(٢٢) المستعار ، وغُيِّلَ ثوبُ الفكر بما فجر الفجر من أنهار النهار ،
وشفى الله غليل صدوي المؤمنين برقراق ماء المَورِدات البوارد^(٢٣) . أنزل ملائكة لم تظهر
للعيون اللاحظة ، ولم تُخَفَّ عن القلوب الحافظة ، عزت بسبيل الاسلام بِمُسُومِهَا^(٢٤) ، وترادف
نصره بِمُرْدَفِهَا^(٢٥) ، وأخِذَتْ القرى وهي ظالمة فترى مُتَرَفِئَهَا كان

لم تَوَّ فيهما^(٣١) ، فكم أقدم بها خيزوم ، وركض فأتبعه سحاب عجاجٍ مركوم ، وضرب فإذا
ضربه كتاب جراح مرقوم ، وإلا فإن الحروب انما عقدت سجالا ، وانما جمعت رجالا ، وانما
دعت خفافاً وثقالا ، فإما سيوف تقاتل سيوفاً ، أو زحوف تقاتل زحواً ، فيكون حد الحديد بيد
مذكرا وبيد^(٣٢) مؤنثا ، ويكون^(٣٣) السيف في اليد الموحدة يغني بالضربة الموحدة وفي اليد المثلثة
لا يغني بالضرب مثلثا ، وذلك انه في فئتين التقتا ، وعدوتين لغير مودة اعتنقتا . وان هذه
النصرة ان زويت^(٣٤) عن ملائكة الله فما^(٣٥) جحدت كراماتهم ، وان زويت^(٣٦) عن البشر فقد
عرفت قبلها مقاماتهم ، فما كان سيف يتيقظ^(٣٧) من جفنه قبل ان ينبهه^(٣٨) الصريخ ، ولا كان
ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه^(٣٩) المصيح ، فكم قرية^(٤٠) كأنها هجرت الموت
وبها التاريخ ، وكم طعنة نحر لها هضاب الحديد ولها^(٤١) شماريخ^(٤٢) .

والحمد لله^(٤٣) الذي أعاد الاسلام جديداً ثوبه ، بعد ان كان^(٤٤) جديداً حبلة ، ميضاً
نصره ، مخضراً نصله ، متسعاً فضله ، مجتمعاً شمله . والخادم يشرح من نبأ^(٤٥) هذا الفتح
العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدور المؤمنين ، (ويمنح الحبور لكافة المسلمين ،
ويكرر^(٤٦) البشرى بما أنعم الله به - من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر^(٤٧) ربيع الآخر
الى يوم الخميس منسلخه^(٤٨) - وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوماً سخرها الله عليهم
(فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)^(٤٩) (وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على
عروشها خالية)^(٥٠) ، ورأيتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت^(٥١) من الفرنج باكية)^(٥٢) فيوم
الخميس الأول فتحت طبرية (وفاض ري النصر من بخيرتها ، وقضت^(٥٣) على جسرهما الفرنج
فقضت نحبها بخيرتها)^(٥٤) ، وفي^(٥٥) يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة^(٥٦) التي ما لهم
بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة . وفي يوم الخميس الثاني
سلخ الشهر^(٥٧) فتحت عكا بالأمان ، ورفعت^(٥٨) بها^(٥٩) أعلام الايمان ، وهي ام البلاد ، واخت
إرم ذات العماد ، (وقد^(٦٠) أصبحت كأن لم تغن بالمرق وكان لم^(٦١) لم تفتقر من الاسلام)^(٦٢) .
وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الفرنج الأسير جيشه^(٦٣) المكسور
مكسور ، والحديد . . . الذي كان في يدهم^(٦٤) يضرب وجه الاسلام ، قد صار حديداً
مسلياً يفرق^(٦٥) خطوتهم . . . عن الاقدام ، وأنصار الصليب^(٦٦) وكباره ، وكل من المعمودية
عمدته بالدير داره ، قد أحاطت به يد القبضة ، وأخذ رهناً^(٦٧) فلا تقبل^(٦٨) فيه القناطير المقنطرة
من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ، ونكصت من عكا ملتهم
على عقبيها وعمرت الى ان شهدت يوم الاسلام وهو خير يومئها ، (بل ليس من أيامهم - يوم

فيه خير وقد غسل عن بلاد الاسلام بدمائهم ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضرر^(٧١) ، وقد صارت البيع مساجد يعمرها^(٧٢) من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح^(٧٣) مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها لوقوف المسلمين^(٧٤) فيها وطالما ارتجت لمواقف^(٧٥) الفرنج ، (والبأس الأمامي الناصري قد أمضى فتكاته^(٧٦) على يد الخادم حتى^(٧٧) . . . في الكنائس ، وإن عز أول الاسلام بخط تاج فارس ، فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس)^(٧٨) .

فأما القتلى والأسرى^(٧٩) فانها تزيد على ثلاثين ألفا .

وأما فرسان الداوية^(٨٠) والاستتارية^(٨١) فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم^(٨٢) سيوف^(٨٣) نار الجحيم ورحل^(٨٤) الراحل منهم الى الشقا المقيم ، وقتل الابرنس^(٨٥) كافر الكفار (ونشيدة النار^(٨٦) من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم) ، (وافترت النصره عن ثغر عكا بحمد الله الذي يسر فتحها وتسلمتها الملة الاسلامية بالآمان وعرفت في هذه الصفقة ربحها . وأما طبرية فافترتها^(٨٧) يد الحرب فأنهت الحرب جرحها فالحمد لله حمدا لا تضرب عليه الحدود ، ولا تزكئ بأزكى منه العقود ، وكأنه بيت المقدس وقد دنا بالبيت الأقصى من أقصاه ، وبَلَغَ الله فيه الأمل الذي علم أن لن^(٨٨) يحصيه وأحاط بأجله وأقصاه ، لكل أجل كتاب ، وأجل العدو هذه الكتائب الجامعة ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدى لطاعته^(٨٩) جنات نعيمه الواسعة ، والله المشكور على ما وهب ، والمسؤول في إدامة ما استيقظ من جد^(٩٠) الاسلام وهب .

وقد توجه من جانبه الأمير رشيد الدين^(٩١) دام تأييده في إهداء هذه البشري نيابة عن الخادم ووصف ما يسره الله لأوليائه من العزائم^(٩٢) والبلاد والمعاقل التي فتحت هي^(٩٣) : (طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معلبا الفولة^(٩٤) ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة^(٩٥) والولد^(٩٦) المظفر تقي الدين (ظفره الله مضائق)^(٩٧) بصور وحصن تبين ، والأخ^(٩٨) العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من^(٩٩) العساكر فينزل^(١٠٠) في طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب الاسطول المنصور ويكثر عددها ، ويسير^(١٠١) بها الى ثغر^(١٠٢) عكا (المحروس ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعددها)^(١٠٣) (وما يتأخر النهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن ان يسفر فيه الهدى عن صبحه)^(١٠٤) .

هوامش وتعليقات الرسالة الاولى

١ - ورد في صبح الأعشى (ج ٦ ص ٥١٧) للقلقشندي : (في القدس) وهو خطأ صوبه القلقشندي نفسه في كتابه : الانافة (ج ٣ ص ٣٠١) كما ان هذا التصويب يتفق مع ما ورد في الروضتين

(ج ٢ ص ٨٩) لأبي شامة وما ورد في مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (ج ٢ ص ٢٠٤) لابن واصل ومع ما جاء في الرسالة نفسها حيث أنها تشير إلى أن الفتوح التي تطرق إليها النص هي تمهيد لفتح القدس .

٢ - سورة الأنبياء ، ١٠٥ .

٣ - مرآة الزمان : (والحمد لله على انجاز هذا الوعد) .

٤ - في صبح الأعشى الواو محذوفة وقد ثبتناها ، لأنها تنسجم مع السياق ولورودها في الروضتين ومفرج الكروب .

٥ - في مرآة الزمان والانافة : نصرة هذا .

٦ - في الانافة : (مثلها كرائم) بدلا من (شبهها كرائم) .

٧ - في الانافة : (اليها) بدلا من (فيها) .

٨ - العبارة بين القوسين من : (وعلى أن أجرى . . . وجدد جده) محذوفة في الروضتين وفي مفرج

الكروب .

٩ - اضافة من مفرج الكروب ومن مرآة الزمان .

١٠ - في مرآة الزمان فأحدث من بعد أمر أمرا وهون هذا الأمر .

١١ - سورة طه ٣٧ .

١٢ - عبارة (صلى الله عليه وسلم) محذوفة في الانافة وفي مفرج الكروب .

١٣ - في مفرج الكروب : (بها) عوضا عن (فيها) .

١٤ - في مفرج الكروب : (ذل) عوضا عن (رق) .

١٥ - في مفرج الكروب : (وهو) بدلا من (فهو) .

١٦ - ورد في الروضتين وفي مفرج الكروب بعد كلمة (حرا) عبارة : (ريان الكبد الحرا) .

١٧ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : (والزمان) .

١٨ - العبارة التي اعتمدناها بين القوسين هي عبارة مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، أما عبارة صبح

الأعشى فهي (والآخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة فهو قد أصبح حرا فالزمان كهيئته استدار) .

١٩ - في صبح الأعشى (بمهجته) وقد ثبتنا في النص عبارة الروضتين وعبارة مرآة الزمان والانافة

لانسجامها مع السياق .

٢٠ - عبارة : (والحق . . استنار) محذوفة في مفرج الكروب .

٢١ - كلمة : (وقد) محذوفة في الانافة .

٢٢ - وردت العبارة بين القوسين في مرآة الزمان : (رد ما عنده من الشعار) ويلاحظ أننا أضفنا إلى

مادة صبح الأعشى كلمة (المتاع) من الروضتين .

٢٣ - عبارة : (ماء المورديات البوارد) وردت في الانافة : (الموارد ذات البوارد) .

- ٢٤ - عبارة : (عزت سيما الاسلام بمسومها) وردت في الانافة : (عزت غزاة الاسلام بمسومها) .
- ٢٥ - في الانافة : (بمردفيها) بدلا (بمردفها) .
- ٢٦ - في الانافة : (لم تر) بدلا من (لم تؤو) .
- ٢٧ - في الانافة : (ويد) بدلا من (وييد) .
- ٢٨ - في الانافة : وردت عبارة (وهو ان) بدلا من (ويكون) .
- ٢٩ - في الانافة : وردت كلمة (زويت) بالراء .
- ٣٠ - كلمة : (فما) اضيفت من (الانافة) .
- ٣١ - في الانافة : وردت كلمة (زويت) بالراء .
- ٣٢ - في الانافة : وردت كلمة (يتقيظ) بدلا من (يتيقظ) .
- ٣٣ - في الانافة : وردت كلمة (ينه) بدلا من (ينهه) .
- ٣٤ - في الانافة : وردت كلمة (ويسمع) بدلا من (ويسمعه) .
- ٣٥ - في الانافة : وردت كلمة (خربة) بدلا من (قرية) .
- ٣٦ - في الانافة : وردت كلمة (وهي) بدلا من (ولها) .
- ٣٧ - العبارة بين القوسين من (وغسل ثوب الليل . . . ولها شماريخ) محذوفة في الروضتين وفي مفرج الكروب .

- ٣٨ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : (فالحمد) بدلا من (والحمد) .
- ٣٩ - عبارة (بعد ان كان) محذوفة في الروضتين وفي مفرج الكروب .
- ٤٠ - كلمة (نبأ) محذوفة في مرآة الزمان .
- ٤١ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : (ويورد) بدلا من (ويكرر) .
- ٤٢ - كلمة (شهر) مضافة من الانافة .
- ٤٣ - في مفرج الكروب وردت كلمة (سلخه) بدلا من (منسلخه) .
- ٤٤ - الحاقة الآية ٧ .

- ٤٥ - العبارة بين قوسين من (واذا رأيت . . . خالية) اضافة من الروضتين ومفرج الكروب مع الاشارة الى ان كلمة (خالية) وردت في المصدر الأخير (خاوية) ويفهم مما ذكره المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال (مفرج الكروب . . ج ٢ ص ٢٠٣ رقم ٢) انها وردت (خالية) في نسخة باريس من مفرج الكروب (رقم ١٧٠٢ ورقة ١٤ ب) .

- ٤٦ - في مفرج الكروب : (وكانت) بدلا من (كانت) .
- ٤٧ - العبارة بين القوسين المعقوفين وردت في مرآة الزمان بصيغة مختلفة
- ٤٨ - في الانافة : (وقعت) بدلا من (وقضت) .
- ٤٩ - في الانافة : (يقلقها وحيرتها) بدلا من : (فقضت نحبها بحيرتها) .

- ٥٠ - العبارة بين القوسين من (وفاض . . . فقضت نجها بحيرتها وفي) محذوفة في الروضتين وفي مفرج الكروب .
- ٥١ - في الروضتين ومفرج الكروب وردت عبارة : (نوزل الفرنج فكسروا) عوضا عن : (كسر الفرنج) .
- ٥٢ - في صبح الأعشى : (منسلخ الشهر) وقد ثبتنا في المتن عبارة مفرج الكروب لانسجامها مع السياق .
- ٥٣ - في الانافة : (واقيمت) بدلا من (ورفعت) .
- ٥٤ - في مفرج الكروب : (وبها) محذوفة .
- ٥٥ - كلمة : (قد) محذوفة في الانافة .
- ٥٦ - في الانافة : (كأن) بدلا من (وكأن) .
- ٥٧ - العبارة بين القوسين من (وقد . . . الاسلام) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب وقد ورد بعد العبارة المشار اليها في الانافة عبارة : (اذ بلغ المسلمون من أعدائهم المراد) .
- ٥٨ - في الروضتين ومفرج الكروب : (بجيشه) بدلا من (جيشه) .
- ٥٩ - كلمة : (يد) مضافة من الانافة ومفرج الكروب والروضتين .
- ٦٠ - في الروضتين وفي مفرج الكروب (يعوق) بدلا من (مفرق) .
- ٦١ - في الانافة (الصليبوت) بدلا من (الصليب) .
- ٦٢ - في الروضتين وفي مفرج الكروب وردت عبارة : (وغلق رهنه) بدلا من (وأخذ رهننا) .
- ٦٣ - في مفرج الكروب (يقبل) بدلا من (تقبل) .
- ٦٤ - العبارة بين القوسين من (بل ليس . . . ولا ضير) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .
- ٦٥ - عبارة (مساجد يعمرها) مضافة من الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها دون عبارة صبح الأعشى وهي : (مساجدهم بها) ودون عبارة الانافة وهي : (مساجد بها) لانسجامها مع السياق .
- ٦٦ - كلمة : (المذابح) واردة في الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها في المتن بدلا من كلمة (المناحر) الواردة في صبح الأعشى والانافة .
- ٦٧ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : (المسلم) بدلا من (المسلمين) .
- ٦٨ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : (موقف) بدلا من (المواقف) أما في الانافة فقد وردت : (الموقف) .
- ٦٩ - كلمة : (فتكاته) واردة في الانافة وقد اعتمدناها بدلا من (مشكاته) الواردة في صبح الأعشى لانسجامها مع السياق .
- ٧٠ - الكلمة وردت في الانافة وقد اعتمدناها بدلا من الكلمة الواردة في صبح

الأعشى لانسجامها مع السياق .

٧١ - العبارة بين القوسين من (والبأس الامامي . . . تاج فارس) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .

٧٢ - كلمة (الأسرى) وردت في الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها دون صيغة الجمع التي وردت في صبح الأعشى وهي : (الاسارى) .

٧٣ - كلمة (الداوية) وردت في الروضتين ومفرج الكروب وفي الانافة وقد اعتمدناها دون كلمة (الديوية) الواردة في صبح الأعشى .

٧٤ - كلمة (الاستبارية) وردت في الروضتين وفي مفرج الكروب وقد اعتمدناها دون كلمة (الاستبارية) الواردة في صبح الأعشى وفي الانافة لصحتها كما هو وارد في المصادر التاريخية المعاصرة وتعني هذه الكلمة تعريب لكلمة (Hospitelliers) وهم طائفة من الفرسان الدينين الذين كان لهم دور خلال الحروب الصليبية .

أما الداوية فهي منظمة دينية عسكرية كان هدفها حماية طريق الحجاج المسيحيين وتعرف باسم جمعية فرسان المعبد . انظر هامش الدكتور مصطفى زيادة رقم ٣ ص ٦٨ من كتاب السلوك للمقرئ ط ٢ منقحة القاهرة ١٩٥٦ .

٧٥ - في مفرج الكروب : (وقطعتهم) بدلا من (وقطع بهم) .

٧٦ - في الروضتين : (سوق) بدلا من (سيوف) .

٧٧ - كلمة (رحل) وردت في الروضتين وقد اعتمدناها دون كلمة (وُضِل) الواردة في صبح الأعشى وفي الانافة ويلاحظ ان العبارة في مفرج الكروب وردت بالشكل التالي : (ودخل الداخل منهم الى الشقاء المقيم) .

٧٨ - عبارة : (وقتل الأبرنس) وردت في مفرج الكروب وقد اعتمدناها على الصيغ الواردة في الاصول الاخرى وهي : صبح الأعشى (وقتك بافرنس) الانافة : (وقتل بابرنس) ، والروضتين : (وقتل البرنس) والمقصود بذلك : أمير الكرك ارناط (Reynald of chatillon) انظر عنه ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٢ هامش (٦) ، كذلك ص ١٩٤ - ١٩٥ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

٧٩ - كلمة (نشيده) وردت في الروضتين ومفرج الكروب وقد اعتمدناها على صيغة صبح الأعشى : (ومشيد) ويلاحظ ان العبارة (ومشيد . . . يد الكليم) محذوفة في الانافة . ويلاحظ كذلك انه قد اضيف العبارة التالية في الانافة : (وعجل بجسده الى السيف وبروحه الخبيثة الى النار) .

٨٠ - في الانافة : (فافتسرتها) بدلا من (فافترتها) .

٨١ - كلمة : (لن) اضافة من الانافة .

٨٢ - في الانافة (جُزِي) بدلا من (هدى) .

- ٨٣ - كلمة (حد) وردت في الانافة وقد اعتمدناها بدلا من (جد) الواردة في صبح الأعشى .
- ٨٤ - الأمير رشيد الدين : يعرف بالرشيد بن البوشنجي .
- ٨٥ - العبارة بين القوسين من (وافترت النصره . . . من العزائم) محذوفة في الروضتين كما ان هذه العبارة مضافا اليها كلمة (والبلاد) محذوفة كذلك في مفرج الكروب .
- ٨٦ - كلمة : (وهي) محذوفة في مفرج الكروب .
- ٨٧ - وردت في صبح الأعشى (القزلة) وقد اعتمدنا صيغة الروضتين ومفرج الكروب وقد رسمت فيهما : القولة وهي قلعة حصينة كان الداوية قد اتخذوها حصنا لهم . انظر عنها : العماد الأصفهاني الفتح القسي من الفتح القدسي ، مطبعة الموسوعات القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٢٧ .
- ٨٨ - في الروضتين ومفرج الكروب : (كبيره) بدلا من (كثيره) . وانظر عن هذه القلاع العماد الأصفهاني ص ٢٥ فما بعدها .
- ٨٩ - في الروضتين ومفرج الكروب : (الملك) بدلا من (الولد) .
- ٩٠ - عبارة (ظفره الله مضايق) محذوفة في صبح الأعشى ، والانافة وقد أضفناها الى المتن من الروضتين ومفرج الكروب .
- ٩١ - في مفرج الكروب (الملك العادل) بدلا من : (العادل) .
- ٩٢ - عبارة : (قد كوتب بالوصول بمن عنده من) وردت في صبح الأعشى مضطربة وقد وردت بالصيغة التالية (قد اركب بالوصول من عنده) في الانافة ، وهي غير سليمة ، كما يتضح من السياق ، لذا فقد ثبتنا في المتن عبارة الروضتين ومفرج الكروب لاتساقها مع ملاحظة وجود فارق شكلي في العبارة المعتمدة حيث وردت كلمة (فيمن) في مفرج الكروب بدلا من كلمة (بمن) في الروضتين .
- ٩٣ - في مفرج الكروب : (وينزل) بدلا من (فينزل) .
- ٩٤ - عبارة (ويكثر عددها ويسير بها) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب ويلاحظ في الانافة ورود العبارة بالصيغة التالية : (فيكثر عددها ويسيرها) .
- ٩٥ - كلمة (ثغر) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .
- ٩٦ - عبارة (المحروس ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعددها) غير واردة في الروضتين ومفرج الكروب .
- ٩٧ - عبارة : (وما يتأخر النهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال وقد آن ان يسفر فيه الهدى عن صبحه) ثبتت في المتن من الروضتين ومفرج الكروب ، لانسجامها مع السياق مقارنة بعبارة صبح الأعشى والانافة التي جاءت بالصيغة التالية (والنهوض الى القدس فهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال وقد آن ان يستقر فيه الهدى مشكور الاحسان ان شاء الله تعالى) ويلاحظ التقارب بين عبارة الروضتين وعبارة مفرج الكروب باستثناء ورود كلمة : (فهذا) بدلا من : (وهذا) وكلمة (الظلام) بدلا من : (الضلال) في المصدر الأخير .

الرسالة الثانية
رسالة الناصر صلاح الدين الأيوبي
الى الخليفة الناصر لدين الله العباسي
يشره فيها بتحرير القدس^(١)
من انشاء القاضي الفاضل

« (١) أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجُدُّ بكلِّ جاحد ، غنياً بالتوفيق^(٢) عن رأي كل رائد ، موقفَ المساعي على اقتناء مطلقات المحامد مستيقظَ البصر^(٣) والسيف في جَفْنِه راقد ، وارد الجود والسحابُ على الأرض غير وارد ، متعددُ مساعي الفضل وان كان لا يُلقِي إلا بشكر واحد (ماضي حكم القول بعزم لا يمضي إلا بنسل غوي وریشِ راشد)^(٤) ولا زالت غيوث فضله (الى الأولياء)^(٥) أنواء الى المربع^(٦) وأنواراً الى المساجد ، وبُعوث رعبه الى الأعداء خيلاً الى المراقب وخيلاً الى المراقد .

كتب^(٧) الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير بصبح هذه الخدمة^(٨) والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فانها بحر للأقلام فيه سُبْحٌ طويل ولطف لحمل الشكر^(٩) فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ويسرى للأسرار في اظهارها مسارب ، والله تعالى^(١٠) في اعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ، وقد^(١١) صارت امور الاسلام الى أحسن مصايرها ، واستتبت^(١٢) عقائد أهله على أبين^(١٣) بصائر^(١٤) وتقلص ظل رجاء^(١٥) المارق^(١٦) المبسوط وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع^(١٧) المشروط [وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه والفوز معروضا فقد بُذِلَت الأنفس في ثمنه ، وأمرُ أمر الحق وكان مستضعفاً وأهل رُبْعُهُ وكان قد قَدِ عِيف حين عفا^(١٨) (وجاء أمر الله وانوف المارقين راعمة)^(١٩) فأدبجت^(٢٠) السيوف الى الأجال^(٢١) وهي نائمة (وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوارُ أبانت ان الصباح عندها جِيَانُ الحين^(٢٢))^(٢٣) واستردَّ المسلمون تراثاً كان عنهم أبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي^(٢٤) طارقاً^(٢٥) واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت

على الصخرة قبلهم وشفيت بها وان كانت صخرة كما تشفى^(٣٧) بالماء غللهم^(٣٨) ، (ولما قدم الدين^(٣٩) عليها عرف منها سويداء قلبه وهناً كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من المارق بحربه)^(٤٠) وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه المنقبة^(٤١) العظمى ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى (ولا؟ يناجز من استمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه)^(٤٢) ، إلا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة الى سامعها مرفوعة^(٤٣) ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ، فكانت الألسنة ربما سلفته^(٤٤) فأنضج قلوبها بالاحتقار^(٤٥) ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر^(٤٦) ، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر^(٤٧) ، [وإلاً فإن القعود يلين^(٤٨) تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضها ، هذا الى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حق الله في العباد^(٤٩) ، ولا يوفى به واجب التقليد الذي تطوّقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، (وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم يسألون لا جرم انهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة)^(٥٠) ، فما غابوا لما حضر ، (ولا غضوا)^(٥١) لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم الى المضاجع ما اطمأنت^(٥٢) به جنوبها (والى الصفائح ما عبقت به جيوبها)^(٥٣) وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا ، والنهار به بصيرا ، والشرق يهتدي بأنواره ، بل ان أبدى نورا^(٥٤) من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فانه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف .

وكتاب الخادم هذا وقد أظفره الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا^(٥٥) وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا ، فكلت^(٥٦) حملاته وكانت (قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان عقوبة)^(٥٧) من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفا ، وغضت^(٥٨) عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة^(٥٩) ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت انوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى اوراعفة بالمنون ، وأضحت^(٦٠) الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد^(٦١) وكان عندهم الثالث ، فبيوت الملقين^(٦٢) مهذومة ، ونوهم مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجتمعة على تسليم البلاد^(٦٣) الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل

المطامع^(٢٦) الوافية ، لا يرون في ماء الحديد لهم عُصْرَة ، ولا في فناء الأفنية لهم نُصْرَة^(٢٧) ، وقد ضربت عليهم الذلة^(٢٨) والمسكنة وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة الى أيدي أصحاب الميمنة .

وقد^(٢٩) كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمدّه الله بمداركته ، وأنجده بملائكته فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يعيش معها^(٣٠) بمشيئة الله ففصر ، وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت^(٣١) به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح (وهم) عن أنصاف محيل^(٣٢) فانه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنبلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضا بثأر^(٣٣) فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب^(٣٤) بها حتى أعادت كالعراجين وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم الى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه [٣٥] وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا^(٣٦) ، (وكان المروق مفقودا ، والاسلام مولودا ، وجعل الله ضلوع المارقين لنار جهنم وقودا)^(٣٧) ، واسر الملك ويده اوثق وثائقه ، وأكد وصله^(٣٨) بالدين وعلائقه : وهو صليب الصليبوت ، وقائد أهل الجبروت^(٣٩) وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين (دهمائهم ييسط لهم باعه ويحرضهم)^(٤٠) . وكان مد كدين في هذه الدفعة وداعه : لا جرم انهم يتهافت على^(٤١) نارهم فراشهم ، وتجمع^(٤٢) في ظل ظلامه خشاشهم ، فيقاتلون^(٤٣) تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق ، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عقد^(٤٤) وأوثقه ويعدونه سوراً^(٤٥) لا تخفّر حوافر^(٤٦) الخيل خندقه .

(وفي هذا اليوم اسرت سرايهم ، وذهبت دهاتهم)^(٤٧) ولم يفلت منهم^(٤٨) معروف إلا القومص^(٤٩) وكان لعنه الله ملياً^(٥٠) يوم الظفر بالقتال ، ويوم الخذلان^(٥١) بالاحتيال ، فنجوا ولكن كيف ، وطار خوفاً من ان يلحقه منسر الرمح وجناح السيف ، ثم أخذه الله بعد أيام بيده وأهلكه لموعده فكان^(٥٢) لعدتهم فذاك ، وانتقل من ملك الموت الى مالك^(٥٣) .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر^(٥٤) عليها من الراية العباسية^(٥٥) السوداء صبغاً ، البيضاء صنعاً^(٥٦) ، الخافقة هي وقلوب أعدائها ، الغالبة^(٥٧) هي ، (وعزائم أوليائها)^(٥٨) (المستضاء^(٥٩) بأنوارها اذا فتح عينها البشر^(٦٠)) ، وأشارت بأنامل العذبات الى وجه النصر ، فافتتح بلد^(٦١) كذا وكذا وهذه^(٦٢) أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهي مزارع وفدن ، وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجزائر ، وجوامع ومناثر^(٦٣) وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد ان يحرزها ، ويتركها وراءه بعد ان ينتهزها ، ويحصد منها زيباً ويزرع

ايماناً ، ويحط من منائر جوامعها صلباناً^(١١) ويرفع أذاناً ، ويبدل المذابح منابر والكنائس
 مساجد ، ويبوئ بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب^(١٢) عن دين الله مقاعد ، ويقر عينه
 وعيون^(١٣) أهل الاسلام ان تعلق^(١٤) النصر منه ومن عسكره بجار ومجور ، وان ظفر^(١٥) بكل
 سور ما كان يخاف زلزاله ولا زياله^(١٦) الى يوم النفخ في الصور . ولما لم يبق إلا القدس وقد
 اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها^(١٧) كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من
 الله مانعتهم ، وان كنيستها الى الله شافعتهم ، فلما نازلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم
 التناد وعزائم قد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرضته ، وهان عليها مورد السيف وان تموت
 بغصته فزاول البلد العصا^(١٨) من جانب فإذا أودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة ، وسور قد
 انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار فعدل الى جهة اخرى
 كان للمطامع^(١٩) عليها مُعْرج ، وللخيل فيها متولج فنزل عليها ، وأحاط بها وقرب منها ،
 وضربت خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ،
 ونزلها ثم نازلها وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها^(٢٠) ضمة ارتقب بعدها
 الفتح ، وصدع أهلها^(٢١) فاذا هم لا يصبرون^(٢٢) على عبودية الجدد عن عتق الصفح^(٢٣)
 فراسلوه ببذل قطيعة الى مده ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم^(٢٤) في لحن
 القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم^(٢٥) المنجنقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيها
 وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب^(٢٦) ولا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها نصالها ،
 فصافحت السور بأكتافه^(٢٧) فإذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسرأ من المنجنق
 يخلد اخلاده الى الأرض ويعلو علوه الى السماء ، فشج مرادع^(٢٨) أبراجها ، واسمع صوت
 عجيجها ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة^(٢٩) ، والحرب من النظارة فأمكن^(٣٠)
 النقب ، ان يسفر للحرب النقب ، وان يعيد الحجر الى سيرته من التراب فتقدم الى الصخر
 فمضغ سرده ، بأنياب معوله ، وحل عقده ، بضربه الأخرق^(٣١) الدال على لطافة أنمله ،
 وأسمع الصخرة الشريفة حنينه^(٣٢) واستغاثته الى ان كادت ترق لمقبله^(٣٣) ، وتبرأ بعض
 الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبج الأرض ، وفُتِحَ في السور باب سد^(٣٤)
 من نجاتهم أبواباً وأخذ ينقب^(٣٥) في حجره قال عنده يا ليتني كنت تراباً ، فحينذ يشوا من
 أصحاب الدور كما يشوا من أصحاب القبور وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور .
 وفي الحال خرج طاغيتهم وزمام أمرهم ابن بارزان^(٣٦) سائلاً ان يوخذ البلد

بالسلم^(١١٧) لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، وألقى بيده الى التهلكة ، وعلاه ذل الملكة^(١١٨) بعد عز المملكة ، وطرح جبينه في التراب^(١١٩) وكان حيناً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح اليه طرف أمل طامح^(١٢٠) ، وقال : هاهنا اسارى مؤمنون^(١٢١) يتجاوزون الالوف وقد تعاقد الفرنج على انهم ان هجمت عليهم الدار ، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدىء بهم فعبجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يقتل^(١٢٢) خصم إلا بعد ان ينتصف ولم يسلم^(١٢٣) سيف من يد إلا بعد ان تنقطع^(١٢٤) او ينقصف ، وأشار^(١٢٥) الامراء بالأخذ بالميسور^(١٢٦) من البلد الماسور^(١٢٧) ، فانه إن أخذ^(١٢٨) حرباً فلا بد ان تقتحم^(١٢٩) الرجال الأنجاد ، (وتبذل أنفسها في آخر أمر قد نيل من أوله المراد)^(١٣٠) وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقر لفتكات ، واعتاق الحركات^(١٣١) ، فقبل منهم المبدول عن يد وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون)^(١٣٢) ، (وملك الاسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها المروءة الى ان صارت روضة جنان ، لا جرم ان الله أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم)^(١٣٣) ، (فانهم - خذلهم الله - حموها بالأسل والصفاح (وبنوها بالعمد والصفاح)^(١٣٤) واودعوا الكنائس بها بيوت الديوية^(١٣٥) والاستبارية^(١٣٦) منها كل غريبة من الرخام الذي يطرد ماؤه^(١٣٧) ، ولا يطرد^(١٣٨) لألأوه ، قد^(١٣٩) لطف الحديد في تجزيه ، وتفنن في توشيعه ، الا ان صار الحديد ؛ الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعد (للرياض^(١٤٠) لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق)^(١٤١) .

[وأوعز^(١٤٢) الخادم برد الأقصى الى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود واهيئت الخطبة يوم الجمعة رابع^(١٤٣) شهر شعبان فكادت السموات^(١٤٤) يتفطرن للسجوم لا للوجوم^(١٤٥) ، والكواكب ينثرن للطرب لا للرجوم^(١٤٦) ، ورفعت الى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها^(١٤٧) مسدودة وظهرت^(١٤٨) قبور الأنبياء وكانت بينهم^(١٤٩) مكسودة ، واهيئت الخمس وكان التليث يقعدها (وجهرت الألسن^(١٥٠) بالله أكبر وكان سحر الزيف يعقدها)^(١٥١) وجهر باسم أمير المؤمنين في قطبه الأقرب^(١٥٢) من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماه في حفافيه ، فلو طار به سروراً لطار بجناحيه]^(١٥٣) .

(وكتاب الخادم وهو مجد في استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ما ضاق بتمادي الحرب من الصدور ، فان قوى العساكر قد استنفدت مواردها وأيام الشتاء^(١٥٤) قد بردت مواردها ،

والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها ونهبت ذخائرها واكلت غلالها ، فهي بلاد ترفد ولا تسترفد ، وتجم ولا تستنفد ، وينفق عليها ولا ينفق منها وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقام المراتب لبرها^(١٠٠) ، ويدأب في عمارة أسوارها وممرات معقلها وكل مشقة فهي^(١٠١) بالاضافة الى نعمة الفتح محتملة ، وأطماع الفرنج^(١٠٢) فيما بعد ذلك مذاهبها غير مرجئة ولا معتزلة فلن يدعوا^(١٠٣) دعوة يرجو الخادم من الله انها لا تسمع ، ولن تزول^(١٠٤) أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع ، وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تشخص ، ولا بما سوى المشافهة تتلخص^(١٠٥) . فلذلك نفدنا^(١٠٦) لسانا شارحا ، ومبشرا صادحا ينشر الخبر^(١٠٧) على سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته الى ساقته^(١٠٨) .

هوامش وتعليقات الرسالة الثانية

- ١ - الفقرات التي تبدىء بمطلع الرسالة : (أدام الله الديوان العزيز (النبوي الناصري) وحتى عبارة : (واستببت عقائد أهله على بصائرها) لم يوردها صاحبها الروضتين ومفرج الكروب على سبيل الاختصار كما ان كلمة (الناصري) لم ترد في وفيات الأعيان ، وفي شفاء القلوب .
- ٢ - وردت العبارة في صبح الأعشى (ص ٤٩٦) : غني التوفيق ، وقد ذكر ان كلمة (غني) بيضت في الاصول الخاصة بصبح الأعشى (انظر هامش) رقم (١) وان هذه الكلمة اضيفت للنص اعتمادا على رسائل القاضي الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٤ / أدب وقد اعتمدنا في النص عبارة (غنيا بالتوفيق) استنادا الى ما جاء في نص الرسالة التي أوردها الدكتور أحمد بدوي في كتابه عن (القاضي الفاضل) لانساقها مع النص ، ولتوفر عدد من الخطيات لديه عن القاضي المشار اليه كما أشرنا الى ذلك في القسم الأول من الدراسة (انظر هامش ١٤) اضافة لورودها بهذه الصيغة في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب .
- ٣ - بدوي : (مستيقظ النصر والنصل) بدلا من (مستيقظ النصر والسيف) ويلاحظ اننا اعتمدنا كلمة (البصر) الواردة في نص شفاء القلوب من تحقيق الدكتور ناظم رشيد لانسجامها مع السياق خلافا لكلمة (النصر) الواردة في نص وفيات الأعيان لابن خلكان من تحقيق الدكتور احسان عباس وكذلك في النص الوارد في صبح الأعشى .
- ٤ - عبارة (ماضي حكم ... الى راشد) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .
- ٥ - عبارة (الى الأولياء) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل

المشار إليها .

- ٦ - في شفاء القلوب ووفيات الأعيان : (المراقع) .
- ٧ - بدوي : (وقد كتب) بدلا من (كتب) .
- ٨ - بدوي : (لصبح هذه العزمة) بدلا من : (يصبح هذه الخدمة) ، كما ورد في شفاء القلوب ووفيات الأعيان كلمة (عزمة) بدلا من (الخدمة) .
- ٩ - ثبتنا المتن عبارة المصدرين السابقين لانسجامها مع السياق قياسا على عبارة صبح الأعشى وهي (ولطف الحق للشكر) أما العبارة التي اعتمدناها فانها قريبة من النص الذي أورده الدكتور بدوي .
- ١٠ - كلمة (تعالى) اضافة من النص الذي أورده الدكتور بدوي ويلاحظ ان كلمة (مشارب) السابقة للفظ الجلالة وردت في شفاء القلوب (مشارب) .
- ١١ - بدوي : (ولقد) بدلا من (وقد) .
- ١٢ - في شفاء القلوب ، ووفيات الأعيان (وقد استتبت) .
- ١٣ - سقطت كلمة (أبين) من صبح الأعشى ، (وقد اضيفت الكلمة من النص الذي أورده الدكتور بدوي) .
- ١٤ - (الواو) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .
- ١٥ - كلمة (رجاء) محذوفة في الروضتين ومفرج الكروب .
- ١٦ - في مفرج الكروب . . . اختلاف يسير .
- ١٧ - اعتمدنا في المتن ما جاء في وفيات الأعيان والروضتين ومفرج الكروب وشفاء القلوب خلافا لعبارة صبح الأعشى وهي : فلما وقع الشرط حصل المشروط .
- ١٨ - العبارة بين القوسين (وكان الدين غريبا . . . وكان قد عيف حين عفا) محذوفة في الروضتين .
- ١٩ - عبارة (وجاء أمر الله . . .) مضافة من الروضتين ومن قبل ناشر صبح الأعشى كذلك استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار إليها .
- ٢٠ - في وفيات الأعيان والروضتين وشفاء القلوب : (وادلجت) بدلا من : (فادلجت) .
- ٢١ - في الروضتين : (والآجال) بدلا من : (الى الآجال وهي) .
- ٢٢ - العبارة بين القوسين (وصدق وعد الله . . . حيان الحين) محذوفة في الروضتين وقد وردت عبارة : عندها حيان الحين في وفيات الأعيان بصيغة مختلفة وهي : عندها حنان الجنين ، كما وردت في شفاء القلوب بصيغة : حنان الحين .
- ٢٣ - العبارة بين القوسين المعقوفين (وكان الدين غريبا . . . حيان الحين) لم يوردها صاحب مفرج الكروب على سبيل الاختصار .
- ٢٤ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : كلمة (النائم) بدلا من (النأي) ويتفق ما أورده

القلقشندي مع نص الدكتور بدوي .

٢٥ - في الروضتين (ثم) بدلا من (الواو) .

٢٦ - في الروضتين وفي مفرج الكروب (يشفى) بدلا من (تشفى) وقد اضيف في نص وفيات

الأعيان كلمة (قلوبهم) قبل عبارة : تشفى بالماء غللهم .

٢٧ - العبارة من : (واستقرت على الأعلى ... تشفى بالماء غللهم) . تتسق مع عبارة مفرج

الكروب إلا ان تسلسلها من الرسالة جاء فيه مختلفا (انظر ج ٢ ص ٢٣٩) ويبدو ان صاحب مفرج الكروب حين اختار مقاطع من الرسالتين لم يأخذ بنظر الاعتبار التسلسل المشار اليه في أكثر من حالة مما سنشير الى صفحاته عند وروده في هوامشنا تسهيلا لمهمة الباحث اذا ما أراد المقارنة .

٢٨ - وردت العبارة في شفاء القلوب (ولما قدم صلاح الدين عليها . .) ولا تتفق هذه العبارة مع

النصوص المتوفرة كافة . لذا فقد أثرنا الإشارة اليها هنا فحسب .

٢٩ - العبارة بين القوسين : (ولما قدم الدين . . . بحربه) غير واردة في الروضتين ومفرج

الكروب .

٣٠ - كلمة (المنقبة) مضافة من الروضتين ومفرج الكروب ومن نص الدكتور بدوي .

٣١ - ورد المقطع الأول من العبارة بين القوسين : (ولا ينجز من استمطله في حربه . . .) بصيغة

مختلفة في الروضتين وفي مفرج الكروب وهي (ولا يحارب من يستظلمه) أما بقية العبارة وهي : (ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه) فهي غير واردة في المصدرين المشار اليهما أما في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب فقد وردت : ولا يفاخر من يستمطله وقد وردت كلمة (يتمادى) بدلا من (تمادى) في المصدرين الأخيرين .

٣٢ - العبارة بين قوسين : (والدعوة الى سامعها مرفوعة) محذوفة في وفيات الأعيان والروضتين

ومفرج الكروب وفي شفاء القلوب .

٣٣ - في مفرج الكروب : (صلقتة) بدلا من (سلقته) .

٣٤ - العبارة بين القوسين : (فأنضج قلوبها في الاحتقار . وردت في الروضتين (فأصبح قلوبها

بالاكتفاء والاقتصار) .

٣٥ - في الروضتين ومفرج الكروب : (رائجة جاسر) بدلا من (رابحة تجاسر) كما وردت فيها كلمة

(تجاسر) بدلا من (جاسر) وكذلك في وفيات الأعيان وشفاء القلوب .

٣٦ - العبارة ما بين القوسين المعقوفين (وكان الخادم . . . غمرة غامر) مطابقة لما وردت في مفرج

الكروب باستثناء ما أشرنا اليه في الهوامش وانظر موضعها في النص الوارد في مفرج الكروب ج ٢

ص ٢٤٠ .

٣٧ - في شفاء القلوب : العقود تلين .

٣٨ - عبارة : (مهر القوائم فتقضها . . كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ولا يرعى به حق الله في العباد) وردت في شفاء القلوب : (مهز بالزاي - القوائم فيقضها . . كون القعود به فرض الجهاد) أما في وفيات الأعيان فوردت بصيغة (مهر القوائم . . كون القعود لا يقضي به فرض في الجهاد ولا يرعى به حقه في العباد) .

٣٩ - لم يرد لفظا الجلالة الواردان في العبارة بين القوسين ، وكذلك كلمة (الأطهر) في شفاء القلوب . كما ورد فيه وفي وفيات الأعيان عبارة (سرهم سريرهم) بدلا من (سرورهم وسريرهم) ويلاحظ ان كلمة (عنوان) وردت في صبح الأعشى : (علوان) وهو خطأ مطبعي ، كما ان كلمتي (سواد العلم) وردتا في وفيات الأعيان وشفاء القلوب بصيغة (سواد القلب) .

٤٠ - عبارة : (ولا غضوا) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .

٤١ - في وفيات الأعيان : (فاطمأت) بدلا من (مع اطمأنت) .

٤٢ - عبارة (والى الصفائح جيورها) مضافة من قبل ناشر صبح الأعشى استنادا الى رسائل القاضي الفاضل المشار اليها . وقد ورد في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (ما غنيت) بدلا من (ما عبت) .

٤٣ - في المصدرين الأخيرين : (ان بدا نور) بدلا من (ان أبدى نورا) .

٤٤ - في نص صبح الأعشى (شفا) والتصويب من : وفيات الأعيان .

٤٥ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (وكلت) بدلا من (فكلت) .

٤٦ - العبارة بين القوسين وردت في المصدرين الأخيرين (قدرا يضرب فيه العنان بالعنان وعقوبه) .

٤٧ - في شفاء القلوب : (وغصت) .

٤٨ - في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (دونها كثيفة) .

٤٩ - بدوي : (وأصبحت) بدلا من (وأضحت) .

٥٠ - في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب : (الفرد) بدلا من (المعبود) .

٥١ - وردت العبارة في المصدرين السابقين بصيغة لا تختلف عن هذا النص

٥٢ - في المصدرين السابقين : (القلاع) بدلا من (البلاد) .

٥٣ - في المصدرين السابقين وردت العبارة بالصيغة التالية (مدعنة لبذل القطائع) .

٥٤ - وردت العبارة في وفيات الأعيان بصيغة : (ولا في نار الأنفة لهم نصرة) أما في شفاء القلوب

فوردت بصيغة : (ولا في نار الأكفة لهم نصرة) .

٥٥ - بدوي : (عليه) بدلا من (عليهم) .

٥٦ - بدوي : كلمة (قد) محذوفة .

٥٧ - بدوي : كلمة (بعدها) بدلا من (معها) ويلاحظ ان العبارة قبلها وردت في وفيات الأعيان

وفي شفاء القلوب بالصيغة التالية : (لا ينتعش بعدها) بدلا من (لا يعيش معها) .

٥٨ - وفيات الأعيان : قتلت .

٥٩ - وردت العبارة وفي وفيات الأعيان بالصيغة التالية : (وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم) وقد أشار المحقق الدكتور احسان عباس ان هذه هي قراءة احدى النسخ التي اعتمدها في التحقيق وان العبارة وردت مضطربة في سائر النسخ الاخرى ، وقال : وربما قرئت : (وعن انصاف) وجاءت العبارة في شفاء القلوب بصيغة مختلفة ، وهي (وعن المصاف يخيل بأنه قتلهم) .

٦٠ - عبارة (ونالوه ايضا بثار) وماقبلها مضافة من قبل ناشر صبح الاعشى استنادا الى رسائل القاضي

الفاضل المشار اليها

٦١ - بدوي : (الصراب - بالصاد - بدلا من (الضراب) بالضاد .

٦٢ - الفقرات بين القوسين المعقوفين (وإلا فان القعود يلين تحت . . فافترسه) (هامش ٣٦ - ٦٢

من هذا النص) لم يوردها صاحب الروضتين ومفرج الكروب .

٦٣ - في الروضتين ، ولدى الدكتور بدوي : (وله شهودا) بدلا من (شهودا) .

٦٤ - العبارة بين القوسين

وردت بصيغة اخرى في الروضتين : (وكان الضلال صارخا ، وكان الاسلام مولودا) والعبارة هذه تطابق ما ورد في مفرج الكروب عدا كلمة (الصليب) فقد ورد بدلا عنها كلمة (الضلال) . كما انها تطابق ما ورد في نص الدكتور بدوي ، وجاءت عبارة وفيات الأعيان وشفاء القلوب مقاربة لها .

٦٥ - في مفرج الكروب : (وصلته) بدلا من (وصله) ويلاحظ ان كلمة (بالدين) بعدها وردت

في شفاء القلوب مسبوقة باللام لا بالباء . .

٦٦ - في مفرج الكروب ، وفي وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (الواو) محذوفة .

٦٧ - العبارة بين القوسين (دهمائهم يبسط لهم باعه ويخرضهم) وردت في الروضتين وفي مفرج

الكروب بالصيغة التالية (دهمائهم يخرضهم ، يبسط لهم باعه) كما ان كلمة (يخرضهم) سقطت في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب .

٦٨ - في صبح الاعشى : تنهافت على نارهم . والتصويب من الروضتين ومفرج الكروب ، والاناقة

ونص الدكتور بدوي . اما في شفاء القلوب فوردت : تنهافت . . .

٦٩ - في الروضتين وفي مفرج الكروب ونص الدكتور بدوي : (ويجتمع) بدلا من (وتجمع) وقد

وردت العبارة في وفيات الأعيان بصيغة : (ويجتمع على ضلاله حشاشهم) .

٧٠ - في الروضتين وفي مفرج الكروب وفي وفيات الأعيان : (ويقاثلون) بدلا من (فيقاتلون) .

٧١ - في وفيات الأعيان : (أشد عند) وفي شفاء القلوب (اشهد عقد) .

٧٢ - كلمة (لا) مضافة من مفرج الكروب .

- ٧٣ - كلمة (حوافر) ساقطة في مفرج الكروب .
- ٧٤ - العبارة بين القوسين : (وفي هذا اليوم . . . ذهبت دهاتهم) محذوفة في الروضتين . وفي وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (ودهيت) بدلا من (وذهبت) .
- ٧٥ - كلمة (منهم) مضافة من الروضتين ومن نص الدكتور بدوي ومن شفاء القلوب .
- ٧٦ - في الروضتين : (القمص) بدلا من (القومص) .
- ٧٧ - كلمة (مليا) وردت في صبح الأعشى ولدى الدكتور بدوي وقد اعتمدناها في المتن دون عبارة (جليا) الواردة في الروضتين اذ يبدو من رسم الكلمتين ان الثانية تصحيف للاولى .
- ٧٨ - في الروضتين : (ومليثا يوم) بدلا من : (ويوم) وواضح ان ما في الروضتين هو خطأ مطبعي فالمقصود (مليا) كما ان هذه الكلمة تتفق مع السياق ومع وفيات الأعيان وشفاء القلوب .
- ٧٩ - في الروضتين : (وكان) بدلا من (فكان) .
- ٨٠ - العبارة بين القوسين : (وفي هذا اليوم . . . الى مالك) غير واردة في مفرج الكروب .
- ٨١ - في الروضتين : (يسر) بدلا من (نشر) .
- ٨٢ - في الروضتين ومفرج الكروب كلمة (العباسية) محذوفة .
- ٨٣ - في الروضتين (لبيضاء صنعائها) بدلا من (البيضاء صنعا) .
- ٨٤ - في الروضتين ومفرج الكروب : (العالية) بدلا من (الغالبة) .
- ٨٥ - (وعزائم أولياتها) اضافة من الروضتين ، ومفرج الكروب كما أشار ناشر صبح الأعشى إلا ان العبارة هذه وردت في رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .
- ٨٦ - اعتبارا من مطلع العبارة التالية (المستضاء بأنوارها) وحتى عبارة (ورفع منار عجاجها) لم يرد له ذكر في الروضتين وفي مفرج الكروب وقد وضعنا ذلك بين قوسين .
- ٨٧ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (عينها النشر) بدلا من (عنها البشر) .
- ٨٨ - في وفيات الأعيان (بلاد) بدلا من (بلد) .
- ٨٩ - في شفاء القلوب (وهذه كلها) بدلا من (وهذه) .
- ٩٠ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (منابر) بدلا من (منائر) .
- ٩١ - في وفيات الأعيان وردت العبارة بصيغة (وتحط من جوامعها صلبا ويرفع أذانا) أما في شفاء القلوب فوردت بصيغة : (ويحط من منائر جوامعها) .
- ٩٢ - العبارة (وببوى . . . للذب عن دين الله) ، متقاربة مع نص عبارة وفيات الأعيان وشفاء القلوب عدا كلمة (للذب) حيث ورد فيهما : (للقتال) .
- ٩٣ - في المصدرين السابقين : (عينه وعينه) بدلا من (عينه وعيون) .
- ٩٤ - في المصدرين السابقين : (ان يعلق) بدلا من (ان تعلق) .

- ٩٥ - في المصدرين السابقين : (وان يظفر) بدلا من (وان ظفر) .
- ٩٦ - كلمة : (لا) مضافة من نص الدكتور بدوي .
- ٩٧ - في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب : بمنعته .
- ٩٨ - كلمة (العصا) مضافة من نص الدكتور بدوي .
- ٩٩ - في وفيات الأعيان : (كان للطالع) وفي شفاء القلوب (للمطالع) .
- ١٠٠ - في المصدرين السابقين (فضمها) بدلا من (وضمها) .
- ١٠١ - في المصدرين السابقين (جمعها) بدلا من (اهلها) .
- ١٠٢ - في شفاء القلوب : لا يبصرون .
- ١٠٣ - في وفيات الأعيان : (عنق) بدلا من (عتق) .
- ١٠٤ - في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب اضافة كلمة (الخادم) بعد كلمة (فعرفهم) .
- ١٠٥ - بدوي : (فقدم) بدلا من (وقدم) .
- ١٠٦ - في وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (ترمي) بدلا من (تضرب) ولم ترد عبارة (فلا تفارقها سهامها) في المصدر الأخير ، أما في وفيات الأعيان فوردت كلمة (ولا) بالفاء لا بالواو .
- ١٠٧ - وردت هذه الكلمة بالنون لا بالتاء في صبح الأعشى وقد اعتمدنا في المتن ما جاء في نص الدكتور بدوي . وقد سقطت في وفيات الأعيان وشفاء القلوب .
- ١٠٨ - بدوي (مرادغ) بدلا من (مرادع) .
- ١٠٩ - ذكر المرحوم الدكتور جمال الدين الشبال ان كلمة (السيارة) وردت بصيغة (الستارة) في الاصول التي اعتمدها في تحقيقه لمفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٩ هامش (١) .
- ١١٠ - في الروضتين وفي مفرج الكروب وفي وفيات الأعيان وفي شفاء القلوب (وامكن) بدلا من (فأمكن) .
- ١١١ - في الروضتين وفي مفرج الكروب : (الاحراق) بدلا من (الاخراق) .
- ١١٢ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (أنينه) بدلا من (حنينه) .
- ١١٣ - في المصدرين السابقين وفي الروضتين ومفرج الكروب : (لمقتله) بدلا من (لمقبله) .
- ١١٤ - بدوي : (من) بدلا من (في) كما وردت العبارة في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (وفتح في السرر بابا) بدلا من (وفتح في السور باب) .
- ١١٥ - في صبح الأعشى : (وأخذ نقب) والتصويب من وفيات الأعيان وشفاء القلوب .
- ١١٦ - هو باليان ابن بارزان ، وقد أرسل ابان تحرير القدس الى صلاح الدين الأيوبي يطلب الأمان لنفسه انظر التفاصيل في ابن واصل : (مفرج الكروب ج ٢ في ٤١٣ فما بعدها) .
- ١١٧ - في شفاء القلوب : بالسلام .

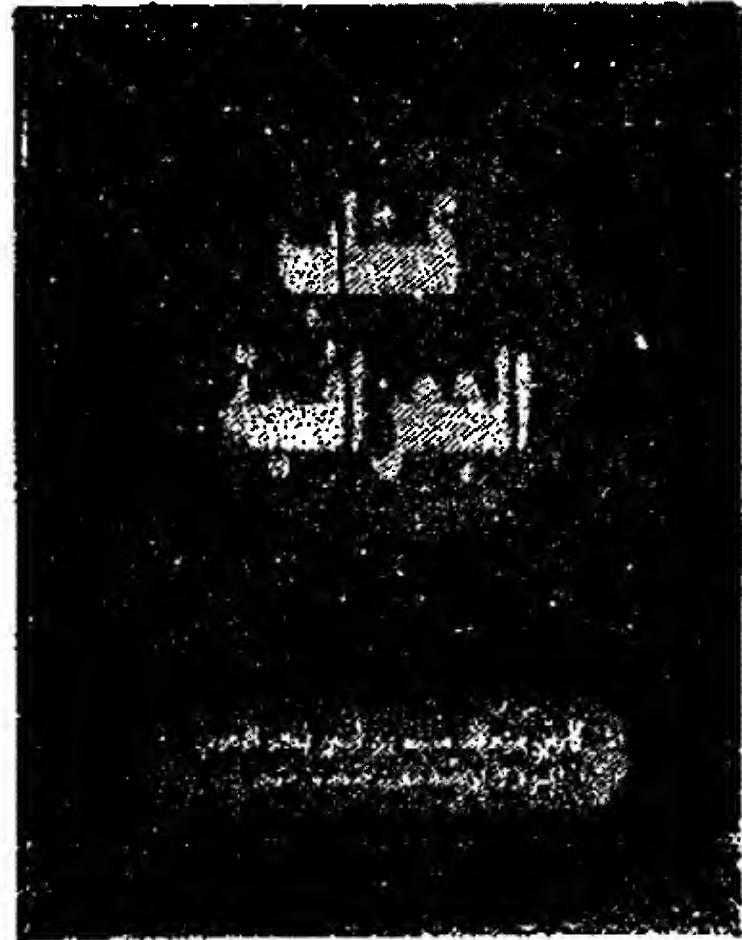
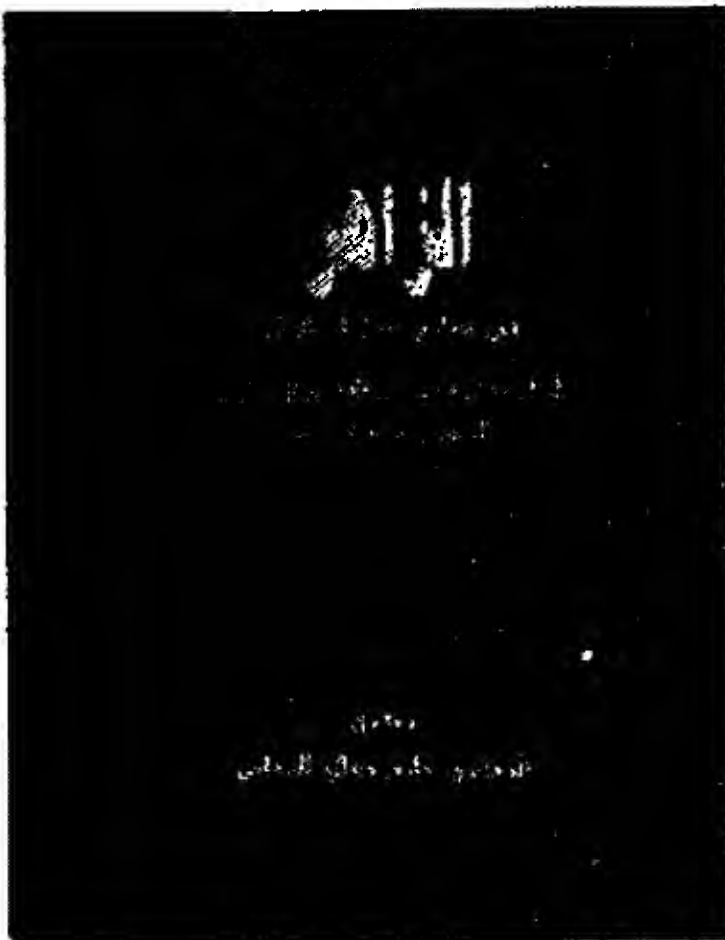
- ١١٨ - في وفيات الأعيان : ذل الهلكة .
- ١١٩ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : وردت العبارة بالصيغة التالية : (طرح جنبه في الأرض) عوضاً من (طرح جبينه في التراب) .
- ١٢٠ - في المصدرين السابقين وردت العبارة بصيغة (لا يطمح اليها أمل طامح) بدلا من (لا يطمح اليه طرف أمل طامح) .
- ١٢١ - في المصدرين السابقين : (المسلمون) بدلا من (المؤمنون) .
- ١٢٢ - في المصدرين السابقين (ولا يقتل) بدلا من (فلم يقتل) .
- ١٢٣ - في وفيات الأعيان (ولا يغل) وفي شفاء القلوب (ولا يفك) بدلا من (ولم يُسَلَّ) .
- ١٢٤ - في المصدرين السابقين : (تقطع) بدلا من (تنقطع) .
- ١٢٥ - في المصدرين السابقين : (فأشار) بدلا من (وأشار) .
- ١٢٦ - في المصدرين السابقين (الميسور) بدلا من (بالميسور) .
- ١٢٧ - بدوي (الماثور) بدلا من (المأسور) .
- ١٢٨ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (فانه لو اخذ) بدلا من (فانه ان اخذ) .
- ١٢٩ - في وفيات الأعيان (يتقحم) وفي شفاء القلوب (يقتحم) بدلا من (تقتحم) .
- ١٣٠ - في المصدرين السابقين : وردت العبارة بين القوسين بالصيغة التالية : (ويقال كفوا عنها في آخر أمر قد نبيل من أوله المراد) .
- ١٣١ - في المصدرين السابقين (وأثقل الحركات) .
- ١٣٢ - العبارة بين القوسين (وفتح في السور وهم ظاهرون) لم ترد في مفرج الكروب والروضتين .
- ١٣٣ - العبارة بين القوسين (وملك الاسلام . . . وأسخطهم) مطابقة لما ورد في مفرج الكروب انظر تسلسلها في النص ج ٢ ص ٢٣٩ ونلاحظ ان عبارة (فنبأوا بئار) وردت في شفاء القلوب . . (قتلوا بئار) .
- ١٣٤ - عبارة (وبنوها بالعمد والصفاح) اضافها ناشر صبح الأعشى من رسائل القاضي الفاضل المشار اليها .
- ١٣٥ - عن (الداوية) و (الاستبارية) انظر هامش رقم (٧٤) في الرسالة الاولى .
- ١٣٦ - وردت هذه الكلمة في صبح الأعشى : (الاستبارية) ، ويبدو انه خطأ مطبعي ، وقد أشرنا الى ذلك في الهامش رقم (٧٣ ، ٧٤) من الرسالة الاولى .
- ١٣٧ - في شفاء القلوب : [الذي (لا) يطرد ماؤه] .
- ١٣٨ - في شفاء القلوب ووفيات الأعيان (ولا ينطرد) بدلا من (ولا يطرد) .
- ١٣٩ - في المصدرين السابقين : (وقد) بدلا من (قد) .

- ١٤٠ - في المصدرين السابقين : (كالرياض) بدلا من (للرياض) .
- ١٤١ - عبارة (للرياض ... أوراق) أضافها ناشر صبح الأعشى من رسائل القاضي الفاضل المشار إليها . ويلاحظ كذلك ان العبارة الواردة بين القوسين المعقوفين (فانهم خذلهم الله ، حموها بالأسل والصفاح ... أوراق) غير واردة في مفرج الكروب .
- ١٤٢ - صبح الأعشى . . (واوزع) والتصويب من نص الدكتور بدوي .
- ١٤٣ - كلمة (شهر) محذوفة في مفرج الكروب .
- ١٤٤ - اضيف في مفرج الكروب بعد عبارة (فكادت السماوات) كلمة (النجوم) .
- ١٤٥ - عبارة (للسجوم لا للوجوم) محذوفة في مفرج الكروب وقد سقطت كلمة (الكواكب) في نص الدكتور بدوي .
- ١٤٦ - في مفرج الكروب وردت العبارة التالية (والكواكب فيها للطرب ينتثرن) بدلا من عبارة صبح الأعشى المثبتة في المتن وهي (والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم) .
- ١٤٧ - في مفرج الكروب ووفيات الأعيان وشفاء القلوب (طريقها) بدلا من (طرائقها) .
- ١٤٨ - في مفرج الكروب ولدى الدكتور بدوي (وطهرت) بدلا من (وظهرت) .
- ١٤٩ - كلمة (بينهم) محذوفة في مفرج الكروب وفي وفيات الأعيان وشفاء القلوب .
- ١٥٠ - في مفرج الكروب (الألسنة) بدلا من (الألسن) .
- ١٥١ - عبارة (وجهت الألسن .. يعقدها) أضافها ناشر صبح الأعشى من رسائل القاضي الفاضل المشار إليها .
- ١٥٢ - في مفرج الكروب ولدى الدكتور بدوي وردت عبارة (في وطنه الاشرف) بدلا من (في قطبه الأقرب) .
- ١٥٣ - العبارة الواردة بين قوسين معقوفين (واوزع الخادم ... بجناحيه) مطابقة لما ورد في مفرج الكروب باستثناء ما أشرنا اليه في الهوامش انظر تسلسل هذه العبارة فيه ج ٢ ص ٢٢٩ وقد جاء الجزء الاخير منها في وفيات الأعيان وشفاء القلوب بصيغة (فلو طار سرورا) بدلا من (فلو طار به سرورا) .
- ١٥٤ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب (أيام الشقاء) بدلا من (أيام الشتاء) .
- ١٥٥ - في المصدرين السابقين (بساحلها) بدلا من (لبرها) .
- ١٥٦ - في وفيات الأعيان كلمة (فهي) محذوفة .
- ١٥٧ - في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : كلمة (فيا) محذوفة .
- ١٥٨ - في المصدرين السابقين : (فان يدعوا) بدلا من (فلن يدعوا) .
- ١٥٩ - في المصدرين السابقين : (ولن يكفوا) بدلا من (ولن تزول أيديهم) .

- ١٦٠ - في المصدرين السابقين : (تتخلص) بدلا من (تتلخص) .
- ١٦١ - في صبح الأعشى : (نفذنا) والتصويب من نص الدكتور بدوي ووردت في وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (نفذ الخادم) .
- ١٦٢ - بدوي . (مطالع الخبر) بدلا من (ينشر الخبر) . وفي وفيات الأعيان وشفاء القلوب : (بطالع الخبر) .
- ١٦٣ - العبارة الواردة بين قوسين (وكتاب الخادم ، وهو مجد .. ويعرض جيش المسرة من طليعته الى ساقته) غير واردة في مفرج الكروب والروضتين .



صدر عن دار الشؤون الثقافية



مصادر دراسة الحروب الصليبية

كوكبي عواد

عضو المجمع العلمي العراقي

١ - تمهيد :	ت	توفي ، المتوفى سنة
ينطوي هذا البحث ، على « تثبت » مستفيض بما ألفت	ج	جزء
عن « الحروب الصليبية » قديماً وحديثاً ، سواء أكان منها	ح	حاشية
مكتوباً باللغة العربية أم بغيرها من اللغات . ويدخل في	خ	خارطة
ذلك : « الكتب » و « الرسائل » و « الفصول »	د	دكتور
و « المقالات » و « النبد » التي عني فيها مؤلفوها ، بتدوين	د ت	دون تاريخ ، أي ان المرجع لم تذكر فيه سنة طبعه
أخبار تلك الحروب التي دامت زهاء قرنين من الزمان ، فقد	ص	صفحة
نشبت عام ١٠٩٦ م ، واستمرت حتى عام ١٢٩١ م .	ط	طبعة (ط ١ = طبعة أولى . ط ٢ = طبعة ثانية . الخ)
رتبنا مواد هذا الثبت ، على صنفين اساسيين :	ط ر	طبع بالرونيو
الاول : ماكان مؤلفاً باللغة العربية ، أو ببعض اللغات	ظ	أنظر
الشرقية التي تتخذ الحروف العربية في ما تكتبه . وقد	ع	عدد
أدرجناها على حسب السياقة الهجائية لعناوينها .	ق	قرن
الثاني : ماكان موضوعاً باللغات الغربية التي تتخذ	ل	لوح ، لوحة
الحروف اللاتينية وسيلة للكتابة . أما مايكتب منها بغير تلك	م	سنة ميلادية
الحروف ، كالروستية ونظائرها ، فقد حولناها الى الحروف	مط	مطبعة
اللاتينية ، تيسيراً لطبعتها في مطابعنا ورتبناها جميعاً وفق	المط	المطبعة
السياقة الهجائية لأسماء كاتبها ، أو قل حسب الشهرة التي	هـ	سنة هجرية
عرفوا بها .		

إنه ليسرنا أن نضع اليوم هذا « الثبت » ، بين أيدي
المؤرخين والباحثين ، من عرب وشرقيين ومستشرقين .

ولقد اتخذنا في بضاعيف هذا البحث ، الرموز الآتية ،
التماساً للإختصار ، هي :

ولا بد من القول ، إننا لساندعي بأن هذا الثبت قد أوفى على الغاية من حيث الاستيعاب والاكتمال . فلعل هنالك مراجع قديمة وحديثة قد شذت عنا في هذا السبيل ، ففاتنا التنويه بها . ومن ثمة ، فإن من يستدرك على هذا الثبت ، سيؤدي خدمة مشكورة للتاريخ والتراث .

* * *

٢ - المراجع العربية :

١ - أثر الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام .

(طبع في القاهرة) .

٢ - أثر الحروب الصليبية في نشاط القوافل التجارية واعتدائهم عليها عبر سيناء .

بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .

(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٨١ - ١٨٨) .

٣ - أثر الحروب الصليبية والمغولية (في عهد المماليك بمصر) .

بقلم : أحمد صادق الجمال .

(ضمن كتابه « الأدب العائلي في العصر المملوكي » . القاهرة ١٩٦٦ ؛ ص ٤١ فيما بعدها) .

٤ - اجتماع الفرنج بعمكا ، وإغارتهم على بلاد المسلمين ، وخروج الملك العادل إلى الطور لمحاربة الفرنج (سنة ٦٠٠ هـ) .

لابن الفرات (محمد بن عبدالرحيم ، ت ٨٠٧ هـ = ١٤٠٥ م) .

(تاريخ ابن الفرات » . تحقيق : د . حسن محمد الشماخ [البصرة ١٩٧٠] ج ١ ؛ ص ١٣) .

٥ - اجتماع فرنج قبرص وعمكا وطرابلس وأنطاكية . . . ، وعسكر ابن لاون وقصدهم بلاد المسلمين ، وما اتفق من الصلح (سنة ٦١١ هـ) . لابن الفرات .

(« تاريخ ابن الفرات » [١٩٧٠] ج ١ ؛ ص ١٥٣) .

٦ - احتيال الملوك الأيوبيين في رشوة النساء الفرنجيات

لتجسس الصليبيين .

بقلم : حبيب زيات ، ت ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٤ م .

(مجلة « المشرق » ٣٦ [بيروت ١٩٣٨] ص ٥٣ - ٥٦) .
و « الخزانة الشرقية » ٣ [بيروت ١٩٤٦] ص ٣٦ - ٥٩) .

٧ - الأخبار السنّة في الحروب الصليبية .

تأليف : سيد علي الحريري .

(ط ١ : القاهرة ١٣١٧ هـ = ١٨٩٩ م ، ٢٩٣ ص .

ط ٢ : القاهرة ١٣٢٩ هـ = ١٩١١ م ؛ ٤١٠ ص) .

٧ أ - أدب الحروب الصليبية .

تأليف عبد اللطيف حمزة .

(القاهرة ١٩٤٩) .

٨ - أدوار الحركة الصليبية ومآذها الزمني .

للمقدم الركن سالم أحمد زيتو .

(« المجلة العسكرية » ٤٢ [بغداد ١٩٦٥] العدد الثاني) .

٩ - الأردن في أيام الحروب الصليبية .

بقلم : محمد صبري عابدين .

(« مجلة الأزهر » ٢٥ [القاهرة ١٩٥٣] ص ٥٩ - ٦٢) .

١٠ - أسامة بن منقذ : بطل الحروب الصليبية .

بقلم : جمال الدين الألوسي .

(« الرسالة الإسلامية » ١ [بغداد ١٩٦٨] ج ١ ؛ ص ٩١) .

١١ - أسامة بن منقذ : بطل الحروب الصليبية .

تأليف جمال الدين الألوسي .

(بغداد ١٩٦٨ ؛ ٣٨٠ ص) .

١٢ - أسامة بن منقذ : صفحة من تاريخ الحروب

الصليبية .

تأليف : محمد أحمد حسين .

(القاهرة ١٩٤٦ ؛ ٨ + ١٣٩ ص) .

١٣ - الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس .

(طرابلس ١٩٥٢ ؛ ١٤٥ ص) .

١٤ - استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين .

كتاب يُعدّ : عبد الله سعيد الغامدي ، من السعودية .

نوّهت به نشرة « أخبار التراث العربي » ١٠ [القاهرة ١٩٨٠/٨/١] ع ١٤٢ ؛ ص ٢ - ٣ . ولم نعلم « هل صدر ام لا

١٥ - استيلاء الفرنج على دمياط (سنة ٦١٣ هـ) وعوّذها الى المسلمين (سنة ٦١٨ هـ) .

لأبي الفداء (اسماعيل بن علي) ، ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م .
(تاريخ أبي الفداء ، وعنوانه : المختصر في أخبار البشر ٣ : ١٢٢ ، ١٢٩ - ١٣٠) .

١٦ - أسرة بني عمار في طرابلس وعلاقتها بالسلاجقة والفاطميين والصليبيين في القرن ٥ هـ = ١١ م .

بقلم د . عبد السلام تدمري
(مجلة « تاريخ العرب والعالم » ٣ [بيروت ، نيسان ١٩٨١] ع ٣٠ ؛ ص ٣ - ١٠ ؛ ع ٣١ [أيار ١٩٨١] ص ٣ - ١٠) .

١٧ - أسماء أمراء الصليبيين في طرابلس .

بقلم : لويس شيخو ، ت ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م .
(مجلة « المشرق » ١١ [بيروت ١٩٠٨] ص ٨٠٢ .
١٨ - أصل كلمة الداوية .

بقلم : أوغسطين مرمرجي ، ت ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣ م .
(« المشرق » ٢٩ [بيروت ١٩٣١] ص ٢٤١ - ٢٤٩) .
الداوية TEMPLIERS رهبنة عسكرية أنشئت في فلسطين أيام الحروب الصليبية .

١٩ - اضطراب العساكر على الملك الكامل ، وتأخره عن منزله التي كان بها في مقابلة الفرنج ، ونهب الفرنج أثقال المسلمين (سنة ٦١٥ هـ) . لابن الفرات .

(« تاريخ ابن الفرات » ٥ [البصرة ١٩٧٠] ج ١ ؛ ص ٢٤٦ - ٢٤٩) .

٢٠ - أضواء جديدة على الحروب الصليبية .
تأليف : د . سعيد عبد انتاح عاشور . (القاهرة ١٩٦٤) . سلسلة « المكتبة الثقافية » .

٢١ - الاعتبار .
تأليف : أسامة بن مُنقذ ، ت ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م . طبع هذا الكتاب غير مرة

١ - نشره المستشرق الفرنسي ديرنبرث H. DERENBOURG في مجلدين : أحدهما للنص العربي ، والآخر للترجمة الفرنسية (باريس ١٨٨٩ - ١٨٩٥) .

٢ - حققه ونشره : د . فيليب جيتي ت ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٨ م (برنستن ١٩٣٠ ؛ ٢٤٠ ص) .

راجع في شأن هذه الطبعة ، مجلة « الهلال » (القاهرة ١٩٣٠ [ص ٢٩٧ - ٢٩٨] .

٣ - وقد أعادت مكتبة المثنى ببغداد طبعة فيليب جيتي هذه بالافست وطُبعت هذه الترجمة في الولايات المتحدة .

يدور معظم هذا الكتاب ، حول اختبارات المؤلف في الحرب والفروسية أيام الحروب الصليبية .

٢٢ - الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاحين على بلاد المسلمين . وهو كتاب في تاريخ الحروب الصليبية .

تأليف : أحمد بن علي ابن المغربي أحمد بن الحريري ، ألف سنة ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠ م . منه نسخة خطية . في :

١ - المكتبة الوطنية بباريس : في ٣٠ ورقة .
٢ - المكتبة : التيمورية في دار الكتب المصرية برقم ٢٢٨٦ .

٣ - وعن هذه الثانية ، نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (ف ٥٩٢) .

٢٣ - أعمال الفرنجة وحُجاج بيت المقدس (الجستا) . وهي مذكرات عن الحملة الصليبية الأولى .

نقلها الى اللغة العربية ، وقدم لها ، وعلق عليها : د . حسن حبشي . (القاهرة ١٩٥٨ ؛ ١٣٤ ص) .

٢٤ - إغارة فرنج طرابلس الشام على جبلة (قلعة بساحل الشام) واللاذقية (سنة ٦٠١ هـ) .

(« تاريخ ابن الفرات » ٥ [البصرة ١٩٧٠] ج ١ ؛ ص ٣٠ - ٣١)

٢٥ - إغارة الفرنج على حماة وحمص (سنة ٦٠١ هـ) . (« تاريخ ابن الفرات » ٥ [البصرة ١٩٧٠] ج ١ ؛ ص ٣ - ٢) .

٢٦ - الألقاب المتعلقة بالحروب الصليبية .
بقلم د . حسن الباشا .

(ضمن كتابه : « الألقاب الإسلامية في التليخ والوثائق والآثار » ص ١١٤) .

٢٧ - إمارة الرُّها الصليبية .

تأليف : الدكتورة عليّة عبد السميع الجنزوري .
(القاهرة ١٩٧٥ : ٤١٦ ص) .

٢٨ - الأمير مودود والحروب الصليبية ٥٠٢-٥٠٧ هجرية .

بقلم : د . رشيد الجميلي .

(« مجلة كلية الآداب » - جامعة بغداد ١٤ [بغداد ١٩٦٤] ع ٣) .

٢٩ - انكماش النفوذ الصليبي في بلاد الشام في عصر المماليك وأثر ذلك في إحياء طُرُق التجارة عبر سيناء .

بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .

(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ : ص ١٩٤ - ٢٠٥) .

٣٠ - أهمية الطرق عبر سيناء في الحروب الصليبية .

بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .

(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ : ص ٧٠ - ٨٨) .

٣١ - الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية .

تأليف : بسّام العسلي .

(بيروت ١٩٧٨ : ص ٣٨٠ ص) .

٣٢ - بحث خاص عن دار ابن لقمان بالمنصورة التي سُجن فيها لويس التاسع ملك فرنسا في الحروب الصليبية .

تأليف : علي حسن الهاكع .

(المنصورة : مصر ١٩٤٩ : ٢٢ ص) .

٣٣ - بحرية صلاح الدين الأيوبي في البحر الأبيض المتوسط إبان الحروب الصليبية .

بقلم : عبد الجبار محمود السامرائي .

(مجلة « آفاق جامعية » . ع ٤ [١٩٧٩] ص ١٨ - ٢٣) .

٣٤ - البركيس والسُلندي [من السفن الحربية في أيام الحروب الصليبية . ج : البراكيس والسُلنديّات] .

بقلم : د . محمد مندور ، ت ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .

(مجلة « الثقافة » ٦ [القاهرة ١٩٤٤] ع ٢٨٠ : ص ٤٥٤ - ٤٥٥) .

ضمن نقده لكتاب « قوائين الدواوين » لابن تَمّاني ، بتحقيق : د . عزيز سوريّان عطية .

٣٥ - بواعث الحركة الصليبية .

للمرئيس الركن سالم أحمد زيتو .

(« المجلة العسكرية » ٤١ [بغداد ١٩٦٤] ع ٣) .

٣٦ - بين المسلمين والصليبيين .

بقلم : مزهر عبد السوداني .

ضمن كتابه : « الشعر العراقي في القرن السادس الهجري » . (بيروت ١٩٨٠ : ص ١٦١ - ١٦٩) .

٣٧ - تأثير الحروب الصليبية والإتصالات في المشرق .

للمستشرق الألماني (ALDO MIELD)

(ضمن كتابه : « العلم عند العرب وأثره في تطوّر العلم العالمي » .

نقله الى العربية : د . عبد الخليم النجار ، د . محمد يوسف موسى .

راجعة على الاصل الفرنسي : د . حسين فوزي .

(القاهرة ١٩٦٢ : ص ٤٣٧ - ٤٤٠) .

٣٨ - تاريخ الحروب الصليبية .

تأليف : رفيق التميمي ، ت ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م .

(ظ : « معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة [دمشق ١٩٥٧] ص ١٧٠) .

٣٩ - تاريخ الحروب الصليبية .

تأليف : ستيفن رانسيما .

ترجمة : السيد الباز العريني .

ج ١ : الحرب الأولى وقيام مملكة بيت المقدس . (دار الثقافة - بيروت ١٩٦٧ : ٥٥٧ ص) .

ج ٢ : مملكة بيت المقدس . (٩٣٢ ص) .

ج ٣ : مملكة عكا والحملات الصليبية (٩٥٢ ص) .

٤٠ - تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ، المدعوة حرب الصليب .

تأليف : مكسيموس مونرو .

نقله الى العربية : البطريرك مكسيموس مظلوم ، ت
١٢٧٢هـ = ١٨٥٥م .

(جزآن : أورشليم [القدس] ١٨٦٥ ؛ ٥٨٧ ص) .

٤١ - تأملات في الإحتلالين الصليبي والصهيوني .

د . أنيس قاسم .

(منشورات الدار العربية للكتاب : ليبيا - تونس) .

٤٢ - تحول طريق الحج الى عيذاب وقوص بسبب الخطر
الصليبي في سيناء .

بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .

(ضمن كتاب : « شبة جزيرة سيناء في العصور

الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ، ص ١٨٩ - ١٩٣) .

٤٣ - التزامن بين الحروب الصليبية وألف ليلة وليلة .

تأليف : عبد الغني الملاح .

بغداد ١٩٨٠ ؛ ٨٠ ص) . سلسلة « الموسوعة الصغيرة » - ٧٣ .

٤٤ - التأمل بين نور الدين محمود والصليبيين على مصر .

تأليف : علي سمود عطية عمود .

(رسالة ماجستير : الجامعة الامريكية - بيروت . ط ١ :

بيروت ١٩٧٠ ٨٢١ ورقة) .

٤٥ - ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية .

تأليف : د . نظير حسان سعداوي .

(القاهرة ١٩٥٧ ؛ ٢٤١ ص) .

٤٦ - جيش مصر في أيام صلاح الدين ،

تأليف : د . نظير حسان سعداوي .

(القاهرة ١٩٥٦ ؛ ١٢١ ص) .

٤٧ - الجيوش الصليبية والتربة .

بقلم : محمد كرد علي ، ت ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م .

(ضمن كتابه : « خطط الشام » ، ٥ دمشق ١٣٤٧هـ [ص

٢١ - ٢٢) .

٤٨ - حالات التحول الى الاسلام بين الصليبيين .

بقلم : توماس آرنولد ، ت ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م .

(ضمن كتابه : « الدعوة الى الاسلام » . ترجمة : حسن ابراهيم

حسن ، عبد المجيد عابدين ؛ اسماعيل النحراوي . ص ١٠٨ - ١١٧) .

٤٩ - الحرب الصليبية الاولى . [مديلة بالترجمة العربية للحواليات

الفرنجية Gesta Francorum]

تأليف : د . حسن حبشي ،

(ط ١ : القاهرة ١٩٤٧ ؛ ١٨٣ ص . ط ٢ : القاهرة ١٩٥٨ ؛

٢٣١ ص) .

٥٠ - الحرب الصليبية الرابعة في مذكرات ليل هاردوان

VILLE-HARDOUN نقلها الى العربية عن الترجمة الانكليزية : محمد عبد

الله عتات ، نشرها في كتابه : « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » .

(ط ٢ : القاهرة ١٩٦٩ ؛ ص ١٤١ - ١٤٨) .

٥١ - الحرب والسلام زمن العُدوان الصليبي

تأليف : د . نظير حسان سعداوي .

(القاهرة ١٩٦١ ؛ ٢١٢ ص) .

٥٢ - الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي

في العصور الوسطى . تأليف : د . سعيد عبد الفتاح

عاشور .

(١ - ٢ : القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٧ . ط ٣ : ١٩٧٦ -

١٩٧٨ ؛ ١٣٢٧ ص)

ترقيم صفحات المجلدين متلل .

٥٣ - الحروب الصليبية .

بقلم : أحمد تيمور ، ت ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠م .

(« التذكرة التيمورية » . القاهرة ١٩٥٣ ؛ ص

١٤٥) .

٥٣أ - الحروب الصليبية .

تأليف : انتوني ويست .

ترجمة : العميد الركن شكري محمود نديم .

(بغداد ١٩٦٧) .

٥٤ - الحروب الصليبية .

للمستشرق الايطالي : أومبرتو ريزيتانو (UMBERTO

RIZZITANO) ضمن دراسته : « الباحثون الايطاليون

ودراسة التاريخ العربي » . ترجمة : د . عيسى

النحوري) .

وقد نشرت هذه الترجمة في « مجلة مجمع اللغة العربية

الاردني » (٢) غمّان ١٩٧٩ [ع ٥ - ٦ ، ص

(مجلة « حُرَّاس الوطن » ٢٦ [بغداد : نيسان

١٩٨١] ع ٤ ؛ ص ٥٠ - ٥١) .

٦١ - الحملات الصليبية .

بقلم : نجيب العقيلي .

(ضمن كتابه : « المستشرقون » ١ [ط ٣ : القاهرة

١٩٦٤] ص ١٣٧ - ١٤٠) .

٦٢ - حملة بطرس الفاسك الصليبية في ضوء كتابات أنا

كومينا .

بقلم : د . محمد محمد مرسي الشيخ .

(« مجلة كلية العلوم الاجتماعية » جامعة الامام محمد

ابن سعود الاسلامية ، ٢ [الرياض ١٩٧٨] ص

٢٩٥ - ٣٢٠) .

٦٣ - الحملة الصليبية الأولى .

بقلم : د . نبيه عاقل .

(ضمن كتابه : الامبراطورية البيزنطية » . دمشق

١٩٦٩ ؛ ص ٢٦٣ - ٢٧٩) .

٦٤ - الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد

القسطنطينية .

تأليف : اسمت غنيم .

(دار المجمع العلمي جدة ١٩٧٨ ؛ ١٢٧ ص) .

٦٥ - حملة صليبية من فرنسا وجنوة على المهدي .

بقلم : محمد بن ابراهيم الزركشي ، كان حياً سنة

٩٣٢ هـ = ١٥٢٦ م . (ضمن كتابه : « تاريخ

المؤجدة والحفصية » تحقيق : محمد ماضور . ط ٢ :

تونس ١٩٦٦ ؛ ص ١١٢ - ١١٤) .

٦٦ - حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة .

تأليف : د . محمد مصطفى زيادة .

(القاهرة ١٩٦١ ؛ ك + ٣٥٦ ص) .

٦٧ - الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر

والشام .

تأليف : أحمد أحمد بدوي .

(القاهرة ١٩٥٤ ؛ ٥٨٧ ص) .

٦٨ - حياة الصليبيين في الشام ونظمهم السياسية

١٦٧ - ٢٠٥ ، المراجعة : ص ١٩٢ - ١٩٣) .

٥٥ - الحروب الصليبية .

بقلم : الفيلد مارشال فيكونت مونتجمري .

ضمن كتابه : « الحرب عبر التاريخ » .

ترجمة العميد فتحي عبد الله النمر .

(القاهرة ١٩٧١ - ١٩٧٢ ؛ ص ٢٥٣ - ٢٦٠)

٥٦ - الحروب الصليبية .

(مجلة « المقتطف » ٣٨ [القاهرة ١٩١١] ص

٥١٠ - ٥١١) .

٥٧ - الحروب الصليبية .

(ضمن كتاب : « الموجز في تاريخ الطب

والصيدلة عند العرب » . أصدرته : المنظمة

العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة

الدول العربية ، بإشراف : د . محمد كامل

حسين ، القاهرة ، ص ٣١ - ٣٢) .

٥٨ - الحروب الصليبية : زمن الحرب الصليبية والصناعة

السورية .

بقلم : ص . ي .

(مجلة « المقتطف » ٣٣ [١٩٠٨] ص ٢٠٢ - ٢٠٦) .

أ٥٨ - الحروب الصليبية في المشرق والمغرب .

تأليف : محمد العروسي المطوي .

(دار الكتب الشرقية - تونس ١٩٥٤ ؛ ٢٢٤ ص) .

ب٥٨ - الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي .

تأليف : محمد سيد كيلاني .

(القاهرة ١٩٤٩)

٥٩ - الحروب الصليبية وأثرها في الشعر العربي .

تأليف : محمد علي الهرفي .

(الرياض ١٩٨٠ ؛ ١٠٣) .

أ٥٩ - الحروب الصليبية والأسرة الزنكية .

تأليف : شاكراً أحمد أبو يدر .

(بيروت ١٩٧٢ ؛

٦٠ - الحروب الصليبية وظاهرة شعر الجهاد .

بقلم : طراد الكبيسي .

والاجتماعية والدينية .

بقلم : المقدم الركن سالم أحمد زيتو .

(« المجلة العسكرية » ٤٢ [بغداد ١٩٦٥] ص

١٥٧ - ١٧٣) .

٦٩ - الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر

والشام .

تأليف : د . أحمد أحمد بدوي .

(القاهرة ، دت ، ٢٠٢ ص) .

٧٠ - الحياة في بيروت في عهد الصليبيين .

بقلم : هنري لامنس ، ت ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م .

(مجلة « المشرق » ٣١ [بيروت ١٩٣٣] ص

٧٢١ - ٧٢٩ ، ٨٥٢ - ٨٦٠ ، ٩٢١ - ٩٣٠) .

٧١ - دار ابن لقمان في المنصورة : تاريخها وتخطيطها .

بقلم : أحمد تيمور ، ت ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م .

(مجلة « الزهراء » ٢ [القاهرة

١٩٢٥] ص ٢ - ١٨) .

هذه الدار في مدينة المنصورة بمصر ، وقد سُجن فيها

لويس التاسع ، ملك فرنسا ، في إحدى الحروب

الصليبية ، سنة ٦٤٨ هـ = ١٢٥٠ م .

٧٢ - دار ابن لقمان ولويس التاسع ملك فرنسا .

قصيدة سينية ، لأحمد زكي أبي شادي ،

ت ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م .

(مجلة « الزهراء » ٢ [القاهرة ١٣٤٤ هـ] ص

٩٤ - ٩٦) .

٧٣ - الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية .

بقلم : د . جوزيف نسيم يوسف .

(« مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية » ١٦

[الاسكندرية ١٩٦٣] ص ١٨٣ - ٢١١) .

٧٤ - دراسة لرحلة برتراندون دي لابروكييه الى فلسطين

ولبنان وسورية [سنة ١٤٣٢ م] وهي آخر محاولة

برغندية للقيام بحرب صليبية ورحلة بروكييه .

بقلم د : محمود زايد .

(مجلة « المؤرخ العربي » ع ١٤ [بغداد ١٩٨٠] ص

٢٣ - ٤٣) .

٧٥ - دفع الخطر الصليبي والمغولي (في عهد المماليك

بمصر) .

بقلم : احمد صادق الجمال .

(ضمن كتابه : « الأدب العامي في مصر في العصر

الملوكي » . ص ١٠ - ١١) .

٧٦ - دُمياط في العصر الأيوبي [خلال الحروب

الصليبية] .

بقلم : د . جمال الدين الشيبال ، ت

١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

(ضمن كتابه : « مجمل تاريخ دمياط » .

الاسكندرية ١٩٤٩ ؛ ص ١٧ - ٣٩) .

٧٧ - الرخالون الأوربيون في زمن الصليبيين .

بقلم : د . نقولا زيادة .

(ضمن كتابه : « رُواد الشرق العربي في

العصور الوسطى » . القاهرة ١٩٤٣ ؛ ص

٨١ - ٩٤) .

٧٨ - الزحف الصليبي على بلاد الشام وموقف الفاطميين

منه .

بقلم : د . محمد جمال الدين سرور .

(ضمن كتابه : « سياسة الفاطميين الخارجية » .

القاهرة ١٩٦٧ ؛ ص ١٥٦ - ١٥٩) .

٧٩ - زيارة رسولين من الصليبيين للبلاط الفاطمي ليعقدا

تحالفاً مع الخليفة .

بقلم : د . زكي محمد حسن ، ت

١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م .

(في تعليقاته على كتاب « التصوير عند العرب »

لأحمد تيمور . ص ١٦٧) .

٨٠ - سوريا في زمن الصليبيين .

بق : د . نقولا زيادة .

(مجلة « المقتطف » ٨٧ [القاهرة ١٩٣٥] ص

١٦ - ٢٢ ، ١٩٣ - ٢٠٠) .

٨١ - سياسة مصر إزاء الصليبيين .

- بقلم : د . محمد جمال الدين سرور .
(ضمن كتابه « دولة بني قلاوون في مصر » .
القاهرة ١٩٤٧ ؛ ص ٢٣٢ - ٢٥٨) .
- ٨٢ - سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى
الصليبية في بلاد الشام .
بقلم : دُرَيْد عبد القادر نوري .
(مجلة « آداب الرافدين » ٩ [الموصل ١٩٧٨] ص
٤١ - ٦٩) .
- ٨٣ - سيناء في جغرافية الحروب الصليبية .
بقلم : د . عبد الرحمن زكي ،
ت ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م
(مجلة « المنارة » . ع ٣٩ ، القاهرة ١٩٥٧) .
- ٨٤ - الشام تحت حكم الفرنجة [الصليبيين] .
بقلم : هنري لامنس ، ت ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م .
(« دائرة المعارف الاسلامية » : الترجمة العربية ١٣
[القاهرة] ص ٨٨ - ٩٢ ، ١٠٣ - ١٠٤) . وقد
نقل هذه المادة الى العربية : ابراهيم زكي خورشيد .
- ٨٥ - شعر الجهاد في الحروب الصليبية .
تأليف : محمد بن علي الهرفي .
(القاهرة ١٩٧٩ ؛ ص ٤٠٧) .
- ٨٦ - الشرق الأدنى إبان الحروب الصليبية .
بقلم : د . جمال الدين الشيال ، ت ١٣٨٧ هـ =
١٩٦٧ م
(ضمن كتابه : « التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر
التاريخي الأوروبي في عصر النهضة » . بيروت
١٩٦٩ ؛ ص ٦٥ - ٧٦) .
- ٨٧ - الشرق الأدنى بعد الحروب الصليبية .
بقلم : د . جمال الدين الشيال .
(ضمن كتابه : « التاريخ الإسلامي وأثره ... »
ص ٧٧ - ١١٣) .
- ٨٨ - الشرق الأوسط والحروب الصليبية
(١٠٥٠ - ١١٩٣ م) .
تأليف : د . السيد الباز العريبي .
- (القاهرة ١٩٦٣) .
- ٨٩ - الشرق العربي بين شقي الرحى : حملة القديس لويس
التاسع على مصر والشام .
تأليف : د . حسن حبشي .
(القاهرة ١٩٤٨ ؛ ص ١٢٩) .
- ٩٠ - الشعر والحروب الصليبية .
بقلم : د . محمد كامل حسين .
(ضمن كتابه : « في أدب مصر الفاطمية » . القاهرة
١٩٧٠ ؛ ص ٢٦٤ - ٢٧٥) .
- ٩١ - شُعلة الإسلام : قصة الحروب الصليبية .
تأليف : هارولد لامب .
ترجمة : محمود عبد الله يعقوب .
مراجعة : د . جمال الدين الشيال .
(بغداد ١٩٦٧ ؛ ص ٦٦١) .
- ٩٢ - شهود العيان على فتح الصليبيين أنطاكية .
بقلم : أنور حاتم .
(مجلة « المشرق » ٣٢ [بيروت ١٩٣٤] ص ١٧٩ -
٢٠٠) .
- ٩٣ - شِيزَر [وقلعتها في أثناء الحروب الصليبية] .
للمستشرق هونكمان E. HONIGMANN
(« دائرة المعارف الاسلامية » . الترجمة العربية
١٤ : ٤١ - ٤٦) وقد نقل هذه المادة الى العربية :
ابراهيم زكي خورشيد .
- ٩٤ - الصِّدام بين الصليبيين وبين الأيوبيين في شبه جزيرة
سيناء .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور
الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص ١٠٨ - ١٣٤) .
- ٩٥ - الصراع بين الصليبيين والمماليك حول قبرص
ورودس .
بقلم : د . علي حُسنِي الخربوطلي .
(ضمن كتابه : « الإسلام في حوض البحر المتوسط ،
ص ١٦١ - ١٦٢) .

- ٩٦ - صلاح الدين الأيوبي .
تأليف : أحمد عبد الجواد الدومي .
(القاهرة ١٩٦٦ ، ١٩٢ ص) .
تَمَّا في هذا الكتاب : أعمال صلاح الدين
المسكرية ، وتاريخ الحروب الصليبية .
- ٩٧ - صلاح الدين الأيوبي : قصة الحروب الصليبية في
القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد .
تأليف : قدرى قلعجي .
(بيروت ١٩٤٧) .
- ٩٨ - صلاح الدين الأيوبي والحروب الصليبية : حوار مع
قدرى قلعجي مؤلف هذا الكتاب .
بقلم : وليم الخازن ونبه أليان .
(ضمن كتابهما : « كتب وأدباء » . صيدا - بيروت
١٩٧٠ ؛ ص ٣٥٠ - ٣٥٧) .
- ٩٩ - صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد .
رواية . تأليف : جورج جرداق .
(ط ٢ : بيروت ١٩٧٤ ؛ ٤٧١ ص) .
- ١٠٠ - الصليبية أو الصليبيون .
بقلم : نجيب ، وأمين ، وسليمان : البستاني .
(« دائرة المعارف » ١١ [القاهرة ١٩٠٠] ص
١٣ - ٢٢) .
- ١٠١ - الصليبيون .
تأليف : د . سعيد عبد الفتاح عاشور .
(طبع في القاهرة) .
- ١٠٢ - الصليبيون والتتر .
بقلم : عون الشريف قاسم .
(مجلة « العربي » ع ٢٥٥ ، الكويت : شباط ١٩٨٠ ؛ ص
١٥ - ١٦)
ضمن بحثه : « العرب وعبرة التاريخ » .
- ١٠٣ - الصليبيون ولغاتهم .
بقلم : محمد كرد علي ، ت ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م .
(ضمن كتابه : « خُطَط الشام » ١ [١٣٤٣ هـ] ص
٨١) .

- ١٠٤ - الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام .
بقلم : هنري لامنس ، ت ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م .
(مجلة « المشرق » ٢٠ [بيروت ١٩٢٢] ص
١٠٧ - ١١) .
- ١٠٥ - الصليبيون ومؤرخو السريان .
(مجلة المشرق) ٢٧ [١٩٢٩] ص ٩٣٧ - ٩٣٨ .
زمن الحروب الصليبية
- ١٠٦ - الصناعة السورية
زمن الحروب الصليبية
نشرت بتوقيع : ص . ي .
(« المقتطف » ٣٣ [١٩٠٨] ص ٢٠٢ - ٢٠٦) .
- ١٠٧ - صورة المقاتل الصليبي في المصادر التاريخية
العربية : دراسة عن فترة الحملات الثلاث الأولى
(١٠٩٧ - ١١٩٢ م) .
بقلم : د . قاسم عبده قاسم .
(مجلة « قضايا عربية » ٥ [بيروت ١٩٧٨] ع ٤ ؛
ص ٣٩ - ٤٩) .
- ١٠٨ - طبيعة الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ =
١٠٩٧ م .
بقلم : د . خاشع المعاضدي .
(« مجلة الجامعة المستنصرية » ٤ [بغداد ١٩٧٤]
ص ٢٨٠ - ٢٩٢) .
- ١٠٩ - العالم الإسلامي بين الصليبيين والمغول .
بقلم : د . ابراهيم أحمد العدوي .
(ضمن كتابه : « التاريخ الإسلامي : آفاقه
السياسية وأبعاده الحضارية » . ص
٣٦٠ - ٣٨٤) .
- ١١٠ - العُدوان الصليبي على بلاد الشام : هزيمة لوبس
التاسع في الأراضي المقدسة .
تأليف : د . جوزيف نسيم لوبس .
(ط ٣ : الإسكندرية ١٩٧١) .
- ١١١ - العُدوان الصليبي على مصر : هزيمة لوبس التاسع في
المنصورة وفارسكور .

- تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ ٤١٥ ص) .
- ١١٢ - العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى .
تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(ط ١ : ١٩٦٣ . ط ٢ : الاسكندرية ١٩٦٧ ؛ ٤٠٥ ص) .
- ١١٣ - العلاقات الاجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية .
تأليف : د . زكي النقاش .
(بيروت ١٩٥٣) .
- ١١٤ - علاقات الأيوبيين مع الصليبيين في شمال الشام .
بقلم : محمود ياسين أحمد التكريتي .
(ضمن كتابه : « الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة » . بيروت ١٩٨١ ؛ ص ٢٣١ - ٢٨٤) . مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام العراقية .
- ١١٥ - علاقات عربية بين الشرق والغرب : الحروب الصليبية .
بقلم : د . فيليب جقي ، ت ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٨ م .
(ضمن كتابه : « تاريخ العرب : مطول » . الترجمة العربية . ط ٣ : بيروت ١٩٥٣ ؛ ص ٧٧٩ - ٧٤٩) .
- ١١٦ - العلاقات المملوكية الأراغونية في ختام الحروب الصليبية .
بقلم : د . حياة ناصر الحججي .
(ضمن كتابها : « العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري = الرابع عشر والخامس عشر الميلادي » . الكويت ١٩٨٠ ؛ ص ١٧ - ٦٣) .
- ١١٧ - علاقات [الوزراء في العصر الفاطمي] مع الصليبيين .
بقلم : د . محمد حمدي المناوي .
- (ضمن كتابه : « الوزارة في العصر الفاطمي » . القاهرة ١٩٧٠ ؛ ص ٢٢٥ - ٢٣٤) .
- ١١٨ - العمارة العسكرية في العصور الوسطى بين العرب والصليبيين .
بقلم : د . عبد الرحمن زكي ، ت ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م .
(« مجلة الجمعية التاريخية المصرية » ٧ [القاهرة ١٩٥٨] ص ١٠٦ - ١٣٣) . وقد أقر في رسالة .
- ١١٩ - عن « الحروب الصليبية وعبرها في كفاحنا ضد الصهاينة » .
بقلم : هاشم عثمان .
(« مجلة آفاق عربية » ٥ [بغداد : شباط ١٩٨٠] ع ٦ ؛ ص ١٥٦) .
- ١٢٠ - الغرب والشرق من الحروب الصليبية الى حرب السويس .
تأليف : محمد علي الغنيت .
(القاهرة ١٩٦٣ ؛ ٢٩٠) .
- ١٢١ - غزوة في أيام الصليبيين .
بقلم : عارف العارف ، ت ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .
(ضمن كتابه : « تاريخ غزوة القدس ١٩٤٣ ؛ ص ١٢٨ - ١٣٤) .
- ١٢٢ - الغزو الصليبي للمجتمع العربي .
بقلم : د . خاشع المعاصيدي .
(« مجلة الأستاذ » . المجلد ١ ، ع ٣ [بغداد ١٩٨٠] ص ٤٥٣ - ٤٦٠) . ضمن بحثه : « وحدة المجتمع العربي عبر التاريخ » ، المنشور في هذه المجلة ، ص ٤١٩ - ٤٩٢) .
- ١٢٣ - الغزو الصليبي والعالم الاسلامي .
تأليف : علي عبد الحليم محمود .
(جدة ١٩٧٩ ؛ ٤٣٩ ص) .
- ١٢٤ - الفتح الصليبي وصلاح الدين .
بقلم : عارف العارف ، ت ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م .

- (ضمن كتابه : « تاريخ القدس » . القاهرة ١٩٥١ ؛ ص ٦٩ - ١٠٠) .
- ١٢٥ - فتح القسطنطينية على يد الصليبيين .
تأليف : روبرت كلاري .
ترجمة : د . حسن حبشي .
(القاهرة ١٩٦٤ ؛ ١٥٩ ص) .
- ١٢٦ - فكرة الحروب الصليبية .
بقلم : محمد عبد الله عنان ، ت
١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .
(مجلة « الهلال » ، ٣٤ [القاهرة ١٩٢٦] ص
٧٠٩ - ٧١٤) .
- ١٢٧ - فكرة الحروب الصليبية .
بقلم : محمد عبد الله عنان .
(ضمن كتابه : « مواقف حاسمة في تاريخ
الإسلام » . ط ٤ . [القاهرة
١٩٦٢] ص ١١٣ - ١٢٣) .
- ١٢٨ - قبرس والحروب الصليبية .
تأليف : د . سعيد عبد الفتاح عاشور .
(القاهرة ١٩٥٧ ؛ ٢٠١ ص) .
- ١٢٩ - قلاع الصليبيين والمسلمين في سورية ولبنان .
(مجلة « الهلال » ، ٤٢ [١٩٣٤] ص
٥٤٩ - ٥٥٦) .
- ١٣٠ - قلعة صليبية .
(مجلة « المقتطف » ، ٦ [القاهرة ١٨٨١] ص
٥٩) .
- ١٣١ - كريبوغا صاحب الموصل ودوره في مقاومة
الصليبيين .
بقلم : ابراهيم خليل .
(مجلة « المؤرخ العربي » ، ٥٤ ؛ ص ٩٥ - ١١٩) .
- ١٣٢ - كريبوغا صاحب الموصل والصليبيون .
بقلم : د . رشيد الجميلي .
(« المجلة التاريخية » ، ٢ [بغداد ١٩٧٢] تصدرها
الجمعية العراقية للتاريخ والآثار) .

- ١٣٣ - كفاح الموصل وحلب ضد الصليبيين في عصر نور
الدين محمود .
بقلم : رشيد الجميلي .
(« المجلة التاريخية » ٣ [بغداد ١٩٧٤]
ص ١٢٨ - ١٣٥) .
- ١٣٤ - لبنان في الحروب الصليبية .
بقلم : يوسف السودا ، ت ١٣٨٩ هـ = ١٩٦٩ م .
(جريدة « الراية » . بيروت ١٠ رجب ١٣٤٥ هـ) .
ونقلتها عنها ، مجلة « الزهراء » ، (٣ [القاهرة
١٣٤٥ هـ] ص ٤٧٨) .
- ١٣٥ - لويس التاسع في دمياط [في أثناء الحروب
الصليبية] .
بقلم : كارل بروكلمان ، ت
١٣٧٥ هـ = ١٩٥٦ م .
(ضمن كتابه : « تاريخ الشعوب الإسلامية » .
ص ٣٦٢ - ٣٦٥) .
- ١٣٦ - لويس التاسع في الشرق الأوسط
١٢٥٠ - ١٢٥٤ م : قضية فلسطين في عصر
الحروب الصليبية .
تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
(ط ١ : القاهرة ١٩٥٦ ؛
ج ١ + ٤١١ ص + ١ خ) .
(ط ٢ : القاهرة ١٩٥٩) .
- ١٣٦ أ - المآصر في بلاد الروم والإسلام .
تأليف : ميخائيل عواد .
(مط المعارف - بغداد ١٩٤٨ ؛ ٩٢ ص) .
بحث في : الأسطول الإسلامي ، والحروب
الصليبية ، والفتوحات الإسلامية .
- ١٣٧ - مجلة كاثوليكية تقارن بين إسرائيل ومملكة
الصليبيين .
بقلم : ف . س . أندرسون .
(مجلة « المسلمون » ، ١٤ [١٣٧٧ هـ] ص
٦١ - ٦٤) .

١٣٨ - محاولات بلدوين الأول [من الأمراء الصليبيين] للسيطرة على شبه جزيرة سيناء .

بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور

الوسطى » . [القاهرة ١٩٧٧] ص ٦١ - ٦٩)
١٣٩ - مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية تأليف : د .

سهيل زكار .
(بيروت ١٩٧٢ ؛ ٣٩٠ ص) .

في شأن هذا الكتاب ، راجع ماكتبه : د . شاكر مصطفى (« مجلة كلية الآداب والتربية » - جامعة

الكويت . ع ١١ [حزيران ١٩٧٢] ص ٢٠١ - ٢٠٥ .

١٤٠ - المدينة البيزنطية والحروب الصليبية .
تأليف : ستيفن رانسيمن .

ترجمة وتقديم : د . صالح أحمد العلي .
(قسمان في مجلد واحد . بغداد ١٩٥٦ ؛

٢٧٠ ص) .
١٤١ - مذكرات دي جوفيل عن الحملة الصليبية

السابعة .
بقلم : محمد عبد الله عنان ، ت

١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .
(ضمن كتابه : « مواقف حاسمة في تاريخ

الاسلام » . ط ٤ [القاهرة ص ١٥٢ - ١٥٩ .
١٤٢ - المسلمون في حوض البحر الابيض المتوسط الى

الحروب الصليبية .
بقلم : د . حسين مؤنس .

(« المجلة التاريخية المصرية » ٤ [القاهرة : مايو ١٩٥١] ع ١٤ ؛ ص ٤٥ - ١٧٥) .

١٤٣ - المسلمون والغربيون في الحروب الصليبية .
بقلم : محمد كرد علي ، ت ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣ م .

(ضمن كتابه : « الاسلام والحضارة العربية » ١ [ط ٣ : القاهرة ١٩٦٨] ص ٢٩٢ - ٣١٧) .

١٤٤ - مشاركة الموصل في القتال ضد الصليبيين

(٥٠٩ هـ = ١١١٥ م) .

بقلم : رشيد الجميلي .

(مجلة « آداب الرافدين » . ع ٥ [الموصل : حزيران ١٩٧٤] ص ٢٥٣ - ٢٥٦) .

ضمن بحثه الموسوم : « ولاية جيوش بك علي ، على الموصل » .

١٤٥ - المشطوب الهكاري : سيرة مجاهد . صفحة مُشرقة من حياة أحد القادة الكرد في الحروب الصليبية .

بقلم : د . محسن محمد حسين .
(« مجلة المجتمع العلمي العراقي : الهيئة الكردية »

٨ [بغداد ١٩٨١] ص ٣٠١ - ٣٢٥) .
١٤٦ - مضمار الحقائق وسر الخلائق .

تأليف ؟ : الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب حماة ، ت

٦١٧ هـ = ١٢٢٠ م .
جزء من نسخة خطية في المكتبة الأحمدية بتونس ،

الرقم ٤٩٣٨ . فيه حوادث السنوات ٥٧٥ - ٥٨٢ هـ ، يتضمن أخبار صلاح الدين الأيوبي

وفتوحاته وحروبه مع الصليبيين . وعنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية . راجع : فؤاد

سيد : فهرس المخطوطات المصورة (٢) : ٢٧٩ - ٢٨٠ ، الرقم ١٢٣٠) .

١٤٧ - معارك ١٢١٨ - ١٢٢١ م ، إبان الحملة الصليبية الخامسة .

(« الموسوعة العسكرية » ٢ : ٤٥٤ - ٤٥٧) .
١٤٨ - مُعاصر أول غزوة صليبية : أسامة بن منقذ .

بقلم : المستشرق إغناطيوس كراتشكوفسكي ، ت ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م .

(ضمن كتابه : « مع المخطوطات العربية » . موسكو ١٩٦٣ ؛ ص ١٦٣ - ١٧٣) .

١٤٩ - معركة ١٢٤٩ - ١٢٥٠ م إبان الحملة الصليبية السابعة .

(« الموسوعة العسكرية » ٢ : ٤٥٧ - ٤٥٨) .

عنوان هذه المجموعة باللغة الفرنسية :
RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES:
HISTORIENS ORIENTAUX. (5 VOLS., PARIS, 1872
تتضمن هذه المجلدات الخمسة ، على : (1884 -

- ١ - مقتطفات من تاريخ أبي الفداء .
 - ٢ - مقتطفات من الكامل في التاريخ : لابن الأثير .
 - ٣ - تاريخ الدولة الأنابكية في الموصل : لابن الأثير .
 - ٤ - مقتطفات من سير صلاح الدين الأيوبي : لابن شداد .
 - ٥ - سيرة صلاح الدين الأيوبي : من وفيات الأعيان لابن هلكان .
 - ٦ - مقتطفات من كتاب الإفادة والإعتبار : لبعده اللطيف البغدادي .
 - ٧ - من رحلة ابن جبير .
 - ٨ - من أخبار مصر : لابن تغري بردي .
 - ٩ - من النجوم الزاهرة : لابن تغري بردي .
 - ١٠ - من مرآة الزمان : لسبط ابن الجوزي .
 - ١١ - من بغية الطالب في تاريخ حلب : لابن العديم .
- هذه المجموعة ، تُعدّ اليوم ، من نواذر المطبوعات العربية . ومنها نسخة في مكتبة المتحف العراقي ببغداد .
- وراجع في شأن هذه المجموعة ، « معجم المطبوعات العربية والمُعربة » ليوسف أليان سركيس . ت ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ . (٢) [القاهرة ١٩٢٣] ص (١٧٨٤) .

- ١٥٧ - مملكة بيت المقدس الصليبية .
تأليف : عمر كمال توفيق .
(الاسكندرية ١٩٥٨ : ٢٢١ ص) .
- ١٥٨ - من الحروب الصليبية الى حرب السويس .
تأليف : محمد علي انعتيت .
(القاهرة ١٩٦٢ : ٤٣٦ ص) .

١٥٠ - معركة جطين .
(« المجلة العسكرية » ٣٢ [بغداد ١٩٥٥] ص (١٨٢ - ١٦٥)
للمقدم الركن طه أحمد .

١٥١ - معركة جطين .
لوحة كبيرة ، رسمها الفنان العراقي عطا صبري ، وأهداها الى السيد نائب رئيس مجلس قيادة الثورة [هو اليوم رئيس الجمهورية] القائد المناضل صدام حسين : ذكرت ذلك جريدة « الجمهورية » في عددها الصادر ببغداد في ١٩٧٩/٦/٤ ؛ ص (٨) .

١٥٢ - معركة جطين (١١٨٧ م) .
(« الموسوعة العسكرية » . رئيس تحريرها : المقدم هيثم الأيوبي ؛ ١ [بيروت ١٩٧٧] ص (٨٢٢ - ٨٢١) .

١٥٣ - معركة جطين ووحدة الصف العربي .
تأليف : عطية القوصي .
(القاهرة ١٩٦٢ : ١٣٢ ص) .

١٥٤ - معركة المنصورة وأثرها في الحروب الصليبية .
تأليف : د . عبد الرحمن زكي ، ت ١٤٠٠ هـ = ١٩٨٠ م .
(القاهرة ١٩٦٠) .

١٥٥ - مقدمات العُدوان الصليبي : الإمبراطور يوحنا تزيملكس وسياسته الشرقية .
تأليف : عمر كمال توفيق .
(الاسكندرية ١٩٦٦) .

١٥٦ - مكتبة الحروب الصليبية .
مجموعة نصوص عربية واسعة ، نحوي الكثير مما كتبه المؤرخون العرب القدماء عن الحروب الصليبية .
جمع موادها ، وحققها ، ونشرها مع ترجمة فرنسية في خمسة مجلدات كبار المستشرقان الفرنسيان : رينو J. T. Reinaud ، والبارون دي سنان — BARON MAC — GUCKIN DE SLANE (باريس ١٨٧٢ - ١٨٨٤) .

- ١٥٩ - من شعر المقاومة العربية ضد الصليبيين .
(مجلة « آفاق جامعية » ٤ [جامعة السليمانية
١٩٨٠] ٥٤ ؛ ص ٦ - ٧ ، ١٥) .
- ١٦٠ - المنصورة الظاهرة [في أثار الحروب الصليبية] .
إصدار العلاقات العامة بمحافظة الدقهلية بمصر .
(المنصورة ١٩٦١ ؛ ٣٢ ص) .
- ١٦١ - المنصورة : قصة البطولة العربية وهزيمة لؤيس
التاسع .
تأليف : محمد مصطفى هدارة .
(القاهرة ١٩٦٢ ؛ ٢١٦ ص) .
- ١٦٢ - مؤرخو الحروب الصليبية .
تأليف : د . السيد الباز العربي .
(القاهرة ١٩٦٢ ؛ ٣١٦ ص) .
- ١٦٣ - موقعة حطين واسترداد بيت المقدس
١١٨٧ م = ٥٨٣ هـ .
بقلم : محمد عبد الله عنان ، ت
١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .
(؟) ضمن كتابه : « مواقف حاسمة في تاريخ
الاسلام » . ط ٤ [القاهرة ١٩٦٢] ص
١٣٠ - ١٤١) .
- ١٦٤ - موقف أتابكية دمشق من الغزو الصليبي لبلاد الشام
٤٩٧ - ٥٤٩ هـ = ١١٠٣ - ١١٥٤ م .
بقلم : دُرَيْد عبد القادر نوري .
(مجلة « آداب السرافدين » ١١ [الموصل ١٩٧٩]
ص ١١١ - ١٤٦) .
- ١٦٥ - موقف الإمبراطورية البيزنطية أثناء الحروب
الصليبية .
بقلم : نورمان بيتز NORMAN H. BAYNES
ضمن كتابه : « الإمبراطورية البيزنطية » . ترجمة :
د . حسين مؤنس ، ومحمود يوسف زايد .
(القاهرة ١٩٥٠ ؛ ص ٣٨٦ - ٣٨٧)
- ١٦٦ - موقف الدعوة الصليبية من العلاقات الدولية ،
الأوربية مع سلطنة المماليك .

- للدكتورة حياة ناصر الحجى .
(ضمن كتابها : « العلاقات بين سلطنة المماليك
والممالك الأسبانية في القرنين الثامن والتاسع
الهجري - الرابع عشر والخامس عشر الميلادي » .
الكويت ١٩٨٠ ، ص ٢٤١ - ٢٥٤) .
- ١٦٧ - موقف الدولة الفاطمية من الصليبيين .
بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
(ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور
الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص ٩١ - ٩٨) .
- ١٦٨ - ميمية الأبيوردي في الغزو الصليبي . وهو أبو
المظفر محمد بن أحمد الأموي الأبيوردي ،
ت ٥٠٧ هـ ، ١١١٣ م
(ضمن كتابه : « الأبيوردي : حياته ، دراسة في
شعره القومي » . بغداد ١٩٨٠ ؛ ص
١٠٨ - ١١٧) .
- ١٦٩ - النساء الفرنجيات في أنطاكية وعزاز ، في عهد
الصليبيين .
بقلم : حبيب زيات ، ت ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٤ م .
(مجلة « المشرق » ٢٧ [١٩٢٩] ص
٥٧١ - ٥٧٤) .
- ١٧٠ - النساء الفرنجيات في عهد الصليبيين .
بقلم : حبيب زيات .
(« المشرق » ٤٣ [١٩٤٩] ص ١ - ٦) .
- ١٧١ - نشرة عن الحروب الصليبية .
(صدرت في القاهرة . ورد ذكرها في : « دليل
الكتاب المصري ١٩٧٣ » ص ١٢ ؟ ، الرقم ٣٥) .
- ١٧٢ - نشرة بمراجع عن الحروب الصليبية وحملة
لؤيس التاسع ومعركة المنصورة .
اصدرتها : دار الكتب المصرية .
(القاهرة ١٩٦٠ ؛ ١٥ + ١٧ ص) .
- ١٧٣ - النضال بين المسلمين والنصارى في الغرب :
الثغور والعواصم - حروب الصليبيين .
بقلم : نجيب الأرمنازي ، ت

الحادي عشر [للميلاد] واستقرارهم في فلسطين .
 بقلم : د . أحمد رمضان أحمد .
 (ضمن كتابه : « شبه جزيرة سيناء في العصور
 الوسطى » . القاهرة ١٩٧٧ ؛ ص ٣١ - ٤٠) .
 ١٨١ - وصول الفرنج الصليبيين الى انطاكية وغيرها
 من بلاد حلب .
 بقلم : كامل الغزي ، ت ١٣٥١ هـ - ١٩٣٣ م .
 (ضمن كتابه : « نهر الذهب في تاريخ حلب »
 ٣ [حلب ١٩٢٦] ص ٧٩ - ٨١)
 ١٨٢ - يوم حطين : اليوم الفاصل بين المسلمين
 والصليبيين .
 بقلم : د . محمد مصطفى زيادة .
 (مجلة « العربي » . ع ٥٩ [الكويت : تشرين الأول
 ١٩٦٣] ص ٣٦ - ٤٦) .

٣ - فهرس اسماء الاشخاص

المذكورة في القسم العربي من هذا البحث

٦٢	آنا كومينا
١٠٩	ابراهيم احمد العدوي
٩٣ ، ٨٤	ابراهيم زكي خورشيد
١٥٦	ابن الأثير
١٥٦	ابن تغري بردي
١٥٦	ابن جبير
١٥٦	ابن خلكان
١٥٦	ابن شداد
١٥٦	ابن العديم
٥ ، ٤	ابن الفرات
٥	ابن لاون
٧٢ ، ٧١ ، ٣٢	ابن لقمان
٣٤	ابن نماتي
١٥٦	ابن ميسر
١٧٥ ، ١٥٦ ، ١٥	أبو الفداء
١٦٨	الأبورددي

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٨ م .
 (ضمن كتابه : « الشرع الدولي في الاسلام » . ص
 ٢٩ - ٤٣) .
 ١٧٤ - نور الدين والصليبيون : حركة الإفاقة والتجمع
 الاسلامي في القرن السادس الهجري .
 تأليف : د . حسن حبشي .
 تصدير : د . محمد مصطفى زيادة .
 (القاهرة ١٩٤٨ ؛ ١٧١ ص) .
 ١٧٥ - هزيمة الفرنج [في المنصورة بمصر] وأسر
 ملكهم سنة ٦٤٨ هـ .
 (« تاريخ أبي الفداء » ٣ : ١٨١) .
 ١٧٦ - هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل .
 تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
 (القاهرة ١٩٦٠ ؛ ١٢٧ ص) .
 صفحة من تاريخ الحروب الصليبية في منتصف القرن
 السابع للهجرة .
 ١٧٧ - وثائق دير صهيون بالقدس الشريف [من
 عصر الحروب الصليبية] . تأليف : د . أحمد
 دراج .
 (القاهرة ١٩٦٨ ؛ ١٨٤ ص) .
 ١٧٨ - الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العُدوان
 الصليبي . تأليف : د . جوزيف نسيم يوسف .
 (الاسكندرية ١٩٦٧ ؛ ٩٣ ص) .
 ١٧٩ - وصف شاهد عيان لموقعة عكا بين الصليبيين
 وجيوش السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة
 ٦٩٠ هـ - ١٢٩٠ م .
 منقولة من كتاب : « زبدة الفكرة » تأليف : بيبس
 المنصوي . (ج ٩ ، ص ١٦٨ ب - ١٧٢) .
 نشره : د . محمد مصطفى زيادة ، في الملحق رقم ١٠
 بكتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » للمقريزي .
 (١ [ط ٢ : القاهرة ١٩٧٠] ص ١٠٠٢ -
 ١٠٠٥) .
 ١٨٠ - وصول الصليبيين الى الشام في أواخر القرن

٢٦	حسن الباشا	٦٩ ، ٦٧	أحمد أحمد بدوي
١٧٤ ، ١٢٥ ، ٨٩ ، ٤٩ ، ٣٣	حسن حبشي	٧٩ ، ٧١ ، ٥٣	أحمد تيمور
٤	حسن محمد الشماع	١٧٧	أحمد دراج
٣٧	حسين فوزي	١٦٧ ، ١٣٨ ، ٩٤ ، ٤٢ ، ٣٠ ، ٢ ، ١٨٠	أحمد رمضان أحمد
١٦٥ ، ١٤٢	حسين مؤنس		
١٦٦ ، ١١٦	حياة ناصر الحجي	٧٢	أحمد زكي أبو شادي
١٢٢ ، ١٠٨	خاشع المعاضيدي	٧٥ ، ٣	أحمد صادق الجمال
١٧٩	خليل بن فلاون	٩٦	أحمد عبد الجواد الدومي
١٦٤ ، ٨٢	دريد عبد القادر نوري	٢٢	أحمد بن علي ابن المغربي
١٤١	دي جوانفيل	١٤٨ ، ٢١ ، ١٢ ، ١١ ، ١٠	أسامة بن مَبْقَد
٢١	دير تيرغ	٤٨	اسماعيل النحراوي
١٥٦	دي سلان	٦٤	اسمت غنيم
١٤٠ ، ٣٩	رانسيما (ستيفن)	٣٧	الدوميلي
١٤٤ ، ١٣٣ ، ٢٨	رشيد الجميلي	١٠٠	أمين البستاني
٣٨	رفيق التميمي	١٣٧	أندرسون (ف . س .)
١٢٥	روبرت كلاري	٩٢	أنور حاتم
٥٤	ريزيتانو (أومبرتو)	٤١	أنيس قاسم
٩٩	ريكاردوس قلب الأسد	١٨	أوغسطين مرمرجي
١٥٦	رينو (المستشرق)	١٧	برتراندون دي لا بروكييه
٧٩	زكي محمد حسن	١٣٥	بروكلمان (كارل)
١١٣	زكي النقاش	٣١	بسام العسلي
٦٨ ، ٣٥ ، ٨	سالم أحمد زيتو	٦٢	بطرس الناسك
١٥٦	سبط ابن الجوزي	١٣٨	بلدوين الأول
١٢٨ ، ١٠١ ، ٥٢ ، ٢٠	سميد عبد الفتاح عاشور	١٧٩	بيرس المنصوري
١٠٠	سليمان البستاني	٤٨	توماس آرنولد
١٣٩	سُهَيْل زَكَار	١١ ، ١٠	جمال الدين الألوسي
١٦٢ ، ٨٨ ، ٣٩	السيد الباز العريبي	٩١ ، ٨٧ ، ٨٦ ، ٧٦	جمال الدين الشياك
٧	سيد علي الحريري	٩٩	جورج جرداق
١٥٩	شاكر أحمد أبو بدر	١٣٦ ، ١١٢ ، ١١٠ ، ٧٣	جوزيف نسيم يوسف
١٣٩	شاكر مصطفى		١٨٧ ١٧٦
١٠٦ ، ٥٨	ص . ي .	١٤٤	جيوش بك علي
١٤٠	صالح أحمد العلي	١٧٠ ، ١٦٩ ، ٦	حبيب زيات
١٥١	صدام حسين	٤٨	حسن ابراهيم حسن

٩٨، ٩٧	قدري قلمجي	صلاح الدين الأيوبي ١٤، ٣٣، ٤٦، ٩٦، ٩٩، ١٢٤
١٨١	الكامل (الملك)	
١٤٨	كراتشكوفسكي (اغناطيوس)	١٥٦، ١٤٦
١٣٢ - ١٣١	كربوغا (صاحب الموصل)	٦٠
١٠٤، ٨٤، ٧٠	لامنس (هنري)	١٥٠
	لويس (القديس) ٨٩	٤
٧١، ٦٦، ٣٢	لويس التاسع (ملك فرنسا)	١٢٤، ١٢١
٧٢، ١١٠، ١١١، ١٣٥، ١٣٦، ١٦١		٣٣
١٧٢، ١٧٦		٣٧
١٧	لويس شيخو	٨٣، ١١٨، ١٥٤ لا
١٤٥	محسن محمد حسين	٤٣
٦٥	محمد بن ابراهيم الزركشي	١٥٦
١٢	محمد أحمد حسين	١٧
٨١، ٧٨	محمد جمال الدين سرور	١٤
١١٧	محمد حمدي المناوي	٤٨
٥٨	محمد سيد كيلاني	٣٤
٩	محمد صبري عابدين	١٥١
١٤١، ١٢٧، ١٢٦، ٥٠	محمد عبدالله عنان	١٥٣
١٦٣		٣٢
١٥٨	محمد العروسي المطوي	٩٥
١٥٨، ١٢٠	محمد علي الغنيت	٤٤
٨٥، ٥٩	محمد علي الهرفي	١٢٣
٩٠، ٥٧	محمد كامل حسين	٢٧
١٤٣، ١٠٣، ٤٧	محمد كرد علي	٣٨
٦٥	محمد ماضور	١٦
٦٢	محمد محمد مرسي الشيخ	١٥٧، ١٥٥
١٨٢، ١٧٩، ١٧٤، ٦٦	محمد مصطفى زيادة	١٠٢
١٦١	محمد مصطفى هذارة	٥٤
٣٤	محمد مندور	٥٥
٣٧	محمد يوسف موسى	١٤٦
٩١	محمود عبدالله يعقوب	٥٠
١١٤	محمود ياسين أحمد التكريتي	١١٥، ٢١
		١٠٧٠
		طاراد الكبيسي
		طه أحمد
		العاذل (الملك)
		عارف العارف
		عبد الجبار محمود السامرائي
		عبد الحليم النجار
		عبد الرحمن زكي
		عبد الغني الملاح
		عبد اللطيف البغدادي
		عبد اللطيف حمزة
		عبدالله سعيد الغامدي
		عبد المجيد عابدين
		عزيز سوريال عطية
		عطا صبري
		عطية القوصي
		علي حسن الهاكع
		علي حسني الخربوطلي
		علي سعود عطية محمود
		علي عبد الحليم محمود
		علية عبد السميع الجنزوري
		عمر رضا كحالة
		عمر عبد السلام تدمري
		عمر كمال توفيق
		عون الشريف قاسم
		عيسى الناعوري
		فتححي عبدالله النمر
		فؤاد سيد
		فيل هاردوان
		فيليب جتي
		قاسم عبده حسن

ملاحظة :

يلي هذا ، فهرس المراجع الإفرنجية ، وقوامها ٢٤٠ مادة . وقد رتبناها على السبائك الهجائية لـ « شهرة » كاتبها . وبذلك ، استغفينا عن صنع « فهرس أسماء الأشخاص » الواردة في المواد الأجنبية .
الأجنبية .

1 — ALLINGTON (CYRIL),

THE LOST CRUSADE. (OXFORD, 1940; 30P.).

2 — ALPHANDERY (PAUL),

LA CHRETIENNE ET L' IDEE DE CROISADE.

COMPLETED AND EDITED BY A. DUPRONT. (2VOLS.,
PARIS, 1954 — 1959).

3 — AMBROISE,

L'ESTOIRE DE LA GUERRE SAINT.

كان « امبرواز » شاعراً نورمانياً الأصل . رافق الملك ريكاردوس قلب الأسد في حملته الى الشرق ، فدوّن أحداث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة (١١٩٠ - ١١٩٣ م) في شعر منظوم باللغة الفرنسية القديمة . ووصف مشاهداته الشخصية للمعسكرين الإسلامي والمسيحي في أرض عكا وبافا وغيرها .

—————: THE CRUSADE OF RICHARD LION-
HEART. TRANSLATED FROM THE old french by m.j.hubert.
(new york, 1941).

5 - ANDREA (A.J.), MOTSIFF (١ .),

POPE INNOCENT III AND THE DIVERSION OF THE
FOURTH CRUSADE ARMY TO ZARA. (BYZANTION- SLA-
VICA, XXXIII, 1972; PP. 6-25).

6 — ARCHER (T.A.), KINGSFORD (C.),

THE CRUSADES. THE STORY OF THE LATIN KINGDOM
OF JERUSALEM.

(London, 1894; xxx — 467p. NEW EDITION, 1970).

7 — ATIYA (AZIZ SURIAL).

١٦٥ ، ٧٤

٣٦

١٤٥

١٧٩

٤٠

الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهنشاه

١٤٦

٨٢

٢٨

٥٥

٤٠

١١٣٦

٩٨

٦٣

١٧٣

١٠٠

٦١

٥١ ، ٤٦

٨٠ ، ٧٧

١٧٤ ، ١٣٣ ، ٤٤

١٦٥

١٦٨

٩١

١١٩

٩٣

١٥٢

٩٨

١٣

١٥٥

١٥٦

١٣٤

محمود يوسف زايد

مزمهر عبد السوداني

المشطوب الهكاري

المقريزي

مكسيموس مظلوم

الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهنشاه

ابن أيوب

المنصور سيف الدين قلاوون

مودود (الأمير)

مونتجمري

مونرو (مكسيموس)

ميناخيل عواد

نبيه أليان

نبيه عاقل

نجيب الأرمنازي

نجيب البستاني

نجيب العقيلي

نظير حسان سعداوي

نقولا زيادة

نور الدين محمود

نورمان بينز

نوري شاكر الألوسي

هارولد لامب

هاشم عثمان

هونكمان (المستشرق)

هيشم الأيوبي

وليم الخازن

يوحنا (القديس)

يوحنا تزيمكس

يوسف أليان سر كيس

يوسف السودا

LA COLLECTION DE CHARTES DE CROISADE DITE
COLLECTION COURTOIS.) COMPTES RENDUS DES
SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES
LETTRES 1956; PP. 382-386).

18 — BEDDIE (J.S.).

SOME NOTICES OF BOOKS IN THE EAST IN THE PERIOD
OF THE CRUSADES. (SPECULUM, VOL VIII, 1933; PP. 240-
242).

19 — BEDIER (J.).

SUR DEUX CHANSONS DE CROISADE. (ROMANIA,
VOL. XXXV, 1906; PP. 379-393).

20 — BEEBE (B.).

THE ENGLISH BARONAGE AND THE CRUSADE OF
1270. (BULLETIN OF THE INSTITUTE OF HISTORICAL
RESEARCH, XLVIII, 1975; PP. 127-148).

21 — VELLOG (HILAIRE).

THE CRUSADE THE WORLD'S DEBATE. (LONDON,
1937; IX — 324P.).

22 — BREHIER (L.).

L'EGLISE E L'ORIENT AU MOYEN AGE, L'ORIENT AU
MAYEN AGE: LES CROISADES. (PARIS, 1928).

23 — BERCOVICI (KONRAD).

THE CRUSADES. (NEW YORK, 1929; 314., 7. PLS.).

24 — BEYER (G).

DIE KREUZFAHRERGEBIETE AKKA UND GALILAA,
(ZEITSCHRIFT DES DEUTSCHEN PALASTINA VEREINS
VOL LXVLL, 1944—1945; PP. 183—260).

25 — ———, DAS GEBIET DER KREUZ-
FAHRERHERSCHAFT CAESAREA IN PALASTINA SIED-
LUNG — UND TERRITORIALGE SCHICHTLICH UNTER-
SUCHT. (ZEITSCHRIFT DES DEUTSCHEN PALASTINA —
VEREINS, VOL. LVI, 1936; PP. 1 — 91).

CRUSADE, COMERCE AND CULTURE. (BLOOMINGTON,
U.S.A., 1962; 274P.).

8 — ———, THE CRUSADE HISTORIOGRA-
PHY AND BIBLIOGRAPHY. (INDIANA UNIVERSITY
PRESS, BLOOMINGTON, U.S.A., 1962; 170P.).

9 — ——— THE CRUSADE IN THE LATER
MIDDLE AGES. (LONDON, 1938; XVI, 604 P., 10 PLS., 3
MAPS.).

10 — ——— THE CRUSADE OF NICOPOLIS.
(LONDON., 1934; XII — 234P.).

11 — ———, THE CRUSADE: OLD IDEAS AND
NEW CONCEPTIONS. (JOURNAL OF WORLD HISTORY,
VOL. II, 1954-1955; PP. 469 - 475).

12 — BAHGET (ALY).

LA PRISSE DE DAMIETE OU LA SIXIEME CROISADE.
(BULLETIN DE L'INSTITUT EGYPTIEN. TOME VI, 1912;
PP. 73 - 82).

13 — BAIRD (A.).

THE CRUSADING D'AUBIGNES AND BELVOIR CASTLE.
(TRANSACTIONS OF THE GLASGOW UNIVERSITY
ORIENTAL SOCIETY, VOL. VI, 1929 - 1933; P.3).

14 — BARGER (EVERT).

IN THE TRACK OF THE CRUSADES. (LONDON, 1932;
232P., 16PLS.).

15 — BARKER (ERNEST).

THE CRUSADES. (LONDON, 1939).

16 — BAROIS (J.).

NOTE SUR UN DESSIN DE KARL GIRARDET PUBLIE EN
1844 PAR LE MAGASIN PITTORESQUE ET REPRESENTAN-
TANT LA PRISON DE SAINT LOUIS A MANSOURAH. (BUL-
LETIN DE L'INSTITUT EGYPTIEN, VOL. I, 1919; PP. 7 -11).

17 — BAUTIER (R.H.).

(HISTORISCHES JAHRBUCH, VOL. LXXXI, 1962; PP. 223 — 237).

33 — BRAND (C. M.),

THE BYZANTINES AND SALADIN, 1185 — 1192: OPPONENTS OF THE THIRD CRUSADE. (SPECULUM, VOL. XXXVII, 1962; PP. 167 — 181).

34 — BREDERO (A.).

STUDIEN ZU DEN KREUZZUGBRIEFEN BERNHARDS VON CLAIRVAUX UND SEINER REISE NACH DEUTSCHLAND JAHRE 1146.

(MITTEILUNGEN DES ÖSTERREICHISCHEN INSTITUTS FÜR GESCHICHTE — FORSCHUNG, VOL. LXVI, 1958; PP. 331 — 343).

35 — BRUNDAGE (J. A.),

THE ARMY OF THE FIRST CRUSADE; SOME REFLECTION ON A RECENT BOOK.

(MEDIAEVAL STUDIES, XXXIII, 1971; PP. 334 — 343).

36 — BRUNDAGE (J. A.).

THE CRUSADE OF RICHARD I; TWO CANONICAL QUESTIONS.

(SPECULUM, VOL. XXXVIII, 1963; PP. 443 — 452).

37 — ————;

AN ERRANT CRUSADE: STEPHEN OF BLOIS. (TRADITIO, VOL. XVI, 1960; PP. 380 — 395).

38 — ————: MEDIEVAL CANON LAW AND THE CRUSADER. (LONDON, 1969).

39 — BURNS (R. I.),

THE CRUSADERS USE OF MUSLIMS AS SETTLERS IN THIRTEENTH CENTURY SPAIN.

(AMERICAN HISTORICAL REVIEW, LXXX, 1975; PP. 21 — 42).

40 — ————: ISLAM UNDER CRUSADERS. COL-

26 — ————, DIE KREUZFÄHRERGEBIETE SÜD-
WESTPALASTINA (BEITRÄGE ZUR BIBLISCHE LAND-
ES — UND ALTERTUMSKUNDE (ZDPV). VOL. LXVIII,
1951; PP. 148 — 192, 249 — 281).

27 — ————, DIE KREUZFÄHRERGEBIETE VON
JERUSALEM UND S. ABRAHAM (HERON). (ZEITSCHRIFT
DES DEUTSCHEN PALASTINA — VEREINS. VOL. LXV,
1942, PP. 165 — 211).

28 — ————, NEAPOLIS (NABLUS) UND SEIN GEBIET
IN DER KREUZFÄHRERZEIT. EINE TOPOGRAPHISCHE
UND HISTORISCHGEOGRAPHISCHE STUDIE.

(ZEITSCHRIFT DES DEUTSCHEN PALASTINA — VE-
REINS. VOL. LXIII, 1940; PP. 155 — 209).

29 — BRIGGS (M. S.),

THE ARCHITECTURE OF SALADIN AND THE INFLU-
ENCE OF THE CRUSADES (A. D. 1171 — 1250).

(BURLINGTON MAGAZINE, VOL. XXXVIII, 1921; PP. 10 —
20).

30 — BLACK (R.),

LA STORIA DELLA PRIMA E LA DIPLOMAZIA BENEDET-
TO ACCOLTI E LA DIPLOMAZIA FIORENTINA RISPETTO
ALL'ORIENTE.

ARCHIVIO STORICO ITALIANO, CXXXI, 1973; PP. 3 —
25).

31 — BOEHM (L.),

GESTA DEI PER FRANCOS — ODER GESTA FRANCOR-
UM?

DIE KREUZZÜGE ALS HISTORIOGRAPHISCHES PRO-
BLEM. (SAECULUM, VOL. VIII, 1957; PP. 43 — 81).

32 — DIE KREUZZÜGE IN BIBLIOGRAPHISCHER UND
HISTORIOGRAPHISCHER SICHT.

(GEDANKEN UM DREI NEUERSCHEINUNGEN).

(BULL. FAC. LETTRES STRASSBOURG, VOL. XXVIII, 1950; PP. 320 — 337).

49 — ———: LA SYRIE DU NORD A L'EPOQUE DES CRUSADES ET LA PRINCIPALITE FRANQUE D'ANTIOCHE, (PARIS, 1940; 768 P.).

50 — CALTHROP (M. M. C),
THE CRUSADES.
(LONDON, N. D., V — 92 P.).

51 — CAMPBELL (G. A.),
THE CRUSADES.
(LONDON, 1955; 480 P.).

52 — CARDINI (C.),
LA STORIA ET L'IDEA DI CROCIATA NEGLI STUDI ODIERNI (1945 — 1967).
(ANUARIO DE ESTUDIOS MEDIEVALES, V, 1958; PP. 641 — 662).

53 — CHA'ADON (F.),
HISTOIRE DE LA PREMIERE CROISADE. (PARIS, 1925).

54 — CHABOT (J. B.),
ECHOS DES CROISADES.
(COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, 1938; PP. 448 — 461).

55 — ———: EDESSE PENDANT LA PREMIERE CROISADE. (COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, 1918; PP. 431 — 442).

56 — ———: UN EPISODE DE L'HISTOIRE DES CROISADES. (MELANGES OFFERTS A M. GUSTAVE SCHLUMBERGER A L'OCCASION DU QUATRE — VINGTIEME ANNIVERSAIRE DE SA NAISSANCE: 17 OCTOBRE

ONIAL SURVIVAL IN THE 13 TH CENTURY KINGDOM OF VALENCIA. (PRINCETON, 1973; 507 P.).

41 — ———: MOORS AND CRUSADERS IN MEDITERRANEAN SPAIN. (LONDON, 1978; 318 P.)

42 — CAHEN (CLAUDE)
UNE CHRONIQUE CHIITE AU TEMPS DES CROISADES. (COMPTE RENDUS DES SEANCES DE L'ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, PARIS, 1935; PP. 258 — 269).

43 — ———: INDIGENES ET CROISES. QUELQUES MOTS A PROPOS D'UN MEDICIN D'AMAURY ET DE (SALADIN SYRIA, VOL. XV, 1934; PP. 351 — 360).

44 — ———: AN INTRODUCTION TO THE FIRST CRUSADE. (PAST AND PRESENT, VOL. VI, 1954; PP. 6 — 30).

45 — ———: L'ISLAM ET LE CROISADE.
(REL. X CONG. INT. SCI. STOR., 1955; VOL. III, PP. 625 — 635).

46 — ———: NOTES SUR L'HISTOIRE DES CROISADES ET DE L'ORIENT LATIN.
(REL. X CONG. INT. SCI. STOR. 1955; VOL. III, PP. 625 — 635).

46 — ———: NOTES SUR L'HISTOIRE DES CROISADES ET DE L'ORIENT LATIN.
(BULLETIN FAC. LETTRES STRASSBOURG, VOL. XXIX, 1951; PP. 118 — 125, 125, 286 — 318, 328 — 416).

47 — ———: LE PREMIER CYCLE DE LA CROISADE, (MOYEN AGE, VOL. LXIII, 1957; PP. 311 — 328).

48 — ———: UN SOURCE POUR L'HISTOIRE DE CROISADES, LES MEMOIRES DE SA'D AD — DIN HAMMAWIYA JUWAYNI.

65 — CONSTABLE (B.).

THE SECOND CRUSADE AS SEEN BY CONTEMPORARIES. (TRADITIO, VOL. IX, 1953: PP. 213 — 279).

66 — COSACK (H. KONRADS III).

ENTSCHLUSS ZUM KREUZZUG.

MITTEILUNGEN DES INSTITUTS FÜR ÖSTERREICH — ISCHE GESCHICHTSFORSCHUNG, VOL. XXXV, 1914: PP. 278 — 296).

67 — COX (GEORGE W.).

THE CRUSADES.

(8TH ED., LONDON, 1889: XX — 220P., 1 MAP).

68 — CUTLER (A.), THE FIRST CRUSADE AND THE IDEAL OF CONVERSION.

(MUSLIM WORLD, VOL. LVIII, 1968: PP. 57 — 71, 155 — 164)

69 — DALY (W.A.).

CHRISTIAN FRATERNITY: THE CRUSADERS, AND THE SECURITY OF CONSTANTINOPLE, 1097 — 1204: THE PRECARIOUS SURVIVAL OF AN IDEAL.

MEDIAEVAL STUDIES, VOL. XXII, 1960: PP. 43 — 91).

70 — DANIEL (E.R.).

APOCALYPTIC CONVERSION: THE JOACHITE ALTERNATIVE TO THE CRUSADES.

(TRADITIO, VOL. XXV, 1964: PP. 127 — 154).

71 — DARBISHIR (R.S.).

THE MOSLEM ANTAGONIST (ACCORDING TO THE LATIN CHRONICLES OF THE FIRST AND SECOND CRUSADES).

(MUSLIM WORLD, VOL. XXVIII, 1938, PP. 258 — 271).

72 — DARESSY (G.).

LA PRÉTENDUE MAISON DE SAINT LOUIS A MANSOURAH.

(BULLETIN DE L'INSTITUT D'EGYPTE ou L'Égypte, PP. 27 — 33, 135 — 149).

73 — DAVIES (E.J.).

1924. PARIS, 1924, PP. 169 — 179).

57 — ———: UN ÉPISODE INÉDIT DE L'HISTOIRE DES CROISADES (LE SIÈGE DE BIRTÀ 1145).

(COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE. DES INSCRIPTIONS ET BELLES — LETTRES, 1917: PP. 77 — 84).

58 — CHALANDON (F.).

HISTOIRE DE LA PREMIÈRE CROISADE.
(PARIS, 1925).

59 — CHAIR (SOMERSET).

THE FIRST CRUSADE. THE DEEDS OF THE FRANKS AND THE JERUSALEMITES. ENGRAVING BY CLIFFORD WEBB. (LONDON, 1945, 92P.).

60 — CHARANIS (P.).

BYZANTUM. THE WEST AND THE ORIGIN OF THE FIRST CRUSADE.

(BYZANTION, VOL. XIX, 1949: PP. 17 — 36)

61 — CHEHAB (M.H.)

TYR À L'ÉPOQUE DES CROISADES.

(2 VOLS. IN 3 PART. PARIS 1975 — : 614, 755P.).

62 — CHEIKHO (LOUIS).

UN DERNIER ÉCHO DES CROISADES. (MELANGES DE LA FACULTE ORIENTALE DE L'UNIVERSITE ST. JOSEPH DE BEYROUTH, VOL. I, 1906: PP. 303 — 375).

63 — CHOISEUL — DALLIECOURT.

DE L'INFLUENCE DES CROISADES SUR L'ÉTAT DES PEUPLES EN EUROPE. (PARIS, 1810).

64 — COMBE (E.).

LES PRÉSAGES ANNONCENT LA CROISADE DE PIERRE DE LUSIGNAN ET LES CAUSES DE CETTE ATTAQUE.
(BULL. SOC. ROY. ARCH. ALEXANDRIE, 1948, PP. 58 —

70:

SENTED TO D.C. MUNRO, 1928. REPR. 1968; PP. 44—56).

83 — EIDELBERG (S., TRANSL.), THE JEWS AND THE CRUSADERS. THE HEBREW CHRONICLES OF THE FIRST AND SECOND CRUSADES OF THE FIRST AND SECOND CRUSADES. (MADISON AND LONDON, 1977; 198P.).

84 — ———: THE SOLOMON CHRONICLE AS A SOURCE OF THE HISTORY OF THE FIRST CRUSADE. (JEWISH QUARTERLY REVIEW, VOL. XLIX, 1959; PP. 282 — 287).

85 — ELISSEEFF (NIKITA),

NUR — AD — DIN UN GRAND PRINCE MUSULMAN DE SYRIE AU TEMPS DES CROISADES (511 — 569 H / 1118 — 1174 .S.), (3COLA., WR CARTE. DAMAS, 1967; 1183P.).

86 — ERBSTOSSER (M.),

DIE KREUZUGESCHICHTE. EINE KULTURGESCHICHTE. (LEIPZIG, 1977; 212P.).

87 — ERDMANN (CARL),

DIE ENTSTEHUNG DES KREUZUGEDANKENS (STUTTGART, 1935).

88 — ———: DER KREUZUGEDANKE IN PORTUGAL.

(HISTORISCHE ZEITSCHRIFT, VOL. CXL, 1939 — 1940; PP. 23 — 53).

89 — ———: THE ORIGIN OF THE IDEA OF CRUSADE (TRANSLATED FROM THE GERMAN, BY: M.W.

BALDWIN AND W. GOFFAR. PRINCETON, 1977; 482P.).

90 — FARIS (NABIH AMIN),

HOLY WAR. (FIFTEENTH CENTURY MS. IN PRINCETON ON HOLY WAR AND THE PLACE OF ARCHERY THEREIN.

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY CHRON., VOL. IV, 1942, PP. 62 — 85).

91 — FAZY (R.)

LA CHRONIQUE DE DAMAS ET LES SOURCES CHRETIENNES DE LA IRE CROISADE. (JOURNAL ASIATIQUE, VOL. CCXXVII, 1936; PP. 281 — 298).

THE INVASION OF EGYPT IN A.D. 1529 BY LOUIS IX OF FRANCE. (LONDON, 1897; VI — 152., 1 MAP).

74 — DE JOINVILLE,

MEMOIRS OF THE CRUSADES. (ENGLISH TRANSLATION, BY SIR F. MARZIALS).

75 — DESCHAMPS (PAUL).

LES CHATEAUX DES CROISES EN TERRE SAINE. (2 VOLS. PARIS, 143 — 1939, UN 3^e SOUS PARESS).

76 — ———. COMBATS DE CAVALERIE ET EPISODES DES CROISADES DANS LES PEINTURES MURALES DU XII^e ET DU XIII^e SIECLE.

(ORIENTALIA CHRISTIANA PERIODICA. VOL. XIII, 1947; PP. 454 — 474).

77 — ———. DEUX POSITIONS STRATEGIQUES DES CROISES A L'EST DU JORDAINE: AHAMANT ET EL HABIS. (REVUE HISTORIQUE, VOL. CLXXII 1932, PP. 42 — 57).

78 — DESCHARD (A.),

LES CROISADES ET LE ROLE QU'Y JOUA LA MER. (REVUE DES ETUDES HISTORIQUES, VOL. CIII, 1936; PP. 131 — 138).

79 — DIEULAFOY (MARCEL).

LE MAROC ET LES CROISADES.

(COMPTE RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLES LETTRES. 1918; PP. 23 — 32).

80 — DONOVAN (JOSEPH),

PELAGIUS AND THE FIFTH CRUSADE.

(PHILADELPHIA, 1950; 124 P.).

81 — Dubois (pierre, 1250 — 1321),

DE RECUPERATIONE TERRAE SANCTAE.

وهو كتاب ألفه باللاتينية عن الحروب الصليبية ، فيه استعادة الاراضي المقدسة .

82 — DUNCALF (F.),

THE POPE'S PLA FOR THE FIRST CRUSADE.

(THE CRUSADES AND OTHER HISTORICAL ESSAYS' PRE-

1977; 405P.).

101 — ———: INTRODUCTION AUX HISTORIENS ARABES
DES CROISADES.

(CAHIERS DE CIVILISATION MEDIEVALE, VOL. XIII, 1970; N°
3, PP. 221 — 228)

102 — ———:

ألف بالاطالية كتاباً عن « فرسان القديس يوحنا لدى :
مؤرخي الحروب الصليبية العرب » . وقد ورد ذكره في
« مجلة مجمع اللغة العربية الأردني » ٢ [عمان
١٩٧٩] ع ٥ - ٦ : ص ١٩٢ .

103 — GARRIGOU GRAND - CHAMP,

DOCUMENTS DIVERS RELATIFS A LA CROISADE DE SAINT
LOUIS CONTRE TUNIS.

(TUNIS, 1912).

104 — GIBB (H. A R.),

THE DAMASCUS CHRONICLE OF THE CRUSADES. (LONDON,
1932; 368P.).

وهو صفحة من تاريخ الحروب الصليبية ، تتضمن
حوادث السنوات ١٠٩٧ - ١١٥٩ م ، نقلاً من كتاب « ذيل
تاريخ دمشق » لابن القلانسي . راجع في شأنه ، مجلة
« الهلال » ، ٤٠ [القاهرة ١٩٣٢] ص ٩٠٤ .

105 — ———, AND TRITTON (A.S.),

THE FIRST AND SECOND CRUSADE FROM AN ANONEMOUS
SYRIAC CHRONICLE.

(JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY, 1033; PP. 69 —
101, 273 — 305).

106 — ———: NOTES ON THE ARABIC MATERIALS FOR THE
HISTORY OF THE EARLY CRUSADES.

(BULLETIN OF THE SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAN STU-
DIES, VOL. VII, 1933— 1935; pp. 739 — 754).

107 — GIESZTOR(A.),

THE GENESIS OF THE CRUSADES: THE ENCYCLICAL OF SER-
GIUS IV (1009 — 1012).

92 — FEDDEN (ROBIN),

CRUSADER CASTLES.

(LONDON, 1950; 98P.)

93 — FINK (H.S.),

THE ROLE OF DAMASCUS IN THE HISTORY OF THE CRUSADES.

(MUSLIM WORLD, VOL. XLIX, 1959; PP. 41 — 53).

94 — FOLDA (J.),

THE FOURTH CRUSADE, 1201 — 1203. SOME RECONSIDERA-
TIONS.

(BYZANION SLAVICA, VOL. XXVI, 1955; PP. 277 — 290).

95 — FOTHERINGHAM (J.K.),

GENOA AND THE FOURTH CRUSADE.

(ENGLISH HISTORICAL REVIEW, VOL. XXV, 1910; PP. 26 — 57).

96 — FRANCE (J.),

THE CRISIS OF THE FIRST CRUSADE: FROM THE DEFAT OF
KERBOGHA TO THE DEPARTURE FROM ARQA. (BIZANTION, XL,
1970; PP. 276 — 308).

97 — ———: THE DEPARTURE OF TATIKIOS FROM THE
CRUSADER ARM.

(BULLETIN OF THE INSTITUTE OF HISTORICAL RESEARCH,
XLIV (110:1971)pp. 137 — 147).

98 — FROLOW (A.),

LA DEVIATION DE LA 4^e CROISADE VER CONSTANTINOPE
PROLEMES D'HISTOIRE ET DE DOCTRINE.

(REVUE DE L'HISTOIRE DES RELIGIONS, VOL. CXLV,

1954, PP. 169 — 187. CXLVI, 1954; PP. 76 - 89, 194 - 219. CXLVII,
1955; PP. 50 - 61).

99 — GABRIELI (FRANCESCO),

THE ARABIC HISTORIOGRAPHY OF THE CRUSADES.

(HISTORIANS OF THE MIDDLE EAST, ED. BY :B. LEWIS AND P.
M. HJOLT, 1962; PP. 96 — 107).

100 — ———: CHONIQUES ARABES DES CROIS ADES. TEXTES
RECUEILLES, TRADUIT DE L'ITALIEN, PAR V. PAQUES, (PARIS,

LES CROISADES.

(COLLECTION QUE SAIS — JE, N.º 157, PRESSES UNIVERSITAIRES, PARIS).

116 — ———: L'EPOPEE DES CROISADES.

(PARIS, 1939:385P.).

117 — ———: HISTOIRE DES CROISADES ET DU ROYAUME FRANCO DE JERUSALEM.

(3 VOLS., PARIS, 1934 — 1936).

نقد وتعريف به ، في :

GIBB(H.A.R.), IN: BULLETIN OF THE SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES, VOL. VIII, LONDON 1935: PP. 243 — 249)

118 — GRUMEL (V.).

AU SEUIL DE LA II^e CROISADE: DEUX LETTRES DE MANUEL COMNENE AU POPE

(ETUDES BYZANTINES, VOL. 3, 1945; PP. 143 — 167).

119 — GUGBELMO ARCIUESCOUL DI TIRO,

HISTORIA DELLA GUERA SACRA DI GIERUSALEMME, TRADOTTA IN LINGUA ITALIANA DE M. GIOSEPPE HOROLOGGI.

(VENETIA, VALGRISI, 1620: 702P.)

120 — GUILLAUME DE TYR. HISTORIA REBUM IN PARTIBUS TRANSMARINIS GESTARUM.

وهو حوليات كبيرة للحروب الصليبية منذ قيامها سنة ١٠٩٥ الى عام ١١٨٤م . كتبها وليم الصوري ، وتقع مخطوطاتها في ثلاثة وعشرين جزءاً صغيراً ، آخرها ناقص . بدأ وليم في تدوين هذا التأليف عام ١١٦٩ - ١١٧٠م ، وانتهى عام ١١٧٣م ، ومنه اربع نسخ خطية في المكتبة الوطنية بباريس ، أرقامها : ٢٩٧٠ ، ٨٣١٥ ، ٨٤٠٤ ، ٨٣١٤ .

نُشرت هذه الحوليات أولاً في المجلد الأول من « مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية » بباريس (١٨٤٤ - ١٨٧٩م) . يولن باريز ، الحوليات كلها في جزئين طبعاً في باريس سنة ١٨٧٩ ، بعنوان .

GUILLAUME DE TYR ET DES CONTINUATUR.

(MEDIEVALIA ET HUMANISTICA, VOL. V, 1948, PP.3 —

23).

108 — GOERGENS (E.P.),

ARABISCH QUELLEBETRAGE ZUR GESCHICHTE DER KREUZZUGE, UBER SETST. I: ZUR GESCHICHTE SALAH AD — DIN'S.

(BERLIN, 1879, NEUDRUCK; 1975: 23 — 285P.),

109 — GOETZ (H.),

DER ORIEN DER KREUZZUGE IN WOLFRAM'S RAZIVAL

(ARCHIV FUR KULTURGESCHICHTE, VOL. XLIX, 1987; PP. 1—42).

110 — GOTTEIN (S.D.),

CONTEMPORARY LETTERS ON THE CAPTURE OF JERUSALEM BY THE CRUSADERS.

(JOURNAL OF JEWISH STUDIES, VOL. III, 1952; PP. 162 — 177).

111 — ———, TYRE—TRIPOLI—ARQA GENIZA DOCUMENTS FROM THE BEGINNING OF THE CRUSADES PERIOD.

(JEWISH QUARTERLY REVIEW, VOL. LXVI, 1976; PP.5 — 88).

112 — GOTTSCHALK (H.L.),

DIE FRIEDESANGEBOTE AL — KAMILS VON EGYPTEN AN DIE KREUZFARER.

(WIENER ZEITSCHRIFT FUR DIE KUNDE DES MORGENLANDES, VOL. LI, 1948 — 1952; PP. 64 — 82).

113 — GRAOIS (ANYEH),

LA CITE DE BANIYAS ET LE CHATEAU SUBEIBEH PENDANT LES CROISADES.

(CAHIERS DE CIVILISATION MEDIEVALE, XII, 1970; I; PP. 43 — 82).

114 — GREGOIRE (H.),

THE QUESTION OF THE DIVERSION OF THE FOURTH CRUSADE, OR, AN OLD CONTROVERSY SOLVED BY A LATIN ADVERB,

(BYZANTION, VOL. XV, 1940—1941, PP.158—166).

115 — GROUSSET (RENE),

VOSTOKOVEDOV, 1960, VOL. I, 1962; PP. 487 — 493).

129 — IGLESIAS (A.A.).

NOTAS SOBRE EL IDEAL DE CRUZADA EN DON ENRIQUE (EAVEGANTA).

(CPNG. INT. HIST. DESCOBRIMENTOS.) ACTAS TV, 1961; PP. 257 — 274).

130 — IORGA (N.).

DEUX OUVRAGES SUR LES CROISADES.

(REV. HIST. DU SUD — EST — EUROPEEN, VOL. XVIII, 1941; PP. 26 — 30).

131 — ———: HISTOIRE DES CROISADES.

(PARIS, 1924).

132 — ———: LE ROUMAINS ET L'IDEE DE LA CROISADE AU COMMENCEMENT DU XVII^e SIECLE.

(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN, VOL. XVI, 1939; P. 114).

133 — ISSAWI (C.).

CRUSADES AND CURRENT CRISIS IN THE NEAR EAST. (INTERNATIONAL AFFAIRS, VOL. XXXIII, 1957, PP. 269 — 279).

134 — JOHN (E.).

A NOTE ON THE PRELIMINARIES OF THE FOURTH CRUSADE.

(BYZANTION, VOL. XXIII, 1958, PP. 95 — 103).

135 — JOHNS (C.N.).

PALESTINE OF THE CRUSADES.

يُراجع في شأنه :

GIBB (H.A.R.), IN: JOURNAL OF THE ROYAL ASIATIC SOCIETY, 1939; P. 273.

136 — KENNAH (E.).

INNOCENT III AND THE FIRST POLITICAL CRUSADE: A COMMENT OF THE LIMITATIONS OF PAPAL POWER.

(TRADITIO, XXVII, 1971; PP. 231 — 249).

121 — HAAS (A.).

ASPEKTE DER KREUZZUGE IN GESCHICHTE UND GEISTESLEBEN DES MITTELALTERLICHE DEUTSCHLANDES. (ARCHIV FUR KULTURGESCHICHTE, VOL. XLVI, 1964; PP. 185 — 202).

122 — HABSCHI (DR. HASAN).

A FIFTEENTH CENTURY CRUSADE ATTEMPTW AGAINST EGYPT. (1958).

123 — HATEM (A.).

LES POEMS EPIQUES DES CROISADES.

(PARIS, 1932).

124 — HEEREN (A.H.L.).

ESSAI SUR L'INFLUENCE DES CROISADES.

(PARIS, 1808; XXII, 518P.).

125 — HITTI (PHILIP K.).

AN ARAB SYRIAN GENTLEMAN AND WARRIOR IN THE PERIOD OF THE CRUSADES. (NEW YORK, 1929).

وهو ترجمة انكليزية لكتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ . راجع مادة : « الاعتبار » في المصادر العربية من هذا البحث ، (الرقم ٢١) .
ارجع نقداً تعريفاً به :

GIBB (H. A. R.), IN: BULLETIN OF THE SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES, LONDON. VOL. VI, 1932; PP. 1003 — 1011).

126 — ———: THE IMPACT OF THE CRUSADE ON EASTERN CHRISTIANITY.

(MEDIEVAL AND MIDDLE EASTERN STUDIES...

A. S. ATIYA, 1972; PP. 211 — 217).

127 — HOLBACH (MAUDE M.).

IN THE FOOTSTEPS OF RICHARD COEUR DE LION. (LONDON, 1912; XII — 357P. 31 PLS., 2 MAPS).

128 — HUSSEIN (MOHAMMED H.).

THE IMPERIALISTIC ELEMENTS OF THE CRUSADES

(TRUDUIZZV, ZEZHOUNARODNOGO KNOG.

(POUNT, IX, 1971; PP. 31 — 45).

144 — LAMB (HAROLD),

THE CRUSADES: IRON MEN AND SAINTS.

(LONDON, 1933; 2 VOLS., NEW YLORK, 1942).

145 — LA MONTE (J.R.),

CRUSADE AND JIHAD.

(IN: ARAB HERITAGE, ED. BY: NbiH AMIN FARIS. PRINCE-
TON, N. J., 1944 PP. 159 — 198).

146 — ———, THE RISE AND DECLINE OF A FRANKISH SEIG-
NEURY IN SYRIA IN THE TIME OF THE CRUSADES.

(REV. HIST. DE SUD — EST EUROPEEN, VOL. XV, 1938: PP.
301 — 320).

147 — LA MONTE (J.R.),

SOME PROBLEMS IN CRUSADING HISTORIOGRIOGRAPHY.

(SPECULUM, VOL. XV, 1940; PP. 57 — 75).

148 — LAURENT (V.),

LA CROISADE ET LA QUESTION D'ORIENT SOUS LE PONTIFI-
CAT DE GREGOIRE X (1272 — 1279).

(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN, VOL. XXII, 1945; PP.
105 — 137).

149 — ———: L'LOEE DU GUERRE SAINTE ET LA TRADITION
BYZANTINE.

(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN), VOL. XXIII, 1946; PP.
71 — 98).

150 — LEFEVRE (R.),

LA CROCIATA DE 1270 A TUNISI NELLA DOCUMENTAZIONE
DELL' ARCHIVIO DI STORIA DI NAPOLI,

(AFRICA (ROME), XXVII, 1972; PP. 439 — 462).

151 — LEMEN (A.),

L'ORIGINE DE L'IDEE DE LA CROISADE.

(HESPERIS), VOL. XXIV, 1937; PP. 205 — 215).

152 — LEMERLE (P.),

BYZANCE ET LA CROISADE.

137 — KERR (ANTHONY J.C.),

THE CRUSADES.

(LONDON, 1760. RERINTED 1966).

138 — KETTLER (P. VON),

DIE GESTALTUNG DE, GEOGRAPHISCHE WELTBILDES UNTER
DE EINFLUSS DEM KREUZZUGE.

(MITTEILUNGEN DES INSTITUTS FUR OSTERREICHISCHE
GESCHICHTSFORSCHUNG, VOL. LXX, 1962; PP. 294 — 322).

139 — KRAEMER (JOERG),

DER STURZ DES KOENIGERICHES JERUSALEM (583 — 1187) IN
DER DARSTELLUNG DES IMAD ADDIN AL — KATIB AL — ISFA-
HANI.

(WIESBADEN, 1952; 71P., 1 MAP).

يتناول سقوط مملكة الصليبيين في القدس ، عام
٥٨٣هـ = ١١٨٧م ، نقلاً عن عماد الدين الكاتب
الإصبهاني .

140 — KREY (A.C.),

BIBLIOGRAPHY OF A. C. MUNRO'S WRITINGS ON THE
CRUSADES.

(AN APPENDX IN : THE KINGDOM OF THE CRUSADES
BY D. C. MUNRO. NEW YORK, 1935; P; 205 FF.).

141 — KREY (A.C.),

THE FIRST CRUSADE.

(RINCETON, 1958).

142 — LABIB (SUBHI),

DIE KREUZZUGBEWEGUNG AUS ARABISCH — ISLA-
MISCHER SICHT. INTERACTION ODER CHALLENGE.

(MEDIEVAL AND MIDDLE EASTERN STUDIES... A.S.
ATIYA, 1972; PP. 240 — 267).

143 — LABROUSSE (H.),

RENAUD DE CHATILLON, HEROS DE LEGENE ET LA
CONQUETE DE LA MER ROUGE PAR LES CROISES
(1183).

161 — MARY (H.E.).

THE CRUSADES.

TRANSLATED BY JOHN GILLINGHEM.

(OXFORD, 1972).

162 — MASTERMAIN (E.W.G.).

A CRUSADER'S FORTRESS IN PALESTINE.

(PALESTINE EXPLORATION FUND: QUARTERLY STATEMENT.

1928; PP. 91 — 96).

163 — MAYER (HANS EBERHARD).

BIBLIOGRAPHIE ZUR GESCHICHTE DER KREUZZUGE,

MUNICH, 1960. HANNOVER, 1965; 304P.).

164 — ———, URSACHEN UND WIRKUNGEN DER KREUZZUGE,

(ISLAM UND ABENDLAND: GESCHICHTE UND GEGEWART.)

HERAUSGEGEBEN VON ANDRE MERCIER. (BERN UND FRANK-

FURT/M, 1976; PP. 87 — 110).

165 — MICHAUD (JOSEPH FRANCOIS).

BIBLIOGRAPHIE DES CROISADES.

(4 VOLS., PARIS, 1929. REIMPRESSION, 1978; 2062P.).

166 — ———: HISTOIRE DES CROISADES.

(5 VOLS., PARIS, 1817 — 1822).

167 — ———: MICHAUD'S HISTORY OF THE CRUSADES,

TRANSLATED FROM THE FRENCH BY W.ROBSON. (3 VOLS.,

LONDON, 1852).

168 — MILLS (CHARLES),

THE HISTORY OF THE CRUSADES FOR THE RECOVERY AND
POSSESSION OF THE HOLY LAND.

(2 VOLS., LONDON, 1820).

169 — MOHRING (H.).

SALADIN UND DER DRITTE KREUZZUG. AIYUBISCHE
STRATEGIE UND DIPLOMATIE IM VERGLEICH VORNEHMLICH

DER ARABISCHEN MIT DEN LATINISCHEN QUELLEN.

(WIESBADEN, 1987; 261P.).

(REL. X. CONG. INT. SCI. STOR. 1955, VOL. III, PP. 595 — 620).

153 — LERMOT (BARON),

SOUS LES TOMARISQUES OU LE GENIE DES CROISADES.

(BALE, KRUSI, 186 P.).

154 — LIEBESCHUTZ (H.).

THE CRUSADING MOVEMENT IN ITS BEARING ON THE CHRIST-
IAN ATTITUDE TOWARDS JEWRY.

(JOURNAL OF JEWISH STUDIES, VOL.X, 1959, PP. 97 — 111).

155 — LORGA (N.).

BREVE HISTOIRE DES CROISADES ET DE LEURS FONDATIONS
EN TERRE SAINTE.

(PARIS, 1924; XIX — 194P.).

156 — ———: QUELQUES CONSERVATIONS SUR LES RAP-
PORTS ENTRE LE MONDE ORIENTAL ET LES CROISES.

(MELANGE F. LOT. 1925; PP.259 — 274).

157 — MAILLY,

L'ESPRIT DES CROISADES.

(PARIS, 1780).

158 — MAIMBOURG,

THE HISTORY OF THE CRUSADE; OR, THE EXPEDITIONS OF
THE CHRISTIAN PRINCES FOR THE CONQUEST OF THE HOLY
LAND, WRITTEN ORIGINALLY IN FRENCH BY THE FAMED MON-
SIEUR MAIMBOURG, ENGLISH BY JOHN NALSON.

(LONDON, 1685; 410P.).

159 — MARINESCO (C.).

PHILIPPE LE BON, DUC DE BORGOGNE, ET LA CROISADE.

(ACTES VI CONG. ET. BYZ.) I, 1950; PP. 147 — 168).

160 — MARTIN (J.),

LE SAINT — SIEGE ET LA QUESTION D'ORIENT AU SEIZIEME
SIECLE — PROJETS DE CROISADE SOUS LE REGNE DE LEON
X .

(REVUE D'HISTOIRE DIPLOMATIQUES, VOL. XXX, 1916: PP.
35 — 36).

- (NEW YORK, 1928).
- 180 — PALL (F.).
LES CROISADE EN ORIENT AU BAS MOYEN AGE. OBSERVATIONS CRITIQUES SUR L'OUVRAGE DE M. ATIYA.
(REV. HIST. DU SUD — EST EUROPEEN, VOL. XIX, 1942: PP. 527 — 583).
- 181 — (PAULIN),
LES HISTORIENS DES CROISADES.
(PARIS, 1858; P. 23P.)
- 182 — PEARSON (J.D.).
CRUSADES
(INDEX ISLAMICUS: 1906 — 1955. LONDON, 1972, PP. 512 — 514).
FIRST SUPPLEMENT: 1956 — 1965, PP. 154 — 155.
SECOND SUPPLEMENT : 1961 — 1956, P. 159.
THIRD SUPPLEMENT, 1966 — 1970: PP. 207 — 208).
- 183 — PERMOND (R.
IN THE STEPS OF THE CRUSADERS.
(TRANSLATED FROM FRENCH. HASTINGS, 1960).
- 184 — PETIT (MGR.),
LA VILLE DE TULPA AU TEMPS DES CROISADES.
(COMPTES RENDUS DES SEANCES: ACADEMIE DES INSCRIPTIONS ET BELLE — LETTRES, 1922, PP. 189 — 193).
- 185 — PONTIERI (E.).
I NORMANNI DELL' — ITALIA MERIDIONALE E LA PRIMA CROCIATA.
(ARCHIVIO STORICO ITALIAN, VOL. CXIV, 1955; PP. 547 — 563)
- 186 — PORGES (W.).
THE CLERGY, THE POOR AND THE NON — COMBATANTS ON THE FIRST CRUSADE.
(SPECULUM, VOL. XXVI, 1946; PP. 1 — 23).
- 170 — MOLLAT (M.),
LE PASSAGE DE SAINT LOUIS A TUNIS. SA PLACE DANS L'HISTOIRE DES CROISADES.
(REVUE D'HISTOIRE ECONOMIQUE ET SOCIALE, L, 1972; PP. 289 — 303).
- 171 — ———: PROBLEMES NAVALS DE L'HISTOIRE DES CROISADES.
(CAHIRES DE CIVILISATION MEDIEVALE, VOL .X, 1967; PP. 345 — 359).
- 172 — MUNRO (D.C.).
A CRUSADER.
(SPECULUM, VOL. VII, 1932; PP. 321 — 335).
- 173 — ———, THE KINGDOM OF THE CRUSADERS.
(NEW YORK, 1935).
- 174 — ———, THE POPE AND THE CRUSADES.
(PROCEEDINGS OF THE AMERICAN PHILOSOPHICAL SOCIETY, VOL.. LV, 1916; PP. 348 — 356).
- 175 — ———, THE WESTERN ATTITUDE TOWARDS ISLAM DURING THE PERIOD OF THE CRUSADERS.
(SPECULUM, VOL. VT, 1931; PP. 329 — 343).
- 176 — NEWHALL (RICHARD A.),
THE CRUSADES.
(NEW YORK, 1927; X — 114P.).
- 177 — NICHOLON (R. L.),
JOSCELYN III. AND THE FALL OF THE CRUSADER STATES, 1134 — 1199.
(LEIDEN, 1973; 240P.).
- 178 — OLDENBORN (Z.),
THE CRUSADES.
TRANSLATED B: F.A. CARTER.
(NEW YORK, 1965).
- 179 — PAETOW (I.J.),
THE CRUSADES AND OTHER HISTORICAL ESSAYS.

196 — RUEDA URETA (A. DE).
HISTORIA DE LAS CRUZADAS. (ARCHIVOS DEL INSTITUTO DE
ESTUDIOS AFRICANOS. VOL. XIX, NOM. 74, 1965: PP. 54 — 70).

197 — RUNCIMAN (STEVEN).
THE BYZANTINE PROVINCIAL PEOPLES AND THE CRUSADE.
(REC. X. CONG. INT. STOR. 1955. VOL. III, PP. 621 — 624).

198 — ———, THE CRUSADES OF 1101.
(JHB. OSTERREICH. BIZANT. GES., VOL. I, 1951: PP. 1 — 12).

199 — ———, THE DECLINE OF THE CRUSADING IDEA (REC.
X. CON. INT. SCI. STOR., 1955. VOL. III, PP. 652).

200 — ———, THE FIRST CRUSADE.
(CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, CAMBRIDGE, 1980: 240P.).

201 — ———, THE FIRST CRUSADER'S JOURNEY ACROSS
THE BALKAN PENINSULA.
(BYZANTION. VOL. XIX, 1949: PP. 207 — 221).

202 — ———, GESCHICHTE DER KREUZZUGE UBERSEXT
VON P. DE MENDELSSOHN.
(MUNCHEN, 1975: 1340P.).

203 — ———, HISTORY OF THE CRUSADE.
(3 VOLS., CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, 1951 — 1954).
CRE -ISSUE, CAMBRIDGE 1968 — 1975. VOL. I: XIV — 278P.,
VOL. II: XXII — 524P., VOL. III: XII — 530P.).

204 — ———, THE LEGACY OF THE CRUSADES.
(JOURNAL OF THE PAKISTAN HISTORICAL SOCIETY, XIII, 1965:
PP. 293 — 305).

205 — SALMON (F. J.).
A MAP OF PALESTINE OF THE CRUSADES
(PALESTINE EXPLORATION QUARTERLY 1939: PP. 144 —
151).

206 — SANCHEZ CANDEIRA (A.).
LAS CRUZADES E LA HISTORIOGRAPHIA ESPANOLO DE LA EPO-
CA.
TRADUCCION CASTELLANA DE UNA REACCION DESCONOCI-

187 — PRUTZ,
KULTURGESCHICHTE DER KREUZZUGE.
(BERLIN, 1883).

188 — QUELLER (D. E.), COMPTON (T. K.), CAMPBELL (D. A.), THE
FOURTH CRUSADE THE NEGLECTED MINORITY.
(SPECULUM, VOL. XLIX, 1974: PP. 441 — 463).

198 — RADI (IBTIHAJ OMAR).
ARABIMPACT ON THE WEST THROUGH THE CRUSADES
(IRAQ TODAY, VOL. V, NO III, APRIL 16 — 30, 1980: PP. 20 — 23 ,
25).

190 — RASHID,
NOTE SUR LA PRISON DE LOUIS IX A MANSOURAH.
(BULLETIN DE L'INSTITUT EGYPTIEN, 2 EME SERIE: NO 7,
ANNEE 1886: PP. 78 — 89).

191 — REINAUD (J. T.),
EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES RELATIFS AUX GUERRES
DES CROISADES.
(PARIS, 1829: XL VIII — 582 P.).

192 — RIAANT (PAUL),
INVENTAIRE CRITIQUE DES LETTRES HISTORIQUES DES
CROISADES.
(ARCHIVES DE L'ORIENT, VOL. I, PARIS, 1881, PP. 1 — 224)

193 — RISTELHUEBER (P.).
LA CROISES AU LIBAN.
(REVUE D'HISTOIRE DIPLOMATIQUE, VOL XXXI — XXXI, 1917:
PP. 97 — 124).

194 — ROUSSET (P.).
L'IDEE DE CROISADE CHEZ LES CHRONIQUEURS D'OCCIDENT.
(REC. X. CONG. INT. SCI. STOR. 1955. VOL. III, PP. 547 — 563).

195 — ROY (E.).
LES POEMES FRANCAIS RELATIFS A LA PREMIERE CROISADE:
POEME DE 1256 ET SES SOURCES.
(ROMANIA, VOL XXXV, 1929: PP. 411 — 468).

CRUSADES. (ASIAN AND AFRICAN STUDIES, VIII, 1972: PP. 109 — 149).

215 — SMALL (R.).

THE CRUSADERS IN SYRIA AND THE HOLY LAND. (LONDON, 1973; 232).

216 ——— : CRUSADING WAR ARE, 1097 — 1193. (CAMBRIDGE, 1956).

217 — SPULER (B.).

THE ARAB EXPANSION AND THE CRUSADES.

(JOURNAL OF THE PAKISTAN HISTORICAL SOCIETY, VOL. XI, 1963; PP. 1 — 14).

218 — STERNFELD (R.).

ABIRRUNGEN UND ABLENKUNGEN DER KREUZZUGE.

(HISTORISCHE ZEITSCHRIFT, VOL. CVI, 1917; PP. 295 — 324).

219 — STEVENSON (W.R.).

THE CRUSADERS IN THE EAST.

(CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, 1907; XI — 387P. — 1 MAP).

220 — SUMBERG (L.A.M.).

THE TARTARS AND THE FIRST CRUSADE.

(MEDIÆVAL STUDIES, VOL. XXI, 1959; PP. 204 — 246).

221 — TOUBERT (P.).

LES DEVIATIONS ET LA CROISADE AU MILIEU DU XIII^e SIÈCLE: ALEXANDRE IV CONTRE MANFRED.

(MOYAN AGE, VOL. LXIX, 4 SER, 18, 1963; PP. 39 — 399).

222 — TREECE (HENRY), THE CRUSADES. (NEW YORK, 1962).

223 — TSCHWIDI (R.).

VON ISLAM ZUR ZEIT DER KREUZZUGE.

(ASIA MAJOR, VOL. IX, 1933; PP. 441 — 454).

224 — USAMAB. MUNQID, EIN LEBEN IM KAMPF GEGEN KREUZ-
RITTERHEERE. AUS DEM ARABISCHEN ÜBERTRAGEN UND
BEARBEITET VON G. POTTER.

(TUBINGEN, 1978; 260P.).

DA DE LOS ANALES DE TIERRA SANTA. (HISPANIA), VOL. XX, 1960, PP. 325 — 367).

207 — SANDOLI (S. DE).

CORPLUS INSCRIPTIONEN CRUCESIGG NATORUM TERRAE
SANCTAE (1099 — 1121).

(JERUSALEM, 1974; 414P.).

208 — SANUTO (MARINO).

LIBER SECRETORUM FIDELIUM CRUCIS SUPER TERRAE
SANCTAE RECUPERATIONE ET CONSERVATIONE.

(PUBLISHED IN BOUGARS GESTA DEI PER FRANCO. HANOV-
ER, 1611. REPRINT WITH A FOREWARD BY: J. PRAWER, 1972,
331P.).

209 — SCHAEDE (H.H.).

DAS ZEITALTER DES KALIFATS UND DER KREUZZUGE.

(FORSCHUNGEN UND FORTSCHRITTE, VOL. XIII, 1937; PP.
110 — 111).

210 — SCHLUMBERGER (GUSTAVE).

BIZANCE ET CROISSADES.

(PARIS, 1927).

211 — SCHWINGS (R. CH.).

KREUZZUGS IDEOLOGIE UND TOLERANZ IM DENKEN
WILHELMS VON TYRUS.

(SAECULUM, XXV, 1974; PP. 367 — 385).

212 — SETTON (KENNETH M.), AND BALDWIN (W.).

A HISTORY OF THE CRUSADES.

(2 VOLS., UNIVERSITY OF PENNSYLVANIA PRESS, PHILADEL-
PHIA, 1955 — 1958. 2ND ED. 1969; 788P.).

213 — SIVAN (EMANUEL).

L'ISLAM ET LA CROISADE. IDEOLOGIE ET PROPAGANDE DANS
LES REACTIONS MUSULMANES AUX CROISSADES.

(PARIS, 1968; 222P.).

214 — ——— : MODERN ARAB HISTORIOGRAPHY OF THE

UND GEISTE — GESCH. . VOL. XXX, 1966, PP. 71 — 88).

233 — WEST (ANTHONY),

THE CRUSADES.

(NEW YORK, 1954).

234 — WHITE (LYNN),

THE CRUSADES AND THE TECHNOLOGICAL THRUUST OF THE WEST.

(IN: PARRY ° YAPP : WAR, TECHNOLOGY AND SOCIETY IN THE MIDDLE EAST, OXFORD, 1975; PP. 97 — 12).

235 — WOLF (R.L.), AND HAZARD (H.W.),

THE LATER CRUSADES, 1189 — 1311.

(2 NED., 1969; 894P.).

236 — YOUSSEF (JOSEPH NSSIM),

THE CRUSADE OF LOUIS IX ON SYRIA.

(BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS, ALEXANDRIA VOL. XVII, 1963; PP. 57 — 69).

مباحث غفل من اسماء كاتبها

237 — THE CRUSADES AN OTHER HISTORICAL ESSAYS, PRESENTED TO D. C. MUNRO.

(1928, REPR. 1968

238 — GESTA FRANCORUM

(ED. ET TRAD PAR BREHIER).

وهي الحروب الفرنجية عن الحرب الصليبية الاولى .

239 — RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES:

HISTORIENS OCCIDENTAUX

(4 VOLS., PARIS).

240 — RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES:

HISTORIENS ORIENTAUX.

(5 VOLS., PARIS, 1872 — 1884)

وراجع مادة : « مكتبة الحروب الصليبية في المصادر العربية من بحثنا هذا الرقم ١٥٦ .

225 — VILLE — HARDOUIN,

LA CONQUETE DE CONSTANTINOPLE.

وهي مذكرات فيل هاردوان عن الحرب الصليبية الرابعة . وقد نقلها الى الفرنسية الحديثة : المسيوبوشيه . راجع : محمد عبدالله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ط ٢ : القاهرة ؛ ص ١٤٨ .

226 — VILLE — HARDOUIN,

MEMOIRS OF THE CRUSADES.

وهي مذكرات فيل هاردوان عن الحرب الصليبية الرابعة . وقد نقلها الى الانكليزية : السر مارزبالس . (راجع : محمد عبد الله عنان . مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ط ٢ : القاهرة ١٩٦٩ ؛ ص ١٤٨) .

227 — VILLEY (M.),

L'IDEE DE LA CROISADE CHEZ LES JURISTES DU MOYEN — AGE.

(REC. X CONG. INT. SCI. STOR. 1955. VOL. III, PP. 565 — 594) .

228 — VON SYBEL.

GESCHICHTE DES ERSTEN KREUZZUGE,

229 — ———: HISTORY AND LITERATURE OF THE CRUSADES.

(EO. LADY DUFF GORDON).

230 — WAAS (A.),

RELIGION, POLITIK UND KULTUR IN DER GESCHICHTE DER KREUZZUGE.

(WELT ALS GESCHICHTE, VOL. XI, 1951; PP. 225 — 248).

231 — WEITZMANN (K.),

THIRTEENTH CENTURY CRUSADER ICONS ON MOUNT SIANAI.

(ART BULLETIN, VOL. XLV, 1963; PP. 179 — 203).

232 — WENZLAFF — EGGERBERT (F.W.),

KREUZZUGSIDE UND MITTELALTERLISCHES WELTBILD.

KREUZZUGSIDE UND MITTELALTERLISCHES WELTBILD.

(DEUTSCHE VIERTELJARSSCHRIFT FUR LITTERATURWIS.



المحتوى

غزو الفرنجة .. والتحديات التاريخية المعاصرة !

٤ - ٢ رئيس التحرير

البحوث والدراسات

١ - الحروب الصليبية دوافعها وبواعثها الممهدة

١٥ - ٥ د . صالح العابد

٢ - معركة حطين - دراسة تاريخية عسكرية

٢٧ - ١٦ عبد الجبار السامرائي

٣ - جيش صلاح الدين

٦٨ - ٣٨ د . محسن محمد حسين

٤ - الفكر العسكري للقائد صلاح الدين الايوبي

٨٤ - ٦٩ د . دريد عبد القادر نوري

٥ - صلاح الدين الايوبي والتحديات ..

٩١ - ٨٥ د . فاروق عمر فوزي

٦ - عماد الدين زنكي وسياسة الجهاد تجاه الصليبيين

١٠٨ - ٩٢ د . مرتضى حسن النقيب

٧ - جهاد صلاح الدين الايوبي: التاريخ والشعر

١٢٦ - ١٠٩ د . ناظم رشيد

٨ - شعر الجهاد في معارك صلاح الدين الايوبي

١٥١ - ١٢٧ د . نوري القيسي

٩ - الحرم الشريف في ظل الغزو الفرنجي

١٦٥ - ١٥٢ د . عبد العزيز حميد صالح

١٠ - التراث المعماري العربي وأثره في العمارة الاوربية من خلال الحروب الصليبية

١٧٣ - ١٦٦ د . صلاح حسين العبيدي

١١ - اضواء على التحالف الصليبي المغولي ضد العراق والمشرق العربي

١٩١ - ١٧٤ د . سوادى عبد محمد

١٢ - الحملة الصليبية الثامنة على تونس

٢٠١ - ١٩٢ د . احمد الطويلي

النصوص المحققة

١٣ - رسالتان لصلاح الدين الايوبي ..

٢٣١ - ٢٠٢ تحقيق د . احمد الحسرو د . عبد الواحد الرمضانى

الفهارس والجغرافيات

١٤ - مصادر دراسة الحروب الصليبية

٢٦٣ - ٢٣٢ كوركيس عواد

● سعر المجلة

العراق	٧٥٠ فلس
الأردن	٧٥٠ فلس
مصر	٧٥٠ مليم
السودان	٧٥٠ مليم
المغرب	١٠ دراهم
تونس	١ دينار تونس
السعودية	١٠ ريال
الإمارات	١٠ دراهم
الكويت	٧٥٠ فلس
البحرين	١ دينار بحريني
قطر	١٠ ريال
اليونان	١٠٠ دراخما
انجلترا	٢ جنيه استرليني

الاشتراكات

داخل العراق	٥ دنانير
في الوطن العربي	٤٠ دولارا
في الدول الاوروبية	٤٥ دولارا
في امريكا والاتحاد السوفياتي	٥٥ دولارا

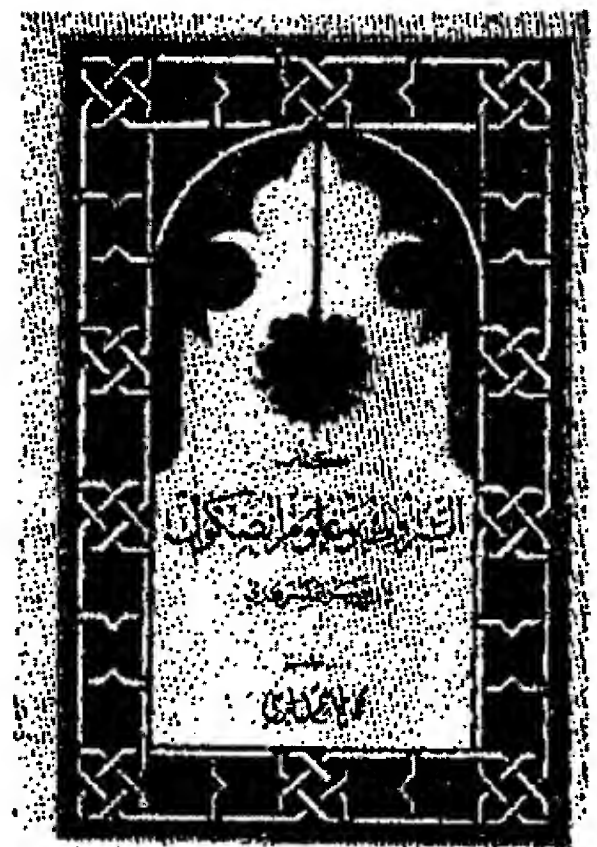
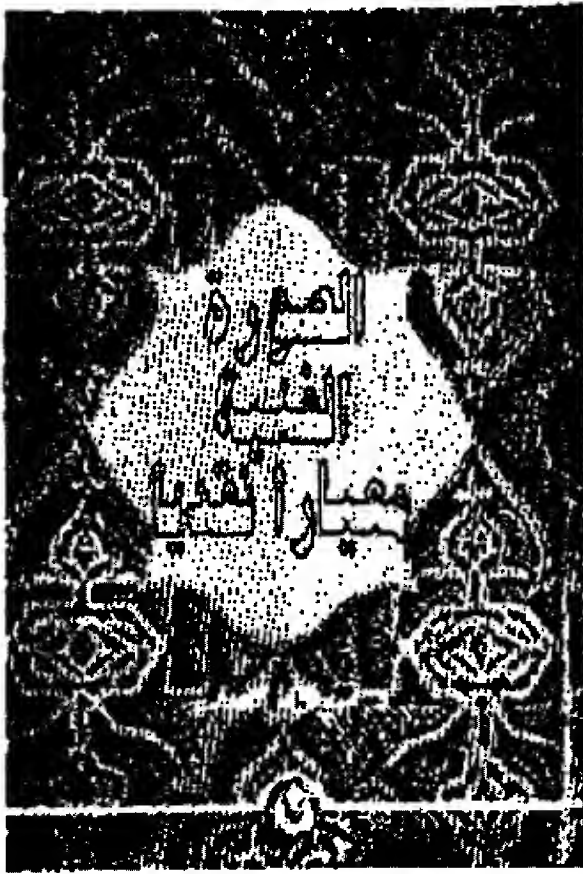
رقم الايداع في المكتبة الوطنية - بغداد
(١٠٠) لسنة ١٩٨٧

دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد

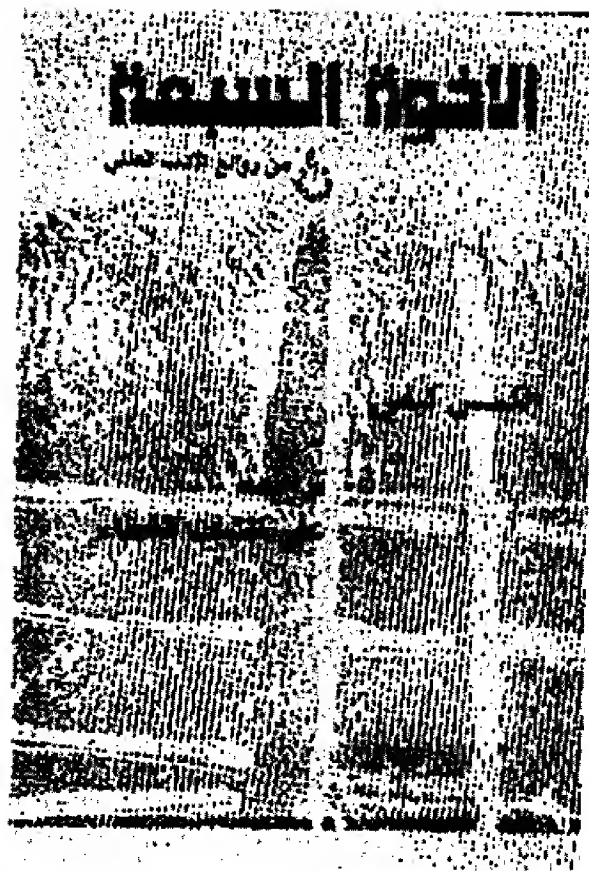
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

صدر عن

دار الشؤون الثقافية العامة :

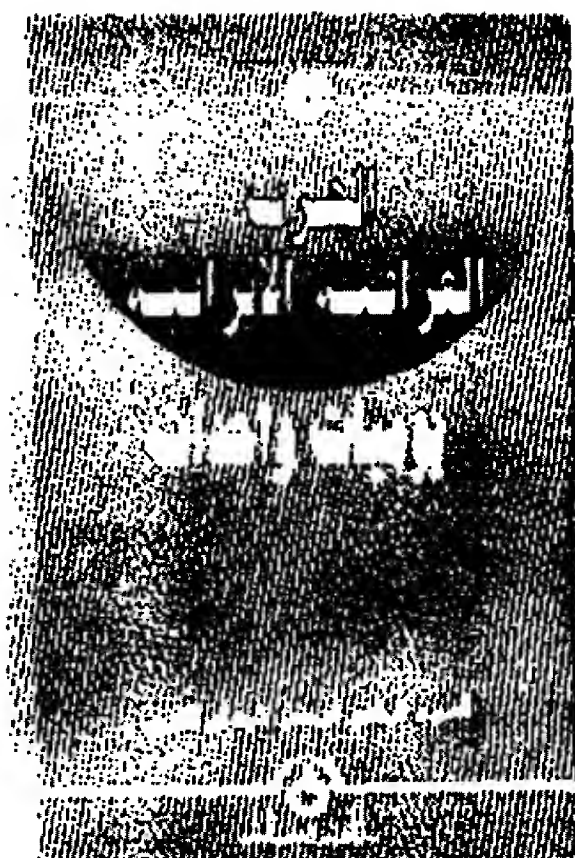


صدر عن
دار الشؤون الثقافية العامة :



٠٤٥٢ أصدر عن

دار الشؤون الثقافية العامة :



WWW.ATTAWHEEL.COM

AL MAWRID

A QUARTERLY JOURNAL OF CULTURE
AND HERITAGE

ISSUED BY THE MINISTRY OF CULTURE AND INFORMATION

WWW.ATTAWHEEL.COM

السفر ٧٥٠ فلساً

٦٠٠ مليد في جمهورية مصر العربية

١٠٠ درهم في المغرب

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية

أسبوعيات

الغلاف رياض عبد الكريم